

مجلة كلية العلوم الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعية - محكمة تصدر سنوياً

العدد العادي عشر

1423 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 1994 ميلادية

المؤسسة العلمية الإسلامية العالمية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَخِذُوا عِدْوِي
وَعِدْوِيكُمْ أُولِيَاءَ
تَلْقَوْنَ لَهُم بِالْمَوَدَّةِ

المتحنة
الآية 1

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ



مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثنائية - جامعية - محكمة تصدر سنوياً

العدد الحادي عشر

1423 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 1994 ميلادية

تصدر عن كلية الدعوة الإسلامية
الجامعية العربية الليبية الشريعة الإسلامية الخطمي طرابلس

المجلد الحادي عشر - العدد الحادي عشر - السنة الحادية عشر - 1423 هـ - 1994 م



إِنَّ الْمَعْرَكَةَ مَعَ الْإِسْتِعْمَارِ
مَعْرَكَةُ صَلِيبِيَّةٍ مَا زَالَتْ مُسْتَمِرَّةً
مِنَ الْعُصُورِ الْوُسْطَى وَحَتَّى الْآنَ

السَّائِرُ الْمَسْلُومُ مَعَهُ الْقِذَافِي



العدد الحادي عشر
1423 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 1994 ميلادية

هيئة التحرير



الأستاذ : المختار أحمد ديرة
الدكتور : يوسف أحمد الثلب
الأستاذ : محمد فتح الله الزبدي
الأستاذ : عبد الحميد عبد الله الهامة
الأستاذ : الصديق عمر يعقوب
الدكتور : مسعود عبد الله الوازني

الهيئة الاستشارية



الدكتور : محمد أحمد الشريف
الدكتور : عبد الرحمن عطية
الدكتور : أمين توفيق الطيني
الدكتور : محمد ياسين غريبي
الدكتور : عبد الحكيم الأربد
الدكتور : إبراهيم عبد الله رفيدة
الأستاذ : الطيب التماس
الأستاذ : السائح جسين

المراسلات: الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى - طرابلس
كلية الدعوة الإسلامية - ص.ب. 71771 هاتف: 800045
تمن النسخة: دينار ليبي واحد أو ما يعادله

الْمَقَالَاتُ وَالذِّرَاسَاتُ الْوَارِدَةُ فِي الْمَجَلَّةِ
تُعَدُّ عَنْ آرَاءِ أَصْحَابِهَا وَالْمَجَلَّةُ تُرَجِّبُ
بِمُنَاقَشَةِ تِلْكَ الْآرَاءِ وَإِثْرَائِهَا.

المحتويات

7	* الإفتاحية
9	الصحابه والقراءة بالمعنى الدكتور علي النوري
	من الإعجاز القرآني
24	أصحاب الكهف والبعد الزمني الدكتور مجيد عبد الحميد ناجي
44	القيمة التاريخية والعلمية لتفسير ابن سلام الأستاذ سعيد سالم الفاندي
62	النفس والعقل في القرآن الكريم الدكتور محمد بن عمران
74	رأي حول البشارات بالرسول (ﷺ) الأستاذ السائح علي حسين
94	الروايات الأربع المتداولة للقرآن الكريم الأستاذ صالح عطية الحطمانى
125	الموضوع الدكتور فاتح زقلام
134	وثيقة إسلامية نادرة الدكتور شوقي أبو خليل
146	مسؤولية الطبيب في الفقه الإسلامي الدكتور عبد السلام الشريف
162	الغرب والإسلام الدكتورة سائلة عبد الجبار
176	أضواء على الكتاب القديم الأستاذ علي الصادق حسنين

* مراجعة الكتب

189	الغارة على العالم الإسلامي الدكتور الصيد أبو ديب
224	أدب الطبيب إسحاق بن علي الرهاوي الدكتور عبد الكريم أبو شويرب
	عصر ازدهار الطب في الأندلس
235	ابن جلجل القرطبي الدكتور فاضل السباعي
265	الوجود العربي في شرق أفريقيا الدكتور أمين الطيبي

289	المستشرقون وعقيدة المعري	الدكتور الطاهر القراضي
305	مفهوم المبالغة في المعاني القرآنية	شلتاغ عبود
322	دراسات في وحشيات أبي تمام	الدكتور محمد عثمان علي
344	مصادر الدراسة اللغوية عند العرب	الدكتور صبحي التميمي
367	حول ظاهرة النحت في اللغة العربية	الأستاذ عبد الله الأسطى
391	الفصيح وشروحه	الدكتور عبد الكريم عوني
430	آفة المخدرات وخطرها على المجتمع الإسلامي	الدكتور محمد جمعة سالم
489	الرعاية الاجتماعية في الإسلام	الدكتور عمر التومي الشيباني
569	من أساليب التربية الإسلامية للأطفال	الأستاذ عبد السلام الجعندلي

* نصوص مترجمة

على هامش ندوة:

591	عن الهويات الإسلامية في أفريقيا	الدكتور محمود علي التائب
622	جوزيف شاخت (1902 - 1969)	الصديق بشير نصر
630	يوسف شاخت (حياته وآثاره)	عبد الكريم الأريد
645	أصول الفقه المحمدي في كتابات الغريين	الصديق بشير نصر
694	نقد قاعدة شاخت	الصديق بشير نصر

* المعارف الإسلامية

707	من محتويات مكتبة الكلية «كتب نادرة باللغة الإيطالية»
730	أضواء حول احتفال المجلة بانتهاء عقدها الأول
743	من إبداعات الطلاب
755	

* رسائل جامعية

759	الدراسات العليا بكلية الدعوة الإسلامية	محمد أولاد الزمينة
765	نعمي الدكتور أحمد الفتيش	

بسم الله الرحمن الرحيم



التحرير

عقد من عمر هذه المجلة مضى بكل ما حمل من أعمال علمية وأدبية نعتقد أنها هادفة وبناءة، وعقد من الزمان مر من عمرنا ونحن نخوض غمار هذه التجربة العلمية التي حاولنا أن نعطيها ما نملك من إمكانيات قاصدين وجه الله تعالى، وخدمة العلم والعلماء، وإتاحة الفرصة أمام المفكرين والباحثين من أبناء أمتنا العربية والإسلامية، للعمل بإخلاص في حقل من أهم حقول الدراسات الإنسانية وهو حقل الدراسات الإسلامية.

عقد من الزمان مضى بكل ما فيه من أخطاء وهفوات، استطعنا من خلاله أن نكتسب ثقة واحترام الكثير من باحثينا وعلمائنا، الذين عبروا عن ذلك بمساهماتهم المتكررة في تحرير هذه المجلة من معظم أقطار وطننا الكبير.

وبعد انقضاء هذا العقد بكل ما سجله للمجلة أو عليها كان لا بد من

وقفة، وكان لا بد من نظرة لعمل الماضي، لننتقل إلى المستقبل بأفاق أرحب وأرضية أكثر صلابة. ولذا دعونا الكثير من العلماء والباحثين من جامعات عربية وإسلامية لنحتفل معاً بالعيد العاشر للمجلة. ولم يكن احتفالاً تقليدياً كما قد يتصور البعض ولكنه كان احتفالاً تقويمياً شارك فيه العلماء بأبحاثهم القيمة التي تضمنت آراءهم واقتراحاتهم حول أعداد المجلة العشر، وكانت أسرة التحرير على موعد مع تصورات جديدة وآراء نيرة وثناء عميق سيشهد العقد الجديد من عمر المجلة - إن شاء الله تعالى - آثاره بما سيقع في صفحات المجلة ومنهجها من تغيرات، نعتقد أنها إلى الأفضل بإذنه تعالى.

وابتداء لهذا العقد القادم من عمر هذه المطبوعة نجد أنفسنا عاجزين عن تقديم الثناء المناسب لأولئك العلماء والباحثين الذين تجشموا عناء السفر، رغم الحصار الظالم، وشاركونا في احتفالاتنا بحضورهم وآرائهم وتصوراتهم، ونشكر لكل أولئك الباحثين والعلماء والمفكرين من جامعاتنا في الداخل والخارج الذين أولوا هذه المجلة عنايتهم ورعايتهم واهتمامهم، سواء من ساهموا بالكتابة فيها ومن شرفونا بالمشاركة في احتفالاتنا بالعيد العاشر.

والله نسأل أن يحقق آمالنا وطموحاتنا في أن تتسع صفحات هذه المجلة لكل المساهمين فيها، وأن يمكننا من إيصالها إلى كل الذين يطلبونها في جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية في داخل الجماهيرية وخارجها...

التحرير...

الصَّحَابَةُ وَالْقِرَاءَةُ بِالْمَعْنَى

الدكتور علي النوري
جامعة سبها

نسبت بعض المصادر إلى كل من أبي الدرداء (32 هـ)⁽¹⁾، وابن مسعود (32 هـ)⁽²⁾ وابن عباس (68 هـ)⁽³⁾ رضي الله عنهم - نصاً بعينه استدلل به على أنهم يجيزون القراءة بالمعنى دون نقل.

هذا النص يتعلّق بتلقين رجل قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾⁽⁴⁾.

(1) انظر تفسير الطبري (حلبى) 78/25، إعراب النحاس 134/4، نكت الانتصار: 325 (وفيه: «ابن أبي الدرداء» وقد مر على المحقق هكذا، فبحث في ترجمة هذا الصحابي الجليل، أبي الدرداء، فوجدت أن له ولداً يدعى: بلالاً، أخذ القراءة عن والده، ولكنه لم يشتهر بالإقراء، ولم يترجم له في كتب طبقات القراء، بحيث يبعد أن تكون هذه الحادثة التالية وقعت مع الابن وانظر الكشف 506/3، تفسير القرطبي 149/16.

(2) انظر تفسير الرازي 252/27، تفسير القرطبي 149/16، البرهان 1/222.

(3) انظر محاضرات الأدباء 434/4.

(4) الدخان: 43 - 44.

ولكن تعذر عليه النطق بالسليم بلفظة «الأيتم» للكثرة فيه، فكان كلما روجع لا يقولها إلا «اليتيم»⁽⁵⁾ أو «الليتيم»⁽⁶⁾ ولم أجد الأخيرة في غير تفسير الإمام الرازي (606 هـ).

مما يجعلني أرى أنها مصحفة عن الأولى (اليتيم) إذ لم يذكرها أحد غيره من المتقدمين عنه، ولا من المتأخرين.

ولما أعيى هذا الرجل بخطه معلمه، أحد هؤلاء الصحابة الثلاثة - رضي الله عنهم - الذين نسبت لهم الحادثة قال له ضجراً منه، ويأساً من صوابه، وتقريباً لمعنى اللفظة بما يرادفها: «قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر»⁽⁷⁾. والنظر في نسبة هذه الحادثة إلى الصحابة الثلاثة - رضي الله عنهم - يفضي إلى ملاحظة ما يلي: -

أ - أن حدوثها معهم جميعاً أمر محتمل، على جهة تكرارها مع كل واحد منهم منفرداً، واتفاقهم كلهم في استبدال لفظة «الفاجر» بلفظة «الأيتم» على سبيل التفسير وتقريب المعنى، سواء كان ذلك من باب توارد الخواطر، أو من باب اقتداء اللاحق منهم بالسابق.

ولكن إذا صح هذا الاحتمال مع أبي الدرداء وابن مسعود كليهما، لأنهما متعاصران، وتزيان، وتصدر كلاهما للإقراء في جهته في زمن واحد تقريباً⁽⁸⁾، وتوفيا في سنة واحدة (32 هـ)، فإنه لا يكاد يصح مع ابن عباس لصغره، وتلقيه حروفاً عن ابن مسعود نفسه⁽⁹⁾.

وإذا اتفقت الحادثة في نص التعليم (الدخان: 43 - 44) مع ثلاثتهم فإن

(5) انظر تفسير الطبري (حلي) 78/25، نكت الانتصار 325، تفسير القرطبي 149/16، البرهان 222/1.

(6) انظر تفسير الرازي 252/27، كذا.

(7) انظر تفسير الطبري (حلي) 78/25، إعراب النحاس 134/4، نكت الانتصار 325، الكشف 506/3، معاصرات الأدباء 434/4، تفسير الرازي 252/27، تفسير القرطبي 149/16، البرهان 222/1.

(8) أبو الدرداء في الشام، وابن مسعود في الكوفة.

(9) انظر طبقات القراء 426/1.

احتمال أن يكون الملقن رجلاً واحداً بعينه معهم جميعاً أمر يكاد يكون مستبعداً جداً.

ب - أنها (الحادثة) يمكن أن تكون حدثت فعلاً مع واحد منهم، ولكنها نسبت خطأ إلى الآخرين، وهو احتمال قوي يكاد يرجح بالاحتمال السابق.

وإذا علم - مع ما تقدم الآن - أن أحداً لم ينسب هذه الحادثة إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - غير الراغب الأصفهاني (502 هـ) في كتابه «محاضرات الأدباء» - كما مر - إذ يحتمل أن يكون الراغب وإهماً في ذلك، استبعدت نسبة هذه الحادثة إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو ما أميل إليه.

ج - أنه إذا اتهم ابن مسعود - رضي الله عنه - كما اتهم أصحابه، بتجوير القراءة بالمعنى من غير نقل، في بعض المصادر - كما سيأتي - بناء على هذه الحادثة، إن صحت نسبتها إليه، أو بناء على سواها، فإنني لم أجد هذه الحادثة معزوة إليه عند غير الرازي (606 هـ) والقرطبي (631 هـ) والزرکشي (794 هـ) - كما مضى آنفاً - وكلهم متأخرون.

ولم أتبين إلى الآن ما مصدرهم في ذلك ممن تقدمهم، اللهم إلا ما جاء في «البرهان» من أنها رواية ابن وهب (197 هـ) عن مالك بن أنس (179 هـ) - رحمه الله - وأنه استفتاه عن القراءة بذلك فقال: «نعم، أرى أن ذلك واسعاً».

وقد وجه ابن عبد البر (463 هـ) هذه الفتيا إلى جواز القراءة بذلك في غير الصلاة، لأن مالكا لا يرى الصلاة وراء من يقرأ بحرف ابن مسعود، وغيره من الصحابة، مما يخالف المصحف. (10)

ومفاده أن هذا الحرف («الفاجر» «بدل» «الأنيم») في هذا الموضع من سورة الدخان، قراءة شاذة تنسب لعبد الله بن مسعود، وليست على المعنى من غير نقل، وشتان ما بين الأمرين.

ولكن على الرغم من ذلك، يظل في النفس من نسبة هذه الحادثة إلى

(10) انظر البرهاني 222/1.

ابن مسعود شيء، فهي وإن احتملت نسبتها إلى الرجلين جميعاً - كما أسلفت - إلا أن الأرجح نسبتها - كما في جل المصادر - إلى أبي الدرداء - رضي الله عنه .

بل إن تفسير «الأيثم» بـ «الفاجر» في هذا الموضع لم يعز في الغالب إلا إليه استناداً إلى هذه الحادثة .⁽¹¹⁾

ومن ذكر التفسير ولم ينسبه إلى أبي الدرداء، فإنما استفاد من هذه الحادثة، وأسقط روايتها دواءً لتوهم أن تكون قراءة، أو أن تكون نصاً في تجويز القراءة بالمعنى من غير إسناد⁽¹²⁾ كما فهمه بعضهم⁽¹³⁾ - على ما سيأتي .

بل إن أبا حيان الأندلسي (745 هـ) أسقط روايتها، وأعرض عن تفسير «الأيثم» بـ «الفاجر» أصلاً، حتى لا يستدعيه ذلك إلى ذكرها أو الإشارة إليها، وفسره بـ «المشرك»⁽¹⁴⁾ وهذا غاية في التحفظ ودور الشبهات .

فالذين رووا هذه الحادثة أو أشاروا إليها ينقسمون إلى أصناف :

منهم من رواها شاهداً على تفسير «الأيثم» بـ «الفاجر» كابن جرير الطبري⁽¹⁵⁾ (310 هـ) دون أدنى إشارة إلى أن ذلك وجه مقروء أو أن فيها دليلاً على تجويز القراءة بالمعنى .

ومنهم من روى عبارة «طعام الفاجر» «مكان» «طعام الأيثم» منسوبة إلى صاحبها، ليدل على أن ذلك ليس وجهاً مقروءاً، وإنما هو من قبيل التفسير، كابن جعفر النحاس (338 هـ) حيث قال : وعن أبي الدرداء قال : طعام الفاجر «وهذا تفسير، وليس بقراءة لأنه مخالف للمصحف»⁽¹⁶⁾ .

(11) انظر تفسير الطبري (حلي) 78/25، إعراب النحاس 134/4، نكت الانتصار 325، الكشف 506/3، تفسير القرطبي 149/16.

(12) انظر مثلاً معاني الفراء 43/3.

(13) انظر الكشف 506/3.

(14) انظر البحر 39/8.

(15) انظر تفسير الطبري (حلي) 78/25.

(16) إعراب النحاس 134/4.

والواقع أن في رد أبي جعفر - رحمه الله - بعض نظر. فإذا اتضح معنى التفسير في هذا الوجه، فليس ذلك بكاف لنفي القراءة به - إن ثبت هذا الحرف، بإزاء قراءة شاذة، وليس من شرط القراءة الشاذة أن توافق رسم المصحف العثماني.

أجل، قد يكون أبو جعفر عني بذلك أنها ليست قراءة الجمهور، أو أنها ليست قراءة صحيحة لأن السواد لا يحتملها، ولكن ليس في ذلك أيضاً ما يبيح له أن ينفي عن هذا الوجه صفة القراءة مطلقاً وكتابه مليء بالشواذ. وإذا، فتجريد هذا الوجه من صفة القراءة عموماً بسبب مخالفة المصحف العثماني أمر لا يكاد يستقيم ما لم ينهض لذلك دليل غير المخالفة المذكورة.

- ومنهم من روى هذه الحادثة ليستدل بها على أمرين معاً:

على تفسير «الأثيم» بالفاجر الكثير الآثام.

وعلى أن إبدال كلمة مكان كلمة أخرى جائز في القراءة إذا أدت معناها.

وقد جاء بهذا الاستدلال الثاني - فيما تبين - جار الله الزمخشري (538 هـ) (17).

والواقع أن هذا الصحابي حين قال للرجل الذي لا يقدر أن ينطق بلفظة الأثيم، وهو يعلمه، قل «طعام الفاجر» فإنه إنما ضجر منه فقال له ذلك، وهو لا يعتقد أنه يجيز له القراءة فذلك على وجه البيان، أخبره أنه طعام الفاجر ليظهر له أنه الأثيم، فكأنه يقول: اعقل ما يقال لك، إنما هو الفاجر الأثيم، ليس اليتيم، وإن كانت اللغة لا تؤدي إلى «اليتيم» موضع «الأثيم» (18).

وليس استدلال الزمخشري هذا بشيء عند جل العلماء (19) وهو في غاية الضعف، على ما هو معلوم في أصول الفقه (20).

(17) انظر الكشف 3/ 506.

(18) نكت الانتصار: 325.

(19) انظر محاضرات الأدباء 4/ 34.

(20) انظر تفسير الرازي 27/ 252.

ولا حجة في هذه الحادثة للجهال من أهل الزين أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره لأن ذلك إنما كان . . . تقريباً للمتعمّل وتوطئة منه للرجوع إلى الصواب، واستعمال الحق، والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله ﷺ. (21)

وانبنى على هذا النحو من الاستدلال أيضاً ما نسب إلى الإمام أبي حنيفة (150 هـ) - رحمه الله - من تجويز القراءة بالفارسية على شريطة أن يؤدي القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئاً.

وقيل: إن هذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة.

وعلى أية حال فقد صح عن أبي حنيفة الرجوع عن ذلك (22).

وبعد، فما المانع أن تكون هذه الحادثة قد وقعت في زمن العمل برخصة القراءة على أي من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن بادئ الأمر عليها، تيسيراً على الأمة، أي قبل أن يجمع الخليفة عثمان بن عفان (35 هـ) - رضي الله عنه - الناس على مصحف واحد وحرف واحد (23).

وأن يكون هذا الحرف «الفاجر» «بدل» «الأيتم» في هذا الموضع مما جاءت به الرخصة خصوصاً، وقد تمثلت في الرجل الملقن الأسباب الداعية إلى العمل بها، أعني اللكنة والعجز عن النطق السليم. وهو أمر محتمل جداً، ولعله يكون الاحتمال الوحيد الذي ينبغي أن توجه عليه هذه الحادثة - إن صحت - دون أن نغرب في الاستدلال بها على أن من الصحابة - رضي الله عنهم - من يجيز القراءة بالمعنى - كما فعل الزمخشري - وهم من هذه التهمة براء.

(21) تفسير القرطبي 16/149.

(22) انظر نكت الانتصار 337 وما بعدها، الكشف 3/506 القواعد والإشارات في أصول القراءات للحموي: 28 الريهان 1/465.

(23) في هذه المسألة رأيان: أحدهما هذا، وعليه الطبري (310 هـ) والطحاوي (321 هـ) وابن عبد البر (463 هـ) والآخر: أن المصاحف العثمانية حوت من الأحرف السبعة ما احتمله الرسم ووافق العرضة الأخيرة، وعليه أبو الفضل الرازي (454 هـ) وأبو مثانة (665 هـ) وابن الجزري (833 هـ) وهذا الثاني أوفق عندي، والله أعلم.

وكيف لقاتل أن يقول ذلك «مع العلم بما كانوا عليه من المثابرة على نقل القرآن على ما سمعوا، وشدة تحاميهم في ذلك وكثرة الروايات فيه... فأنت ترى تحفظهم على النصب والرفع على سهولته، فكيف تبديل الكلمة بما هو بمعناها»⁽²⁴⁾؟

وإذا كان الصحابة كذلك، فمن بعدهم لحسن التلقي عن رسول الله ﷺ وصدق الرواية، وأمانة النقل، وورع الأداء؟

ومن بعدهم لحفظ ألفاظ الكلام العزيز كما أنزلت، وهم أعلم الناس بغرض التعبد بها بأعيانها لا بما يقوم بمعانيها؟ فمن يزعم إذاً أن من الصحابة - رضي الله عنهم - من كان يجيز القراءة على المعنى دون اللفظ من غير نقل فزعمه باطل، واستدلالة داحض، وحجته واهية، والمتقول بذلك كاذب لا محالة.⁽²⁵⁾

ومنهم من روى هذه الحادثة ليدفع الاستدلال بها - كما مضى آنفاً - على ما نسب إلى بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - من تجويز القراءة بالمعنى دون رواية، وما نسب إلى بعض الفقهاء من تجويز القراءة بلفظ أخرى غير العربية كالفارسية ونحوها، ومن هؤلاء صاحب نكت الانتصار⁽²⁶⁾ والراغب الأصفهاني (502 هـ)⁽²⁷⁾ والإمام فخر الدين الرازي (606 هـ)⁽²⁸⁾ والقرطبي (631 هـ)⁽²⁹⁾.

ولا يفوتني في هذا الصدد أن ألاحظ أمرين مهمين:

- أحدهما أن صاحب «النكت» مال إلى التشكيك في صحة هذه الحادثة

(24) نكت الانتصار: 328 - 329.

(25) انظر القواعد والإشارات 27 - 28 النشر 32/1.

(26) انظر نكت الانتصار: 325 - 327 وقد نسبها المحقق د. محمد زغلول سلام للباقلاني (403 هـ) والصواب أن كتابه هو الانتصار لنقل القرآن «والنكت» مختصر له، من عمل الشيخ أبي عبد الله الصيرفي (وانظر نكت الانتصار نفسه: 50 - 51).

(27) انظر محاضرات الأدباء 4/ 434.

(28) انظر تفسير الرازي 27/ 252.

(29) انظر تفسير الطبري 16/ 149.

أصلاً، حيث قال: . . . والأخرى أن يكون هذا الحديث لا يصح»⁽³⁰⁾

والآخر أن أحداً لم يرو هذا الحرف («الفاجر» «بدل» «الأنيم») في هذا الموضوع، على أنه قراءة صحيحة، منسوبة إلى أبي الدرداء، وابن مسعود جميعاً، دون أدنى تحفظ غير القرطبي.⁽³¹⁾

تري، هل تعتمد بذلك أن يرد على أبي جعفر النحاس الذي نفى أن يكون هذا الوجه قراءة - كما تقدم - والذي يكثر القرطبي من النقل عنه ناسباً أو غير ناسب؟.

أما ابن جني (392 هـ) رحمه الله - فقد جاء في «محتسبه» بثلاث روايات عن الصحابي الجليل: أنس بن مالك (91 هـ) - رضي الله عنه - ثنتين سن طريق الأعمش (148 هـ)، وواحدة من طريق أبان بن تغلب الربيعي (141 هـ).

وكلهن يحتملن ما نحن بصده على ما سيأتي تفصيله:

أورد أبو الفتح قراءة أنس - رضي الله عنه - التي رواها الأعمش حيث قال: سمعت أنساً يقرأ «تَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمُزُونَ»⁽³²⁾ قيل له وما يجمزون؟ إنما هي «يجمحون» فقال: يجمحون، ويجمزون ويشتلون واحد⁽³³⁾.

قال أبو الفتح: ظاهر هذا أن السلف كانوا يقرؤون الحرف مكان نظيره من غير أن تتقدم القراءة بذلك، لكنه لموافقته صاحبه في المعنى، وهذا موضع يجد الطاعن به إذا كان هكذا على القراءة مطعناً، فيقول: ليست هذه الحروف كلها عن النبي ﷺ ولو كانت عنه لما ساغ إبدال لفظ مكان لفظ إذ لم يثبت التخيير في ذلك عنه ولما أنكر أيضاً عليه «يجمزون».⁽³⁴⁾

ولو سكت أبو الفتح عند هذا الحد، لكان كلامه في غاية الخطورة أن يتهم الصحابة بارتجال القراءة، على ما يجوز في العربية من غير تلق عن

(30) نكتة الانتصار 325.

(31) انظر تفسير القرطبي 149/16.

(32) التوبة 57، وانظر هذه القراءة أيضاً في البحر 5/55.

(33) انظر مختصر الشواذ: 175.

(34) المحصب 296/1.

رسول الله ﷺ وبذلك يلف الشك كثيراً من الأوجه التي جاءتنا على هذا النحو من الترادف.

ولكنها المقدرة على الجدل، والمهارة في الإقناع، واللباقة في الذود عن الأصحاب - رضوان الله عليهم، كل ذلك جعل ابن جني - رحمه الله - ييسط القضية أولاً بلسان المعترض المغرض ثم يعود بعد ذلك ليدفع الاتهام ويدحض الاعتراض، إذ قال: إلا أن حسن الظن بأنس يدعو إلى اعتقاد تقدم القراءة بهذه الأحرف الثلاثة التي هي: «يجمحوون، يجمزون، ويشتدون» فيقول: اقرأ بأبها شئت، فجميعها قراءة مسموعة عن النبي ﷺ لقوله عليه السلام «نزل القرآن بسبعة أحرف كلها شاف، كاف».

فإن قيل: لو كانت هذه الأحرف مقروءاً بجميعها لكان النقل قد وصل إلينا، قيل: أولاً يكفيك أنس موصلاً لها إلينا؟ فإن قيل: إن أنساً لم يحكمها قراءة وإنما جمع بينها في المعنى، واعتل في جواز القراءة بذلك لا بأنه رواها قراءة متقدمة، قيل: قد سبق من ذكر حسن الظن ما هو جواب عن هذا⁽³⁵⁾.

فبرخصة القراءة على أي من الأحرف السبعة، وبحسن الظن دفع أبو الفتح عن هذا الصحابي - رضي الله عنه - توهم القراءة بما يسوغ في العربية من غير تلق عن النبي ﷺ.

ونعوذ بالله أن يركب سوء الظن للنيل من رجال اصطفاهم الله عز وجل، صحابة لرسوله وحمة لدينه.

ب - أورد ابن جني أيضاً رواية الأعمش عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قرأ: «وأقوم قيلاً»⁽³⁶⁾ و«أصوب قيلاً» ف قيل له: يا أبا حمزة: إنما هي «وأقوم قيلاً» فقال: أنس: إن «أقوم»، و«أصوب» و«أهياً» واحد.⁽³⁷⁾

(35) المحاسب 1/ 296.

(36) المزمل: 6.

(37) المحاسب 2/ 336، وانظر تفسير الطبري (شاذر) 1/ 52، نكت الانتصار 324 - 325 وفيه وإن كانت سائلة بالنون أيضاً إلا أن المصادر المتقدمة على صاحب النكت والمتأخرة عنه، لم تذكرها إلا بالياء، وانظر الكشاف 4/ 176، تفسير القرطبة 19/ 41.

وقد نسب الطبري⁽³⁸⁾ مثل هذا أيضاً إلى مجاهد (103 هـ)، وإن كان
أورد ما روى عن الرجلين شاهداً على تفسير «أقوم» «ب» «أصوب» وما في
معناها.

ونسبه الكرماني (ق 7 م) أيضاً إلى الصحابي أبي بن كعب⁽³⁹⁾ (35 هـ) -
رضي الله عنه -.

على حين ذكر أبو حيان الأندلسي (745 هـ) «أصوب» في قول مجاهد
وقتادة (117 هـ) على جهة التفسير⁽⁴⁰⁾ كالطبري. كأنه أنف أن ينقل ذلك قراءة،
على الرغم من اعتماده كثيراً على الكرماني، لأنه حرف احتمال التفسير في
رأيه، وما كان كذلك فلا يعد عنه قراءة.

ولم أجد أحداً قد ذكر القراءة بـ «أهياً» مكان «أقوم» صراحة، غير ما
يحتمله كلام ابن جني والكرماني من أنها قراءة أنس بن مالك وأبي بن كعب -
رضي الله عنهما⁽⁴¹⁾.

وليت أبا الفتح سكت هاهنا، واكتفى بعرض الرواية عن التعليق عليها
بما يكاد يوهم أنها قراءة مرتجلة دون إسناد.

وبذلك يوشك أن ينقض على نفسه ما كان احتج به لأنس - رضي الله
عنه - في الموضع السابق، من حسن الظن به، بما يدفع مثل ذلك التوهم عن
القارئ، وحرفه جميعاً.

ولكنه أبي إلا أن يقول:

«هذا يؤنس، بأن القوم كانوا يعتبرون المعاني، ويخلدون إليها، فإذا
حصلوها وحصنوها، سامحوا أنفسهم في العبارات عنها»⁽⁴²⁾ بالفاظ مختلفة في
المباني متفقة في أداء تلك المعاني.

(38) انظر تفسير الطبري (جلي) 83/29.

(39) انظر شواذ القراءة (من) 252.

(40) انظر البحر 363/8.

(41) انظر المحتسب 336/2، شواذ القراءة (من) 252.

(42) المحتسب 336/2.

وسامح الله أبا الفتح عن هذه العبارة، فإنها تصلح أن تكون أصلاً عاماً من أصول العربية على نحو ما ذكره في «الخصائص» وعقد له باباً سماه: «إيراد المعنى المراد بغير اللفظ المعتاد»⁽⁴³⁾ وهو حاصل جائز في كلام العرب شعراً ونثراً، أما في القرآن الكريم فلا.

وإذا كان من العرب من يتسامحون في التعبير عن المعنى الواحد بالفاظ مختلفة في كلامهم، فليس في ذلك دليل على أن نقلة القرآن هم أيضاً، يتسامحون في التعبير عن معانيه بالفاظ غير متلقة ولا مروية، ترادف ألفاظه.

وإذا كان القرآن الكريم يتعبد بلفظه ومعناه، فليس لأحد أن يستبدل بالفاظه ألفاظاً أخرى، وإن أدت المعنى المراد. والصحابة - رضي الله عنهم - أفقه لهذا وهم أخشى الله وأحرص على كتابه، وأورع من أن يتخيروا القراءة على ما يجوز في العربية دون تلق عن رسول الله ﷺ أو رواية.

وإنما حقهم علينا حسن الظن بهم بما لا يدع مجالاً لاستنفاصهم أو تثريبهم.

ج - ذكر ابن جني رواية أبان بن تغلب الربيعي⁽⁴⁴⁾ (141 هـ) أيضاً عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قرأ «وحططنا عنك وزرك»⁽⁴⁵⁾ قال: قلت يا أبا حمزة: «ووضعتنا» قال: وضعنا، وحللنا وحططنا عنك وزرك سواء، إن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: اقرأ علي سبعة أحرف، ما لم تخلط⁽⁴⁶⁾ منفرة بعذاب أو عذاباً بمغفرة⁽⁴⁷⁾.

(43) انظر الخصائص 2/ 466 - 469.

(44) وهذا قرأ على عاصم وأبي عمرو الشيباني وطلحة بن مصرف والأعمش، انظر طبقات القراء 1/ 4.

(45) مكان «ووضعتنا». الشرح 2.

(46) المراد بالخلط هنا أن يوضع اللفظ الدال على المغفرة في موضع اللفظ الدال على العذاب، والعكس.

(47) المحتسب 2/ 367، وانظر مختصر الشواذ 175، شواذ القراءة (مخ) 267 الكشف 4/ 266، تفسير القرطبي 20/ 105.

وقد جاءت القراءة بـ«وحللنا عنك وقرئك» عن عبد الله ابن مسعود (32 هـ) أيضاً⁽⁴⁸⁾.

وهنا يأوي أبو الفتح - رحمه الله - إلى ركن القضية، ليجد علة انتشار هذه القراءات الموهمة بأنها متخيرة بلا رواية حيث قال: قد سبقت مثل هذه الحكاية سواء عن أنس⁽⁴⁹⁾. وهذا ونحوه هو الذي سوغ انتشار هذه القراءات، ونسأل الله توفيقاً⁽⁵⁰⁾.

وإذا أمكن حمل عبارات ابن جني التي تقر - في ظاهرها - بارتجال القراءة دون نقل، على هذا الركن، وعلى حسن الظن، كان في ذلك وجه إعذار لأبي الفتح - رحمه الله تعالى -.

وعليه، فإذا تعددت الألفاظ المختلفة لتفيد معاني متفقة جازت القراءة بأي منها بشرط أن تتصل روايته برسول الله ﷺ.

ولكن يبدو لي أن هذا كان، في زمن الترخيص بالقراءة على الأحرف السبعة، أفشى منه فيما بعده.

غير أن من العلماء المتقدمين على أبي الفتح، أبا بكر الأنباري (328 هـ) منع أن يؤخذ برواية الأعمش (148 هـ) عن أنس (91 هـ) رضي الله عنه - من قبل أن الأعمش رأى أنساً ولم يسمع منه، فروايته عنه مقطوعة وليست متصلة.

وقد جاء حديث الأحرف السبعة في بعض رواياته وأوجهه عن الأعمش عن أنس⁽⁵¹⁾ وكذلك ما مضى الآن في هذا البحث من القراءة على سبيل الترادف.

وإذا لم تصح - كما رأيت - رواية الأعمش عن أنس - رضي الله عنه -

(48) انظر معاني الفراء 275/3، مختصر الشواذ: 175، وما بعده من المصادر الواردة في الحاشية السابقة (3).

(49) انظر المحتسب 296/1 و 336/2، وقد مضى النصان جميعاً في هذا البحث.

(50) المحتسب 367/2.

(51) انظر تفسير القرطبي 41/19 - 42.

فرواية أبان عنه أبعد من الصحة، لأن أبان هو نفسه قرأ عن الأعمش.
فكلاهما روايته عن أنس مقطوعة.

وهكذا يصير الكلام على قضية القراءة بالمعنى دون إسناد، بناء على
هذه الأوجه القليلة، عند الصحابة - رضوان الله عليهم - لا أساس له.

ولكن التساؤل هنا: كيف احتج ابن جني - رحمه الله - في «محتسبه»
لأوجه لا تصح روايتها أو يشك - على الأقل - في اتصال سندها؟

والجواب عن هذا: في غاية اليسر - إن شاء الله - ذلك أن التساؤل قد
حدد في أثنائه، القراءة الشاذة، وهي التي جاءها الشذوذ من قبل الرواية أو من
قبل العربية أو من قبل الرسم.

وإنما أسس أبو الفتح «محتسبه» على الاحتجاج لهذه الشواذ من جهة
العربية وإذا لم تثبت رواية فكيف يتم الاحتجاج بها من جهة العربية لا من جهة
النقل، يقال لابن جني أثبت العرش، ثم انقشه، لا من جهة النقل، وقد رأيت
قريباً كيف نقد أبو بكر الأنباري رواية الأعمش عن أنس وهو ما لم يفعله ابن
جني - رحمه الله - وإن اعتمد القراءة في «محتسبه» لأن ذلك لم يكن قصده،
ولكل فن أهله.

تهته بأهم المعاجر والمراجع

- القرآن الكريم (ترقيم الآيات على رواية حفص عن عاصم)
- البحر المحيط (تفسير أبي حيان).
- لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ط 2 - دار الفكر للطباعة والنشر
والتوزيع - بيروت - لبنان 1403 هـ، 1983.
- البرهان في علوم القرآن.
- للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي.
- تحقيق: محمود أبي الفضل إبراهيم.
- دار المعرفة - بيروت - لبنان 1391 - 1972 م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري).

- لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.
- تحقيق محمد محمد شاکر - دار المعارف بمصر 1957م.
- وكذلك ط 1 المطبعة الأميرية ببولاق مصر 1328 هـ.
- الجامع في أحكام القرآن (تفسير القرطبي)
- لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.
- تصحیح أحمد عبد العليم البردوني: 1372 هـ - 1952م.
- المحتسب في تبیین وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها.
- تأليف - أبي الفتح عثمان بن جني.
- تحقيق علي النجدي ناصف وزميلي.
- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة 1386 هـ.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء.
- لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني.
- دار صادر - بدون تاريخ.
- مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه.
- عني بنشره: ج برجستراسر - المطبعة الرحمانية بمصر 1934م.
- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني.
- تحقيق محمد علي النجار.
- ط 2. دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - بدون تاريخ.
- شواذ القراءة، أو شواذ القرآن واختلاف المصاحف (مخطوط) لرضي الدين، شمس القراء،
- أبي عبد الله عمود أبي نصر ابن عبد الله الكرمانی (ق 7 م).
- إعراب القرآن.
- لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس.
- تحقيق: د. زهير غازي زاهد.
- ط 2 عالم الكتب بيروت: 1405 هـ - 1985م.
- معاني القرآن للقراء.
- تحقيق أحمد يوسف نجاتي وزميلي.
- ط 2 - عالم الكتب - بيروت - لبنان بدون تاريخ.
- غاية النهاية في طبقات القراء.
- لابن الجزري.

- عني بنشره - ج برجشتراسر .
- ط 2 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - 1400 هـ - 1980 م .
- تفسير الرازي - المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي .
- ط 3 - دار الفكر - بيروت - لبنان - 1405 هـ - 1985 م .
- القواعد والإرشادات في أصول القراءات .
- للقاضي أحمد بن عمر الحموي .
- تحقيق: د. عبد الكريم بكار .
- ط 1 - دار القلم، دمشق - 1406 هـ - 1986 م .
- الكشف .
- للزحشري - دار المعرفة - بيروت - لبنان - بدون تاريخ
- تصحيح: محمد علي الضباع .
- دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - بدون تاريخ .
- نكت الانتصار لنقل القرآن .
- للإمام أبي بكر الباقلاني (كذا! وقد لوحظ التصويب في بعض حواشي البحث) .
- تحقيق: د. محمد زغلول سلام .
- منشأة المعارف - الإسكندرية - بدون تاريخ .

مِنَ الْإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ

أَصْحَابُ الْكَهْفِ وَالْبَعْدُ الزَّمَانِيِّ

الدكتور مجيد عبد الحميد ناجي
مُكَلِّمَةُ التَّهْلِيَّةِ - جَامِعَةُ النَّجَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه
وبعد: «أصحاب الكهف والبعْد الزماني».

توطئة:

لقد تعرضت سورة الكهف فيما تعرضت إليه، إلى الحديث عن أربعة
أحداث هي:

- 1 - قصة الفتية أصحاب الكهف وما جرى لهم.
- 2 - محاوراة الرجل المؤمن للرجل الذي جعل الله له جنتين من أعناب
محفوظتين بنخل فكفر بأنعم الله سبحانه.
- 3 - قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح.
- 4 - قصة ذي القرنين.

ونحن في هذا البحث نريد أن نقف متأملين فيما أورده النص القرآني عن الحدث الأول وهو قصة الفتية أصحاب الكهف الذي استغرق 18 ثماني عشرة آية ابتداء من الآية التاسعة حتى السادسة والعشرين من سورة الكهف.

ولما كانت هذه الآيات الثماني عشرة الكريمة قد تضمنت مضامين متعددة، شأنها في ذلك شأن باقي النصوص القرآنية الأخرى، التي تشكل بالتالي مظهراً من مظاهر الإعجاز القرآني، من حيث إن النص القرآني يمكن أن يقرأ قراءات متعددة وفي كل قراءة يفهم منه مضمون معين يختلف عما يفهم في القراءة الأخرى، وبشكل يوحى في كل قراءة كأن النص كان مسوقاً من أجله وحده.

ومن هنا فإننا في بحثنا هذا نحاول أن نركز الحديث على جانب واحد من الجوانب التي تضمنتها هذه الآيات الكريمة، تاركين الجوانب الأخرى لأحاديث أخرى، وهو الفتية أصحاب الكهف لكونهم آية من آيات الله سبحانه، منطلقين من قوله تعالى في الآية 9: ﴿لَمْ حَسِبْ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾. فهي صريحة في أنَّ الذي حدث لأصحاب الكهف والرقيم كان من آيات الله العجيبة.

ومن هذه الزاوية سوف نقرأ النص القرآني قراءة متأملة، لنعلم، أو نحاول أن نعلم كيف كان أصحاب الكهف والرقيم من آيات الله العجيبة وما هذه الآيات.

ولو عدنا إلى الآيات الثلاث 10، 11، 12 من السورة، لوجدناه سبحانه يشير إلى ظاهرتين عجيبتين، وآيتين من آياته سبحانه، مركزاً الانتباه عليهما، وملفتاً النظر إليهما، ليتأملهما الناس، ويستكشفوا منهما ما يهديهم الله تعالى إليه.

وهاتان الآيتان، وإن كان بينهما ارتباط من حيث التأثير في المسبب وحصول النتيجة، متميزتان من حيث الخصوصية العلمية التكوينية لكل منهما.

وأولى هاتين الآيتين، هي ما أشارت إليها الآية العاشرة التي يقول فيها

الحق سبحانه: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. إذ تختص بالإشارة إلى ما حصل للفتية في الكهف، وإلى طبيعة الرحمة التي آتاهم الله إياها استجابة لدعائهم، وإلى كيفية تحققها.

وثانيتها، ما أشارت إليها الآيتان 11، 12، اللتان يقول فيهما سبحانه: ﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أُنْذِرَ الْحَزْبِينَ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا﴾. فهاتان الآيتان إذن تحدثان عن آية أخرى من آياته التي حصلت لأهل الكهف، وهي الفترة الزمنية التي قضاها أصحاب الكهف في رقتهم الأولى من حيث طبيعتها وحقيقتها.

ويبدأ النص القرآني تفصيل الإشارة إلى هاتين الآيتين العجيبتين بقوله سبحانه في الآية 16: ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، فَآوُوا إِلَى الْكَهْفِ، يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا﴾.

فيعد أن هداهم الله سبحانه إلى القرار الصائب بالالتجاء إلى الكهف والإيواء إليه، أخذ على نفسه من باب اللطف بهم وهم عباد الصالحون، أن ينشر لهم في الكهف من رحمته، ويهيئ لهم فيه من أمرهم ما يعينهم وينفعهم.

والرحمة إذا نسبت إليه سبحانه فإنها تسع كل شيء، فما هذه الرحمة التي نشرها لهم؟ وما الأمر الذي هيأ فيه ليكون لهم عوناً ونقياً؟

إن أول ما يطالعنا من ذلك لدى متابعة النص وتأمّله، هو أنه سبحانه قد أنزل عليهم النعاس أمانة منه، فرقدوا رقتهم الطويلة تلك بحسب الموازين الأرضية بمشيئته.

ولما كان رقادهم غير عادي، إذ من غير الممكن بحسب الموازين الأرضية، والقوانين الكونية المعاشة، أن ينام إنسان تلك الفترة الطويلة وهي ثلاثة قرون، حتى ولا جزءاً يسيراً منها؛ لأن بقاء الجسد ملقى على الأرض طيلة هذه الفترة يستلزم تأكله وأن يدبّ العطب فيه، كما أنه - الجسد - يحتاج إلى طاقة تمكن أجهزته الداخلية من الاستمرار في أداء وظيفتها الضرورية لبقاء

26 _____مجلة كلية الدعوة الإسلامية (المجلد الحادي عشر)

الحياة، كالتنفس والدوران.

وإذا كان ذلك غير ممكن وفق الحسابات والموازن الأرضية والقوانين الكونية المعاشة المعروفة المكشوفة لنا، فإنه سبحانه أراد أن يلفت انتباهنا، إلى حقيقة إمكان تحقق ذلك وفق ظروف معينة، تحكمها قوانين كونية مجهولة لدينا، يدفعنا النص القرآني إلى استكشافها وتعريفها. من أجل ذلك وغير ذلك مما يعلمه الله سبحانه، أشار لنا إلى مفاتيح تلك الأسرار الكونية التي بتوافرها حافظ أهل الكهف بمشيئته سبحانه على حياتهم طيلة فترة رقادهم الطويلة تلك.

وتتضح الإشارة لهذه الظروف الخاصة في الأمور الآتية:

1 - وردت الإشارة إلى أنه سبحانه اختار لهم هذا الكهف اختياراً دقيقاً يناسب الآية العجيبة التي أراد أن يجريها فيهم، ومن ذلك أنه كان يسمح لدخول الشمس بهيئة خاصة عند شروقها، وكذلك عند غروبها. فبعد أن بين سبحانه في الآية 16 أنه هداهم إلى هذا الكهف من أجل أن ينشر لهم من رحمته ويهيئ لهم من أمرهم مرفقاً؛ شرع سبحانه بعدها مباشرة في بيان كيفية نشر رحمته عليهم وتهيئة المرفق لهم، بصفة يفهم منها ترتب المسبب على السبب والأثر على المؤثر، فقال سبحانه في الآية 17: ﴿وَتَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ﴾. ولو عدلنا إلى اللغة لوجدناها تقول: أَنَّ الزَّوْرَ بالتحريك يعني المِيل، وقولك: تَزَاوَرَّ عنه تَزَاوَرَّ بمعنى عدل عنه وانحرف. كما إنك تقول: قرض المكان يقرضه قرضاً، تريد عدل عنه وانحرف، وقرض في سيره: عدل يمئة ويسرة. حتى إن أبا عبيدة اللغوي الشهير فسر قوله تعالى: ﴿إِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ﴾، بأنها تخلفهم شمالاً وتجاوزهم وتقطعهم عن شمالها.

ونحن يجب أن نأخذ من الدلالات اللغوية ما يُعيننا على فهم الأسرار العميقة التي نفيدها من التأمل الدقيق للنص القرآني، المنسجم مع سياقه، ولا نكتفي بالوقوف عند المفاهيم الحسية السطحية لها.

فالسياق في النص القرآني جاء من أجل بيان أسرار هذه الآية العجيبة

التي حصلت لهم، وهي آية خارقة للنواميس الطبيعية المعهودة المألوفة لدينا، فلا بد إذن من أن تتضمن الإشارة إلى بعض أسرارها ولفت الانتباه إليها في الأقل، وأن تتحمل ألفاظها ما يدل عليها. وإن نحن جرّدناها فقط، فإننا بذلك لا نفهمها الفهم الذي يتعارض والسياق القرآني للنص وحسب، وإنما يكون تجريئنا إياها من تلك الدلالة، تجريداً لها من محتواها، ويكون مجيئها تطويلاً لا فائدة منه، وهذا مما يتنزّه عنه الكتاب العزيز. إذ ما القيمة من أن يذكر القرآن الكريم أنّ الشمس كانت تطلع عليهم من يمينهم وتغرب عنهم من شمالهم، وما فائدة ذكر ذلك، إن لم يكن المراد منه الإشارة ولفت الانتباه إلى حقيقة علمية وسر من أسرار آيات الله العجيبة التي أجراها لأهل الكهف؟ فكلنا يعرف أن الشروق والغروب متقابلان، فإن كان الشروق يميناً كان الغروب شمالاً، ثم إنه من الثابت أنك إن اتجهت بوجهك نحو الشمال (مقابل الجنوب لا الذي مقابل اليمين)، كان الشروق على يمينك والغرب على يسارك، حقيقة ثابتة معروفة لا تتغير ولا تتبدل. وعليه فإذا قصرنا المراد من النص القرآني على الإخبار المجرد عن جهة شروق الشمس بالنسبة للكهف وغروبها عنه، فإن ذلك يكون تطويلاً لا فائدة جدية منه، ولا معنى له في النص، وهذا مما يتنزّه عنه القرآن الكريم، فلا بد من حكمة وراء الإشارة إلى هذه الظاهرة!! حكمة جليلة القدر عظيمة الشأن استوجبت الإشارة إليها ولفت الانتباه لها فما هذه الحكمة؟ وأين نجدها؟ هذا ما لا نعرف تفصيله ودقائقه، وإنّ على العلماء المتخصصين في هذا الميدان، أن يستفيدوا من هذه الإشارة القرآنية الكريمة ويجروا أبحاثهم على ضوءها عسى الله أن يهديهم لاستكشاف ما ينفع الناس.

ومما يؤكد أن الآية الكريمة التي سبق ذكرها قد تضمنت إشارة علمية لبعض أسرار آياته الكونية العجيبة جلّت قدرته، ما جاء في تنمّة الآية الكريمة نفسها. فبعد أن أشار سبحانه إلى كيفية شروق الشمس على كهفهم وغروبها عنه، بقوله تعالى: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه﴾ عَقَّبَ عليها سبحانه مباشرة بقوله: ﴿ذلك من آيات الله﴾، وهذا يعني أنّ ازورار الشمس إذا طلعت

عن كهفهم ذات اليمين، وإقراضها، إتيانهم إذا غربت ذات الشمال، إنما هو من آيات الله الكونية العجيبة التي ينبغي لفت النظر إليها، وليس أمراً عادياً مما ألفتناه من الظواهر الكونية اليومية. فتوكيد النص القرآني أَنَّ ذلك من آيات الله تعالى لا يمكن أن ينصرف إلى جهة شروق الشمس وغروبها بالنسبة للكهف وأهله كما أشرنا فحسب، وإنما الذي ينصرف إليه النص القرآني - أو فهمنا له بتعبير أدق - هو توكيد أَنَّ هذه الحالة الخاصة لشروق الشمس وغروبها بالنسبة للكهف، إنما كانت لحكمة اقتضت ذلك، من أجل المحافظة على أجساد أهل الكهف، وأنَّ لها تأثيراً مباشراً وفاعلاً في ذلك، وهي من أجل هذا كانت آية من آيات الله المشيرة إلى عظمته وقدرته، وإلى بعض الأسرار الكونية التي أودعها كونه، وأراد سبحانه أن يلفت انتباهنا لها ويوجهنا إليها⁽¹⁾.

2 - ومن آثار نشر رحمته - سبحانه - عليهم، وتهيئة الظروف المناسبة لهم، هذا التقلب ذات اليمين وذات الشمال الوارد في الآية 18، وهي قوله تعالى: ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيَّاماً وَهُمْ رُقُودٌ، وَنَقْلَبُهُمْ ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملكت منهم رُعباً﴾، هذا التقلب إنما هو داخل في تفسير الرحمة التي نشرها الله

(1) حدثني أحد الأساتذة المتخصصين، أنَّ الشمس عند شروقها وغروبها، حينما تكون مصفرة، وتصل أشعتها إلى الأرض بزاوية حادة، لِأَنَّ هذه الأشعة تحتوي على نسبة أكبر من الأشعة فوق البنفسجية التي تحمل خاصية تعقيم ما تقع عليه، وتطهيره من الجراثيم والبكتيريا، وتسمى الأشعة المحافظة.

في حين إذا ارتفعت في كبد السماء. وقاربت الزوال، فسوف تكون نسبة الأشعة تحت الحمراء فيها أكبر، وهذه وظيفتها تسخين الجو، وليس فيها ما في الأشعة فوق البنفسجية من الخصائص.

وإذا تأملنا النص القرآني. وجدناه يؤكد على الشمس بالنسبة للكهف حال الشروق وحال الغروب، أي في حال احتوائها على الأشعة فوق البنفسجية بنسبة أكبر. وهذا يعني أَنَّ الكهف كان في وضع يسمح لدخول الشمس ووصولها إلى الفتحة الذين في داخله حينما تحمل أشعتها النسبة الأكبر من الأشعة فوق البنفسجية التي تعمل على التطهير.

ولعل هذا التفسير يوضح لنا جانباً من جوانب الأسرار الكونية التي تضمنتها الآية المباركة، في حين تبقى الأسرار الكونية الأخرى التي أشارت إليها الآية، تنتظر من المتخصصين، أن يستفيدوا منها ويقفوا عندها، ويجروا أبحاثهم على أساسها.

سبحانه وتعالى لهم في الكهف دون شك.

ولعل من جملة أسرارهِ فيما نفهم - والله أعلم - منع الأرض من التأثير في أجسادهم لو كانوا على حالة واحدة وجانب واحد، وتعريض كامل أجسادهم ظهراً وبطناً لأشعة الشمس من أجل تطهيرها.

3 - ومن هذه الظروف المناسبة التي هيأها الله سبحانه لهم في الكهف ووردت الإشارة إليها في النص القرآني، هذه الإشارة العجيبة في قوله تعالى: ﴿وهم في فجوة منه﴾.

والفجوة بمدلولها اللغوي تعني الفراغ الحاصل بين شيئين ماديين أو أكثر والمتسع بينهما، والفجوة في المكان فتَح فيه⁽²⁾. وعلى هذا فإنَّ قوله تعالى: ﴿وهم في فجوة منه﴾ أي في فراغ منه ومتسع.

ونحن هنا لا يمكننا أن نقف عند هذا المدلول الحسي السطحي لهذه المفردة القرآنية، لأنَّ الوقوف عندها لن يفيدنا أكثر من الإخبار بأنَّ أصحاب الكهف كانوا في فراغ موجود داخل الكهف وفي مكانٍ ما منه، وهذا بكل تأكيد - بحسب فهمنا - ليس هو الأمر الذي أراد النص إخبارنا عنه والوقوف عنده، ولفت الانتباه إليه، لأنَّ كون الفتية داخل الكهف يعني أنهم في فراغ منه، وهذا أمر بديهي مما يتبادر للذهنُ إليه دون حاجة إلى توكيده أو إيضاحه، لأنه عندئذٍ يكون تطويلاً، دون زيادة فائدة يفيدها المتلقي، وهذا مما ينافي بلاغة الكلام وفصاحته.

ومن هنا يتأكد لنا أن المقصود من «الفجوة» في قوله تعالى: ﴿وهم في فجوة منه﴾ ليس الإخبار عن الفراغ الحسي المتحصل من المسافة المكانية بين جدران الكهف فحسب، بل لا بدَّ أن يراد منها الإخبارُ ولفَتْ الانتباه إلى فراغ أو فجوة من نوع آخر، لا سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار - ولا بدَّ لنا من أخذ ذلك - أنَّ النص القرآني بعد الإشارة إليها وإلى موقع الكهف بالنسبة لشروق

(2) لسان العرب: مادة «فجأ» والقرطبي ج 10: 369.

الشمس وغروبها، بعد ذلك يؤكد أنها من آيات الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال، وهم في فجوة منه، ذلك من آيات الله﴾.

وإذا اتضح لدينا أن المراد من «الفجوة» في قوله تعالى: ﴿وهم في فجوة منه﴾ الإشارة إلى فجوة من نوع آخر غير الفجوة المكانية، نوع له علاقة وصلّة بحصول تلك الآية العجيبة ويدخل في علّة بقاء الفتية أحياء رُقوداً طيلة تلك الحقبة الزمنية. إذا اتضح لدينا هذا يبقى علينا أن نتساءل: أي فجوة تلك التي أراد الله سبحانه لفت نظرنا إليها في النص القرآني؟ وما علاقتها في ترتّب الآية العجيبة وحصولها؟

نحن - وبحدود إمكاناتنا العلمية المتواضعة - لا نستطيع أن نقدم تفسيراً علمياً محدداً قاطعاً، ولكننا نرجّح بحسب فهمنا للنص القرآني، أن يكون المقصود منها «فجوة زمانية»، أي أنه سبحانه جلت قدرته قد جعلهم في وضع خاص وظرف خاص تكون محصلة الزمن فيه بالنسبة لهم صفراً، فلا تأثير لمروره عليهم.

ومما يرجّح هذا، أنّ الفترة التي قضوها في رقدتهم الأولى والتي بلغت ثلاثة قرون شمسية بحسب مقاييس الزمن الأرضية العادية، كما ذكر القرآن الكريم، لم تؤثر فيهم ما ينبغي أن تؤثر لو كانت قد مرّت عليهم بحسب الظروف الأرضية للزمن، من حيث التقدم في السن وما يتركه ذلك من تغيير في سحنات الوجه وتقاطيعه، وابتضااض الشعر مثلاً، ووهن الجسم، وضعف الحواس، وتطور الهمة، وبلوغ أرذل العمر. وما إلى ذلك، بل ظلوا كما كانوا عليه وقت دخولهم الكهف ونزول النعاس عليهم، حتى إنهم حينما استيقظوا من رقدتهم وانتبهوا، ونظر بعضهم إلى الآخر، ظنوا أنهم قد ناموا يوماً أو بعض يوم، لعدم ظهور ولو أمانة واحدة من الأمارات الدالة على طول الرقدة، من عوامل ومظاهر الشيخوخة مثلاً، ولو كان قد ظهر منها شيء للفت انتباههم وأثار استغرابهم، وهم يحسبون أنهم ناموا يوماً أو بعض يوم.

وهذا يجرنا إلى الحديث عن الآية الكونية الثانية التي أشار إليها النص

القرآني، أو الوجه الثاني للآية العجيبة التي حصلت لأهل الكهف، وهي ظاهرة نسبية الزمن التي لفت إليها النص القرآني انتباهنا.

ولعل أول من أشار إلى هذه الظاهرة هو العالم والفيلسوف المسلم الملاصدرا⁽³⁾ بقوله: «فللطبيعة توازنان: أحدهما تدريجي زمني يقبل الانقسام الوهمي إلى متقدم ومتأخر زمنيين، والآخر دفعي مكاني يقبل الانقسام إلى متقدم ومتأخر مكانيين»⁽⁴⁾. بيد أنه انتبه إليها عن طريق المحاكمة العقلية الفلسفية، فهو إذن قد عالجهما علاجاً فلسفياً، ولم يكتب لرأيه الشهرة والانتشار، ولعل ذلك يعود إلى بقاءه محصوراً في الدائرة الفلسفية، وغموض عباراته في كتابه القيم الأسفار الأربعة، ولعوامل أخرى، لعلها هي العوامل نفسها التي حكمت على كثير من تراثنا الحضاري الإسلامي الشامخ بالانزواء وعدم تمكنه من أخذ حقه الطبيعي المشروع في الانتشار والذويع.

ومن هنا فقد نسبت هذه النظرية إلى العالم الرياضي أينشتاين الذي جاء بعده بقرون عدة. وقد بنى أينشتاين نظريته على أسس رياضية فيزيائية، التي هداه الله سبحانه إليها وأنار له بصيرته فيها، بفضل ما وهبه من حسن وإدراك.

وإن إدراك هذه النظرية يتطلب قدراً عالياً من التأمل والتدبر، حتى إن العلماء الذين قاربوا إدراكها وفهمها الفهم الدقيق هم قلة قليلة. وإنما قلنا قاربوا إدراكها، ولم نقل أدركوها، لأننا نعتقد أن أينشتاين الذي تنسب النظرية إليه نفسه، وإن كان قد أدركها نظرياً وتوصل إليها عن طريق المحاكمة العقلية الرياضية الفيزيائية، إلا أننا نشك في أنه استطاع أن يتصورها تصوراً عقلياً دقيقاً أو ينضج إدراكها الإدراك الواقعي الحسي النفسي عنده، فهو لم يدرك، ولم

(3) هو صدر الدين الشيرازي محمد بن إبراهيم الشيرازي المعروف بملاصدرا وصدر المتألهين، ولد عام 979 هـ وتوفي عام 1050 هـ. صاحب الآثار الفكرية العديدة، من أهمها كتابه الفلسفي الضخم «الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة» والمشهور اختصاراً بـ (الأسفار الأربعة)، طبع هذا الكتاب طبعة حجرية منذ قرن أو أكثر، ثم أعيد طبعه في طهران عام 1379 هـ، وتقع هذه الطبعة في تسعة أجزاء.

(4) صدر الدين الشيرازي: الأسفار الأربعة، مطبعة الحيدري، طهران 1379 هـ، ج 3، ص 140.

يمكن أن يتصور نسبية الزمن إلا من خلال الأبعاد السيكلوجية النفسية له، أما أنه استطاع أن يدرك تصوراً أن فترة زمنية لا تزيد على خمس دقائق مثلاً وفق ظروف معينة تساوي تماماً فترة زمنية قد تبلغ الأربعين سنة في ظروف أخرى، فإن هذا مما لا نعتقد قدرته على إدراكه وتصوره.

وعلى أية حال، فإن نظريته تلك كانت فتحاً كبيراً في ميدانها وأرست قواعد كان العلم في غفلة عنها. . .

ولا نريد أن يفهم من قولنا هذا أن نظريته الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أو أن النتائج التي توصل إليها مطابقة للواقع فعلاً ومصيبة دائماً، فهو بشر، والبشر يخطئ ويصيب، وقد بنى استنتاجاته على استقرائه الخاص، وعلى مقدمات حسبها وظنها يقينية، وهي قد تكون كذلك وقد لا تكون، كما أنه قد يكون في بعض نتائجه مصيباً وفي بعضها مخطئاً، وهكذا شأن أية نظرية علمية. وعلينا نحن المسلمين أن نقف منها موقف المتأمل المتنبه، وأن لا نتلقها دون وعي وإدراك، ونؤمن بها أو ننتأها لكونها منسوبة لعالم شهير، أو مرتدية حلة براقة من الادعاء العلمي، بل علينا أن نعرضها على كتاب الله العزيز، فهو وحده الحق اليقين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فما وافقه أخذنا به، وما تعارض معه رفضناه. ورفضنا إياه في هذه الحالة، إنما هو من أجل أن تعارضه مع الكتاب العزيز إنما يكشف عن خطأ تلك النظرية وجنوحها عن جادة الحق والواقع، ويكشف لنا بشكل يقيني أن صاحب تلك النظرية قد أخطأ الطريق في الوصول إلى النتائج، وما دمنا نملك الإيمان اليقيني والرؤية اليقينية أن كل ما جاء به الكتاب الحكيم حكيم لا عوج فيه ولا اضطراب. وما أكثر النظريات التي وصفها أصحابها بالعلمية، وحسبوا أنها الحق الذي لا مراء فيه، وظهر بطلانها وبان خطؤها بعد حين، بظهور نظريات أخرى تناقضها وتكشف عن مواطن الخطأ فيها.

ونحن لا ندعي هنا العلم التفصيلي بهذه النظرية، كما لا نريد أن نخضع فهم النص القرآني للنظريات العلمية البشرية، بل على العكس من ذلك كما قدمنا، فإننا نرى القرآن الكريم حاكماً عليها لا محكوماً لها، وأن كل الذي

نهدف إليه أن نستضيء بما لا يتعارض مع القرآن الكريم من النظريات العلمية لتفسير وإيضاح غوامضه، وبما يجلي وجه الإعجاز فيه، شريطة أن لا نعسف ذلك اعتسافاً، أو نحمل النص ما لا يحتمل، وإنما بحدود ما يوحيه النص من فهم، أو ما نفهمه نحن من النص، بعد تأمله وتدبره، وهذا هو منهجنا في هذا الموضوع وفي غيره إن شاء الله .

والنظرية النسبية في جوهرها قائمة بشكل عام على أن الزمن نسبي وليس أمراً ثابتاً، وهو يخضع لعوامل كثيرة منها السرعة مثلاً. فالزمن لمن يسير بسرعة الضوء - على فرض إمكانية ذلك - غير الزمن بالنسبة لمن هو مستقر على الأرض أو يسير بسرعة أقل من سرعة الضوء⁽⁵⁾.

وعلى هذا فإن هذه النظرية تذهب إلى أن الجسم المادي له أبعاد أربعة وليست ثلاثة، فهي تضيف إلى الأبعاد المكانية المعروفة (الطول والعرض والارتفاع) بعداً رابعاً هو البعد الزمني. فمثلما يكون الجسم المادي محدوداً بالأبعاد المكانية الثلاثة، فهو محدود بالبعد الزمني أيضاً.

وإن هذا البعد الزمني يتناسب عكسياً مع السرعة، كما يتغير بفعل عوامل أخرى غير السرعة. فإذا انطلق جسم ما بما يعادل 99٪ من سرعة الضوء، فإن المسافة الزمنية التي يقطعها في عشر سنوات تعادل المسافة الزمنية التي يقطعها الجسم نفسه خلال سبعين سنة لو كان مستقراً على الأرض⁽⁶⁾.

وهذا يعني أن ازدياد سرعة حركة الجسم وبلوغها سرعة 99٪ من سرعة الضوء قلصت المسافة الزمنية بالنسبة له من سبعين سنة بحسب الموازين الأرضية إلى عشر سنوات بحسب الموازين التي تحكم الجسم وهو يتحرك بسرعة 99٪ من سرعة الضوء.

(5) مفاهيم في الفيزياء الحديثة، تأليف آرثر بايزر/ ترجمة د. منعم مشكور/ ط. جامعة الموصل/ 26 - 21.

(6) Concepts of Modern physics, Arthur Beiser, 1987, P. 8 .
وانظر Introduction to Atomic and Nuclear Physics, Henry Semat 1972.

وهذا يعني من الناحية النظرية، أنه لو سار جسم بسرعة تفوق سرعة
مء فإن المسافة الزمنية قد تتقلص أكثر حتى يمكن أن تصل حدأ تتلاشى فيه
وتصبح محصلتها صفراً بالنسبة لذلك الجسم.

وآينشتاين حينما يقف عند سرعة الضوء، لا على كونها الحد الأعلى في
واقع الأمر وحقيقته، بل على أنها الحد الأعلى بحسب المقاييس الحسية
المدركة، وفق القوانين الفاعلة في الحدود الأرضية المعاشة. فهو لا ينفي
وجود مثل هذه السرعة، ولكنه يعترف بعدم قدرته على إدراكها واستكشاف
قوانينها.

ولعل هذا ينفعنا ويلقي ضوءاً في فهم أزلية الله سبحانه وسرمديته، وأنه
الأول والآخر. فالحق - جلّت قدرته - وهو موجد الوجود، وخالق كل شيء
ومنها الضوء والسرعة والأبعاد المكانية والزمانية، فهو بكل تأكيد خارج عنها
مباين لها، منزة عنها، ليس كمثله شيء ولم يكن له كفواً أحد، لا يؤنّه أين،
ولا يكتفه كيف ولا يحده حد، ومنه الحد الزمني، فهو محيط بكل شيء،
بالمكان وبالزمان معاً، ولا يحيطه شيء. ومن هنا فهو لا أول له ولا آخر،
أزلي كان ولم يكن قبله شيء سرمدي أبدي لا حد لسرمديته ودوامه.

ومثلما يتغير البعد الزمني بفعل عامل السرعة، فإنه من الممكن أن يتغير
بفعل عوامل أخرى لم تنكرها النظرية. وهذا ما يفيدنا في فهم النص القرآني
ويكشف لنا بعض غموض الإشارة القرآنية لآية أهل الكهف العجيبة في قوله
تعالى: ﴿وهم في فجوة منه﴾.

فلما اتضح لنا مما تقدم أن قصر مدلول لفظة «فجوة» الواردة في النص
القرآني المذكور على المفهوم الحسي السطحي لها، لا يفقد جمالية النص
وسموة لتعارضه مع قواعد البلاغة العربية وحسب، بل يتعارض مع السياق
القرآني للنص أيضاً، من حيث مجيئها في سياق الإشارة لتفسير هذه الآية
العجيبة لأهل الكهف، ولفت الانتباه إلى ما تضمنته من أسرار كونية - فلما
اتضح لنا ذلك كله، أصبح من المؤكد لنا أنها تشير إلى حقيقة كونية علمية،

ويترجح لدينا على ضوء ما ألمحنا إليه، أن يكون المقصود منها «الفجوة الزمانية».

فلما كان الزمان بعداً رابعاً للجسم مقابل الأبعاد المكانية الثلاثة له، ولما كان من الممكن حدوث فجوة مكانية، فما المانع من حدوثها في البعد الزمني؟! وإذا كان هذا البعد نسبياً يتأثر بفعل عوامل متعددة منها السرعة ومنها غيرها، وإذا كان يتناسب مع السرعة تناسباً عكسياً بحيث من الممكن أن يتلاشى وتصبح محصلته صفراً عند بعض حدودها، فلماذا لا يمكن أن يتلاشى وتصبح محصلته صفراً بفعل عوامل أخرى؟! وإن جهلنا تلك العوامل لا يعني عدم إمكانية تحققها، لا سيما إذا وضعنا في اعتبارنا أن خالق هذه الآية العجيبة هو الله سبحانه خالق كل شيء ومنها السرعة والعوامل الأخرى. وإذا كنا لا نملك الآن تفسيراً محدداً لها - في حدود إدراكنا العلمي المتواضع -، فإن على المتخصصين في هذا الميدان أن لا يمزوا على هذه الإشارة القرآنية الكونية العجيبة مروراً عابراً، بل عليهم أن يقفوا عندها متأملين باحثين مستكشفين، عسى الله أن يفتح عليهم ما ينير بصيرتهم في معرفة بعض الأسرار الكونية الأخرى، «من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً»⁽⁷⁾.

وإذا كانت الإشارة القرآنية إلى نسبة الزمن تبدو غامضة بعض الشيء في قوله تعالى: «وهم في فجوة منه»، فإنها تبدو أكثر وضوحاً في مواطن أخرى من النص القرآني الذي يتحدث عن أهل الكهف.

وببدأ التمهيد لهذه الإشارة في الآيتين 11، 12، إذ يقول الحق تبارك وتعالى فيهما: «فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً. ثم بعثناهم لنعلم أيّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً».

ونتوقف هنا عند هذا النص القرآني، متأملين روعة التعبير المعجز، حيث يتخذ فيه التصوير الفني المذهل، والعطاء العلمي المتضمن أدق الأسرار الكونية في تعبير موجز مبين.

(7) الآية 17، من سورة الكهف..

فالضربُ في بعض مداليله - ومنها في هذا النصّ القرآني - يأتي بمعنى إقامة الحاجز المانع⁽⁸⁾، فتقول: ضربت بيني وبينك جداراً، إذا أقمت حاجزاً مانعاً، وضربت عليه قبةً، أي أقمتها عليه لتقيه وتحميه من عوامل الجو. وعلى هذا، فإن معنى قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي أقمتنا على آذانهم حاجزاً عازلاً. وإذا تساءلنا: حاجزاً عازلاً عن ماذا؟ فإنّ النصّ القرآني يجيب عليه بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَّةً﴾. و (عدداً) جاءت هنا نعتاً للسنين بمعنى معدودة فقصد منها التكثير⁽⁹⁾. فيكون مفاد النصّ القرآني أنه سبحانه يشير إلى أنه جعلهم في معزل عن الزمن، مفصولين عنه، خارجين عن حدوده بحسب أبعاد الأرضية. طيلة سنين عديدة، بلغت ثلاث مئة سنة شمسية بزيادة تسع في القمرية، كما صرح القرآن الكريم في موضع آخر، ثم بعثهم سبحانه ليعلم مَنْ مِنْهُمْ سيدرك ذلك؟! ﴿لَنُعَلِّمَ أَيُّ الْحَازِينَ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدَأً﴾.

ولما كان الخطاب في النصّ القرآني يفيد العموم في كثير من الأحيان لا يكون مختصاً بمن وُجّه إليه، أو حُكي عنه، فإنّ هذا يعني أنّ قوله تعالى: ﴿لَنُعَلِّمَ أَيُّ الْحَازِينَ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدَأً﴾، إنما هو للناس الناس جميعاً، وتنبيه لهم كذلك، كي يلتفتوا إلى هذه الظاهرة الكونية والحقيقة الزمنية، فيتأملوها ويكشفوا أسرارها ويفهموا طبيعتها.

ولم تقتصر الإشارة لهذه الظاهرة الكونية على ما مر بنا، بل نجد النصّ القرآني بعد ذلك يؤكدّها، ويشير إلى ما يكشف بعض غموضها، قال سبحانه في الآية 19: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ، قَالَ قَاتِلُ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ، قَالُوا رَيْكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾. فتبدأ الآية المباركة بقوله عز من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا﴾ جاعلة علّة بعثهم من رقدتهم، أن يتساءلوا عن الزمن الذي قضوه في رقدتهم. وابتداء الآية الكريمة

(8) القرطبي، ج 10 / 363، لسان العرب. مادة (ضرب).

(9) القرطبي، ج 10 / 363.

بهذا له مغزاه ومراميهِ وأغراضه، وإنَّ من مغازيه وأغراضه هنا في هذا المضمون أنه سبحانه أراد أن يستوقفنا عند هذه الظاهرة ويلفت انتباهنا إليها لتساءل عن أسرارها وماهيتها.

ولو عدنا إلى الآيتين 25، 26 من سورة الكهف حيث قوله سبحانه: ﴿وَلِبَثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا. قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا. لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ﴾. لوجدنا أنَّ أول ما يلفت انتباهنا فيهما، أنه سبحانه قطع العدد عن الإضافة إلى معدوده، فقال سبحانه: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ بالتثنية، وحكمُ معدود المائة أن يكون مجروراً بإضافة العدد (المائة) إليه، ويكون مفرداً لا مجموعاً، وعليه ينبغي أن يكون التعبير في غير القرآن ولَبِثُوا في كهفهم تسعاً وثلاث مائة سنة، في حين ورد النص القرآني: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

ومجيء النص القرآني على هذه الصيغة، إنما هو وجه من وجوه الإعجاز القرآني، وبرهان من براهين دقته في التعبير وإحكامه.

وجه ذلك، أنَّ من المعلوم كون السنين نوعين، شمسية وقمرية، فلو قال سبحانه: (ثلاث مائة سنة) أو (تسعاً وثلاث مائة سنة) لكان من الممكن التساؤل عن أي نوع من السنين هذه شمسية أم قمرية؟ ولكن النص القرآني كان دقيقاً غاية الدقة حينما قطع (مائة) عن الإضافة وجعل لفظة (سنين) وهي مجموعة، تمييزاً، فأشار بذلك إلى التقويمين الشمسي والقمري في آن واحد.

وعلى هذا يكون المراد من قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، ثلاث مائة سنة شمسية بزيادة تسع في القمرية. ولدى الرجوع إلى علم الفلك وحسابه نجد الفارق بين السنين الشمسية والقمرية هو زيادة ثلاث سنين قمرية على كل مائة سنة شمسية، فتكون الزيادة تسعاً لثلاث المئة. وهذا يندرج ضمن آيات الإعجاز القرآني.

ويعد أن ذكر سبحانه المدة الزمنية التي قضها أصحاب الكهف بحسب الموازين الأرضية للقياس الزمني، والتي كانت بالنسبة لهم يوماً أو بعض يوم،

عقب النص القرآني عليها مباشرة بقوله سبحانه: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾. وهنا ينبغي التوقف والتأمل، فإذا كان سبحانه قد حدّد الفترة الزمنية لرقاد أهل الكهف بحسب المقاييس الأرضية للزمن بثلاث مائة سنة شمسية وزيادة نسع في القمريّة، فما معنى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾. لدى التأمل في هذا النص القرآني ينكشف لنا أن المراد منه يتحقّق والسيّاق الذين أشرنا إليه من نسيية البعد الزمني.

فلما كان الزمن نسبياً، يختلف باختلاف الظروف التي يقاس فيها، أو يتولّد منها، وقد تصبح محصلته صفراً في ظروف معينة؛ فإنّ حقيقة الزمن الذي قطعها أصحاب الكهف في رقدتهم يختلف عنه بحسب الموازين الأرضية، التي بلغ بها ثلاث مائة سنة شمسية، كما أشار إليه الحق سبحانه، كما يختلف عما حدّده أهل الكهف أنفسهم بيوم أو بعض يوم بحسب إحساسهم به، فهو شيء آخر غير هذا وذاك، لا يعلم حقيقته ومقياسه الدقيق إلاّ هو سبحانه ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾، أي بحقيقة البعد الزمني.

وهذا الفهم القرآني للبعد الزمني، أو قل الإشارة القرآنية إليه الواردة في هذه الآيات الكريمة من سورة الكهف، نجدها في مواطن أخرى من القرآن الكريم، لا تهافت فيها ولا تناقض، مؤكدة هذه الحقيقة الكونية، لافتة الانتباه إليها.

قال تعالى في الآية 259 من سورة البقرة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ، ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾.

وما يؤكد فهمنا المشار إليه من تأكيد القرآن الكريم بعدية الزمن ونسييته هو قوله تعالى في النص الآنف الذكر ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، فإنّ الطعام والشراب لا يمكن أن يحافظ على سلامته من التعفن وفق الظروف الجوية المعتادة أياماً معدودة، فكيف به بعد مرور مائة عام. ولا يبقى

أمامنا إلا أن نفهم من النص أنه سبحانه قد أخرج الرجل الذي تساءل عن قدرة الله في إحياء القرية بعد موتها، أخرجه وطعامه وشرابه من البعد الزمني ومقاييسه بحسب الموازين الأرضية، فكانت محصلته لديه يوماً أو بعض يوم، أو مدة أخرى الله أعلم بها.

ومن النصوص القرآنية الأخرى التي أشارت إلى هذه الحقيقة الكونية، التي تنسجم مع سياق فهمنا هذا، قوله تعالى في الآية 45 من سورة يونس: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ وهم قد لبثوا في أجدانهم قروناً طويلة بحسب الموازين الأرضية للبعد الزمني.

وقوله تعالى في الآية 52 من سورة الإسراء: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنَّ لَبِثْنَا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقوله تعالى في الآية 102 - 104 من سورة طه: ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ، وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا، يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْنَا إِلَّا عِشْرًا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ، إِذْ يَقُولُ أَثْلُكُم طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْنَا إِلَّا يَوْمًا﴾.

وقوله تعالى في الآية 47 من سورة الحج: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى في الآيات 112 - 114 من سورة المؤمنون: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ فَسِثْلُ الْعَادِينَ. قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى في الآية 55، 56 من سورة الروم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ يَوْفِكُونَ، وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى في الآيتين 5، 6 من سورة السجدة: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ. ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

وقوله تعالى في الآية 35 من سورة الأحقاف: ﴿واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولا تستعجل لهم، كأنهم يوم يرون ما يوعدون، لم يلشوا إلا ساعة من نهار، بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾.

وقوله تعالى في الآيات 4-7 من سورة المعارج: ﴿تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. فاصبر صبراً جميلاً. إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾.

وقوله تعالى في الآية 46 من سورة النازعات: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلشوا إلا عشية أو ضحاها﴾.

تلك هي المواطن التي أشار فيها النص القرآني المبارك إلى هذه الحقيقة الكونية. وإننا لنجدها على تباعدها، وتفرقها في ثنائها، وتفاوتها في النزول على امتداد ثلاث وعشرين سنة، نجدها معروضة في سياق واحد وعلى مسار واحد، متفقة في المضمون، دقيقة في التعبير عنه، لا تهافت فيها ولا تناقض. وهذا يضع أيدينا على جانب من جوانب الإعجاز القرآني، وكون القرآن تنزيلاً من لدن حكيم خبير واحد أحد، إذ لو كان من عند غيره لوجدنا فيه اختلافاً كثيراً، كما أشار إلى ذلك سبحانه.

ومما يؤكد هذا الفهم ويكشف عنه، هو أن الحق سبحانه عقب على قوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ مباشرة بقوله سبحانه: ﴿له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع﴾. وإن هذا التعقيب المباشر، يفيدنا في تأكيد ما ذهبنا إليه من الإشارة القرآنية للبعد الزمني ونسبته من ناحية، ويفسر لنا مفهوم الغيب الإلهي من ناحية أخرى.

إذ لما كانت حقيقة الزمن نسبية، والله أعلم بها، ولما كان الزمن بُعداً مثله مثل الأبعاد المكانية، تقاس به الأشياء وتحد، ولما كان سبحانه هو الباريء المصور المكوّن؛ فما يصدق على كائناته لا يمكن أن يصدق عليه، إذ هو ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفواً أحد، وهذا يعني أنه لا يمكن أن يقاس بمقياس، أو يوزن بوزن أو يحدّ بحد. ولما كان البعد الزمني مما تحدّ به الموجودات والكائنات، فلا بدّ إذن أن يكون سبحانه خارجاً عنه، إذ لا

يحدّه حدٌّ ومنه الحدّ الزمني، فهو يحيط الزمانَ ولا يُحيطه الزمانُ، وهو بكل شيء محيط. ومن هنا فإنه يرى الأبعاد الزمانية قريبة وإن توغلت في العمق الزمني وامتدت، قال تعالى: ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾⁽¹⁰⁾، فمرحلة الزمن بالنسبة إليه سبحانه صفر، لأنه خالق البعد الزمني وموجده.

وهكذا نفهم أزلية الله سبحانه من حيث لا أول له، وسرمديته من حيث لا آخر له ولا حدّ لبقائه ودوامه، يميت الأحياء ويحيي الموتى وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

ولما كان سبحانه محيطاً بالأبعاد جميعاً مكانية وزمانية، ومطلعاً عليها، فهو يعلم بكل ما يجري في البعد الزمني بأمره، علماً ذاتياً، من أول المخلوق إلى ما شاء له سبحانه أن يستمرّ في علمه، لإحاطته به.

ولما كان ذلك مما يستحيل أن يتحقّق لأيّ من مخلوقاته، أصبح علم الغيب بهذا المفهوم مما استأثّر به الحق سبحانه⁽¹¹⁾: ﴿له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع﴾.

وهكذا نفهم الحكمة من مجيء هذا النص القرآني في الكتاب قوله تعالى: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾. وهكذا نفهم الرابط بين النصين أيضاً.

وحينما يشاء الله سبحانه أن يُطلع بعض عباده الصالحين على بعض غيبه ممن يرتضي من نبيّ أو رسول، كما في قوله تعالى: ﴿فلا يُظهر على غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسولٍ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾⁽¹²⁾، وذلك:

إمّا إichاء كما في قوله تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها

(10) للمارّج، الآيتان 6، 7.

(11) وقد ورد استنثار الله تعالى بعلم الغيب في مواطن كثيرة من الكتاب العزيز، منها: الآية 179 من سورة آل عمران، و59 من الأنعام، و188 من الأعراف، و65 من النمل، و34 من سورة لقمان، و14 من سورة سبأ، و47 من القلم، و26 من الجن.

(12) الآيتان 26، 27 من سورة الجن.

إليك⁽¹³⁾، وقوله تعالى: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾⁽¹⁴⁾.
أو كشفاً:

كما في قوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾⁽¹⁵⁾.

فإن هذا النوع من العلم يكون اكتساباً لا علماً ذاتياً لدُنْيَا كعلم الله سبحانه. وعلى هذا يبقى علم الغيب الذاتي اللدُنْيي مختصاً به جلّت قدرته، ومما استأثر به. وشتان بين العلمين.

مصادر البحث ومراجعته

- 1 - القرآن الكريم.
- 2 - الأسفار الأربعة «الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة»، صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي/ مطبعة الحيدري، طهران، 1379 هـ - 9 أجزاء.
- 3 - الجامع لأحكام القرآن - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي/ طبعة دار الكتاب العربي/ 20 جزءاً بـ 20 مجلداً.
- 4 - لسان العرب المحيط/ ابن منظور «جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المغربي»، تقديم عبد الله العلايلي/ إعداد وتصنيف يوسف خياط/ ط. دار لسان العرب، بيروت/ 3 مجلدات.
- 5 - مفاهيم في الفيزياء الحديثة/ تأليف آرثر بايزر/ ترجمة د. منعم مشكور، والسيد شاكر جابر شاكر، ط. جامعة الموصل بالعراق.
- 6 - Concepts of Modern Physics, Arthur Beiser, McGraw - Hill International editions, Fourth edition, 1987.
- 7 - Introduction to atomic and Nuclear Physics, Henry Semat, John R. Albright, Fifth edition, 1972.

(13) الآية 49 من سورة هود.

(14) الآية 102 من سورة يوسف.

(15) الآية 22 من سورة ق.

القيمة التاريخية والعلمية لنفس ابن سلام

الأستاذ سعيد سالم فاني
بجامعة المسجد الفنزلي

إلى عهد قريب كان يظن كثير من الباحثين في الدراسات القرآنية أن أول كتاب شامل لتفسير القرآن الكريم، وصل إلينا هو تفسير جامع البيان لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة 310 هـ⁽¹⁾، فبقيت بذلك سلسلة اتصال التدوين المستقل للتفسير مقطوعة بين التابعين الذين نقلوا عن الصحابة تفسير القرآن الكريم بالمأثور، وبين من جاء بعد أتباع التابعين مثل الطبري إلى أن عثر على مخطوط ابن سلام في التفسير بتونس، بل حققت بعض أجزاء من آخره بجهد الباحث: محسن ساسي⁽²⁾، وتقوم الدكتورة: هند شلبي بتحقيق بعض أجزاء أخرى منه، كما حقق الأستاذ حمادي صمود جزأين منه من قبل، وهذا التفسير الذي لا يزال أكثره مخطوطاً يحظى بأهمية تاريخية لسببين اثنين:

(1) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم حسن ج 1 ص 504.

(2) شهادة كفاءة في البحث - كلية الآداب - تونس - إشراف - أحمد بن عبد الجليل - مرقون ..

أولهما:

ما أشرت إليه في كونه يعقد الصلة بين نقلة علم التفسير بالأثر من التابعين أمثال: مجاهد بن جبر المتوفى سنة 104هـ، وقتادة بن دعامة الدوسي المتوفى سنة 118هـ، وبين عصر الطبري، فابن سلام من أتباع التابعين توفي سنة 200هـ.

وأخرهما:

أنه جسر للتواصل بين المشرق العربي ومغربه، فقد ارتحل ابن سلام من البصرة إلى مصر ثم إلى القيروان.

هذان سبيان مجتمعان دفعا بي إلى كتابة هذا المبحث الذي أردت أن أنه به إلى ما نبه إليه من قبل العلامة الفاضل ابن عاشور في كتابه: التفسير ورجاله⁽³⁾ ومع ذلك لا يزال كثير من الباحثين يعدون الطبري صاحب أول تفسير جامع.

التعريف بابن سلام:

ولد يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي⁽⁴⁾، البصري منشأ والكوفي مولداً، سنة 124هـ، ثم انتقل به أبوه من الكوفة إلى البصرة وهو صغير، وقد أتممت المراجع تفاصيل حياته في مرحلة إقامته في المشرق، ومرحلة إقامته بأفريقية التي وصل إليها حوالي سنة 183هـ، فنشر بها علمه في الحديث والتفسير والفقه، ثم غادرها إثر محنة حدثت له مع أميرها إبراهيم بن الأغلب المتوفى سنة 196هـ⁽⁵⁾، فقد صالح يحيى بين ابن الأغلب، وعمران بن مجالد الربيعي، الذي ثار عليه، ولكن ابن الأغلب قتل عمراناً، وكان قد تعهد لابن سلام، بالأمان، فغضب يحيى بن سلام لخفر ذمته، وغادر القيروان إلى مكة

(3) التفسير ورجاله - للفاضل بن عاشور - ص 42.

(4) معالم الإيمان في أعيان القيروان ج 1 ص 322.

(5) فتوحات الإسلام في أفريقية والمغرب والأندلس - ص 46. د/ محمد النجار، ود/ أحمد مجاهد.

ثم عاد منها، إلى القيروان، ولكنه مات بمصر ودفن عند جبل المقطم⁽⁶⁾.

الأحوال السياسية والاجتماعية في عصره: -

كان ابن سلام وهو بالمشرق قبل سنة 183هـ يعيش في بيئة زاخرة بما ينفع وما يضر، ففيها النهضة العلمية، وفيها الترف والبذخ، وفيها الزهد والكفاف، فقد نهض العباسيون بأعباء الخلافة التي ورثوها من الأمويين، فاستمرت في عصرهم الفتوح، ولكن فتحت كذلك أبواب الثورات الداخلية، فأرجس الأمراء خيفة من العامة والخاصة، واشتد حذرهم من العلماء والقواد، ولعل لجوء ابن سلام إلى المغرب كان بسبب المضايقة التي تعرض لها وهو قريب من دار الخلافة بالعراق، واتفق أن اعتلى إمارة أفريقية الصغرى «تونس» إبراهيم بن الأغلب سنة 184هـ فنعم ابن سلام في عهده بالتكريم، لأنه أمير محب للعلماء والأدباء⁽⁷⁾.

ويغلب على ذلك العصر التمايز الطبقي الذي نشأ بسبب الانصراف عن الفتوح، والانتكباب على جمع الأموال التي يصرفها الأمراء على مقتضى مصلحتهم لا مصلحة الرعية في كثير من الأحيان. وعلى الرغم من قوة الدولة العباسية الناشئة في ذلك الوقت فإن شعور الناس بابتعاد الولاة عن مبدأ المساواة في الحقوق والمعاملات، ألجأهم إلى الثورات في المشرق والمغرب، وكان من هذه الثورات، ثورة عنيفة بالمغرب بقيادة عبد الرحمن بن رستم، الذي أرسل إليه العباسيون جيشاً يقدمه ابن الأشعث فطرد ابن رستم من القيروان، ففر إلى تاهرت، وأعلن قيام الدولة الرستمية سنة 144هـ، فبعث هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب أميراً على القيروان لكبح جماح تلك الثورات، فاستقل ابن الأغلب استقلالاً ذاتياً بالقيروان، فاستقرت الأحوال في عهده، وكثرت موارد الإمارة، ودليل ذلك إنشاء مدينة العباسية سنة 185هـ،

(6) لسان الميزان ج 6 ص 260. وتاريخ الأدب العربي - لبروكلمان ج 4 ص 10.

والإعلام للزركالي ج 9 ص 183.

(7) انظر فتوحات الإسلام للتجار ومجاهد ص 44.

على بعد ثلاثة أميال من القيروان في الجهة الجنوبية، كما بنيت مدينة رفاة، فصارنا مركزين للبلخ والترف، واحتفظت القيروان⁽⁸⁾ بطابع التقشف والزهدة، وصارت إمارة الأغالبة تمتد من سرت شرقاً إلى الزاب غرباً. في هذه الأحوال التي لا تستقر فترة حتى تضطرب أخرى عاش ابن سلام عالماً مهجراً.

مكانته العلمية:

لا تتحدث المراجع عن قيمة ابن سلام العلمية إلا عرضاً، وهذا يؤكد احتمالاً يخضع للمقبول والرد، وهو أنه خرج من المشرق فاراً من الاضطهاد، ولا يترجح احتمال أنه قدم إلى المغرب ناشراً للعلم، لأن المعتاد في ذلك العصر أن ينفذ طلاب العلم من المغرب على العلماء بالمشرق، كما فعل عبد الرحمن المعافري المتوفى سنة 161هـ، وأبو زيد اللخمي المتوفى سنة 172هـ والبهلول بن راشد المتوفى سنة 183هـ، وعبد الله بن فروخ المتوفى سنة 176هـ وكان قد روى عنه يحيى بن سلام. وقد دلنا التاريخ على أن المشاركة لم يكونوا يرتحلون إلى المغرب في تلك الفترة إلا مجاهدين مثل أسد بن الفرات وأبو محرز القاضي⁽⁹⁾، أو فراراً من الاضطهاد السياسي كما حدث لإدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث فر من اضطهاد العباسيين في عهد الخليفة المهدي المتوفى سنة 169هـ⁽¹⁰⁾.

ومع أن المراجع قد غمطت هذا المفسر حقه من التعريف إلا أنه توجد بعض التنويهات به في أشتات الموضوعات، فقد كان ابن سلام محدثاً صدوقاً ضابطاً عدلاً، يشهد لذلك أن الإمام مالك كتب عنه ثمانية عشر حديثاً⁽¹¹⁾.

ومالك هو من هو في التثبت والتحري، كما أنه حدث عن أعلام ثقات كسعد بن أبي عروبة المتوفى سنة 156هـ⁽¹²⁾، وحماة بن سلمة المتوفى سنة

(8) المصدر السابق ص 46.

(9) العرب في صقلية: إحسان عباس ص 32.

(10) فتوحات الإسلام ص 32.

(11) رياض النفوس لأبي بكر عبد الله المالكي ج 1 ص 122.

(12) ميزان الاعتدال ج 1 ص 151.

167هـ، وروى عنه أصبغ بن الفرج المتوفى سنة 225هـ فكان يحيى من أساتذته بمصر، كما أخذ عنه أبو داود بن موسى بن جرير العطار بالقيروان المتوفى سنة 274هـ الذي دون عنه جزءاً كبيراً من تفسيره، والجزء الآخر دونه عنه ابنه محمد بن يحيى بن سلام المتوفى سنة 262هـ، كما هو مذكور بالقطعيتين الموجودتين من التفسير.

ومما شهد لمكانة ابن سلام اللغوية بعد مكانته في علم التفسير والحديث كتابه «التصاريف» وهو تفسير لغوي لألفاظ القرآن المشتركة، التي اتفقت حروفها، واختلفت معانيها، وقد حققته الدكتورة هند شلبي، وهو متداول بين أهل العلم.

يقول الداودي متحدثاً عن ابن سلام القارئ والمفسر والفقيه والمحدث واللغوي: «ويقال إنه أدرك نحواً من عشرين رجلاً - يقصد التابعين - وسمع منهم، وروى عنهم، وسكن أفريقية دهرأ وسمع الناس كتابه في تفسير القرآن وليس لأحد من المتقدمين مثله، . . . وكان ثقة ثباتاً ذا علم بالكتاب والسنة ومعرفة اللغة العربية، صاحب سنة، وسمع منه بمصر عبد الله بن وهب ومثله من الأئمة، توفي في صفر سنة مائتين»⁽¹³⁾.

تم تُجمل القول في فضله «فهو قارئ»، مفسر، فقيه، محدث، عالم باللغة»⁽¹⁴⁾.

علم التفسير قبل ابن سلام:

كان الرسول ﷺ مبلغاً ومبيناً لكتاب الله، يرجع إليه الصحابة فيما أشكل عليهم، فيعطيه الجواب بالقول أو بالعمل، ويوجههم إلى الطريقة المثلى في استنباط المعنى أو الحكم من الآيات الكريمة، حتى إذا اختاره الله إلى جواره كان للصحابة من الملكة التي رباها فيهم النبي ﷺ ما مكنهم من توضيح المبهم من القرآن.

(13) طبقات المفسرين ج 2 ص 371 ترجمة رقم 685.

(14) المصدر السابق ج 2 ص 371.

والحق أن ما فسره النبي ﷺ كان كثيراً بالقياس إلى ما فسره الصحابة من بعده، ولكنه إذا ما قيس بكل معاني القرآن كان قليلاً، وتلك حكمة لعل الله يريد من ورائها فتح الأبواب أمام العقول، وإنماء المواهب، وخلق القدرة على التحليل والاستنتاج، وربط النفوس المؤمنة بكتاب الله، كما أن معاني القرآن واسعة باتساع الزمن المتلاحق، وكان الصحابة متفاوتين في علمهم بالتفسير الأمر الذي جعلهم يختلفون في المراد من بعض آيات القرآن الكريم، لكنه كان اختلافاً يسيراً، لا تعارض فيه، وقد يرجع إلى تعدد الوجوه في الآية على سبيل الشمول، أو إلى تفوق بعضهم على بعض في حفظ وفهم أدوات ووسائل التفسير، أو إلى التفاوت في الاطلاع على لغات العرب وغرائبها، فخلافتهم قليل لعدم كثرة الجدل، وقلة تداخل العلوم في عصرهم. يقول ابن تيمية: «الخلافاً بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام، أكثر من خلافتهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من خلافتهم في التفسير، يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد»⁽¹⁵⁾.

ثم التقى التابعون بالصحابة، فرووا عنهم في الحديث والتفسير، فقد تفرق الصحابة في الآفاق الإسلامية، فنشأت بذلك مدارس بالأمصار، فكانت بمكة مدرسة للتفسير، وفي المدينة مدرسة أخرى، وفي العراق كذلك. يقول ابن تيمية: «أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبيرة، وطاوس وغيرهم، وكذلك في الكوفة أصحاب ابن مسعود، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس»⁽¹⁶⁾.

ويغلب على مدرسة العراق طابع الرأي، بسبب طبيعة البيئة العراقية التي قلت فيها الاستعانة بالمرويات لانتشار الكذب، وتعدد الفرق المنحرفة، واشتهرت فيها من التابعين: علقمة بن مسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد،

(15) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص 30.

(16) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص 15.

وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة الدوسي⁽¹⁷⁾ وأهم ما يلاحظ على التفسير زمن التابعين أنه انتقل من الأثر إلى الرأي بصورة تدريجية، وأخذ كل فريق من المفسرين لكتاب الله ينتمي إلى مدرسة في روايته واستنباطه، مما جعل الخلاف العلمي ظاهرة من ظواهر ذلك العصر، كما كان دافعاً من دوافع الخلاف المذهبي في العصور التي تلت.

كما يلاحظ في هذا العهد أن تدوين التفسير كان ضمن كتب المرويات الحديثة، ولم يفرد للتفسير تأليف خاص يجمع جميع الآيات.

فأعلام التابعين مثل سفيان الثوري ووكيع بن الجراح، وشحينة بن الحجاج، ويزيد بن هارون، وآدم بن أبي إياس، وإسحاق بن راهويه، وروح بن عباد، وعبيد بن حميد، يمزجون التفسير في الحديث بمصنفات كأن الحديث أساسها.

ثم انبرى عبد الملك بن جريج المتوفى سنة 149هـ⁽¹⁸⁾ إلى جميع الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين في التفسير وهي مستقلة عن الحديث، فكان أول من ألف في التفسير بالمأثور على سبيل الاستقلال، ولا يوجد لهذا الكتاب أثر بين أيدي الباحثين إلا ما ورد من ذكر له في كتب الحديث والتفسير.

فكان أول كتاب شامل للتفسير يصل إلينا هو كتاب أبي زكريا يحيى بن سلام المعنى بهذا المبحث.

والناظر في حياة ابن سلام العلمية يجده لم يعدم الصلة بالكوفة لأنها مولده، فلا شك أنه زارها في رحلاته العلمية وهي مجاورة لمدينة البصرة التي أقام فيها أول حياته، والتقى علماء الرأي فيها مما كان له أثر في كتابه التصاريف الذي تناول فيه المعاني المشتركة للألفاظ القرآنية، ككلمة الأمة التي تطلق على معان متعددة، وكلمة الرحمة، وكلمة الكفر⁽¹⁹⁾.

(17) التفسير والمفسرون للذهبي ج 1 ص 198.

(18) التفسير ورجاله للفاضل بن عاشور ص 33.

(19) كتاب التصاريف لابن سلام: تحقيق هند شليبي ص 104 - 134.

كما أن ابن سلام عاشر علماء البصرة وأخذ عنهم، وقد تلقى القراءة عن الحسن البصري⁽²⁰⁾ وهي قراءة مشهود لها بالصحة فهي من الأربع عشرة قراءة المشهورة، مع بعض اختيارات من قراءات أخرى بحكم تأثر ابن سلام بمدرسة الرأي التي تنجح إلى النقد والاختبار.

ورحلة ابن سلام إلى الحجاز ومصر ثم استقراره بأفريقية ساعدت على جمعه بين خصائص مدرسة العراق بفرعيها البصري والكوفي حيث الرأي والاستنباط، ومدرسة المدينة المالكية حيث الرواية والتوثيق، فقد لحق بالشيخ البهلول بن راشد وأبي زيد اللخمي وعبد الله بن فروخ في القيروان، كما أنه التقى مالك بن أنس عميد المدرسة المدنية، وأخذ عن مالك، كما روى عنه مالك ثمانية عشر حديثاً كما تقدم⁽²¹⁾.

ولا شك أن امتزاج تلك الخصائص العلمية في منهج ابن سلام التفسيري تكسره أهمية بالغة، وقيمة علمية متميزة، فتجعله يتنكب الشطط في الاعتماد على الرأي، ويتجنب الإمعان في جمع المأثورات، ومن خلال المصادر التي بحث فيها عن حياة ابن سلام وعن خصائص تفسيره - وهي قليلة - لم أجد ما يشير إلى وصف لمنهجه في تفسيره، بل يكتفي المترجمون له بذكر العنوان، ولعل ذلك راجع إلى أن تلامذة ابن سلام وعلى رأسهم ابنه محمد وتلميذه أبو داود العطار لم تساعدهم الأحوال على إذاعة علم أساذهم في بلاد المشرق حيث الإشهار العلمي الذي كان محدوداً في القيروان وقتئذ، ثم اشتهر تفسير ابن سلام بالقيروان في القرن الرابع وما تلاه حتى قال الحصري القيرواني المتوفى سنة 488هـ: يا رُبَ معنى قد استنبطته فهماً: - فليل يحفظ تفسير ابن سلام⁽²²⁾.

(20) طبقات المفسرين للداودي ج 2 ص 371.

(21) أنظر هذا المبحث ص 4.

(22) أبو الحسن الحصري القيرواني «محمد المرزوقي والجيلاني بالحاج يحيى» ص 369.

تأملات في منهج ابن سلام التفسيري :

إن تفسير ابن سلام يكتسب أهميته العلمية من قيمته التاريخية، فهو وإن كان أقل حجماً من جامع البيان للطبري، إلا أنه متقدم عليه زمنياً طويلاً يجاوز قرناً من الزمان، مما يعقد الصلة بين التفسير عند التابعين وبين التفسير في مدارس علماء القرن الثالث الهجري. غير أن هذا التفسير لم يلاق الاهتمام اللائق به من الباحثين المعاصرين إلا في الآونة الأخيرة حيث نشط الباحثون التونسيون في تحقيق بعض أجزائه التي ستظهر مطبوعة عن قريب، وعجزوا عن تحقيق أجزاء منه لما أصابها من الطمس، وقد يمنُّ الله على العلم والعلماء بالعثور على نسخة⁽²³⁾ أخرى سالمة فيتم تحقيق هذا السفر الجليل كله.

وتفسير ابن سلام ليس له عنوان يميزه حسب ما ورد في المخطوطة التي أطلعت عليها بالمكتبة العبدلية التابعة لدار الكتب الوطنية التونسية، وهي تحوي قطعتين: القطعة الأولى⁽²⁴⁾ برواية⁽²⁵⁾ أبي داود العطار، تبدأ من آخر سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿وإن ربك لهُوَ العزيز الرحيم﴾ الآية 191 وتنتهي بالآية الأخيرة من سورة الصافات و تشمل سبعة أجزاء، ونسخة القيروان التي تحوي عشرة أجزاء، فيكون مجمل أجزائه سبعة عشرة جزءاً. ولا يوجد لهذا التفسير مقدمة إلا ورقة واحدة فيها كثير من الطمس، وهي من نسخة القيروان تحت رقم 161، تابعة للجزء الأول من التفسير من أول سورة البقرة إلى قوله تعالى: ﴿وأشربوا في قلوبهم المعجل﴾ البقرة (93) يقول الشيخ الفاضل بن عاشور في شأن هذا التفسير: «من صميم آثار القرن الثاني، وهو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق، ألف بالقيروان وروي منها، وبقيت نسخته الوحيدة بين تونس والقيروان»⁽²⁶⁾ وقد جمعت الآن النسختان

(23) لم يشر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ج 4 ص 10 ولا فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي ج 1 ص 204 إلى أي نسخة أخرى.

(24) مودعة تحت رقم 7447 = للمجلد الأول.

(25) مودعة تحت رقم 18653 = المجلد الثاني.

(26) التفسير ورجاله ص 42.

بالمكتبة الوطنية. ثم يقول الشيخ الفاضل في معالم منهج هذا التفسير: «يعتبر مؤسس طريقة التفسير النقدي أو الأثري النظري التي سار عليها من بعده ابن جرير الطبري واشتهر بها»⁽²⁷⁾.

ثم قال مبيناً فضل هذا التفسير ناقلاً رأي أبي عمرو الداني: «ليس لأحد من المتقدمين مثل تفسير ابن سلام»⁽²⁸⁾ وبذلك شهد ابن الجزي⁽²⁹⁾.

ويمتاز هذا التفسير بالإيجاز، ولا يجمع فيه صاحبه معلومة لا تمت إلى التفسير بضلة، كما يمتاز بالوضوح واليسر في الأسلوب، فهو خال من التراكيب المعقدة، فقد كتب في عهد لم تمتزج فيه العلوم الإسلامية بالعلوم المنطقية والفلسفية اليونانية.

كما يتسم بتهديب المنقولات، والحذف في اختيارها، كما يهتم ابن سلام بالقراءة في تفسيره وأسباب النزول وأحاديث العشر من المأثور: يقول في تفسير قوله تعالى: «وَإِنَّهُ لَنَزْلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» الشعراء من الآية 192 وما بعدها. «يعني نزل به أي القرآن الروح الأمين: قال قتادة وهو تفسير السدي: «جبريل» وهي تقرأ على وجهين بالرفع والنصب، فمن قرأها بالرفع قال: تنزل به حقيقة الروح الأمين جبريل نزل به، ومن قرأها يقول (نزل) به مثقلة الله نزل الروح الأمين، الله نزل جبريل بالقرآن على قلبك يا محمد، ولتكون من المنذرين بلسان عربي مبين، وإِنَّهُ لَفِي زَكْرٍ الْأَوَّلِينَ، يقول: بَعَثَ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فِي زَكْرٍ الْأَوَّلِينَ يعني كتب الأولين، «أولم يكن لهم آية» وهي تقرأ على وجهين بالتاء والياء، فمن قرأها بالتاء يقول: قد كانت لكم آية، ومن قرأها بالياء فيجعلها عملاً في باب كان يقول: في كان لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل يعني من آمن منهم، فقد كان لهم في إيمانهم به آية - هذا تفسير حسن، وقال قتادة: يعني اليهود والنصارى، إنهم يجدون محمداً في التوراة

(27) المصدر السابق ص 42.

(28) المصدر السابق ص 43.

(29) المصدر السابق ص 43.

والإنجيل أنه رسول الله، قال: ولو نزلناه يعني القرآن على بعض الأعجمين، فقرأ عليهم محمد، وفي تفسير ابن مجاهد عن أبيه ما كانوا به مؤمنين: يقول: لو أنزلناه بلسان أعجمي لا تؤمن به العرب كقوله: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾⁽³⁰⁾ قال قتادة: إذاً لكانوا أشرف الناس فيه لما فقهوه، وما دروا ما هو، قوله عز وجل كذلك سلكناه: جعلناه في قلوب المجرمين: المشركين.⁽³¹⁾

ومن خلال هذا النموذج يلاحظ الإيجاز واليسر في هذا التفسير وقلة التفرع، دمجت فيه القراءة باللغة مع النحو والرواية، فلم يكن منهج التفسير قد خطأ بعد خطواته الواسعة. كما يلمس الطابع البصري في هذا التفسير حيث ينقل ابن سلام عن الحسن وقتادة كثيراً، كما أنه يتبع قاعدة تفسير القرآن بالقرآن كقوله: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ كما أنه يراعي تفسير القرآن بالسنة ففي تفسير قوله تعالى ﴿وانذر عشيرتَكِ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: الآية (214)] يقول نقلاً عن تفسير الكلبي: «إن رسول الله ﷺ خرج حتى قام على الصفا وقرش في المسجد ثم نادى يا صباحاه، ففزع الناس فخرجوا فقالوا: مالك يا ابن المطلب فقال: يا آل غالب، قالوا هذه غالب عندك، ثم نادى يا آل لؤي ثم نادى: يا آل كعب ثم نادى يا آل مرة ثم نادى يا آل كلاب ثم نادى يا آل قصي، فقالت قرش وأنذر الرجل عشيرته الأقربين، انظروا ماذا يريد؟ فقال أبو لهب: هؤلاء عشيرتك فقد حضروا فما تريد؟ فقال رسول الله ﷺ: أرايتم لو أنذرتكم أن جيشاً يصبحونكم أصدقتموني قالوا نعم، قال فإني أنذركم النار... إلخ الحديث⁽³²⁾. ولعل شكه في رواية الكلبي يجعله يستند بها برواية أخرى فيقول: «وحدثني أبو الأشهب عن الحسن أن هذه الآية لما نزلت دعا رسول الله ﷺ عشيرته بطناً بطناً حتى انتهى إلى بني عبد المطلب فقال: يا بني عبد المطلب: إني رسول الله إليكم لي عملي ولكم عملكم، إني

(30) سورة إبراهيم، الآية: 4 .

(31) خطوط تفسير ابن سلام المجلد الأول، ق 15 المكتبة الوطنية بتونس رقم 7447 و ق 16.

(32) خطوط تفسير ابن سلام ق 17 - للمجلد الأول رقم 7447.

لا أملك لكم من الله شيئاً...» (33).

وقد يورد الحديث كاملاً غير منقطع كما روي عن حماد عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال رسول الله ﷺ: «إذا أطاع العبد ربه وسيده فله أجران، والرجل إذا أعتق أمته ثم تزوجها فله أجران، ومؤمن أهل الكتاب إذا آمن بالكتاب الأول والآخر فله أجران» (34)... وقد يورد الحديث مرسلًا كما في روايته عن أبي الأشهب والربيع بن صبيح عن الحسن - وهو من التابعين - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر» (35).

ولابن سلام اعتناؤه بأسباب النزول ففي قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ [المنكوت 10] يقول: «نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخى أبي جهل...» (36).

وفي قوله تعالى: ﴿وذروا ما بقي من الريا﴾ [البقرة: 278] يذكر قصة دين خالد بن الوليد الذي كان له على ثقيف، لما كان أوصاه أبوه، نزلت فيما بقي مما أربوا منه في الجاهلية.

وابن سلام يطرح قضايا تفسيرية للنقاش كما فعل في بيان اختلاف الرأي تبعاً لاختلاف النقل في أول وآخر ما نزل من القرآن، وكما فعل في نزول القرآن على سبعة أحرف، ويقول في القضية الأولى (37)... عن العطاردي وكان قد أدرك النبي ﷺ قال: أول سورة نزلت على محمد ﷺ: ﴿اقرأ باسم ربك...﴾، وحدثنى أبو أمية عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة قال: قلت لجابر بن عبد الله: (أي) القرآن نزل أولاً قال: يأبها المدثر، قلت: واقرأ

(33) خطوط تفسير ابن سلام ق 17 - المجلد الأول رقم 7447.

(34) خطوط تفسير ابن سلام ق 55 - المجلد الأول رقم 7447.

(35) خطوط تفسير ابن سلام ق 65 - المجلد الأول رقم 7447.

(36) نسخة القيروان في 169 - رقم 161.

(37) قبل كلمة المطاردي يوجد عو بالنسخة القيروانية رقم 161.

(38) كلمة يقتضيها السياق محوارة من النسخة القيروانية.

باسم ربك الذي خلق، قال أحدك ما سمعته». السائل في هذا الحديث هو أبو سلمة يسأل جابر بن عبد الله، ثم يقول ابن سلام مورداً كلام يحيى بن أبي كثير «قال يحيى والعامه على أن أول ما نزل: اقرأ باسم ربك الذي خلق»⁽³⁹⁾.

ثم يعرض رأياً مفاده أن آخر ما نزل من القرآن الآيتان الأخيرتان من سورة التوبة: «وحدثني همام بن يحيى عن قتادة و(فراغ) عن الحسن عن أبي بن كعب قال: آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان في سورة براءة: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم...﴾ وحدثني سعيد بن أبي عروبة عن قتادة... ويقال إن أحدث القرآن بالله عهداً هاتان الآيتان: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تولوا فقل حسبي الله﴾ [التوبة 128 - 129] ويجمع إلى الرأي السابق رأياً آخر موافقاً لرأي الجمهور من أن آخر آية نزلت قوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [البقرة 281] فيقول: «وحدثنا همام عن الكلبي قال: آخر ما نزل من القرآن: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ الآية...»⁽⁴⁰⁾.

وفي قضية سبعة الأحرف يشهد بالمرويات في تقريرها فيقول: «حدثنا... (فراغ) وحماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: أتاني جبريل (فقال) بسم الله، في حديث الحسن، وفي حديث حماد: يا محمد اقرأ القرآن على حرف، قال: فنظرت إلى ميكائيل فقال لي استزده، فقلت: زدني فقال: بسم الله اقرأه على حرفين فنظرت...» ويورد الحديث بتمامه إلى قوله ﷺ: «فقال جبريل على سبعة أحرف»⁽⁴¹⁾.

فترى ابن سلام فيما سقناه عنه من نماذج لمروياته المتعلقة بالتفسير يورد روايات متعددة في المعنى الواحد، ويدعم السند أحياناً بأكثر من راو واحد في

(39) النسخة القيروانية رقم 161 لا يوجد بها أرقام صفحات. في هذا الموضوع.

(40) نسخة القيروان رقم 161 سورة البقرة.

(41) نسخة القيروان رقم 161 سورة البقرة.

طبقة واحدة، ولكنه يروي عن الكلبي بعض المرويات وهو واه مردود الحديث، وكثيراً ما يقويها بطرق أخرى، ويتسع صدره للأراء المختلفة في المسألة الواحدة، وذلك أثر لانتفاعه بخصائص المدارس المتعددة للتفسير والفقه.

وهكذا مهد ابن سلام السبيل إلى أبي جعفر بن جرير الطبري الذي خرج على الناس بجامعه في التفسير، وقد نقل فيه عن ابن سلام⁽⁴²⁾ وإن لم يكثر من ذكر اسمه، كما كان تفسير ابن سلام مصدراً من مصادر المفسرين الأفاقة والمغاربة على اختلاف عصورهم وأمصارهم، وكان على رأسهم القرطبي الذي نقل عنه في مواضع من تفسيره مصرحاً باسمه⁽⁴³⁾، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى...﴾ فاطر 45 وقال الشمالي ويحيى بن سلام في هذه الآية يجبس الله المطر فيهلك كل شيء⁽⁴³⁾.

ونقل عنه معنى يزفون من قوله تعالى ﴿فأقبلوا إليه يزفون﴾[الصافات 94] وحكى يحيى بن سلام: يرعدون غضباً⁽⁴⁴⁾. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وذرنى والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾ المزمّل 11 ينقل عنه المراد بالمكذبين أولي النعمة: «وقال يحيى بن سلام: إنهم بنو المغيرة»⁽⁴⁵⁾. وبلغ من اهتمام المغاربة بتفسير ابن سلام أن قام بعضهم بتلخيص هذا التفسير كما فعل ابن أبي زُمنين: محمد بن عبد الله بن عيسى المَرِّي الأندلسي المولود سنة 324هـ والمتوفى سنة 379⁽⁴⁶⁾، ومخطوط ابن أبي زمنين الملخص لتفسير ابن سلام يوجد بتمامه مخطوطاً في مكتبة القرويين بالمغرب تحت رقم 34، كما توجد من هذا المختصر نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني تحت رقم

(42) انظر تفسير الطبري ج 2 ص 250.

(43) تفسير القرطبي ج 6 ط 1 الشعب ص 5443.

(44) تفسير القرطبي ج 7 ص 5539 ط الشعب.

(45) تفسير القرطبي ج 8 ص 6837 ط الشعب.

(46) طبقات المفسرين للسيوطي ص 90، وطبقات المفسرين للوديعي ج 2 ص 165.

(47) تاريخ التراث العربي لقواد سركين ج 1 ص 218.

820، تقول الدكتورة هند شلبي في قيمة هذا المختصر: «والجانب الهام في هذا المختصر يتمثل في تعيين المؤلف لقراءة يحيى، وإن لم يفعل ذلك دائماً نظراً إلى أن عملية التخصيص تلك يقوم بها ابن أبي زمنين عن اجتهاد منه بشرط أن يكون ابن سلام قد جعل ذلك أمراً ممكناً؛ لذلك نراه يتوقف عن الإشارة إلى قراءة يحيى عندما لا يوفر له ابن سلام أسباب التعرف عليها»⁽⁴⁷⁾. فيبدو من العبارة السابقة أن ابن أبي زمنين لا يكتفي بالتلخيص بل يتصرف بالاستنباط والاجتهاد والمقارنة مما يكسب هذا المختصر أهمية علمية، استوحاها المختصر من كتاب ابن سلام الذي عمد إلى توضيحه وإجمال معانيه؛ لأن تفسير ابن سلام يجمع بين الروايات والنظر فيها، وفي المعاني اللغوية بعين النقد والترجيح، وذكر السيوطي في طبقات المفسرين أن لعبد الرحمن بن مروان أبي المطرف الأنصاري القرطبي مختصراً لتفسير ابن سلام، وقد ولد أبو المطرف سنة 341هـ وتوفي سنة 413هـ⁽⁴⁸⁾ فهو متأخر عن ابن أبي زمنين، وهذا المخطوط فيما أعلم مفقود، كما أعلمتني الدكتورة هند شلبي أن هناك مختصراً لتفسير ابن سلام كتبه مفسر يسمى «ابن هود» قام أحد الدارسين بتحقيقه في الجزائر مؤخراً، وإذا طبع هذا المختصر سيساعد الباحثين في استيضاح معالم منهج ابن سلام في التفسير.

ومن اهتمامات الباحثين المعاصرين في إبراز خصائص منهج ابن سلام التفسيرية بحث في الدبلوم تقدم به الطالب: مكرور سلوى إلى كلية الآداب بالرباط في المغرب سنة 1990م بإشراف الدكتور: التهامي الراجح، ولم أتمكن من الاطلاع على هذا البحث، وما زلنا نرتقب دراسة وافية معمقة عن منهج ابن سلام في تفسيره، وتحقيقاً كاملاً لتفسيره الذي يصادف الباحثون في تحقيقه صعوبات كاداء بسبب قدم مخطوطته اليتيمة، وتعرض بعض صفحاتها للطمس والخرم، وجهود الباحثين متواصلة في العثور على نسخة أخرى تسهل هذه المهمة الشاقة وإن كان هناك من مأخذ على تفسير ابن سلام فهو احتواؤه على

(48) القراءات بأفريقية، هند شلبي ص 162.

(49) طبقات المفسرين للسيوطي ص 54.

بعض الإسرائيليات، وتلك علة تفتت في التفسير منذ نشوئه، لأن بعض الصحابة كانوا أهل كتاب فأسلموا وكذلك بعض التابعين، فنقلوا بعض الإسرائيليات التي تسربت إلى أذهانهم من علم أهل الكتاب. فينقل بعض الإسرائيليات، ولا يعلق عليها بالرد أو القبول من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ولها عرش عظيم﴾ [النمل 23] «قال قتادة وعرشها؛ سريرها، وكان سريراً حسناً، كان من ذهب، وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستراً بالدبياج والحريز، كانت عليه سبعة مغاليق، وكانت دونه سبعة أبيات بالبيت الذي هو فيه، مغلفة»⁽⁴⁹⁾.

وتبقى لهذا التفسير أهميته العلمية والتاريخية حيث يعقد الصلة بين المشرق والمغرب، ويوثق حلقة كانت مفقودة بين تفسير الطبري وتفسيرات التابعين التي رووا أكثرها عن الصحابة، كما تبقى له أهميته في امتزاج مدارس التفسير السلفي وأنه اجتمعت فيه مدارس المشاركة والمغاربة، حيث جمع مصنفه مواد من المشاركة وهو بالبصرة ومكة، وأملأه على تلامذته المغاربة بالقيروان، ويعطينا هذا المخطوط فكرة واضحة المعالم عن تطور علم التفسير من دور الرواية المحدودة والاعتماد على الأثر إلى دور النقد للروايات المتعددة في المعنى الواحد، وترجيح بعضها على بعض، وهو فاتحة لعهد التفسير بالرأي الذي نما وتطور على يد البلاغيين والمتكلمين فيما بعد، نتيجة لتشابك العلوم وتداخل المعارف، واتساع أفق التفكير الإسلامي، الذي لم يكن في عصور نهضته مقصوراً على مصادره الإسلامية، بل كان يفتح آفاقه على العلوم الأخرى، ولا تجرّفه التيارات الفكرية العاصفة، لقوته المتمثلة في صحة مأثوره، ومثانة معقوله.

ويحيى بن سلام من رواد علم التفسير الذين ساهموا في تطور هذا العلم من مرحلة الاقتصاد على النقل إلى مرحلة الاستنباط بالعقل في تدرج وتمهل من غير حيف ولا شطط، كما يدلنا هذا التفسير على حقيقة ماثلة وهي أن

(50) القطعة رقم 7447 - للجلد الأول ق 24.

التفسير نشأ وتطور على أيدي علماء الحديث للعلاقة بين القرآن والسنة، فقد كان ابن سلام محدثاً صدوقاً كما كان مفسراً محققاً، فهذا هو الذهبي يروي حديثاً انفرد به يحيى بن سلام وهو أن النبي ﷺ قال: ما من أيام أعظم عند الله من عشر ذي الحجة إذا كان عشية عرفة نزل عز وجل إلى السماء الدنيا (والنزول هنا مجازي أي رحمته تعالى). وحفت به الملائكة، فيباهي بهم الملائكة ويقول: انظروا إلى عبادي، أتوني شعثاً غبراً حاجّين من كل فج عميق، ولم يروا رحمتي ولا عذابي، قال: فلم ير يوم أكثر عتقاً من يوم عرفة⁽⁵⁰⁾.

كما أن ابن سلام بارتحاله إلى القبروان ساهم في عمارة الغرب الإسلامي بالعلم والإصلاح، ففتح باب النهضة العلمية مع غيره من الفقهاء والمحدثين والمفسرين لمدينة القبروان، هذه المدينة المباركة، ولما حولها من المدائن الأفريقية، وفي ذلك عبرة لكل موحد يريد أن يجمع العرب والمسلمين اليوم بأواصر العلم الإسلامي، ويريد أن يكون تواصلهم على جسر متين من العلم والتقوى لا تغله الحوادث ولا تقطعه المحن، وعلى الباحثين من الأقطار المغاربية مهمة بناء هذا الجسر العظيم، ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [التوبة 120].

تَبَيَّنَ بِالْمَجَازِ وَالْمَرَاجِعِ عَلَى حَسَبِ وُجُودِهَا فِي الْمَبْدَأِ

- 1 - تاريخ الإسلام: د. حسن إبراهيم حسن - دار الأندلس - بيروت - ط سابعة - 1964م.
- 2 - تفسير يحيى بن سلام: تحقيق محسن ساسي - شهادة كفاءة مرفوعة لكلية الآداب - تونس.
- 3 - التفسير ورجاله: الفاضل بن عاشور - دار الكتب الشرقية - ط ثانية: 1972م.
- 4 - معالم الأعيان في معرفة أهل القبروان للصباغ - ط ثانية - مصر - 1978م.
- 5 - فتوحات الإسلام: محمد النجار وأحمد مجاهد - مكتبة النهضة المصرية - ط أولى - 1976م.
- 6 - لسان الميزان: لابن حجر - ط ثانية - بيروت - 1971م.

(51) ميزان الاعتدال للذهبي ج 2 ص 381.

- 7 - تاريخ الأدب العربي - بروكلمان - نشر جامعة الدول العربية - دار المعارف بمصر - 1977م.
- 8 - الأعلام للزركلي - دار للعلم للملايين - بيروت - ط خامسة - 1980م.
- 9 - العرب في صقلية د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - ط ثانية - 1975م.
- 10 - رياض النفوس لأبي بكر المالكي - مصر - ط أولى - 1951م.
- 11 - ميزان الاعتدال - للذهبي - ط أولى - 1963م.
- 12 - طبقات المفسرين للداودي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط أولى - 1983م.
- 13 - مقدمة في أصول التفسير - لابن تيمية - تحقيق عدنان زرزور - ط ثانية - 1961م.
- 14 - التفسير والمفسرون للدكتور محمد الذهبي - دار الكتب الحديثة - مصر - ط أولى - 1961م.
- 15 - كتاب التصاريغ ليحيى بن سلام - تحقيق هند شلبي - الشركة التونسية للتوزيع - 1980م.
- 16 - أبو الحسن الحصري القيرواني: محمد المرزوقي والجيلاني بالحاج يحيى - مكتبة المنار - تونس - 1963م.
- 17 - تاريخ التراث العربي: فؤاد سزكين - الهيئة المصرية للتأليف والنشر - مصر - 1970م.
- 18 - مخطوط تفسير ابن سلام: المجلد الأول رقم 7447 المكتبة الوطنية بتونس.
المجلد الثاني رقم 18853 المكتبة الوطنية بتونس.
نسخة القيروان رقم 161 المكتبة الوطنية بتونس.
- 19 - تفسير الطبري: ط ثانية - مكتبة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة: 1954م.
- 20 - تفسير القرطبي: طبعة دار الشعب - القاهرة - من غير تاريخ.
- 21 - القراءات بأفريقية من الفتح إلى منتصف القرن الخامس: هند شلبي - الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس - 1983م.

النفس والعقل في القرآن الكريم

الدكتور محمد بن عمران
جامعة الفساح

مدخل:

القرآن الكريم - كما نعلم - لا يتضمن نظريات علمية أو نفسية أو غيرها، لكنه يشتمل على معطيات وأسس كاملة لإنشاء تلك النظريات، وما على العقل البشري إلا الاستفادة من هذه المعطيات والأسس، وإعمال الفكر لإثرائها وبناء النظريات على أسسها المتينة التي يعتمدها الباحث كفرضيات ومسلمات بديهية تبعاً لمبدأ حتمية الإيمان بكمال الخالق المطلق، والاكتمال النسبي للخلق البشري، خاصة في مجال أبحاث علم النفس التي موضوعها شخصية الإنسان.

ولهذا، نجد القرآن الكريم يكشف للدارس المتأمل عن بعض أسرار النفس الإنسانية، وعن بعض أسرار الكون من حوله، تمهيداً لدراستها ومعرفة حقائقها، وهو يهدف من وراء ذلك إلى أن يختار الإنسان الطريق الصحيح في الحياة.

وفي حديثه عن النفس، يذكر القرآن الكريم خصائصها التي أبدعها الخالق، ووضع لها القوانين الشاملة الثابتة الصالحة لكل زمان ومكان ولا بد لنا هنا، وهو هدف هذا البحث، من وقفة، ولو قصيرة ومتواضعة، لتوضيح بعض المفاهيم النفسية المتعلقة بالجوانب غير المادية في الشخصية الإنسانية كما وردت في القرآن الكريم.

وأبرز ما يثير اهتمامنا، ونتناوله بالدراسة والشرح، أو نسعى لتوضيحه في هذا المقام مفهوما «النفس» و «العقل».

«1»

«النفس» هي جوهر الإنسان ومعقد صلاحه، وبينما يموت جسد الإنسان ويفنى، تبقى النفس منتظرة يوم البعث لتلتقي بالجسد، فالنفس إذن متميزة عن الجسد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. [الفجر، 27-30].

لقد اهتم القرآن الكريم بالنفس الإنسانية اهتماماً فريداً لأنها معقد صلاح سريره، وورد لفظ النفس ومشتقاته في القرآن في (295) موضعاً. وقد تناول القرآن الكريم النفس الإنسانية «تناولاً شمولياً من الزوايا البنائية، التنموية، والوقائية والصلاحية، وأولى اهتماماً أكبر للناحية البنائية، التنموية لاشتمالها ضمناً على الوقاية والعلاج»⁽¹⁾.

إن ما ورد في القرآن حول النفس يمدنا بتصور إسلامي للنفس الإنسانية، وهناك عدة جوانب أساسية للنفس، وهي:

1 - النفس المطمئنة:

هي النفس التي تخاف الله، وتؤمن بلقائه، وترضى بقضائه، وتقعن بعباده «ويؤدي الشعور بالاطمئنان إلى الثقة بالله، وانتفاء المخاوف، وزيادة

(1) مجاهدة الشهابي الكتاني. «نحو نظرية إسلامية تكاملية في الشخصية»، «مجلة علوم التربية»، العدد الرابع، مارس، 1993، ص 115.

مستوى الثبات الانفعالي»⁽²⁾. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُّرْضِيَةً، فَأَدْخِلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. [الفجر، 27]. فالنفس المطمئنة، إذن، هي النفس التي هدأت وسكنت واطمأنت من خلال اتصالها بربها والإيمان به والولاء له والتوكل عليه، يسيرها على النهج الإسلامي، فإذا بها «تنمو نمواً مرغوباً تبلغ به أعلى مستويات النضج والاكتمال الإنساني. وتتمكن من التوفيق بين المطالب الجسدية والروحية لتحقيق التوازن». ⁽³⁾ يقول الله تعالى في جوهر الاطمئنان، وهو الإيمان بالله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. [الرعد 28].

2 - النفس اللوامة:

هي التي تحمل بين جناباتها قدراً قليلاً أو كثيراً من سلامة الفطرة ونقاها. وهي دائمة التنبيه لما قد يعكر صفو الشخصية من إثم أو معصية. فالنفس اللوامة هي حالة تتسم فيها الشخصية الإنسانية بمحاسبة النفس على أخطائها، والسعي للامتناع عن ارتكاب ما يغضب الله ويسبب تأنيب الضمير. والسبيل لإعادة الطمأنينة إلى الشخصية هو التوبة، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَأَنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه، 82].

فالنفس اللوامة هي التي تشعر بالذنب، فتندم على ما فات وتلوم عليه، «فهي في مرتبة الضمير الذي يتولى مهمة الرقابة الداخلية على السلوك، مما يجعل المؤمن يعمل دائماً على مساءلة نفسه ومحاسبتها ومعاتبتها على ما يصدر منها من زلات أو هفوات في قوله أو عمله». ⁽⁴⁾ يقول تعالى: ﴿لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾. [القيامة، 1-2]. وهاتان الآيتان تشيران صراحة، وخاصة الآية الثانية، إلى المكانة الكبيرة للنفس اللوامة في مسار حياة الإنسان، لأن الباري عز وجل قد أقسم بها.

(2) رمضان القلافي. «علم النفس الإسلامي»، الجماهيرية: صحيفة الدعوة الإسلامية، 1990، ص 10.

(3) مجاهدة الشهابي الكتاني. المصدر نفسه، ص 115.

(4) رمضان القلافي. المصدر السابق نفسه، ص 10.

3 - النفس الزكية :

هي النفس الطاهرة من الخبث والدنس والشرك بالله، فهي لا ترتكب معصية، ولا تخالف أوامر الله.

وبمعنى آخر، إن تزكية النفس تتحقق بفعل الطاعات، وبالعمل الصالح، وبإتطهيرها من رذائل السلوك، وعدم حملها على الانحراف. يقول تعالى: ﴿قَالَ أَقْتَلْتَنفَسًا زَكِيًّا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾. [الكهف، 74].

﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه، وإلى الله المصير﴾. [فاطر، 18].

﴿قد أفلح من زكاهها، وقد خاب من دساها﴾ [الشمس، 9-10].

﴿قد أفلح من تزكى﴾ [الأعلى، 14].

هذا فيما يخص المراتب العليا من النوع الأول من الأنفس التي تخاف الله وتمسك بأوامره، وتنتهي عن نواهيها. وهناك مراتب أخرى لنوع آخر من الأنفس، وهي المراتب الدنيا للأنفس الراضية لأوامر الله، المعطلة لحدوده. إنها الأنفس الضالة التي تميل دائماً إلى الانحراف وارتكاب الفواحش⁽⁵⁾.

والأمثلة لهذه الأنفس كما وردت في القرآن الكريم هي كما يلي:

النفس الأئمة :

هي التي تستبجح حرمات الله، وتتبع هواها، وترتكب المعاصي، ولا ترتدع عن فعل الكبائر، ولا تنتهي عما نهى الله عنه، ولا تستجيب لداعي الحق. يقول تعالى:

﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾. [المائدة، 30].

﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾ [النساء، 111].

﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا

يقترفون﴾. [الأنعام، 120].

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا

(5) يُنظر: رمضان القذافي. المصدر السابق نفسه، ص ص 11 - 15.

بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً». [الفرقان، 68].

النفس الظالمة :

هي التي تنتهي بصاحبها إلى الظلم، سواء كان ذلك عن طريق مخالفة أوامر الله، وعدم اجتناب نواهيه، أو عن طريق ظلم النفس بدفعها إلى الخطايا والذنوب، أو عن طريق ظلم الآخرين. قال تعالى: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به﴾. [يونس، 54].

﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه﴾. [الكهف، 57].

﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾. [البقرة، 59].

﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾. [الشورى، 42].

3 - النفس المستكبرة: هي التي تنخدع بقوتها، فلا ترى غير نفسها، ولا تتصور من هو أقوى منها، مما يجعلها تتمادى في الشعور بالعظمة والتكبر، وتزداد عتواً وطمعاً. يقول تعالى:

﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾. [الفرقان، 21].

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾. [البقرة، 34].

﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾. [القصاص، 39].

﴿والذين كذبوا بآياتنا، واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. [الأعراف، 36].

4 - النفس المخادعة :

هي التي تخطط للدهائن، وتتآمر على الآخرين، وتتبع الطرق الملتوية لتحقيق أهدافها عن طريق المكر والخداع يقول تعالى: ﴿قال بل سولت لكم

أنفسكم أمراً». [يوسف، 18].

﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾
[البقرة، 9].

﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره
وبالمؤمنين﴾. [الأنفال، 62].

5 - النفس الأمارة بالسوء :

هي التي ألحق بها القرآن الكريم صفة السوء، قال تعالى: ﴿وما أبرئ
نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم﴾.
[يوسف، 53].

يصف القرآن الكريم النفس الأمارة بالسوء بأنها التي يملؤها الهوى،
ويستبد بها الضلال، وتدل على حالة بلغت فيها الشخصية أدنى مستوياتها
الإنسانية من حيث سيطرة الرغبات الحسية والشهوات والملذات البدنية
والدنيوية.

ويتعبّر آخر، إن النفس الأمارة بالسوء هي التي تدفع صاحبها إلى
ارتكاب المعاصي وفعل الرذائل والسعي إلى الفواحش، دون مراعاة للحرّمات
أو تفكير في سوء المصير.

قال تعالى: ﴿ونجّيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم
سوء فاسقين﴾. [الأنبياء، 74].

﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن
السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت
مصيراً﴾. [الفتح، 6].

إذن، من خلال ما سبق، نستنتج أن الأنفس ذوات المراتب العليا هي
التي تمثل حالة الاستقرار والطهارة والنقاء التي تحقّقها عبر اتصالها بخالقها،
والخضوع له، مما يدل على نضجها واكتمال نموها. كما أنها أيضاً تمثل
الحارس الأمين على مسار الشخصية لحمايتها من المعاصي والهفوات والزلاّت

التي ينهى عنها الخالق.

أما الأنفس ذوات المراتب السفلى فهي تمثل الغرائز والأهواء والشهوات البدنية الدنيوية، التي تدفع صاحبها إلى الهلاك. ولنأت الآن إلى المحور الثاني لهذه الورقة، وهو «العقل» لنرى رأي القرآن الكريم فيه.

(2)

كلمة العقل من ناحية اللغة مشتقة من «عقله»، بمعنى ربط وثاقه ليحفظه من الإفلات. ويطلق العرب «العقل» على ما يحفظ الإنسان من موجبات الردى. ويُقَابَلُ العقلُ عادةً بالجهل والجنون. ويقصد بالجهل عدم القيام بما ينبغي القيام به لعدم معرفته أو لتغلب الشهوة. ويقصد بالجنون خلل في أعصاب الفرد يجعله غير قادر على العمل بما ينبغي عليه⁽⁶⁾.

والعقل كما يقول صاحب «كشف مصطلحات الفنون» هو «أداة الإنسان لإدراك الحقائق والتمييز بين الأمور الحسنة والقيحية، وهي تزداد قوة بالتجارب وتستنبط بها المصالح والأغراض، ويحصل بها الوقوف على العواقب»⁽⁷⁾ ولقد وردت الكلمات «عقلوه، تعقلون، نعقل، يعقلها» في (49) موضعاً من الكتاب الكريم. كما وردت كلمة «الألباب» في (16) موضعاً والألباب جمع «لب» وهو العقل.

كما وردت في القرآن الكريم كلمة «أولي النهي»، أي أصحاب العقول. وأما «العقل» فإن القرآن الكريم في حديثه عنه لم يذكره ككيان قائم بذاته، بل ذكر آثاره التي تنبئ عنه، والأفعال التي تشير إلى وجوده. أما إذا تحدثنا عن المواضيع التي تتناول وظائف العقل المختلفة، مثل التفكير والتذكر، والتدبر، والرشد، والنظر في الأمور ورؤيتها «الخ»، فسنجد أنفسنا أمام عدد كبير من الآيات القرآنية. يقول تعالى:

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾. [النور، 61].

(6) محمد تقي. «المفاتيح الإسلامية»، أصوله ومناهجه» بيروت: دار الجليل، 1977، ص 144.

(7) نقلاً عن: محمد تقي. المصدر السابق نفسه، ص 46.

﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾. [يوسف، 2].

﴿وانتقون يا أولي الألباب﴾. [البقرة، 197].

﴿قل هل يستوى الأعمى والبصير، أفلا تتفكرون﴾. [الأنعام، 59].

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. [الروم، 21].

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾. [الملك، 10].

﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾. [الأنفال، 22].

والحق أن القرآن الكريم كان يتدرج مع العقل الإنساني في وظائفه، مرحلة بعد مرحلة، فمن الحث على المشاهدة والتسجيل. إلى الدعوة إلى المقارنة والتحليل، حتى يصل به إلى القضايا العقلية البحتة. فمن ذلك قوله في المرحلة الأولى، مرحلة الدعوة إلى الملاحظة والتسجيل واستخلاص ما ينطوي عليه ذلك من نواميس ومبادئ.

يقول تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت﴾. [الغاشية، 17 - 20].

﴿فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب﴾. [الطارق 5 - 7].

وعلى هذه الوتيرة، يوجه القرآن الكريم العقل البشري لرصد مختلف الكائنات والمخلوقات، وما تنطوي عليه كلها من سر واحد عظيم، وهو سر وجودها وكونيتها، وكيف أن هذا السر العظيم، لا يقل في النملة الصغيرة عنه في الشمس والكواكب والنجوم.

فألذباب والعنكبوت، والنمل، والتين والزيتون، كالنجوم والأفلاك، كالعقلم وما يخطه من ثمار العقل، كلها ظواهر جديرة بأن تحمل العقل على التطلع إلى ما تنطوي عليه من سر ينطق بأن هذا الكون يقوم على نظام ويهدف إلى غاية، ولا بد أن يكون وراء ذلك قوة منظمة وهادفة ومن البسائط

الأساسيات يتطور القرآن بدعوة العقل إلى ظواهر أكثر تعقيداً وتركيباً. يقول تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون﴾. [يس 37 - 40].

﴿ألم تر أن الله يزوجي سبحاً ثم يؤولف بيته، ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لمبرة لأولي الأبصار. والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾. [النور، 43 - 45].

وكثيرة في القرآن الكريم مثل هذه الآيات التي ترى فيها بوضوح بذور العلوم المتنوعة من طبيعية وحيوية وغيرها.

بل إن القرآن الكريم ليشير إلى العلم التجريبي، وكيف أنه مصدر اليقين الذي لا يعلوه يقين، وذلك في حديثه عن سيدنا إبراهيم عندما سأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى. يقول تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾. [البقرة، 260].

فهذا دليل على أن سيدنا إبراهيم كان مؤمناً، ومع ذلك فقد هفت نفسه إلى رؤية تجربة عملية، لما في ذلك من اطمئنان العقل، فالقلب هنا لا يمكن إلا أن يكون العقل⁽⁸⁾. وقد استجاب الله لطلب إبراهيم، أي أنه لم يعنفه على هذه الرغبة إدراكاً من الله عز وجل لأثر التجربة الحية في تكوين اقتناع الإنسان، فكلفه أن يقوم بالتجربة، فيذبح بعض الطيور ويوزع أعضائها في أكثر من مكان، ثم يدعوها إليه فتجيئه سعيّاً، وقد ردت إليها الحياة بقدرة الله.

(8) نقل عن: أحمد حسين. «الإسلام دين العقل»، اعتبر الإسلام، العدد التاسع، نوفمبر، 1969، ص 21.

﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيّاً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ [البقرة، 261] .

ولما كانت آفة العقل والفكر هي في الجمود والتخلف، والتمسك بالعادات والتقاليد البالية التي لا نفع منها ولا حجة تقوم عليها، فقد شن القرآن الكريم حرباً على تجميد الفكر بحجة التمسك بما كان عليه الأقدمون.

يقول تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما آباءنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ [البقرة، 170] .

﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، قال أولو جئناكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا إنا بما أرسلكم به كافرون﴾ [الزخرف، 22 - 24] .

والقرآن بعد ذلك من أوله إلى آخره دعوة ملهمة لكل من له أذنان للسمع، وعينان للبصر، وعقل للتفكير، أن ينظر ويفكر ويتدبر ويعقل ويفقه. يقول تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد، 24] .

﴿قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ . [الحديد، 17] وقد وردت كلمة «تعقلون» بمثل هذا السياق 48 مرة.

﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ [الأنعام، 98]. وقد وردت كلمة «يفقهون» بهذا السياق 17 مرة.

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الحجرات، 13]. وقد وردت كلمة «يتفكرون» بمثل هذا السياق 11 مرة.

وهكذا تطالعنا الدعوة إلى العقل والتفكير والتدبر والتأمل في كل سورة من سور القرآن الكريم، إن لم يكن بالتصريح في مثل ما تقدم، فبالإيماء والإشارة لكل مسلم تدعوه لتفهم آيات القرآن وتدبرها من ناحية، وآيات الله في هذا الكون من ناحية أخرى.

ولهذا، اندفع العقل المسلم، مدفوعاً بما ورد في القرآن الكريم من حث على طلب العلم، ودعوة لفهم وتدبر آياته، إلى شتى مجالات العلوم والمعارف يأخذ منها، ويضع لها قواعد البحث العلمي ويرتقي بها، بحيث لم تمض مدة طويلة حتى كان العقل المسلم قد وضع بالفعل أساساً عامة متعارفاً عليها للبحث في شتى المجالات، فهناك مثلاً منهج لدراسة العلوم اللغوية، وآخر للتفسير، وثالث للعلوم الطبيعية والكونية، وغيرها. وأثمر هذا البحث العلمي الجاد عن حقائق المعرفة بالنسبة لجميع العلوم النظرية والتطبيقية على حد سواء تراثاً علمياً زاخراً. ويرى معظم الباحثين⁽⁹⁾ أن أعظم ما يمكن أن يفخر به العقل الإسلامي في عصر ازدهاره هو وضعه لأصول المنهج التجريبي بما يقتضيه هذا المنهج من ملحوظات دقيقة، من تسجيل منظم لتلك الملحوظات ثم وضع الفروض لتفسيرها وإجراء التجارب للتحقق من صحة هذه الفروض. ولقد ظهر من بين علماء المسلمين الكثيرون في شتى المجالات العلمية الذين اعتمدوا التجربة منهجاً أساساً في المعرفة، لعل من أبرزهم:

جابر بن حيان، في الكيمياء * والحسن بن الهيثم، في البصريات * وابن سينا، في الطب * وغيرهم كثيرون * ممن أزالوا الحد الفاصل بين النظرية والتطبيق، والتأمل العقلي والتجريب، وبذلك قدموا للإنسانية عامة وللحضارة الأوروبية الحديثة بوجه خاص درساً رائعاً في منهج البحث العلمي.

وإذا كان للعلوم بأنواعها المختلفة تلك المنزلة الكبيرة في حياة المسلم، فقد لفت القرآن الكريم نظره إلى حقيقة أن هذه العلوم مكتسبة وأن الإنسان مطلوب منه أن يحصلها بنفسه، بما منحه الله من أدوات وقدرات نفسية وعقلية مختلفة. يقول تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾. [النحل، 78].

ولقد أحصى أحد الباحثين ما ورد في القرآن الكريم من آيات تتعلق

(9) انظر: فؤاد زكريا، «التفكير والعلم». الكويت: المجلس الوطن للثقافة والفنون والآداب، 1978، ص ص 161 - 162.

بالعلوم، فوجد أنها تمثل أكثر من «عشر» 1/10 القرآن⁽¹⁰⁾، . .

فمن بين مجموع آيات القرآن، وعددها (6257) آية، وجد (670) آية تتعلق بشتى الموضوعات العلمية، موزعة كما يلي:

الرياضيات (61) آية. الفيزياء (64) آية. الذرة (5) آيات. الكيمياء (9) آيات. النسبية (62) آية. الفلك (100) آية. المناخيات (20) آية. العائيات (14) آية. علم الفضاء (11) آية. علم الحيوان (12) آية. علم الزراعة (21). علم الأحياء (26) آية. الجغرافيا العامة (73) آية. علم السلالات البشرية (10) آيات. طبقات الأرض (20) آية. علم الكون وتاريخ الأحداث الكونية (36) آية. وصف العلم والعلماء والحث على العلم (64) آية. الرياضيات (57) آية.

خاتمة: قلنا في البداية إن القرآن الكريم لا يحتوي على نظريات علمية، لكنه يحمل معطيات وأساساً كاملة لإنشاء تلك النظريات. وبالتالي، فإن القرآن الكريم من أوله إلى آخره يدعو الإنسان لاستعمال عقله، والنظر في نفسه وفي الكون حتى يكتشف الحقائق ويؤسس النظريات العلمية التي تقوده إلى حتمية الإيمان بكمال الخالق المطلق.

(10) عبد الرحمن النقيب. «بحوث في التربية الإسلامية». القاهرة: دار الفكر العربي، 1987، ص 49 - 50. نقلاً عن:

● يوسف مروة. «العلوم الطبيعية في القرآن». بيروت: منشورات مروة العلمية، 1968، ص 76 - 77.

رَأْيُ حَوْلَ

البَشَرِ فِي رَسُولِ ﷺ

فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ عِنْدَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ

الاستاذ الساعى على حسين

كلية الدعوة الإسلامية

الفكرة والهدف :

تسعى رابطة العالم الإسلامي بمختلف هيئاتها إلى إيجاد وسائل جديدة لنشر الدعوة الإسلامية وتبليغ رسالة الله إلى خلقه في مختلف أرجاء المعمورة .

وحتى تكون الدعوة مواكبة للمستوى الفكري والعلمي الذي وصله الإنسان في هذا العصر، فقد أنشأت هيئة للاهتمام بإبراز الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة لمخاطبة كل إنسان وفقاً لاستعداده ومبلغه من العلم .

وقد أخذت هذه الهيئة على عاتقها البحث عن البشارات بالرسول محمد ﷺ الواردة في الكتب المقدسة عند غير المسلمين «إقامة للحجة على أهل الكتاب من واقع كتبهم على نبوته ﷺ» ، وإلزامهم بنصوصها مما يثبت إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في إخبارهما عن وجود النبي ﷺ مكتوباً

عندهم في التوراة والإنجيل .

وقد قام الأستاذ الكريم أحمد الصاوي الباحث بهذه الهيئة بإعداد الهيكلية العامة لهذا العمل الكبير، ووضع المسارات ومجالات البحث لمساعدة الباحثين على إيجاد منهج واحد أو متقارب للوصول إلى الحقيقة، تمهيداً لعقد مؤتمر دولي يحاور العالم كله حول ميراث النبوة المدخر في كتب أصحاب الديانات).

ويضم هذا المؤتمر عدداً من علماء الأديان من غير المسلمين لمناقشة هذه البشارات، ويأمل المشروع أن يتناول العلماء من غير العرب - خاصة علماء الهند - ما اشتملت عليه كتب الهندوس من بشارات.

سعي مشكور:

نظراً لأهمية هذا العمل وخطورته، ولأنه يهم جميع المسلمين ولا يتعلق الأمر بالرابطة أو بعض هيئاتها فقط، فقد سعت هذه الهيئة مشكورة إلى إبلاغ أكبر عدد من الباحثين والمهتمين بالدعوة لدين الله بهذا المشروع وبوسائله وغاياته ليمدوا يد العون والمشورة، ويتحملوا مسؤوليتهم في خدمة دين الله.

وقد قام الباحث بالاتصال الشخصي بعلماء في مصر والسودان وباكستان والهند، وتم توزيع نسخ من الكتاب الذي أعده على بعض المؤسسات في العالم الإسلامي للنظر فيه والمشاركة - ولو بكلمة طيبة - في هذا العمل الكبير، ولأنني قد اطلعت عليه فقد أصبحت مسؤولاً أمام الله سبحانه وتعالى على تنبيه القائمين على هذا العمل بما يبدو لي قصوراً قبل الوقوع في الخطأ لأن نتائج هذا المؤتمر ستعكس على العالم الإسلامي كله إيجاباً أو سلباً.

ملحوظات الباحث:

تجب الإشارة - إنصافاً للباحث - إلى أنه أعد كتابه هذا وهو على علم مسبق بما سيثار ضده من اعتراضات، ومواءمته للناس أو خالفه فلا يمكن وصف عمله بالقصور. وغاية ما يقال إنه اختلاف في الاجتهاد ووجهات النظر ونرجو له أجر المجتهد إن أخطأ.

- فالباحث أثبت النقاط التالية :

1 - (لقد حاول أهل الكتاب جهدهم - لما تبين لهم انتقال النبوة منهم إلى بني إسماعيل - أن يطمسوا معالم البشارات بالرسول ﷺ في كتبهم) ص 13 و (إن مسيرة التحريف لهذه الكتب تجري على قدم وساق كلما تنبه القوم إلى أمر لا يسير وفق هواهم سارعوا إلى حذفه)

2 - يرى الباحث (أن استخراج البشارة به ﷺ من كتب غير المسلمين أمر تكون الحجة به أكثر إلزاماً لهم، بغض النظر عن كون هذه الكتب قد حرفت، فالتحريف لم يشملها كلها، وإلا لما استشهد رسول الله بالتوراة - مع علمه بتحريفها - في واقعة زانية أهل الكتاب) ص 16.

ذلكم هو مجمل ما احتواه هذا الكتاب باختصار جد شديد. ونظراً لما للموضوع من أهمية أحببت أن أشير إلى ما دار بخاطري وأنا أقرأ هذا الكتاب مكتفياً بعينات مما استوقفني، لأن مناقشة كل نقطة على حدة تحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل.

وهذه الأمثلة القليلة تغني عن كثير، راجياً من الله التوفيق والهداية.
يجب أن نعلم:

أ - أن الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى تعرض للتحريف والتغيير لأسباب كثيرة منها ما أشار إليه الباحث في الفقرة السابقة رقم (1).

ومنها ما نشأ عن نسيان النص وتطاؤل الزمن عليه، وتعرض أتباعه إلى حرب لا هوادة فيها من أباطرة الوثنية.

وإن كنا سنتهم بالتعصب إذا استشهدنا بأقوال المسلمين في هذا الشأن فإننا سنكون أكثر التزاماً بالإنصاف إذا ما رجعنا إلى كتابات علمائهم.

فالدكتور: فرانك جيبلين يقول: - (. . . فقد اشترك جملة كتاب في كتابته الكتاب المقدس - وقد بلغ هؤلاء نحو 40 رجلاً بعضهم معروف لدينا، والبعض الآخر غير معروف. فمثلاً موسى، وداود، وسليمان، ويوحنا، ويطرس هم أشهر من نار على علم، بينما عوبديا، وملاخي وصفنيا، وحقوق لا نعرف عنهم شيئاً).

ويقول: (. . . أما كتابته فقد استغرقت ما يقرب من 1500 سنة).

ويعترف هذا الكاتب بقوله: (. . . وهناك من أسفار العهد القديم ما لا نعرف له كاتباً حقيقياً، وكل ما نقدر عليه هو أن نخمن اسم كاتب هذه الأسفار وهي: سفر القضاة وراعوت، واستير، وصموئيل الأول والثاني، والملوك الأول والثاني، وأخبار الأيام الأول والثاني⁽¹⁾).

ويقول عريان بطرس: إن الذين اشتركوا في كتابته (كانوا مختلفين في الثقافة متباينين في الأعمال التي كانوا يمارسونها في البلاد التي عاشوا بها، وقد كانت كتابتهم تحت ظروف مختلفة متعددة من دينية وسياسية واجتماعية.

فمنهم الملك كداود وسليمان، وراعي الغنم كعاموس، والكاهن كزكريا، والنبي كصموئيل وأشعيا، والمتشريح كموسى، والقائد كيشوع، وصياد السمك كبطرس ويوحنا، والفيلسوف كبولس، والرسول والطبيب كلوقا، ومحصل الضرائب كمتى العشار⁽²⁾.

هذه الظروف التي اكتنفت توثيق نص الكتاب بقسميه القديم والجديد تجعلنا نحن المسلمين نفهم كيف حصل التحريف بقصد أو غير قصد. إننا نجزم بأن الكتاب قد حرف ودخلته تصورات وثنية أشير إلى أمثلة منها:

1 - يصور كتاب التوراة الله سبحانه وتعالى مثيلاً للبشر له أبناء عشقوا بنات البشر فدخلوا بهن، ومن ذريتهم الجبابرة (أنظر سفر التكوين الإصحاح 6 الفقرات 1 - 5) ويخاطب أحد كتابه اليهود بقوله: و (أنتم أبناء للرب إلهكم) تثنية 1/14.

2 - وفي الأصحاح 12 من السفر نفسه الفقرات 12 وما بعدها حتى 24 يصور كتاب التوراة الباري جل شأنه جاهلاً لا يعرف بيت المصري من

(1) استكشاف كتاب الكتب تأليف الدكتور فرانك جيلين، ترجمة عريان بطرس ص 8، 9 ط مطبعة النيل المسيحية بالمناخ بمصر سنة 1937 م.

(2) مقدمة المصدر السابق ص (ز) وما بعدها.

الإسرائيلي إلا إذا وجد علامة من الدم على عتبة الدار.

وتلك صفة أليق بالكلاب منها بصفات الله سبحانه وتعالى.

3 - وجاء في السفر نفسه الأصحاح 31 الفقرات 24 حتى 32 أن الله سبحانه وتعالى ظهر ليعقوب في البرية وتصارع معه، ولم يفلت من يد يعقوب إلا بعد أن ضربه على حق فخذه، لذلك لا يأكل اليهود عرق النساء!

أيصح الاعتماد - في مسألة دينية - على كتاب يصف الله بهذا الجهل والعجز؟ ١٩.

ب - أعود لتوضيح ما أشار إليه الباحث في كتابه (ص 13 و 25) وهو تحريفهم لما له علاقة بإسماعيل وذريته.

والذي يلاحظه المتأمل هو أن كُتَّاب التوراة تناولوا موضوع إبراهيم عليه السلام وذريته منساقين بروح التعصب والغيرة التي تحكم العلاقة بين بني إسماعيل وبني إسحاق، وسجلوا بحماس قول سارة لإبراهيم: (اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن الجارية لا يرث مع ابني) [تكوين 9/21 - 11].

وهذا القرار الذي أمَلته الغيرة هو الذي جعل كُتَّاب التوراة يتلاعبون بمسألة أرض الميعاد، وهي بيت القصيد ومستمسك اليهود في كل العصور.

وأول إشارة إليها نجدها حينما اجتاز إبراهيم عليه السلام أرض الكنعانيين فظهر له الرب وقال له: (لئْسَ لَكَ أُعْطِيَ هذه الأرض) [تكوين 7/12]

ونلاحظ هنا أمرين:

الأول: أن الوارث نسل إبراهيم دون الإشارة إلى إسحاق أو إسماعيل.

الثاني: أن الأرض هنا ذكرت بصفة عامة دون تحديد للمساحة. ولكن ظروف توثيق النص وتدخل كثير من الكُتَّاب والرواة وتطاول الزمن هي التي جعلت كتاب التوراة يحوزون هذه الأرض وفقاً لما تمليه الظروف المتاحة، فلماذا كان الكاتب محاطاً بعوامل ضاغطة اكتفى بإثبات الحق فقط ولو بجزء قليل، وإذا ما أحس غيره بضعف جيران الأرض أو مالكيها وسع من حدودها.

وهذه إشارات للتلاعب بالنصوص:

- 1 - في التكوين 13/13 - 18 تحدد الأرض بأنها مد البصر في جميع الاتجاهات وأنها لنسل إبراهيم الذي سيكون كتراب الأرض كثرة.
- 2 - في التكوين 15/18 في ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً: لئنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات؛ وهذه المساحة أكثر من مد البصر بكل تأكيد.
- 3 - في الإصحاح 26 من السفر نفسه ينقل كُتّاب التوراة العهد من ذرية إبراهيم كما وردت في النصوص السابقة إلى إسحاق ونسله قائلاً له: (وأني بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك) ولا بأس من أن يغير الله قسمه لصالح بني إسحاق!
- 4 - وتعمد الكاتب التجهيل بالحدود (جميع هذه البلاد) اشتعلت فتنة عائلية داخل بيت إسحاق بين عيسو الولد الأكبر ويعقوب، وانضمت الأم إلى الولد الأصغر ودبرت حيلة ليأخذ بها يعقوب بركة إسحاق الذي كف بصره من أخيه صاحب الحق.
- انظر سفر التكوين الإصحاح 1/27 - 46.
- 5 - وحينما بدأ كُتّاب التوراة في نقل ملكية الأرض من بني عيسو إلى بني يعقوب بدؤوا يمسون المسألة بحذر شديد لأن الأحقية مبنية على بركة مسروقة من صاحب حق لا زال حياً وأمهما واحدة.
- وقال الرب ليعقوب: (أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق والأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك) [تكوين 28/13 - 15].
- فالكاتب يجرب في إثبات الحق - موضع الاضطجاع - أما المساحة فترك للزمن المناسب.
- 6 - يأتي الزمن المناسب ويعيد كُتّاب التوراة العهد مع يعقوب (الأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحاق لك أعطيها، ولنسلك من بعدك أعطي الأرض). [تكوين 35/12].

ففي الزمن المناسب عمم الكاتب المسألة وجعل أي أرض أعطاهها الرب لإبراهيم أو إسحاق هي ليعقوب ونسله.

7 - وتأتي ظروف أكثر مناسبة لوضع حدود أكثر مرونة قابلة للدعاء بأن المساحة أكثر مما يعترف به.

ففي آخر أيام موسى عليه السلام (أراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان وجميع نفتالي، وأرض أفرايم ومنسى وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي والجنوب، والدائرة بقعة أريحا مدينة النخيل إلى صوغر، وقال له الرب هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها) [سفر التثنية 34/1 - 5].

ح - يرى الباحث: (في ص 16)

أن استخراج البشارة به ﷺ من كتب غير المسلمين أمر تكون الحجة به أكثر إلزاماً لهم، بغض النظر عن كون هذه الكتب قد حرفت، فالتحريف لم يشملها كلها، وإلا لما استشهد رسول الله ﷺ بالتوراة - مع علمه بتحريفها - في واقعة زانية أهل الكتاب)

وهذه الفقرة تشير إلى أمرين:

الأول: إلزامهم بالحجة من كتبهم.

الثاني: أن التحريف لم يشملها كلها.

ولنتظر في الأمرين:

أما الأول فهو أصل لن يتحقق لأن ما سيقمه هذا المؤتمر من حجج إنما أن تكون حججاً مظنونة وقد سبق لعلمائهم أن فسروها بما يتفق وأهواءهم، وإنما أن تكون متعلقة بحجج حرفها كُتَاب أسفارهم خلال العصور ولهذا فلن يعترف أحد بوجودها. والدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿ولئن أنيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك، وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾ [البقرة: 145].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة 146].

وإنني أذكر بما كتبه القس إبراهيم لوقا حول محمد ﷺ في الكتاب المقدس⁽³⁾ ليرى الباحث قيمة التعلق بهذا المشروع.

وعلى الرغم من الأسلوب العلمي الذي كتب به البروفسور عبد الأحد داود التفسير الصحيح (للمبارقليط) الواردة في الكتاب المقدس (إنجيل يوحنا) 16/14 اعتماداً على دراسات لغوية معمقة⁽⁴⁾ وانتهى بها إلى البشارة بمحمد فإن معجم اللاهوت الكتابي يرى أن تفسيرها بالمعنى تفسير خاطيء كما يرى عبد الأحد داود.

ولكنه يفسرها بالمحمامي أو الشفيغ ويراد به يسوع أو الروح القدس الذي يحقق حضور يسوع فعلياً من حيث هو الشاهد أو المدافع عنه بين المؤمنين⁽⁵⁾.

ويأتي الدكتور منير خوام ليضع كتاباً باسم (المسيح في الفكر الإسلامي الحديث وفي المسيحية) ويلاحظ أنه من أوسع رجال الدين المسيحي المعاصرين إطلاعاً على الفكر الإسلامي.

ويصنف كل من يكتب بتجرد من وجهة نظرنا نحن المسلمين من الكتاب المسيحيين بأنهم (من الملاحدة أو اللامبالين بالدين أو من البروتستانتين أو من الكهنة والعلمانيين الجاحدين الذين دخلوا الإسلام، كما أنهم - يعني المسلمين - يستشهدون بالكتاب المسيحيين الذين مدحوا محمداً أو الدين الإسلامي⁽⁶⁾).

وقد عد في الهامش كثيراً من الكتاب الذين نطقوا بكلمة الحق كما نراها

(3) المسيحية في الكتاب المقدس ص 61 وما بعدها الطبعة العربية في THE GOOD WAY RIKON\ SWITZERLAND.

(4) انظر محمد في الكتاب المقدس ترجمة فهمي شما/ ص 207 وما بعدها ط 1/1405 هـ رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر.

(5) ص 142 ط دار المشرق بيروت 1986 م.

(6) ص 32 وما بعدها ط مؤسسة خليفة للطباعة بيروت 1/1983 م.

ومن جملة هؤلاء عبد الأحد داود .

كما أن البشارات التي يسعى الباحث إلى نشرها وتأكيد شيوخها بين الناس قد سبق علماء اليهود والنصارى إلى تفسيرها بما يتفق ومعتقداتهم .

ومن ذلك ما توصل إليه الباحث من البشارة بإسماعيل عليه السلام فقد شرحها فرانك جيبيلين ضمن مباركة إبراهيم بأن المقصود منها عيسى عليه السلام⁽⁷⁾ .

فهل نتصور محو التراث الديني لدى أهل الكتاب لنقتنعهم بفهمنا؟! .
أما الثاني :

وهو قوله إن التحريف لم يشملها كلها - فإنني أذكر الباحث بالآتي :-

1 - أنه اعترف بتحريفهم المستمر كما ذكر في (ص 13 و 25) كما سبق .
ومن المتفق عليه في ثقافتنا الإسلامية أن الدليل إذا لحقه الاحتمال بطل به الاستدلال .

2 - سبق أن رأينا نماذج من التصور الوثني في أسفار التوراة، كما أن العهد القديم مليء بتوبيخ اليهود على اتباعهم لآلهة وثنية ومنها عبادتهم للحية التي صنعها لهم موسى حينما كثرت عليهم الحيات في بركة سيناء .

3 - أن التحريف تعلق بإنكار البركة لإسماعيل وذريته بدليل إنكار حقه في إرث الأرض كما سبق أن رأينا .

4 - أننا لا ننكر أن بعض الوصايا والأحكام التشريعية هي مما بقي من شريعة موسى عليه السلام وكمثال على هذا سفر الخروج 12/20 - 18 و 23 و 1/23 - 10 .

والمحرمات من النساء انظر اللاويين 18/6 - 18 إلى غير ذلك .

وأحسب أن عدم تبديلهم لنصوص التشريعات الواردة في شكل قوانين كانت قد أصبحت صورة من المتعارف عليه في رسم العلاقة بين الأفراد وعلى

(7) استكشاف كتاب الكتب ص 98 وما بعدها .

الأخص الأمور المتعلقة بالعرض، فالباقي من التعاليم المحتملة للصحة هي بعض الوصايا والتشريعات التي أخذت مأخذ العادة.

5- والحديث الذي تمسك به الباحث هو حادثة حال، ذلك أن اليهود أرادوا أن يحتكموا إلى النبي ﷺ هروباً من تطبيق شريعتهم، وحينما سألهم عنها قالوا له نعممهما ثم نجلدهما، والرسول أراد أن يطبق عليهما الرجم وفقاً لنص شريعتهما لأن ذلك أقسى من حيث العقوبة وأفح من حيث الحجة⁽⁸⁾.

ولا توجد في الحديث إشارة من بعيد ولا من قريب إلى الحكم بصحة هذا الحد حتى يقال إنه استشهد بالتوراة.

إنهم يصرون على البقاء على دينهم ويخفون أحكامه ويتعللون بتقليد حكم السلطة القائمة، ولكن الرسول ﷺ علم بحيلتهم بوحى من الله أو بتذكير ممن أسلم منهم كعبد الله بن سلام، فعاملهم بتقيض مقصودهم؛

لذلك: أرى أن عبارة الباحث غير لائقة في حق رسول الله ﷺ، ولا تعبر عن فهم سليم للحديث.

الرسول يعلمنا:

قال الله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ [الأحزاب 21]، ونحن في هذا الموضوع لا نعالج أمراً جدت به الحياة المتغيرة المتطورة وإنما نبحث موضوعاً قديماً عاش مع الدعوة الإسلامية زمن الرسول ﷺ وصحابته الأخيار، فماذا كان موقف الرسول من كتب السابقين وبماذا زودنا؟.

1- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (لا

(8) انظر فتح الباري/ 8/ 224 الحديث 4556 ط دار الفكر. وستن أبي داود/ 4/ 153 الحديث رقم 4446 ط دار أحياء السنة.

وانظر شرح الزرقاني على الموطأ/ 5/ 80 بتحقيق إبراهيم عطوة عوض ط مصطفى الحلبي ط 1/ 1962 م.

تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل.. (الآية⁽⁹⁾).

2 - عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة فقال: يا رسول الله هذه نسخة من التوراة؛ فسكت، فجعل يقرأ، ووجه رسول الله ﷺ يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟).

فنظر عمر في وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب الرسول، رضيينا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً؛ فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتُموني لضللتُم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوتي لاتبعني)⁽¹⁰⁾.

3 - وعن جابر أيضاً أن عمر بن الخطاب أتى بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ - يعني أمتهوون أنتم في الإسلام؟ - والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني)⁽¹¹⁾.

ويقول الإمام ابن تيمية متابعاً التعليق على هذا الحديث (ولهذا كان الصحابة ينهون عن اتباع كتب غير القرآن. وعمر انتفع بهذا حتى إنه لما فتحت الإسكندرية وجدت فيها كتب كثيرة من كتب الروم، فكتبوا فيها إلى عمر فأمر بها أن تحرق، وقال: حسبنا كتاب الله) وساق الإمام أيضاً معاقبة عمر بن الخطاب للذي انتسخ كتاب دانيال وقال له: (اذهب فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ولا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس)⁽¹²⁾.

(9) فتح الباري 8/170 الحديث 4485.

(10) انظر سنن الدارمي ج 1 ص 115 وما بعدها ط دار الكتب العلمية.

(11) مسند الإمام أحمد بن حنبل 3/387 ط المكتب الإسلامي ودار صادر/بيروت.

(12) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية المجلد 17 ص 41 ط مكتبة المعارف بالرباط على نفقة الملك خالد. رحمه الله.

منهج يثير جدلاً:

سبقت الإشارة إلى أن الباحث يستهدف مخاطبة غير المسلمين بهذا المؤتمر المقترح وما ينتج عنه من أبحاث ونتائج وتوصيات .
ومن أجل ذلك نحب أن يكون منهجه بعيداً عن المآخذ وجوانب الضعف .

أما نحن المسلمين فلا حاجة لنا بهذه الكتب وإشاراتنا لأننا لا نتوقع مناجم الذهب وسط أكوام التبن .
ومن المآخذ التي لاحظتها على الباحث مايلي :

أن الباحث وجه الدارسين إلى تصحيحات وترجمات وفهم لنصوص الكتاب المقدس تخالف الترجمات المعتمدة لدى اليهود والنصارى .
ومحاورة أهل الكتاب بهذه النصوص لا تقنعهم ولا تكون حجة عليهم .
لذلك أعتقد أن ما أضافه تحت عنوان (بعض فقرات النص كما وردت في كتابات بعض علماء المسلمين) غير مجد في مجال المحاوراة والجدل .
وكمثال على ذلك ما ذكره في ص 36 وما بعدها حيث استشهد بسفر التكوين 1/12 - 12.

واحتوى النص على الفقرات التالية :

أ - النص يقول عن إسماعيل : (إنه يكون إنساناً وحشياً) وينقل عن ابن تيمية قوله : (وولذلك يكون وحي الناس) .

ب - النص يقول : (يده على كل واحد ويد كل واحد عليه) وينقل عن ابن القيم : (وتكون يده على الكل ويد الكل مبسوطة إليه بالخضوع) .

د - النص يقول : (وأمام جميع إخوته يسكن) وينقل عن تفسير الرازي : (وهو يشكر على رغم جميع إخوته) .

هـ - ذكر تصحيحاً آخر للفقرة (أ) السابقة (وهو يكون إنساناً وحشياً) وهذا التصحيح ترجمة من البرهان الصريح لأحمد أفندي الترجمان ، بأن وحشياً

صحتها برياً، وإن هذه الكلمة تأتي بمعنى (مثمر) ورأى المعنى الأخير ملزماً.
وحينما أجمل النقاط التي يبنى عليها البحث المنتظر سأل عن التحريف
الذي دخل النص وأين موضعه؟
بالإضافة إلى الأسئلة التالية:
- ما معنى إنساناً وحشياً؟.

- ما معنى يده على كل واحد، ويد كل واحدٍ عليه؟ والمدهش حقاً هو
أن الباحث نسي أنه يتعامل مع باحثين وعلماء، وتحول إلى مدرس في مدرسة
ابتدائية!.

وأنا لا أشك في أن بعض الباحثين سيسIRON خلف ما ذكره علماء
السلف الذين لم يبينوا لنا الترجمة التي نقلوا منها حتى ثبت لأهل الكتاب أنهم
مستمرون في التحريف، والقس إبراهيم لوقا في كتابه المشار إليه سابقاً يتحدث
بأدلة قوية مؤكداً أن التحريف اللفظي لم يحصل بعد عهد المسيح، وإذا عجزنا
عن إثبات تحريفهم للنص فسيثبتون التحريف فعلاً ولكن بأيدي المسلمين!.

2 - ذكر الباحث فهم العلماء المسلمين للنص وعده فهماً ملزماً على
الرغم من أنه ناتج عن تعديل ابن القيم وليس ناتجاً عن النص المعتمد لديهم
حيث قال: (إن هذه البشارة تحققت ببعثة محمد ﷺ، لأن إسماعيل وولده لم
يكونوا متصرفين في معظم الدنيا حيث فتح المسلمون المشارق والمغارب،
ودانت لهم الأمم بالطاعة).

أقول:

وهذا يستقيم إذا سلم لنا الخصم أن النص في التوراة هو: (وتكون يده
مبسوطة على الكل ويد الكل مبسوطة إليه بالخضوع) وليس ما يقرأ في كتابهم
الآن.

وأورد الباحث على هذا النص شبهة أوردها أهل الكتاب فقال:

(ذهب أهل الكتاب في تفسير البشارة إلى القول أنها بشارة مملكه ﷺ
وظهوره وليس بنبوته).

والذي يؤخذ عليه أنه أهمل النص على المصدر الذي نقل منه هذا الاعتراض حتى نعرف أنهم سلموا بأن المراد بها محمد ولو بوصفه ملكاً، ومسألة النبوة نبعتها حتى في موقف آخر.

لأن الذي عرفناه فعلاً هو تفسير فرانك جيبلين لها بأن المراد بها هو السيد المسيح عليه السلام كما سبق. ولا داعي للوقوف مع ترجمات أسلافنا رحمهم الله لأنها لن تكون مقبولة من خصم لا يؤمن بها.

وإذا نظرنا لنص سفر التكوين الذي استدل الباحث به نظرية محايدة، آخذين في الحسبان أنه من وضع إنسان يصور انعكاس العلاقة بين بني العلات من جهة، ونتيجة ما يمليه التصارع الديني والعنقي من جهة ثانية، لفهمنا أن هذه الكلمات لها دلالتها المقصودة ولا فائدة ولا داعي لتلك الإضافات والتحويلات الواردة في نصوص أسلافنا.

فكاتب السفر يقول: إن إسماعيل - عليه السلام - إنسان بدوي جاف، فيه شدة وغلظة، دائم الصراع والتنازع، لا يقبل دخيلاً معه، ولا يقبله الآخرون.

وسكنه أمام إخوته، يمكن تصورها بمعرفة الواقع فعلاً حيث كان بمكة وما حولها، وبنو إسحاق في جزء من فلسطين.

3 - في البشارة الرابعة ص 51 وما بعدها.

يذكر الباحث أن الذبيح هو إسماعيل بنص القرآن، ويسوق هذه المسألة في يقين لا ليس فيه.

ولأن هذا الكتاب هو دليل للباحثين فكان ينبغي التزام الدقة والأمانة العلمية، وإعطاء المعلومة ما تستحق دون تهويل ومبالغة، ولا بأس بعد ذلك من ترجيح ما يؤمن به الباحث.

والمسألة من القضايا الخلافية منذ زمن الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين.

فقد ذهب عمر، وعلي، والعباس، وابن مسعود، وكعب الأحبار،

وقتادة، وسعيد بن جبير، ومسروق، وعكرمة والزهرى، والسدي، ومقاتل إلى أن الذبيح إسحاق.

وذهب ابن عباس، وابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن، والشعبي، ومجاهد، والكلبي إلى أن الذبيح إسماعيل⁽¹³⁾.

وقد سبق لي أن كتبت بحثاً عن إبراهيم الخليل أثبتت فيه أن الذبيح إسماعيل، ولكن الترجيح شيء، وإغفال الرأي المقابل شيء آخر⁽¹⁴⁾.

4 - من المعلوم المتفق عليه عند المسلمين وغيرهم أن نصوص العهدين القديم والجديد ليست هي النص الحرفي الموحى به من الله سبحانه وتعالى حتى بالنسبة لأكثر الناس إيماناً بصحتها.

فالمقروء بأيدي الناس هو رواية أتباع موسى وعيسى في عصور مختلفة متباعدة، فضلاً عن أن هذين الكتابين قد تنفلا بين العبرية والآرامية والسريانية واليونانية وأخيراً نقرأهما بالعربية. ويصعب التأكد الجازم من عدد الترجمات التي مرت بين النص العربي ونص الراوي الأول.

وهذا يجعلنا نستبعد مثل سؤال الباحث: لماذا قال عن إسحاق إنه سيكثر نسله وعن إسماعيل إنه سيكون أمة؟.

إن السؤال مهم لو كان نص العبارة من وحي الله سبحانه وتعالى، أما بعد الترجمة فلا معنى للبحث عن سر التعبير واستنتاج الأحكام من النظم البلاغي.

النتائج المتوقعة من هذا المؤتمر:

نحن المسلمين نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا في القرآن الكريم بأن

(13) انظر العبر لابن خلدون ج 2 ص 28 ط مؤسسة جمال بيروت 1979 م وتاريخ الطبري ج 1 ص 135 ط مؤسسة عز الدين بيروت 1985 م، وتفسير الفخر الرازي ج 7 ص 105 ط المطبعة الخيرية مصر 1308 هـ.

(14) مجلة كلية الدعوة الإسلامية السنة 3/ 1986 ص 514.

عيسى عليه السلام قد بشر بمجيء محمد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف 6].

ونحن مؤمنون بصدق هذا سواء وجدنا ذلك صريحاً في كتب اليهود والنصارى أم لم نجد، وسواء وافقونا على النصوص المحتملة (كالبرقليط) والفقرات الواردة في (سفر التثنية 18/15 - 20). أم لم يوافقوا، لأننا نعلم أيضاً أنهم بدلوا وغيروا في كتب الله.

وطرح هذا الموضوع للبحث سيستج عنه أحد احتمالات ثلاثة لا محالة وكل واحد منها له محاذيره.

الأول:

الالتزام بالترجمات المعتمدة عندهم فعلاً، التي يعترفون بأنها تعبير عن نسخ محتفظ بوضعها التشريعي والقانوني وليست من قبيل النسخ التي أنكرتها مؤتمراتهم الكنسية كإنجيل برنابا، وإنجيل بولس.

وهنا سيرفض النصارى بعض التفسيرات التي تتعلق بها وسترفع أصوات مسلمة تؤكد أن هذه الكتب محرقة وأنها نصوص غير صحيحة.

وإذا ما تولت هيئة إسلامية كرابطة العالم الإسلامي في مؤتمر دولي التشهير بأن الكتب المقدسة محرقة فقد سقط جلباب الحياء ولن يتناول المستشرقون والمبشرون الطعن في القرآن الكريم بشيء من الحياء والمحافظة على مشاعر المسلمين محافظة على مصالحهم السياسية والاقتصادية كما هو واقع اليوم.

وقد وقع تحت يدي كتاب من سلسلة الهداية العدد الرابع باسم تعليقات على القرآن.

ويقول الناشرون في المقدمة أن هذه السلسلة جاءت رد فعل على كتابي: إظهار الحق، والسيف الحميدي الصقيل).

وهذا الكتاب فيه إساءات، وسوء أدب، وتهجم على القرآن الكريم

تجعل المسلم لا يحتمل مجرد قراءة ما جاء فيه، فإذا أضفنا إلى ما فيه من مغالطات ضعف أبنائنا في اللغة العربية وبعدهم عن الثقافة الإسلامية الصحيحة أدركنا خطورة هذه الكتب على النشء المسلم.

ولكن ظروف العصر جعلت هذا الكتاب مجهول المؤلف والناشر، والإشارة إلى صندوق البريد في أستراليا على الكتاب أحسب أنها تمويه غير صحيح.

وعدم ذكر اسم المؤلف والناشر يثير الشك في نفس القارئ، فلو كان ما فيه صحيحاً لما تنكر له مؤلفه. أما إذا فتحنا ملف قضية البحث في صحة هذه الكتب وأرجعناها للمرافعة من جديد فإننا سنفتح باباً من المهاترات التي نهانا الله عنها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَذَلِكَ زِينَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 108].

إننا نكلف الأشياء ضد طباعها إذا كنا نظن بأننا سنقول لليهود والنصارى إن كتابكم قد بدل وغير، وإن كتابنا هو النص الوحيد الصحيح فاتبعوه، وأن هذه الدعوة ستكون لها استجابة، لأن المسألة قد حسمها القرآن الكريم وأن الله قد زين لكل أمة عملها ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله ﷺ: إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه قيل يا رسول الله: وكيف يلعن الرجل والديه؟.. قال يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه).

قال ابن بطال: (هذا الحديث أصل في سد الذرائع، ويؤخذ منه أن من آل فعله إلى محرم يحرم عليه ذلك الفعل وإن لم يقصده ولم يقصد إلى ما يحرم⁽¹⁵⁾).

(15) انظر فتح الباري/ 304/10 وما بعدها الحديث رقم 3795، وعارضة الأحوذني/ 8/ 97 ط دار الفكر.

الثاني:

البحث في متاحف العالم والمكتبات العامة والخاصة وصولاً إلى نص سليم لم يلحقه تحريف ولا إضافة بشرية، لأن ما ذكر في أسفار موسى من ذكر وفاته وموضع دفنه، وما ذكر في الأنجيل من ذكر صلب المسيح ودفنه وقيامته من قبره مسائل يستحيل أن تكون مما أنزله الله على الرسل العظمين، وأن هذا إضافات بشرية⁽¹⁶⁾.

لو فعلنا هذا فلن نجد أحداً من اليهود والنصارى يستمع إلينا لأن اعتماد النصوص الدينية عندهم لا يتم إلا من مؤتمرات كنسية، ولذلك فهم يرفضون إنجيل برنابا وإنجيل بولس، ومحاولة إقناعهم بما أشار إليه ابن تيمية لن يقبل أيضاً لأن شيئاً من هذا تعرض له علماء عصر الإصلاح الديني في أثناء حركة مارتن لوثر وكالفن حيث قالوا إن قول التوراة: (فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض مؤاب مقابل بيت فنور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم) [سفر التثنية 34/5-6].

قالوا أن هذا النص يستحيل أن يكون مما كتب في عهد موسى أو حتى في عهد قريب منه. وهذا يؤكد أن العمل البشري استمر في التوراة زمناً طويلاً.

وعلى الرغم من وجاهة هذا الاعتراض فهل سلم به رجال الكنيسة المسيحية؟.

يقول ناشر سلسلة الهداية المشار إليها سابقاً: (ومن المؤسف أن هذه الهجومات نشأت بين بعض علماء الكتاب المقدس المنحرفين عن الحق في أوائل القرن التاسع عشر، وأطلقوا عليها اسم النقد العالي والنقد المنخفض، وقد رد رجال الدين المحافظين على هذه الكتابات، وفندوها، وأظهروا خطأها، ولم تعد تحظى بالاحترام في يومنا هذا).

(16) من أروع ما كتب في هذا الموضوع الفصل الذي كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية. انظر الفتاوى الكبرى ج 13 ص 102 وما بعدها.

ولكن رجال الدين المسلمين لا زالوا يقتبسونها كأنها صحيحة، ولا زال بعض أساتذة الجامعات العربية في كليات الآداب يدرسونها دون أن يتبحروا لتلاميذهم فرصة الاطلاع على الردود التي تفندھا⁽¹⁷⁾. وكانت النتيجة نقداً للقرن المشار إليه.

الاحتمال الثالث :

أن يسلّموا لنا بالتفسير والتأويل في النسخ المعتمدة لديهم بأن المراد (بمباركة نسل إبراهيم، وأن البرقليط) مراد بهما محمد ولكنهم سيطلبوننا بأن نعترف بما جاء في الكتابين لأن الحجة لا تتجزأ فلا يقال لهم آمنوا بفهمنا لهذه الفقرة لأنها تخدم عقيدتنا وكتابكم صحيح بالنسبة لها، بينما نحن نكفر بباقيه لأنه لا يناسبنا!

إن جربنا وراء بشارة في نص مشكوك فيه، بل مقطوع بتحريفه ستجعلنا نبتلع السنارة مع الطعم الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَو لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: 51].

وماذا بعد :

وإذا كان ما سقته من تخوف قابلاً للنقاش فإن الأخطر منه هو المشار إليه في ص 18 من البحث في كتب الهندوس وص 411 عن كتب البراهمة والزرادشتيين.

ولا يظن ظان أنني أدعى علماً وفطنة أكثر من العقاد وأبي زهرة وغيرهما ممن ذكروا في الصفحة نفسها، ولا كان يزعميني أن يكتب الأستاذ الباحث كتاباً فيه رأيه الخاص، واجتهاده ولكنني أنبه إلى أن الفرق واضح بين اجتهاد شخص مهما كانت منزلته في العلم ومكانته في المجتمع، وبين مؤتمر قد يعقد في أشرف بقعة في الأرض وهي مكة المكرمة، ويحضره علماء من شتى بلدان

(17) المقدمة ص 3.

العالم الإسلامي وما يمكن أن يصدروه في هذا المؤتمر من قرارات وتوصيات تُعدُّ من قبيل الإجماع، وسيكون لها عند المسلمين قيمة واعتبار.

إن هذه الكتب وهذه المعتقدات كما أشار الباحث يحتمل أن تكون أصولها عقائد موحى بها من عند الله ولم يقصص علينا الله أمرها ويحتمل غير ذلك.

ولكن فتح الباب لوجود بشارة ولو لم يخبرنا القرآن بها، والتوسع في التقاطها لمجرد أن جذرها اللغوي يحمل معنى الحمد فالمراد أحمد، وأحمد هو محمد، إذن البشارة حاصلة، وإعلانها إلزام لأصحاب تلك العقائد بالتصديق بمحمد ولكنها بالتالي تعني الاعتراف بأن هذه الكتب منزلة من عند الله وأتباعها أهل كتاب، وبذلك يرفع الحظر الذي كان قائماً في مسألتي الزواج والطعام على الأقل.

وإن الحصول على هذا المكسب لصالح الوثنيين في آسيا وأفريقيا المتطلعين إلى خيرات الخليج والجزيرة العربية سيجعل عشرات البشارات تظهر لإشباع شهوة المسلمين وتحقيق مآرب الطامعين من هنا وهناك.

وأخشى ما أخشاه أن يتقلب هذا المؤتمر إلى ما يشبه مؤتمرات الكنائس التي تقرر الحلال والحرام وفقاً لمتطلبات بشرية عابرة.

إنني أضع هذه الخواطر بين يدي القارئ على هذا المشروع الخطير، عسى أن يكون في بعضها ما يستحق التأمل.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

الروايات الأربع المتداولة

لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الأستاذ صالح عطية الحطمايني

جامعة سبها

نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ مفزقاً في أكثر من عشرين سنة، والنبي كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، لهذا فإنه اعتمد على الحفظ والاستذكار، فكان إذا جاءه جبريل بالآية أو مجموعة الآيات يحرص كل الحرص على حفظها، وكان لشدة حرصه على الحفظ يحرك لسانه عندما يتلقى القرآن من جبريل حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾⁽¹⁾.

ولأن النبي ﷺ كان أمياً فقد كان يخاف أن يفلت منه شيء من القرآن بالضياع أو النسيان، حتى تعهد الله تعالى له بعدم نسيانه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ستقرئك فلا تنسى﴾⁽²⁾.

(1) سورة الفاتحة، الآية: 16.

(2) سورة الأعلى الآية 6.

إذا كانت هذه هي حال النبي ﷺ وهو قدوة المسلمين، فإن الصحابة - رضي الله عنهم - لم تكن أحوالهم بأقل منه حرصاً على الحفظ للقرآن الكريم فكانوا كلما نزلت آية أو مجموعة من الآيات، يحفظونها في صدورهم، ويكتبونها بأمر النبي ﷺ على ما توافر لديهم من أدوات الكتابة.

ثم يعاد نزول تلك الآية أو مجموعة الآيات في شهر رمضان من كل سنة، حين كان جبريل يسمع من النبي كل ما نزل من القرآن الكريم قبل هذا العرض⁽³⁾.

ويسمع الصحابة هذا النزول الذي يختلف قليلاً عما سمعوه في المرات السابقة فيحفظون هذا الاختلاف خير حفظ ويضبطونه حق الضبط.

وكان الصحابة - رضي الله عنهم - من قبائل عربية مختلفة، لها لهجات تختلف قليلاً فيما بينها في بعض الحالات النطقية كالمد والإمالة والهمز والتسهيل، إلى غير ذلك من الحالات، التي نجدها إلى اليوم باقية تميز كل قبيلة عربية عن الأخرى في النطق بالكلمات⁽⁴⁾.

والنبي ﷺ أقر كل واحد من الصحابة في قراءته وفق لهجته لأن هذه الحالات النطقية لا تؤثر في نظم الآية أو معناها أو إعجازها.

لهذه الأسباب نشأ الاختلاف بين الصحابة في قراءة القرآن الكريم، والصحابة كانوا يعلمون بعضهم بعضاً آيات القرآن الكريم، من حضر نزول هذه الآية أو مجموعة الآيات يعلمها ويحفظها لمن لم يحضر، وكان هذا يقع بأمر النبي ﷺ وإرشاده⁽⁵⁾.

فقد روى البخاري عن ابن إسحاق عن البراء قال: (أول من قدم علينا «يعني إلى المدينة» من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلنا يقرئنا القرآن، ثم جاء عمار وبلال، ولما فتح النبي ﷺ مكة ترك فيها

(3) انظر: مقدمتان في علوم القرآن ص 170 والقراءات القرآنية عبد الهادي الفضلي ص 106.

(4) نفس المصدر السابق ص 108.

(5) انظر المصدر السابق ص 14.

معاذ بن جبل ليعلم القرآن، وكان الرجل إذا هاجر إلى المدينة دفعه النبي ﷺ إلى رجل من الحفظة ليعلمه القرآن⁽⁶⁾. حتى وجدت جماعة من الصحابة عرفوا بالقراء لقيامهم بمهمة إقراء القرآن وتحفيظه لغيرهم من الصحابة، قال الواقدي في كتاب (المغازي)⁽⁷⁾، عنهم: (وكان من الأنصار سبعون رجلاً شبيهة بسمون القراء) وقد قتل من هؤلاء القراء في غزوة بدر معونة (3 هـ) وحدها سبعون رجلاً.

وبذلك فقد حفظ كل الصحابة القرآن، ما من صحابي إلا حفظ أجزاء من القرآن الكريم، وقد حفظ عدد كبير منهم القرآن كاملاً عن ظهر قلب في حياة النبي ﷺ⁽⁸⁾ منهم: أبي بن كعب (ت 32 هـ) وعبد الله بن مسعود (ت 32 هـ) وأبو الدرداء وعويمر بن زيد (ت 32 هـ) وعثمان بن عفان (ت 35 هـ) وعلي بن أبي طالب (ت 40 هـ) وأبو موسى الأشعري (ت 44 هـ) وزيد بن ثابت (ت 45 هـ).

الأمر الذي جعل هؤلاء الحفاظ من الصحابة يتحولون بعد وفاة النبي ﷺ إلى أساتذة يرجع إليهم في حفظ القرآن الكريم، وقراء يُقرئون الناس في المساجد، وقد دامت هذه المرحلة إلى النصف الأول من القرن الهجري الأول، حيث توفي آخر هؤلاء الصحابة، وهو زيد بن ثابت سنة 45 هـ.

وعندما أراد عثمان بن عفان (ت 35 هـ) جمع كلمة الأمة على القراءات المتواترة ونبذ القراءات الشاذة، طلب المصحف المودع عند حفصة بنت عمر، زوج النبي ﷺ وهو المصحف الذي كتب في عهد أبي بكر الصديق سنة 12 هـ. فاستنسخ عثمان بن عفان من ذلك المصحف عدداً من المصاحف بعدد المدن الرئيسية في الدولة، وأرسل مع كل مصحف إماماً يوافق قراءة ذلك المصحف، فأبقى زيد بن ثابت يقرئ بمصحف المدينة، وأرسل عبد الله بن السائب (ت في حدود 70 هـ) إلى مكة، والمغيرة بن شهاب (ت 91 هـ) إلى

(6) تاريخ القرآن الزنجاني ص 25.

(7) كتاب المغازي الواقدي 2/ 397.

(8) معرفة القراء الذهبي ج 1 ص 39.

الشام، وعبد الرحمن السلمي (ت 73 هـ) إلى الكوفة، وعامر بن عبد القيس (ت 55 هـ) إلى البصرة⁽⁹⁾، وعلى هذا أخذت وجوه القراءة المختلفة تأخذ طرقها في الرواية ومساراتها في النقل⁽¹⁰⁾.

وتفرق هؤلاء الصحابة وغيرهم في المدن الرئيسية في الدولة، فأخذ عنهم التابعون، ورحل إليهم المسلمون الجدد، يطلبون حفظ القرآن الكريم، فظهر من هؤلاء التابعين حفاظ في كل إقليم من أقاليم الدولة.

ونبع في كل مدينة من المدن حفاظ تلقوا القرآن عن الصحابة الذين وفدوا إليهم وهم كما صنفهم ابن الجزري في كتابه (النشر 18) على الأقاليم:

1 - المدينة المنورة:

معاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القاريء (ت 63 هـ)، وسعيد بن المسيب (ت 94 هـ)، وعروة بن الزبير (ت 103 هـ)، وعمر بن عبد العزيز (ت 101 هـ) وعطاء بن يسار (ت 103 هـ) وسالم بن عبد الله بن عمر (ت 106 هـ)، وسليمان بن يسار (ت 107 هـ)، ومسلم بن جندب (ت 110 هـ)، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج (ت 117 هـ) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت 124 هـ)، وزيد بن أسلم (ت 130 هـ).

2 - مكة المكرمة:

عبيد بن عمير (ت 74 هـ)، ومجاهد بن جبر (ت 103 هـ)، وطاوس بن كيسان (ت 106 هـ) وعطاء بن أبي رباح (ت 115 هـ) وعبد الله بن أبي مليكة (ت 117 هـ) وعكرمة مولى ابن عباس (ت 200 هـ).

3 - الكوفة:

عمرو بن شرحبيل (ت بعد 60 هـ)، وعلقمة بن قيس (ت 62 هـ)، ومسروق بن الأجدع (ت 63 هـ)، وعبيد بن عمرو السلماني (ت 72 هـ)، وأبو

(9) مناهل العرفان الزرقاني 12 - 412 - 416.

(10) القراءات القرآنية عبد الهادي الفضلي ص 21.

عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي (ت 74 هـ)، والأسود بن يزيد النخعي (ت 75 هـ)، وعمرو بن ميمون (ت 75 هـ)، وعبيد بن فضلة (ت حدود 75 هـ)، وزيد بن حبيش (ت 72 هـ)، والربيع بن خيثم (ت قبل 90 هـ)، وسعيد بن جبير (ت 95 هـ)، وعامر الشعبي (ت 105 هـ).

4 - البصرة:

عامر بن عبد القيس (ت حوالي 55 هـ)، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحي (ت 90 هـ)، ويحيى بن يعمر العدواني (ت 90 هـ)، ونصر بن عاصم الليثي (ت 100 هـ)، وأبو رجاء العطاردي (ت 105 هـ)، والحسن البصري (ت 110 هـ)، ومحمد بن سيرين (ت 110 هـ) وقتادة بن دعامة (ت 117 هـ)، ومعاذ بن معاذ العنبري (ت 196 هـ).

5 - الشام:

المغيرة بن أبي شهاب المخزومي (ت 91 هـ)، وخليفة بن سعد. ثم أخذ تابعوا التابعين القرآن الكريم عرضاً وحفظاً عن هؤلاء التابعين في كل إقليم ومدينة، فظهر من تابعي التابعين قوم تجردوا للقراءة والأخذ، واعتنوا بضبط القراءات أتم اعتناء حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم، ويرحل إليهم، ويؤخذ عنهم، أجمع أهل بلادهم، على تلقي قراءاتهم بالقبول، ولم يختلف عليهم منها اثنان، ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم⁽¹¹⁾ وكان منهم:

1 - في المدينة:

أبو جعفر يزيد بن القعقاع (ت 130 هـ)، وشيبة بن نصاح (ت 130 هـ)، ونافع بن أبي نعيم (ت 169 هـ).

2 - في مكة:

عبد الله بن كثير (ت 120 هـ)، وحמיד بن قيس الأعرج (ت 130 هـ)، ومحمد بن محيصن (ت 123 هـ).

(11) انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج 1 ص 8 - 9.

3 - في الكوفة :

يحيى بن وثاب (ت 103 هـ)، وعاصم بن أبي النجود (ت 129 هـ)،
وسليمان الأعمش (ت 148 هـ)، وحمزة بن حبيب الزيات (ت 156 هـ)،
والكسائي (ت 189 هـ).

4 - في البصرة :

عبد الله بن أبي إسحاق (ت 129 هـ)، وعيسى بن عمر (ت 149 هـ)،
وأبو عمرو بن العلاء (ت 154 هـ)، وعاصم الجحدري (ت 128 هـ)، ويعقوب
الحضرمي (ت 205 هـ).

5 - في الشام :

عبد الله بن عامر (ت 118 هـ)، وعطية بن قيس الكلابي (ت 121 هـ)،
ويحيى بن الحارث الذماري (ت 145 هـ)، وشريح بن يزيد الحضرمي (ت 203
هـ).

وعن هؤلاء القراء أخذ الناس القرآن الكريم مشافهة وسماعاً فسمي
تلاميذهم في الاصطلاح بالرواة.

غير أن الرواة عن هؤلاء القراء كانوا كثيرين في القرنين الثاني والثالث،
فأراد الناس في القرن الرابع أن يقتصروا من هذه القراءات المتواترة على ما
يسهل حفظه، وتنضبط القراءة به، فنظروا إلى كل إمام مشهور بالثقة والأمانة،
وحسن الدين، وكمال العلم، قد طال عمره واشتهر أمره، وأجمع عليه أهل
عصره في العدالة والثقة، فأفردوا من كل إقليم أو مدينة إماماً⁽¹²⁾.

فألف أبو بكر بن مجاهد (ت 324 هـ) كتابه (السبعة في القراءات) الذي
جمع فيه سبع قراءات لسبعة من القراء، اختارهم من الأقاليم والمدن، فاختر
من قراء البصرة أبا عمرو بن العلاء، واختار من قراء الكوفة حمزة وعاصماً
والكسائي، واختار من قراء مكة ابن كثير، واختار من قراء الشام عبد الله بن

(12) انظر الإبانة مكّي بن أبي طالب ص 97.

عامر، ومن قراء المدينة اختار نافعا.

واختار لكل قارئ من هؤلاء القراء السبعة راويين من رواته، فاختار من رواية أبي عمرو بن العلاء الراويين الدوري (ت 250 هـ) والسوسي (ت 260 هـ)، واختار من رواية حمزة بن حبيب الزيات الراويين خلف بن هشام البزار (ت 229 هـ)، وخالد بن خالد (ت 220 هـ).

واختار من رواية عاصم بن أبي النجود الراويين شعبة (ت 194 هـ) وحفصاً (ت 190 هـ)، واختار من رواية الكسائي الراويين الدوري (ت 250 هـ) والليث بن خالد (ت 240 هـ)، واختار من رواية ابن كثير الراويين قنبلاً (ت 280 هـ) والبيزي (ت 240 هـ)، واختار لابن عامر الراويين ابن ذكوان (ت 242 هـ) وابن عمار (ت 245 هـ)، واختار لنافع الراويين قالون (ت 220 هـ) وورش (ت 197 هـ).

ونظراً لما تمتع به هؤلاء القراء ورواتهم من جودة الحفظ، وحسن الضبط، وقوة الإتيان، فإن القراءات إذا ذكرت نسبت إليهم وإذا سميت قرئت بأسمائهم، فيقال قراءة نافع، وقراءة عاصم، غير أن هذه النسبة، هي نسبة إضافة واختيار، وليست نسبة إيجاد واختراع، فهم قد تلقوا هذه القراءات بأدق تفاصيلها عن سبقتهم⁽¹³⁾ فالقراءة سنة متبعة يأخذها اللاحق عن السابق.

فنافع - مثلاً - قرأ على سبعين من التابعين، فاختار مما قرأه ورواه عنهم ما اتفق عليه اثنان وترك ما سواه وهكذا سائر القراء⁽¹⁴⁾.

وتوالت الكتب المؤلفة في القراءات بعد ابن مجاهد، فألف ابن الجزري (ت 833 هـ) كتابه المشهور (النشر في القراءات العشر) جمع فيه عشر قراءات لعشرة من القراء هم السبعة المتقدم ذكرهم وزاد عليهم ثلاثة قراء فجعل خلف ابن هشام البزار قارئاً، وهو أحد رواية حمزة بن حبيب الزيات، وأضاف يعقوب أبا إسحاق الحضرمي (ت 205 هـ) وأبا جعفر يزيد بن القعقاع (ت 130 هـ).

(13) انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج 1 ص 52.

(14) القراءات القرآنية عبد الهادي الفضلي ص 119.

واختار لهؤلاء القراء الثلاثة راويين لكل واحد منهم.

واستمرت الأقاليم الإسلامية تقرأ بهذه القراءات، كل إقليم يقرأ بالقراءة التي اشتهرت فيه، غير أن ذلك لم يدم طويلاً، فذكر ابن الجزري - بعد قوله أن الشام كانت تقرأ بقراءة ابن عامر إلى حدود الخمسمائة - بأنهم تركوا قراءة ابن عامر وانتقلوا إلى قراءة أبي عمرو لأن شخصاً قدم من أهل العراق، وكان يقرأ الناس بالجامع الأموي على قراءة أبي عمرو سنين⁽¹⁵⁾.

لهذا السبب فإن القراءات القرآنية ظلت تنتقل بين الأقاليم الإسلامية، لا تحدها حدود، ولا توقفها قيود، والمسلمون كلهم مجمعون على أن كل هذه القراءات منقولة بالتواتر من جيل إلى جيل، حتى يصل سندها إلى رسول الله ﷺ. وفي هذا الانتقال كانت القراءة تطغى وتسود في أقاليم عدة، بينما يضمحل انتشار قراءة أخرى، حتى لم يبق من يقرأ بها.

وهذا ما نجده اليوم في العالم الإسلامي، حيث إن هذه القراءات العشر، بروايتها العشرين، لم يبق منها اليوم إلا أربع روايات، يقرأ المسلمون بها في مشارق الأرض ومغاربها، ويطبعون عليها مصاحفهم، وهي كما يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، في مقدمة تفسيره⁽¹⁶⁾ (التحرير والتنوير): -

1 - قراءة نافع برواية قالون: في ليبيا وبعض القطر التونسي.

2 - قراءة نافع برواية ورش: في باقي القطر التونسي والجزائر والمغرب وما يتبعه من البلاد، وباقي الدول الأفريقية غير العربية.

3 - قراءة عاصم برواية حفص: في مصر والشام والعراق، وجزيرة العرب، وفي أغلب دول العالم الإسلامي، حتى بلغت نسبة المسلمين الذين يقرؤون بهذه الرواية أكثر من 97٪ من المسلمين.

4 - قراءة أبي عمر بن العلاء برواية الدوري: يقرأ بها في السودان من الخرطوم إلى كسلا إلى شمال أريتريا، وفي شرق تشاد.

(15) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج 1 ص 292.

(16) التحرير والتنوير ابن عاشور ج 1 ص 57.

وعامة المسلمين اليوم كحالهم في كل العصور والدهور، لا يعلمون أن هذه القراءات جميعها متواترة ومنقولة عن النبي ﷺ نقلاً صحيحاً، ولهذا فإنهم قد يختلفون حول القراءات أو يخطئ بعضهم بعضاً، أو يكفره، كما حدث في أيام عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في غزوة أرمينية وأذربيجان، ولا يجدون بين أيديهم كتاباً سهل العبارة، بسيط التناول، وكتب القراءات المشهورة، مثل كتاب السبعة لابن مجاهد، وكتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري، وكتاب إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للبنا الدمياطي، وغيرها مع ندرتها وعدم توافرها، فإن عباراتها رصينة، وأسلوبها قوي، يعجز القارئ العادي غير المتخصص عن فهمها واستيعابها. علاوة على أنها تحتوي قراءات لا يقرأ بها اليوم، ولهذا فإن هذه الكتب هي للمتخصصين أقرب، وللمهتمين بهذا العلم أنفع، يرجعون إليها في استنباط حكم، أو تقرير فتوى في الشرع، أما عامة المسلمين فإنهم في حاجة إلى كتاب يقتصر على الروايات الأربع المتداولة بين المسلمين اليوم، ويكون سهل العبارة، ميسور الفهم، وهذا ما نرمي إليه في هذا البحث إن شاء الله تعالى.

وبعد استقراء الاختلافات بين هذه الروايات الأربع، رواية حفص عن عاصم، وروايتي قالون وورش عن نافع، ورواية الدوري عن أبي عمرو بن العلاء، وجدت أن هذه الاختلافات طفيفة، وهي كما تتضح من الجداول الآتية: -

1 - الاختلاف في ضبط حروف الكلمة سواء بتغير موقعها في الجملة مثل:

الكلمة	موقعها	قراءتها
البر	البقرة 177	قرئت بالرفع والنصب
طعام	البقرة 184 والمائدة 95	قرئت بالرفع والجر
رفث	البقرة 196	قرئت بالنصب والرفع
ولا فسوق	البقرة 196	قرئت بالنصب والرفع

الكلمة	موقعها	قراءتها
يقول	البقرة 214 والمائدة 53	قرئت بالنصب والرفع
العفو	البقرة 219	قرئت بالنصب والرفع
تضار	البقرة 233	قرئت بالنصب والرفع
وصية	البقرة 240	قرئت بالنصب والرفع
فيضاعفه	البقرة 245	قرئت بالنصب والرفع
بيع	البقرة 254	قرئت بالنصب والرفع
خلة	البقرة 254	قرئت بالنصب والرفع
شفاعة	البقرة 254	قرئت بالنصب والرفع
نكفر	البقرة 271	قرئت بالرفع والسكون
تجارة	البقرة 283 والنساء 28	قرئت بالرفع والنصب
فيغفر	البقرة 284	قرئت بالنصب والجزم
ويعذب	البقرة 284	قرئت بالنصب والجزم
كله	آل عمران 153	بالنصب والرفع
واحدة	النساء 11	بالرفع والنصب
حسنة	النساء 40	بالنصب والرفع
غير	النساء 95	قرئت بالنصب والرفع
وأرجلكم	المائدة 6	قرئت بالنصب والجر
الجروح	المائدة 45	قرئت بالنصب والرفع
الكفار	المائدة 57	قرئت بالنصب والجر
تكون	المائدة 71	قرئت بالنصب والرفع
يوم	المائدة 119 والانفطار 19	قرئت بالنصب والرفع
فتنتهم	الأنعام 23	قرئت بالرفع والنصب

الكلمة	موقعها	قراءتها
نكذب	الأنعام 27	قرئت بالرفع والنصب
نكون	الأنعام 27	قرئت بالرفع والنصب
بينكم	الأنعام 94	قرئت بالرفع والنصب
لباس	الأعراف 26	قرئت بالرفع والنصب
خالصة	الأعراف 32	قرئت بالرفع والنصب
معذرة	الأعراف 164	قرئت بالرفع والنصب
النعاس	الأأنفال 11	قرئت بالرفع والنصب
بنيانه	التوبة 110	قرئت بالرفع والنصب
يعقوب	هود 70	قرئت بالرفع والنصب
امراتك	هود 80	قرئت بالرفع والنصب
زرع	الرعد 4	قرئت بالرفع والجر
ونخيل صنوان	الرعد 4	قرئت بالرفع والجر
الله	إبراهيم 3	قرئت بالرفع والجر
الملائكة	الحجر 8	قرئت بالرفع والنصب
والنجوم	النحل 12	قرئت بالرفع والنصب
مسخرات	النحل 12	قرئت بالرفع والنصب
الحق	الكهف 43	قرئت بالرفع والجر
الجبال	الكهف 46	بالرفع والنصب
جزاء	الكهف 88	قرئت بالرفع والنصب
يرثني	مريم 5	قرئت بالرفع والسكون
ويرث	مريم 5	قرئت بالرفع والسكون
قول	مريم 33	قرئت بالرفع والنصب

الكلمة	موقعها	قراءتها
مثقال	الأنبياء 47 ولقمان 16	قرئت بالرفع والنصب
لؤلؤاً	الحج 23 وفاطر 33	قرئت بالنصب والجر
سواء	الحج 25 الجاثية 21	قرئت بالنصب والرفع
عالم	المؤمنون 92 سبأ 3	قرئت بالرفع والجر
أربع	النور 6	قرئت بالرفع والنصب
الخامسة	النور 9	قرئت بالرفع والنصب
يصدقني	القصص 34	قرئت بالرفع والسكون
مودة	العنكبوت 25	قرئت بالرفع والنصب
بينكم	العنكبوت 25	قرئت بالنصب والجر
عاقبة	الروم 10	قرئت بالرفع والنصب
البحر	لقمان 27	قرئت بالرفع والنصب
أليم	سبأ 5 والجاثية 11	قرئت بالرفع والجر
الكفور	سبأ 17	قرئت بالرفع والنصب
كل	فاطر 36	قرئت بالرفع والنصب
تنزيل	يس 5	قرئت بالرفع والنصب
القمر	يس 39	قرئت بالرفع والنصب
الله ربكم ورب	الصفافات 126	قرئت بالرفع والنصب
فالحق	ص 84	قرئت بالرفع والنصب
فأطلع	غافر 37	قرئت بالرفع والنصب
يعلم	الشورى 35	قرئت بالرفع والنصب
يرسل	الشورى 51	قرئت بالرفع والنصب
رب	الدخان 7 والنبأ 37	قرئت بالرفع وكسر الباء

الكلمة	موقعها	قراءتها
أحسن	الأحقاف 16	قرئت بالرفع والنصب
مساكنهم	الأحقاف 25	قرئت بالرفع والنصب
نوره	الصف 8	قرئت بالنصب والجر
نزاعة	المعارج 16	قرئت بالرفع والنصب
نصفه وثلثه	المزمل 20	قرئت بالنصب والجر
قوم	الذاريات 46	قرئت بالنصب والجر
لغو	الطور 21	قرئت بالرفع والنصب
تأثيم	الطور 21	قرئت بالرفع والنصب
نحاس	الرحمن 22	قرئت بالرفع والجر
ميثاقلكم	الحديد 8	قرئت بالرفع والنصب
فيضاغفه	الحديد 11	قرئت بالرفع والنصب
الرحمن	النبأ 37	قرئت بالرفع والجر
فتنفعه	عبس 4	قرئت بالرفع والنصب
محفوظ	البروج 20	قرئت بالرفع والجر
لاغية	الغاشية 11	قرئت بالرفع والنصب
فك	البلد 13	قرئت بالرفع والنصب
حمالة	المسد 4	قرئت بالرفع والنصب

2- أو الاختلاف في ضبط حروف الكلمة لاختلاف القبائل العربية في نطق بعض الكلمات:

خطوات	البقرة 168	قرئت بضم الطاء وسكونها
البيوت	البقرة 189	قرئت بضم الباء وكسرها

الكلمة	موقعها	قراءتها
السلم	البقرة 208 والأنفال 61	
	ومحمد 35	قرئت بفتح السين وكسرهما
قدره	البقرة 236	قرئت بفتح الدال وسكونها
عسيتم	البقرة 246	قرئت بفتح السين وكسرهما
غرفة	البقرة 249	قرئت بفتح الغين وضمها
بربوة	البقرة 265 والمؤمنون 50	قرئت بفتح الراء وضمها
فنعما	البقرة 271	قرئت بكسر العين وسكونها
يحبسهم	البقرة 273	قرئت بفتح السين وكسرهما
ميسرة	البقرة 280	قرئت بفتح السين وضمها
الميت	آل عمران 27	قرئت بسكون الياء وتشديدها
حج	آل عمران 97	قرئت بفتح الحاء وكسرهما
متم	آل عمران 157	قرئت بكسر الميم الأولى وضمها
مدخلأ	النساء 30 والحج 59	بفتح الميم وضمها
الدرك	النساء 145	بفتح الراء وسكونها
تعذوا	النساء 154	بفتح العين وسكونها
رسلنا	المائدة 32	بضم الحاء وسكونها
للسحت	المائدة 42	بضم السين وسكونها
الإذن	المائدة 45 والتوبة 6	بضم الذال وسكونها
حرجأ	الأنعام 125	بكسر الراء وفتحها
حصاده	الأنعام 141	بكسر الحاء وفتحها
المعز	الأنعام 143	بسكون العين وفتحها
العدوة	الأنفال 42	بضم العين وكسرهما

الكلمة	موقعها	قراءتها
ضعفأ	الأنفال 67 والتوبة 99 والفتح 6	بضم الصاد وفتحها
قربة	التوبة 100	بضم الراء وسكونها
هيت	يوسف 23	بفتح الهاء وكسرها
دأبأ	يوسف 47	بفتح الهمزة وسكونها
يقط	الحجر 56	بفتح النون وكسرها
ظعنكم	النحل 80	بفتح العين وسكونها
القسطاس	الإسراء 35	بضم القاف وكسرها
ورجلك	الإسراء 64	بسكون الجيم وكسرها
كسفاً	الإسراء 92 والشعراء 187	بفتح السين وسكونها
نكرا	الكهف 73	بفتح الكاف وسكونها
السدين	الكهف 89، 90 وس 9	بضم السين وفتحها
الصدفين	الكهف 92	بفتح الصاد والذال وضمهما
مقام	الأحزاب 13 والدخان 51	بضم الميم الأولى وفتحها
سوى	طه 57	بكسر السين وضمها
أسوة	الأحزاب 21 والممتحنة 4	بضم الهمزة وكسرها
وقرن	الأحزاب 33	بفتح القاف وكسرها
جذوة	القصص 29	بفتح الجيم وكسرها
النشأة	العنكبوت 20	
	والنجم 47 والواقعة 35 - 72	بفتح الشين وسكونها
سخريا	المؤمنون 110 وص 63	بضم السين وضمها
فمكت	النمل 7	بفتح الكاف وضمها
نحسات	فُصِّلَت 16	بسكون الحاء وكسرها

الكلمة	موقعها	قراءتها
كرهاً	الأحقاف 15	بفتح الكاف وضمها
شغل	يس 55	بسكون الغين وضمها
وداً	نوح 23	بضم الواو وفتحها
الرجز	المدثر 5	بكسر الراء وضمها
برق	القيامة 7	بفتح الراء وكسرهما
نذراً	المرسلات 6	بضم الذال وسكونها

3 - أو تغير ضبط حروف الكلمة للتناوب بين اسم الفاعل واسم المفعول :

مسومين	آل عمران 125	قرئت بفتح الواو وكسرهما
فمستقر	الأنعام 98	قرئت بفتح القاف وكسرهما
مردفين	الأنفال 9	قرئت بفتح الدال وكسرهما
المخلصين	يوسف 24	قرئت بفتح اللام وكسرهما
مفرطون	النحل 62	بفتح الراء وكسرهما
مخلصاً	مريم 50	بكسر اللام وفتحها
للعالمين	الروم 22	بفتح اللام وكسرهما
مستغفرة	المدثر 50	بفتح الفاء وكسرهما

4 - أو كان الاختلاف في تنوين الكلمة أو عدمه :

درجات	الأنعام 83 ويوسف 76	قرئت بالتنوين وعدمه
عزيز	التوبة 30	قرئت بالتنوين وعدمه
كل	هود 4 والمؤمنون 27	قرئت بالتنوين وعدمه
ثمود	هود 67 والنجم 51	قرئت بالتنوين وعدمه
طوى	طه 11 والنازعات 16	قرئت بالتنوين وعدمه

الكلمة	موقعها	قراءتها
أف	الإسراء 23	قرئت بالتنوين وعدمه
لسبأ	النمل 22 وسبأ 15	قرئت بالتنوين وعدمه
أكل	سبأ 16	قرئت بالتنوين وعدمه
فزع	النمل 89	قرئت بالتنوين وعدمه
ترا	المؤمنون 44	قرئت بالتنوين وعدمه
بشهاب	النمل 7	قرئت بالتنوين وعدمه
بزينة	الصافات 6	قرئت بالتنوين وعدمه
بخالصة	ص 46	قرئت بالتنوين وعدمه
كاشفات	الزمر 38	قرئت بالتنوين وعدمه
ممسكات	الزمر 38	قرئت بالتنوين وعدمه
متم	الصف 8	قرئت بالتنوين وعدمه
أنصاراً	الصف 14	قرئت بالتنوين وعدمه
بالخ	الطلاق 3	قرئت بالتنوين وعدمه
سلائلاً	الإنسان 4	قرئت بالتنوين وعدمه
قواريراً	الإنسان 16	قرئت بالتنوين وعدمه

5 - الاختلاف في ضبط حروف الفعل :

اتخذوا	البقرة 125	قرئت بفتح الخاء وكسرها
يضركم	آل عمران 120	قرئت بضم الضاد والراء
		وقرئت بكسر الضاد وسكون الراء
يغل	آل عمران 161	قرئت بضم الياء وفتح الغين
		وقرئت بفتح الياء وضم الغين

الكلمة	موقعها	قراءتها
استحق	المائدة 107	قرئت بفتح التاء وكسر الحاء
يحرزك	آل عمران 176 والأنبياء 103	وقرئت بضم التاء وكسر الحاء قرئت بضم الياء وكسر الزاي وقرئت بفتح الياء وضم الزاي
وأحل	النساء 24	قرئت بفتح الهمزة والحاء وقرئت بضم الهمزة وكسر الحاء
يدخلون	النساء 124 ومريم 52	قرئت بفتح الياء وضم الخاء وقرئت بضم الياء وفتح الخاء
نزل	النساء 140	قرئت بفتح النون والزاي وقرئت بضم النون وكسر الزاي
سعدوا	هود 108	قرئت بفتح السين وضمها
يرجع	هود 122	قرئت بضم الياء وفتحها
وصدوا	الرعد 33 وغافر 37 والزخرف 57	قرئت بفتح الصاد وضمها
ليضلوا	إبراهيم 32 التوبة 37 يونس 88	قرئت بضم الياء وفتحها
نسقيكم	النحل 66 والمؤمنون 21	قرئت بفتح النون وضمها
أسس	التوبة 110	قرئت بفتح الهمزة وضمها
تساقط	مريم 24	قرئت بفتح التاء والقاف وقرئت بضم التاء وكسر القاف
فيستحكم	طه 60	قرئت بفتح الياء والحاء وقرئت بضم الياء وكسر الحاء

الكلمة	موقعها	قراءتها
فأجمعوا	طه 63	قرئت بكسر الميم وفتحها
أذن	سبا 23	قرئت بضم الهمزة وفتحها
يصدر	القصص 23	قرئت بضم الياء وكسر الدال
		وقرئت بفتح الياء وضم الدال
لخسف	القصص 82	قرئت بضم الخاء وكسر
		السين وقرئت بفتح الخاء والسين
لتربوا	الروم 39	قرئت بضم التاء وفتحها
يتخذها	لقمان 6	قرئت بفتح الدال وضمها
تهجرون	المؤمنون 68	قرئت بضم التاء وكسر الجيم
		وقرئت بفتح التاء وضم الجيم
يقتروا	الفرقان 67	قرئت بكسر التاء وضمها
فصل	الأنعام 119	قرئت بضم الفاء وكسر الصاد
		وقرئت بفتح الفاء والصاد
حرم	الأنعام 119	قرئت بضم الحاء وكسر الراء
		وقرئت بفتح الحاء والراء
يقاتلون	الحج 39	قرئت بفتح التاء وكسرها
تنبت	المؤمنون 20	بفتح التاء الأولى وضم الباء
		وقرئت بضم التاء وكسر الباء
يخصمون	يس 39	قرئت بسكون الخاء وفتحها
		وكسرها
أدخلوا	غافر 46	قرئت بكسر الخاء وضمها
ليزلقونك	القلم 51	قرئت بفتح الياء وضمها

الكلمة	موقعها	قراءتها
يخرج	الرحمن 22	قرئت بضم الياء وفتح الراء
يتزفون	الصفات 47 والواقعة 19	وقرئت بفتح الياء وضم الراء
يفصل	الممتحنة 3	قرئت بفتح الزاي وكسرها
شرب	الواقعة 55	قرئت بضم الياء وفتح الصاد
أخذ	الحديد 8	وقرئت بفتح الياء وكسر الصاد
تصلى	الغاشية 4	قرئت بضم الشين وفتحها
		قرئت بفتح الهمزة والخاء
		وقرئت بضم الهمزة وكسر الخاء
		قرئت بفتح التاء وضمها

6 - وقد يكون الاختلاف في تشديد الحرف أو تخفيفه :

يكذبون	البقرة 10	قرئت بتشديد الذال وتخفيفها
تظاهرون	البقرة 85	قرئت بتشديد الظاء وتخفيفها
ينزل	البقرة 90 النحل 2 لقمان 33	
	الشورى 28 الحج 71	قرئت بتشديد الزاي وتخفيفها
لكن	البقرة 177	قرئت بتشديد النون وتخفيفها
تصدقوا	البقرة 280	قرئت بتشديد الدال وتخفيفها
فتذكر	البقرة 282	قرئت بتشديد الكاف وتخفيفها
تعلمون	آل عمران 79	قرئت بتشديد اللام وتخفيفها
تساءلون	النساء 1	قرئت بتشديد السين وتخفيفها
تسوى	النساء 42	قرئت بتشديد السين وتخفيفها
يرتد	المائدة 54	قرئت بتشديد الدال وتخفيفها
منزلها	المائدة 115	قرئت بتشديد الزاي وتخفيفها

الكلمة	موقعها	قراءتها
يكذبونك	الأنعام 33	قرئت بتشديد الذال وتخفيفها
ينجيكم	الأنعام 64	قرئت بتشديد الجيم وتخفيفها
خرقوا	الأنعام 100	قرئت بتشديد الراء وتخفيفها
مزل	الأنعام 114	قرئت بتشديد الزاي وتخفيفها
ميتاً	الأنعام 122 والحجرات 12	قرئت بتشديد الباء وتخفيفها
قيماً	الأنعام 163	قرئت بتشديد الباء وتخفيفها
تفتح	الأعراف 40	قرئت بتشديد التاء الثانية وتخفيفها
أورثتموها	الأعراف 43	قرئت بتشديد التاء الثانية وتخفيفها
أبلغكم	الأعراف 61	قرئت بتشديد اللام وتخفيفها
تلقف	الأعراف 116 والشعراء 45	
	وطه 48	قرئت بتشديد القاف وتخفيفها
سقتل	الأعراف 127	قرئت بتشديد التاء وتخفيفها
يقفلون	الأعراف 141	قرئت بتشديد التاء وتخفيفها
يتبعوكم	الأعراف 193 والشعراء 224	قرئت بتشديد التاء وتخفيفها
فتخطفه	الحجج 31	قرئت بتشديد الطاء وتخفيفها
لهدمت	الحجج 40	قرئت بتشديد الدال وتخفيفها
فرضناها	النور 1	قرئت بتشديد الراء وتخفيفها
ليبدلنهم	النور 55 والكهف 80 والتحريم	قرئت بتشديد الدال وتخفيفها
تشقق	الفرقان 25	قرئت بتشديد الشين وتخفيفها
يعشيكم	الأنفال 11	قرئت بتشديد الشين وتخفيفها
موهن	الأنفال 18	قرئت بتشديد الهاء وتخفيفها
تقطع	التوبة 111	قرئت بتشديد الطاء وتخفيفها

الكلمة	موقعها	قراءتها
نفصل	يونس 5	قرئت بتشديد الصاد وتخفيفها
يثبت	الرعد 5	قرئت بتشديد الباء وتخفيفها
تفجر	الإسراء 90	قرئت بتشديد الجيم وتخفيفها
تزاور	الكهف 17	قرئت بتشديد الزاي وتخفيفها
لملئت	الكهف 18	قرئت بتشديد اللام الثانية وتخفيفها
حملنا	طه 86	قرئت بتشديد الميم وتخفيفها
صدق	سبا 20	قرئت بتشديد الدال وتخفيفها
ننكسه	يس 68	قرئت بتشديد الكاف وتخفيفها
غساق	ص 57 والنبأ 25	قرئت بتشديد السين وتخفيفها
فتحت	الزمر 71، 73 والنبأ 19	قرئت بتشديد التاء وتخفيفها
ينشأ	الزخرف 18	قرئت بتشديد الشين وتخفيفها
يخربون	الحشر 2	قرئت بتشديد الراء وتخفيفها
تمسكوا	الممتحنة 10	قرئت بتشديد السين وتخفيفها
لروا	المنافقون 5	قرئت بتشديد الواو وتخفيفها
تظاهرا	التحریم 4	قرئت بتشديد الظاء وتخفيفها
فقدرونا	المرسلات 23	قرئت بتشديد الدال وتخفيفها
سجرت	التكوير 6	قرئت بتشديد الجيم وتخفيفها
نشرت	التكوير 10	قرئت بتشديد الشين وتخفيفها
سمرت	التكوير 12	قرئت بتشديد العين وتخفيفها
فعدلك	الانفطار 7	قرئت بتشديد الدال وتخفيفها
يصلی	الانشقاق 12	قرئت بتشديد اللام وتخفيفها

7 - وقد يكون الاختلاف بين هذه الروايات في زيادة الألف أو عدم زيادتها، والذي قد يكون لاختلافها في الإفراد والجمع:

الكلمة	موقعها	قراءتها
خطيباته	البقرة 51	قرئت بالإفراد خطيبته
طائراً	آل عمران 49	قرئت بالجمع طيراً
فرهان	البقرة 283	قرئت بالجمع فرهن
رسالاته	المائدة 67 الأنعام 124	
	والأعراف 144	قرئت بالإفراد رسالته
كلمات	الأنعام 115 ويونس 33، 96	
	وغافر 6	وقرئت بالإفراد كلمة
ذرياتهم	الأنعام 172 ويس 41 والطور 18	بالإفراد ذريتهم
الأسارى	الأنفال 71	قرئت بغير ألف الأسرى
مساجد	التوبة 17	قرئت بالإفراد مسجد
صلواتك	التوبة 104 وهود 87	قرئت بالإفراد صلاتك
غيابات	يوسف 10	قرئت بالإفراد غيابة
الكفار	الرعد 43	قرئت بالإفراد الكافر
الكتاب	الأنبياء 104	قرئت بالجمع الكتب
ذرياتنا	الفرقان 74	قرئت بالإفراد ذريتنا
آثار	الروم 50	قرئت بالإفراد أثر
مساكنهم	سبا 15	قرئت بالإفراد مساكنهم
بينات	فاطر 40	قرئت بالإفراد بينة
ثمرات	فصلت 47	قرئت بالإفراد ثمرة
أساورة	الزخرف 53	قرئت بغير ألف أسبورة

الكلمة	موقعها	قراءتها
المجالس	المجادلة 11	قرئت بالافراد المجلس
جدار	الحشر 14	قرئت بالجمع جدر
كتابه	التحریم 12	قرئت بالجمع كتبه
جماليات	المرسلات 33	قرئت بغير ألف جمالة

8 - وردت كلمات أخرى اختلفت الروايات فيها بالألف لتغير حروف الفعل أو مشتاقه :

ملك	الفاتحة 4	قرئت بالألف : مالك
يخدعون	البقرة 9	قرئت بالألف : يخادعون
وعدنا	البقرة 51 والأعراف وطه	قرئت بالألف واعدنا
تفدوهم	البقرة 85	قرئت بالألف تفادوهم
ووصى	البقرة 135	قرئت بالألف وأوصى
دفع	البقرة 251 والحج 40	قرئت بالألف دفاع
أتيناكم	آل عمران 82	قرئت بالألف أتيناكم
قتل	آل عمران 146	قرئت بالألف قاتل
قيماً	النساء 5	قرئت بالألف قياماً
السلم	النساء 94	قرئت بالألف السلام
يصلحنا	النساء 128	قرئت بالألف يصلحنا
جعل	الأنعام 96	قرئت بالألف جاعل
درست	الأنعام 105	قرئت بالألف دارست
طيف	الأعراف 201	قرئت بالألف طائف
لساحر	يونس 2	قرئت بغير ألف لسحر
حاشا	يوسف 31	قرئت بغير ألف حاش

الكلمة	موقعها	قراءتها
حفظا	يوسف 64	قرئت بالآلف حافظا
خلقك	الإسراء 76	قرئت بالآلف خلافا
زكية	الكهف 73	قرئت بالآلف زاكية
لأهب	مريم 18	قرئت بالياء ليهب
هذان	طه 62	قرئت بالياء هذين
قال	الأنبياء 4، 112 والزخرف 24	
	والجن 20	قرئت بغير ألف قل
يدفع	الحج 38	قرئت بالآلف يدافع
معجزين	الحج 51 وسبأ	قرئت بالآلف معاجزين
حذرون	الشعراء 56	قرئت بالآلف حاذرون
فrehين	الشعراء 149	قرئت بالآلف فارهين
سحران	القصص 48	قرئت بالآلف ساحران
تصعر	لقمان 18	قرئت بالآلف تصاعر
تظهرون	الأحزاب 4 والمجادلة 2، 3	قرئت بالآلف تظاهرون
يضعف	الأحزاب 30	قرئت بالآلف يضاعف
بعد	سبأ 19	قرئت بالآلف باعد
سليماً	الزمر 29	قرئت بالآلف سالماً
مهذاً	الزخرف 10 وطه 52	قرئت بالآلف مهذاً
جاءنا	الزخرف 38	قرئت بالآلف جاءنا
حسناً	الأحقاف 15	قرئت بالآلف إحساناً
قاتلوا	محمد 4	قرئت بغير ألف قتلوا
خشعاً	القمر 7	قرئت بالآلف خاشعاً

الكلمة	موقعها	قراءتها
إذ	المدثر 32	قرئت بالالف إذا
أدير	المدثر 32	قرئت بغير ألف دبر
فكهين	المطففين 31	قرئت بالالف فاكهين
تحضون	الفجر 18	قرئت بالالف تحاضون
إطعام	البلد 14	بغير ألف أطمع

9 - وقد يكون الاختلاف بين هذه الروايات في إبدال حرف من الحروف (بآخر)، وكان أكثر هذا الإبدال في أحرف المضارعة، النون والتاء والياء :

يقبل	البقرة 48	قرئت بالتاء والياء
يفغر	البقرة 58	قرئت بالياء والنون
يقولون	البقرة 140 والإسراء 42	قرئت بالياء والتاء
	والعنكبوت 55 وق 30	
يعملون	البقرة 149 آل عمران 180	قرئت بالياء والتاء
	والأحزاب 2، 9 وهود 122	
	والنمل 93 والفتح 10	
يرى	البقرة 195 وآل عمران 13	
	والأحقاف 25	قرئت بالياء والتاء.
يكفر	البقرة 271 آل عمران 115 التغابن 9	قرئت بالياء والنون.
يرجعون	البقرة 281 وآل عمران 83	
	آل عمران 48	قرئت بالياء والنون
فيوفيههم	آل عمران 57 والأحقاف 19	قرئت بالياء والنون
يينغون	آل عمران 83	قرئت بالياء والتاء

الكلمة	موقعها	قراءتها
يفعلوا	آل عمران 115	قرئت بالياء والتاء
لتبيننه	آل عمران 187	قرئت بالياء والتاء
يدخله	النساء 13، 14 والفتح 17	
	والطلاق 11	قرئت بالياء والنون
يكن	النساء 73 والأنفال 66، 67	قرئت بالياء والتاء
يؤتيه	النساء 114، 152 والفتح 15	قرئت بالياء والنون
يجعلون	الأنعام 91	قرئت بالياء والتاء
يبدونها	الأنعام 91	قرئت بالياء والتاء
يخفون	الأنعام 91	قرئت بالياء والتاء
تغفر	الأعراف 161	قرئت بالياء والنون
يدرهم	الأعراف 185	قرئت بالياء والنون
نوحى	الأنبياء 25، 7 ويوسف 109	
	والنحل 43	قرئت بالنون والياء
لتحصنكم	الأنبياء 80	قرئت بالتاء والياء
يدعون	الحج 62 والعنكبوت 42	
	ولقمان 30 وغافر 20 والنحل 20	
	وصى 53	قرئت بالياء والتاء
يوقد	النور 35	قرئت بالياء والتاء
يستطيعون	الفرقان 19	قرئت بالياء والتاء
يخفون	النمل 25	قرئت بالياء والتاء
يعلمون	النمل 25	قرئت بالياء والتاء
يشركون	النمل 59	قرئت بالياء والتاء

الكلمة	موقعها	قراءتها
يذكرون	النمل 62 والمدثر 56	قرئت بالياء والتاء
يحسبن	الأنفال 60	قرئت بالياء والتاء
يكون	الأنفال 68 والأحزاب 36	قرئت بالياء والتاء
يعف	التوبة 66	قرئت بالياء والنون
يعذب	التوبة 66 والفتح 17	قرئت بالياء والنون
يزيغ	التوبة 118	قرئت بالياء والتاء
نحشرهم	يونس 45 وسبأ 40 وفصلت 19	
	والفرقان 17	قرئت بالياء والنون
يرتع	يوسف 12	قرئت بالياء والنون
يلعب	يوسف 12	قرئت بالياء والنون
يعقلون	يوسف 109 والقصص 60	
	ويس 68 والأعراف 196	قرئت بالياء والتاء
يسقى	الرعد 4	قرئت بالياء والتاء
يوقدون	الرعد 19	قرئت بالياء والتاء
تنزل	الحجر 8	قرئت بالنون والتاء
يتفياً	النحل 48	قرئت بالياء والتاء
ليجزين	النحل 96	قرئت بالياء والنون
يتخذوا	الإسراء 2	قرئت بالياء والتاء
يسبح	الإسراء 44 والفتح 9	قرئت بالياء والتاء
يخسف	الإسراء 68	قرئت بالياء والنون
يرسل	الإسراء 68 ، 69	قرئت بالياء والنون
يعيدكم	الإسراء 69	قرئت بالياء والنون

الكلمة	موقعها	قراءتها
فيغفركم	الإسراء 69	قرئت بالياء والنون
نُسِّر	الكهف 46	قرئت بالتاء والنون
يكاد	مريم 90 والشورى 5	قرئت بالياء والتاء
ينفخ	طه 110	قرئت بالياء والنون
يفعلون	النمل 88 والشورى 25	قرئت بالياء والتاء
يرجمون	القصص 39 والروم 11	قرئت بالياء والتاء
تجبي	القصص 57	قرئت بالتاء والياء
ينفع	الروم 57 وغافر 52 والزمر 52	قرئت بالتاء والياء
يحل	الأحزاب 52	قرئت بالياء والتاء
يجازي	سبا 17	قرئت بالياء والنون
يجزي	فاطر 36	قرئت بالياء والنون
لينذر	يس 70 والأحقاف 12	قرئت بالياء والتاء
تذكرون	الزمر 58	قرئت بالياء والتاء
يعلمون	الزخرف 89	قرئت بالياء والتاء
تغلي	الدخان 45	قرئت بالياء والتاء
يتقبل	الأحقاف 16	قرئت بالياء والنون
يتجاوز	الأحقاف 16	قرئت بالياء والنون
ليؤمنوا	الفتح 9	قرئت بالياء والتاء
يعزروه	الفتح 9	قرئت بالياء والتاء
يوقروه	الفتح 9	قرئت بالياء والتاء
يسلكه	الجن 17	قرئت بالياء والنون
يحبون	القيامة 20 والفجر 20	قرئت بالياء والتاء

الكلمة	موقعها	قراءتها
يذرون	القيامة 21	قرئت بالياء والتاء
يمنى	القيامة 37	قرئت بالياء والتاء
يشاؤون	الإنسان 30	قرئت بالياء والتاء
يؤثرون	الأعلى 16	قرئت بالياء والتاء
يسمع	الغاشية 11	قرئت بالياء والتاء
يكرمون	الفجر 17	قرئت بالياء والتاء
يحضون	الفجر 18	قرئت بالياء والتاء
يأكلون	الفجر 19	قرئت بالياء والتاء

10 - وقد اختلفت هذه الروايات في إبدال حروف أخرى غير حرف المضارعة :

يبسط	البقرة 245	قرئت (بيسط)
ننشرها	البقرة 259	قرئت (ننشرها)
أتيناكم	آل عمران 82	قرئت (أتيناكم)
يقضي	الأنعام 57	قرئت يقص
أنجيننا	الأنعام 63	قرئت أنجانا
بشراً	الأعراف 57 والفرقان 48	
	والنمل 63	قرئت نشرأ
خطيباتكم	الأعراف 161 ونوح 25	قرئت خطاياكم
أهلكتها	الحج 45	قرئت أهلكناها
الله	المؤمنون 86 - 87 - 88 والصف 14	قرئت لله
فتوكل	الشعراء 217	قرئت وتوكل
كبيراً	الأحزاب 68	قرئت كثيراً

الكلمة	موقعها	قراءتها
يتفطرون	الشورى 5 ومريم 9	قرئت ينفطرون
فيما	الشورى 30	قرئت بما
عباد	الأحزاب 19	قرئت عند
تشتهيه	الأحزاب 71	قرئت تشتهي
الذين	التوبة 108	قرئت والذين
يسيركم	يونس 22	قرئت ينسركم
لفتيانه	يوسف 62	قرئت لفتيته
منهما	الكهف 36	قرئت منها
اتبعتهم	الطور 18	قرئت اتبعناهم
وأكن	المنافقون 10	قرئت وأكون
أفتت	المرسلات 11	قرئت وقت
بضنين	التكوير 24	قرئت بظنين
فلا	الشمس 15	قرئت ولا

واختلفت هذه الروايات بزيادة كلمة واحدة في موضع واحد، وكانت ضميراً منفصلاً (هو) الحديد 24 حيث قرئت بزيادتها وحذفها.

واختلفت في فتح الهمزة أو كسرها في (إن) في مواضع معدودة.

ومن الملاحظ على هذه الاختلافات، أنها اختلافات طفيفة لا تؤثر في نظم القرآن، ولا في إعجازه، ولا في المعنى العام له، وإن سوراً بكاملها لم يقع فيها الاختلاف هي :

سورة الجمعة - والليل - والضحى - والشرح - والتين - والقدر - والزلزلة -
والعاديات - والقارعة - والتكاثر - والعصر - والفيل - وقريش - والماعون -
الكوثر - والكافرون - والنصر - والإخلاص - والفلق .
والحمد لله رب العالمين . . .

المَوْضُوع

الدكتور فاتح زقلام
كلية الدعوة الإسلامية

ربما بدا هذا العنوان ناقصاً، لأن الشأن أن يكتب أمام الموضوع ما يتم الحديث عنه، غير أن حديثنا منصب على الموضوع ذاته، فموضوعنا هو الموضوع نفسه، وقد يبدو هذا الموضوع لبعض القارئین تافهاً، وأنه ليس ذا أهمية، لأنه من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى بحث وتوضيح فمن منا لا يعرف معنى الموضوع؟ ونحن كثيراً ما نسأل عن موضوع البحث، وموضوع الكتاب، وموضوع العلم الفلاني، وموضوع المحاضرة، وشبه ذلك، وما ذلك إلا لعلنا بملول كلمة «موضوع» وجهلنا بما صدقها فيما أضيفت إليه، فنحن حين نسأل: ما موضوع علم الطب مثلاً؟ نعرف كلمة «موضوع» ولكن نجهل الشيء الذي ينطبق عليه هذا المعنى في علم الطب، وهو فرد من أفراد المفهوم الكلي للكلمة، وإذا كان الأمر كذلك فما جدوى الكتابة فيه؟.

وما الجديد الذي يمكن إضافته إلى معلوماتنا عنه؟.

ونقول: ليس الأمر كما قد يتصور من تفاهة هذا العنوان، بل هو من الأهمية بمكان فأغلبنا - وإن كان يردد هذه الكلمة - لا يعرف - للأسف - المدلول الاصطلاحي الدقيق لها، وكثير منا يعتقد أن معنى الموضوع مرادف لمعنى المضمون، والواقع أنهما متباينان وسنوضح ذلك فيما بعد.

وتتضح أهمية الكتابة في هذا العنوان فيما يترتب على تصويره من معرفة لمدى التزام الكاتب أو المتحدث بالموضوع، ومتى يكون خارجاً عن الموضوع، وما معنى فلان يكتب أو يتحدث بموضوعية . . الخ.

وهو أمر من الأهمية بمكان، وقد اهتم به علماءنا الأوائل فجعلوا معرفة الموضوع (مفهوماً وما صدقه) من الأمور التي يتوقف عليها الشروع في أي علم من العلوم، فهو من المبادئ التي يطلب معرفتها قبل الشروع في مسائل أي علم.

ولسنا نقصد بلفظ «موضوع» المصطلح المنطقي الذي يقابل «المحمول» أعني الركن الأول في القضية، وإن ذكر أحياناً، إذ هو المحكوم عليه، والمحكوم عليه رتبته التقديم، سمي موضوعاً لأنه وضع ليحمل عليه غيره، لسنا نقصد هذا وإن كان هذا أيضاً له علاقة بما نحن بصدد بيانه كما سيتضح فيما بعد، ولكننا نقصد الموضوع الذي يتردد كثيراً في عباراتنا حيث نقول: موضوع العلم الفلاني كذا، وموضوع الكتاب كذا، وموضوع الدرس كذا، وفلان خارج عن الموضوع، وهذا خروج عن الموضوع، وفلان تحدث بموضوعية . . الخ.

فما معنى لفظ موضوع؟ هذا ما نريد بيانه في هذا المقال الموجز، فموضوع أي علم من العلوم: (ما يبحث في ذلك العلم عن عوارضه الذاتية)، وكذلك يقال في موضوع الكتاب: (ما يبحث في ذلك الكتاب عن عوارضه الذاتية) وموضوع المحاضرة: (ما يبحث في تلك المحاضرة عن عوارضها الذاتية) وهكذا، بمعنى أن الشيء الذي يبحث في ذلك العلم، أو ذلك الكتاب، أو تلك المحاضرة عن أحواله الذاتية التي تعرض له يكون هذا - الشيء - موضوعاً لذلك العلم، أو ذلك الكتاب، أو تلك المحاضرة.

ففي علم الفقه مثلاً نبحث عن أحوال فعل المكلف، التي تعرض له من حيث كونه مطلوباً أو غير مطلوب، فنقول: صلاة الظهر واجبة، وصلاة الوتر سنة، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر مستحب، وصوم يوم الشك مكروه، وشرب الخمر حرام، والبيع المستوفي لأركانه وشروطه صحيح، ونكاح الشغار فاسد... الخ.

فالصلاة والصوم، وشرب الخمر، والبيع والنكاح كل واحد منها فعل للمكلف، والوجوب، والسنية، والاستحباب، والكراهة، والحرمة والصحة، والفساد أحوال عارضة لهذا الفعل دالة على أنه مطلوب أو غير مطلوب، فيكون (فعل المكلف) هو الموضوع لعلم الفقه.

وفي علم النحو نبحث عن أحوال اللفظ العربي التي تعرض له من حيث الإعراب والبناء، فنقول: (الاسم إما معرب وإما مبني، والفاعل مرفوع والمفعول به منصوب، والمضاف إليه مجرور... الخ. فالاسم، والفاعل، والمفعول به والمضاف إليه، كل واحد منها لفظ عربي أو نوع من اللفظ العربي، والإعراب والبناء، والرفع، والنصب، والجور... الخ أحوال تعرض لهذا اللفظ فيكون (اللفظ العربي) هو موضوع علم النحو.

وفي علم الطب نبحث عن أحوال بدن الإنسان، فيكون (بدن الإنسان) هو موضوع علم الطب، وهكذا، فالمراد بالعوارض - إذن - الأحوال الخارجة عن ماهية الشيء اللاحقة له.

ومعنى البحث عنها: التنقيب والفحص عنها لتحمل على ذلك الشيء (الموضوع) بدليل، بأن يجعل ذلك الشيء موضوعاً للمسألة، وتجعل حاله العارضة له محمولاً، كقولنا في علم الفقه: الصلاة واجبة، حمل الوجوب، وهو حال عارضة للصلاة، على الصلاة وهي فعل للمكلف، وكقولنا في علم النحو الاسم معرب حمل الإعراب - وهو حال عارضة للفظ - على الاسم، وهو نوع من اللفظ ولا بد لهذا الحمل من دليل يذكر في أثناء الفحص والتنقيب، غير أن هذه الأحوال قد تحمل على الشيء نفسه مثل - اللفظ إما معرب، وإما مبني وفعل المكلف إما حلال وإما حرام... الخ.

وقد تحمل على نوع من أنواعه، مثل: الإسم إما معرب وإما مبني، فإن الإسم نوع من اللفظ، وقد تحمل على عرض ذاتي آخر من أعراضه، مثل: الإعراب إما ظاهر وإما مقدر، والفاعل مرفوع، والمضاف إليه مجرور فإن الإعراب والفاعلية والإضافة أعراض ذاتية للفظ، حملنا عليها أعراضاً ذاتية أخرى لها وهي الظهور أو التقدير. والرفع والجعر، وقد تحمل على نوع من أنواع عرضه الذاتي مثل: المبتدأ المشتق يغني مرفوعه عن الخبر إذا اعتمد على نفي أو استفهام، فإن المبتدأ المشتق نوع من المبتدأ الذي هو عرض ذاتي للفظ، ومثل ذلك يقال في موضوع كل علم: خذ مثلاً آخر موضوع علم الأصول، فإن موضوعه: الدليل - كتاباً كان أو سنة أو غيرهما - فقد يحمل العرض الذاتي على الدليل نفسه، فيقال: الكتاب العزيز يثبت الحكم قطعاً إذا كانت دلالته قطعية، والسنة حجة، وقد يحمل على نوع الدليل كقولهم: الأمر المجرد عن القران يفيد الوجوب، فإن الأمر نوع من الكتاب أو السنة، وقد يحمل على عرض ذاتي آخر له، كقولهم: العام يفيد الظن فإن العموم عرض ذاتي للكتاب أو السنة، وقد يحمل على نوع العرض الذاتي، كقولهم: العام المخصوص يفيد الظن، فإن (العام المخصوص) نوع من العام الذي هو عرض ذاتي للكتاب أو السنة⁽¹⁾.

فلا يلزم - إذن - في ذاتية العرض أن تكون بالنسبة إلى موضوع العلم، بل يكفي فيها أن تكون بالنسبة إلى بعض أقسامه، كنوعه، أو عرضه الذاتي، أو نوع عرضه الذاتي، فمعنى قولهم: (يبحث فيه عن عوارض الذاتية) أي إنه يثبت له ما هو عرض ذاتي له، أو يثبت لنوعه ما هو عرض ذاتي لذلك النوع، أو ينبى لعرضه الذاتي ما هو عرض ذاتي لذلك العرض أو يثبت لنوع عرضه الذاتي ما هو عرض ذاتي لذلك النوع، وقد تقدم لك مثال ذلك، ومن مجموع الموضوع والمحمول تتكون القاعدة ومجموع القواعد يشكل العلم، وجميع موضوعات هذه القواعد ترجع إلى موضوع العلم، بأن تكون عينه أو نوعه أو عرضه كما تقدم، ومن هنا كانت العلاقة بين الموضوع بالمفهوم المنطقي

(1) أصول الفقه، إبراهيم عبد الحميد وآخرون ص 22.

والموضوع الذي نحن بصدده ببيان وطيدة.

والمقصود بالذاتي في قولنا: (العرض الذاتي) ما كان منشؤه ذات الشيء، بأن يكون عروضه له لذات الشيء أو لجزئه المساوي أو الأعم، أو لأمر خارج عنه مساو له. مثال الأول، وهو ما يلحق الشيء لذاته بأن لا يكون هناك واسطة في عروضه بالذات، القدرة لذات الباري سبحانه وتعالى، وإدراك الأمور الغريبة للإنسان.

ومثال الثاني: وهو ما يلحق الشيء لجزئه المساوي له - التكلم العارض للإنسان بواسطة أنه ناطق.

ومثال الثالث: وهو ما يلحق الشيء لجزئه الأعم: الحركة بالإرادة العارضة للإنسان بواسطة أنه حيوان.

ومثال الرابع: وهو ما يلحق الشيء لأمر خارج عنه مساو له مختص به - الضحك العارض للإنسان بواسطة أنه متعجب، فهذه كلها أعراض ذاتية.

أما الأول فظاهر، وأما الثاني، والثالث، فلاستنادهما إلى ما توقف عليه الذات، وأما الرابع فلاستناده إلى مساوي الذات، ومساوي الشيء بمنزلته، فالمستند لمساوي الشيء بمنزلة المستند لذلك الشيء⁽²⁾.

وخرج بالذاتية الأعراض الغريبة عن الشيء، فلا يكون ذلك الشيء موضوعاً لها، وهي ما تلحقه لأمر خارج عنه أعم منه، كالحركة اللاحقة للأبيض بواسطة أنه جسم، أو لأمر خارج عنه أخص منه، كالضحك العارض للحيوان بواسطة أنه إنسان، أو لأمر مباين له، كاللون العارض للجسم بواسطة السطح، فهذه كلها أعراض غريبة، لأنها بعيدة عن المعروض لعدم استنادها إلى ذاته كلاً أو بعضاً، أو إلى ما هو بمنزلته، فيكون موضوع البحث عنها هو الأمور التي استندت إليها.

(2) اللؤلؤ المنظوم ص 50 - 55، وانظر في هذا استكمالاً للبحث: حسن باشا زادة على الكليني ص 8 - 9، والبرهان للشيخ زادة الكليني ص 405 وما بعدها، والتهذيب بشرح الحلي ص 432، و ص 71 وما بعدها.

ومما يجب ملاحظته أن العوارض الذاتية لموضوع الفن إما أن يكون البحث عنها فيه مقصوداً بالذات، وإما أن يكون مقصوداً بالتبع وإما لتوقف لحق الأعراس المقصودة بالذات عليها، وأكثر مسائل العلوم من هذا القبيل⁽³⁾.

والعوارض الذاتية للشيء الواحد إذا أتحدث في تحقيق الغاية المترتبة عليها كان ما أدى إليه البحث عنها علماً واحداً موضوعه ذلك الشيء، وإن اختلفت غاياتها كان كل مجموعة منها مشتركة في غاية علماً مستقلاً، موضوعه ذلك الشيء، من جهة مخصصة، وباعتبار مخصص، فيكون ذلك الشيء موضوعاً لعدة علوم باعتبارات مختلفة، كما في علوم العربية، فإن موضوعها: اللفظ العربي، لكن من جهات مختلفة، فمن حيث حال جوهر اللفظ ومادته⁽⁴⁾ كان اللفظ موضوعاً لعلم اللغة، ومن حيث أصل اللفظ وفرعه كان موضوعاً لعلم الاشتقاق، ومن حيث هيئته كان موضوعاً لعلم الصرف، ومن حيث حال آخره إعراباً وبناء كان موضوعاً لعلم النحو، ومن جهة حال مطابقته مقتضى الحال كان موضوعاً لعلم المعاني. ومن جهة اختلافه في التعبير به عن المعنى الواحد وضوحاً وخفاء كان موضوعاً لعلم البيان، ومن جهة محاسنه كان موضوعاً لعلم البديع، ومن حيث وزنه كان موضوعاً لعلم العروض. ومن حيث آخر الموزون كان موضوعاً لعلم القافية⁽⁵⁾.

وقد تشرك عوارض أشياء متعددة في تحقيق غاية واحدة فيكون ما أدى إليه البحث عنها علماً واحداً، موضوعه تلك الأشياء، وهي لاشتراك أغراضها في تحقيق غاية واحدة لا بد أن تكون متناسبة تناسباً معتداً به، فالعبرة - إذن - في اتحاد الموضوع أو تعدده بالأغراض والغايات المترتبة على حمل العوارض⁽⁶⁾.

(3) الأولو المنظوم ص 55.

(4) أي تميز الألفاظ العربية عن غيرها ومعرفة المعاني التي وضعت لها الألفاظ.

(5) انظر الأولو المنظوم ص 143 - 144.

(6) انظر للتحريير والتجوير ج 1 ص 36 - 37.

ويعرف الموضوع لأي علم تتضح جهة الوحدة التي تربط بين مسائله، ذلك أن مسائل كل علم كثيرة، وربما اختلطت هذه المسائل على من لا يعرف الوحدة الجامعة لها بمسائل علم آخر فيقع في الضلال من حيث لا يدري، فامتياز كل علم عن غيره إنما يكون بالموضوع.

وقد تصدى علماءنا الأوائل لذلك حيث رأوا أن حقائق الأشياء وأحوالها كثيرة متنوعة وأن معرفتها متعسرة، وأن حسن التعليم يقتضي أن تجعل مضبوطة، متميزة، فقاموا بهذه المهمة، وجعلوا الأحوال والأعراض الذاتية المتعلقة بشيء واحد إما مطلقاً أو من جهة واحدة أو بأشياء متناسبة تناسباً معتدلاً به علماً واحداً أفرده بالتسمية والتدوين.

وسمى ذلك الشيء أو تلك الأشياء موضوعاً لذلك العلم، لأن موضوعات مسائله راجعة إليه فصارت كل طائفة من الأحوال مشاركة في موضوع ما علماً منفرداً ممتازاً في نفسه عن طائفة أخرى مشتركة في موضوع آخر، فجاءت علومهم متميزة في نفسها بموضوعاتها⁽⁷⁾.

وحيث كانت العلوم متميزة بعضها عن بعض بموضوعاتها فإن المعروف لأي علم له أن يلاحظ في تعريفه جهة وحدة الموضوع فيعرفه على أساسها، وله أن يلاحظ جهة وحدة الغاية والثمرات المترتبة عليه فيرسمه على ضوئها.

لأن مسائل كل علم تربطها أيضاً غاية واحدة من أجلها يسعى الإنسان لتحصيل تلك المسائل، وكلا الاعتبارين صحيح، لحصول تميز العلم بكل واحد منهما، فكل مسألة لا يرجع موضوعها إلى موضوع العلم أو لا يدور البحث فيهما عن أحوال الموضوع فليست من ذلك العلم، وهذا معنى الخروج عن الموضوع. وكل مسألة يرجع موضوعها إلى موضوع العلم، ومحمولها حال من أحواله فهي من ذلك العلم.

والمحدث أو الكاتب إذا كان حديثه منصباً على أحوال موضوعه، وموضوعات مسائله في أثناء حديثه راجعة إلى ذلك الموضوع فهو كاتب أو

(7) انظر، حاشية الشيخ سليم البشري على شرح رسالة الآداب ص 12.

متحدث موضوعي يتكلم بموضوعية وهذا هو معنى الالتزام بالموضوع.

وواضح مما تقدم أن موضوع العلم غير العلم، إنما العلم أحواله التي تحمل عليه، فبدن الإنسان موضوع لعلم الطب وليس هو علم الطب، وإنما علم الطب هو الأحوال التي تعرض لهذا البدن من الأمراض المختلفة وكيفية علاجها، واللفظ العربي هو موضوع علم النحو، وليس هو علم النحو، وإنما علم النحو هو الأحوال التي تعرض لهذا اللفظ من حيث الإعراب والبناء.

والعارف بالالفاظ العربية لا يكون عارفاً بالنحو إذا لم يكن عارفاً بالأحوال التي تعرض لآخر هذه الالفاظ من حيث الإعراب والبناء، كما أن العارف ببدن الإنسان وبأجزائه التي يتركب منها لا يكون عارفاً بعلم الطب إذا لم يكن عارفاً بالأحوال التي تعرض له من حيث الصحة والسقم، وهكذا كل علم.

كما أن الموضوع غير المضمون فموضوع المسألة هو ما وضع ليحمل عليه حال من أحواله الذاتية بدليل، وموضوع العلم هو ما يبحث في ذلك العلم عن عوارضه الذاتية، وقد تقدم شرح ذلك.

أما المضمون فهو خلاصة محتوى المسألة وطريقة أخذه، أن تأخذ مصدر مسندها وتضيفه للمسند إليه إن كان المسند مشتقاً كنجاح خالد في قولنا نجح خالد، وخالد ناجح، أما إذا كان المسند جامداً فإنك تأخذ لفظ الكون وتضيفه للمسند إليه ثم تخبر عنه⁽⁸⁾ بالمسند ككون خالد أخاك في قولنا، خالد أخوك، ومضمون البحث، خلاصة النتيجة التي توصل إليها الباحث، ويعبر عنها بالطريقة التي أوضحنها، ومضمون الكتاب، خلاصة نتيجة الأبحاث التي تناولها، ومضمون العلم، خلاصة الأحوال التي حملت على موضوعه.

والله تعالى أعلم

(8) انظر حاشية الحضري عل شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ج 1 ص 219 - 220.

مراجع البحث

- 1 - التذهيب شرح عبيد الله بن الفضل الخبيصي على تهذيب المنطق ط الحلبي.
- 2 - البرهان للشيخ: اسماعيل الكليني مع حواشيه، مطبعة السعادة بمصر.
- 3 - أصول الفقه: إبراهيم عبد الحميد وآخرون مطبعة لجنة البيان العربي بمصر.
- 4 - اللؤلؤ المنظوم في مبادئ العلوم تأليف محمد أبي عليان طبعة الحسينية بمصر.
- 5 - تحفة الطلاب شرح رسالة الآداب للشيخ سليم البشري طبعة جريدة الإسلام بمصر.
- 6 - التقرير والتحجير لابن أمير الحاج - الطبعة الأميرية.
- 7 - شرح حسن باشا زاده على رسالة الآداب للكليني دار الطباعة العامة.

وَتَفِيْزِ اِسْلَامِنَا اِحَادَةً الشَّامِحُ وَالْعَدْلُ سِمَةُ اِِسْلَامِ الْخَالِدَةِ

الدكتور شوقي أبراهيميل

جامعة دمشق

من خصائص حضارتنا الإسلامية أنها لا تحكم بالإعدام على الثقافات الأخرى، والحوار هو البديل، والتعددية في الثقافة ثراء للفكر، وإقرار الإسلام بتعدد العقائد إقرار بمشيئة الله: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١/١١٨]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، [المائدة: ٤٨/٥].

نحاور بالتّي هي أحسن: ﴿ادْعَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥].

وعلى الرغم من هذا كله، نرى المسيحية تتبرم من الآخرين، وترسم سياستها الظاهرة والباطنة لإبادة خصومها، أو تحقيرهم وحرمانهم، ولا تتردد

حتى على إرغامهم على ترك دينهم، وإجبارهم على النصرانية، ومقررات مؤتمر كولورادو 15/10/1978، الذي انعقد تحت شعار (تنصير المسلمين في العالم) ليست عنا ببعيد^٢، لقد وضع استراتيجية بقيت سرية عدة سنوات لخطورتها، مع وضع ميزانية لتحقيق الهدف مقدارها 1000 مليون دولار، أودعت في مصرف أمريكي.

بينما الإسلام يمد يده لمصافحة أتباع الشرائع الأخرى لتحقيق التعاون على إقامة العدل، ونشر الأمن، وصيانة الدماء أن تسفك، وحماية الحرمات أن تنتهك، فهو لم يقم على اضطهاد مخالفه، أو مصادرة حقوقهم، أو تحويلهم بالإكراه عن عقائدهم، لأن حرية الاعتقاد مصانة: ﴿لا إكراه في الدين﴾، [البقرة: ٢/٢٥٦]، أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم، وشتان بين التسامح وبين الضعف والعجز، فكثيرون لا يقدرّون هذا الثبل، وربما استغلّوا هذه السماحة في الإساءة إلى الإسلام، الذي وسعته دائرته المنة.

(الحوار) من حق الجميع، وحق للجميع ضمانات الحوار، فلا عنف، ولا مصادرة لرأي الآخر، لقد استشهد الطبري في تفسيره بشعراء نصارى، فلا تشنج، بل تسامح ثم الحساب على الله: ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾، [البقرة: ٢/١١٣].

و(العهد العُمريّ) تعطينا فكرة واضحة عن الأمان الذي مُنح للأَنْفُس والأموال وأماكن العبادة، ونصّها التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء^(١) من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها ويريثها وسائر ملّتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من حيّزها، ولا من صليبيهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم.

(1) اسم مدينة بيت المقدس، ومعناه بيت الله، [معجم البلدان: 1/293].

وعلى ما في هذا الكتاب من عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة⁽²⁾.

وعلى منوال (العهد العمرية) وقع أبو عبيدة بن الجراح⁽³⁾ مع أهل دمشق، واشترط عليهم حين دخلها: (على أن تترك كنائسهم وبيعتهم)⁽⁴⁾.

ووقع عمرو بن العاص معاهدة مع أهل مصر: «هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم ويحرمهم...»⁽⁵⁾.

واستخلص من هذه المعاهدات الحقوق العامة لأهل الذمة، كحفظ النفس، وحفظ الأعراض، والقانون الجنائي والمدني سواء للمسلم والذمي، والأمور الشخصية يقضي بها الذميون بحسب قانونهم الشخصي، مع الحرية التامة بإقامة الشعائر الدينية.

وذكر ابن عابدين في حاشيته أن فقهاء المسلمين من المذاهب الاجتهادية كافة صرحوا وأكدوا بأن على المسلمين دفع الظلم عن أهل الذمة، والمحافظة عليهم، لأن المسلمين حين أعطوهم الذمة قد ألزموا دفع الظلم عنهم، وهم صاروا به من أهل دار الإسلام، بل صرح بعضهم بأن ظلم الذمي أشد من ظلم المسلم إثمًا.

تكلمت المستشرقة الإيطالية (لورا فيشيا فاغلييري)⁽⁶⁾ عن المعاهدات التي وقعها المسلمون مع الذميين، فقالت: «منحت تلك الشعوب حرية الاحتفاظ

(2) الطبري: 609/3، واليعقوبي: 167/2.

(3) أبو عبيدة عامر بن الجراح، أمير قائد، فاتح الديار الشامية، أحد العشرة المبشرين بالجنة، كان لقبه (أمين الأمة) توفي بطاعون عمّواس، ودفن في غور بيسان، [الأعلام: 252/3].

(4) الخراج: أبو يوسف القاضي، ص: 80.

(5) الطبري: 109/4، وصبح الأعشى للقلقشندي.

(6) أستاذة اللغة العربية في جامعة نابولي - إيطاليا.

بأديانها القديمة، وتقاليدها القديمة، شرط أن يدفع الذين لا يرضون الإسلام ديناً، ضريبة عادلة إلى الحكومة تعرف بالجزية، لقد كانت هذه الضريبة أخف من الضرائب التي كان المسلمون ملزمين بدفعها إلى حكوماتهم نفسها، ومقابل ذلك، منح أولئك الرعايا (المعروفون بأهل الذمة) حماية لا تختلف في شيء عن تلك التي تمتعت بها الجماعة الإسلامية نفسها، ولما كانت أعمال الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين قد أصبحت فيما بعد قانوناً يتبعه المسلمون، فليس من الغلو أن تصر على أن الإسلام لم يكتف بالدعوة إلى التسامح الديني، بل تجاوز ذلك ليجعل التسامح جزءاً من شريعته الدينية⁽⁷⁾.

إن مقارنة بسيطة بين الفتح الإسلامي، والاستعمار المسيحي، تعطينا فكرة واضحة جلية عن تسامح المسلمين، وسيادة حرية المعتقد تحت سلطانهم، وتعطي في الوقت ذاته صورة جلية عن تعصب المسيحيين والقمع والمجازر البشرية التي رافقت انتصاراتهم.

المسلم لم تجش في نفسه نيات الغدر والفتك والخيانة، والقتل الجماعي والتحريق لغير أبناء دينه، وقد حكم قروناً طويلة، ولم نسمع عنه ولو مرة واحدة، بمثل ما جرى في محاكم التفتيش مثلاً.

لقد حفظت مبادئ الإسلام لغير المسلم حقوقه، وعرفته بواجباته التي لا تختلف كثيراً عن واجبات المسلمين، وفي كل الظروف وعامل غير المسلم (إنساناً) تحترم إنسانيته: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» [الحجرات: ١٣/٤٩].

ولقد تجلت وظهرت قسوة الأوربيين ووحشيتهم وتعصبهم عند أول يوم نزلوا فيه أراضي إفريقية وآسية وأمريكة، أما أحرق فاسكودوغاما مركباً للحجاج يحمل مئات الرجال والنساء والأطفال، دون أن يستجيب إلى توسل النساء إليه؟ وفي أحد المراكز الهندية أسر حوالي ثمان مئة بحار هندي وشنقهم على

(7) دفاع عن الإسلام، ص: 34 و 35.

ظهر سفينة، وقطع أيديهم ورؤوسهم، ثم وضع جثثهم في مركب حمله التيار إلى الشاطئ ليراهم ذروهم.

وفكر ألبوكيرك (Albuquerque) المكتشف البرتغالي سنة 1506م بالسَّير السريع إلى المدينة المنورة لاختطاف رفات النبي الكريم ﷺ ثم عرضها على المسلمين بعد ذلك، مقابل التخلي عن فلسطين، وهذا يثبت الروح الصليبية الأوروبية الحاكمة، كما فكر بتحويل نهر النيل عن مجراه، كي يحرم مصر من خصوبة أرضها⁽⁸⁾.

أما في اكتشاف أمريكا، فكانت الإبادة الكاملة لحضارة الإنكا، وحضارة المايا، وحضارة الأزتيك، مع سفن أسبوعية في قوافل منتظمة لنقل الذهب والفضة إلى إسبانية والبرتغال.

يقول الدكتور شاكِر مصطفى: «الحديث عن الهنود الحمر حديث عن مأساة ثلاثين مليون إنسان أبادتهم البندقية الأوربية والمدفع، عن جريمة اشتركت فيها جميع القوى الأوربية، وكان لها أكثر من جنكيز خان واحد، وكانت عملية من أفجع عمليات الإبادة الجماعية في التاريخ، باسم الكنيسة والمدنية. تحت هذا الثنائي الساحق تمت العملية، وكل أقدوم من هذا الثنائي كاف وحده لتبرير كل شيء، كريستوف كولومبوس في صوره الرمزية هناك وراء المحيط يرسمونه دون موارد بشكل إنسان من شقين، شق يلبس الزرد ويحمل السيف، وشق في سواد الكهان يحمل الصليب، الحلف بين السيف والصليب دفعت ثمنه دماً تلك الملايين المنكودة الحظ في العالم الجديد، ودفعته أولاً أشلاء وإبادة وسحقاً تحت الحوافر، ثم دفعته تشويهاً لحضارتها ومكانها الإنساني، وتدميراً لعمرانها تحت ضغط العطش القاتل للذهب»⁽⁹⁾.

وكيف عامل الأوربيون أطفال شعوب الإنكا والمايا والأزتيك؟

«قابل مسيحيون هندية، كانت تحمل بين ذراعيها طفلاً كانت تقوم

(8) في طلب التوابل، سونيا هاو، ص: 225.

(9) المظلومون في التاريخ، ص: 121.

بإرضاعه، وبما أن الكلب الذي كان يرافقهم كان جائعاً، فقد انتزعوا الطفل من بين ذراعي الأم، ورموه حياً إلى الكلب، الذي أخذ ينهشه تحت بصر الأم ذاته. . . وعندما كان بين السجناء بضع نساء وضعن حديثاً، فإنهم ما إن كان الأطفال الذين ولدوا حديثاً يأخذون في العويل، يمسكونهم من سيقانهم ويصرعونهم برميهم على الصخور، أو كانوا يلقونهم في الأحراش حتى يكون موتهم مؤكداً فيها⁽¹⁰⁾.

ويروي (لاس كاماس) حكاية شارك فيها، إنها مجزرة (كاوناو) التي ارتكبتها قوات (ناربايث)، التي كان مرشداً دينياً لها، وتبدأ الحادثة بظرف عرضي: «إلا أنه يجب معرفة أن الإسبان، يوم وصولهم إلى هناك، قد توقفوا في الصباح، لتناول طعام الإفطار، في مجرى جاف لأحد الأنهار، وكان يحتفظ مع ذلك بعدد من غدران الماء الصغيرة، وكان غاصاً بالحجارة الصوانية، وهذا هو ما ألهمهم فكرة شحذ سيوفهم، وعند وصولهم إلى القرية بعد هذا الإفطار على العشب، راودت الإسبان فكرة جديدة: التحقق مما إذا كانت السيوف قاطعة بالدرجة التي تبدوا بها، فجأة يستل إسباني السيف، وسرعان ما يحذو المائة الآخرون حذوه ويشرعون في تمزيق أحشاء وقطع وذبح هذه الشياه والحملان من الرجال والنساء والأطفال والشيخوخ، الذين كانوا جالسين هادئين، يتفرجون في عجب على الجياد والإسبان، وفي ثوان معدودات، لا يبقى على قيد الحياة أحد من جميع أولئك الذين كانوا موجودين هناك، ولدى دخول الإسبان بعد ذلك إلى البيت الكبير الذي كان مجاوراً، لأن ذلك كان يحدث أمام بابه، يشرع الإسبان بالمثل، عن طريق الطعن والقطع، بقتل جميع من كان هناك حتى سال الدم في كل مكان، كما لو أنه قد جرى ذبح قطع من الأبقار.

ولا يجد (لاس كاماس) أي تفسير لهذه الأحداث إن لم يكن الرغبة في التحقق من أن السيوف قد شحذت شحذاً جيداً، لقد كان مشهد الجراح التي

(10) فتح أمريكا (مسألة الآخر)، غريفيان تودوروف، دار سيناء، ص: 149.

غطت أجساد الموتى والمحترقين مشهد رعب وذعر... (11).

وبعد كل هذا الذي سقناه تمهيداً لتقديم وثيقة إسلامية نادرة: (دية فرس لأحد الذميين في الدولة الإسلامية)، هذه الوثيقة النادرة كتبت على الورقة (الكاغد)، وهي محفوظة حالياً في مكتبة جامعة هايدلبرج بألمانيا تحت رقم سجل (8007)، وهي مؤرخة بعام 404 هـ⁽¹²⁾، عرضها 29 سم، بها بعض التمزقات خاصة في منتصفها.

ترجع أهمية هذه الوثيقة إلى أنها تلقي الضوء على مدى العناية التي نالها أهل الذمة (المسيحيين) في الدولة الإسلامية في القرن الخامس الهجري، فالوثيقة صكٌ بسداد دينه مقدارها 30 ديناراً، عن مقتل فرس أحد الذميين، ويدعى (ميناء بن جرجة الططوني⁽¹³⁾)، والذين تسببوا في مقتل الفرس نفر من المسلمين هم: فهد بن عصام الذفري، وفاتك بن يزيد الذفري، وابن عمهما مكبر بن فيد الذفري⁽¹⁴⁾.

الوثيقة تحتوي على كتابة عربية خالصة قوامها 33 سطراً، ونصها على ما فيها من هفوات وأخطاء إملائية مثل: ثلثين بدل ثلاثين، ومتما ما ادعا، بدل متى ادعى، والمدعا عليه بدل المدعى عليه، وفي بداية الأسطر (بن) بدل ابن... نصها التالي حرفياً:

1 - «أشهدني فهد بن عصام وفاتك بن زيد ومينا.

2 - بن جرجة الططوني بما في هذه الوثيقة وكتب علي بن يوسف.

3 - بخطه في تاريخه.

4 - بسم الله الرحمن الرحيم.

(11) فتح أمريكا، ص: 151 و 152.

(12) وهذا يوافق سنة 1013 م.

(13) ططون: قرية من قرى الفيوم في مصر.

(14) الرابطة، العدد 348، عدد شباط 1994، ص: 70، مقالة للأستاذ سعيد مغاوري محمد.

- 5 - شهد الشهود المسمون في آخر هذا الكتاب منهم من كتب بيده .
6 - ومنهم من كُتِبَ عنه على إقرار فهد بن عصام الذفري وفاتك .
7 - بن زيد الذفري في صحّة عقولهم وأبدانهم وجواز أمرهم طائعين
8 - غير مكرهين ولا مجبرين ولا مضطهدين أن الأمر تقرر بينهم وبين
مينا .

- 9 - بن جرجة الططوني من كورة الفيوم في الفرس التي كانت لولد
10 - عمهم مكبر بن فيد الذفري التي قتلت بططون تقرر الأمر بينهم
11 - على ثلثين ديناراً منها خمسة عشر ديناراً في شهر المحرم من
12 - سنة خمس وأربع مائة وخمسة عشر ديناراً في شهر المحرم من سنة
13 - ست وأربع مائة لا يدافعهم مينا بن جرجة الططوني بذلك عند
14 - محل الأجل المذكور فيه ولا يحتج عليهم بحجة بوجه من الوجوه
ولا

- 15 - سبب من الأسباب ومتا ما ادعا أحد منهم على مينا بن جرجة
16 - الططوني بغير ما سمي ووصف في هذه الوثيقة
17 - وإفك وبهتان والمدعا عليه بريء في هذه الوثيقة
18 - يدّعوا أو احتج عليه بحجة فضمن ذلك وخلاصه على فهد بن

عصام

- 19 - وفاتك بن زيد بلا مدافعة ولا احتجاج بحجة وكتب في مستهل
رمضان

- 20 - سنة أربع وأربع مائة شهد على ذلك شهد نهار بن يحيى الطليبي بما
في هذه الوثيقة وكتب عنه علي بن يوسف بأمره ومحضره شهد ريعة بن محمد
وعلي بن عمر بما فيه وكتب عنهم علي بن يوسف بأمرهم وحضورهم .

- 21 - شهد القسم بن يحيى بن عبد العزيز اليامي
- 22 - شهد على اقرار فهد بن عصام وفاتك بن زيد
- 23 - على ما سمي ووصف في هذا الكتاب وكتب بيده
- 24 - في تاريخه
- 25 - وهذه الفرس قتلت بططون يوم الغارة شهير ومحمد علي بططون
- 26 - وهذه
- 27 - الثلاثين دينار
- 28 - ثمننا لهذه
- 29 - الفرس عن
- 30 - ومهرتها
- 31 - جميع أهل
- 32 - ططون وهو
- 33 - خطا واحداً.

ويعلق الأستاذ سعيد مغاوري محمد علي نصّ هذه الوثيقة بقوله :

«في واقع الأمر إنّ المتأمل في نصّ هذه الوثيقة النادرة يلاحظ مدى عناية الدولة الإسلامية بأهل الذمة المقيمين بها من يهود ونصارى، ذلك لأنها تكشف النقاب عن العدالة الإسلامية المتمثلة في حفظ حقوق هؤلاء الذميين، فالمجنبي عليه يدعى مينا بن جرجة الططوني قتلت فرسه في مدينة ططون يوم الغارة، ولم تفصح الوثيقة عن معنى هذا اليوم، وربما كان حملة من قبل الحكومة على بعض الخارجين أدت هذه الغارة إلى مقتل هذه الفرس، ولما كان صاحبها بريئاً من أية تهمة، فإن القاضي المسلم حكم بالعدل، وألزم هؤلاء الأفراد المسلمين وهم :

(فهد بن عصام الذفري وفانك بن زيد الذفري ومكبر بن فيد الذفري) بسداد دية هذه الفرس ومقدارها ثلاثون ديناراً، على أن تقسّط على دفعتين، الأولى في شهر المحرم من سنة 405، والدفعة الثانية في شهر المحرم سنة 406 هـ.

وإذا لاحظنا أن هذه العقوبة الشديدة ومقدارها 30 ديناراً قيمة الفرس المقتولة هي عقوبة مغلّظة، لأن الفرس لا يمكن أن يصل سعرها لهذا المبلغ، لأن الدينار الذهبي في هذه الفترة المتقدمة كان ذا قيمة عالية، وكان في الإمكان شراء منزل كامل بدينارين مثلاً.

لذلك كله فإن الوثيقة شاهد حق، ودليل قاطع على عدالة الشريعة الإسلامية مع أهل الذمة في الدولة الإسلامية.

ومثل هذه الوثائق النادرة نافعة للطلاب والباحثين في مجال التاريخ والحضارة والفكر والنظم والفنون والدراسات الإسلامية لأنها تكشف جوانب ما زالت خافية عن العلاقات الاجتماعية في الدولة الإسلامية⁽¹⁵⁾.

ونعلق قائلين: إنّ الظلم الفادح الذي لحق المسلمين بهذا الحكم الجائر من حيث الغرامة الواردة في الوثيقة، عائد إلى تعاطف الفاطميين⁽¹⁶⁾ مع المسيحيين من جهة، وسيطرة المسيحيين على دوائر الفاطميين من جهة أخرى، ولقد استفل كثيرون من أهل الذمة سماعة الإسلام وأسأوا إليه ولأبنائه، لذلك يجب الانتباه والتفريق بين التسامح وبين العجز عن حماية المسلمين بالحق والإنصاف.

يقول روبرتسون: «إن أتباع محمد ﷺ هم الأمة الوحيدة التي جمعت بين التحمس في الدين، والتسامح فيه، أي إنها مع تمسكها بدينها لم تعرف

(15) الرابطة .. ص: 71.

(16) كان على عرش مصر في هذه الفترة: الخليفة الفاطمي: المنصور الأمر بأحكام الله بن المستعلي بالله أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله، معاصر المستظهر بالله العباسي، [النجوم الزاهرة: 5/ 170].

إكراه غيرها على قبوله»⁽¹⁷⁾.

وصدق غوستاف لوبون وأنصف حين قال: «فالحق أن الأمم لم تعرف
فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم»⁽¹⁸⁾
والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرأ.

(17) حاضر العالم الإسلامي: 1/ 104.

(18) حضارة العرب، ص: 720، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3.

مُسَوِّلُ الطَّبِيبِ مُسَرِّفِيهِ فِي الْفِقَّةِ الْإِسْلَامِيِّ

الكتور عبد السلام الشريف
جامعة قازوين

مقدمة :

ساهم الطب العربي الإسلامي في رسم صورة واضحة عن تطور الحياة العلمية، ذلك أن علم الطب نشاط اجتماعي تساهم فيه الإنسانية في جميع مراحل تطورها، وهو يعكس صراع الإنسان مع المرض ومحاولة منعه والسيطرة عليه، وإيجاد الوسائل الكفيلة لحماية الإنسان منه. والمتتبع لكتب تاريخ علم الطب وتراجم الأطباء يلاحظ ثروة كبيرة من الكتب الطبية وكتب العقاقير والأدوية وغير ذلك من الكتب، التي تنظم أصول وقواعد ممارسة مهنة الطب عند المسلمين.

ولعل كتاب التصريف للجراح الكبير أبي القاسم الزهراوي ت 1013 هـ أول كتاب في الجراحة على الطريقة العملية الموضوعية في علم الجراحة.

وهذا يدلنا على نهضة الطب والعلوم المتعلقة به، وعلى الروح العلمية المبدولة من أجل تعلم الطب، وعلى الاهتمام بالنواحي التطبيقية والعمل على تطويرها.

لقد أظهر المسلمون روحاً علمية عالية حينما تركوا المؤسسات العلمية والمكتبات في البلاد المفتوحة، ولم يأنفوا طلب العلم مع حرصهم الشديد على بقاء لغتهم ومسايرتها لركب الحضارة باشتقاق أو تعريب المصطلحات العلمية اللازمة.

فهم أول من نادى بالطب الوقائي، والحجر الصحي، واهتموا بالطب البشري، وفصلوا الطب عن الصيدلة، وأسسوا علم العقاقير والكيمياء والصيدلة.

ووضعوا نظام الحسبة لمراقبة الأدوية وإجراء الاختبارات للأطباء، وإعطاء التصاريح للقادرين منهم على مزاولة المهنة، واهتموا كذلك بالأمراض الحموية والجلدية والأمراض المعدية، كالجدري والجذام والجرب والحصبة، ووضعوا بذلك أسس المعالجة السريرية، ولا ننسى دور الطبيب في معاونة القاضي؛ فقد حفظت لنا كتب الوثائق والأحكام صور التفاعل بين الأطباء وأفراد المجتمع والقضايا التي كانت تثار كنتيجة طبيعية لهذا التفاعل.

ونظراً لحرص الشريعة الإسلامية الشديد على إقرار العدالة وسلامة الإجراءات، فإن القاضي ما كان لينفرد برأيه فيما يتعلق بحالات الضرر أو الوفاة، التي تستلزم معرفة فنية لا تتوافر إلا في خبير بمهنة الطب، وهكذا كان على القضاة أن يستشيروا أهل الاختصاص من الأطباء للوصول إلى الحق وتحقيق العدالة.

وقد أشارت كتب الوثائق إلى النزاع الأبدي الذي لم يزل قائماً منذ أيام جالينوس حتى عصرنا الحاضر، وهو النزاع بين الطبيب والمريض فيما يتعلق بطبيعة التزام الطبيب هل هو بذلُ عناية أم تحقيق نتيجة؟ وهي حصول الشفاء بعد العلاج وفي هذا الإطار سنحاول إلقاء الضوء على مسؤولية الطبيب من

وجهة نظر الفقه الإسلامي، ونقدم للموضوع بعرض سريع لمسؤولية الطبيب في الأمم السابقة.

ومن خلالها نفهم بصورة أفضل مسؤولية الطبيب في الفقه الإسلامي.

مسؤولية الطبيب عند الأمم السابقة:

المسؤولية الطبية معروفة منذ القدم عند الأمم السابقة عن الإسلام فقد عرف المصريون القدماء المسؤولية الطبية وسجلوا شروط ممارسة المهنة في كتبهم فكان على الطبيب أن يمارس مهنة الطب حسب أصولها المتعارف عليها أما إذا خالفها فكان جزاؤه الإعدام.

وأما الآشوريون فقد كانوا أقل شدة من غيرهم حيث كان على الطبيب إذا أخطأ أو لم يستطيع علاج مريض أن يطلب العفو من الآلهة على ذلك، بينما كان البابليون أكثر قسوة منهم على الأطباء كما هو واضح في بعض بنود قانون حمورابي الذي نص على إلزام الطبيب بدفع تعويض للمريض أو تقطع يده إذا قام بإجراء عملية جراحية على عين المريض وتعطلت عن الإبصار. وعند الإغريق كان الطبيب يسأل جنائياً في أحوال الوفاة التي ترجع إلى خطأ الطبيب. وجاء في القانون الروماني (إذا كان الموت لا يصح أن ينسب إلى الطبيب فإنه يجب أن يعاقب على الأخطاء التي يرتكبها نتيجة جهله، وإن من يغشون أولئك الذين يكونون معرضين للخطر لا يصح أن يخلوا من المسؤولية بحجة ضعف المعارف البشرية).

وأما في أوروبا في العصور المظلمة فقد جاء في القانون الكنسي عند القوط الشرقيين والقوط الغربيين أنهم يعدون الأتعاب التي تعطى للطبيب مقابل الشفاء، فإن لم يشف المريض حكموا بأن العقد غير قابل للتنفيذ ولا يسأل الطبيب عن وفاة المريض إذا لم يثبت حصول أخطاء.

وفي عهد الصليبيين كانت المحاكم في بيت المقدس في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ترى الطبيب مسؤولاً عن جميع أخطائه، فإذا تعلق الأمر بجرح بسيط أو سوء عناية لم يترتب عليه الموت قطعت يد الطبيب، ولا تدفع

له أتباعه، أما إذا مات المريض قتل الطبيب شتقاً⁽¹⁾.

فالمسؤولية قديمة قدم التاريخ ولكنها قاسية على الأطباء، وهي قسوة مبالغ فيها، وهذه القسوة دعت الأطباء في كثير من الأحيان إلى الإحجام عن مزاوله مهنة الطب أو يشترطون شروطاً ترفع المسؤولية عنهم. وهناك شواهد تاريخية على ذلك.

مسؤولية الطبيب في الإسلام:

عرفت الشريعة الإسلامية المسؤولية الطبية، ولها فيها من القواعد الدقيقة ما يجعل تنظيمها في جوهره أقرب ما يكون إلى أحدث ما وصلت إليه أرقى التشريعات المدنية في العصر الحديث.

ومن هذه القواعد الفقهية «أن كل من يزاول عملاً أو علماً لا يعرفه يكون مسؤولاً عن الضرر الذي يصيب الغير نتيجة هذه المزاولة» وهذه القاعدة مأخوذة من حديث «من تطب ولا يعلم منه طب فهو ضامن»⁽²⁾، أي من زاول مهنة الطب ولم يكن بالطب معروفاً فأصاب نفسه بما دونها فهو ضامن.

وهنا يثار سؤال مهم: هل مهنة الطب حق للطبيب أم واجب؟ وللإجابة على هذا السؤال لا بد من بذل جهد في تحديد الفرق بين الحق والواجب إذ ربما من خلال هذا التحليل نسهم في رفع لبس أو إزالة غموض حول طبيعة التزام الطبيب ومسؤوليته عن ذلك.

الحق والواجب والفرق بينهما:

الأصل أن صاحب الحق له أن يستعمل حقه وأن لا يستعمله، فإذا استعمله فلا حرج عليه ما لم يكن متعسفاً في استعمال حقه، وإن تركه فلا إثم عليه.

(1) محمود الحاج قاسم محمد: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ص 341 الطبعة الأولى 1987 م الدار السعودية للنشر والتوزيع.

(2) أخرجه أبو داود في سننه ح 2 ص 501 وفي رواية أخرى (أي طبيب تطب على قوم لا يعرف له تطيب قبل ذلك فأعتت فهو ضامن). وأعتت بمعنى قطع العروق وشق الجسم.

فالحق إذاً: هو ما يجوز فعله ولا يعاقب على تركه.

ويقابل الحق الواجب يقال: وجب بمعنى لزم، وهو كل ما يعاقب على تركه. ويختلف الحق عن الواجب في طبيعته، فإذا كان الحق يجوز فعله فالواجب يلزم ويتحتم فعله، وإذا كان صاحب الحق لا يأثم بتركه ولا يعاقب فإن المكلف بالواجب أيّاً كان يأثم على الترك ويعاقب بالعقوبة المقررة لترك الواجب.

وإن كان الحق والواجب يختلفان في طبيعتهما فإنهما يتفقان من الناحية الجنائية في أن الفعل الذي وقع فعله أداء لواجب أو استعمالاً لحق هو فعل مباح تتنفي فيه المساءلة.

والفعل الواحد قد يُعدُّ حقاً لشخص بعينه وواجباً على شخص آخر فالتأديب مثلاً حق للوالد على ولده وواجب للمدرس على تلميذه.

والفرقة بين الحق والواجب لها أهمية من وجهين:

الوجه الأول متفق عليه بين الفقهاء، وهو أن الحق لا يمكن العقاب على تركه، وإن الواجب يمكن عقاب تاركه.

الوجه الثاني مختلف عليه بين الفقهاء وهو أن الحق يتقيد بشرط السلامة وأن الواجب لا يتقيد بشرط السلامة.

مثل ذلك: إن من باشر حقاً مسؤول دائماً عن سلامة المحل الذي باشر عليه الحق، لأنه مخير بين أن يأتي الفعل أو يتركه، أما من وجب عليه القيام بهذا الفعل فلا يسأل عن سلامة محل الواجب لأنه ملزم بتأدية الواجب وليس له أن يتخلى عنه وهذا هو رأي الأحناف والشافعية.

أما مالك وأحمد فعندهما أن الحق كالواجب غير مقيد بشرط السلامة لأن استعمال الحق في حدوده المقررة عمل مباح، ولا مسؤولية على العمل المباح، والسؤال الآن: كيف يمكن معرفة ما إذا كان الطبيب الممارس لمهنة الطب إنما يمارس في حق له أم يؤدي في واجب عليه؟ ويشكل آخر هل يتحتم القيام بالفعل أو لا؟ وهل يعاقب على تركه أو يأثم أو لا؟.

فإذا كان يتحتم عليه إثبات الفعل فهو واجب، وكذلك إذا كان يأثم بتركه أو يعاقب على تركه.

أما إذا كان له أن يأتي الفعل وله أن يتركه دون أن يأثم أو يعاقب فالفعل حق بالنسبة له وليس واجباً.

وإذا أردنا الدقة في تحليل طبيعة الحق نجد أنه سلطة ذات حدود معينة، تمنح لصاحب الحق على المحل - فحق التأديب يعطي المؤدب سلطة على محل التأديب وهو الابن.

وكذلك الواجب نجده يعطي للمكلف به السلطة نفسها على محل الواجب، ويجعل مباشرة الواجب حقاً له على المحل. فواجب التأديب يعطي للمكلف بالواجب سلطة صاحب الحق نفسها على الابن. فالمكلف هو في الواقع صاحب حق على محل الواجب، ولكن ليس له أن يترك استعمال حقه، وهذا هو الفرق الوحيد بين صاحب الحق والمكلف بالواجب⁽³⁾، وواجب الطبيب كواجب التأديب يعطي للطبيب الحق على المريض في علاجه ولكن لا يجوز له أن يترك استعمال حقه بالتخلي عن علاج المريض.

ومما لا شك فيه أن القوانين الوضعية تتفق مع الشريعة الإسلامية في عَدها الطبيب عملاً مباحاً، وتختلف معها في مسألة الحق والواجب وهذا هو لب المشكل وجوهره.

فالقوانين الوضعية ترى مهنة الطب حقاً للطبيب بينما ترى الشريعة الإسلامية مهنة الطب أمراً واجباً.

ولا شك في أن نظرية الشريعة الإسلامية أفضل، لأنها تلزم الطبيب أن يضع مواهبه وخبراته في خدمة أفراد المجتمع، كما أنها أكثر انسجاماً وتطابقاً مع حياتنا الاجتماعية القائمة على التعاون والتكافل وتسخير كل الطاقات والإمكانات لخدمة المجتمع.

(3) عبد القادر عودة: التشريع الجنائي الإسلامي - ج 1 ص 471/472.

أسباب رفع المسؤولية عن الطبيب في الفقه الإسلامي:

تنتفي مسؤولية الطبيب للأسباب الآتية:

أولاً: إضفاء صفة الوجوب على عمل الطبيب:

أ - الضرورة الاجتماعية إذ الحاجة ماسة إلى عمل الطبيب، وهذا يقتضي أن دراسة العلوم الطبية فرض من فروض الكفاية، وأنه واجب محتم على كل شخص لا يسقط عنه إلا إذا قام به غيره.

وقد عُدَّ علم الطب فرضاً لحاجة الناس إلى التطبيب، ولأنه ضرورة اجتماعية وإذا كان الغرض من تعلم الطب هو التطبيب وكان تعلم الطب واجباً فيترتب على هذا أن يكون التطبيب واجباً على الطبيب لا مفر له من أدائه على أن التطبيب يُعَدُّ واجباً كفاثياً كلما وجد أكثر من طبيب يمكن أن يقوم بهذا العمل.

ويكون فرض عين غير قابل للسقوط في الأماكن التي ليس فيها طبيب فهو إذا يقوم بعمله إنما يقوم بواجب ملقى عليه.

والنتيجة البديهية لجعل التطبيب واجباً ألا يكون الطبيب مسؤولاً عما يؤدي إليه عمله بسبب قيامه بواجب التطبيب لأن القاعدة: أن الواجب لا يتقيد بشرط السلامة⁽⁴⁾.

ولما كانت طريقة أداء هذا الواجب متروكة لاختيار الطبيب واجتهاده على المستوى النظري والتطبيقي من الناحية العلمية، فقد دعا ذلك إلى البحث فيما إذا كان يسأل جنائياً عن نتائج عمله، إذ أدى عمله إلى نتائج ضارة بالمريض لكونه أنه حين يؤدي واجب التطبيب أشبه بصاحب الحق منه بمؤدي الواجب، لما له من حرية كاملة في اختيار هذا العمل، واختيار الطريقة التي يرى فيها صلاحها للمريض.

وقد أجمع الفقهاء على عدم مسؤولية الطبيب إذا أدى عمله إلى نتائج ضارة بالمريض ولكنهم اختلفوا في تعليل رفع المسؤولية.

(4) عبد القادر عودة: التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي ج 1 ص 520، الطبعة الثالثة 1963 م.

فأبو حنيفة يرى أن المسؤولية ترتفع لسببين:

أ - الضرورة الاجتماعية إذ الحاجة ماسة إلى عمل الطبيب، وهذا يقتضي تشجيعه وإباحة العمل له، ورفع المسؤولية عنه، حتى لا يحمله الخوف من المسؤولية المدنية والجنائية على عدم مباشرة المهنة التي تخصص فيها، وفي هذا ضرر عظيم على الناس.

ب - إذن المريض أو وليه فاجتماع الإذن مع الضرورة الاجتماعية يؤدي إلى رفع المسؤولية⁽⁵⁾.

ويرى الشافعي وأحمد أن علة رفع المسؤولية عن الطبيب أن يأتي فعله بإذن المريض، وأن يقصد إصلاح حاله ولا يقصد الإضرار به. إذا اجتمع هذان الشرطان كان العمل مباحاً للطبيب وانتفت مسؤوليته إذا كان ما فعله موافقاً لما يقول به أهل العلم بصناعة الطب⁽⁶⁾.

ويرى مالك أن سبب رفع المسؤولية هو إذن الدولة أولاً، وإذن المريض ثانياً فإذا الدولة تبيح للطبيب مزاوله مهنة الطب، وإذن المريض يبيح للطبيب أن يفعل بالمريض ما يرى فيه صلاحه فإذا اجتمع هذان الإذنان فلا مسؤولية على الطبيب ما لم يخالف أصول المهنة أو يخطئ في عمله⁽⁷⁾.

ونجد في نصوص الطب النبوية شيئاً مما يتعلق بممارسة المهن الطبية لأن تنظيم الممارسة من مهام الدولة.

وبه الرسول في التداوي إلى الرجوع إلى أهل الخبرة، وحذر المدعين بأنهم ضامنون لما ينتج عن أضرار نتيجة جهلهم⁽⁸⁾.

فالشخص المتعدي المتطفل على المهنة لا يشترط لمسؤوليته أن يكون متعمداً أي قاصداً الإضرار، بل يستوي عند حدود التعدي الخطأ والعمد.

(5) الكاساني: بدائع الصنائع ج 7 ص 305.

(6) الرمي: نهاية المحتاج ج 8 ص 2.

ابن قدامة: المغني ج 10 ص 349، 350.

(7) الخطيب: مواهب الجليل ج 6 ص 321.

(8) محمد الحاج قاسم - الطب عند العرب والمسلمين ص 56.

قال مالك في الموطأ (وأن ما أخطأ به الطبيب أو تعدى إذا لم يعتمد ففیه العقل)⁽⁹⁾ أي عليه الضمان.

وعلى هذا فقد فرق علماء الشريعة من ناحية المسؤولية المدنية بين الطبيب الجاهل والطبيب الحاذق، فهم ينفون المسؤولية عن الطبيب الجاهل إذا كان المريض يعلم أنه جاهل لا علم له بأصول المهنة وأذن له المريض مع ذلك بعلاجه.

أما الطبيب الحاذق فلا يسأل عن الضرر الذي يصيب المريض، ولو مات المريض من جراء العلاج، ما دام المريض قد أذن له بعلاجه ولم يقع من الطبيب خطأ في هذا العلاج، بل كان الضرر أو الموت نتيجة أمر لا يمكن توقعه أو تفاديه.

وعلى هذا اتفق الفقهاء على أن الموت إذا جاء نتيجة لفعل واجب مع الاحتياط وعدم التقصير لا ضمان فيه.

ثانياً: حُسْنُ النية:

يفترض في الطبيب توافر حسن النية وهو يؤدي عمله، فهو بقيامه بهذا العمل إنما يقصد نفع المريض لا ضرره. أما إذا كان سيء النية بأن قصد قتل المريض فإنه يُعَدُّ مسؤولاً عن عمله جنائياً ومدنياً حتى إن لم يؤدِّ فعله إلى وفاة أو إلى حدوث أضرار مائة⁽¹⁰⁾.

ثالثاً: إذن المريض:

يشترط لرفع المسؤولية عن الطبيب موافقة المريض على إجراء العملية الجراحية. ومع ذلك فإن هذا الشرط وحده لا يكفي لجعل رضا المريض الأساس الوحيد لعدم مسؤولية الطبيب، لأن رضا المريض يقتصر أثره على الجانب الفردي للحق، ولا يبرر المسامح بجانيه الاجتماعي الذي يتجسد فيه حق الله.

(9) موطأ مالك ص 614 رقم الحديث 1551.

(10) عبد القادر عودة: التشريع الجنائي الإسلامي - 1، ص 522.

ويذهب الرأي الراجح في الفقه الإسلامي إلى أن أساس عدم مسؤولية الطبيب هو إذن الشرع وإذن المريض. تطبيقاً للقاعدة الفقهية التي تقول (بأن الجواز الشرعي ينافي الضمان)⁽¹¹⁾. ولكن يشترط أن لا يكون ذلك الأمر الجائز مقيداً بشرط السلامة⁽¹²⁾، فإذا فعل الطبيب ما يجوز له فعله شرعاً فلا يسأل عن الضرر الحادث وإن كان سبباً له. لأن عدم مسؤولية الطبيب يرجع إلى انتفاء الخطأ، لأن القيام بمهنة التطبيب شيء واجب ولا مسؤولية على من أدى قيامه بواجبه إلى نتائج ضارة⁽¹³⁾.

إذن يلزم لرفع المسؤولية إذن الشارع إضافة إلى إذن المريض، وهذا الإذن مقيد بشروط بعضها يرجع إلى إذن الشارع وبعضها الآخر يتعلق بإذن المريض.

شروط إذن الشارع:

أ - أن يكون التدخل الطبي صادراً عن ذي صفة بحيث يشترط فيمن يشخص المرض ويصف له الدواء، أو يقوم بعملية جراحية أن يكون من أهل الاختصاص في صناعة الطب.

ب - أن يكون عالماً بأصول المهنة. فإن كان متعاطياً للطب ولم يتعلمه فهو ضامن. لذلك يجب منع الطبيب الجاهل من مزاوله المهنة، عملاً بالقاعدة الفقهية التي تقول (تحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام).

ومن أجل حماية مهنة الطب من الدخلاء يجب صدور الترخيص بممارسة العمل الطبي أو الجراحي من قبل الدولة، لتحمل مسؤوليتها إذا كان التشخيص غير صائب أو اختيار الدواء غير ملائم، لأن تنظيم الممارسة من مهام الدولة.

(11) أحمد الزرقاء: شرح القواعد الفقهية ص 381 دار الغرب الإسلامي 1984 م.

(12) مجلة الأحكام العدلية للمادة 91.

(13) د. عبد السلام الترنجي: الخطأ الطبي تقرير مقدم إلى المؤتمر الدولي عن المسؤولية الطبية جامعة طرابلس 23/28 أكتوبر 1978 م.

وقد اتفق الفقهاء على التحجير على الطبيب الجاهل ومنعه من مزاولته عمله لأنه يفسد أبدان الناس، وإذا قام بالعمل الطبي أو الجراحي فهو متعد لأنه غير مأذون من جهة الشرع⁽¹⁴⁾.

وقد نبه الرسول ﷺ إلى التشخيص الصائب واختيار الدواء الملائم، فإذا لم يستطع الطبيب تحديد ماهية الدواء المناسب في أثناء الكشف عن المريض فلا يجوز له أن يجري الدواء بما تخاف عاقبته، ولا بأس بتجربته بما لا يضر أثره.

جـ - أن يكون العمل الطبي تستدعيه حالة المريض، وأن يتم بقصد العلاج. فالهدف العلاجي هو السبب الذي من أجله رخص للطبيب بممارسة عمله، ويسأل الطبيب إذا استهدف بعمله غرضاً آخر غير علاج المريض، فلو طلب إليه شخص أن يقطع شيئاً سليماً من جسده حتى يعفى من الخدمة الوطنية ففعل حقت عليه المساءلة⁽¹⁵⁾.

أما إذا كان القطع تستدعيه ضرورة إنقاذ حياة المريض أو صحته فلا يسأل الطبيب جنائياً أو مدنياً على فعله.

د - اتباع أصول المهنة: يجب أن تكون أعمال الطبيب موافقة للقواعد التي يتبعها أهل الصنعة في مهنة الطب، ولكن يجوز عند بعض الفقهاء للطبيب أن يجتهد في علاج المريض، وتنفي عنه المسؤولية في حالة مخالفته لآراء بعض زملائه متى كان رأيه يقوم على أساس علمي سليم.

2 - شروط إذن المريض :

لا شك في أن إذن المريض يُعدّ موافقةً للطبيب بأن يأتي الفعل، ويجب أن يصدر هذا الإذن ممن هو أهل له بأن يكون بالغاً عاقلاً، وأن يعطي الإذن وهو على بينة من أمره. فإذا تدخل الطبيب بدون إذن المريض حقت عليه المسؤولية، لخروج عمله من دائرة الإباحة إلى دائرة التعدي، ويستثنى من

(14) ابن عابدين - ج 3 ص 183.

(15) ابن إدريس البهوتي: كشف القناع - ج 3 ص 473.

ذلك إذا اقتضت المصلحة العامة تدخل الطبيب، كما هو الحال في الأمراض المعدية، وكذلك في الحالات العاجلة تطبيقاً لقاعدة (الضرورات تبيح المحظورات) أو لأن هذا الاستثناء يقتضيه العرف أو المصلحة.

نخلص من ذلك إلى أنَّ الطبيب يضمن الضرر المترتب على فعله إذا كان جاهلاً أو كان فعله غير مأذون فيه أو أخطأ فيه.

وعلى وجه العموم يضمن الطبيب إذا تجاوز حدود حقه.

وإنني أجد من الفائدة أن أذكر مظاهر رعاية الفقه الإسلامي للطبيب، باستعراض القيود التي أوردتها الفقهاء على المسؤولية في النقاط التالية:

1 - طبيعة التزام الطبيب:

نص الفقهاء على عدم تقييد الطبيب بشرط السلامة، وهو ما يعبر عنه في الفقه الوضعي بأن التزام الطبيب إنما هو التزام ببذل عناية وليس بتحقيق نتيجة.

وهذا راجع إلى أن العمل الطبي من الأعمال المظنونة، بمعنى أنها معرضة للنجاح والإخفاق. ونظراً لهذه الطبيعة الاجتماعية للعمل الطبي، فإن الطبيب لا يلتزم بشفاء المريض أو بضمان السلامة من مخاطره، لأن ذلك ليس بوسعه، فكل ما يمكن طلبه من الطبيب هو بذل العناية المطلوبة من مثله في ممارسته للعمل. وبهذا أخذ القانون رقم 17 لسنة 86م بشأن المسؤولية الطبية في (م 9) ونصها (يكون التزام الطبيب في أداء عمله التزاماً ببذل عناية إلا إذا نص القانون على خلاف ذلك).

فإذا استعمل الطبيب حقه في حدوده الشرعية، ونتج عن ذلك ضرر لحق بالمريض لا يمكن الاحتراز منه فلا ضمان عليه.

وإذا كان الطبيب يستعمل حقه في هذه الحالة فهو يقوم بواجبه في الوقت نفسه. والأصل أن الواجب لا يتقيد بشرط السلامة، وقد اختلف الفقهاء في مدى جواز المشاركة على الشفاء حين يشترط المريض في التعاقد مع الطبيب على الشفاء من المرض، فبعضهم رأى عدم جواز ذلك، لما فيه من الجهالة، في حين ذهب البعض الآخر إلى جوازها على أساس أنها من قبيل

الجعالة التي تجوز على عمل مجهول⁽¹⁶⁾.

وطبقاً للرأي الأخير يجوز في التعاقد بين الطبيب والمريض أن يشترط الثاني حصول الشفاء بعد العلاج، فإذا قبل الطبيب هذا الشرط ولم يتحقق الشفاء كان عليه أن يرد ما تقاضاه من أجر⁽¹⁷⁾. ولسنا ندري ما يكون موقف الأطباء اليوم لو طبق هذا المبدأ.

2 - خطأ الطبيب:

الطبيب بوجه عام لا يسأل إلا عن الخطأ الفاحش، والخطأ الفاحش: هو ما لا تقره أصول مهنة الطب، ولا يقره أهل العلم بمهنة الطب.

والخطأ الفاحش هو الذي لا يمكن أن يقع فيه طبيب آخر، فإذا فعل الطبيب ما لا يفعله مثله ممن أراد الصلاح، وكان عالماً بهذا فهو ضامن لتجاوزه في عمله الحدود المتعارف عليها عند أهل المهنة⁽¹⁸⁾.

ونضرب مثلاً عن الخطأ غير الفاحش: فتاة سقطت من شاهق فانفتح رأسها فقال كثير من الجراحين، إن شققم رأسها تموت، وقال واحد منهم إن لم تشقه اليوم تموت وأنا أشقه وأشفئها فشقه فماتت بعد يوم أو يومين.

ولما سئل أحد الفقهاء المشهورين أفتى بأنه: ما دام الشق بإذن، وما دام الشق علاجاً، ولم يكن هناك خروج فاحش عن القواعد الفنية المتعارفة عليها، فإن الطبيب حتى وإن قال إن ماتت فأنا ضامن لا ضمان عليه، لأن ضمان الطبيب يترتب على الخطأ الفاحش لا على تعهده بنجاح العملية⁽¹⁹⁾.

(16) عبد الستار أبو غدة: فقه الطبيب وأدبه.

أعمال المؤتمر العالمي للطب الإسلامي ص 444 طبعت بمعرفة وزارة الصحة بالكويت.

(17) محمد عبد الوهاب خلافي: وثائق في الطب الإسلامي ووظيفته في معاونة القضاء في الأندلس ص 29 الطبعة الأولى سنة 1982 م هذه الوثائق مستخرجة عن مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبح عيسى بن سهل الأندلسي.

(18) أحمد شرف الدين: الأحكام الشرعية للأعمال الطبية ص 54. الطبعة الثانية 1987 م.

(19) عبد القادر عودة: التشريع الجنائي الإسلامي - 1 ص 522.

3 - العلاقة السببية بين خطأ الطبيب وبين الضرر:

الطبيب الحاذق والمأذون له لا يضمن الضرر إذا اقتصر دوره على التسبب فيه دون أن يباشره، كأن يصف الدواء خطأ للمريض، وإذا ارتفع تدخله إلى درجة مباشرة الضرر بأن أجرى للمريض عملية جراحية فأخطأ فإنه لا يضمن الضرر إلا إذا تعمد.

والمثال على ذلك إذا قطع الطبيب الماهر في صناعة الطب في الموضوع المعتاد فمات المريض لم يكن عليه شيء⁽²⁰⁾.

هذا الحكم في حالتي التسبب والمباشرة مخالف للقاعدة الكلية التي تقضي بأن المباشر ضامن وإن لم يتعمد من ناحية، وبأن المتسبب يضمن إذا تعمد من ناحية أخرى⁽²¹⁾.

وطبقاً لهذا التفسير لا يسأل الطبيب أو الجراح عن سرية فعله في حالة المباشرة إلا إذا تعمدوا.

فالخطأ غير العمد لا يسأل عنه الطبيب وهذا بلا شك تخفيف كبير من المسؤولية عن نتائج العلم الطبي في حق الطبيب الحاذق.

وهذا يؤكد حرص الإسلام على عدم عرقلة أعمال التشخيص والعلاج والجراحة، على العكس تماماً من الإجراءات التعسفية المفروضة على الأطباء من قبل الكنيسة في العصور الوسطى وقبل الإسلام.

4 - المسؤول عن ضمان الضرر الناتج عن فعل الطبيب:

يرى الفقهاء أن ضمان الضرر المترتب على العمل الطبي يدخل في نظام العاقلة وما تحمله ضمن مبدأ التضامن في حمل الآثار الناتجة عن فعل الخطأ⁽²²⁾.

(20) الخرشها علي خليل: ج 8 ص 115.

(21) القاعدة 91 - 92 - لمادة 92 مجلة الأحكام العدلية راجع شرح القواعد الفقهية - أحمد الزرقاء ص 385 وما بعدها دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 1983 م.

(22) عبد السلام محمد الشريف: راجع الفصل للمعلق بمبدأ التضامن في حمل الآثار عن كتابنا المبادئ الشرعية في أحكام المقويات في الفقه الإسلامي ص 457 وما بعدها الطبعة 1986 م - دار الغرب الإسلامي - بيروت.

ولكن هل تسأل الدولة عن خطأ الطبيب . بما أن الطبيب معين من قبل الدولة فهو تابع لها لأنها هي التي سمحت له بمزاولة المهنة .

ونجد في نصوص الطب النبوي شيئاً مما يتعلق بممارسة المهن الطبية لأن تنظيم الممارسة من مهام الدولة . فقد نبه الرسول ﷺ في التداوي بالرجوع إلى أهل الخبرة، وحذر المدعين بأنهم ضامنون لما ينجم عن أضرار نتيجة جهلهم .

ونبه الرسول ﷺ إلى التشخيص الصائب واختيار الدواء الملائم، وشجع على البحث العلمي واكتشاف الأدوية .

ونظام الحسبة يُعدُّ من أرقى النظم في تأصيل أصول المهنة ووضع الضوابط العلمية لمزاومتها .

لذلك يجب أن تتحمل الدولة العبء النهائي للدية إذا كان فعل الطبيب من قبل التسبب، وتتحمل ما يزيد عن الثلث إذا كان فعله من قبيل المباشرة .

والأخذ بهذا الرأي فيه تخفيف عن الطبيب روعي فيه طبيعة العمل الطبي وحاجة الناس إليه .

ونظراً لصعوبة تحديد الدور السببي من جهة الدولة سلك القانون مسلكاً وسطاً، حيث نص في (م 31) على إنشاء هيئة التأمين الطبي، بحيث يلتزم القائمون بالمهن الطبية والمهن المرتبطة بها بالتأمين لديها عن مخاطر ممارستهم لتلك المهن .

وهيئة التأمين الطبي فكرة تعاونية تقوم مقام العاقلة، يلتزم من خلالها أفراد المهن الواحدة بدفع اشتراكات شهرية تدفع للمتضرر ولا ترهق الطبيب، وهذا تدبير حكيم مقام لمصلحة الفريقين⁽²³⁾ .

(23) مصطفى أحمد الزرقاء : نظام التأمين حقيقته والرأي الشرعي فيه ص 114 مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى سنة 1984 م .

ملاحظات ختامية

يتابع القرآن المسؤولية بشكل عام في أكثر من موضع، ويتناولها في مظانها تنوياً بأثرها في تقييم المجتمع.

والمسؤولية الطبية في نظر الإسلام ليست إلا طريقاً من طرق الإصلاح العام وسبيلاً من سبل تحسين مستوى الخدمات الطبية.

وقد عبرت الشريعة الإسلامية عن المسؤولية تعبيراً لا تسلط فيه ولا جبروت، فجاء تعبيرها عن المسؤولية مرغياً فيها لا منفراً منها، وداعياً إليها في إطار التناصح والتعاون على البر والتقوى، لتستقيم لنا الأمور وتتقدم بنا الحياة لما فيه صالح الإنسان، وأساس عدم مسؤولية الطبيب في الشريعة الإسلامية هو إذن الشرع وإذن المريض بشروطهما، ويستثنى من ذلك إذا اقتضت المصلحة العامة والعرف تدخل الطبيب في الحالات العاجلة.

وإذا استعمل الطبيب حقه في حدوده الشرعية، ونتج عن ذلك ضرر لحق بالمريض لا يمكن الاحتراز منه فلا ضمان عليه؛ لأنه في النهاية يقوم بواجب ولا يتقيد الواجب بشرط السلامة.

ويسأل الطبيب عن الخطأ الفاحش الذي لا تقره أصول المهنة ولا يقره أهل الاختصاص بمهنة الطب.

وتسأل الدولة عن خطأ الطبيب، لأنه تابع لها، فهي التي سمحت له بمزاولة المهنة. وقد نص القانون على إنشاء هيئة التأمين الطبي يلتزم من خلالها أفراد المهنة الواحدة بالتضامن في حمل الآثار الناتجة عن الأخطاء الفاحشة، وهو تدبير حكيم لمصلحة الدولة والطبيب والمريض.

الغرب والإسلام

الكتوة سائلة عبدالمبار
جامعة الفاخ

إنه من واجبتنا نحن الغرب بينما نسير نحو عصر العالم الواحد أن
نصح تصوراتنا الخاطئة وأن نعترف كلياً بديننا للعرب والإسلام.

مونتغمري واط في كتابه
«تأثير الإسلام على أوروبا»

ما دام الغرب يتصرف بصورة غير ديمقراطية في سياسته الخارجية
تجاه الإسلام، وما دام الإسلام يشهد ذلك التحيز المفضوح ضده الشبيه
بالعنصرية من جانب الغرب، فإن فرص قيام حوار مفتوح بين الطرفين
هي فرص مظلمة حقاً.

ارسكين تشيلدرز في كتابه
«الغرب والإسلام هتك الذاكرة والخصام»

1989

ما طبيعة العلاقة بين الغرب والإسلام عبر التاريخ؟

لقد انتشرت في الأوساط الفكرية، وفي مراكز البحث العلمي في الغرب والشرق على السواء، تساؤلات عديدة حول مسألة هي غاية في الأهمية والوضوح، وهي حقيقة العلاقة بين الغرب والإسلام؟ ما مدى تأثير الإسلام في الحياة الأوروبية الغربية؟ وما حدود إسهام الإسلام في نشأة العلوم والمعارف في أوروبا؟ وكيف أفادت أوروبا من مجاورة المسلمين في مناطق عديدة أهمها الأندلس وصقلية على وجه التحديد.

وتلك أسئلة جد هامة، سوف نتناول الإجابة الموضوعية عنها من خلال التركيز على دور الإسلام، عموماً في رفع عربة النهوض الأوروبي في أواخر القرون الوسطى، كما جاء في العديد من الدراسات الهامة لبعض المؤلفين الغربيين أمثال «مونتغمري واط»⁽¹⁾ مما يسهل لنا معرفة طبيعة العلاقة بين الإسلام والغرب عبر التاريخ، ويضيف إضاءة قوية لقنوات التواصل الثقافي الإسلامي الأوروبي، ويساهم في تفنيد مزاعم الاستعلاء الثقافي التي تبرز لدى العديد من المؤرخين الأوروبيين، من خلال إغفالهم للأثر العربي الإسلامي العميق في حفز النهوض الأوروبي.

وعلى الرغم من وضوح الجانب الموضوعي في الدراسة التي قدمها واط «تأثير الإسلام على أوروبا» إلا أنه من الواجب هنا الإشارة إلى القصور الذي شاب تصور معظم المؤرخين الأوروبيين لماهية العلاقة بين الإسلام والغرب في القرون الوسطى، هذه العلاقة نشأت بفعل اقتراب الغرب من أوروبا من حملات الدعوة والفتح، ثم دخولهم الأراضي الأوروبية من جهتي الغرب والجنوب. بدأ الوجود العربي الإسلامي في إسبانيا بحملات عسكرية متلاحقة بدءاً من عام 711 م أمكن لها في حدود سنة 715 م أن تسيطر على جميع المدن الإسبانية الهامة، وعلى شمال شبه الجزيرة الإيبيرية وصولاً إلى «نوربون» جنوب فرنسا، وبطاقة بشرية كانت محدودة إذا قيس بالقوى التي واجهتها؛

W. Montgomery Watt; The Influence OF Islam On Medieval Europe, Edinburgh, (1) 1972, p.4

إن الحدث الأهم الذي يجب التوقف عنده هو انفصال إسبانيا العربية المسلمة «الأندلس» عن جسم الدولة الإسلامية بعد تحول الخلافة من الأمويين إلى العباسيين، وانتقال عاصمة الدولة شرقاً إلى بغداد عام 750 م. وعلى الرغم من أن شكلاً من العلاقة المعقدة ظل قائماً بين الأندلس والدولة الإسلامية، إلا أن النتيجة الأهم التي ترتبت على هذا الانفصال، هي توقف المد البشري القادم من الشرق ومن شمال أفريقيا، مما اضطر السلطة العربية الصاعدة في إسبانيا أن تجهض طموحاتها في دخول عمق الأراضي الأوروبية انطلاقاً من قاعدتها الجديدة، وهو أمر لم يكن مستحيلاً، وأجبرت بالتالي على أن تنكفئ إلى حدود الأندلس فتتخلى عن نوربون الفرنسية عام 756 م وبرشلونة عام 801 م وتتحصن في ما بقي لها متخلفة نهائياً عن مشروعها الاستراتيجي الأول.

وكما في إسبانيا كذلك في جنوب أوروبا، تمكن العرب القادمون من تونس تحت حكم الأغالية، من احتلال صقلية عام 827 م. ثم باليرمو 831 م وميسينا 843 م وفي عام 837 م كان العرب في نابولي وفي 847 م كانوا في باري، وتمكنوا بين عامي 846 . 849 من تهديد روما نفسها مرتين، دون أن تقع بين أيديهم. ودفع البابا حثا الثامن 872 . 882 م الجزية للمسلمين لمدة سنتين كما يبدو⁽²⁾.

هذه الحثيات التاريخية تبدو هامة لأنها تتيح معرفة الاحتكاك الإسلامي الأوروبي وجملة العوامل الإيجابية الغنية التي وفدت إلى أوروبا عبر بوابتي الأندلس وصقلية، والتي أسهمت بقوة - كما يرى مونتغمري واط - في النهوض الأوروبي⁽³⁾.

ويحدد هذا الباحث الغربي أنه إذا كان الفتح العربي لإسبانيا حدثاً مفاجئاً هابطاً من السماء بالنسبة للإسبان فإنه للمسلمين إنما كان استمراراً طبيعياً لعملية بدأت في حياة محمد. إن أهم عنصرين اشتركا في إعطاء زخم كبير لعمليات الفتح الإسلامية إنما هما: تحويل الزخم القبلي من الصراع الداخلي إلى

Ibid, p.4 - 5.

(2)

Ibid, p.7 - 10.

(3)

أهداف خارجية جديدة، ودعوة الجهاد أو القتال في سبيل الله. ويمثل الأمر الأول نجاحاً عملياً للرسول، الذي استطاع قبيل موته عام 632 م أن يبنّي دولة واسعة من القبائل، وأجزاء القبائل تمثل معظم أنحاء الجزيرة العربية، كذلك يمثل الأمر الثاني عنصراً حيوياً في المسيرة الإسلامية، فممارسة الجهاد بمقدار ما قدم من انتصارات، عزز من متانة الوحدة الإسلامية، وقاد إلى توسع مطرد على الأرض، لكن هذا لا يعني أن الإسلام دين قد فرض بالقوة، حيث يوضح مونتغمري واط في كتابه المشهور التأكيد على أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف، إذ خبرت القبائل التي تعبد الأصنام بين الإسلام والسيف، كما كانت هناك معاملة مختلفة لليهود والمسيحيين والزرادشتيين والطوائف الموحدة الصغيرة الأخرى، حيث عُدّت أديانهم أدياناً مساوية للإسلام على الرغم من القول أن شكلها آنذاك قد ذهب بنقائها. ومع ذلك فهم موحدون وبذلك عُدّوا حلفاء⁽⁴⁾.

لقد كان وصول الهدى العربي إلى أطراف أوروبا ذروة التوسع الإسلامي وعلى الرغم من أنه ظل ضمن حدود لم يستطع تجاوزها، إلا أنه دخل بدءاً من القرن التاسع في سياق السياسة الأوروبية، وبالتالي بات أحد عناصرها مع تأثير متفاوت بالطبع بين فترة وأخرى وبين دولة وأخرى ولم ينقطع الضغط الإسلامي عن الأباطورية البيزنطية أبداً وعلى الرغم من أنه لم يؤثر مباشرة في العالم المسيحي اللاتيني إلا أن الباباوات والقادة الغربيين الآخرين كانوا على بينة منه، وكان له أثره في سياساتهم في أكثر من ميدان وكان وقع العالم الإسلامي محسوساً في أوروبا من خلال إسبانيا أساماً وصقلية بنسبة أقل.

إلا أن العرب لم يحملوا إلى أوروبا جيوشاً فقط ولا حتى العامل الديني وحسب وإنما حملوا إلى ذلك مظاهر تحضر وتمدن، ومقدمات أمكن لها أن تسهم مباشرة في النهوض الأوروبي، لذلك يأخذ الباحث الغربي مونتغمري واط على بعض المؤرخين الأوروبيين، الذين لم يروا في الفتح الإسلامي إلا

Tbid, p.10 - 11.

(4)

«غزوة بربرية» أخرى، تضاف إلى الغزوات التي اعتادها الأوروبيون، يقول في ذلك: «هناك ميل لدى المؤرخ الأوروبي لاعتبار الانتصار العربي في إسبانيا غزوة بربرية قياساً بالغزاة الألمان والسلاف والنورمنديين... ومع أنه بات معروفاً الآن أن كثيراً من النفع قد تأتى لبناء أوروبا بفعل التقاليد الاجتماعية والسياسية التي حملها «الغزاة البرابرة» المزعمون، فإن الميل لمساواة الغرب بالآخرين أمر يجب أن يبطل تماماً. لم يكن العرب لحظة الغزو أكثر ثقافة من الغزاة الآخرين، إلا أنه يبقى بين الإثنين أكثر من فارق أساسي. لقد كان الآخرون ينتمون إلى مجتمعات ذات تنظيم قبلي ولم يعرفوا تحولات المدينة وثقافتها. أما العرب فقد كانوا من ناحية ثانية ممثلي إمبراطورية كتب لها أن تحمل في خلال قرن أو اثنين أعظم ثقافة ومدنية في المنطقة الواسعة الممتدة ما بين الأطلسي وأفغانستان.

صحيح أن الإسلام الصاعد والمنتشر قد أفاد من ثقافات الشعوب التي دخلها أو التي احتك بها، لكن الإفادة هذه ما كانت لتصوم لو لم يكن للإسلام نواة كانت تحتوي على كثير من المكنونات الهائلة والفاعلية التي سمحت لها أن تتمثل في ذاتها كل العناصر الثقافية التي عرضت لها. إن أمراً يجري بهذه القوة والسرعة والسهولة يبعث الدهشة بل يكاد لا يصدق على حد تعبير «واط». حين استولى الرومان على بلاد اليونان لم يضيفوا ثقافة اليونان إلى ثقافتهم ولم يستولوا عليها بل هي التي استولت عليهم وظلت اليونانية لغة العلم، وهو ما لم يحدث للثقافة العربية مع ثقافات الشعوب الأخرى، «لقد فرضوا بدلاً من ذلك لغتهم وبعض تصورهم للكون على معظم شعوب الإمبراطورية، على الرغم من أن بعض تلك الشعوب كانت على مستوى ثقافي أعلى مما لدى العرب، وكان ذلك إلى حد ما نتاج ثقة تامة بالنفس وشعور عميق بالعزة، حيث عدَّ العرب الأقحاح أنفسهم أعلى من غيرهم، ولا شك أن شيئاً من هذا الشعور قد اتصل بالإسلام الذي رؤي أن فيه أعلى أشكال العبادة «عبادة الله» وأنقاها»⁽⁵⁾.

والمدهش أن هناك بعض المؤرخين قد سار في طريق هذه الموضوعية. اتضح هذا الموقف عند مونتغمري واط في العديد من دراساته إذ يسهب في كتابه «تأثير الإسلام في أوروبا» في قراءة الإنجازات العربية الإسلامية في جوانبها وأبعادها المتعددة الاقتصادية والعلمية والنظرية ويولي اهتماماً خاصاً بمسألة التجارة وبموقعها في الإسلام، وفي مسألتي العلم والفلسفة يستعيد السؤال الأساسي: إلى أي مدى كان العرب نقلة لما اكتشفه اليونانيون، وما مدى إسهامهم الأصيل في ذلك؟.

وفي محاولته لتشكيل إجابة موضوعية يقدم مجموعة من التجديدات والإنجازات التي أبدعها العرب أو أحسنوا توظيفها، والتي انتقلت إلى الثقافة الأوروبية. ويؤكد في هذا الإطار مسألة إتقان العرب لاستخدام الصفر، الذي ربما وجد عند الهنود، إلا أنه لم يستخدم بهذا الإتقان إلا مع العرب، وفي إطار الرياضيات نقف عند الخوارزمي الذي يعرف في الأدبيات اللاتينية بـ *Algorismus* وكانت له ترجمات وتأليف في الفلك والجغرافيا والرياضيات، وله شهرته الواسعة في وضعه أسس علم الجبر.

وكما في الرياضيات كذلك في الطب حيث أفاد العرب في بداية عهدهم بالفتح من التراث المشرقي القائم في العراق وبلاد الشام وخاصة في جنديسابور حيث مدرستها الطبية المشهورة.

«وقد ثمن العرب بوضوح أهمية المضمون العلمي الوضعي في الطب فبدلوا فيه جهداً نظرياً وعملياً، بلغ ذروته في تأسيسهم أول مستشفى في بغداد عام 800 م بأجنحة متخصصة مختلفة، ولن ندرك قيمة هذه الإنجازات إلا في إطار مقارنتها بمسوى الطب في أوروبا آنذاك، حيث كانت الأمراض ترد إلى الشيطان الساكن في الأجساد»⁽⁶⁾.

ومع ترجمة أعمال جالينوس، وأبقراط الطبية إلى العربية مباشرة فقد الأطباء الأوائل أطباء جنديسابور احتكاكهم للطب، وبلغ مسلمون عديدون

Ibid, p.37.

(6)

مستوى فاقوا به أساتذتهم النسطوريين، وكانوا إلى حد ما في مستوى أعظم من أساتذة اليونان»⁽⁷⁾.

وعلى الرغم من أن الحاجة الطبيعية ألزمت المسلمين أن يبدأوا بالفلك والطب، إلا أن شهرة المسلمين الأوسع إنما تنسب إلى ما تركوه في ميدان الفلسفة. لقد انتجت الفلسفة العربية اثنين يمكن عدّهما بين أهم فلاسفة العالم: الفارابي، وابن سينا. كما أنّ ابن رشد في المغرب على الرغم من أنه لم يضع نظاماً خاصاً أو تصوراً خاصاً للكون كان أولاً وأخيراً شارحاً لأرسطو. ويخلص «واط» من استقرائه لتاريخ العلم والثقافة عند العرب إلى تعميم على درجة كبيرة من الوضوح والأهمية إذ يقول: «حين يصبح الإنسان على بيئة من كامل التجربة العربية والتفكير العربي فإن المرء يقول إنه لولا العرب لما كان لعلم أوروبا وفلسفتها أن يتطورا، في اللحظة التي تطورا فيها. لم يكن العرب نقلة للفكر اليوناني فحسب وإنما حملة أصليون. وحين أصبحت أوروبا مهتمة بالعلم والفلسفة كان عليها أن تتعلم كل ما يمكن من العرب قبل أن تتمكن من تحقيق خطوات إلى الأمام»⁽⁸⁾.

ويخلص هذا الباحث في دراسته التاريخية - التي نالت اهتماماً واسعاً، وتعرضت للنقد والتحليل، إلى دراسة الآثار التي تركها وصول العرب إلى إسبانيا وصقلية في الوضع الأوروبي الغربي آنذاك، كما يعلل جملة الاستجابات الأوروبية للمد العربي الإسلامي الذي كان يترك أبواب قلب القارة. حيث كانت أوروبا لحظة وصول العرب إلى إسبانيا في القرن الثامن، ومن ثمة إلى صقلية وجنوب إيطاليا، ترقد عميقاً فيما شاعت تسميته بـ «ظلام القرون الوسطى»، وكانت القارة تسكن تحت سلطة أسياذ الأرض من جهة، وسلطة الآباء الروحية من جهة ثانية. لقد صمم العالم كما أراد الآباء، ولم يكن هناك من داع للالتفات إلى الأرض لا علماً ولا ثقافة ولا سياسة، لأن العالم الحقيقي هو في السماء وليس على الأرض هو وحده يستحق العناية

Ibid, p.34.

(7)

Ibid, p.58.

(8)

والجهاد. وكذلك كان وصول العرب إلى أوروبا عاصفة هزت البنى الثابتة وبعثت الحياة في ذلك السبات. وإذا كان وصول الإسلام إلى الغرب قد أحدث شرخاً كبيراً وأنزل هزيمة واضحة بالعالم الأوروبي الديني والسياسي، فإن ذلك استحالة عاملاً إيجابياً بالغ القيمة في دفع عملية النهضة الأوروبية، وكان تحدياً مباشراً على جميع المستويات الدينية والسياسية والقومية والعسكرية والثقافية والحضارية عموماً، وكان طبعياً أن يستثير ذلك التحدي ردات فعل أوروبية مقابلة في مختلف الميادين تلك، كانت أولى ردات الفعل كما يقول مونتغمري واط «على الصعيد العسكري وأخذت ردود الفعل شعار استعادة إسبانيا من جهة، والحركة الصليبية في غرب أوروبا عموماً».

وعلى الرغم من ذلك لا يد من القول إن الحركة الصليبية كانت مظهراً للتململ الأوروبي الذي بعثه المد الإسلامي. وبمعزل عن التقويم الحقيقي للحركة الصليبية فمن الأهمية بمكان أن نضيف أن العرب لم يقدموا إلى أوروبا مشاعر الصحوة والنهوض، وإنما أمدوا تلك المشاعر بأدوات النهضة وعدتها من خلال ما نقلوه وحملوه عبر بوابتي إسبانيا وصقلية واليتين كانتا تماساً حضارياً تجاوز كثيراً من الجوانب العنصرية أو الدينية.

يرى مونتغمري واط أن موقف أوروبا من العرب والإسلام قد حكمه عاملان متناقضان: الخوف العميق من جهة، والإعجاب من جهة ثانية. وحين زال ذلك الخوف مع استعادة طليطلة «الإسبانية» عام 1085 م، وسقوط القدس عام 1599 لم يبق إلا تكريس الانتباه لما أثار إعجابهم من التراث العقلائي للعرب»⁽⁹⁾.

وعلى هذا الأساس بدأ التحصيل الأوروبي المباشر وغير المباشر لعلوم العرب ولثقافتهم، وبدأت حركة النقل والترجمة عن العربية إلى اللاتينية. وعلى الرغم من أن عصر الترجمات الكبرى لم يبدأ إلا في القرن الثاني عشر إلا نقلاً لأشياء محددة كان قد بدأ في القرن التاسع على أيدي أسماء معروفة في هذا المجال.

Ibid, p.82.

(9)

وقد بدت تلك الإنجازات شرطاً للشعور الأوروبي بضرورة النهوض والتقدم والأخذ بأسبابهما إلا أنها تحولت ومن زاوية أكثر شمولاً إلى مهماز بالغ الحدة، دفع الأوروبي إلى لحظة صحوة، ووعي بالذات والهوية لقد أذهلت انتصارات العرب أوروبا، وتحول الإسلام هاجساً حرك المياه الراكدة منذ زمن. يقول واط لقد واجه الغرب الإسلام بشعور من النقص والضعف؛ كانت التقنية الإسلامية متفوقة في أكثر من ميدان، وكان التفوق العسكري بادياً، كان شعور الغرب عموماً شبيهاً بمشاعر طبقة مستضعفة، فقد تحولوا إلى الدين في محاولة لتأكيد هويتهم في وجه الجماعة المسيطرة⁽¹⁰⁾.

كان الدين هو الملاذ الوحيد الممكن للأوروبيين المحرومين من أي بديل آخر لذلك لاقت الصليبية الصاعدة هوى في النفوس.

ويخلص واط في دراسته تلك إلى التأكيد على أن قراءة وقائع المواجهة بين العالم الغربي «المسيحي» والإسلامي توضح لنا أن أثر الإسلام في الغرب الأوروبي هو أكبر بكثير مما اعتدنا تقييمه فالإسلام لم يشارك أوروبا الغربية كثيراً في الإنجازات والاكتشافات فحسب، ولم يحفز العقل الأوروبي للعلم والفلسفة فقط، وإنما استثار في أوروبا شعوراً بالذات، لأن أوروبا كانت تقاتل الإسلام حيث بالغت في اعتمادها على التراث اليوناني والروماني على حساب التراث العربي.

ويختم مؤلفه الشهير بالعبارة اللاتينية «إنه من واجبنا نحن الأوروبيين الغربيين بينما نسير نحو عصر العالم الواحد أن نصصح تصوراتنا الخاطئة وأن نعترف كلياً بديننا للعالم العربي والإسلامي»⁽¹¹⁾.

ذلك ما عرضه لنا مونتغمري واط حول طبيعة العلاقة بين الغرب والإسلام من آفاقها التاريخية، عبر مرحلة هامة في التاريخ الإنساني، اتسمت تلك النظرة بالموضوعية والتحليل الدقيق على غير عادة الأبحاث والدراسات الغربية.

Ibid, p.84.

(10)

(11) ارمكين تشيلدرز «الغرب والإسلام هتك الذاكرة والحصام».

وفي هذا السياق نعرض لنموذج آخر من هذه الدراسات التي اهتمت برصد العلاقة بين الغرب والإسلام في إطار من التحليل الدقيق، جاء ذلك في شهادة المؤلف البريطاني «أرسكين تشيلدرز» في كتابه «الغرب والإسلام - هناك الذاكرة والخصام» حيث انطلق الباحث من حقيقة أن الغرب لم يحاول فهم الإسلام في أي وقت من الأوقات، لكنه ظل دائماً رافضاً ومعادياً له، ولذلك فإن صورته ظلت مشوهة بصورة مطلقة في الوجدان العام، وما يحدث الآن من تحيز غربي ضد الإسلام، والحديث المعلن عن «العدو الجديد»، والتخطيط الاستراتيجي لتصدير الأصولية وصناعتها وفق الرؤية الغربية، ذلك كله لا يمثل موقفاً جديداً بقدر ما هو إعلان عن حقيقة الكامن والمخبوء في الوعي الاجتماعي للعالم الغربي.

وطيلة فترة تزيد على 1200 سنة، ظل الإسلام يشوه من خلال معلومات وانطباعات إما منقوصة أو مكذوبة، حتى تحولت تلك الصورة المغشوشة بمضي الوقت إلى مسلمت مستقرة في الأعماق الغربية، وظلت هذه المسلمت حاکمة لعلاقة الغرب بالإسلام حتى هذه اللحظة؛ هكذا قال تشيلدرز ثم أضاف: «إن المسيحيين لم يتم تقطيعهم إزباً بالسيف، عندما كان العرب يشقون طريقهم عبر المتوسط لكنهم كانوا يمارسون شعائهم بكل احترام. وفي القدس عقد المسلمون معاهدة مع أعيانها من المسيحيين واليهود، ضمنت لهم حريتهم، ولم يكن عليهم سوى أن يدفعوا الجزية للسلطة الإسلامية التي وفرت لهم الأمان والرعاية، وعلى النقيض من ذلك، فعندما وصل الصليبيون في عام 1599 دخلوا القدس بالخداع وأغرقوها في حمام الدم، وذبحوا المسلمين فيها، وفي مفارقة درامية في التاريخ لا تزال أصداؤها تتردد عبر القرون، وإن لم تعرف على نطاق واسع في الغرب، فإن الصليبيين أحرقوا يهود القدس أحياء في معبدهم، في حين تمّ الإبقاء على مختلف الأماكن المقدسة للمسيحيين واليهود بدون أن يمسه سوء خلال الحكم العربي الإسلامي كله. وينبغي أن يلاحظ الآن أنه في أسوأ لحظات الغضب بين المسلمين تجاه الغرب لم يتم سب الدين المسيحي أو اليهودي». إن الصورة التي رسمت للإسلام في الغرب المسيحي بدورها كانت

موغلة في الرفض والعداء، ففي فترة مبكرة جداً، ترجع إلى القرن الثامن، أعلنت الكنيسة الغربية أن الإسلام هرطقة إنشقاقية، وبحلول عام 778 م كان العداء اللاهوتي أخذاً في الانتشار. منذ ذلك الحين ظلت صورة الإسلام في اللاهوت، وفي الأدب الغربي، وفي السياسة الخارجية للكنيسة المسيحية، هي صورة العدوان الغادر على الإيمان الحقيقي، وظلت صورة المسلمين هي صورة المخادعين المنحرفين، الذين لا يعدون من البشر عملياً، ولا يستحقون أي رحمة، وليس لهم إلا السيف. وقد لاحظ الرحالة والمؤرخ العربي ابن جبير، الذي رحل إلى إسبانيا عبر فلسطين التي احتلها الصليبيون في القرن الحادي عشر الميلادي «العبارات المثيرة للاشمئزاز التي تطلق على النبي الكريم، أما دانتلي فقد أفرد لنبي الإسلام مكاناً خاصاً من العذاب الجسدي الأبدي بصورة مثيرة وفجة. حيث صنّفه عليه السلام من الدائرة الثامنة من الجحيم وهي ثاني أسوأ مكان مخصص للأشرار!!».

طيلة القرون السابقة سادت النغمة الشرسة عن الإسلام وأتباعه في مختلف الكتابات الغربية، حيث أصبح المسلمون هم الشياطين النمطيين في المعرفة التقليدية الغربية. وفي أواخر القرن التاسع عشر حاول كاتب أمريكي أن يسخر من الانطباعات الشعبية الشائعة، فزعم أنه شاهد في رحلته إلى القدس سيف الصليبي «جودفري» من بولونيا: «وجربته في مسلم حيث شققته نصفين مثل الكعكة».

وهكذا استمرت صورة الإسلام في مجمل الخطابات الغربي بأنه لعنة العالم ونتاج لسلسلة من الخداع والانتقام وإطلاق العنان للشهوات، بدأت مع النبي «محمد» كما يقول تشيلدرز وأصاب بالعدوى كل المسلمين».

واستقر ذلك الانطباع وتجنّز في الماضي والحاضر ليس فقط في عموم وجدان الناس، ولكن أيضاً في داخل الدوائر الأكاديمية في القرن العشرين. ففي الدراسات الغربية المعاصرة للثقافات الأخرى، نرى أن أغلبية الباحثين ركزوا على التفاعل بين الهندوسية والبوذية والكونفوشيوسية، وغيرها من ملل غير المؤمنين بوجود إله واحد، بينما عنيت قلة قليلة بالإسلام، كما عمدت

نسبة كبيرة من الباحثين في المجال الأحدث لدراسة التفاعل الثقافي بين الغرب والشرق إلى تجاهل الإسلام عملياً.

وفي تناول لموضوع هتك الذاكرة الذي رصد فيه الجهد الغربي لإلغاء الدور الثقافي والمعرفي الذي قام به عالم الإسلام في مسيرة التجربة الإنسانية، استهمل مؤلف كتاب «الغرب والإسلام» حديثه بعبارة قالها الباحث أودارد جوري، في ندوة عقدتها جامعة برنستون الأمريكية، حول التفكير العلمي العربي قرر فيها ما نصه: إن العصور الوسطى عُدَّت مظلمة فقط لأن إنجازاتها العظيمة حققها الشرقيون (المسلمون). وذلك لا ينبغي أن يكون عذراً للإنقاص من قيمتها. والحكم غير المتحيز الذي يقضي به التاريخ يدفعنا إلى الاعتراف بأنه منذ النصف الثاني من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر كانت العربية هي لغة العلم للجنس البشري.

في هذا الفصل تحدث تشيلدرز عما وصفه «بالتناقض الأصخم» فقد ظل المسلمون المتعلمون يعرفون الكثير عن الغرب، ويحترمون بصورة كاملة إنجازاته العلمية والتقنية، كما حرص المجتهدون والمفكرون المسلمون على إحداث التوافق بين الإسلام والعلم الحديث، غير أن الطرف الغربي على الرغم مما هو متوافر له من قدرة مشهودة على تقييم المعرفة والمعلومات العالمية، ظل يواجه عالم الإسلام بمشاعر سلبية للغاية. فوجهة النظر الغربية عن الإسلام حتى أواخر القرن العشرين ظلت تتشكل منطلقة من الخوف والعداء والأحكام المسبقة، ولم تتضمن عملياً أي اعتراف بميراث الإسلام الثقافي الذي نقله الغرب، الأمر الذي أوقع الغربيين في حالة من «فقدان الذاكرة الجماعي».

وبعدما استعرض تشيلدرز نماذج مما حققه العرب والمسلمون من إنجازات ضخمة في مجال العلوم، انتهى إلى أنه «في كل علم أساس وحرمة مما استخدمه الغرب لتحقيق تقدمه نجد العديد من الأدلة التي تثبت أن هناك ميراثاً من العالم الثالث، عندما كان حقاً هو العالم الأول، وقد انتقل ذلك الميراث إلى الغرب عن طريق العرب وفي ظل الإسلام».

«ومع ذلك ففي التاريخ الرسمي الغربي، والتعليم والإعلام الغربيين

هناك تجاهل تام وصمت مطبق عن تلك الحقيقة، ففي منتصف القرن 19 م أفردت دائرة المعارف البريطانية للراهبة الساكسونية «هورسفيثا» Hoursfith ضعف المساحة التي خصصتها للخليفة الأندلسي عبد الرحمن الثالث، الذي أصبحت قرطبة في عهده أكبر المدن الثقافية في أوروبا، والتي وصفتها هورسفيثا ذاتها بأنها جوهرة العالم، كما أن تاريخ العصور الوسطى لكامبردج الذي يضم 5000 صفحة لم يخصص للحضارة العربية في إسبانيا سوى 50 صفحة فقط، وخصص المؤلف الأمريكي جيمس هارفي روبنسون، وهو صاحب الكتاب الدراسي النمطي لعدة عقود، الذي يتناول العصور الوسطى والحديثة 10 صفحات للإسلام فحسب، مما يزيد على 800 صفحة، وأنتج كينيث كلارك وهيئة الإذاعة البريطانية 1969 سلسلة تلفزيونية كاملة وكتاباً عن الحضارة دون أن يلاحظ شيئاً من ذلك فيما وراء الغرب. وحتى هذا الوقت فإن بضع باحثين ومعلقين فحسب اعترفوا بالدور الثقافي الذي أوردناه - والكلام لمؤلف الكتاب تشيلدرز - بطريقة غير كافية وموجزة، ناهيك عن المثال المذهل لفقدان الذاكرة الذي يتضمنه إغفال هذا الدور في الوعي الغربي».

وعلى صعيد آخر فقد ترجمت كل أسماء العلماء العرب الكبار إلى اللغة اللاتينية، دون أية إشارة إلى الهوية الحقيقية لأصحابها، وتكرس ذلك الانتحال الثقافي الهائل، لأن تعلم اللغة العربية كان مكروهاً في مختلف أنحاء العالم، سجل ذلك أكاديمي هولندي في القرن 18، مشيراً إلى أن «الكثير يقولون إنها لغة لا تستحق عناء الجهد والمشقة من أجل الإطلاع على أحلام وأوهام المتهوسين فحسب» علق المؤلف الإنجليزي تشيلدرز على تلك الصورة قائلاً: «إن القادة الغربيين الدينيين والسياسيين، على حد سواء، أرادوا أن يغيبوا عن الوعي العام أي شيء إيجابي حول الإسلام، ومن ثم فقد تمت تربية أجيال بعد أجيال على تناسي دوره، وجرى تطويعهم، عن طريق وسائل الإعلام، للاقتناع بأنه لم يأت شيء له قيمة من عالم الإسلام والعرب فيما عدا البنادق والجمال والحريم والتطرف والأسواق الشرقية وعدم الثقة والانحراف والطغيان».

في الكتاب رصد آخر مهم للغاية للأساليب التي اتبعتها الغرب، لتدمير العالم الإسلامي، ولاحتلاله عسكرياً قطراً بعد قطر، ثم لفرض ثقافته على الواقع العربي الإسلامي، سواء من خلال القسر من خلال المرحلة الاستعمارية، أو من خلال «النخبة الوطنية» التي تعلمت في الغرب واستلهمت نموذجها وعادت كاملة الولاء له. من هذا السياق أثبتت شهادة لافتة للنظر قال فيها: يسجل الواقع المؤسف أن الحكومات الغربية قد تحركت المرة تلو الأخرى لزعزعة استقرار أي حركة سياسية نابعة من الداخل في العالم الثالث، وبصفة خاصة أي قيادة إسلامية قوية وواعدة لا تدين بالولاء للغرب، فقد استخدمت وكالات مخابراتها والنظم العميلة المحلية لتسليح وتمويل الجماعات المتطرفة، ليس بهدف الدفاع عن الدين وحقوق الإنسان، وإنما لتحقيق السياسات الواقعية الإمبراطورية، وأقامت الحكومات الغربية أو مولت وسلحت أسوأ الدكتاتوريات في العالم الثالث منذ تصفية الاستعمار، إذا ما وجدت فرصة لذلك.

خلص تشيلدرز في دراسته عن الغرب والإسلام إلى أنه ما دامت الدول الغربية تتصرف بصورة غير ديمقراطية بهذا العمق في سياستها الخارجية تجاه العالم الإسلامي، وما دام المسلمون يشهدون ذلك التحيز المفضوح ضدهم، الشبيه بالتنصير من جانب الغرب، فإن فرص قيام حوار مفتوح بين الطرفين هي فرص مظلمة حقاً.

هذا الرأي الذي يعرضه تشيلدرز، إنما يقدم الدلالة الواضحة على أن حملة التضليل كان الإسلام هدفها وضحيتهما في التجربة الغربية، هذه التجربة تسعى إلى تثبيت الصورة المظلمة عن الإسلام في الوجدان البشري عامة. ولا نبالغ إن قلنا إن ثمة ثقافة جديدة يروج لها الآن، تشوه الإسلام نظراً لكونه مشروعاً حضارياً، وتسعى إلى تلويث تجربته ورموزه وتاريخه، ليس في الوجدان الغربي فقط وإنما تحاول أن تصل إلى الذات المسلمة، لتلويث الوجدان الإسلامي وتغييره من كل ما هو إسلامي.



الأستاذ علي إصاقر حسنين

تمهيد

قبل التصدي لصلب الموضوع، من المستحسن التمهيد له ببعض المعلومات العامة التي لها صلة وثيقة به.

عمل الراهب الأب كوستانتزو بيرنيا في طرابلس، منذ السنوات الأولى من الاحتلال الإيطالي، إلى أن تقرر نقله - سنة 1936 - إلى أثيوبيا حيث أسره الإنكليز - إبان الحرب العالمية الثانية - وتوفي وهو في الأسر يوم 12/12/1941.

كان من ألمع رهبان البعثة الفرنسيسكانية في بلادنا، إذ تميز بثقافته التاريخية الغزيرة وكان كاتباً ذا قلم سيال. من أشهر مؤلفاته كتاب عنوانه «طرابلس من 1510 إلى 1810» عكف على نقله إلى العربية الأخ الدكتور خليفة محمد التليسي. ومن أهم مقالاته واحدة بعنوان «الكاتدرائية القديمة بطرابلس

«نشرتھا مجلة «ليبيا»، تلك الدورية المحلية التي كانت تصدر باللغة الإيطالية، في عدد أكتوبر/نوفمبر 1937. فمن هذه المقالة تسنى لي اقتباس فحوى هذا التهيد. يعود تأسيس أول بعثة تبشيرية في ليبيا إلى منتصف القرن السابع عشر للميلاد، وقد أسند أمرھا إلى رهبان فرنسيين شاركهم فيما بعد رهبان إيطاليون ينتمون إلى جمعية الفرنسيسكانيين، علماً بأن قدوم الأخيرين إلى طرابلس لم يكن بدافع تحمسهم للتبشير بالإنجيل بين المسلمين فحسب، بل كان أيضاً لرغبتهم الشديدة في مساعدة أبناء ملتهم القابعين في دياجير «الحمامات» - أي السجون - الطرابلسية لسقوطهم في قبضة القراصنة الطرابلسيين، الذين كثيراً ما كانوا يلتحمون بأساطيل النصارى في عرض البحر، أو على سواحل شمال أفريقيا، أو صقليا أو جنوب ووسط إيطاليا. وأكثر ما كان يشغل بال هؤلاء الموفدين تعرض إخوانهم للارتداد عن ديانتهم واعتناقهم للإسلام.

كان على المبشرين الأوائل أن يسكنوا مع الأسرى بالحمام، حيث كانوا ينامون ساعات الليل، ويقضون جل ساعات النهار، في أداء واجباتهم الدينية، كتلقي الاعترافات ومناولة القربان ومساعدة المحتضرين ودفن الموتى.

وفي سنة 1812 استطاع المدير الرسولي الأب جيرولا مودا كاستيلفيترانو أن يشتري داراً عربية قديمة، فقام بترميمھا وتعديلھا بحيث اتخذ منها مصلى للبعثة وماوى لأعضائها. وعلى الرغم مما شهده هذا المصلى من عمليات توسيع لاحقة، فقد أصبح ذات يوم لا يفي بالحاجة لتزايد عدد أفراد الطائفة الكاثوليكية بالمدينة، فلم يكن بد من تعمير معبد جديد أرحب، وبيت أليق لسكنى الرهبان، وذلك بعد إضافة رقعة أرض مجاورة. وبحلول عيد الميلاد في 25/12/1703 أقيم أول قداس حضره القناصل وسائر المسيحيين عبيداً وأحراراً.

وفي غرة شهر أغسطس 1829 جرى الاحتفال بافتتاح كنيسة جديدة بالمكان نفسه، بلغت أبعادھا 12 متراً طولاً و8 أمتار عرضاً و10 أمتار ارتفاعاً وأطلق عليها اسم السيدة مريم ذات الملائكة.

وبعد 60 سنة دعت الحاجة إلى توسيع هذا المعبد كرة أخرى، لا سيما

أن الطائفة الكاثوليكية قد تنامي في هذه الأثناء عددها، تبعاً لاشتداد طموح دولة إيطاليا إلى الاستيلاء على الأرض الليبية مبتدئة بغزوها اقتصادياً وثقافياً، من خلال إيفادها - سرّاً وعلانية - التجار وأرباب شتى المهن والحرف، وفتح المدارس. وكان ذلك - على ما يبدو - بالتعاون مع جهات التبشير التي كانت تسعى - بدورها - إلى تنصير الأهلين غير أن سعيها باء بالخسران والحمد لله.

أجل، لم يمض طويل وقت حتى تم إنجاز عمارة الكنيسة التي ما برحت قائمة إلى الآن بباب البحر، والتي وضع حجر أساسها في 1891/5/12. وأحدث إلى جانب هذه الكاتدرائية كذلك دير ومكتبة وأرشيف كان من جملة محتوياته «الكتاب القديم».

إن اختفاء ما يسمى باللغة الإيطالية IL LIBRO VECCHIO قضية حيرت الباحثين الليبيين، الذين ما فتئ يداعبهم أمل العثور على وفرة من شتى الأخبار المفيدة فيه. فما هذا الكتاب يا ترى؟ إنه سجل مخطوط كانت تدون فيه - يوماً بيوم تقريباً - منذ سنة 1628 للميلاد، أخبار أهم الأحداث التي مرت بالبعثة التبشيرية الفرنسيسكانية في طرابلس، والتي ربما مرت أيضاً بالبلاد الليبية قاطبة، ولا سيما بالقطر الطرابلسي، وذلك على غرار يوميات المرحوم حسن الفقيه حسن.

والظاهر أن هذه المخطوطة قد عبثت بها الأيدي عبر الأحقاب. وإذا كتب لجلها البقاء فالفضل في ذلك عائد - بالدرجة الأولى - إلى الأب كوستانتزو بيرنيا (COSTANZO BERGNA) الذي سبق الحديث عنه، والذي استطاع - كما سنرى - أن يجمع شتات هذا السجل، وأن يستقي منه وفرة من المعلومات ألف على أساسها عملين، كان عنوان أحدهما «البعثة الفرنسيسكانية على سواحل أفريقيا الشمالية» (LA MISSIONE FRANCESCAN A SULLE COSTE DELL' AFRICA SETTENTRIONALE)، وكان عنوان الآخر «البعثة التبشيرية الفرنسيسكانية في ليبيا» (LA MISSIONE FRANCESCAN IN LIBIA).

هذا وحينما استلم الأب بيرناردينو دالوكا (P. Bernardino Da Lucca)

مسؤولية إدارة شؤون البعثة التبشيرية بوصفه مديراً رسولياً 4/8/1746 قد عمل - ببطنة وغرام - على جمع ما بقي من وثائق متعلقة بالمديرين الرسولين السابقين، ومن مراسيم بابوية، ومن مراسلات متبادلة مع شتى القنصليات، ومن ملحوظات ومذكرات وعقود وغير ذلك.

ولكن هذا الراهب الباحث سرعان ما فكر في احتمال أن يعود هذا الكنز الثمين - في يوم من الأيام - عرضة للعبث والتلاشي، كما سبق أن حدث له فيما مضى.

وضمن الوثائق والأوراق المذكورة، عشر الأب بيرناردينو على المخطوطة التي كان يطلق عليها المبشرون - تقليدياً - اسم «الكتاب القديم». لكن هذا الكتاب لم يكن أبتر فحسب من حيث البيانات والمعلومات، بل كان مشوياً أيضاً ببعض الشفرات التاريخية الظاهرة.

فقد اجتهد الأب بيرناردينو في سبيل إعادة إنشائه متسعيناً بالمواد التي كانت متوافرة لديه، وذلك ابتداء من عام 1650 إلى تاريخ انتهاء مهمته - أي في 4/6/1749. ثم اضطلع خلفاؤه من بعده بإنجاز ما تبقى من العمل.

فأعاد الأب ماريانو دا أونانو (P. Mariano Da Onano) - بحذق وذكاء - تنظيمية علماً بأن هذا الراهب قد شغل منصب المدير الرسولي في طرابلس من عام 1794 إلى عام 1796 وقد شكل عمله فحوى «الكتاب القديم» القائم في الوقت الراهن الذي جاء نص مقدمته على النحو التالي: «نسخة من سرد الوقائع التي مرت بالبعثة التبشيرية في طرابلس الغرب... ومما أمكن استنتاجه من بعض الكتب التي تم العثور عليها هنا وقمت أنا، المدير الرسول الحالي بيرناردينو دا لوكا، بإعادة توبيخه على أفضل وجه وأحسن نظام ممكن، معيداً نسخ ما تبثر منه فقط، بغية الربط بين أجزاء الرواية وتاركاً - على حاله - كل ما يلائم صدق وحقيقة وأصالة تاريخ الماضي» (انتهى نص المقدمة).

إن «الكتاب القديم» - الذي يعد حجر الأساس في إعادة إنشاء صرح تاريخ البعثة التبشيرية - يشتمل على 274 صفحة مخطوطة من الورق الجيد الكبير القطع، علماً بأن بعضاً منها جاءت بيضاء لم يخط عليها حرف، وبان

أن بعض ملزماتها مفقودة وربما انتزعت - عمداً - من باب الحيلة والحذر .
وبالإضافة إلى ذلك فإن صفحات كثيرة قد نخرها السوس ، وصفحات
أخرى كادت تكون غير مقروءة نتيجة لتعقيمها بمحلول ، مادته الأساسية الخل ،
كان يستعمل في أوقات تفشي الطاعون في البلاد .

وهذه المخطوطة - التي لم تشهد في عمرها المديد فترة هدوء واستقرار -
كان عنوانها أصلاً «مذكرات قديمة العهد للبعثة التبشيرية بطرابلس الغرب
(Memorie Antiche della Missione di Tripoli di Barberia) . قام الأب كوستانتزو
البازيني (P. Costanzo Albasini) - في مطلع هذا القرن - بنقلها إلى مدينة البندقية
واتخذ منها موضوع دراسة شيقة لم يتم نشرها بعد . ثم انتهى الأمر بهذه
المخطوطة إلى روما ، حيث أودعت بأرشفيف دير القديس بطرس أن مونطوريو
(Convento di S. Pietro in Montorio) .

وفي عهد النائب الرسولي المونستيو أنطوميلي (ANTOMELLI) -
19/1913 ، وبأمر من المجمع المقدس للدعوة إلى الإيمان (Sacra
Congregazione di Propaganda Fide) أعيدت مخطوطة «الكتاب القديم» من
العاصمة الإيطالية إلى طرابلس حيث تم حفظها في أرشفيف السيدة مريم ذات
الملائكة (S. Maria degli Angeli) وظلت مودعة هناك إلى شهر سبتمبر من عام
1970 ، أي العام الذي تم فيه - بجهد جهيد - تهريبها إلى إيطاليا التي بلغتها
بسلام وأمان . وبعد بضع سنين لحقت بها - بجهد جهيد أيضاً - البقية الباقية من
محفوظات البعثة ذاتها .

هذا ويعود إلى سبتمبر 1915 فراغ الأب كوستانتزو بيرنيا من إعادة نسخة
في مئتين واثنين وستين (262) صفحة بالآلة الكاتبة وهي الصفحات التي تؤلف
بمجمليها نص «الكتاب القديم» .

وبتاريخ 29 أكتوبر من العام نفسه شرع هذا الراهب - بعد بحث مطول -
على أساس ما سبق أن وجده من وثائق بأرشفيف السيدة مريم ، ابتداء من سنة
1784 إلى سنة 1908م مع العلم بأن السنة الأخيرة تحدد تاريخ انتقال البعثة إلى
دائرة اختصاص ولاية الرهبان الأصغرين اللومبارديين ، فكان من شأن مجهوده

الثاني هذا أن أسفر عن مؤلف يضم بين دفتيه مئتين وأربع (204) صفحات مطبوعة بالآلة الكاتبة.

وفي السنة التالية - أي 1916م - قام الأب بيرنيا بمراجعة تاريخ البعثة التبشيرية برمته حسب التسلسل الزمني للوقائع وذلك حتى عام 1913 إذ أكمله بوثائق جديدة، بحيث ظهر إلى الوجود مجلد قوامه ثلاثمائة واثنان وعشرون (322) صفحة مطبوعة بالآلة الكاتبة. وإن هذا العمل الجدير بأن ينشر ويصبح في متناول القراء - كان بحثه «البعثة التبشيرية الفرنسيسكانية على سواحل أفريقيا الشمالية» الذي سبقت الإشارة إليه.

لقد اتخذ المؤلف من مادة هذا البحث أساساً بنى عليه - بصورة منهجية - صياغة تلك المعلومات والمعطيات التي تجسدت - على نحو يليق بقيمتها التاريخية - في الكتاب السالف ذكره أيضاً «البعثة التبشيرية الفرنسيسكانية في ليبيا» الذي كان صدوره في مدينة طرابلس عام 1924. من هذا التاريخ لم تعد تكون بعثة طرابلس محل بحث ولا دراسة ولا - بالأحرى - محل نشر أو إصدار يستدعي طول النفس وسعة الصدر.

إن كتابة تاريخ ليبيا - من حيث الأجناس البشرية والجغرافيا والاقتصاد والسياسة، خصوصاً في حقبة الحكم الاستعماري الإيطالي - قد حظيت باهتمام ملحوظ فيما يتعلق بالإصدارات كمّاً ونوعاً، بينما أحداث حياة البعثة التبشيرية - التي كانت هي الأخرى ذات بال تردت في هوة الإهمال، أو ظلت جامدة في مستوى المطبوعات التي كان يشار فيها إشارة عابرة، إلى الأخبار المتعلقة بالأمور الدينية مثل النشاط الكنسي ومساكن المبشرين بالقرى الاستيطانية وذلك إذا ما استثنينا العمل الذي يستحق التثمين والثناء والذي سهر على تأليفه الأب ج. سانيتا (P.G. Sanità) وعنوانه «شمال أفريقيا والجمع المقدس للدعوة إلى الإيمان» وركز فيه على نشأة وتطور البعثة التبشيرية الفرنسيسكانية في ليبيا (1711/1668). إنه سفر من مئتين وأربع وخمسين (254) صفحة كان صدوره بالقاهرة في عام 1963. ففي هذه الدراسة الرائعة حقاً - من حيث البحث عن المراجع - حلل المؤلف العلائق بين الكرسي الرسولي والبعثة التبشيرية

بطرابلس على أساس القدر الهائل - كما وصف في الصفحة 94 - من الوثائق التي تمكن من العثور عليها بأرشفيف المجمع المقدس للدعوة إلى الإيمان بمدينة الفاتيكان، وبأرشفيف كل من دير فرانثيسكو آريا (S. Francesco a Ripa) ودير سان بييترو أينمونطوريو (San Pietro in Montorio) في روما.

وليس من شك في أن هذا العمل التاريخي كان له شأن كبير إذ أسهم في سد الثغرات والفجوات التي شابت «الكتاب القديم» بالنسبة للحقبة موضوع البحث، على أنه جاء كذلك ليكمل تاريخي البعثة اللذين عكف على تأليفهما الأب كوستانتزو بيرنيا - في عامي 1915/1916.

وفي خاتمة ثاني هذين التاريخين يقول المؤلف: «لا أرى من المناسب مواصلة سرد أخبار عهد كل من المديرين الرسولين الأخيرين، وذلك ليس لانعدام المعلومات التي هي - بالعكس - وفيرة بالأرشفيف، وتدعمها شهادات أناس ما زالوا على قيد الحياة... إنما أترك هذه المهمة لغيري ممن يريدون إحياء الماضي من أجل أن يعجبوا بما صنع فيه من خير، وأن يتعلموا كيف يمكن تفادي الأخطاء التي قد ارتكبت، وأن يقولوا لمن سيعنى برعاية الكنيسة الكاثوليكية إن أفضل وسيلة لفعل الخير في هذه المنطقة تتمثل في سلوك الحياة مثالية فاضلة جاهدة مبذولة في سبيل مجد الله وخير النفوس» (انتهى قول الأب بيرنيا).

هذا ومنذ نحو سنتين قام راهب آخر يدعى فيليبيرتو صبادين (FLIBERTO SABBADIN) - أمين البعثات التبشيرية للربان الأصفرين اللومبارديين - قام بتدقيق كتابه «الربان الأصفرين اللومبارديون في ليبيا: البعثة التبشيرية في طرابلس 1908/1991» - (I Frati Minori Lombardi in Libia 1908 - 1991) La Missione di Tripoli الذي يشكل الكراسة السادسة من سلسلة كراسات الولاية اللومباردية للربان الأصفرين، والذي تولت إصداره دار منشورات المكتبة الفرنسيسكانية (Edizioni Biblioteca Francescana) في ميلانو - 1991.

ينطوي هذا المؤلف على (185) صفحة قطعها (235 × 165 ملمترا)،

وجاء مقسماً إلى ثلاثة عشر فصلاً مع مقدمة وثبت للمراجع، وقائمة بأهم الأحداث حسب تسلسلها الزمني، ونخبة من الصور التذكارية ومن الوثائق، وجرد موجز للكنائس والعقارات الأخرى التابعة للبعثة التبشيرية بالقطر الطرابلسي، التي صادرته السلطات الليبية في 21/7/1970.

وتحمل فصول الكتاب العناوين التالية :

- الانتقال (1908/1913).
- نيابة رسولية صعبة (1913/1918).
- الكاتدرائية (1919/1928).
- التوسع (1928/1935).
- حقبة ما قبل الحرب (1935/1940).
- الحرب (1940/1945).
- الحقبة المرهقة لما بعد الحرب (1945/1947).
- مديريّة مصراتة (1947/1951).
- بين التردد والأمل (1951/1961).
- من الإحسان إلى الخوف (1961/1969).
- مصادرة الممتلكات (1970/1972).
- من كسر الجمود إلى الحوار (1973/1977).
- فقدان الثقة جذرياً (1978/1991).

ومن خلال تصفّح للكتاب يمكن استخلاص جملة من المعلومات المفيدة من ضمنها أن الأب كوستانتزو بيرنيا - عضو ومؤرخ البعثة التبشيرية الفرنسيسكانية بطرابلس أورد في مقدمة كتابه «البعثة التبشيرية الفرنسيسكانية في ليبيا» (La Missione Francescana in Libia)، أنه كان يريد فقط تقديم إسهام بسيط في تدوين تاريخ مقبل للبعثة، وإحياء ذكرى كثير من الشخصيات الفرنسيسكانية البارزة، التي قضت حياتها في صمت بهذه البلاد فاعلة الخير

كرسل لنشر السلام دونما تمييز قومي أو ديني.

بينما - حسب رأي الأب صبادين - جاء إسهامه بعيداً كل البعد عن البساطة على الرغم من انحصاره في الحدود التي أملت عليها ظروف بيئة موضوعية، وذلك لأن محاولته كانت الأولى من نوعها، لتنسيق مجريات الأحداث والتقلبات التي شهدتها مرحلة تأسيس البعثة التبشيرية للرهبان الفرنسيسكانيين بطرابلس الغرب، ذلك التنسيق الذي كان قد باشره الأب أودواردو ميكيلي دابيرغامو (P. Odoardo Micheli Da Bergamo) في عام 1628م.

ومن الجدير بالذكر أن البحوث الأرشيفية التي أجراها الأب بيرنيا، كانت على درجة من الصعوبة، لأن محفوظات البعثة السالفة الذكر قد تعرضت مراراً للتشتيت والبعثرة، تبعاً للتقلبات السياسية الصعبة التي مرت بالبلاد الليبية، وكذلك من جراء إهمال بعض الرهبان الذين كان الأرشيف أمانة في عنقهم (ربما كان من جملتهم الراهبان الملوومان المذكوران أعلاه). وزيادة على ذلك فإن بعض الوثائق المختلفة قد أهلكها الدهر، وإن وثائق أخرى قد نالت منها أساليب التعقيم البدائية التي كثيراً ما كانت تستخدم - كما سبق القول - عصرئذ في البلاد.

وعلى أية حال فقد تمكن الأب كوستانتزو بيرنيا من ترتيب وتصنيف كل ما استطاع العثور عليه من أوراق بمركز المحفوظات الوحيد، الواقع بالدير العتيق التابع لكنيسة السيدة مريم ذات الملائكة بطرابلس. ولا مناص من التنويه - في هذا الصدد - إلى أن هذا الراهب الباحث المؤرخ قد صرف اهتمامه - بوجه خاص - إلى «الكتاب القديم» الذي ينطوي على تسلسل زمني للأحداث التي شهدتها البعثة التبشيرية منذ تأسيسها، ويروي قصة المراحل الخطيرة التي مرت بها، مع العلم بأن هذا السجل الهام مودع حالياً في أرشيف أمانة إرساليات الرهبان الأصغرين اللومبارديين بمدينة ميلانو.

ومن جهة أخرى يقول الأب صبادين: «إنما التزاماً بمقتضيات الوظيفة ويحكم ولعي الشخصي، قد بدا لي من الواجب أن ألبى دعوة الأب بيرنيا إلى

مواصلة عمله التاريخي، قبل أن يتمكن الدهر الداهم وفتور العواطف البشرية من أن يقبرا - وإلى الأبد - في طي النسيان أواخر الأحداث والتقلبات المرهقة التي انتابت هذه البعثة التبشيرية.

فمنذ سنة 1908 حين استلمها الرهبان الأصغرون اللومبارديون في عهدتهم، عاشت البعثة أحداثاً غير عادية كان لها أبلغ الأثر في مسيرتها ألا وهي بالتحديد:

- الحرب العالمية الأولى 1914/1918.

- إعادة احتلال إيطاليا للبلاد الليبية 1922/1924.

- خطة الاستيطان الزراعي الفاشستي 1925/1939.

- الحرب العالمية الثانية 1940/1945.

- إعلان استقلال ليبيا 1951.

- مجيء القذافي إلى الحكم 1969.

- مصادرة جميع عقارات البعثة التبشيرية.

- الخط السياسي الجديد الذي أخذت تسلكه ليبيا.

فكان - بطبيعة الحال - لزاماً على البعثة اختيار نهج جديد حيث إن تاريخها قد اندرج في سياق الأحداث السياسية التي تعاقبت في البلاد منذ سنة 1908 حتى سنة 1990، والتي كانت لها صبغة محلية محددة المعالم. وإضافة إلى ما تقدم فقد استخدمت في هذا البحث وثائق أرشيف البعثة دون سواها، كما يتجلى من ثبت المراجع؛ وذلك حتى لا تعاد إلى ذاكرة التاريخ سوى الوقائع اليومية الحقيقية التي تزخر بها حياة أمة بعثة تبشيرية.

وقد تعمدت أن أستبعد - كلياً تقريباً - الإسهام الذي أمكن أن يوفره التوثيق الرسمي نحو العلاقات مع الكرسي الرسولي، ومع الإدارة المركزية للرهنة الفرنسيسكانية، أو مع هيئات ومؤسسات أخرى - إيقاناً مني أن مصادر الأخبار المحلية، التي حنكتها المحن، هي وحدها القادرة على أن تقدم للقارئ طراوة الحياة التبشيرية الفرنسيسكانية في بلد مستعص على المسيحية

مثل ليبيا المسلمة». انتهى كلام الأب صبادين، وبذلك أختتم حديثي إليكم مع
جزيل الشكر لحضراتكم على صبركم وحسن إصغائكم والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته.

المراجع

- BERGNA COSTANZO : LA MISSIONE FRANCESCANA IN
LIBIA** Stabilimento Nuove Arti Grafiche
Tripoli - 1924.
- SABBADIN FILIBERTO : FRATI MINORI LOMBARDI IN LIBIA**
La Missione di Tripoli 1908-1991 Edizioni
Biblioteca Franciscana Milano - 1991.
- ZIOGADELL NICOLA : VOCABOLARIO DELLA LINGUA
ITALIANA II** Ristampa 77/87 - Zanichelli
- Milano - 1970.
- BERGNA COSTANZO : LA VECCHIA CATTEDRALE DI
TRIPOLI** Riv. Mens. Illustrata (LIBIA)
N. 7/8 - Ottobre/ Novembre 1937 - Pag.
27.

A rectangular decorative border with intricate floral and vine patterns, featuring leaves and scrolls, framing the central text.

مُرَاجَعَةُ الْكُتُبِ

الغارة على العالم الإسلامي

تأليف: أ.ل. شاتليه
تأليف وتحرير: محب الدين الخطيب ومساعد الدياني

مراجعة: الدكتور الصير أبو ربيب
بجامعة الفكاخ

منذ أن أشرقت شمس الإسلام على الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي وامتدت رقعة معتنقيه لتشمل أجزاء واسعة من قارات العالم خلال القرون التالية، والعقيدة الإسلامية هدف من أهداف الذين في قلوبهم زيغ للنيل منها ومحاربتها، وهم من هموم الكثير من القوى المعادية التي رأت فيها مصدر إشعاعات فسعت إلى طمسها، يقيناً منها أن في بقائها امتداداً لتلك الإشعاعات إلى أنحاء أخرى من العالم وأن معتنقيها يشكلون بقعة ضوء تغسل قلب الإنسان وتعم الأرض.

ومن ثم، فليس من المستغرب أن نرى في العصر الحديث، ومع بدايات النهضة الأوروبية جهوداً مضنية مكثفة، ترمي إلى إضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، وأعمالاً دؤوبة للحد من انتشارها في بقاع أخرى من العالم. وقد اتخذت هذه الأعمال وتلك الجهود صوراً عدة وسلكت قنوات شتى

مختلفة، أبرزها وأكثرها تنظيماً وأوسعها دعماً مالياً «الإرساليات التبشيرية»، التي استهدفت تنصير أكبر عدد من المسلمين على أقل تقدير، وهدم صرح الفكرة الإسلامية بالدرجة الأولى في نفوس أصحابها عن طريق بث الآراء المضللة التي تقوض الأركان وتحقق العقول بجذليات عقيمة، لا تورث سوى الضعف التدريجي الذي يؤدي إلى الاضمحلال والزوال.

كان من وسائل هذه الإرساليات في تحقيق مراميها الخفية وأغراضها الخبيثة، نشر التعليم بفتح المدارس والاهتمام بالصحة من خلال إنشاء المستشفيات، وفي زحمة ذلك يتم بناء الكنائس وعقد الجلسات والحلقات والندوات وإصدار المجلات العلمية والثقافية والدينية، التي يتولى تحرير مادتها المستشرقون الذين درسوا الدين الإسلامي، وخبروا العادات الشرقية وتعلموا اللغة العربية وغيرها من لهجات المسلمين في بقاع العالم، بهدف الوصول إلى الإنسان المسلم في سهولة ويسر، وزرع مبادئ التبشير في عقلته وسلوكه، وما يتبع ذلك من سيطرة سياسية واقتصادية عن طريق مؤسسات وهيئات تنشأ خصيصاً لهذا الغرض.

وإذا كانت هذه الإرساليات التبشيرية قد استطاعت أن تترك بعض المظاهر المادية، مثل الكنائس والمدارس والمستشفيات والمراكز الثقافية والمطبوعات والنشرات العلمية والكتب الدينية دليلاً على وجودها في بعض البقاع من العالم الإسلامي، فإن مثل هذا الصنيع لم يكن في غفلة من المسلمين وعلمائهم ومفكريهم، الذين كانوا على بينة من حقيقته، والذين فطنوا بطريقة أو بأخرى إلى ما وراء هذا الصنيع من خطر يهدد عقيدتهم ويمس مبادئ دينهم الإسلامي الحنيف، ويشوه تعاليمه في نفوس أولئك الذين هداهم الله بنوره وحب إليهم ما ارتضاه سبحانه وتعالى لعباده من دين هو خاتم الأديان، ألا وهو الإسلام.

لقد تصدى كثير من علماء الإسلام ومفكريه إلى محاولات تلك الإرساليات التبشيرية الدينية الفكرية، التي كانت تهدف في إصرار عنيد إلى إضعاف الفكرة الإسلامية، وتتبع بعضهم الآخر ما كان يبثه المستشرقون من

سموم، وما كانوا يدسونه من أفكار تمس جوهر العقيدة الإسلامية، ولعل تصدي الشيخ محمد عبده للمستشرق الفرنسي (هانونو) وردوده الشافية على مفتريات هذا المستشرق الفكرية التي تمس جوهر الإسلام وتعاليمه، لأبرز دليل على هذه المتابعة الحريصة التي كانت تدفع عن الإسلام كل ما يسيء إليه وتدحض ما يفتره عليه المغرضون وما يحاول المستشرقون أن يلصقوه به من تهمة وأباطيل.

والكتاب الذي بين أيدينا، وعنوانه (الغارة على العالم الإسلامي) يقدم وجهاً آخر من وجوه التصدي الذي قام به مفكرو الإسلام وعلماءه في بداية هذا القرن، ويمثل عملاً جليلاً من تلك الأعمال التي تعكس وعيهم ويقظتهم بما يدور حولهم وما يحاك للإسلام من دسائس مفرضة.

إن هذا الكتاب هو مجموعة من مقالات وبحوث للمستشرق الفرنسي ل. أ. شاتليه (A. LA Châtelier) (المتوفى عام 1626) نشرتها في الأصل «مجلة العالم الإسلامي بالفرنسية La Revue de Monde Musulman» التي كان يشرف عليها المستشرق ماسينيون (1883 - 1962) ويرأس تحريرها⁽¹⁾.

وقد قام المفكر والكاتب الإسلامي المعروف محب الدين الخطيب بتلخيصها ونقلها إلى اللغة العربية بعد أن قام الأستاذ مساعد اليافي بالترجمة الحرفية للنص الفرنسي.

في أول الأمر نشرت ترجمة هذه المقالات والبحوث تباعاً في جريدة «المؤيد» في سنة 1330 هـ (1911م) ثم في صحيفة «الفتح» سنة 1324 هـ (1925م). بعد ذلك جمعت في كتاب طبع سنة 1350 هـ (1931م) في المطبعة السلفية بالقاهرة ثم كانت الطبعة الثانية سنة 1387 هـ (1957م) وهي التي نستعرض صفحاتها في مراجعتها هذه، وقد صدرت عن الدار السعودية للنشر بجدلة.

في الصفحة الأولى من هذه الطبعة أشارت الدار إلى أن «هذا الكتاب هام وخطير يتحدث فيه أعداء الإسلام بصراحة عن مخططاتهم لهدم هذا الدين

(1) د. نجيب العقيقي، المستشرقون، ج/ الأول، ص 227.

واستعباد أهله» وإلى قصدها من إعادة طبعه بعد مضي ربع قرن من الطبعة الأولى وهو تذكير الغافلين وإيقاظ النائمين وترديد صرخة الأستاذ الفاضل الجليل السيد محب الدين الخطيب من جديد، ص 3.

ومن خلال مقدمة الطبعة الأولى يقص علينا الأستاذ محب الدين الخطيب قصته مع هذا الكتاب، التي يعود تاريخها إلى يوم من أيام سنة 1330هـ (1911م) حين كان يشتغل في تحرير جريدة «المؤيد» لصاحبها الشيخ علي يوسف التي صدرت عام 1889م⁽²⁾. أقبل عليه زميله السيد مساعد اليافي يخبره بأن مجلة العالم الإسلامي تحولت من مجلة اجتماعية أدبية إلى مجلة تبشيرية⁽³⁾ وأنها أصدرت عدداً ضخماً ليس فيه غير بحث واحد، وهو بحث تبشيري يدور حول ما تقوم به إرساليات التبشير البروتستانتية في العالم الإسلامي وما قيل في المؤتمرات التي عقدتها تلك الإرساليات في أوقات مختلفة. وقد جعلت المجلة عنوان هذا البحث (الغارة على العالم الإسلامي) أو (فتح العالم الإسلامي) ص 6.

وفي ضوء ما جاء في توطئة جريدة «المؤيد» المنشورة في عددها الصادر في 20 ربيع الثاني 1330هـ وأوردها الكتاب (ص 8 - 9) - نقول إن مجلة العالم الإسلامي كانت في الأصل مجلة اجتماعية أدبية شهرية مصورة تصدر في باريس (1906 - 1926) عن الجمعية الإرسالية العلمية المغربية التي تكونت لتكون أداة عون لجامعات فرنسا السياسية والدينية والاقتصادية، وكان يكتب فيها كبار المستشرقين من أمثال الميسيو ل.ل. شاتليه رئيس تحريرها وأستاذ المسائل الاجتماعية الإسلامية في إحدى جامعات فرنسا، والميسيو لويس ماسينيون الذي كان من المشتغلين بالموضوعات الإسلامية، وقد زار مصر سنة 1328هـ (1910م).

كانت هذه المجلة معروفة لدى الأوساط الثقافية في مصر. ومنذ صدورها اهتمت جريدة «المؤيد» بنشر بعض أبحاثها بعد ترجمتها ليطلع قراؤها

(2) انظر، أدب مروءة، الصحافة العربية، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1961، ص 196.

على آراء الكتاب الفرنسيين في أدب المشرق وعاداته، وكان آخر ما ترجم عنها فصول للمسيو شاتليه عن «المركز الاقتصادي للعالم الإسلامي».

ويذكر الأستاذ الخطيب أن هذه المجلة اتخذت إبان صدورها المظهر العلمي ولم تفصح في أعدادها الأولى لسنوات عن غايتها السياسية، ولكنها كشفت عن حقيقة ذلك المظهر، وأزاحت عن وجهها قناعها المزيف بعد أن تم لفرنسا احتلال المغرب (1912م) وغزت إيطاليا طرابلس الغرب (ليبيا) في عام 1911م، ص 9.

ونتيجة لهذا التغير في المنحى الفكري للمجلة الذي لاحظته الأستاذ مساعد اليافي في عددها الضخم الذي يشكل في مجموعه بحثاً عن نشاطات إرسالية التبشير في العالم الإسلامي، كان الاقتراح بترجمة هذا البحث فصلاً بعد فصل، ونشره في جريدة «المؤيد» تبعاً، بعد إعادة صياغته من قبل الأستاذ الخطيب، إيماناً من الأستاذين اليافي والخطيب بوجود أن يقف المسلمون كافة على ما يكيد هؤلاء المستشرقون للإسلام، وأن يكونوا على علم بما ينصب لهم من شرار وما يبيت لهم من شر، نظراً إلى أن مثل هذا العمل من واجباتهما نحو الإسلام والشرق.

ولقد أصاب الأستاذان الهدف وحققا ما كانا يرجوان وهو أن يقف العالم الإسلامي على ما يكيد له أعداؤه. يذكر ذلك الأستاذ الخطيب في مقدمة الكتاب حيث يقول:

«وما كادت هذه المقالات المتسلسلة تنتشر في مصر والعالم الإسلامي حتى كان لها وقع عظيم جداً، وبعثت اليقظة في كثير من الناس، ونقلتها عن «المؤيد» مجلات وصحف متعددة منها مجلة «المنار» في القاهرة، وجريدة الإخاء العثماني في بيروت، وضاق صدر كتاب مجلة العالم الإسلامي نفسها وأمثالهم من أنصار التبشير والاستعمار من ذبوع هذه الفصول بين المسلمين، لأنهم يودون أن يقوم التبشير بأعماله والمسلمون نيام، فدارت مناقشة بينهم وبين «المؤيد» حول هذا الموضوع»، ص 6.

بعد مقدمة وتوطئة قصيرتين بقلم الأستاذ محب الدين الخطيب، نلتقي

بمقدمة المسيو شاتليه عن إرساليات التبشير البروتستانتية، تعكس حقيقة كبرى لم يستطع شاتليه نفسه أن يخفيها، وإن حاول ذلك بكلمات الشناء على أعمال تلك الإرساليات، والإشادة بمجهوداتها في مقاومة الدين الإسلامي، ألا وهي صمود الفكرة الإسلامية في وجه تلك الأعمال وبقائها حية في قلوب معتنقيها، كانت كل الدلائل التي ساقها شاتليه تشير إليها وتؤكد عليها في وضوح:

فهو حين يستشهد بما قدمته إرسالية التبشير الكاثوليكية في بيروت، يعترف بأن كلية القديس يوسف اليسوعية التي تدير أعمال هذه الإرسالية «لا تأثير لها على النشوء الفكري في المحيط الإسلامي» على الرغم من تعاليمها التي تنشرها في سوريا ومصر وتبثها بكثافة، ص 15.

وهو حين يستشهد بنص من رسالة أرسلها إليه القسيس صموئيل زويمر منشئ مجلة العالم الإسلامي بالإنجليزية من جزيرة البحرين، في 2 أغسطس 1911م، للدلالة على مطامع وأهداف أخرى لإرساليات التبشير، إلى جانب نشر التعاليم المسيحية، وبث الأفكار الأوروبية، نجد أن هذا النص يحمل معطيات تلك الحقيقة الناصعة، وإن لم يكن ذلك القسيس على قدر كافٍ من الشجاعة والموضوعية، بحيث يفصح عنها صراحة، وإنما حاول إخفاءها بستارة شفافة من الألفاظ، فهو يقول:

«ولا ينبغي لنا أن نعتمد على إحصائيات (التعميد) في معرفة عدد الذين تنصروا رسمياً من المسلمين، لأننا هنا واقفون على مجرى الأمور ومتحققون من وجود مئات من الناس انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم واعتنقوا النصرانية في ظرف خفي» ص 17.

ويبدو أن المسيو شاتليه لم يستطع أن يخفي تلك الحقيقة التي كان يحس بوجودها، فسارع إلى إقرارها بقوله: «ولا شك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس متحليها» ص 17.

ومن ثم فهو لم يسلم بما يقوله «زويمر» عن وجود مئات من المسلمين

اعتنقوا النصرانية وينتظرون الفرصة للجهر بها باعتبار أن هذا أمر لا يمكنه - كما يقول - البت فيه مع صديقه القسيس!! ص 18.

وييني مسيو شاتليه رفضه هذا على معرفته بأن التنصير قد يتم مع «بعض أفراد ينتمون إلى أصل فارسي أو هندي، لأن اختلاف النحل والاعتقادات في هذه العناصر هو من مزاياها الاجتماعية، وكذلك الحال في الوسط السامي المتصل بالأصل العبراني، ولكن من النادر المستغرب أن تقع حوادث التنصير في بيوت السادة العلوية، وبين الباتان (الأفغانين) الخالص الموجودين في بلاد الهند، أو مشايخ الهند وجيرانهم الأفغانيين والأترك والتركمانيين والعرب الحقيقيين والبربر» ص 18 - 19.

وهنا يبرز سؤال يطرح نفسه بشدة، ما معنى أن يقر المستشرق شاتليه في مقدمة بحثه الذي اختار له عنواناً يكشف عن محتواه وأهدافه (الغارة على العالم الإسلامي)، بحقيقة عجز الإرساليات التبشيرية في تنصير المسلمين وتحويلهم عن دينهم الحنيف؟ ليس هذا الإقرار والتسليم من باب الجنوح إلى السلم وكفى وإنما هو - في الواقع - بمنزلة التنبيه وإعادة النظر في حسابات العمل الإرسالي التبشيري، والبحث عن تكتيك آخر يتم به الغارة على العالم الإسلامي وفتحه.

ولقد تكررت صيغة ذلك التكتيك المطلوب في أكثر من موضع من مقدمة المسيو شاتليه، وكأني به يصرخ في وجوه القائمين على أعمال الإرساليات التبشيرية في البلاد الإسلامية أن لامندوحة لهم من تبني هذا التكتيك، إن أرادوا تحقيق غاياتهم الدينية والسياسية والاقتصادية مع تقديره للطريقة التي يسلكونها ونتائجها المحدودة.

ولنفراً صيغة هذا التكتيك كما يتصوره شاتليه الذي يقول: «ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنياً قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية، ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته» ص 31. أي إن العمل الإرسالي التبشيري يجب أن يكون منطلقه في البداية التأثير على عقول النشء من أبناء الإسلام وقلوبهم، بحيث يتناول سلوكهم وجوانب التربية عندهم.

ولنتابع مجرى هذا التكتيك كما جاء على لسان شاتليه الذي يقول أيضاً:
إنّ «الغرض العام الذي نحن نتوخاه، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنسية، نظراً لما اخص به التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنية على قوة الإرادة، وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيز الفعل، ليثبت في دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنسية» ص 14.

كذلك، فإن زحزحة العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها لا تتم - في نظره - «إلا ببيت الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوروبية، فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يتحكّم الإسلام بصحف أوروبا وتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيائها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها» ص 17 - 18.

وهكذا شهد شاهد من أهلها!!

فعلى الرغم من أن المسيو شاتليه يقرر أن إرساليات التبشير «اشتهرت بخططها ووفرة الوسائل التي أعدتها وتوسلت بها لمقاومة دين الإسلام» ص 15. ولدى هذه الإرساليات «أموال جسيمة وتدار أعمالها بتدبير وحكمة» ص 16 فإن تأثيرها في البلاد الإسلامية لم يتجاوز بث الأفكار الأوروبية ونشرها!!
لذلك، فهو يستنجد بالجامعة الفرنسية لتساعد تلك الإرساليات على هدم الفكرة الدينية الإسلامية من خلال نشر اللغات الأوروبية!

بعد هذا، هل لنا من تعليق على موقف المستشرقين من الإسلام سواء أسفروا عن وجههم الحقيقي وأعلنوا عن أهدافهم صراحة، أم تلونوا بالوان المهادنة والمسالمة المؤقتة؟ هل لنا من تعليق على موقفهم من المسلمين، وإن اتخذ احتكاكهم بهم وتعاملهم معهم مظاهر شتى، مثل نشر التعليم وتأسيس المدارس وبناء المستشفيات وما إلى ذلك من الوسائل التي تروحي في الوهلة الأولى بالجانب الإنساني فيها؟

من الواضح أن شغل المستشرقين والإرساليات التبشيرية الشاغل هو

الدين الإسلامي الحنيف... الفكرة الدينية الإسلامية التي تقلق راحتهم وتقض مضاجع من في قلوبهم زيغ، هذا من ناحية، ومن ناحية إذا كانت هذه الفكرة الدينية الإسلامية لم تحفظ كيانه كما يقول شاتليه - إلا بعزلتها وانفرادها، فلم هذا الضجيج؟ وعلام تدل تلك المجهودات الجبارة التي تسندها الأموال الجسيمة وتدعمها وفرة الوسائل والإمكانات مع التدبير المنظم والتخطيط المحكم؟

الجواب ببساطة... .

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ التوبة: 32.

إن أسلوب التكتيك الذي يجب أن يتبع لكي تهدم الفكرة الإسلامية في عقول معتنقيها لا يقف في نظر المستشرق شاتليه عند حدود تلك الأهداف التي سبق أن وضحتها، والتي لا تكفي بتغيير أوضاع المسلمين وخصائصهم الاجتماعية لكونها غاية قصوى، وإنما ينصح الإرساليات التبشيرية بأن لا تتوقع «من جمهور العالم الإسلامي أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى، إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية». بل عليها أن تدرك - في رأيه - أن «الضعف التدريجي في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية، وما يتبع هذا الضعف من الانتقاص والاضمحلال الملازم له - سوف يفضي - بعد انتشاره في كل الجهات - إلى انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر» ص 19.

ومبعث إيمانه بجدوى هذا الأسلوب، تلك الحقيقة التي نراها تقلق راحته عبر كلماته وسطور كتاباته، فهو يقول «بأن سير العالم الإسلامي تدرج نحو انحلال أفكاره الدينية وزوالها، وذلك أمر طبيعي ممكن التحقيق، أما فرض تدرج المسلمين إلى اعتناق المسيحية فخارج عن حد الإمكان لأن المسلم كالمسيحي واليهودي لا تجذبه التعاليم العصرية إلى الاعتقادات الدينية» ص 19 - 20.

وهنا - مرة أخرى - يقع شاتليه في مغالطة رفعها إليها إحساسه الباطن إن لم يكن يقينه الراسخ وهو يكتب هذا الكلام؛ أنه يدرك تمام الإدراك أن هناك

حقيقة ملموسة واقعة؛ مرة على نفسه، غصة في حلقه، وهي تلك الأعداد التي اعتنقت الإسلام وتركت المسيحية، والتي لم تقتصر على زمرة من الناس، بل شملت فئة العلماء والمفكرين، الذين هدتهم الفطرة ورجاحة العقل وطول التأمل في الكون والحياة إلى سلامة العقيدة الإسلامية، وشمولية منهجها لكونه نظاماً حياتياً صالحاً للإنسان في كل زمان ومكان.

إنه ينكر هذه الحقيقة - في الظاهر - بل ويتخطاها ليساوي المسيحي بالمسلم في تمسكه باعتقاده الديني ومقاومته للتعاليم العصرية!! ثم هل هو يسلم حقاً بأن للإسلام تعاليم عصرية يطرحها في بداية هذا القرن حتى تكون مصدر جذب واهتمام المسيحي واليهودي معاً!!؟

ونأتي على بقية مقدمة المسيو شاتليه، لنجد فيها بعض الخيوط الأخرى المتعلقة بذلك التكتيك، الذي ينادي به، وينصح باتباع خطواته لهدم الفكرة الإسلامية ونكتشف بعض الوسائل الأخرى التي يستخدمها الأسلوب التبشيري، وتكمن في مراجعة الأعمال التبشيرية وتحليل نتائجها، حيث يقول: «إنه مهما اختلفت الآراء في نتائج أعمال المبشرين من حيث الشطر الثاني من خطتهم وهو (الهدم) فإن نزاع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائماً للمجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية» ص 20.

أما الخيط الآخر فهو مراعاة التوقيت المناسب للعمل التبشيري حتى يؤدي أكله وتجنّي ثماره، إذ يقول: «والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوروبية، إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية، ولن يمضي غير زمن قصير حتى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبية» ص 20.

وشاتليه حين يشير إلى التقسيم السياسي الذي طرأ على العالم الإسلامي وليس على الإسلام!! إنما يقصد تقسيم السلطنة العثمانية بوصفها واثرة الخلافة الإسلامية، وإلى حين أصبح العالم الإسلامي «هدفاً لغلطات فتیان جمعیة الاتحاد والترقی، الذین ورثوا عبد الحمید واستعانوا بوسائله السیاسیة بعد أن خلعوه، ولم تكن أمامهم وسيلة لإنقاذ السلطنة العثمانية والخلافة

الإسلامية غير تنظيم حكومة مؤتلفة من ولايات إسلامية متحدة، وكل وسيلة غير هذه كانت تؤدي إلى نتيجة لا بد منها وهي تقسيم المملكة» ص 21.

إن شاتليه - بلاشك - يبارك في قرارة نفسه خطوات هذه الجمعية التي اتخذتها بعد خلعها السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1908 والتي أدت بالفعل إلى تفكيك السلطنة العثمانية وزعزعة أركان الخلافة الإسلامية على الرغم من تنظيمها «حكومة مؤتلفة من ولايات إسلامية متحدة» وهي الخطوة التي رآها شاتليه الوسيلة الوحيدة التي لا مفر من الاستعانة بها لإنقاذ السلطنة العثمانية وبالتالي الخلافة الإسلامية بوصفها رمزاً لها.

إن الهدف التبشيري الكبير الذي قام به فتان جمعية الاتحاد والترقي نيابة عن جهود المستشرقين، وأعمال جمعيات الإرساليات التبشيرية، تحقق بهذه الوسيلة التي اعتقد شاتليه أنها أنقذت السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية، وإن «كل وسيلة غير هذه كانت تؤدي إلى نتيجة لا بد منها وهي تقسيم المملكة». أما الخيط الثالث والأخير من هذا التكتيك فهو ذلك التودد المزيف للمسلمين، وإظهار الحرص على مصالحهم العامة، في الوقت التي تكشف فيه الكلمات والسطور إضمار الانقضااض على العالم الإسلامي وفتحته والدعوة إلى المزاحمة والمسابقة للسيطرة على أهم الأسواق البشرية على حد تعبير شاتليه؛ استمع إليه حين يقول:

«قد يظهر لإخواننا المسلمين أننا نتصرف في مستقبلهم بحرية وبلا تكليف ولكن من منهم ينكر أن العالم الإسلامي أصبح هدفاً لغلطات فتان جمعية الاتحاد والترقي» ص 20/21؛ أو قوله «لم نقصد غير تقرير حقيقة راهنة عندما نبهنا المسلمين من قراء مجلتنا - قبل احتلال طرابلس الغرب بستة أشهر - إلى ما تخبئه الأيام للأستانة التي تقع بين مخالب ألمانيا وروسيا» ص 21.

ولكن سرعان ما ينسى هذا التودد والحرص على مصلحة إخوانه المسلمين، حين يعقب على ذلك بقوله: «إن إرساليات التبشير البروتستانتية الأنجلوسكسونية تعلق أهمية كبرى على الحال الجديدة التي ظهر بها العالم الإسلامي» ص 21.

وأخيراً؛ يبدي شاتليه إعجابه بأعمال إرساليات التبشير الألمانية وبارك مؤتمري سنة 1906 و1911 اللذين عقدا بمشاركة إرساليات التبشير البروتستانتية الأنجلوسكسونية، وإرساليات التبشير الألمانية، بهدف تقوية الأواصر وتمتين الروابط فيما بينهما، وتوحيد الجهود من أجل تحقيق الغاية الكبرى، ألا وهي زعزعة العقيدة الإسلامية في نفوس أصحابها؛ داعياً رجال فرنسا لمزاحمة هذه الإرساليات والعمل على أن تدخل فرنسا حلبة المسابقة في نشر التعليم النقلي بوصفه خطة جديدة بالاهتمام، لذلك يأمل من ذوي الشأن في إرساليات التبشير البروتستانتية ألا ينكروا علناً انتهاج هذه الخطة التي هي خطة مجلته لأنهم - كما يقول: «أعلم الناس بعواطفنا وشعورنا نحو عملهم» ص 23.

حقاً؛ إنها وقفة طويلة مع مقدمة المسيو شاتليه (ص 13 - 23) رأينا أن نقفها لأنها تضيء متابعتنا لبقية الكتاب، وتساعدنا في فهم وتحليل ما جاء فيه من عرض تاريخي للعمل التبشيري في بعض الأقطار العربية والإسلامية؛ فهذه المقدمة - في نظري - خلاصة الكتاب الذي بين أيدينا، والكلمة المبتغاة من إنشاء الفصول التي جاءت في أعقابها (ص 27 - 26).

يبد أن ذلك لا يمنعنا من تلخيص فحوى هذه الفصول التي افتتحت ببحث عن (تاريخ التبشير)، اعتمدت مجلة العالم الإسلامي في عرضه على كتاب «مشروع التبشير» الذي ألفه المستر (أدوين بلس) البروتستانتى؛ وقد أعاد طبعه بعد «أن زاد عليه زيادات أخرى وسماه (ملخص تاريخ التبشير)، ذكر فيه إرساليات التبشير البروتستانتية على اختلاف نزعاتها ومشاربها منذ نشأتها في القرون الغابرة، إلى أيام الطبعة الثانية للكتاب، مع بيان لما بين هذه الإرساليات من ارتباط وتضامن» (ص 27).

وقد أثنت المجلة على هذا الكتاب وعدته نفيساً في باب، لأنه يتسنى لقارئه أن يقف على حقيقة أعمال الإرساليات البروتستانتية في بلاد الإسلام حتى أواخر القرن التاسع عشر، وقامت بتقديم ملخص لمحتوى قسميه (ص 27 - 45)؛ جاء القسم الأول تحت عنوان (تاريخ التبشير العام وطرائقه)، والثاني حمل عنواناً أكثر وضوحاً (موقف الإرساليات البروتستانتية وأعمالها في

البلاد الإسلامية). ومن العرض السريع للقسم الأول نعلم أن تاريخ التبشير المسيحي يرجع إلى صدر النصرانية ومبتدأ تأسيسها؛ وأن «ريمون لول الإسباني» أول من تولى التبشير بالنصرانية في القرون الوسطى بعد أن أخفقت الحروب الصليبية في مهمتها، وأن المبشرين الكاثوليك لعبوا دوراً كبيراً في ثورة البوكسر الصينية، وتدخلوا في شؤون القضاء، غير أن المسلمين، كما يقول المؤلف هناك، كانوا ينظرون إلى الطقوس والاحتفالات الكاثوليكية باشمئزاز! وقد وصفت المجلة هذا القول بأنه لا يشف عن محبة مسيحية!! كما نعلم أنه كان هناك تنظيماً تسير عليه إرساليات التبشير في القرون الوسطى في الهند والجزائر والسند وجاوه، وأنه تم اختلاط المبشرين بالمسلمين منذ ذلك الحين، وأن اهتمام هولندا بالتبشير في جاوه يعود إلى أوائل القرن الثامن عشر، وأن عدد الذين تنصروا سنة 1721 بلغ 100 ألف وكان عدد النصارى في سيلان (وكانت يومئذ تحت سلطة هولندا) 424 ألف سنة 1722.

وهنا يتساءل المؤلف عما بقي منهم الآن؟ فيجيب بقوله «إن المسلمين كانوا فيها قليلين فصاروا الآن فئة كثيرة» ص 31 تلك هي إذ النتيجة!!.

ومن المعلومات التي يقدمها هذا القسم أن البارون «دو ويتز» عمل على تحريك ضمائر النصارى سنة 664 لتأسيس مدرسة (كلية)، تكون قاعدة لتعليم التبشير المسيحي، وتعلم فيها لغات الشرق للطلاب الذين يناط بهم أمر التبشير، على أن يعهد إلى الأروام بمسؤولية تبشير الأتراك، إلا أن هذا المشروع كان نصيبه الإخفاق الذريع.

ونعلم أيضاً من سرد الجزء الأخير من هذا القسم، الذي يتناول تاريخ تنظيم الإرساليات التبشيرية البروتستانتية في القرنين الأخيرين، وإنشاء الجمعيات المسيحية العديدة، أنه على الرغم من كثرتها لم يتمكن المؤلف من الإشارة إلى نتائج أعمالها في بلاد الإسلام، وتوضيح مدى تأثيرها وإنما اكتفى بتاريخ نشاطها في ديار المسلمين ونوعية اهتماماتها وخدماتها. كما تبين لنا أن وسائل الإرساليات كانت حتى وقت متأخر من القرن الثامن عشر، منحصرة في بناء الكنائس وإنشاء المدارس لتعليم التبشير المسيحي، وتدريب لُغات

الشرق، وتأسيس الجمعيات التبشيرية، بالإضافة إلى تأسيس إرساليات تبشير طبية تلحق بالإرساليات العامة وقد تألفت لها أقسام نسائية وأرسل بعضها إلى الهند والأناضول» ص 33.

بعد ذلك تلخص المجلة القسم الثاني من كتاب أودين بلس «ملخص تاريخ التبشير وهو الخاص ببيان مراكز تنظيم الإرساليات وإدارة أعمالها في كل قارة ينتشر فيها الإسلام وقد جاء في تركيز واضح، فبخصوص أفريقيا تقتبس المجلة فقرة المستر (بلس) التي يقول فيها: «إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طرق تقدم التبشير بالنصرانية في أفريقيا، والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا وإن الخصم المعارض هو الشيخ أو الدرويش صاحب النفوذ في أفريقيا» ص 36.

ثم يستعرض هذا القسم الدعوات الدينية التي عرفت في القرن التاسع عشر مثل، المهدية في السودان، والسنوسية في ليبيا، وما يقوم به الأزهر في مصر من حماية للإسلام في وجه التبشير المسيحي، ولكن كان هذا الاستعراض في صورة مضللة، فعلى سبيل المثال يذكر أن الشيخ يبث «في الأهالي أن المهدي ينتظر ظهوره وينشر الإسلام في كل الأقطار، وقد ظهر مهدي منذ سنتين فحارب الإنجليز ثم توفي، فتولى الأمر بعده خليفة غلب على أمره، وأما الشيخ السنوسي العدو الألد للنفوذ الفرنسي والإنجليزي فله تقاليد أخرى. . إن طلبة الأزهر يعتقدون بالمهدي وأما المغاربة فلا يزال يدور في خلدكم إمكان الجهاد» ص 36 - 37.

ومن خلال استعراضنا لهذا القسم نقف على الجهود المكثفة التي كانت إرساليات التبشير تبذلها تجاه أفريقية، منذ دخولها لأول مرة في القرن الخامس عشر، أي في أثناء الاكتشافات البرتغالية كما هو معروف لدى المشتغلين بالتاريخ. ونعلم أيضاً أن جمعية الكنيسة البروتستانية لم تهتم بالتبشير في أفريقية العربية، ولم تكثف جهودها إلا منذ سنة 1804، حيث عملت على محاربة سلطة الإسلام المتدفق في النيجر الغربية بمؤازرة الأسقف (صموئيل كروتز) الزنجي. ص 37.

وفي هذا القسم أيضاً نتبين كثرة جنسيات الإرساليات التبشيرية وتعدددها، بداية من نشاط (ريمون لول) الإسباني الذي سبقت الإشارة إليه، ومروراً بمبشري هولندا وانتهاء بالارسلاليات اللانمركية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والأمريكية والسويدية والنرويجية والسويسرية والاسكوتلندية. لقد انتشرت هذه الإرساليات التبشيرية المتعددة الجنسيات في أفريقية الشرقية، وأرسل المبشرون إلى الحبشة وأفريقيا الغربية، حيث هبطوا مدينة (ممباسا) وأوغندا، وإلى أفريقيا الوسطى التي توافدوا عليها عقب بعثة (لفنستون) و(ستانلي) سنة 1878م بدون انقطاع. «أما بلاد المغرب فلها مبشرون خاصون بها ترسلهم (جمعية تبشير شمال أفريقية) وهم منتشرون في المغرب والجزائر وتونس وسائر بلاد المغرب» ص 39.

ثم تلخص المجلة أعمال التبشير في آسيا الغربية التي كانت للمبشر (هنري مارتين) يد طولى في إرسال المبشرين إليها، ووضحت كيف أن الإرساليات عمت الأناضول وفلسطين، وفتحت لها مراكز في أزمير والقسطنطينية بتركيا وفي بيت المقدس، وأنه في سنة 1846م تأسست الكنيسة البروتستانتية في الأستانة التي صارت «مركزاً عاماً آمناً لأعمال المبشرين» ص 14، كما وضحت كيف عمل المبشرون على «ترجمة الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) إلى كل لغات الشرق بأسلوب سهل يتسنى فهمه لكل الطبقات» ص 42.

وعلى الرغم من كل ذلك، تشير المجلة إلى ما جاء في كتاب (بلس) عن موقف الحكومات الإسلامية من إرساليات التبشير في بلاد آسيا الغربية، الذي كان يختلف باختلاف هذه البلاد، حيث نقرأ أن «القبائل المستقلة في بلاد العرب عدوات لدودات للمبشرين»، «وأن» الحكومة العثمانية تبدي ضروب الاستبداد نحو المبشرين على اختلاف مذاهبهم، بسبب الدور السياسي الكبير الذي يمثلته نفوذ المبشرين على مسرح المسألة الشرقية» ص 41 - 42.

كما نقرأ مخاوف المستر (بلس) من «الدور الذي ستقوم به الدولة العثمانية في الحوادث المقبلة!» (يعني تحرشات لاحتلال ليبيا) ما دامت القبائل

السنوسية الشديدة البأس متجهة نحو السلطنة العثمانية، التي يحكمها أمير المؤمنين وفيها بيضة الإسلام، ومثل السنوسيين الأمم الأخرى البعيدة عن الأستانة، مثل بخارى وخيوه والهند والبلاد الإسلامية الشاسعة» ص 42.

كما تستعرض المجلة تاريخ التبشير وانتشار الإرساليات في الهند، وقد تعددت جنسياتها هي أيضاً بين إنجليزية وأمريكية واسكوتلندية وهولندية ونرويجية وغيرها، موضحة كيف أن مبشريها «قد وقعوا في الحيرة - في بادئ الأمر - لأنهم لم يعلموا بمن يبدأون التبشير، وهل يسهل بث النصرانية في البراهمي أو المسلم المتنور أو الهندي العامي؟ ثم اهتموا إلى التقاط الأطفال الذين بعضهم ناب الفاقة والفقر؛ فيحسنون إليهم ويستجلبونهم نحوهم» ص 43.

أما في جزائر الملايو التي اعتنق أهلها الإسلام في القرن الثالث عشر؛ فقد ذهبت إرساليات كثيرة للتبشير بالنصرانية (ص 44). كذلك يعود تاريخ التبشير في مملكة الصين إلى بدايات القرن التاسع عشر؛ فقد أشار كتاب (بلس) إلى أن مملكة الصين التي يوجد بها مسلمون كثيرون - وإن كانوا بعددهم قليلين بالنسبة إلى مجموع سكان البلاد - عرفت إرساليات التبشير في سنة 1813. ص 45.

أما عن بقية الكتاب الذي نستعرضه فهو تلخيص لما دار في ثلاثة مؤتمرات تبشيرية عقدت ما بين سنة 1906 - 1911؛ يقدم معلومات هامة عن نتائجها. ففي الصفحات (47 - 74) نجد لمحة عامة عن أعمال مؤتمر القاهرة التبشيري سنة 1906 الذي ابتكر فكرته القسيس (زويمر)، رئيس إرسالية التبشير العربية في البحرين؛ ومن خلال هذه اللوحة نعرف أن هذا المؤتمر عقد يوم 4 إبريل 1906 في منزل عرابي باشا في باب اللوق بالقاهرة، وأن عدد الحاضرين 62 بين رجال ونساء؛ يشكلون جميعهم مندوبي إرساليات التبشير الأمريكية والإنجليزية والاسكوتلندية والألمانية والهولندية والسويسرية والدانمركية. وقد تضمن جدول أعماله الموضوعات التالية:

1 - ملخص إحصائي عن عدد المسلمين في العالم.

2 - الإسلام في أفريقية والسلطنة العثمانية والهند وفارس والملايو والصين .

3 - النشرات التي ينبغي إذاعتها بين المسلمين المتنورين والمسلمين العوام .

4 - التنصر .

5 - الارتداد .

6 - وسائل إسعاد المتنصرين المضطهدين .

7 - شؤون إسلامية نسائية .

8 - تربية المبشرين والعلاقات بينهم وكيفية التعليم في الإسلام .

أما عن البحوث والمحاضرات التي تناولت هذه الموضوعات وقدمت إلى هذا المؤتمر، فقد جمعت في كتاب كبير حمل عنوان (التبشير بالنصرانية بين المسلمين)، كما وضع رئيس المؤتمر (زويمر) كتاباً آخر فيه بعض التقارير عن التبشير سماه (العالم الإسلامي اليوم) ص 51.

وباستعراض الكتاب الأول الذي اعتنى بجمعه ونشره القسيس (فليمنج FILMING) الأمريكي، والذي كتب عليه عبارة (نشرة خاصة)، قاصداً بذلك أن يطبع ليتداول بين أيدي فئة خاصة من رجال التبشير لا ليطلع عليه كل الناس . باستعراض هذا الكتاب تبين أنه يحوي خمسة فصول؛ تناول كل فصل منها مبحثاً من المباحث التي دار النقاش حولها في مؤتمر القاهرة، وما انتهت إليه هذه المباحث من نتائج وقرارات، وخاتمة وجه (فليمنج) من خلالها نداءين «استنهض بأحدهما رجال النصرانية ليجمعوا قواهم ويتضافروا بأعمال مشتركة وعمومية فيستولوا على أهم الأماكن الإسلامية، والنداء الثاني خاص بأعمال النساء» ص 52.

لقد بحث الفصل الأول في «الطريقة التي ينبغي انتهاجها في التبشير، وعمّا إذا كان مفيداً ضم إرساليات تبشير المسلمين إلى إرساليات تبشير الوثنيين، وفضل بقاءهما منفصلين»، في حين تحدث الفصلان الثاني والثالث -

وهما أخطر فصول هذا الكتاب - عن «الصعوبات التي تحول دون تبشير المسلمين العوام، وذكر الوسائل التي يمكن استغلالهم بها وتحجيب المبشرين إليهم»، وعدداً أهم هذه الوسائل، وقد اختتما بإقرار أن أكثر المسلمين الذين تنصروا إنما هم من العامة والأمين.

أما الفصل الرابع فقد خصص لذكر الصعوبات التي تقف في سبيل تبشير المسلمين المتنورين، وبحث الوسائل التي يكون لها تأثير - ولو قليلاً - على الناشئة الإسلامية لتدرك الأمور الاجتماعية والخلقية والأدبية، ص (54). وقد أشير في هذا الفصل أنه على الرغم من مضي ثلاث سنوات على تنفيذ بعض تلك الوسائل، مثل إلقاء المحاضرات في موضوعات لا تتطرق للدين، رغبة في جلب قلوب المسلمين، وإنشاء مجلة أسبوعية فيها باب غير ديني، يبحث في الشؤون الاجتماعية والتاريخية، وتأسيس مكتبة لبيع الكتب بأثمان زهيدة بغرض استغلال الزبائن ومحاذئتهم في أثناء البيع. . على الرغم من كل هذه الوسائل فقد كانت النتائج سلبية في مجال التنصير إذ الأمر لم يتعد معرفة أحوال البلاد وأفكار المسلمين وشعورهم وعواطفهم وميولهم، والحصول على ثقة عدد من المسلمين بهم، والتحقق بأماكن الدخول إلى قلوب المسلمين!! ص 55.

وانتهى هذا الفصل بوقفة تناولت تحرك المبشرين في ضوء تلك النتائج، وهو تحرك اتخذ مساراً عملياً مثل مساعدة «الشبان المسلمين في تأسيس جمعية الغرض منها إيجاد صلة وتقرب بين الطبقة المتعلمة والطبقات المتعددة، التي تتألف منها الأمة، وإنماء روح الاتفاق» ص (56). وهي مجهودات خصت بها الشبيبة الإسلامية التي تعلمت على الطريقة الأوروبية وفي مدارس الحكومة!! «أما الذين تعلموا على الطريقة الشرقية في الأزهر وما يماثله، فلم يتكلم أعضاء المؤتمر عنهم إلا بعض اقتراحات ونظريات» ص 57. وقد انصبت هذه الاقتراحات والنظريات حول الأزهر ودوره، ومدى إقبال الألوف عليه من الشبان المسلمين في كل أقطار العالم، وسر نفوذه منذ ألف سنة إلى الآن!! مما يشكل كل هذا خطراً يهدد كنيسة المسيح!! ومن ثم كان

الاقترح» بإنشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها، وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية في الدنيا على اختلاف مذاهبها، لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة، وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربية» ص 57 - 58، وقد وقع الاختيار على مصر لتكون مركز عمل المبشرين والمكان الذي يحتضن إنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية.

وتناول الفصل الخامس والأخير ما دار في المؤتمر من نقاش حول النشرات التي ينبغي للمبشرين إذاعتها لتنصير المسلمين، ومسألة إرساليات التبشير الطبية، ووجوب الإكثار منها «لأن رجالها يحتكون دائماً بالجمهور ويكون لهم تأثير في المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين» ص 60 موضحاً ذلك بنموذج من نشاطات الأطباء المبشرين، ونحاحاتهم في تنصير بعض مرضاهم الذين يعالجون في مستشفيات الإرساليات.

كما تناول هذا الفصل موضوع (الأعمال النسائية في التبشير)، الذي أولاه أعضاء المؤتمر اهتماماً كبيراً، لأنه خاص بنصف مسلمي العالم، ووضح كيف أن السيدات المبشرات قد تناوين «الخطابة في أخبار نجاحهن في المناطق التي انتدبن للتبشير فيها» مع حثهن المبشرين على الرفق بالمرأة المسلمة، وأشرن إلى أن المدارس والعيادات الطبية وزيارة قرى الفلاحين، وسائل ناجعة في نشر النصرانية بين طبقات الناس. كما تحدث المؤتمر عن موضوع تربية النساء اللاتي يتطوعن للتبشير، وعن «الأركان التي يشترط توافرها في الشخص المنصر أو النصراني الشرقي، الذي يدخل في المذهب البروتستانتي» وقد تساءل الحاضرون عما إذا كان المسلم المتنصر أهلاً لنشر النصرانية؟.

بعد ذلك ناقش المؤتمر شأن «المتنصرين المضطهدين، ووسائل استخدام المخلصين منهم» ص 66، فضلاً على تحديد شروط التعميد أو الشروط التي يجب أن تتوافر في المسلم المتنصر ليكون أهلاً للتعميد!! وتعرض إلى موضوع يتناول الكيفية التي يتقرب المسلمون بها من التنصير في ضوء ما تؤكدته نتيجة الأبحاث التي أجراها القسيس (هاريك) في بلاد السلطنة العثمانية وخلاصتها «أن لا فائدة لطريقة المناظرة والجدل، أما ترجمة الإنجيل

وكتب التبشير إلى اللغة التركية بدون مناقشة ومجادلة فكانت أكثر فائدة وأعم نفعاً ص 68.

كما خاض المؤتمر في موضوعات تبشيرية كثيرة «منها كيفية عرض العقيدة النصرانية والمناظرة فيها، والوسائل التي يجب التدرج بها لنشر مبادئها والتحكك بالنفوس الإسلامية، والوقوف أمام صبغة الإسلام والصفات التي ينبغي أن يتصف بها مبشر المسلمين بالنصرانية والإنجيل» 70 - 71. وتوقف المؤتمر عند الموضوع الأخير حيث طرح بعض القساوسة والأساتذة تصوراتهم، وما يجب أن يتحلى به المبشر الذي يعد نفسه لمجادلة المسلمين في أمور الدين.

بهذا اختتم مؤتمر القاهرة لعام 1906 مناقشاته التي استهدفت تبشير المسلمين وتنصيرهم بشتى الوسائل وكل الطرق.

أما الصفحات (75 - 105) فإن الكتاب - الذي بين أيدينا يستعرض فيها ما جاء في كتاب (العالم الإسلامي اليوم) الذي نشره القسيس (زويمر) رئيس إرسالية التبشير في البحرين بمؤازرة زملاء له وتشجيعهم. في هذا الكتاب جمعت «تقارير ومباحث تاريخية واجتماعية كتبها المبشرون عن حال المسلمين القاطنين في مناطقهم التبشيرية، وتتلو هذه التقارير خلاصة من أعمال المبشرين التي قاموا بها في الأصقاع المختلفة وما نتج عنها من انتشار الدين المسيحي» ص 77.

ضم هذا الكتاب مقدمة ألح فيها كاتبوها على ضرورة تنصير المسلمين الذين أهمل المبشرون أمرهم، وأشاروا إلى الفكرة التي تبناها إمبراطور أهم إمبراطورية أوروبية في خطاب ألقاه على بعض المبشرين «كانت تشف عن الحكم على الإسلام من الوجهة الخلقية عامة والدينية خاصة». وفحوى هذه الفكرة «أنه لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الإسلامي، الذي اقتحم قارتي آسيا وأفريقيا الواسعتين، وبث في مائتي مليون من البشر عقائده وشرائعه وتقاليده، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية فأصبحوا... كسلسلة جبال تناطح السحاب وتطاول السماء، مستنيرة ذرواتها

بنور التوحيد، ومسترسلة سفوحها في مهاوي تعدد الزوجات وانحطاط المرأة. ص 78.

في ضوء هذه الفكرة قرر ناشرو الكتاب «أن الكنيسة المسيحية ارتكبت خطأ كبيراً بتركها المسلمين وشأنهم، إذ ظهر لها أن أهمية الإسلام في الدرجة الثانية بالنسبة إلى ثمانمائة مليون وثني، رأت أن تشتغل بهم «وأنها بذلك» لم تعرف عظمة الإسلام وحقيقة قوته وسرعة نموه إلا منذ ثلاثين سنة فقط» ص 78 - 79. وضمت هذه المقدمة ببعض التنبيهات والنصائح للمبشرين تركزت في مجملها على كيفية التعامل مع المسلمين.

أما الفصل الأول من كتاب (العالم الإسلامي اليوم) فقد تحدث عن الإسلام في مصر، وتضمن ملخصاً لأعمال المبشرين البروتستانت في هذا القطر العربي، والوسائل التي يتدبرون بها، والنتيجة التي توصلوا إليها، وأهم معاهد التبشير فيه وهو الذي أسسته جمعية اتحاد مبشري أمريكا الشمالية سنة 1854، وما استطاعوا أن يتحكموا بواسطته بالمسلمين، وهو مؤلفاتهم ومدارسهم. فقد نشروا منذ 35 سنة بعضها ووزعوا بعضها الآخر، إلى جانب ما وضعوه من مؤلفات في الرد على الذين طعنوا في النصرانية، وما أقاموه من محاضرات عامة «مرتين في كل أسبوع للموازنة والمناظرة بين الإسلام والنصرانية يحضرها عدد عظيم من المسلمين ويسمح لهم أن يتكلموا» ص 81.

ويكشف هذا الفصل عن بعض الحقائق المقرونة بلغة الأرقام حيث يذكر أنه «في مدارس المبشرين في القطر المصري 3000 طالب مسلم، وخمس هؤلاء من البنات المسلمات».

كما يكشف عن محصلة المجهودات التي بذلت منذ بداية التبشير إلى سنة 1906، التي عقد فيها مؤتمر القاهرة وهي «أنه تنصر مائة وخمسون مسلماً، وأهم ما وقع من ذلك سنة 1903، وسنة 1904 فقد تنصر في الأولى 14 شخصاً وفي الثانية 12» ص 82 ثم عرض هذا الفصل ما تأسس في مصر من معاهد علمية للتبشير في السنوات 1882 و1892 و1898، وأشار إلى أهم وظائفها الذي كان تنصير المسلمين عن طريق فتح فروع لها ومدارس لتعليم

الإنجيل بوجه خاص . وكانت محصلة هذه المعاهد ونتائج مساعي مبشريها والعاملين بها هي تنصير قليل من الشبان والفتيات على الرغم من الوسائل المتعددة والمتنوعة ، والجهود المكثفة لبث مبادئ النصرانية بين المسلمين!! . وينتهي الحديث في هذا الفصل عن نشاطات إرساليات التبشير في مصر بالاعتراف بأن هذه الإرساليات تواجه عقبة وحيدة جعلتها عاجزة تماماً عن إزالة «الضرر الذي يحفها من مقاطعة المسلمين للمتنصرين وعدم إصغائهم لهم» ص 84.

أما الفصل التالي فقد تناول الإسلام في الهند، وبخاصة «عن حالة التبشير في شمال الهند وعن انتشار الإسلام ووسائل نشره، وأشار إلى دراويش جمعية (انجمن إسلام)، وذكر التقدم الفكري والاجتماعي الذي حدث في هذه الجهات، وأن الإسلام عرقل سير هذه الميول» ص 85. كما أشار إلى تاريخ التبشير في الهند الذي ابتداء منذ مائة سنة في لاهور، وذلك بفتح «باب الجدل في مسائل التوحيد والتثليث والوهية المسيح، وصحة الكتب المقدسة فتسبب عن ذلك قيام (أحمد بن زين العابدين) وتأليفه كتاب (الأنوار الإلهية في دحض خطأ المسيحية)» ص 85. كما اتخذ التبشير صوراً متعددة مثل التبشير بالإنجيل بترجمته إلى الفارسية والأوردية، وترجمة بعض الكتب من الفارسية إلى الأوردية، التي أثارت محاولات شديدة مع علماء الإسلام في بعض المدن الهندية، بقصد زلزلة «إيمان كثير من المسلمين، وإن يكن الذين تنصروا منهم قليلاً عددهم» ص 86.

ويذكر هذا الفصل أنه «وفي شمال الهند الآن ما لا يقل عن 12 جمعية تبشيرية بين إنجليزية وأمريكية وأسترالية، وكلها ترمي إلى غاية واحدة» وهي تنصير المسلمين. لقد اجتهدت هذه الجمعيات في تحقيق هذه الغاية منذ أن وطئت البلاد وكانت النتيجة - كما ترصدها تقارير الإرساليات - «إن من المسلمين المتنصرين من وصل إلى درجة المبشر... أما عدد المسلمين المتنصرين فلا تمكن معرفته من الاعتماد على الإحصائيات، ولكن عثرنا في تقارير سنة 1904 على أسماء إسلامية صار أصحابها قسيسين مبشرين. وعدد

المبشرين الذين من هذا القبيل 194. ويرى القارىء أسماء إسلامية في قوائم أعضاء اللجان الدينية في (شاوور) وغيرها» ص 88.

واضح أن حقيقة الأرقام مشكوك فيها ذلك أن الغرب الحرص على الإحصائيات والتوثيق والتدوين لم يتمكن هنا من معرفة الرقم الصحيح والدقيق لعدد المسلمين المنتصرين، وتعترف التقارير بأن الاعتماد على الإحصائيات لا يجدي!! وأن القارىء من قوائم أعضاء اللجان الدينية يرى أسماء إسلامية ويعجز عن إحصائها!!.

على أي حال، إن الحديث في هذا الفصل عن واقع حال الإرساليات التبشيرية في الهند ينتهي إلى القول بأن ثمرة التبشير في أواسط الهند «أضعف بكثير من ثمرة التبشير في شمال الهند على الرغم من اجتهد جمعية (تبشير الكنيسة) التي في (مدراس وحيدر آباد) على الرغم من تفاني إرسالية (زنانة) التبشيرية التابعة للكنيسة الإنجليزية. وكل المنتصرين في أواسط الهند عدد قليل في جهتين أو ثلاث. وفوق ذلك فإنه يكتب في هذه الجهات انتقال النصارى إلى الإسلام لأسباب مالية ومصالح شخصية، وجمعية (أنجمن إسلام) تنجح دائماً بما لها من النشاط في حمل عدد كبير من الهندوس والمسيحيين على اعتناق الإسلام» ص 88 - 89.

يلاحظ في الفقرة السابقة خيبة الأمل والنتائج الوخيمة لنشاطات التبشير في أواسط الهند على الرغم من اجتهد الجمعيات، وتفاني الإرساليات، وأن المنتصرين عدد قليل في جهتين أو ثلاث!! وفي المقابل كثرة انتقال النصارى إلى الإسلام واعتناق عدد كبير من الهندوس والمسيحيين للدين الإسلامي بفضل نجاح جمعية إسلامية واحدة فقط!!.

كما يلاحظ أن انتقال النصارى إلى الإسلام - في نظر تقارير الإرساليات - كان لأسباب مالية ومصالح شخصية، وليس نتيجة إقناع واقتناع بعقيدة هذا الدين وسماحته، في حين أن تنصير المسلمين هو رضوخ للحقيقة وموافقة وتسليم بمبادئ النصرانية!! وأن دراويش جمعية (أنجمن إسلام) قد نجحوا في حمل عدد كبير من الهندوس والمسيحيين على اعتناق الإسلام، بسبب

نشاطهم الذي لم توضح التقارير وسائله، وهي بالطبع ليست الوسائل التي تستخدمها الإرساليات التبشيرية، مثل فتح المدارس وإنشاء المستشفيات، وملاجئ للايتام، وتأسيس معاهد التبشير، وزيارة المبشرات للنساء في البيوت!!.

أما الفصل الثالث فيتناول (الإسلام في بلاد الترك العثمانية) مستعرضاً تقرير القسيس (أناتوليوكوس)، الذي لخص فيه أعمال وحركة التبشير في بلاد الترك العثمانية، مشيراً على، وجه الخصوص، إلى «أن الكتاب المقدس راجت نسخ ترجمته التركية رواجاً حسناً» ص 90. كما أشار التقرير إلى أن هناك عقبات تقف في طريق التبشير في سوريا وفلسطين، وقد أرجع بعضها إلى الحكومة، والبعض الآخر إلى حالة هذه البلاد الدينية، حيث تعج بالمذاهب المختلفة، وأن الدين فيهما مرتبط بالسياسة. ثم عدد أهم الوسائل التي كان يستخدمها المبشرون لتذليل تلك العقبات وقد تمثلت في الآتي:

- (1) توزيع نسخ الكتاب المقدس.
- (2) التبشير في مستشفيات المبشرين ومستوصفاتهم.
- (3) فتح المدارس والكليات وقبول أبناء المسلمين.
- (4) زيارة المبشرات لنساء المسلمين في المنازل.
- (5) توزيع الكتب والمؤلفات التبشيرية مجاناً.

وعلى الرغم من تعدد هذه الوسائل التي كان المبشرون يستخدمونها وتنوعها بهدف التبشير بين المسلمين وتنصيرهم، فإن خاتمة التقرير كانت صريحة في رصد خيبة الأمل وإنّ السؤال عن نتائج مجهودات مبشري المسلمين بالنصرانية في سوريا وفلسطين لا يجد «جواباً غير القول بأن الله وحده هو المطلع على مستقبل أعمالنا بين المسلمين وعلى نتائجها»، وإنّ تصفح الإحصائيات تبين «أن عدد المسلمين الذين تنصروا وتعمدوا هو عدد غير سار وغير مرضٍ، إلا أن هذا العدد مهما يكن قليلاً بذاته فإن أهميته أعظم مما يتصور المتصورون» ص 93.

ثم انتقل الحديث إلى التبشير في الجزيرة العربية والإشارة إلى تقرير القسيس يانغ الذي أدرك أهمية قول المبشر (وليم جيفورد بالكلراف) وفحواه أنه «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه» ص 94.

ثم أشار الحديث إلى كتاب (مهد الإسلام) الذي ألفه القسيس (زويمر) رئيس إرسالية التبشير في البحرين، والذي أتى فيه على ذكر إرساليات التبشير في جزيرة العرب مثل إرسالية التبشير العربية التي تأسست سنة 1889 م وهي تابعة لكنيسة الإصلاح الأمريكية، وقد انتشرت في البصرة والبحرين، ولها في البحرين، خمسة مبشرين، منهم طبيبان وامرأتان، ولها في البصرة أربعة مبشرين أحدهم طبيب، وفي (الشيخ عثمان)^(*) إرسالية تبشير دانماركية كان سلطان (مكلا)^(*) طردها من بلاده، وتوجد في الجزيرة إرسالية أخرى تمدها جمعياتها بالمال والإعانات ص 95 - 96. وقد ذكر القسيس (زويمر) في مؤلفه السالف ذكره النفقات الجسيمة التي تنكدها إرساليات التبشير في جزيرة العرب والمرتبات العالية للمبشرين والموظفين وبائعي الكتب التي تساوي ثلاثة أضعاف مرتبات أمثالهم في الهند.

ومحصلة كل هذا كما يوضح القسيس (زويمر) لم تتجاوز القول بأن «المبشرون في بلاد العرب اتخذوا لهم مراكز تمهد لهم سبيل التوغل في داخل الجزيرة» وأن المرضى من سكان هذه البلاد «يشدون الرحال من أصبغ بعيدة إلى مستشفيات المبشرين في الموصل وبغداد والبصرة والبحرين والشيخ عثمان وعدن» وأن «التعليم المدرسي والتربية الأخلاقية اللذين يعنى بهما المبشرون قد أسفرا عن نتائج جمة وأثمرات نافعة في الأطفال والمراهقين على السواء!!» ص 96 - 97.

بل إن تقييم نتائج أعمال المبشرين في بلاد العرب التي وصفت بأنها أعمال خيرية، جاء على نحو يؤكد خيبة المسعى. حيث يقول هذا التقييم:

(*) الشيخ عثمان اسم مكان في جوار عدن. والمكلا ثغر في حضرموت شرقي عدن.

«إن من المتعذر تعيين نتائج هذه الأعمال الخيرية، إلا أن ما يدعو إلى الاغتراب والسرور، أننا اقتطفنا ثمرات أعمالنا في كل منطقة من مناطق التبشير» ص 98، وقد تمثلت هذه الثمرات في الاهتمام الحقيقي بالتعاليم النصرانية وبيع ألوف من نسخ الكتاب المقدس، وكميات وفيرة من الكتب والكراسات والمجلات، وزيادة عدد المترددين من المرضى على مستشفيات المبشرين. أما عن تنصير المسلمين في مناطق التبشير وعددهم، فلا شيء يذكر، ولا أرقام رصدت، كما كان الأمر في تقارير أخرى.

وتتحدث بقية صفحات كتاب القسيس (زويمر) عن التبشير في فارس (إيران) من خلال تقرير وصف بأنه «لا يختلف عن التقارير المتعلقة بتبشير البلاد العثمانية من حيث قلة مادته» وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته لإرساليات التبشير في بلاد فارس التي صارت أبوابها - كما يقول التقرير - مفتوحة للمبشرين بالإنجيل أكثر من غيرها، إلا أن «عدد المتنصرين لا يزال قليلاً» وإن كابر كاتب هذا التقرير في قوله بأن هناك «جمعيات صغيرة مسيحية» منتشرة في كل مكان وصل إليه المبشرون) اندمج فيها المتنصرون الفارسيون من نساء ورجال» وأن «عددًا عظيمًا من المسلمين ينتمي إلى النصرانية سرا» ص 100..

أما عن الوسائل التي استخدمها المبشرون في بلاد فارس فلم تخرج عن دائرة الإرساليات الطبية من نساء ورجال، ورحلات المبشرين إلى الدواخل، والأعمال النسائية بالاحتكاك بالمسلمات، والدخول مع المسلمين في مناقشات دينية، ونشر الإنجيل، وسائر كتب التبشير باللغة الفارسية، والاعتناء بتعليم الذين تنصروا في المدارس التبشيرية خاصة في طهران وتبريز.

أما عن تاريخ التبشير في صومترا فقد تضمنه تقرير القسيس الألماني (سيمون) الذي أشار إلى عدد من الجمعيات التبشيرية منها جمعية المبشرين الألمانية التي تأسست سنة 1871، ولجنة تبشير جاوا التي تكونت سنة 1860. ويعد تقرير هذا القسيس عن نتائج تبشير المسلمين فإن أكثر التقارير التي سبق عرضها مبالغ في بيان أعمال المبشرين المقرون بلغة الأرقام، فقد ذكر أن

فروع جمعية نيس الألمانية الأربعة، الخاصة بتبشير المسلمين وحدهم، «قد تمكنت من تنصير 6000 مسلم ولديها الآن 1150 مسلماً في دور التجربة» ص 103، وأن «ميل المسلمين إلى النصرانية قد ظهر جلياً وقوي تياره، واتفق أنه في بعض الأوقات ينتصر العريس وقرينته المسلمة في وقت واحد»!! ص 104. كما أشار التقرير إلى الوسائل التي تقرب بها المبشرون إلى المسلمين وهي المدارس والإرساليات الطبية التي يصفها صاحب التقرير بأنها «مثل الشوك في أجسام زعماء المسلمين».

أما عن التبشير في جزيرة جاوا، فقد تركز في ذكر عدد المبشرين بها الذي بلغ «46 مبشراً و150 مساعداً لهم، و20 من مجموع هؤلاء اختصوا بتبشير المسلمين دون غيرهم، وفي الإحصائيات أن عدد المسلمين المتنصرين بلغ 1800 شخص» ص 105.

بهذا التقرير ختم التلخيص لما جاء في كتاب (العالم الإسلامي اليوم) الذي نشره القسيس (زويمر) وبعض زملائه، والذي يعد من الكتب المبكرة التي تناولت إرساليات التبشير بين المسلمين، ونتائج أعمال المبشرين في بعض البلاد الإسلامية، قدمت هذه النتائج من خلال تقارير وبحوث تفاوتت في درجات موضوعيتها وصحة معلوماتها، وكشفت عن تعصبها الديني البغيض الذي دفعها إلى طرح أرقام وأعداد لا يقبلها رجل الشارع، بلّة الحصيف.

أما الصفحات (106 - 130) فقد تناولت الحديث عن مؤتمر ادنبرج الذي عقد في شهر سبتمبر 1910 «وكان للمسائل الإسلامية حظ كبير من مداورات أعضائه، بل إن لجنتين من أهم لجانته تفرغت إلى البحث في أمر الإسلام والمسلمين، وقد نشرت أعمال هذا المؤتمر ومناقشاته في تسعة مجلدات» ص 106.

ويذكر الأستاذ الخطيب واليافي أنهما لم يتمكنوا من الحصول على هذه المجلدات، ولكنهما عثرا على مجلدات ثلاثة، تكلمت عن هذا المؤتمر، هي مجلة الشرق المسيحي الألمانية، التي تصدرها جمعية التبشير الشرقية الألمانية منذ سنة 1910، ومجلة العالم الإسلامي الإنجليزية المعروفة، ومجلة إرساليات

التبشير البروتستانتية التي تصدرها جمعية التبشير في مدينة بال في سويسرا.

بالنسبة للمجلة الأولى، استعرض المترجمان مقالين، الأول بعنوان (الشرق المسيحي وإرساليات تبشير المسلمين)، أوضح فيه كاتبه أن أعمال التبشير قد ازدادت أهمية بين مسلمي البلغار، وبخاصة فيه عقب تأسيس المدرسة الدينية الإسلامية ونتيجة لنشاط القسيس (افتارنيان) وأعماله التي استهدفت مقاومة الإسلام. وهذا يبرهن - في نظر المجلة - «على أنه أؤف الوقت الذي يزعم فيه الإسلام من أركانه وينشر الإنجيل بين الشعوب الإسلامية» ص 108.

أما المقال الثاني فقد كان بعنوان (دخول التبشير العام في طور جديد) أبان فيه كاتبه عن ارتقاء وتطور في أعمال المبشرين واستخدم لغة الأرقام حيث أشار إلى عدد المندوبين الذين حضروا مؤتمر أدنبرج وهم 1200 مندوب بينهم 502 من الإنكليز، و505 من الأمريكان، و98 من الألمان والباقيون يتكلمون لغات مختلفة. كما قدم صاحب المقال إحصائيات عما أنفقته في السنة إرساليات التبشير الإنكليزية والإيرانية، وجمعيات التبشير الأسترالية والإفريقية والآسيوية والهندية وجمعيات التبشير البروتستانتية في باقي القارة الأوروبية وهو 3 ملايين جنيه، وإحصائيات أخرى عن عدد جيش المبشرين البالغ 98,388 مبشراً، تعضدهم لجان يبلغ عدد أعضائها 5 ملايين ونصف المليون. فضلاً عن تقديمه إحصائيات عن عدد النساء والرجال الوطنيين وغير الوطنيين من موزعي التوراة، الذين يشتركون في التبشير والوعظ، وعدد المعاهد الكنسية، وعدد إرساليات التبشير العامة التي في الدرجة الثانية، وعدد الأساتذة والتلاميذ الذين هم تحت إشراف المبشرين، وعدد المدارس الدينية التي تقوم بتعليم لاهوت النصرانية وتخريج المعلمين والمبشرين فيها، وعدد المدارس الثانوية والابتدائية التي تهيمن عليها مقروراً بعدد تلاميذها، وعدد مدارس الأطفال التي يديرها المبشرون مقروراً بعدد تلاميذها، وعدد مدارس رياض الأطفال التي يديرها المبشرون مقروراً أيضاً بعدد الأطفال الذين يرتادون هذه المدارس، وعدد المستشفيات التي أسستها الإرساليات، وعدد الصيدليات

وزبائنها وما لديها من مجالس طبية وجمعيات للممرضات، وعدد ملاجيء الأيتام وملاجيء البرص من الكبار والأطفال، وعدد مدارس العميان ومعاهد الإسعاف ومستوصفات مرضى الأفيون وملاجيء الأرامل.

ويذكر صاحب المقال أرقاماً مأسولة خيالية رصدت في سنة 1902 - أي قبل انعقاد مؤتمر أدنبرج بشماني سنوات - بقصد لفت الانتباه نحو الجانب الإنساني في أعمال الإرساليات والمبشرين، وتوضيح إنسانية أهداف التبشير بوجه عام.

ثم يقدم في خاتمة المقال، مقارنة بين إحصائيات عام 1902، وبين ما وصل إليه إحصاء سنة 1910، ليقف القارئ من خلال ذلك على أن هناك ارتفاعاً باهراً في مجال التبشير (ص 112). بعد ذلك يستعرض المترجمان ما جاء في مجلة (العالم الإسلامي) الإنكليزية التي يتولى إدارتها القسيس زويمر. وهو جملة من الأقوال ضمتها مقالة المستر تشارلز وطسون بعنوان (العالم الإسلامي) أكد فيها اهتمام مؤتمر أدنبرج بالمسائل الإسلامية، موضحاً أن المؤتمر تألف من ثماني لجان، وأن اللجنة الأولى منها اختصت بالتوسع في بحث المسائل الإسلامية من الوجهة الخارجية وأن مهمة اللجنة الرابعة هي إيجاد أرضية مشتركة بين المبشرين في أعمالهم، واختيار خطة «الهجوم أو الغارة» على العالم الإسلامي. وقد أعدت هذه اللجنة تقريراً يتضمن إحصاء بعدد المسلمين، ومستوى ارتقائهم في كل من جزائر ماليزيا والهند الهولندية، إذ لوحظ أن عدد المسلمين يزداد فيهما يوماً بعد يوم، بقدر ما ينقص من عدد الوثنيين، في حين أن فروع اللجنة أوضحت في تقاريرها عن حال الإسلام في الشرق الأدنى وآسيا الوسطى: «إن المبشرين تعذر عليهم الخوض في المسألة الإسلامية»، أما عن حالة الإسلام في أفريقية فإن تقرير اللجنة يؤكد «إن الموقف فيها صار حرجاً، لسرعة تقدم الإسلام من مركزه الواسع في الشمال ومعاقله التي في السواحل إلى الجنوب والغرب الإفريقي» ص 117. ويتحدث المقال عن أعمال اللجان الثمان، التي منها ما استهدف المسائل الإسلامية مباشرة، والبحث في الإسلام بصراحة، وفيها ما تناول المجهودات التي يبذلها

217 _____ مجلة كلية الدعوة الإسلامية (المجلد الحادي عشر).

المبشرون لتنصير المسلمين، والوسائل المختلفة التي تمكنهم من تحقيق أهداف التبشير، وعلاقة إرسالية التبشير بالإسلام.

بعد ذلك استعرض المترجمان أقوال المجلة السويسرية من خلال عدة مقالات كتبها المستشرق الأستاذ (شلاتار) صاحب التقرير المقدم إلى مؤتمر أدنبرج، تركزت جميعها في المناداة بضرورة إعداد الوسائل الكفيلة بتوحيد أعمال التبشير بين الإرساليات، التي تسعى لنشر النصرانية، وضرورة تضافر المبشرين وتعاونهم «لتكون ثمرات مجهوداتهم، وهم متوحدون، أربعة أمثالها وهم متفردون» ص 123. ولتوضيح هذه الفكرة استشهد كاتب المقالات بحوادث تبرز نجاح المبشرين في أعمال مشتركة في مناطق مختلفة من العالم، مشيراً إلى «ما لهذا التضامن والاشتراك من المحاسن والتأثير في جمع الكلمة» ص 124.

وأخيراً تلخص خاتمة هذا الفصل نتائج مؤتمر أدنبرج التي تركزت في تأليف «لجنة لمواصلة الأعمال التي بدأ بها، وعمل لها فروع كثيرة، بعضها للإحصائيات، وبعضها للنشر والمطبوعات، والبعض للتربية والتعليم، وآخر لحسم المشاكل بين المبشرين وواحد للدرس العقبات التي تحول دون نشر التبشير بين المسلمين» ص 128 - 129. أما الصفحات (131 - 140) فقد تحدثت عن «المؤتمر الاستعماري الألماني» من خلال المقالة التي نشرتها المجلة السويسرية - بوصفها ذات شأن - عن موقف الإرساليات التبشيرية في هذا المؤتمر، التي كتبت بقلم (م. ك. أكسنفلد) صاحب التقرير عن الفرع المختص بالإسلام في المؤتمر، وهو أيضاً سكرتير جمعية التبشير في برلين. والمقالة في مجملها استعراض لانطباعات صاحبها عن المؤتمر الاستعماري الذي امتاز في نظر كاتبها - «بميزتين: الأولى أنه بحث في الشؤون الصناعية والاقتصادية، والثانية إجماعه على وجوب ضم المقاصد السياسية والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية في سياسة الاستعمار الألماني» ص 133 - 134. بمعنى آخر أن المؤتمر الاستعماري الألماني أكد على «أن نمو ثروة الاستعمار متوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى المستعمرات، وأهم وسيلة

للحصول على الأمانة، إدخال الدين المسيحي إلى هذه المستعمرات!! ص 134.

كما أبانت المقالة أن أعضاء هذا المؤتمر بحثوا في شؤون تتعلق بالتبشير، وأن المبشرين اشتركوا في المداولات، عندما أخذ المؤتمر يبحث في أعمال فرعه الرابع، المخصص للنظر في المسألة الإسلامية!! حيث أفاضوا «وتوسعوا في القول حتى خيل للجميع أن المؤتمر الاستعماري تحول إلى مؤتمر تبشير» ص 134 - 135. وهل ثمة اختلاف في الأهداف والوسائل!!.

ولعل أهم ما في هذه المقالة إشارتها إلى ذلك الاختلاف الذي حدث بين المبشرين، وأعضاء المؤتمر الاستعماري، في وجهة النظر حول الإسلام، فالطرف الأول لفت الأنظار إلى الخطر الإسلامي في المستعمرات الألمانية بأفريقية، وأبان الطرف الثاني حقيقة علاقة الحكومة، وإرساليات التبشير بالسياسة الإسلامية، مشيراً إلى الخطر الإسلامي الذي صار أمراً معروفاً عند الجميع، مطالباً بضرورة قيام الحكومة «بتربية الوطنيين المسلمين في المدارس الألمانية، ما دام هؤلاء المسلمون يتفرون من المدارس المسيحية» ص 136.

ثم أوردت المقالة ما جاء في قرار المؤتمر الاستعماري من توصيات تتعلق بالإسلام والمسلمين، حيث ينصح الحكومة الألمانية بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار حركة اتقاء الإسلام، الذي يتهدد نمو المستعمرات الألمانية بخطر عظيم، «ويشير على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام!!... وأن الخطر الإسلامي يدعو إلى ضرورة انتباه المسيحية الألمانية لاتخاذ التدابير - من غير تسويف - في كل الأرجاء التي لم يصل إليها الإسلام بعد!!» ص 137 - 138.

واختتمت المقالة بالإشارة إلى أن مجلة العالم الإسلامي الإنكليزية نشرت بعض الفقرات، من خطاب الأستاذ (باكر)، الذي ألقاه في المؤتمر الاستعماري الألماني، وخاصة التي تطالب الحكومة الألمانية بانتهاج سياسة موطدة الأركان في معاملة مسلمي مستعمراتها. أما الصفحات (141 - 207) فقد استعرضت ما تناوله مؤتمر لكنو بالهند الذي عقد عام 1911 م، وذلك من

خلال مقدمة المجلة الفرنسية السابق ذكرها التي أشارت إلى أن مبشري البلاد الإسلامية من البروتستان قد عقدوا مؤتمرهم الثاني العام في مدينة لكنو يوم 21 يناير سنة 1911 م أي بعد خمسة سنوات من انعقاد مؤتمرهم الأول بالقاهرة الذي سبق الحديث عنه .

وقد وضحت المجلة في بداية حديثها عن هذا المؤتمر أن المشتركين فيه أبدوا ارتياحهم لما ناقشه مؤتمر أدنبرج بخصوص مقاومة الإسلام!! ودراسته لوسائل مناضلته من كل الأوجه، ورأوا في ذلك نجاحهم . ثم استعرضت برنامج مؤتمر لكنو والترتيبات التي اتخذت بشأن انعقاد جلساته التي امتدت لمدة أسبوع - في باحة إحدى المدارس البروتستانتية الخاصة بالبنات، غطت جدرانها «بالخرائط والإحصائيات التي يتبين منها مبلغ اتساع نطاق الإسلام وارتقائه وتقدمه في الأيام الأخيرة» ص 143.

وبينت المجلة أنه قد اشترك في هذا المؤتمر 168 مندوباً و 113 مدعواً من 54 جمعية تبشيرية، على رأسهم القسيس (زويمر) الذي كان رئيس المؤتمر ومديره الروحي، إلى جانب بعض الشخصيات العلمية والمنتصرين!! في حين «منع الصحفيون الإنكليز والأمريكان عن حضور جلسات المؤتمر، ولم ترسل لهم مذكرته إلا بعد أن عينت لجنة القرارات بتنقيحها» ص 144 - 145.

اشتمل برنامج مؤتمر لكنو على ثلاثة أمور:

(1) درس الحالة الحاضرة .

(2) استنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين والتعليم النسائي .

(3) إعداد القوات اللازمة ورفع شأنها .

أما البرنامج الذي عرض على المؤتمرين فقد تكوّن من المواد التالية:

(1) النظر في حركة الجامعة الإسلامية ومقاصدها وطرقها والتأليف بينها وبين تنصير المسلمين .

(2) النظر في الانقلابات السياسية في العالم الإسلامي وعلاقاتها بالإسلام ومركز المبشرين .

- (3) موقف الحكومات إزاء إرساليات تبشير المسلمين .
- (4) الإسلام ووسائل منع اتساع نطاقه بين الشعوب الوثنية .
- (5) تربية المبشرين على ممارسة تبشير المسلمين والمزايا النفسية اللازمة لذلك، والبحث في الدروس الإعدادية، ودروس التبشير، وتأليف الكتب للمبشرين والقراء المسلمين .
- (6) حركات الإصلاح الديني والاجتماعي .
- (7) الارتقاء الاجتماعي والنفسي بين النساء المسلمات .
- (8) الأعمال النسائية .
- (9) القرارات العملية وتقدير اللجان المالية للمطبوعات والمنشورات .
- افتتح القسيس زويمر مؤتمر لكنو بخطبة تكلم فيها على المسائل الإسلامية التي تناقش فيها الأعضاء، وقد قسمها إلى أربعة أقسام هي:
- (1) الإحصاءات الإسلامية التي تناولت عدد سكان المسلمين ونسبة زيادتهم السنوية في العالم .
- (2) الانقلابات السياسية التي حدثت في العالم الإسلامي، وقد شكر الله على حدوث هذه الانقلابات في غرب آسيا وأفريقية .
- (3) الانقلابات الاجتماعية والفكرية المتمثلة في «ثلاثة نهضات إصلاحية الأولى إصلاح الطرق الصوفية، الثانية تقريب الأفكار من الجامعة الإسلامية، الثالثة إفراغ العقائد والتقاليد القديمة في قالب معقول» ص 154 .
- (4) الخطة التي اتبعتها كنائس أوروبا وأمريكا بعد مؤتمر القاهرة، متمثلة في الكتابات التي نشرتها الجرائد، والتي أبانت عما يجب أن يعمل المبعثرون في العالم الإسلامي، لعل من أهمه تصنيف الكتب الكثيرة التي تبحث في المعضلة الإسلامية من كل أوجهها .
- لقد تحدث القسيس زويمر عن كل من هذه الأقسام باستفاضة مع توضيحات المتحدث على لغة الأرقام وتقديم الأمثلة الحية .
- وتحت عنوان (التنظيم المادي لإرساليات التبشير) تناولت الصفحات 205 - 244 - جوانب هذا التنظيم الذي جاء مقروناً بأرقام الإيرادات، والمبالغ
- مجلة كلية الدعوة الإسلامية (العدد الحادي عشر) 221

الهامة التي ترد عليها وتصرفها في سبيل التبشير، والاكتتابات التي تأتيها من البلاد الأجنبية، والمبالغ التي يجمعها المبشرون أنفسهم، والفروع العديدة لجمع النقود، وهي لا تقع تحت الحصر (ص 206)، والنفقات التي تتكبدها في سبيل إدارة أمورها، وتحصيل تلك الاكتتابات والإيرادات، وللمبشرين الموجودين في غير البلاد الإسلامية، والتحكك بالإسلام كل سنة. وعادة ما كان ينتهي تقدير الجمعيات على الرغم من ذلك التنظيم المادي لإرساليات التبشير، بالقول: «إن أعمال التبشير في البلاد الإسلامية ما زالت صعبة وعرضة للنفقات الجسيمة» ص 207.

أو قولها: «ويتفوق المسلمون في أكثر الأقاليم على إرساليات التبشير في المال والنفوذ» ص 209.

وانصب الحديث في صفحات هذا الفصل على جمعية التبشير الكنسية الإنكليزية بوصفها أهم جمعية بروتستانتية. فقد مضى على تأسيسها 110 سنين ويدير أعمالها 154 أسقفاً وبلغت إيراداتها سنة 1410 عشرة ملايين من الفرنكات، واتسع نطاق أعمالها التبشيرية في فارس ومصر وشمال نيجيريا وجنوبها والسودان وفي أفريقية الشرقية وأواسطها وغربها.

ولخصت الصفحات 245 - 256 (مقاصد المبشرين وآمالهم في المستقبل) وقد تمثلت في إعداد المعدات لتوسع دائرة أعمال إرساليات التبشير «ريشما تشن الغارة على الأراضي الإسلامية المغفلة في وجهها، أو تتحفز لمنازعة الإسلام على البلاد التي ترسخت قدمه فيها» ص 245.

وفي هذا السياق ظهر في عالم المطبوعات مؤلفان يتعلقان بالغارات التبشيرية في المستقبل... أحدهما للقسيس زويمر، الذي يوجه مؤلفه إلى الطلبة ويذكر لهم الأقاليم الخالية من المبشرين، والآخر بقلم المستر (جوردنر) السكرتير العام لجمعية الطلبة المسيحيين، بخصوص الأعمال التبشيرية في أفريقية الجنوبية» ص 246.

والكتابان استصراخ «بالمبشرين أن يسرعوا بأعمالهم ويذلوا قصارى جهدهم... إذا كانوا لا يودون أن ينتشر الإسلام... وترسخ أقدامه» ص

254، ودعوة «للم شعث إرساليات التبشير وجعلها كتلة واحدة أمام البحر الإسلامي الطامي» ص 255.

أما الصفحات 257 - 286 فقد ضمت أربعة ملاحق:

الأول: نص افتتاحية العدد 6663 من جريدة (المؤيد) الصادر يوم الجمعة 9 جمادى الأول 1320 هـ/ 26 أبريل 1912 م بعنوان (نجوى إلى القراء) بمناسبة مقالات الغارة على العالم الإسلامي بقلم محب الدين الخطيب.

الثاني: نص افتتاحية العدد 6768 من (المؤيد) الصادر يوم الأربعاء 5/ رمضان 1330 هـ. وهو ترجمة مقالة انتقادية أنشأتها مجلة العالم الإسلامي الفرنسية بعنوان (حول الغارة على العالم الإسلامي).

الثالث: نص افتتاحية العدد 6770 من (المؤيد) بقلم محب الدين الخطيب بعنوان (جواب المؤيد على مقالة مجلة العالم الإسلامي).

الرابع: نص كلمة كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان في أهمية هذا الكتاب.

ولعل خير ما نختم به عرضنا لهذا الكتاب القيم نداء أمير البيان شكيب أرسلان الذي جاء في صيغة اقتراح بأن «يطبع منه ألوف من النسخ وعشرات ألوف، ويوزع على جميع العالم الإسلامي بدون استثناء ويقتنيه كل مسلم ذي حمية، ويقرأ منه الخطباء والمدرسون في الجوامع... ويجب أن يترجم هذا الكتاب إلى التركي والفارسي ولسان الأردو ولسان الملايو وجميع السنة الشعوب الإسلامية».

لقد مضى على طبعته الأولى (1350 هـ - 1932) أكثر من ستين سنة وعلى طبعته الثانية (1387 هـ. 1967) أكثر من ربع قرن، وما أحوج هذا الجيل إليه والاطلاع عليه، وعالمه الإسلامي يتلقى الغارة تلو الأخرى، ويشهد الهجمات الشرسة من صليبية حاكمة.

أَدَبُ الطَّبِيبِ اسْحَاقُ بْنُ عَلِيٍّ الرِّهَاطِيِّ

تحقيق: الدكتور كمال السامرائي
والدكتور داود سلمان علي

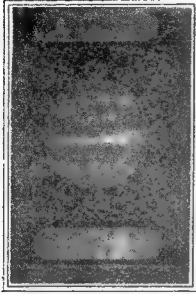
مراجعة: الدكتور عبد الكريم أبو شويرب

تمهيد:

في أيام خلافة المقتدر بالله الخليفة العباسي ببغداد، وبالتحديد في سنة 319 هـ. وصل إلى علمه أن رجلاً مريضاً قد مات نتيجة خطأ ارتكبه من كان يشرف على علاجه. فأصدر الخليفة أمراً إلى المحتسب أن يمنع كافة الأطباء من مزاوله المهنة إلا بعد أن يمتحنهم ويجيزهم سنان بن ثابت النطاسي المعروف في وقته.

وكتب الخليفة رقعة بخله إلى المحتسب تنظم تعيين الأطباء وامتحانهم وإبعاد المتحّلين منهم. وهكذا قام سنان بامتحان ثمان مائة ونيف وستين طبيباً على جانبي مدينة بغداد. (1)

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، بيروت، 1965، ص/



ولهذه القصة دلالات كثيرة أهمها أنها توضح ما وصلت إليه بغداد من اكتظاظ في السكان المتطبين، وحاجة الناس إلى الطبيب والصيدلاني والمستشفيات. وكذلك تبين لنا التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية من حيث نظام المحتسب الذي يراقب سائر المهن والحرفيين ووضع نظام لامتحان الأطباء قبل بدئهم في مزاوله المهنة حتى لا يدخلها مشعوذ أو دجال أو متطفل على ميدان الطب. وكتاب أدب الطبيب يدخل ضمن إطار

تنظيم المهنة وتنقيف الأطباء حول آداب وصعوبات هذه المهنة، ويوضح الصفات التي يجب أن يتحلى بها الطبيب أمام وبين كل من يحيط به من مرضى وزوار وممرضين وغيرهم.

وصدور مثل هذا الكتاب يجسد محاولات بعض الأطباء العرب دراسة ونشر التراث الطبي العربي بغرض التعريف به وربط جذور الحاضر بالماضي وإظهار مآثر وإبداع الأروال في هذا المضمار.

كان هذا العمل في السابق أمراً مقتصرأ على مجهودات المستشرقين ونتيجة تنقيبهم وبحوثهم الدقيق في مكتبات العالم المختلفة، واعتاد القارئ أن يجد مثل هذه الكتب صادرة عن ليبزغ وأكسفورد وفرانكفورت وغيرها.

ومنذ الصيحة التي أطلقها الطبيب المصري عبد المنعم التطاوي سنة 1924م الذي اكتشف وصف الدورة الدموية الصغرى في كتاب التشريح لابن النفيس بينما كان (التطاوي) يحضر للدراسات العليا بألمانيا، ومنذ ذلك الوقت بدأ اهتمام الأطباء العرب بهذا التراث بحثاً ودراسة وتنقيأ وربط معلومات الماضي بنظريات العلم الحديث.

والطبيب اللذان قاما بتحقيق هذا المخطوط من الأطباء المعروفين في مجال الطب والبحث في التراث الطبي العربي حيث إن لهما العديد من الكتب والمقالات والمساهمات في الندوات العالمية التي تناقش هذا الموضوع.

يقدم المحقق أولاً في مقدمة الكتاب تعريفاً بكلمة أدب ويقول إنها تعني سلوك وأخلاق المهنة وإنّ هناك في التراث العربي العديد من المؤلفات حول ما يجب أن يكون عليه أرباب بعض المهن، ومن ذلك أدب القاضي وأدب الملوك وأدب النديم... وغيرها مثل أدب الرحلات وأدب الجليس، وإن أول من ألف في أدب مهنة الطب والأخلاق التي يجب أن يتحلّى بها الأطباء هو أبو الأطباء أبقراط (المتوفى سنة 377 ق.م). حيث إن له ثلاثة كتب حول هذا الموضوع هي: ناموس الطب وترتيب الطب وكتاب العهد، وهذا الأخير يتضمن قسم أبقراط اليمين التي يقسم بها خريجو الطب في بعض كليات الطب في العالم. وينصح أبقراط الطبيب أن يكون دمث الأخلاق، ليُنّ الطبع، سمته التواضع مع زملائه ومرضاه، وما يجب أن يكون عليه من قيافة لائقة ونظافة اليدين والثوب واللسان، وعدم وصف الأدوية الضارة أو القاتلة أو المجهضة للأم الحامل وأن لا يفشي أسرار المرضى ولا يطمع في أموالهم أو حلالهم.

ويورد المحقق نبذة حول حياة المؤلف: (إسحق بن علي الرهاوي) ويقول إن المؤرخ الوحيد الذي وثق حياة ومؤلفات المؤلف هو ابن أبي أصيبعة في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء. وإسحق بن علي معاصر للطبيب يوحنا بن ماسويه (المتوفى سنة 243 هـ) وهذا يضع الرهاوي ضمن أطباء العرب في القرن الثالث الهجري ويذكر مجموعة مؤلفاته، وينسبها إلى مدينة الرها وهي حالياً مدينة أورفة قرب الحدود السورية العراقية التركية.

ويقول المؤلف في مقدمة الكتاب إنه لاحظ أن الأطباء في زمانه قد جهلوا أصول مهنة الطب وكثر بينهم منتهكوها وأغرثهم المادة والثرف فانحرف بعضهم عن شرف ونزاهة المهنة واتخذوها مطية لكسب المال، والتقرب إلى ذوي الجاه والسلطان، وغشوا الدواء، ولعبوا بعقول العامة والبسطاء بطرق خداع مختلفة، فرأى أن يضع هذا الكتاب تنبيهاً وتوجيهاً لهم لردهم إلى ما يجب أن يعملوه لإصلاح حالهم وتصحيح معلوماتهم بالعلوم الطبية وطرق ممارستها.

واستهدف الرهاوي من وضع هذا الكتاب إضافة إلى تعليم أداب المهنة

إبراز شرفها وعظيم ما يستمد منها في حالتي الصحة والمرض، وما ينبغي للطبيب أن يكون عليه من حيث صلته بربه وإيمانه وثقته بالله، وأن من يتحلّى بذلك يبعده عن الدنيا والخداع وابتزاز أموال المرضى، ويتحاشى ما يفسد صناعته سواء كان ذلك من جانبه أم جانب المرضى.

كما أن بالكتاب توجيهات ونصائح للأطباء والصيادلة والممرضين والمرضى وأهلهم، وأيضاً لمن يقوم بزيارة المريض وآداب هذه الزيارة، وما ينبغي أن يتحلّى به كل واحد مما سبق خلال معاملته مع المريض حتى يتم الشفاء بعون الله على أحسن حال.

والكتاب ينشر لأول مرة عن مخطوطة وحيدة فريدة مصورة عن مكتبة السليمية (وليس السليمانية) بمدينة أدرنة بتركيا، وتاريخ نسخها هو 748 هـ. ولقد سبق ترجمة ونشر هذه المخطوطة باللغة الإنجليزية سنة 1967م. أي قبل أن يتم تحقيقها ونشرها من قبل الباحثين العربيين (د. كمال السامرائي و د. داود سلمان علي 1992) بربع قرن. وهذا يؤكد أهمية هذه المخطوطة من حيث تاريخ وآداب مهنة الطب.

لم يشر بروكلمان أو سزكين إلى وجود أي مخطوطة أخرى في العالم هي أخت لها أو نقلت منها أو عنها. وهي تقع في 112 ورقة وتحتوي الصفحة على سبعة عشر سطراً. قسم المؤلف الكتاب إلى مئتين واثنين وعشرين باباً سأتناول فيما يلي ملخصاً لبعض الأبواب المهمة منها.

الباب الأول:

في الأمانة والاعتقاد الذي ينبغي أن يكون الطبيب عليه والآداب التي يصلح بها نفسه وأخلاقه.

بعد بضعة أسطر كمدخل إلى هذا الباب يقدم لنا تعريفاً للطبيب فيقول: «إن الطبيب حاكم في النفوس والأجسام، ولا يشك أحد في أن النفس والأبدان أشرف من الأموال، لذلك ينبغي للطبيب أن يأخذ نفسه بالآداب والعلوم النافعة له في صناعة الطب».

وحول أسس إيمان الطبيب وأصول معتقده و ثقته بالخالق تعالى يقول :
«إن أول ما يلزم الطبيب اعتقاده صحة الأمانة ، وأول الأمانة اعتقاده أن لكل
مكوّن مخلوق خالقاً مكوّناً واحداً قادراً حكيماً فاعلاً لجميع المفعولات بقصد
محي مميّت ممرض مشفٍ . أنعم على الخلاق منذ ابتداء خلقهم بتعريفهم ما
ينفعهم ليستعملوه ، وكشف لهم عما يضرهم ليحذروه إذ كانوا بذلك جاهلين .

والأمانة الثانية : أن يعقد الله جل ذكره المحبة الصحيحة وينصرف إليه
بجميع عقله ونفسه واختياره فإن منزله المحب اختياراً أشرف من منزلة الطائع
له خوفاً واضطراً .

والأمانة الثالثة : أن يعتقد أن الله رسلاً إلى خلقه هم أنبيأؤه أرسلهم إلى
خلقهم بما يصلحهم ، إذ العقل غير كاف في كل ما يصلحهم من دون رسل ،
ما شاء وكيف شاء في الوقت الأصلح . .

ويورد المؤلف بعض آراء فلاسفة الإغريق أمثال أبقراط وأفلاطون
وأرسطو حول فلسفة كيفية وجود صناعة الطب ، ثم يخلص إلى رأي جالينوس
الذي يقول : «الأصوب عندنا والأولى أن نقول أن الله جل وعز خلق صناعة
الطب وألهمها للناس وذلك أنه لا يمكن في مثل هذا العلم الجليل أن يدركه
عقل الإنسان ، لكن الله هو الخالق الذي هو بالحقيقة قد أكنه خلقه وذلك أنك
لا تجد الطب أحسن من الفلسفة التي ترون أن استخراجها كان من عند الله
تعالى بإلهام منه .

ويرشد الطبيب إلى أنَّ هناك ثلاث قوى في نفسه تتحكم فيه :

«أيها المحب للأدب إذا صحت أمانتك مما تقدم القول به من الإقرار
بالله جل وعز ومن المحبة له والاعتراف بحقه والإقرار برسله ، والتمسك
برسائله فعليك بالعبادة له بما يرضيه ، ولن تقدر على ذلك دون أن تصلح
أخلاقك وتعديل أفعالك ولا يمكنك ذلك حتى تعلم أصول قوى النفس وهي
ثلاثة قوى كما بين ذلك القدماء من الطبيعيين والأطباء . إن القوة الأولى هي
القوة النفسانية وهي التي تسم أفعالها بالدماغ ، والقوة الثانية هي القوة الحيوانية
وأفعالها تتم بالقلب ، والقوة الثالثة هي القوة الشهوانية وأفعالها تتم بالكبد» .

ويختتم هذا الباب ببعض النصائح للأطباء:

«أنت أيها الطبيب يجب أن تبعد الأشرار من الأصحاب والتلاميذ، فإن جميع ما يأتيك من صحبك وخدمك منسوب إليك من قول وفعل. واعلم أن الفقر مع الحلال أصلح من الغنى مع الحرام، والذكر الحسن مع بقائه خير من نفيس المال مع فثائه. والمال قد يوجد عند السفهاء والجهال، والحكمة لا توجد إلا عند أهل الفضل والكمال. واجتهد أن يكون سرورك وحزنك جميعاً بتوسط وكن على ما زاد منها بتسلط. وتأمل حال النفس المتوسطة للأخلاق من هذا القول الذي أحكمته لك من كلام جالينوس وغيره من الحكماء...».

الباب الثاني:

«في التدابير المصلحة للأبدان وبها يصلح الطبيب جسمه وأعضائه»
يخصص المؤلف الجزء الأول من هذا الباب في أسباب المرض وطرق الوقاية وحفظ صحة الإنسان بواسطة تعديل أمزجة الجسم المختلفة بالغذاء الصحي والهواء المناسب وتدابير الوقاية بما يراه عقله ومنطقه السليم:

«فأما من تدبر بعقله الأمور، وتبع ما يأمر به عقله وشرعه، وسلك في طريقهما ومذهبهما فهو الفاضل الأديب وهو الإنسان بالحقيقة».

ثم يورد ملخصات موجزة حول وظائف أعضاء الجسم مثل الدماغ والكبد والقلب والأمعاء ولا يتأني ذلك إلا بعد قراءة كتب الأوائل ودراستها بنهم وروية:

«واجتهد أيها الطبيب في معرفة ذلك واقتن علم أصول الطب من الكتاب الذي ألفه معلمنا جالينوس في تدبير الأصحاء. وعلى الطبيب أن يقرأ كتب الأوائل حول وظائف الأعضاء والتشريح ويتزود بمعرفة جيدة على جسم الإنسان».

على الطبيب أن يحرس حواسه ويحافظ عليها ولا يستعملها إلا في مصلحة العلم: «ويجب على الطبيب أن يحرس حواسه كلها ولا يستعملها إلا فيما يجلب النفع أو يدفع الضرر:

اللسان :

«فإن نطق نطق عن علم وتحصيل ولا يسمع منه لفظة مكروهة، وينبغي أن يتحفظ في ألفاظه خاصة في مجالس الملوك والرؤساء، فلا يسأل إلا عما يعنيه أمره ولا يجيب إلا عما سئل عنه».

العين :

«وكذلك يلزمه حراسة بصره، وذلك بأن لا ينظر إلى حرمة ليست له بمحرم نظر هو عنه غني، ويجتهد في أن يكون نظره دائماً إلى كتب الصناعة (الطب)، وفي ديوان شريعته فإن كتب الشرائع تقوم الأخلاق وتبعث على الأعمال المحمودة، وكتب صناعته تكسبه علماً بها».

الأذن :

ويجب على الطبيب حراسة سمعه، وذلك بأن لا يسعى إلى محادثة الجهال، ولا إلى استماع أقاويل الأشرار ومذاهب الأراء الردية، وحسم ذلك عنه هو بالأب يجالس أهل هذه الأمور ولا يخالطهم ولا يجادلهم ما أمكنه، فإن تهيأ له مذاكرة الأفاضل ولأن كان الأنس بالوحدة والخلوة بالدرس له أعظم الأنس».

وهكذا يفعل مع بقية حواسه وأعضائه .

جدول العمل اليومي :

ينبه المؤلف الطبيب إلى أهمية الوقت وكيف يقسمه إلى أقسام حتى يستفيد بكل يومه في قضاء حاجاته الضرورية وحاجات المرضى ومن حوله ولكن أول شيء يقوم به بعد يقظته :

1 - الصلاة : «إن أول الأفعال التي ينبغي للعاقل أن يفعلها بعد قيامه من نومه ونظافة جسمه هو الصلاة فإن الشكر للمنعّم والإقرار له بالوحدانية والخشوع بين يديه، إذ هو العلة لكل خير والقادر على كل فعال من الواجب عقلاً وشرعاً والإقلاع عن العيوب مع نقاء القلوب يمحّص الذنوب ويجيب

الدعوات ويوصل إلى كل محبوب فلذلك وأمثاله ينبغي أن يكون أول الأنعال الصلاة. »

2 - ثم يجب على الطبيب أن ينعطف من صلاته إلى قراءة جزء من كتب شرعه، إذ هو الأمر له بالخيرات والباعث له على الصالحات»
والمؤلف هنا يقول كتب الشرع ولم يحدد الإسلامية منها مثلاً لأن الطبيب القارىء لهذا الكتاب قد يكون من شرائع أو أديان أخرى.

وشيء من كتب الطب:

«ثم يعدل إلى قراءة ما قد رتب له من كتب الطب حسب ترتيب القدماء لذلك حتى يزداد معرفة ودراية بصناعته. . .

ثم يخرج إلى مرضاه:

«فإذا توجه له الخروج خرج بنية صادقة إلى مرضاه الذين قد نالتهم أنواع المكاره وعيونهم ساهرة من عظم البلاء في حال ما كان هو نائماً معافى. .

ثم يذكر كيفية محادثة المريض واستجوابه وفحصه حتى يتم مداواته،
ويزوده بنصائح حول محادثة الناس ومجالسة مختلف الأهواء والأمزجة والآ
تشغله الدنيا واللهو أو تنحرف به أهواؤه فيغفل عن واجبه الإنساني:

«ولا ينبغي للطبيب أن يجاذب النساء لئلا يسقط عند العامة والرؤساء ولا
يصح للطبيب كسب الأموال من التجارة لئلا يقطع عن العلم ويكسبه
الخسارة، ولا يصلح للطبيب التشاغل باللعب والملاهي لئلا يسخف ويصير
واهياً.»

الباب الثالث :

«فيما ينبغي للطبيب أن يتوقاه ويحذر.»

وفي هذا الباب يقدم المؤلف أمثلة للمتناقضات التي يقع فيها الطبيب كل
يوم بين المريض وطبيعة مرضه وبين رغباته ورغبة أصول الطب والمهنة.

وينبغي للطبيب أن لا يتبع إرادة المريض إذا لم تكن موافقة لصلاحه ولا
ينبغي أن يحمله على ذلك رهبة منه ولا رغبة في حال، بل من الله يجب أن

يرهب وإليه يجب أن يرغب».

«ولا ينبغي لك أن تُخَذَع بِجَزَعِ امرأة تراها مكروية فزعة من حملها فترحمها وتعطيها دواء يسقط جنينها، فإنه إن لم تفزع من الله تعالى ولا وجه لقتل الجنين بل يجب تربيته ولتربيته أجر عظيم..»

الباب الرابع :

«حول خدمة المريض والممرضين والمشرفين على رعايته».

الباب الخامس :

«في آداب عواد المريض».

يخصصه المؤلف في وصف المرضى الذين يمكن زيارتهم ووقت ومدة الزيارة، وما ينبغي أن يقال وما لا يقال عند عيادة المريض، وما يحضره الزائر معه للمريض مما يسر له ويبحث فيه الأمل في الشفاء.

الباب الحادي عشر :

«فيما ينبغي أن يعمل المريض مع عواده».

الباب الثاني عشر :

«في شرف صناعة الطب».

الباب الرابع عشر :

«في نوادر جرت لبعض الأطباء».

الباب السادس عشر :

«في امتحان الأطباء».

في هذا الباب يفرد المؤلف عدة صفحات في كيفية استجواب الطبيب واستدراجه من المعلومات البسيطة في التشريح وعلم وظائف الأعضاء، إلى الأسئلة حول طرق الفصد وقذح العين وتجبير الكسور وغيرها. ثم امتحانه نظرياً بما درس من كتب أصول صناعة الطب أي كتب جالينوس وأبقراط، وما

حفظ من أسمائها ومحتوياتها، وبذلك يمكن معرفة المواظب المثابر المغرم بمهته ويفتضح الدخيل المتمحل لها.

الباب الثامن عشر:

«في التحذير من خدع المحتالين الذين يتسمون باسم الطب، والفرق بين خدعهم والحيل الطبية.»

وهنا يستعرض المؤلف مختلف الحيل التي يستعملها المشعوذون كطرق للعلاج ولا يترأز أموال البسطاء منها:

1 - يتصنعون لباس وحركات وكلام أهل الطب ويقتنون آلاتهم تقليداً لهم.

2 - يركبون من الأدوية البسيطة والمركبة تشبه الحقيقة ولكنها مزيفة.

3 - يشقون بعض أعضاء الجسم ويستخرجون منها أوراقاً كانوا قد أخفوها بأيديهم.

4 - يمصون بأنبوب صغير الأذن أو الأنف أو العين فيستخرجون منها الدود الكثير وقد سبق أن أخفوه في هذه الأنابيب.

5 - يخلطون المواد الضارة بالجسم والسموم التي قد تقتل أو تعيق بعض الحواس.

6 - لهم من طرق الملاطفة والتملق ما يوصلهم إلى ذوي الجاه والسلطان.

ويختتم المؤلف هذا الباب بالاجابة عن سؤال مهم وهو: هل يجوز للطبيب (النفسى) أن يجري الحيل لشفاء مرضى الوهم والاكتئاب والوساوس. فيجيب بنعم ويورد قصة جالينوس الذي دس حية في ما استفرغه مريض كان يعتقد أنه ابتلع حية وهي قابعة في معدته، وقد شفي بعد هذه الحيلة البارة.

وفي نهاية الكتاب أورد المحقق فهارس للأعلام والمواد الطبيعية والمصطلحات الفنية العلمية الواردة في الكتاب، وقد سبق أن وضع المنهج

الذي اتبعه في التحقيق واستخراج معاني ومدلولات الكلمات التي يزودنا بها في كل صفحة بهوامش سهلة ميسرة دون إثقال وإسهاب ممل. كما اتبع الآراء الحديثة في التحقيق ومنها الترقيم المسلسل لكل الهوامش في الكتاب.

الخاتمة:

هذا الكتاب يقرأ في كل وقت وكل عصر فعلى الرغم من مرور عشرة قرون على تأليفه فإن ما فيه من عبر وقصص ومتناقضات وأوجه الصلة بين الطبيب والمريض وكل من كان حولهما من الناس هو نفسه ما نراه اليوم وسنراه غداً أيضاً، والنصائح التي يقدمها للطبيب من حيث احترام زملائه ومهنته وما ينبغي أن يتحلى به من صفات هي من الأمور المتعارف عليها والمطلوبة في كل مراجع آداب وسلوك مهنة الطب في العالم الحديث.

عصر ازدهار الطب في الإسلام «ابن حجب القرطبي»

الدكتور فاضل السباعي

دمشق

أولاً: الرجل والعصر

1 - القرن الرابع الهجري عصر الازدهار:

شاء القدر لابن حجب أن يرى النور في المئة الرابعة للهجرة، هذا القرن الذي حُطت فيه أزهى صفحات التاريخ الأندلسي، وضُمّ أنصر عصور الحضارة العربية في مشرق ومغرب على حدّ سواء⁽¹⁾، فتأتى لطبيتنا العالم أن يُسهم في ميدان الطب، في بلده، مُعالجاً ومؤلفاً.

والواقع أنَّ الطب، شأنه شأن سائر العلوم والفنون والآداب، قد حقق في حياة الطبيب القرطبي سليمان بن حسان، نهضة رفيعة المستوى استطلت

(1) وذلك ما حدا بالمستشرق السويسري آدم ميتز (توفي سنة 1917)، إلى تأليف كتاب بعنوان «نهضة الإسلام»، ويتعبّر أدق: «عصر النهضة في الإسلام»، يختصُّ المئة الرابعة من أعصر حضارتنا، نسجاً على منوال عصر النهضة الأوروبية (أي القرن السادس عشر الميلادي).

عهد الخليفة الأموي، المديد الحكم، عبد الرحمن الناصر (خمسین عاماً) ... ثم لم يكن بدّ من أن تُتابع هذه النهضة مسيرتها بعد وفاة الناصر، وكذلك في أعقاب سقوط الخلافة الأموية (399/1009 م) حين تمزّقت دولة الأندلس الموحّدة إلى دويلات متنازعة متناحرة؛ ذلك أنّ العبقريّة الأندلسيّة، التي تفتّحت مُغتنية بذاتها لتسيل كسلسيل، ما كان لها أن تتوقّف عن الإبداع أو العطاء، حتى وهي تُعاني من تباغض حُكّامها المُتَحاورين بالحرب والرماح لا بالحجّة والإقناع، المُتدزّعين بالأنانية والطمع لا بالإخلاص والإيمان!

ولقد زينت، هذه الحركة العلميّة المتنامية، لطبيبنا ابن حسان، أن يُورخ للطبّ في بلاده الأندلسيّة، عبر سلكٍ نظم لآلئهِ من سيّر الأطباء والحكماء الذين أنجبتهُم الأمّ الغابرة، مضيفاً إليهم مَن اختار من أطباء الأُمّة في المشرق، مختتماً إياهم بأطبائِ الأندلس: من عرفهم معرفةً معاصرة، ومن تقصّى أخبارهم من أقرب الأزمان إليه ... فكانت رسالته المبكّرة، الفريدة: «طبقات الأطباء والحكماء».

2 - سليمان بن حسان (بن جُلْجُل):

وعَد ابن جُلْجُل، بنهاية كتابه «طبقات الأطباء والحكماء»، في أثناء مخاطبته «الشريف» الذي ألّف له الكتاب، أن يُقدّم ترجمةً لحياته ... قال:

«ووصفتُ، أيها الشريف، في آخر هذه الرسالة، تأدبي وسيرتي، وكيف كان طلبتي، وتوخيتُ الصدق، والله الشاهد على ما أقول، ولم أرَ إخلاء رسالتي من ذلك، لما فيه من تخليد الذكر وجميل النشر، وبالله أستعين»⁽²⁾.

ثم كان أمراً مؤسفاً، بلغ حدّ «المفارقة»، أن نفتقد سيرة الرجل في ما تلا هذا الوعد، وفي سائر صفحات الكتاب، الذي كان همّ صاحبه أن يترجم فيه لأعداد من الأطباء معاصرين وسابقين، من مختلف الأمم! والظنّ أنّ ترجمته الذاتيّة قد سقطت على يد النسخ. ولكن بدا أنّ اثنين من مؤرخي

(2) ابن جُلْجُل: «طبقات الأطباء والحكماء»: 16.

وقد قام بتحقيق هذا الكتاب تحقيقاً علمياً عُكماً الباحث المصري فؤاد سيد، نشر المعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة، القاهرة 1955؛ وصدرت منه طبعةٌ مصوّرة عن مؤسسة الرسالة، بيروت 1985.

الأندلس العظام - فيما نعلم - قد أطلعنا عليها في القرن السابع الهجري، هما:
ابن الأثير صاحب «التكملة لكتاب الصلة» (ت 658)، وابن عبد الملك
المراكشي الأنصاري صاحب «الذيل والتكملة لكتاتبي الموصول والصلة» (ت
703).

يقول ابن الأثير:

«سليمان بن حسان، المتطّيب، من أهل قرطبة، يُعرف بـ «ابن جُلْجُل»،
ويُكنّى «أبا أيوب».

«سمع الحديث بقرطبة في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، وهو ابنُ عشر
سنين، من «أبي بكر أحمد بن الفضل الدينوري»، و «أبي الحزم وَهْب بن
مسرة»، بمسجد «أبي علاقة» وجامع قرطبة والزهراء وغيرهما، مع أخيه
«محمد بن حسان».

«ثم ترعرع، وسمع «أحمد بن سعيد الصديقي المنتجالي»، و «أبا عبد
الله محمد بن هلال»، و «أبا إبراهيم إسحاق بن إبراهيم»، و «الأسعد بن عبد
الوارث».

وأخذ العربية عن «محمد بن يحيى الرباحي»، قرأ عليه «كتاب سيبويه»
في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وهو آخر القراءة عليه، وفي تلك السنة كانت
وفاته رحمه الله.

«وصحّب «أبا بكر بن القوطيّة»، و «أبا أيوب سليمان بن محمد» الفقيه،
وغيرهما.

«وُعْني بطلب الطبّ، فغلّب عليه وعُرف به، وبلغ منه الغاية. وطلّبه
وهو ابنُ أربع عشرة سنة، وأفتى فيه وهو ابنُ أربع وعشرين.
«ألف كتاباً حسناً في طبقات الأطباء والحكماء، وفرغ منه في صدر سنة
سبع وسبعين وثلاثمائة.

«ومولده سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

«روى عنه «سعيد بن محمد الطّلّيطلي» المعروف بـ «ابن البغونش»؛ ذكر

ذلك القاضي صاعد، وذكره أبو محمد ابن حزم في رسالته⁽³⁾.

وليس يفتقر نص الترجمة لابن جلجل الوارد عند ابن عبد الملك عن نص ابن الأثير إلا سيراً، فكلاهما مُقتبَسان من ترجمة المؤلف الذاتية. ومع إيجاز نقل ابن عبد الملك، فإن فيه أنه «صنّف [في الطب] كتاباً جليلاً النفع»⁽⁴⁾.

وفي المشرق، ترجم له القفطني (ت 646)، فقال:

«سليمان بن حسان، الطبيب الأندلسي المعروف بابن جلجل. ذكّي، له تفرّد بصناعة الطب، وله ذكر في عصره ومصره. كان له تطلّع على علوم الأوائل وأخبارهم، وله تصنيف صغير في تاريخ الحكماء لم يشف فيه غليلاً، وكيف وقد أورد من الكثير قليلاً؟ ومع هذا فقد كان حسن الإيراد»⁽⁵⁾.

ثم كان لا بدّ من أن يُترجم له ابن أبي أصيبعة (ت 668) في موسوعته التاريخية بهذا الطبيب الأندلسي الكبير... وقد استهلّ حديثه عنه،

(3) «الكلمة لكتاب الصلاة»، مشترك على طبعة كوديرا (مدريد 1915): 297 و 98.

سوف يرد (أدناه) التعريف بأساتذته وأصحابه وتلاميذه، فضلاً عن الأطباء المعاصرين له. فأما ذكر القاضي صاعد له (ت 462)، فسوف نعتضده (أدناه) في مناقشة سنة وفاته (وفاة ابن جلجل).

وأما ذكر أبي محمد بن حزم له (ت 456)، فكان في رسالته الشهيرة: «رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها»، وعبارته «وإنما أُلّف في الأندلس من كتب الأخبار» كتاب أخبار أطباء الأندلس لسليمان بن جلجل، «رسائل ابن حزم الأندلسي» (تحقيق الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، الجزء الثاني (1981) 184. ونحسب أنّ ابن حزم لم يطلع على كتاب ابن جلجل هذا اطلاع قارئ متقصّ، ذلك أن الكتاب لم يكن في «أخبار أطباء الأندلس» وحدهم، بل في أطباء غير الأندلس أيضاً!

وقد اقتبس الحنّدي (ت 488) من أستاذه ابن حزم، فقال: «سليمان بن جلجل، مذكور بالطب والأدب، له كتاب في أخبار الأطباء بالأندلس. ذكره أبو محمد علي بن أحمد [ابن حزم]، «جدوة المقتبس...»: 225.

(4) «الذيل والكلمة...»، السفر الرابع (تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1964): 62.

(5) «إختيار العلماء بأخبار الحكماء» (مكتبة المتنبي، القاهرة د.ت، طبعة مصورة عن طبعة مصر 1326 هـ/ 1908 م): 130.

المستفيض، بهذه الترجمة الصغيرة:

«هو «أبو داود»، سليمان بن حسان، يُعرف بابن جليل. وكان طبيباً فاضلاً، خبيراً بالمعالجات، جَدّ التصرّف في صناعة الطب. وكان في أيام هشام المؤيد بالله، وخدمه بالطب. وله بصيرة واعتناء بقوى الأدوية المفردة، وقد فسر أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس العين زربي، وأفصح عن مكنونها، وأوضح مستغلق مضمونها...»⁽⁶⁾.

وإذا كانت المصادر التاريخية قد عيّنت سنة مولده، 332 هـ (944 م)، فإنها سكّنت عن ذكر تاريخ لوفاته. فكان هناك، في تقدير ذلك، مذهبان:

أولهما: أنه توفي بعد 377 (987 م)، السنة التي أُلّف فيها كتابه «طبقات الأطباء والحكام»⁽⁷⁾.

والمذهب الثاني: أنه توفي بعد 384 (994 م)، وهو مذهب فؤاد سيّد (محقّق كتاب: الطبقات...)، وذلك استناداً إلى أنّ ابن جليل كان أستاذاً للطبيب الذي ظهر فيما بعد: سعيد بن محمد المعروف بابن البغونش، وهذا وُلِدَ سنة 369، «إذا فرضنا أنه بدأ في دراسة الطبّ وسنّه خمسة عشر عاماً تقريباً - وهي السنّ التي بدأ فيها ابنُ جليل دراسة الطبّ - فيكون ذلك سنة 384 هـ. ومن هذا يُمكننا أن نقول - يتابع الباحث فؤاد سيّد -: إنّ ابن جليل مات بعد هذه السنة»⁽⁸⁾.

قلتُ: وأذهب، أنا، إلى أنه توفي في سنة 399 (1009 م) أو بعدها.

(6) ابن أبي أصيبعة: 493.

ثم استغرق الحديث عن كتاب حشايش ديسقوريدس: ترجمته التي كانت ببغداد ثم وصول النسخة الإغريقية والراهب نقولا إلى قرطبة (على نحو ما يتّأعلاه).

وهشام المؤيد بالله، هو آخر الخلفاء الأمويين في الأندلس (366 - 399)، قبل سقوط دولتهم. ونلاحظ أنّ مؤرّخ الأطباء الدمشقي قد كُناه بـ «أبي داود»، وذلك ما لم يرد في المصادر الأندلسية، بل ورد: «أبي أيوب»، وهو ما اعتمدناه في بحثنا.

(7) حسب رواية المؤرّخين الأندلسيين (نقلًا عن ابن جليل).

(8) مقدّمة طبقات ابن جليل، ص: يز.

والدليل عندي نصٌ وقفْتُ عليه عند مؤرخ العلوم الأندلسي، اللاحق على عصر ابن جلجل، القاضي صاعد الطليطلي (ت 462)، ورد فيه أنه كان، في قرطبة، «إلى آخر الدولة العامرية، جماعةٌ لهم نفوذٌ في صناعة الطبِّ وتمرُّس بها...»، وعندهم فكان أولهم ابنُ جلجل...⁽⁹⁾.

وأما «الدولة العامرية»، فهي التي أقامها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، المتغلب على الخليفة الفتي هشام المؤيد بالله، بعد وفاة أبيه الحكم المستنصر في سنة 366. ومع أنَّ الحاجب ابن أبي عامر توفي سنة 392، إلا أنه استخلف في «دولته» ولده عبد الملك المظفر، وخلف هذا أخوه عبد الرحمن الذي قُتل في 16 جمادى الأولى 399 (15 شباط/ فبراير 1009 م)... فانقرضت، بمقتله، الدولة العامرية، وكذلك الدولة الأموية المروانية، وخضعت الأندلس لفتنة كبيرة تلتها المحن طَوال عصر ملوك الطوائف⁽¹⁰⁾!

فيكون سليمان بن جُلجل قد عاش نحواً من سبعين سنة.

3 - أساتذته، وأصحابه، وتلاميذه:

ذكرت المصادر التاريخية - كما بيَّنا - أنَّ سليمان بن حسان سمع الحديث بقرطبة وهو ابن عشر سنين (أو إحدى عشرة) في مسجد أبي علاقة وفي جامع قرطبة وفي جامع مدينة الزهراء التي ابتناها عبد الرحمن الناصر.

ومن أخذ عنهم، هو وأخوه الأكبر منه محمد بن حسان:

1 - أبو الحزم، وهب بن مسرة بن مفرج التميمي، من أهل وادي الحجارة (ت 346). كان حافظاً للفقهِ، بصيراً بالحديث، مع ورع وفضل. استقدم إلى قرطبة⁽¹¹⁾.

(9) «طبقات الأمم» (تحقيق حياة بر علوان، دار الطليعة، بيروت 1985): 192.

(10) وقد وردت عبارة «الدولة العامرية» (في طبعة مصر، مطبعة السعادة، د. ت): «الدولة العباسية»: 125، وهو تحريفٌ أو وهم من الناسخ أو من الطابع.

(11) ابن الفَرَضِي: «تاريخ علماء الأندلس» (الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1966): 2: 165 و 66.

و «وادي الحجارة» مدينةٌ بالأندلس بين قرطبة وطليطلة.

2 - أبو بكر، أحمد بن الفضل بن العباس الدينوري الخفاف (ت 349)، من أهل الدينور. قدم إلى الأندلس سنة 341، فأقبل الناس إليه وازدحموا عليه لتلقي العلم، في جامع قرطبة⁽¹²⁾.

3 - أبو زكرياء بن الشامة. انفرد بذكره ابن عبد الملك، فكناه ولم يبين اسمه⁽¹³⁾. ولعله - كما ذكر الحميدي - يحيى بن مالك بن عائذ، أبو زكرياء، المتوفى سنة 376 عن سنّ عالية. رحل إلى المشرق، وحدث في مصر والأندلس. وكان يُعَلِّم ويُحدث بجامع قرطبة⁽¹⁴⁾.

4 - أبو عمر محمد بن سعيد بن حزم، الصدي المتجالي (ت 350)، من أهل قرطبة. عني بالآثار والسنن وجمع الحديث. رحل إلى المشرق، وفي عودته صنف تاريخاً في المحدثين بلغ فيه الغاية، قرئ عليه⁽¹⁵⁾.

5 - أبو عبد الله، محمد بن هلال⁽¹⁶⁾.

6 - أبو إبراهيم، إسحاق بن إبراهيم (ت 352). ذكر الحميدي، نقلاً عن ابن حزم، أنه من «العلماء المذكورين. مات بمدينة طليطلة»⁽¹⁷⁾.

7 - أبو القاسم، الأسعد بن عبد الوارث بن يونس بن محمد القيسي، من أهل قرطبة. كان معلم كتاب⁽¹⁸⁾.

8 - ويذا أنّ طبيبنا قد تآتى له أن يتفقّه بالعربية وهو في السادسة

(12) ابن الفرضي 1: 61 و 62؛ و «الجدوة»: 140، 41.

و «الدينور» مدينة قرب همدان في بلاد فارس.

(13) «الذيل والتكملة...» 4: 62.

(14) «الجدوة»: 379 و 80.

وفيها، أيضاً، ترجمة لمحدث أندلسي آخر: يحيى بن زكريا بن الشامة الأموي، وهو متقدم على هذا، متوفى سنة 327 (أي قبل ابن جلجل)؛ وثالث قبلهما: يحيى بن زكريا بن يحيى، ابن الشامة، متوفى سنة 1275 (ص 376).

(15) ابن الفرضي 1: 43 و 44؛ و «الجدوة»: 125 و 26.

(16) ذكره ابن الأثير، لدى تملأه لشيخ ابن جلجل، ولم تنق في المصادر على ترجمة له.

(17) «الجدوة»: 168.

(18) ابن الفرضي: 1: 76.

والعشرين من عمره. فقد أخذ، في سنة 358، كتاب سيبويه عن محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي النحوي المعروف بـ «الرباعي»، من أهل قرطبة وأصله من جيان. رحل إلى المشرق. غلب على علمه العربية، قال في حقّه ابن حزم: كان لا يقصّر عن أكابر أصحاب الميرد. استأدبه الناصر لولده المغيرة، ثم صار إلى خدمة المستنصر في مقابلة الكتب. وكان ابن جليل آخر القُرّة عليه، فقد توفي في رمضان 358⁽¹⁹⁾.

وكان من أصحاب أبي أيوب رجال، منهم:

9 - أبو بكر، محمد بن عمر بن عبد العزيز، المعروف بـ «ابن القوطيّة»، من قرطبة، أصله من إشبيلية. كان إماماً في العربية له فيها كتاب تصنيف الأفعال. وكان حافظاً لأخبار الأندلس، مليئاً برواية سير أمرائها وأحوال فقهاؤها وشعرائها، يُملّي ذلك عن ظهر قلب، وله «تاريخ افتتاح الأندلس». قدّم إلى الشورى، وتصرّف في الخطط. طال عمره، فسمع الناس منه طبقة بعد طبقة. توفي سنة 367⁽²⁰⁾.

10 - وأبو أيوب، سليمان بن محمد بن سليمان، مولى لهماذان (300 - 371)، من أهل شذونة. رحل إلى المشرق سنة 331، وسمع بمكة ومصر. ثم انصرف إلى الأندلس. ولأه المستنصر صلاة أهل شريش⁽²¹⁾.

11 - وصحبه، خلال طلبه العلم خاصة، أخوه محمد بن حسان وأخذ معه عن الدينوري وابن مسرة وابن الشامة وغيرهم. عني بالحديث ولقاء أهله والأخذ عنهم⁽²²⁾.

12 - والمصادر التاريخية، التي أغفلت الإشارة إلى الطبيب أو الأطباء

(19) ابن الفرضي: 2: 69.

وتقع «جيان» إلى الشرق من قرطبة.

(20) ابن الفرضي: 2: 76 و 77؛ وابن تشكّوال «كتاب الصلة» (الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1966) ص 359.

(21) ابن الفرضي: 1: 187.

و«شريش» من كُور شذونة، إلى الجنوب من إشبيلية، قرية من البحر (المحيط الأطلسي).

(22) «الذيل والتكملة...» 6: 158.

الذين أخذ عنهم ابن جلجل، أشارت إلى متطبب واحد أخذ هو عن طبيبنا: أبو عثمان، سعيد بن محمد، المعروف بـ «ابن البغونش» (369 - 444)، من أهل طليطلة. قدم إلى قرطبة، وتلقى علوم الطب فيها على ابن جلجل وابن عبدون، ثم انصرف إلى طليطلة، واتصل بأمرها إسماعيل بن ذي النون الملقب بـ «الظافر» (ت 435)، وحظي عنده، فكان أحد مُدبري دولته. . .

ويتابع صاعد الطليطلي: «ولقيته أنا في صدر دولة المأمون بن ذي النون [435 - 467]، وقد ترك العلوم وأقبل على قراءة القرآن ولزوم داره والانقباض عن الناس؛ فلقيت منه رجلاً عاقلاً، جميل الذكر والمذهب، حسن السيرة، نظيف الثياب، ذا كتب جليلة في أنواع الفلسفة وضروب الحكمة؛ وتبينت منه أنه كان قرأ الهندسة وفهمها، وقرأ المنطق وضبط كثيراً منه، ثم أعرض عن ذلك وتشاغل بكتب جالينوس، وجمعها وتناولها بتصحيحه ومعاتاته، فحصل بتلك العناية على فهم كثير منها. . .».

ويستدرك معاصره القاضي صاعد: «ولم يكن له دربة بعلاج المرض ولا طبيعة نافذة في فهم الأمراض!»⁽²³⁾.

4 - ما صنفه ابن جلجل في الأدوية المفردة وغيرها:

إن الأهمية التي يكتسبها عالمنا القرطبي أبو أيوب، سليمان بن حسان، بين هذه الكوكبة الزاهرة من أطباء الأندلس، تتجلى في أنه كان في طبيعتهم زمنياً، فهو معاصر لأول أولئك الأطباء: ابن الهيثم، أحد أعضاء الفريق العلمي الثماني، الذي وضع مصتفاً في تصحيح أخطاء ابن الجزار القيرواني، مثلما كان معاصراً لابن سَمُحون، ثانيهم، الذي يبدو أنه أول من بادر إلى تصنيف كتاب خاص بالأدوية المفردة!

ومؤلفات أبي أيوب، هي:

1 - كتاب «تفسير أسماء الأدوية المفردة الواردة في المقالات الخمس لديسقوريدس». ألفه بمدينة قرطبة سنة 372، في عهد الخليفة هشام المؤيد

(23) صاعد: 193 - 95.

بالله (ولايته 366 - 399).

وقد اجتهد ابنُ جلجل أن يُفسّر، في هذا الكتاب، أو يُترجم، المصطلحات اليونانية عند ديسقوريدس، فجاء كتابه أشبه بمعجم مُزدوج اللغة، يوناني - عربي، فكانَ ابنُ جلجل كان بذلك أولَ من وضع في العربية معجماً مزدوج اللغة⁽²⁴⁾.

وقد أكثر، من بعدُ، الغافقي، ثم ابن البيطار، النقلُ من هذا «المعجم»، كلُّ في ما ألّف عن الأدوية المفردة. وأمّا ابن أبي أصيبعة، فقد اقتبس - من مقدّمة الكتاب - نصّاً بالغ الأهميّة، هو ذلك الذي روى فيه ابنُ جلجل خبرَ وصول كتاب ديسقوريدس إلى أمير الأندلس... وعلى هذا النصّ لم يزل يُعَوّل الباحثون في ترجيح هذه الواقعة⁽²⁵⁾.

ومن المؤسف أننا نفتقد، اليوم، هذا الكتاب، إلا قطعةً منه صغيرة محفوظة في مكتبة مدريد.

2 - مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه، ممّا يُستعمل في صناعة الطب ويتنفع به، وما لا يستعمل كيلا يُغفل عن ذكره.

ثم انظر إلى التلطف في تسويغ ابن جلجل لإغفال الطبيب الإغريقي لهذه الأدوية... يقول: «إنّ ديسقوريدس أغفل ذلك، إمّا لأنه لم يره ولم يشاهده، عياناً، وإمّا لأنّ ذلك غير مستعمل في دهره وأبناء جنسه»⁽²⁶⁾.

(24) ويضيف ابن مراد: «بل إنّ ابن جلجل قد سجّل أحياناً - مع العربية - المصطلحات اللاتينية والبربرية والفارسية التي تُقابل المصطلحات اليونانية»، 1: 34، الحاشية 15.

(25) ابن أبي أصيبعة: 493 - 95.

ومما ورد في ذلك النصّ، حل لسان أبي أيوب:

«وكان لي، في معرفة تصحيح هيلو الطب الذي هو أصل الأدوية المركبة، حرص شديد ويحث عظيم، حتى وهبني الله من ذلك بفضل بقدر ما أطلع عليه من نيتي، في إحياء ما خفت أن يدرس، وتذهب منفعتي لأيدان الناس، فإله قد خلق الشفاء وبه فيما أنبت من الأرض، واستقر عليها من الحيوان المشاء، والسابع في الماء، والمنساب، وما يكون تحت الأرض في جوفها من المعدنية، كلّ ذلك فيه شفاء ورحمة ورفق».

(26) ابن أبي أصيبعة: 495.

وفي مكتبة البودليانا بأكسفورد رسالة صغيرة لابن جليجل ضمن مجموع، عنوانها: «استدراك على كتاب الحشائش لديسقوريدس»، فلعلها هي⁽²⁷⁾.

3 - «مقالة في أدوية الترياق»⁽²⁸⁾. ومنها نسخة ضمن مجموع، في مكتبة البودليانا، المشار إليه أعلاه.

4 - «رسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين»⁽²⁹⁾ ولم تصل إلينا - في علمنا - نسخة منها.

5 - كتاب «طبقات الأطباء والحكماء». ألفه استجابةً لطلب أحد الشرفاء الأمويين في عصره، وفرغ منه في صدر سنة 377. وقد ترجم فيه لأطبائه عصره الأندلسيين، ولبعض أطباء المشرق، ولعدد من أطباء الأمم السابقة، وجعله في تسع طبقات.

وقد حققه، تحقيقاً علمياً رفيعاً، الباحث المصري فؤاد سيد (1916 - 1967)، وأصدره المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية بالقاهرة سنة 1955⁽³⁰⁾.

ويُعَدّ هذا الكتاب، الذي تقوم شهرة ابن جليجل عليه في الوقت الراهن، مصدراً هاماً لتاريخ الطب العربي، والأندلسي منه خاصة.

تلك هي أهم المؤلفات - في رأينا - التي نشط الأندلسيون في تصنيفها في مجال الأدوية المفردة، على مدى ثلاث مئة السنة التي تلت وصول الطبيب الرومي إلى قرطبة.

وذلك، بطبيعة الحال، عدا ما أبداه أطباء الأندلس من اهتمام بالأدوية المفردة في مؤلفاتهم الطبية العامة، سواء في فصول وضعوها مستقلة بذاتها،

(27) فؤاد سيد، في مقدمته لكتاب «طبقات الأطباء والحكماء»، صفحة: كب.

(28) ابن أبي أصيبعة: 495.

(29) ابن أبي أصيبعة: 495.

(30) ومنه الطبعة الثانية، المصوّرة (أعلاه: الحاشية 9)، وقد دُوِّلت بكتاب آخر صُلِّحَ المحقق نفسه، عنوانه: «تاريخ الأطباء والفلاسفة لإسحق بن حنين».

على نحو ما حققه الطبيب الجراح الزهراوي، أبو القاسم خلف بن عباس (ت بعد 400)، في كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف»⁽³¹⁾؛ أم تناولوها في ثنايا كتبهم كما فعل سائر الأطباء، مثل أبي مروان عبد الملك بن زهر (ت 557) في كتابه «التيسير في مداواة والتدبير»⁽³²⁾، والطبيب الكحل الغافقي، محمد بن قسوم بن أسلم (القرنين السادس والسابع) في كتابه «المرشد في طب العين»⁽³³⁾.

ثانياً: مفردات ابن جليل

قلتُ: إن كتاب أبي أيوب، سليمان بن حسان بن جليل، المتميز، الذي أشبهه معجماً مزدوج اللغة، «تفسير أسماء الأدوية المفردة الواردة في المقالات الخمس لديسقوريدس»، قد فقدَ إلا قطعة منه صغيرة، محفوظة في إحدى مكتبات الغرب!

ولكن أبا محمد عبد الله بن البيطار، المالقي، الذي نهض - بعد عصر ابن جليل بنحو مئتين وخمسين سنة - إلى تصنيف موسوعته «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»، تلك التي أحاطت بكل ما استوعبته الحضارة العربية الإسلامية من معلومات عن النباتات الطبية، كان لا بد له من أن يستفيد مما تضمنه معجم ابن جليل. وهكذا انكفأ يغترف من مفردات مواطنه الأندلسي... وقد ذكره، باسمه الصريح، في موسوعته، ستاً وخمسين مرة⁽³⁴⁾.

(31) في المقالة التاسعة والعشرين، التي خص بها العقاقير.

(32) صدر بدمشق، سنة 1983، بتحقيق الدكتور ميشيل الحوري (ت 1980) عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بونوس (اليسكو) ودار الفكر بدمشق.

(33) سبق التعريف به أعلاه (الحاشية 64).

(34) بكنيته: ابن جليل، أو باسمه: سليمان بن حسان، وأحياناً باسمه محرفاً: «سليم بن حسان»! يقول المستشرق الفرنسي لوسيان لوكيريك: إن ابن البيطار ذكر ابن جليل (أو نقل عنه)، في «جامع المفردات»، «حوالي ثلاثين مرة... تارة بكنيته، وتارة باسم سليمان بن حسان».

Histoire de la Médecine Arabe (2 T.), Paris 1876 Réédité Rabat 1980, 1: 432.. (الرباط)

قلتُ: إن عدد المفردات، التي وردت تحليلها تحلياً وأقية على لسان ابن جليل، هو 32=

وها نحن أولاء نقتطف، من موسوعة ابن البيطار: إضمامة مفردات مما
اشتمل عليه كتابُ ابن جُلجل المفقود!

5 - مفردات من نبات وحيوان ومعدن:

ومن المفردات النباتية، التي نقلها ابنُ البيطار من كتاب ابن جُلجل:
«المَحْلَب»، وهو ما لم يأتِ على ذكره ديسقوريدس ولا جالينوس.

وقد اقتبس ابن البيطار وصفاً له، موجزاً، من أبي حنيفة الديلمي:
«شجرة يابسة، بيضاء الثور، وثمره يقع في الطيب»⁽³⁵⁾.

ثم يورد تعلية ابن جُلجل له:

المَحْلَب «هو حبّ شجرة تُشبه الصفصاف في ورقها وعودها، إلا أنها
دونها في الطول. وهو بالأندلس كثير. وحبّ المحلب مدور، عليه قشرة]
إلى الحُمرة والسود، تحتها قشرة] خشبية صلبة، داخلها طعنة (!) بيضاء
عطرية فيها شيء من مرارة. وشجرته يسمو، وله خشبٌ غليظ صلب.
وُستعمل حبّ المحلب في المسوحات والتقاوات»⁽³⁶⁾.

ومن مفردات ابن جُلجل الحيوانية: «الجُرّي»... يقول:

«هو حوتٌ يكون بنيل مصر، طويل، أملس، ليس له فصوص ولا
ريش، وله رأسٌ إلى الطول، وفمٌ مستطيل كالخرطوم. وسمّاه ديسقوريدس

«ولكن هناك أربع عشرة مفردة ذُكر فيها اسمه على لسان علماء آخرين؛ فيكون عدد المرات،
التي ورد فيها ذكرُ لابن جُلجل في «الجامع»، ستاً وخمسين (منها أربع مرات بالاسم المحرف:
سليم بن حسان!).

(35) «جامع المفردات» 4: 141.

والديلمي (ت 282) هو أول الموسوعيين العرب الذين عُثِرَ بوصف
النباتات، وله في ذلك كتاب «النبات».

(36) «الجامع» 4: 141.

ومن فوائد المحلب عند الأقدمين: أنه نافع لوجع الحاصرة، مُفَتِّتٌ لحصى الكلث والثانة، يُنْزِلُ
دم الحيض، جَيِّدٌ لأوجاع الظهر، نافعٌ للفتش مشروباً بماء العسل، ونافعٌ للقولنج، ويقطع
الكُفَّفَ إذا دُقَّ وُخِلَ به وُطِّلَ عليه...

بيلورس. وهو سمينٌ رطب، في لحمه رخاوة ولزوجة ولا تأكله اليهود⁽³⁷⁾.
ومن مفرداته المعدنية التي نقلها ابن البيطار: «الزنجفر» (مصطلح فارسي) ... يقول فيه ابن جليل:
«هو صنفان: مخلوق ومصنوع».

* «فالمخلوق يُسمى باليونانية «مينون» [Minion]، وهو «حجر الزئبق».
* «والمصنوع يُسمى باليونانية «كيناباري» [kinnabari]، وهو (القينار)، وهو يُصنع من الكبريت والزئبق: يؤخذ من كل واحد منهما جزء فيُجمعان بالسحق، ويوضعان في قدر ويُستوثق من فمه - لئلا يطير الزئبق - بغطاء، ويُطَيَّن ب «طين الحكمة»، ويُدفن في نار السرجين يوماً وليلة⁽³⁸⁾.
وينقل ابن البيطار، في هذه المادة، مرة ثانية، عن أبي أيوب:
«الزنجفر يقع في المراهم المُدملة للقروح العفنة ويُستعمل دُوراً على الآكلة، وعلى كل ما فيه من القروح عفونة⁽³⁹⁾».

(37) «الجامع... 1: 161.

والخوت هو السمك، بلغة أهل الأندلس، وأهل المغرب حتى اليوم.
ويقول ديسقوريدس: إذا أكل وهو طري كان مغذياً مُلئناً للبطن، وإذا مُلِحَ وعُثِقَ كان قليل الغذاء...

وفسر ابن البيطار: «سُولُورُس» [Silúros]: هو الجزري، وهو السُلُور في بعض التراجم، وهو حوت أُمس لا تشر عليه، وأكثر ما رأته بنيل مصر واليهود والشبيبة لا تأكله، وهو المعروف بـ «الشُباح»، في الأدوية المفردة: تفسير كتاب دياسقوريدوس (وسوف نُشير إليه اختصاراً: تفسير ابن البيطار): 163.

(38) «الجامع... 2: 170.

و «طين الحكمة» من الأطين المرتبة التي كان القدماء يعتنون بها. وهو طينٌ خالص يُخلط بمواد أخرى، ويُعجن، ويُحمَر... وتفصيل صنعته عند داود الأنطاكي: «تذكرة أولي الألباب...» (الكتبة الثقافية، بيروت د. ت: 1: 234.

والكلمات داخل الأقواس والمقفات، مصححة أو مضافة من «الجامع...» في نصه الفرنسي للمشتق لوكليز (تقلاً عن «المصطلح الأعجمي...»، مادة: زَنْجَفَر).
ونار السرجين (أو السريقين) هي التي وقودها الزئبق.

(39) «الجامع... 2: 170.

والآكلة (والأكال): الحكمة.

وفي أُرُجته استعماله يقول ديسقوريدس: وقد يستعمله «المصورون في الصور التي يتأثقون=

6 - الياسمين: أبيض، وأصفر... :

وبدا أنّ تحلية ابن جلجل لنبات «الياسمين» كانت أفضل ما هنالك،
بدليل أنّ ابن البيطار - وقد نقلها عنه - لم يقرنها بأية تحلية لغيره.
يقول أبو أيوب:

«هو نبات، له عصي طوال، مخرجها من أصل واحد ثم تتفرع إلى
فروع، ولها ساق فيها ورق شبيه بالخيزران، إلا أنّ هذا ألين وأشدّ خضرة؛
وله نوزّ أبيض ذو أربع شرفات، طيب الرائحة؛ ويكون منه أصفر، وزعم قوم
أنّه يكون منه أزرق!»⁽⁴⁰⁾.

ولتوّار الياسمين نفع في التحضير لـ «دهن الزنبق»⁽⁴¹⁾.

يقول ابن جلجل في مادة «دهن الزنبق»: يُرَبَّى السمسم بنوّار الياسمين
الأبيض، ثم يُعْتَصَر منه دهن يُقال له: [دهن] الزنبق»⁽⁴²⁾.

ويُعَدّد ابن البيطار فوائد هذا الدهن - الذي يُطلق عليه أيضاً: «دهن
الياسمين» - ومنها: نَفْعُهُ «من الفالج والصرع واللقوة والشقيقة الباردة،
والصداع البارد إذا دُهنت به الصدغان أو قَطُر في الأنف منه، وإذا تُمَرَّخ به
جلب العرق وحلّل الإعياء ونفع من وجع المفاصل (...). وإذا دُق ورق
الياسمين الرطب وأُغلي بدهن الخَلْ قام مقام [دهن] الزنبق (...). ودهن
الزنبق عجيبٌ شديد النفع لمن أخذتْ حُصاة تعظّم وتَرم، بأن يُقَطَّر منه في

= فيها»، كما يصلح للاستعمال في أدوية العين... وابن سينا: يمدد الجراحات، ويُنبت اللحم
في القروح، ويمنع من تأكل الأسنان...

(40) «الجامع...» 4 : 201.

(41) ولا علاقة لهذا الدهن بـ زهر الزنبق!

قلتُ: وفي اليمن يُطلقون على الياسمين: الزنبق.

(42) «الجامع...» 2 : 108.

وتُرى (أو يُرتَّب) السمسم بالياسمين: يُعمل منهما مرّي (أو رُب). والمرّي أو الرُب: العُصارة
المطبوخة، من ثمر أو زهر أو نحوهما.

إحليله مراراً⁽⁴³⁾.

وإذا كان بعض علماء العرب قد رأوا في زهر الياسمين فوائد للمصدع والشقيقة أو نفعاً للمستئين، أو دواءً قاطعاً لنزف الأرحام⁽⁴⁴⁾، فإن شعراء العربية، الذين تفتنوا في وصف أنواع الأزاهير، ما كان ليفوتهم التفتي بجمال الياسمين.. يقول الشاعر:

كأنما ياسمينُنا الغضُّ كواكب في السماء تبيضُّ
والطُرقُ الحُمْرُ في جوانبه كخَدَ عذراء ناله العَضُّ⁽⁴⁵⁾

(43) «الجامع» 2 : 108.

(44) ينقل ابن البيطار عن الإدريسي قوله: «إذا أخذ زهره وشحق وشرب من مائه ثلاثة أيام، كل يوم أوقية، قطع نزف الأرحام، مجرب. وإذا شحق يابساً ودُرَّ على القروح نفعها، وعمل الشعر سوده»، «الجامع» 4 : 202.

(45) «جدوة المقتبس» : 296.

والبيتان لعبد بن محمد، الملقب بالمعتقيد بن عبد، الذي ملك إشبيلية (433 - 461) في عصر ملوك الطوائف.

ويُعرف الياسمين، في معاجمنا الزراعية اليوم:

ياسمين، ياسمين، ياسمون، [وفي معاجم اللغة والمفردات، أيضاً: السجلاط]، والاسم العلمي *Jasminum* من ياسمين العربية، وهذه من الفارسية: جنس جُنيَّبات، من الفصيلة الزيتونية والقبيلة الياسينية، تُزرع لزهرها. ويُستخرج من الياسمين من بعض أنواعها.

ومن أنواعه:

* الياسمين المعروف أو الشائع: وهو النوع الأبيض الزاهر، المتصنِّع الرائحة، المبلول في الشام وفي مصر وتونس وغيرها. دهنه من أجل الأدهان؛

* الياسمين كبير الزهر: داخل الزهر أبيض، وخارجُه إلى حمرة. وهو مُتصنِّع الرائحة، قريب من النوع الشائع؛

* الياسمين الأصفر، أو النَّحْلِيّ: زهره أصفر، لا رائحة له؛

* الياسمين غريبان الزهر: أوراقه أخضال، وزهره أصفر لا رائحة له؛

* الياسمين الزينقي، أو القُلّ: هو القُلّ المعروف في الشام ومصر؛

* وهناك ما تسمّيه العامة بدمشق «الياسمين العراقي»: جنس جُنيَّبة مُعتزلة تُزرع في البيوت، زهره عسلي اللون وعطر.

انظر: «معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية» (إنكليزي - عربي)، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية 1982.

قلْتُ: وفي حلب يُسمون الياسمين العراقي: بـ «القسلة».

7 - الجُلْبَان والقَطَانِيَّات :

ومِمَّا حَلَّى ابنُ جُلجُل من النبات : «الجُلْبَان»⁽⁴⁶⁾ ، وتُلَفظ : الجُلْبَان ، والجُلْبَان ، والجُلْبَان ... يقول :

«هو من القَطَانِي المأكولة . وله قضبانٌ مربعة سباطية ، ينسبط على الأرض ، وله ورقٌ حوالي القضبان إلى الطول ، منحنية على القضيب ، وله نَوَازٌ إلى الحُمْرة ؛ تَخْلِفُه مزاوِدٌ فيها حَبٌ مدوّر إلى البياض وليس بصحيح التدوير ، حلوٌ ، ويؤكل نَبْتًا في الربيع ، ثم يَجِفُّ وَيُطْبَخُ . وهو كثير الرياح . (ومنبته ، إذا رُقِد فيه ، أبطل حركة الراقد عليه ، لأنَّ له خاصية مضرّة بالعصب إضراراً كثيراً شديداً ، وقد رأينا مَنْ بَطُلَ منه مشيّه ، ثم لم يعد صحيحاً)»⁽⁴⁷⁾ .

ويُضَيِّف الغافقي ، من عنده :

«ومن الجُلْبَان صنفٌ كبير (مرز) لا يؤكل إلا مطبوخاً ، ويُسمّى البسيلة ، (وباليونانية باسيليقون Basilikon ، ومنه برّي ، ورقه أكبر من ورق الجلبان البستاني ، تميل خضرته] إلى البياض ، وقضبانُه خارجةٌ من نفس ورقه ، وكان وكأنها ملصوقة على جانبي القضبان (!) متوازية ، وفي طرف كل ورقة ثلاثة خيوط ملتفة كخيوط الكرم إلا أنها أرق ، يلتف بما قرّب منها من النبات ، (وزهره أبيض أو أحمر ، وله خرايبٌ فيها حَبٌ أصغر من الترمس) . وإذا أُكِل وَلَدَ اللبن»⁽⁴⁸⁾ .

= والجُنْبَة (و الجُنْبِيَّة تصغيرها) ، مصطلح أقدمه مجمع اللغة العربية بالقاهرة : كل نبات مُعَمَّر ، خشبيّ يتميز - في وضوح - من القُشْب المَعَمَّر ، بساقه الدائمة الخُشْرَشِيَّة ، ويتميّز - في وضوح أقل - من الشجر ، بأن يكون قليل الارتفاع وإن شاخ ، وبأنْ نمُو فروعه يبدأ من قاعدته ... ويرى الأمير مصطفى الشهابي أنَّ مصطلح الجُنْبَة أصلح من «فُتُش» (اليونانية Thámnos) التي استعملها ابن الطائر (وفيه من التمداد) جهلاً للشيء .

(46) وعنه نقل الغافقي في كتابه «الأدوية المفردة» ، ثم ابن الطائر .

(47) «الجامع» . 1 : 164 و 165 ؛ وما بين القوسين زيادة من «منتخب الغافقي لابن العبري» (مايرهورف وصبحي ، القاهرة 1932 - 1940 ، وانظر الحاشية أعلاه 65 : د) : 116 و 117 .

(48) «الجامع» . 2 : 165 ؛ وما بين القوسين زيادة من «منتخب الغافقي» . 117 .

وفي تعريف معاصر للجُلْبَان :

قَطَانِيَّات ، سِنْفِيَّات ، قُرْبِيَّات Leguminosae فصيلة نباتية مهمة من ذوات الفلقتين ، تشمل القطاني وكثيراً

8 - والمَوْز، الذي بالسَّكَّر يُؤْكَل :

ويستعير ابن البيطار وصف «شجرة الموز» من الدينوري، الذي سماها «الموزة»... يقول:

«... وأوراقها طويلة عريضة، تكون ثلاثة أذرع في ذراعين (...). وترتفع الموزة قائمةً باسطة، ولا تزال تنبت حولها واحدةً أصغر من الأخرى، وربما كانت عشرين، فإذا هي طلعت تطلع وقد قاربها فرخها في الطول. فإذا أدركت موزها، قُطعت الأم من أصلها، فتؤخذ، وتطلع فراخها إلى أن تصبح أمًا، ولا يزال كذلك أبدًا. ويكون القِثو منه ما بين الثلاثين إلى الخمسين، فيجمد العنق حيثئذ»⁽⁴⁹⁾.

ثم إن ابن جليل يُحلّي شجر الموز، بعد مئة سنة من عصر الدينوري، غير مُطلع فيما يبدو على وصفه لها⁽⁵⁰⁾، يقول:

= من نباتات العلف (كالقول والجفص والتمس والفصفصة والبرسيم)، وبعض النباتات الطبية (كالتسنا والقلقل)، وبعض نباتات التزيين (ككثير من أنواع السُّنط، وكالتسنت الكاذب والغلايشيا والسُّنَّاء...). وفي هذه الفصيلة ثلاث قبائل: الفراشية والسيرَ لُبية والميموزية. والجلبان *Lathyrus* جنس نباتات عُشبية من الفرتيات الفراشية، فيه أنواعٌ تُزوع لحبها ولكلها، وأنواعٌ تُزوع لزهرها، وأنواعٌ كثيرة برية تنبت في أنحاء الشام.

وما يُزوع لحبه وكلته:

• الجلبان المزروع: وهو المعروف، يُزوع في أنحاء الشام، وحبه يُعلفه البقر، وقد يأكله الإنسان مطبوخاً. ومنه: البيسلي من اللاتينية *Piselli* نصير *Pisum*؛

• وجلبان غليظ: نوعٌ ينبت برياً، ويُزوع لحبه وخاصة لكلته، وحبه أسمر أصفر من حب الجلبان المزروع.

وما يُزوع لزهره:

• جلبان كبير الزهر، وآخر عريض الورق: نوعان مُعمران معرّشان، يُزوعان لزهريهما؛

• وجلبان عطر (أو بيسلي عطرة) *Lathyrus odratus*: نوعٌ معرّش يُزوع لزهره، ويسمونه سبْكَاً وبعطراً في دمشق (ويطلقون أيضاً هذين اللفظين على غيره).

(49) «الجامع...» 4: 168.

والقِثو: الجُلْدُ بما فيه من الرُّكْب، ج أقتناه وقِثوان. وفي التنزيل العزيز: «ومن التخل من ظلهم أقتنوا ذاتية». والعامة في الشام تسميه: قُرْط الموز.

(50) قلت: لأنه لو كان اطلّع على وصف الديتوري هذا، لكان أشار إليه، وصحّح ما يعتقد أنه الصواب (على نحو ما يأتي أدناه).

«شجره في شكل النخلة. ساقه له ورق خارج منه، أملس، عريض، كبير جداً، مخطوط، مليح المنظر، وله عتقود يخرج منه الموز كالقثاء، وهي [الشجرة] أول طلوعها خضراء، ثم تصفر، ثم تسود إذا نضجت، ودخلها طعمه كالزبد، حلوة، ليّنة، تؤكل بالسكر. وهي مُرطبة للمعدة اليابسة مع تبريد لطيف، وتلين الصدر، وتنفع في السعال»⁽⁵¹⁾

وفي منافع الموز، أيضاً، يقول الطبيب مَلِّين القوصوني المصري (ت بعد 1044م):

«مَلِّين للطبيعة بإزلاقه، مُرطب للمعدة اليابسة، مُدر للبول، مُحرك لباه المحرورين خصوصاً إذا أكل بالسكر. ويزيد في المنيّ وخصوصاً بالعسل للمبرودين، ويزيد في البلغم والصفراء في كل مزاج بحسبه. والإكثار منه يُثقل على المعدة، ويُصلحه أن يُتبع بالسكنجيين»⁽⁵²⁾.

9 - بالمعرفة يتكامل العلماء :

إنّ من تقاليد العلم، بل إنّ من سُنّة الحياة المتواصلة حلقاتها، أن يستعين المتأخرون بمعارف المُتقدّمين. وقد كان العلماء اللاحقون ينسبون المعلومات - التي يتقنونها - إلى أصحابها أحياناً، وأحياناً يُقلّون ذلك، ونقلهم كثيراً ما يقترن بإضافة من الناقل يُوشّي بها النصّ المنقول.

(51) «الجامع . . .» : 168 و 169.

(52) «قاموس الأطياف وناموس الألباء» (من مصوّرات مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلدان، 1979 و 1980) 1 : 208.

وصفة الموز، اليوم:

الموز Musa: اسم الجنس العلمي من «موز» العربية. جنس نبات من وحيدات الفلقة والفصيلة الموزيّة. وهو، نباتاً، عُشبة عظيمة تزرع لثمارها السكرية النشوية. وفيه أيضاً أنواع للتزيين. ومن أنواعه:

- موز الحبشة؛ وموز اليابان؛ وموز الصين؛
- وموز الجنة، لاحتماد بعض القبائل أنه هو الشجرة التي حُرّم أكلها على آدم وحواء؛
- وموز المقلاع، لأنّ حفلاء الهند كانوا يجلسون في ظله ويأكلون ثمره؛
- وموز النسيج، أو الأبق، يقتلون أليافه حباً أخفيفة متينة، ويصنعون منها حُصراً وُسْطاً ونسيجاً وورقاً، وغير ذلك.

وإنّا لنقف، في القليل من مفردات ابن جليل التي بين أيدينا، على شيء مما نسميه اليوم بـ«الأمانة العلمية». مثال ذلك أنّ ابن جليل لا يفوته، وهو يحلّي نبات «بستان أبروز»⁽⁵³⁾، أن يُشير إلى سبقي حَقِّقه واحد من أطباء قرطبة الذاهبين، يونس الحراني.

يقول أبو أيوب:

«هو نبات، يعلو في قدره أكثر من ذراع، له قضبانٌ طوال عليها ورقٌ كورق القثاء. (إلى الطول)، وفي أطراف (أغصانه) وشائع لونها قَرْفيري. مليح المنظر، وليس له رائحةٌ عطريّة. وأوّل مَنْ عرف هذا الدواء بالأندلس يونس الحراني. وماؤه، إذا شُرب معصوراً، نفع من الدواء القتال الذي يُقال له (أقونيطن [Aconitum])، وهو خائق النمر، وهو البتال عند شجاري الأندلس»⁽⁵⁴⁾.

ونلاحظ في ابن جليل، من ناحية أخرى، تفوقاً يتجلّى في أنه يكون، أحياناً، الوحيد الذي يحلّي مفردةً من مفردات «الجامع». هي - والأمر على سبيل المثال - «صمغ السزو»، التي نلاحظ فيها، أيضاً، أنّ ابن البيطار لم ينقل هذا الوصف عن طبيبنا أبي أيوب مباشرة، بل عبر طبيب معاصر له هو

(53) بستان أبروز، مصطلح فارسيّ معناه: «مُتَوَرِّ البستان»، ويُطلق عليه بالعربية: عُرف الديك.

(54) «الجامع... I: 94.

وقد نقل الغافقي، فيما بعد، هذا النصّ عن ابن جليل. وما بين القوسين إضافة وتصحيح من «متخب الغافقي»: 80 و 81.

وربما كان «أقونيطن Aconitum» يُسمّى، عند شجاري الأندلس: «القتال»، لا البتال!

والشجارون هم: المشابون، والحشائشيون، والنباتيون...

واللون القرفيريّ (Purpurin)، هو الأرجواني، الأحمر القاني، جداً.

والطبيب يونس الحراني، هو مَنْ تُرجم لهم ابنُ جليل في «طبقاته»، فذكر أنه كان في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن (خامس الأمويين: 238 - 273)، وروى حكاية إدخاله إلى الأندلس دواءً خاصاً بأوجاع الجوف، فكان الحراني، الوافد من المشرق، يحتفظ بسُرّ تركيبه ويبيح السقفة منه بخمسين ديناراً... والحكاية طريفةٌ تروي كيف أنّ خمسةً من أطباء قرطبة تعاونوا في اختيار الدواء بالشّم والتذوق، حتى اكتشفوا ماهيّته، فشاع من يومئذ في الأندلس، وهو المسمّى بـ«الغيث الكبير»... طبقات ابن جليل: 94 و 95.

ابن سَمْحُون! (55).

يقول «جامع المفردات» في مادة «صمغ السزو»:

«ابن سمحون: قال سليمان بن حسان: له جذّة وخرّافة، وهو دون الصمّوغ كلّها في المنفعة والفعل. وإذا استعط به نقي الرطوبة من الدماغ. وقوّته شبيهة بقوّة صمغ السذاب وصمغ الصنوبر، إلا أنه أضعف بقليل، ولذلك صار القطران الذي يخرج من شجره أضعف من القطران الذي يخرج من جنس الصنوبر الذي يقال له الشرّيين» (56).

ولقد ضمّن الغافقي الأندلسي موسوعته في المفردات غير قليل من مفردات سلفه ابن جليل، ونسبها إليه. من ذلك مادة «بَقْسِيس»... يقول الغافقي:

«يُسمّى بالشام الشمشاد [أو الشمشار]، وباليونانية بقسيس [Pyxos]. يقول ابن جليل: شجرة ورقها كالآس، وحبها كحب، وعودها أصفر صلب، قابض يعقل البطن إذا شرب منه، ويُشَف بِلّة الأمعاء» (57).

ومنها مادة «جَوْدَر» (بربرية)... يقول الغافقي، مستشهداً:

يقول «ابن جليل: شجرة (صغيرة مشوكة)، لا ارتفاع لها، أغصانها خُمر، وهي غليظة الأصل، ورقها كورق الكمثرى البرّي، وله ثمر مدور، أغبر اللون، يؤكل، قابض عاقل للبطن، ويعمل منه سويق كما يعمل السويق من التّبَق لسيّلان البطن. وهذا النبات كثير بالزاب (و) في ناحية القيروان» (58).

(55) سبق التعريف به بين من ألّفوا في الأدوية المفردة.

(56) «الجامع...» 3: 87.

واستعط الدواء: أدخله في أنفه.

ومن منافع صمغ السزو، كما في «الجامع...»: «إنّ ثمر، على القروح التي تكون في الرأس، مع الجلتار، أبرأها...».

(57) «مستخب الغافقي...» 63. وما بين القوسين من «الجامع...» 1: 103.

(58) «مستخب الغافقي...» 107. وما بين القوسين من «الجامع...» 1: 178.

والزاب على أطراف صحراء إفريقية (شرقي الجزائر اليوم)... وفيه مددٌ كثيرة منها: المسيلة وطبّنة وسُكّرة... وبين الزاب والقيروان عشر مراحل (وللمرحلة هي المسافة التي يقطعها السائر في نحو يوم).

10 - حوار العلماء : تصويب وتقويم :

وإنه لَبَدَهِيَ أن يُتاح للباحثين من العلماء أن يُدركوا من المعارف ما لم يبلغ شأوه السابقون، فيتبينوا مواضع الضعف في أقوالهم ومواطن الخطأ والوهم في ما تركوه للأجيال. وإن من طبيعة الأشياء أن يعرف اللاحقون ما لم يعرفه الأوائل... وهنا تكون تخطئة، ويكون تصحيح وتصويب وتقويم. وما أشبه هذا بحوار يجري بين العلماء، أحيائهم وأمواتهم، رغبة في الوصول إلى الكمال المطلق، تلك الغاية التي ما برح الإنسان ينشدها منذ كان الإنسان!

في مادة «ماش» يُصَحَّح ابنُ جُلجل خطأ وقف عليه... يقول: بعض الأطباء يجعله [أي الماش] الجُلجان، وهو خطأ، ثم يُقدِّم ما توافر عنده في ذلك:

«والماش حب صغير كالكرسنة الكبيرة، أخضر اللون، براق، وله عين كعين اللوباء، مُكحَل ببياض، وشجره كشجر اللوباء في غُلف كغُلفه. ويُتخذ في المشرق ببساتينها، ويؤكل أصله باليمن ويُسمى الأقطف، وهو طيب الطعم»⁽⁵⁹⁾.

والغافقي، كذلك، في نقله عن ابن جُلجل، يُصَحِّح له ولغيره ما يعتقد أنه خطأ أو وهم. يقول - الغافقي - في مادة طَالِسْفَر (Talisa - pattra) سنسكريتيّة):

«هو الدازِكِيَسَة، وأكثرُ الناس على أنه البَسْباسة، وليس ذلك صحيحاً! ويُسمّي حَتَيْن هذا الدواء - المُسمّى باليونانية ماقر [Maker] في كتاب ديسقوريدس - الطاليسْفَر. [ويتابع الغافقي] وزعم ابنُ جُلجل وحده أن الطاليسْفير قيل عنه أنه لسان العصافير، وقيل هو عروق شجرة هندية، قال

(59) «الجامع...» 4: 125 و 126.

وفي منافع: «ماؤه ياتين البطن، والحشو المتخذ منه ينفع السعال والنزلات، وهو نافع للمحمومين ومن كان به منهم سعال. وإذا طبخ بالخل نفع من الجرب المتقرح».

غيره: الطاليسفير هو عروق العنبة التي يُغَلَّف بها دود الحرير! (60).

وقد يضم الغافقي، في تصحيحه، إلى ابن جلجل طبيباً آخر يرى أنه يُشاركه في الخطأ، كما فعل في مادة «قُند» (فارسية)، وهي - كما يبدأ ابن البيطار بتعريفها - «الخزوع الصيني»، ثم يمضي - ابن البيطار - متبياً وجهة نظر الغافقي دون أن يُشير إليه:

«وغلط من قال إنه الماهودانه، كما قال ابنُ جلجل وابنُ الهيثم. وأكثرُ أطباء زماننا هذا يغلطون في ذلك!» (61).

وفي تواصل هذا الحوار، الأزلّي، بين علماء التاريخ، يعتمد ابنُ البيطار نفسه إلى أن يُصتَح - في نقله عن ابن جلجل - ما يراه من الوهم والخطأ:

ففي «شجرة الكف» (الاسم العلمي *Potentilla reptans*، ينقل قوله فيها:

«هي شجرة، لها أصلٌ ككفّ إنسانٍ، براحةٍ وخمس أصابع، وتعرف بـ «كفّ مريم». والنساء يعملن منه فِرْزَجَةً تُعين على الحمل. وهي من السموم!».

ويُضيف ابن البيطار: «وهذا قوله [قول ابن جلجل]، وتُعرف [شجرة

(60) «الجامع.. 3: 94.

ويلاحظ أن الآراء في هذه المقردة - كما يتضح مما أورده ابن البيطار عنها وعن الداركيسة والبساسة - قد تباينت، وشاعها خلطٌ واضطرابٌ وخُنين، هو الطبيب حنين بن إسحق، الذي أجاز ترجمة اصطف بن بسيل لكتاب ديسقوريدس إلى العربية، على نحو ما بيّنا بدايةً.

(61) «الجامع.. 2: 97.

وعبارة الغافقي في قُند - كما وردت في «منتخب الغافقي»... هي: «وَعَمَّ ابنُ جلجل وابنُ الهيثم أنه الماهودانه، وغلط في ذلك، وعلى هذا الرأي أطباء زماننا أكثرهم». وفي الماهوداته (والصحيح: الماهودانه)، يقول ابن البيطار: «تأويله بالفارسية: القائم بنفسه، أي أنه يقرم بذاته في الإسهال؛ ويُسمّيه عائنة الأندلس (طارقة)، وبعضهم يُسمّيه السيسبان أيضاً، ويُعرف بـ «حبّ الملوك أيضاً عند أطباء المشرق»... ثم يورد تحليته نقلاً عن ديسقوريدس... «الجامع.. 4: 122.

الكف] كثيراً، وهي الأصابع الصفراء، ويُسمِّيها بعضُ الشَّجَّارين بـ «كف عائشة». [وُصِّحَ] وليست من السموم، وإنما هي من الأدوية النافعة من السَّموم⁽⁶²⁾.

وفي مادة «أَرْمِينُون» (يونانية Horminon)، يقول ابن البيطار: «زعم ابنُ جليجل أنَّ هذا النبات هو القِلْقِل، والقُلْقُلان أيضاً. وصفته أيضاً ليست صفة القُلْقُلان، الذي هو بالعراق مشهورٌ في زماننا هذا، فتأملُه!»⁽⁶³⁾.

وفي مادة «أَقْسِيَا» (أو أَقْسِيَا أَقْتَش)، يونانية Oxyakantha)، يقول «ابن البيطار»:

«تأويله باليونانية: «الشوكة الحادة»، وهو «زعرور الأودية»، ويُعرف عند شجَّاري الأندلس بـ «الجُبُّر يُول». وليس هو شجر (أمير باريس)، كما زعم ابن جليجل، ولا هو «الفيلزهرج» كما زعم غيره؛ فاعلمه!»⁽⁶⁴⁾.

(62) «الجامع...» 3: 55.

وأصل النبات: جلده.

والقُرُورُجة قطعة من دواء تُتخذ على شكل أصبع، تحتملها النساء. والقيلة ما يوضع في مقعدة المريض.

ونحسب أنَّ ما أخذه ابنُ البيطار على طبيبينا من الخطأ، هو وهمُّ منه، مرده - كما نرى - إلى سقوط كلمةٍ من عبارة ابن جليجل، تماماً: «وهي [تتفع] من السَّموم»، وبذلك يتلاءم المعنى في العبارة مع ما سبق من استهداف النساء عمل فرائج «تعين على الحمل».

وفي معجم الشهابي: كف مريم، كف عائشة، شجرة الكف Anastatica hierochuntica. نبات صغير سنوي يزهر، من الصليبيات، ينبت في أنحاء فلسطين والفور وسياه وغيرها. ومضى تم نموه وجف، تقتله الريح وتلقب به، حتى إذا صلبت مكثاً وطلياً عاد إلى النمو.

(63) «الجامع...» 1: 20. وفيه وُسِّمت عُرَّة: أرمينس!

ومن منافع هذا العقار، عن ديسقوريدس: «يُظَنُّ أنه، إذا شُرب بالشراب، يَحْرُك شهوة الجماع، وإذا خُلِط بالعسل أذهب القرحة التي في العين... وإذا تَضَمَّد به بلاء حلل الأورام البلغمية...».

(64) «الجامع...» 1: 49. وما بين القوسين مصتح من «تفسير ابن البيطار»: 137.

وعن ديسقوريدس: هي شجرة شبيهة بشجرة الكنثري البري الذي يُقال له أجراس، غير أنها أشدَّ صفرة، وهي كثيرة الشوك جداً، ولها ثمرٌ شبيه بحبِّ الآس، كبار، حُمْر، سهلة =

ويبدو ابن البيطار، في مادة «ليبانوطس» (يونانية Libanôtis)، أكثر اعتدالاً برأيه وحماسة، وقد نال بانتقاده غير واحد من العلماء... يقول:

«هو نبات ذو أصناف، ومعناه الكُنْدَرِيَّات، لأجل رائحة «الكُنْدُر» الموجودة فيها. واشتقَّ هذا الاسم من (ليبانوا) الذي هو الكُنْدُر. [ويقول] وزعم ابن جليل أنه «الإكليل الجبلي»، المعروف عند أهل الأندلس بـ «إكليل الثُّقْسَاء»، وهو غلطٌ محض، وتابَّعُه جماعةٌ ممن أتى بعده، كالشريف الإدريسي؛ فإنه لما ذكر الإكليل الجبلي في مفرداته، تكلم فيه على أنواع (الليبانوطس) على أنها الإكليل، وهذا تخيُّطٌ وعدم تحقيق في النقل! والليبانوطس، بأنواعه، هو من أنواع الكلُوخ...»⁽⁶⁵⁾.

بين طين قيموليا والبَيْلون المحلي:

ومن المفردات المعدنية، التي عُني بها أجدادنا العرب، ومن قبلهم الأغارقة، أنواعٌ من الطين، اكتشفوا خصائصها، وصنّفوها، وبيّنوا منافعها... منها: طين الأرض، وطين ساموش، وطين قيموليا (الذي أدلى ابن جليل برأيه فيه)، والطين الكرّمي، والطين الأرمني، والطين النيسابوري، والطين الحرّ...

= الانفراك. في جوفها حب... وثمره إذا أُكِل، وإذا شُرب، قطع الإسهال المزمن والرطوبات السائلة من الزّحم سيلاناً مزمناً.

وقد عاد ابن البيطار، في مادة فيلَزَهْرَج، إلى هذا التصويب، فقال: «هو الخَضَض، ومعناه بالفارسية: مرارة السفيل... [إلى أن يقول] وخُليطٌ من تَوْهَم من أن الدواء المسمّى باليونانية: (أفسياقتش)، وتأويله: الشوكة الحادة - هو الفيلَزَهْرَج، وهو كلام ابن حنّان وتابَّعُه الغافقي في ذلك. والصحيح ما ذكرته!»، «الجامع...» 3: 173.

(65) «الجامع...» 4: 116. والاسم فيه عرّف: ليثابوطس، وليثابوا.

ثم يُبيّن ابن البيطار أنواع الكلُوخ... والليبانوطس بأنواعه، كما يتّضح من شرح ديسقوريدس وجالينوس، هو جَبَّةٌ تنبسط بعض أنواعها على الأرض... ومن منافعها، التي عدّها، أنها تَقْشِع ظلمة البصر وتُجَيِّدُه، وتنفع من التَّزْقَان، وتقطع سيلان الدم من البواسير، وتُبرِّئ من الخُص، وتُغَيِّ التَّهَق... «الجامع...» 4: 116.

وعند الشهابي: الكُنْدُر والبَّان من Khôndros libanon اليونانية، ولكلمة لبان أشباه في الآشورية والآرامية والعبرية، فهي إنذ من أصل سامي. تِلْكَ من الفعيلة البَحْرُويّة.

وصفة هذه الأنواع تختلف لوناً: فمن أبيض، أو مُفْرِط في البياض، إلى ما يضرب لونه إلى الرمادية، أو إلى الخضرة، أو الصفرة، ومنه الأسود، والقريريّ اللون...

ومن صفات هذه الأطيان: المكتنز، واللين، والسريع الانمياح في الماء، والهين التفتت حتى إنه إذا سُجق «لم يوجد فيه شيء من الرمية»، ومن صفات بعضه أنه «إذا أُلصق باللسان لصق كالذَّبَق»...

ومن أنواعه ما ينفع - طلاءً أو شُرْباً - في مداواة القروح المزمنة، وقطع نفث الدم، وتجفيف الجراحات، وجبر الكسور، وقلع البهق والجرب المتقَرَّح... ومنها ما يقتل الدود على أعواد الكرمة، وما «يستعمله الصاغة في التمليس»... وقوة بعضه «تُنْقِي وسخ البشرة، وتجلو ظاهر البدن، وتُحسِّن اللون، وتُبرِّق الشعر...»⁽⁶⁶⁾.

ولعلَّ من الطريف أن نستشهد بما قاله جالينوس، قبل نحو ألف وثمان مائة سنة، عمَّا سمَّاه «طين الأرض».

«وطين الأرض، السمين الدسمه، فإني رأيت أهل الإسكندرية وأهل مصر يستعملونها (...) ولقد رأيت بالإسكندرية مَطْحُولين ومُسْتَشْقِينَ كثيراً يستعملون طين أرض مصر، وخلقاً كثيراً يَطْلُون من هذا الطين على سَوْقِهِمْ وأَفْخَاذِهِمْ وسواعدهم وأعضائهم وظهورهم ورؤوسهم وأضلاعهم، فينتفعون به منفعةً بينة عظيمة. وعلى هذا النوع قد ينفع هذا الطلاء للأورام العتيقة والأورام المترهلة الرخوة. وإني لأعرف قوماً (...) شَفَوْا، بهذا الطين أيضاً، أوجاعاً مُزمنة، وكانت مُتمكِّنة في بعض الأعضاء تمكناً شديداً، فبرئت وذهبت!»⁽⁶⁷⁾.

وأما «طين قيموليا»، فقد حدَّث ديسقوريدس بأنه نوعان: «أحدهما

(66) «الجامع...» 3: 108 - 113.

(67) «الجامع...» 3: 108.

والمَطْحُول: المريض بطلحاله، والمُسْتَشْقِي: المريض بالاستسقاء.

أبيض، والآخر فيه فرفيريّة، وهو دَمِس، وإذا لُئِس وُجِدَ بارِدَ المَجْسَنَةِ، وهو أجود النوعين»⁽⁶⁸⁾.

ويُقدِّم لنا طيِّبُنَا الأندلسيُّ ابنُ جَلِجَل ما وصل إلى علمه حول هذا النوع من الطين... يقول:

«أهل البصرة يُسمّون طين قيموليا: الطين الحرّ.
وأصنافه كثيرة: منه أرمنيّ، ومنه سجلماسيّ. ومنه أندلسيّ.
والأرمنيّ لم نره، وهو أجود الكلّ؛

«وبعد السجلماسيّ»⁽⁶⁹⁾ - وهو أفضل في العلاج من الأندلسيّ - وهو أبيضٌ شديد البياض، صُلْبُ الجُزْم، مكتنز الأجزاء، لا ينكسر بسرعة، ولا ينحلّ في الماء إلا بعد برهة، غير أنه إذا انحَلَّ ففيه من اللزوجة أكثر ممّا في غيره.

«والأندلسيّ صنفان: أبيض، وأسود رديء لا يصلح ولا يتصرّف في شيء منه»⁽⁷⁰⁾.

ومن منافع طين قيموليا أنه «إذا طُلي به موضع حَرَقِ النار من ساعته، بعد أن يُخلط معه خلٌّ، نفعه، وينبغي أن لا يكون الخلُّ ثَقِيلاً جداً...»؛ وإذا دُفِنَ بخلٍّ، ولُطِّخَتْ به سائر الأورام، حلّلتها...، وقد يحلّل الأورام الجاسية العارضة في الأنثيين، والأورام الحازّة العارضة في جميع أعضاء البدن...»⁽⁷¹⁾.

قلتُ: إنَّ صنفاً من ذلك الطين ما يزال في موضع الاستعمال حتى اليوم

(68) «الجامع...» 3: 110.

(69) نسبة إلى سجلماسة: مدينة بالمغرب، أسّسها - كما يذكر الجُمُيزي - مدرار بن عبد الله، وتمّ بناؤها سنة 140 هـ، وهي على طرف الصحراء، بينها وبين البحر خمس عشرة رحلة.

(70) «الجامع...» 3: 110.

وسترد، أدناه، إشارة إلى أحد هذين الصنفين باسم «الطين الطلّيطلي».

(71) «الجامع...» 3: 100.

في مدينة حلب، الواقعة داخل المنطقة التي رسم ديسقوريدس حدودها إلى ما يلي مدينة سلوقية شرقاً⁽⁷²⁾.

وأهل حلب يُطلقون كلمة «البِيلون» - كما ورد في «موسوعة حلب المقارنة» - على «الحجر الصَّلصالي العُضاري النقي، يستعملونه بأن يَطْلُوا بمعجونه الرأس في الحمام، فيمتص المادة الدهنية منه ويُزيل قشرته. وقد يطلون به البدن فيُطَرِّيه ويُزيل حرارته، كما يطلون به النسيج الملوّث بالدهن فيمتص دهنه»⁽⁷³⁾.

ومما كانت تُحضّره المرأة الحليّة، عشية ذهابها إلى الحمام العام - قبل اصطناع الحمامات في البيوت - أن تنقع قطعة من حجر البيلون في وعاء، ثم تجعل نقيّة في جملة الحوائج التي تذهب بها إلى الحمام⁽⁷⁴⁾.

وَنُعمد من صفاته - عدا ما ذكره الأسدي - أنه فَريرِي اللون، يَتفتت في الماء، وينمّاع، ولا يُخلّف شيئاً من الرملية. وإذا لُوس باللسان تعلق به.

وقد رأيتُ، في طفولتي بحلب، الحبالى يتماضغن فُتاتاً منه⁽⁷⁵⁾

(72) يقول: إنّ العُين الكرّمي، قد يكون «بالمدينة التي يُقال لها سلوقية، إلى البلاد التي يُقال لها سورية»، «الجامع...» 3: 111.

وسلوقية - أو سلوق، كما أوردها الجيميري - مدينة أسسها سلوقس الأول حوالي سنة 300 ق. م، لتكون ميناء أنطاكية (في لواء الإسكندرون اليوم، في الشمال الغربي من سورية).
(73) الأسدي م. خير الدين (1900 - 1971): «موسوعة حلب للقائنة» (سبعة مجلدات، بمناية محمد كمال، إصبلر جامعة حلب، 1981 - 1988)، 2: 217.
قلتُ والأسدي يصنّه تجوّزاً بأنه «حجر»!

(74) في أمثال حلب الشعبية ما ننقله إلى الفصحى مُفسّراً: السيدة، التي تأنف أن تجبل يولوا، تُفضّز إلى أن تُفطس يدها في وعاءه لدى الاستحمام!

(75) أو يتنقلن به! والثقل، عند الفيروزآبادي: ما يُتنقل به مع الشراب (من جوز ولوز ويندق ونحوه...).

وفي «جامع للمفردات...» أنّ طين الأكل، الذي يُتنقل به، هو «الطين النيسابوري»، وهو من الطين الحرّ، لونه أبيض شديد البياض، في طعمه ملحوة، فإذا دُخن [أي: أصابه دخان] فأخذ ريحه [نُفست ملحوة وطاب طعمه... ويتنقلون به على الشراب، فيسكن ثوران المعدة...]
(4: 112 و 113).

وَيُجَلَّبُ البِيلُونُ إلى حلب من قرية بشمالها تُسَمَّى «كُشْتَمَار» (في منطقة أعزاز، والكلمة من اللغة الآرامية)، التي يُضْرَبُ المثل بأرضها القليلة الخير، فهي لا تُقَدَّمُ إلا البِيلُونُ!.

وَيُسَمَّى الدماشقة ما يستعملونه من بِيلُونِ حلب بـ «الترابية الحلبية».

وقد تَفَنَّنَ الصائغُ الحلبِيّ، فصنع، من عجينة هذا الحجر، أكواذاً صغيرة مُطَيَّية، سماها «بِيلُونُ بالورد».

ويرى الأسدي - رحمه الله - أَنَّ العربية استمدّت كلمة «البِيلُون» من اليونانية: Valaniyon، بمعنى الحَمَام. والحَمَام في اللاتينية: Balnea. والعربية سَمَتِ الحَمَام: البَلَان، ففي «تاج العروس»: البَلانات واحد بلان، وهو الحَمَام: و «البَلَان: الخادم في الحَمَام وَيُسَمُّون الماشطة في مصر: البَلانة على المجاز المرسل. وعلى ما تقدّم - يُتَابِعُ الأسدي م - خير الدين - سَمَتَ حلب هذا الحجر على هذا المجاز، بأن أطلقت الحَمَام، وأرادت بعض ما يُسْتَعْمَلُ فيها، وهو هذا الحجر» (76).

أجل.

ابتدأ الاهتمام بالطبّ النباتيّ في الأندلس عند مراجعة علمائها لكتاب ديسقوريدس، في منتصف القرن الرابع الهجري (منتصف العاشر الميلادي). وكان أول من ألف في هذا العلم ابن الهيثم، وتلاه ابن جليل، ولحق بهما ابن سميحون...

ومن طريف ما وقفت عليه في أدب الجنسية، قول لابن عبد الرؤوف، الأندلسي، في رسالة له يمنع فيها العطارين «أن يبيعوا العُطْفُلَ للأكل، لأنه مكروه ولا بأس به لغير ذلك»، «ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة» (بناية ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة 1955): 87.

والعُطْفُل، لغة، هو الرُخَسُ الناعم من كل شيء؛ وهو، علمياً: الطين، يصطب على هيئة رقائق بتأثير ضغط ما فوّقه من الصخور على نحو يسهّل معه فصلها.

وفي «الجامع...» إشارة إلى ما أطلق عليه ابن جليل: «العُطْفُلُ الطَّلِيطي» (4: 42)؛ وهو، كما يتضح، أحد النوعين الأندلسيين: الأبيض والأسود، اللّذان ذكرهما أملا.

وإذن، فأكل العُطْفُلِ الطَّلِيطي، والتخلُّل به البِيلُون الحلبِي شائع قديماً.

(76) موسوعة حلب للقارة، 2: 217.

ثم انتظم عِقد هؤلاء العلماء الأندلسيين . . . ولم يتوقفوا عن التأليف في الطبّ النباتي إلا يوم انفرط عقدهم، بخروج آخر المسلمين من غرناطة؛ ولكن بقي من لآلئ هذا العقد ما بقي، في مخطوطات تشهد على إسهام أجدادنا في هذا العلم في الأندلس وفي سائر ديار الإسلام.

واليوم، نرى العالم يعود إلى الطبّ النباتي، يتنخّل ليعرف صحيحه من فاسده، بعد تبين مدى ما في «الأدوية المركّبة» من مضارّ، لم تكن تخفى على الأجداد في عهدهم.

فهل يُسهم العلماء العرب، المعاصرون، في هذا التنخّل والاختيار؟

الوجوه العزبي في شرق إفريقيا

الدكتور أمين الطيبي
جامعة أكسفورد - بريطانيا

تمهيد:

كان لعرب سواحل جنوب الجزيرة العربية والخليج نشاط تجاري بحري كبير في منطقة المحيط الهندي منذ زمن بعيد، قبل الإسلام؛ فَعَرَفُوا لذلك عند الباحثين بفينيقيي الجنوب. وقد عَرَفُوا مواسم هبوب الرياح الموسمية في المحيط الهندي، فكانوا يُبحرون إلى سواحل الهند صيفاً عند هبوب هذه الرياح من الجنوب الغربي، ويعودون شتاءً عند هبوبها من الشمال الشرقي. وبالنسبة لساحل أفريقيا الشرقي، كانت أسفارهم إليه شتاءً، وعودتهم صيفاً، تبعاً لاتجاه هبوب الرياح الموسمية، التي انتقلت تسميتها العربية إلى اللغات الأوروبية Monsoons.

ومنذ ظهور الإسلام حتى القرن السادس عشر، كان هؤلاء العرب سادة الملاحة والتجارة في المحيط الهندي، وأقاموا مستوطنات لهم في 'كاليكوت'

على ساحل الهند الغربي (مُكَيَّار) وفي ملاقة بشبه جزيرة الملايو، ومنهما امتد نشاطُهم التجاريُّ إلى جزر الهند الشرقية والصين، حيث كان للعرب جالية ذات شأن في مدينة كتون.

كما نشط عربُ جنوب الجزيرة في التجارة عبر البحر الأحمر، وانتقلت قبائلُ من اليمن وحضرموت منذ بداية الألف الأولى قبل الميلاد واستقرت في مرتفعات الحبشة التي اكتسبت اسمها من اسم إحدى هذه القبائل «حَبَشَت»، وكان لهؤلاء العرب في أكسوم (بإرتريا حالياً) حضارة مرموقة منذ الألف الأولى قبل الميلاد، بحيث يمكن القولُ بأن تاريخ الحبشة يبدأ في الجزيرة العربية.

ويعد ظهور الإسلام، استمرارٌ هذا النشاط التجاريُّ البحريُّ مع الحبشة، وزُيِّل على ساحل الصومال الشمالي، وأنشأ العربُ سلسلةً من المستوطنات على ساحل الصومال الشرقي (ساحل البنادر) منذ القرن العاشر الميلادي اتخذوها مراكزٍ للتجارة مع الداخل، وللدعوة إلى الإسلام، وأهمُّها مقدشو ومَزَكَة وبرَاوَة.

وللحضارة والعُمانيين دورٌ بارز في مجالات التجارة والدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة واللغة العربية على طول ساحل أفريقيا الشرقي - من مقدشو شمالاً إلى موزمبيق وسُفالة جنوباً، مروراً بممباسا وزنجبار وكلوى على ساحل تنزانيا، وجزر القمر، وسواحل جزيرة مدغشقر (ملقاشي).

إن العلاقات التجارية بين جنوب الجزيرة العربية وساحل شرق أفريقيا، علاقاتٌ قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام بقرون، وتشهد بها أطلالُ المراكز والمحطات التجارية التي أقامها العربُ قبل الإسلام على طول ساحل الصومال، وما جاء في كتاب Periplus الذي ألفه، في أواخر القرن الأول الميلادي، تاجرٌ يونانيٌّ من مصرٍ ليكون دليلاً أو مُرشداً للتجار في منطقة البحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية وساحل شرق أفريقيا. ففي الكتاب يرد ذكرُ مدينة رَظَة Rhapta على ساحل شرق أفريقيا، وحاكمها عربيٌّ من قبيلة مَعافَر اليمنية، وهي تخضع لسيادة مدينة مُخا باليمن، وكانت تتردد عليها المراكب،

وربابتها وملاحوها من العرب. ثم تنقطع المصادر عن تاريخ ساحل شرقي أفريقيا حتى القرن العاشر الميلادي حينما ألف المسعودي كتاب (مروج الذهب)، وفيه تناول بإسهاب تجارة العرب في القرن العاشر الميلادي مع ساحل شرق أفريقيا، دون أن يذكر بلداناً أو مدناً.

وعلى ذلك، فإن الوثيقة التاريخية - (كتاب الزوج) - التي عثر عليها المستشرق الإيطالي إنريكو تشيرولي، ونشرها عام 1957، مصدر مهم للبحث في تاريخ استيطان العرب المبكر في الحبشة وعلى ساحل شرق أفريقيا في الجاهلية وصدر الإسلام. فالمؤلف المجهول الاسم للكتاب جمع مادته من مصادر لم تصلنا، وهو ينفرد في الحديث عن مستوطنات وهجرات عربية قديمة، وعن وصول الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب، وعن إقامة مستوطنات في خلافة هارون الرشيد.

وعند الحديث عن الصراع عام 1865 في أرض كُشمايو (قرب مصب نهر الجُب Juba) بين الصوماليين - ويسمّهم السُّمال - وبين القالة Gallas ويسمّهم الغيلان - يؤكد مؤلف (كتاب الزوج) على عروبة الصوماليين إذ يقول: «وأما السُّمال فهم عربٌ من غير خلاف»⁽¹⁾.

رواية صاحب Periplus:

يقول صاحب كتاب Periplus - من أواخر القرن الأول الميلادي - إنه بعد إبحار يومين من ساحل الصومال الجنوبي، يصل المسافر إلى «آخر مدينة بها سوق على ساحل أزانبا، وتُعرف المدينة باسم زَنْطَة، واسمها مشتق من اسم القوارب المحيطة هناك... وبها العاج وصدف السلاحف بكميات وفيرة. وصاحب السيادة فيها رئيسٌ معافريٌ بموجب حقٍ قديم يجعل المدينة خاضعة للسيادة المملكة التي أصبحت الأولى في الجزيرة العربية مُخا Mousa. ويُرسَل أهلُ مخا سفناً كبيرةً وكثيرةً معظم ربابنتها وملاحيها من

(1) مؤلف مجهول الاسم. كتاب الزوج، ص 249. نشر النص العربي أنريكو تشيرولي في كتاب

(Somalia II)، روما 1957.

العرب الذين يعرفون السكان المحليين جيداً، ويتزاجون معهم، وهم يعرفون الساحل كله، ويفهمون لغة القوم. وتأتيها من مخا الرماح والفؤوس والخناجر ومختلف أنواع الزجاج. وتُصنَّع من الساحل كمية كبيرة من العاج، وقرون الكركدن، وصدف السلاحف، وقليل من زيت نخيل النارجيل⁽²⁾.

إن المستوطنات على الساحل إلى خط عرض 10 درجات جنوبي خط الاستواء كانت تخضع لمدينة مخا على ساحل اليمن، وكان التجار العرب يفدون للإقامة والاتجار بسلع شرق أفريقيا التي كان يعاد تصديرها إلى الهند والصين شرقاً، وإلى مصر وعالم البحر المتوسط غرباً. ومما هو جدير بالملاحظة أنه لا يُذكر لتجارة الرقيق⁽³⁾، وهي تجارة نشطت في الفترة الحديثة فقط بعد قدوم البرتغاليين والفرنسيين والإنجليز إلى ساحل شرق أفريقيا وإقبالهم على اتباع الرقيق للعمل في مستعمراتهم في المناطق الحارة.

والرئيس المعافري الذي يشير إليه صاحب كتاب Periplus ينتمي إلى قبيلة معافر اليمنية الشهيرة، وموطنها إلى الجنوب من مدينة بُعَظْ إلى مُخَا غرباً (قضاء الحجرية بلهأ تمز حالياً). وللمعافر تاريخ عريق منذ ما قبل الإسلام. فاسم القبيلة يرد في نقش سبئي عُثْر عليه في صِزْوَاح عن تأسيس مملكة سبأ يعود تاريخه إلى حوالي عام 500 ق. م. وبعد الإسلام، هاجر معظم أبناء القبيلة إلى مصر والأندلس، وساهموا في نهضة البلدين. فقد عهد عمرو بن العارض إلى معافري بتخطيط مدينة الفسطاط، ومن أشهر المعافرين بالأندلس المنصور محمد بن أبي عامر حاجب الأندلس الشهير في أواخر القرن العاشر الميلادي⁽⁴⁾.

يتحدث صاحب كتاب Periplus عن التزاوج بين العرب والسكان المحليين، كما يذكر بأن العرب كانوا يفهمون لغة القوم. ويمكن أن يعد ذلك

(2) Perilus of the Erythraean Sea, New york 1912, PP. 28 - 29.

(3) Bennett N.R., A History of The Arab State of Zanzibar, London 1978, P. 4..

(4) ابن حزم الأندلسي، علي: جمهرة أنساب العرب، القاهرة 1962، ص 418. دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة، بالإنجليزية)، المجلد ليدن 1983، ص 895.

بداية مسيرة أدت فيما بعد إلى ظهور اللغة والثقافة السواحلية.

كما يذكر بطليموس في كتاب (الجغرافيا) بأن التجار العرب يتقلّون بين «العربية السعيدة» (اليمن) وزَبُطَة وساحل أزانيا. ويبدو أن أزانيا اسم أطلقه الكتّاب اليونان على ساحل شرق أفريقيا إلى الجنوب من سواحل الصومال، ومن هذه التسمية جاءت تسمية تنزانيا الحديثة.

كتاب الزنوج:

يشتمل (كتاب الزنوج) على اقتباسات أخذها المؤلف المجهول الاسم من عدة مصادر سابقة له. يقول المؤلف إن المستوطنين العرب الأوائل وصلوا إلى ساحل شرق أفريقيا في زمن كان فيه تَبَايَعَةُ اليمن - قبل البعثة - يسيطرون على التجارة، وهم الذين أسسوا كلوى وبُتَيّ ولاموه. ثم يتحدث عن هجرة جماعات يمنية إلى الحبشة بعد إخفاق حملة أبرهة الأشرم ضد مكة (عام الفيل)، وعن انتقال ذريتهم بعد الإسلام من الحبشة إلى ساحل شرق أفريقيا.

ويقول المؤلف إن الإسلام وصل إلى شرق أفريقيا في خلافة عمر بن الخطاب سنة 21 هـ/ 642 م. وذكر بعد ذلك وصول عربٍ من الشام إلى الساحل سنة 75 هـ/ 695 م في خلافة عبد الملك بن مروان - «فوصلوا إلى مَقْدَشُو وإلى كلوى بقيادة الأمير موسى بن زبير الخثعمي الذي علّم الناس قراءة القرآن والدين، وبنى بكلوى حصناً».

ثم وصلت حملة عام 149 هـ/ 766 م في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور لحمل سكان مدن الساحل على أداء الخراج. وأرسل الخليفة هارون الرشيد ولادةً إلى ممباسة والجزيرة الخضراء (بمبيا) وكلوى. كما جَهَّز ابنه المأمون حملة إلى مدن الساحل لخلافها وامتناعها عن دفع الخراج⁽⁵⁾.

إن ما يذكره صاحبُ كتاب Periplus من القرن الأول الميلادي يوحى بأن مستوطناتٍ عربيةً أخرى غير زَبُطَة قامت على غرارها فيما بعد، ولا يُستبعد أن تكون هذه المواقع مأهولةً بمستوطنين عرب من أيام مملكة حمير. وينفرد

(5) كتاب الزنوج، ص 237 - 239.

(كتاب الزوج) بذكرها، كما يتفرد بالقول بأن الإسلام وصل إلى مدن الساحل في خلافة عمر بن الخطاب.

يقول باحثٌ حديثٌ متخصصٌ بتاريخ ساحل شرق أفريقيا في العصر الوسيط: «إن كلَّ هذه المصادر توحى بوجود مستوطنات عربية على الساحل منذ القرن الأول الميلادي من أيام ملوك حمير، تَلَتْها مستوطنات أُقيمت بعد ظهور الإسلام في العهدين الأموي والعباسي»⁽⁶⁾.

إمارة بني مخزوم بجنوب هضبة الحبشة:

إن أولَ مسلم ورد ذكره مهاجراً ومستقراً في الحبشة هو ودُّ بن هشام المخزومي، وكان ذلك في خلافة عمر بن الخطاب.

ويتبيّن من مخطوطات من مدن ساحل البنادر بالصومال أن مجموعاتٍ من قبيلة مخزوم القُرْشِيِّين استقرت في مقدشو وغيرها من مدن ساحل البنادر في صدر الإسلام، بل إن بعض بني مخزوم استقروا في ساحل أفريقيا الشرقي، وكان لهم ولذريتهم مكانة مرموقة في البلاد فقهاءً وتجاراً. ويرد في (كتاب الزوج) ذكرُ اثنينٍ منهم في القرن التاسع عشر في لاموه وأحوازها على ساحل كينيا الشمالي⁽⁷⁾.

إن أقوى دليل على الهجرات العربية من الحجاز إلى القرن الأفريقي في صدر الإسلام هو قيام أسرة حاكمة من بني مخزوم بإقليم شوا بجنوب هضبة الحبشة في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. إن القطعة القصيرة التي عثر عليها المستشرقُ الإيطالي إنريكو تشيرولي من تاريخ إمارة بني مخزوم بالحبشة تتحدث عن الإمارة المخزومية في المراحل الأخيرة من أيامها، وقد مرّقتها الفتنُ الداخلية وأنهكتها حروبها مع إمارة أوفات الإسلامية المجاورة لها، التي تحالفت ضدها مع ملك أمهرة ليكونوا أملاك. يذكر صاحبُ (تاريخ بني مخزوم) في نهاية القطعة التي عثر عليها بداية الإمارة المخزومية فيقول: «وبلغنا أنهم [أمراء بني مخزوم] من أولاد ود بن هشام المخزومي، وكان خرج

(6) Freeman - Grenville, G. S. P. The Swahili Coast..., London 1988, II, P.11.

(7) كتاب الزوج، ص 244، 249.

في زمن عمر بن الخطاب. ومن تولّى من أولاده في شوا ملكها سنة 283 هـ/ (896 م) إلى سنة 684 هـ (1285 م)، وذلك سنة⁽⁸⁾.

المستوطنات العربية على ساحل شرق أفريقيا:

أهم هذه المستوطنات على الساحل من الشمال إلى الجنوب: كسمايو، لاموه، بتي، ملنده، ممباسة، كلوى، سفالة الذهب؛ فضلاً عن الجزر: الجزيرة الخضراء، زنجبار، مافيا (منفيا)، جزر القمر، مدغشقر.

يتحدث المسعودي عن رحلات العُمانيين، وهم عرب من الأزدي، في بحر الزنج إلى جزيرة قبلو (لعلّها الجزيرة الخضراء المسماة اليوم بمبا) وإلى بلاد سُفالة، والواق واق (موزمبيق؟) من أقاصي أرض الزنج. ويقطع هذا البحر السيرافيون⁽⁹⁾. ويقول ياقوت الحموي إن سيراف مدينة جليّة على ساحل بحر فارس، ويتأوّههم بالساج وخشب يُحمل من بلاد الزنج⁽¹⁰⁾.

وبلاد الزنج - كما يقول المسعودي - غنية بالعنبر، وتُصدّر منها جلود الفهود البرية، وصدف السلاحف لصنع الأمشاط. والفيلة في بلاد الزنج في نهاية الكثرة، وهم يصطادونها لأخذ أنيابها، ويُجهّز أكثرها إلى عُمان، ومنها إلى الهند والصين. وفي الهند إقبال كبير على شراء العاج حيث تُصنع منه نصب (مقابض) الخناجر، وقوائم السيوف، وأدوات الشطرنج والنرد. وأهل الصين يتخذ ملوكها وقوادها الأعمدة من العاج. ويُستعمل العاج في دخن بيوت أصنامها وأبخرة هياكلها، كاستعمال النصاري البخور في الكنائس⁽¹¹⁾.

زار ابن بطوطة ممباسة وكلوى عام 731 هـ/ 1331 م، وذكر له بعض تجار كلوى أن بين سُفالة ويوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر. ومن يوفى يؤتى بالتر إلى سُفالة التي تتبع سلطان كلوى⁽¹²⁾.

(8) مؤلف مجهول الاسم: قطعة من تاريخ سلطنة بني غزوم في شوا، نشرها تشيرونلي في (مجلة الدراسات الأثيوبية)، السنة الأولى، المجلد الأول، روما 1941، ص 9.

(9) المسعودي، علي: مروج الذهب، الجزء الأول، القاهرة 1964، ص 108.

(10) ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت 1979، 3/ ص 295.

(11) المسعودي، 2/ ص 6 - 7.

(12) ابن بطوطة، محمد: رحلة ابن بطوطة، بيروت 1968، ص 249.

عرض تاريخي لمعدن الساحل :

ترد في (كتاب السلوى في تاريخ كلوى) . من أوائل القرن السادس عشر - قصة حسن بن علي وأبنائه الستة . فقد ذكر بأنه ابن سلطان شيراز من جارية حبشية، وقد نزح عن شيراز في حدود عام 365 هـ/ 975 م مع أبنائه إلى أفريقيا في سبع سفن، وأقام كل واحد منهم مستوطنة على الساحل حتى جزر القمر . أما الأب فهو مؤسس كلوى⁽¹³⁾ .

إن حركة الاستيطان العربي على ساحل شرق أفريقيا حركة قديمة ومستمرة على مدى قرون، وكانت تزداد عند قيام الحروب الأهلية والمذهبية في الأوطان الأصلية للمستوطنين، كما حدث بالنسبة للنازحين من إنجلترا (Puritans) إلى أمريكا في القرن السابع عشر .

إن المعلومات التي وصلتنا عن حياة هؤلاء المستوطنين العرب معلومات ضئيلة . فكتبُ التاريخ المحلي ما هي إلا سرد للسنوات وأسماء الملوك والسلاطين . والأهم منها ما كتبه العرب من خارج المنطقة - كالمسعودي والإدريسي وياقوت الحموي وابن بطوطة . كما تستفاد بعض المعلومات مما كتبه البرتغاليون عن هذه المستوطنات عند وصولهم إليها في نهاية القرن الخامس عشر .

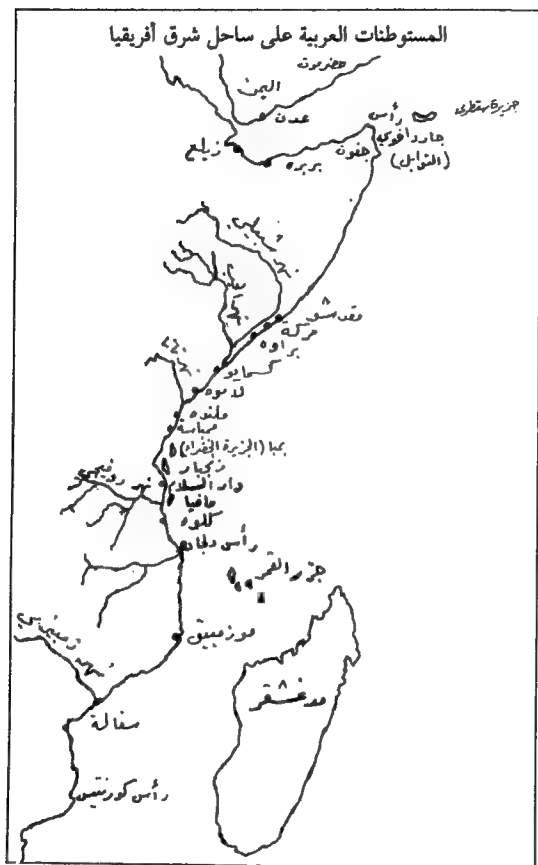
وعلى الرغم من قلّة المصادر، فإنه يمكن إعطاء صورة عامة عن تلك المستوطنات العربية . كانت سُفالة في زمن المسعودي «نهاية ما وصلت إليه مراكب عُمان وسيراف في بحر الزنج»، ولعلّ ذلك يرجع إلى أن الرياح الموسمية تتوقف جنوبي رأس كورنتيس Correntes، وتكثر العواصف وتزداد التيارات البحرية قوةً، ويزداد المناخُ برودةً .

وأقام العرب تدرجياً مستوطناتٍ، في جزر القمر، وعلى طول الساحل الغربي لجزيرة مدغشقر .

إن معظم هذه المستوطنات أقيمت فوق جزر صغيرة قرب الساحل

Coupland. R. East Africa and Its Invaders, Oxford V.P. 1956, P. 23.

(13)



لأغراض دفاعية. وقد ورد في المصادر البرتغالية ما يفيد بأن الشوارع في هذه المستوطنات كانت مستقيمة، وأن المنازل من الحجر، ولها نوافذ واسعة وشرفات، وأبوابها من الخشب المفصل، وهي مزخرفة ومغطاة بالمعدن، وحولها حدائق واسعة، وتكثر بها المساجد.

وقد احتفظ العرب في هذه المستوطنات بأنماط حياتهم التقليدية. واستقلت المستوطنات بعضها عن بعض، واشتد التنافس التجاري فيما بينها. كانت السيادة أحياناً لفترة من الزمن لإحدى هذه المدن. فصاحب (تاريخ مدينة بتي) يتحدث عن سيادة بتي في أوائل القرن الرابع عشر على كل الساحل من ملنده إلى كلوى. إلا أن أشهر السيادات وأطولها أمداً يبدو أنه كان لمدينة كلوى التي سيطرت على سُفالة وتجارة الذهب من بداية القرن الثاني عشر، وعلى جزر القمر. ولما وصل البرتغاليون إلى ساحل شرق أفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر، كانت كلوى ما تزال المدينة المهيمنة على الطرف الجنوبي من الساحل.

إن حياة القبائل الأفريقية على الساحل تأثرت تأثراً عميقاً بالمستوطنات العربية، إلا أن هذا التأثير كان تدريجياً وسلمياً، ولا ذكر في الروايات المحلية لفتوح بالعنف. ويبدو أن العلاقات بين المستوطنين العرب والسكان المحليين كانت علاقات وثيقة وودية، وحدث التزاوج منذ البداية، وأنتج من ذلك الشعب السواحلي. لم يحاول المستوطنون العرب - كما فعل المستوطنون الأوروبيون فيما بعد - أن يحتلوا أو يستغلوا لأنفسهم مساحات واسعة من الأراضي، فكل ما كانوا ينشدونه هو مزاوله التجارة، فلم يسعوا للفتوحات في الداخل⁽¹⁴⁾.

الحضارة السواحلية عربية الأصول:

يمكن تعريف الثقافة السواحلية (Swahili) إجمالاً بأنها ثقافة الشعوب الناطقة باللغة السواحلية على ساحل أفريقيا الشرقي بتأثير من أصولها العربية،

(14) نفسه، ص 24 - 30.

ولا يمكن القول بأنها «ثقافة قبائل البانتو مع عناصر عربية»، إذ إن الكثيرين من السواحلة تخلّوا في أنماط حياتهم عن كل ما يمكن وصفه بأنه بانتو. قد يكون في عروقهم دم البانتو، إلا أن كل نمط حياتهم عربي إسلامي. إن المستوطنين العرب في الغالب لم يصطحبوا نساءهم بل تزوجوا من البانتو، وثقافة أبنائهم ثقافة عربية إسلامية، وهم يفتخرون بانتسابهم للعرب.

إن معظم القبائل في الساحل تتداول روايات تفيد بأنها قدمت أصلاً من جنوب الجزيرة العربية أو من منطقة الخليج، ولو أن أسماءها «تأفرقت» حسب المكان الذي استوطنته، وبعد اندماجها بالسكان المحليين.

ويمكن القول بأن العرب الحضارمة كان لهم أكبر الأثر في الثقافة السواحلية، بينما كان للعُمانيين أثر جزري في الكيان السياسي في الساحل. وبخلاف العمانيين، فإن الحضارمة تزوجوا مع سكان البلاد. وقد كان معظم الفقهاء من الحضارمة، كما أن القصائد الأولى باللغة السواحلية نظمها شعراء من حضرموت.

ويهتم عرب شرق أفريقيا بالدراسات العربية، وباللغة العربية، وبذلك حافظوا على صلة السواحلية باللغة العربية، التي هي أساس اللغة السواحلية^(٩).

يقول باحث متخصص في التاريخ السواحلي إن اللغة السواحلية ستظل ما بقي الإسلام في شرق أفريقيا، وسيظل اللغة العربية مكانتها بين المسلمين هناك. وعلى الرغم من أن انتشار السواحلية في الداخل، فقد كان الموطن

(٩) أخبر الشيخ أبو الحسن علي الأنصاري الأندلسي (من أهل مدينة ميروقة) - وكان عالماً باللغة - أنه «لما وصل إلى عُمان، ركب البحر إلى بلاد الزنج، وكان معه من العلوم أشياء، فما نفق عندهم إلا النحو. وقال: لو أردت أن أكسب منهم ألفاً لأمكن ذلك، وقد حصل نحو من ألف دينار، وتأسفوا على خروجي من عندهم». وكانت وفاته ببغداد سنة 477 هـ (المعاري المألقي، علي: الحداث الغناء في أخبار النساء، تحقيق عائلة الطيبي - الدار العربية للكتاب 1978، ص 3-114).

الحقيقي للغة والثقافة السواحلية هو الساحل⁽¹⁵⁾.

أخفقت مدن الساحل، الذي يمتد مسافة 4500 كيلومتر، في الاتحاد، مع أنه كان يجمعها الدين واللغة والاعتماد على التجارة. ويمكن مقارنة الحضارة السواحلية بِحَبْلِ ذي عدة جدائل، كل جديلة منفصلة، وكلها جزء من كل. إن حضارة الساحل ليست عربية بالكامل ولا هي أفريقية بحتة، وإنما هي حضارة انتقائية. وجدير بالذكر أن «الحضارة» باللغة السواحلية يعبرُ عنها بكلمة «ustaarabu» أي أن تكون كالعربي.

انتشرت اللغة السواحلية على طول الساحل من مَقْدَشُو إلى موزمبيق، وفي الجزء المقابلة للساحل، وشمال غربي مدغشقر، وفي جزء القمر. والسواحلية اليوم هي اللغة القومية في تنزانيا، وتُفهم على نطاق واسع في كل النصف الشرقي من وسط أفريقيا من شمال كينيا إلى موزمبيق، وغرباً إلى أعالي الكونغو. لقد انتشرت اللغة السواحلية في الداخل بفضل التجارة، وفي القرن العشرين وصلت إلى زثير، وتُدْرَس اليوم في كنشاسا قرب ساحل الأطلنطي. ويتكلم السواحلية اليوم أكثر من ثلاثين مليون من الأفارقة، وهي عامل من عوامل الوحدة في القارة الأفريقية.

وظهرت في السواحلية آداب - قصائد وروايات قصصية - وكانت القصائد الأولى على غرار القصائد العربية، وأكثر من نصف مفرداتها من أصل عربي. أما متى اتُخذت الحروف العربية لكتابة اللغة السواحلية فغير معروف، ولكن ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن تدوين اللغة بالحروف العربية بدأ قبل قدوم البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر. وعند وصولهم كانت العربية الرسمية في الوثائق، وكانت الثقافة العربية الإسلامية هي الثقافة السائدة في مدن الساحل.

ومع أن البرتغاليين أقاموا في ساحل شرق أفريقيا أكثر من قرنين، إلا إن

(15) Harries, L., «The Arabs and Swahili Cultures». in *Africa*, vol, 24, PP.

Trimingham, J. S. *Islam in East Africa*, Edinburg House Press 1962, PP. 30 - 31.

أثر اللغة البرتغالية في السواحلية لا يتجاوز 60 كلمة، كأسماء بعض المحاصيل والأشجار - كالنرة الصفراء والأفوكادو وقوافه - واسم الكارثة واسم بيت الدعارة. «إن وجود البرتغاليين لم يُسهم شيئاً في مجالات الفن والبناء والأدب والسياسة... فقد مرّوا كالحلم».

كانت المباني في البداية من الطين، ومنذ بداية القرن الثاني عشر شُيّدت مباني من الحجر المرجاني المتوافر على الساحل، ويرعوا في نحتها، فأقاموا المساجد والقصور والحصون البديعة في كلوي وزنجبار والجزيرة الخضراء. وملنّده وممباسة وبتي وغيرها.

إن مسلمي شرق أفريقيا شافعية المذهب، إذ إنّ التأثير الإسلامي السائد وصل من جنوب الجزيرة العربية، وبخاصة حضرموت. وتكثر المساجد في مدن الساحل، وللفقهاء منزلة عالية. وتُعدّ حلقات تُعرف الواحدة منها باسم «دراسة» لتعليم اللغة العربية، وتفسير القرآن والفقه، لعامة الناس. وتُعدّ هذه الحلقات في المساجد أو في منازل المعلمين، ويحضرها الكثيرون، وتتخلّوها الصلوات وإنشاء القصائد. وللاحتفال بالمولد النبوي مقام كبير في شرق أفريقيا، فتُقرأ قصة المولد (maulidi)، وتقام الحفلات في ذكرى المولد النبوي، وأشهر ما يقرأ قصة المولد للبرزنجي، خطيب الحرم النبوي ومفتي الشافعية الذي توفي بالمدينة المنورة سنة 1177 هـ، وهي تدرّس في كافة المدارس القرآنية، ولذلك فهناك إقبال من الطلبة على تلاوتها⁽¹⁶⁾.

إن المستوى العالي للحضارة السواحلية يبدو كذلك من القناديل الخزفية التي عُثر عليها في الحفريات، ولعلّها كانت تُستعمل لإنارة الحجرات المظلمة، مما يدل على أن السكان مارسوا القراءة والكتابة وإعداد الحسابات⁽¹⁷⁾.

كانت الحضارة السواحلية ثمرة للنمو التجاري، وكان ذلك في الوقت

Trimingham, J. S. *Islam in East Africa*, pp. 47-48.

(16)

General History of Africa (UNESCO), 1984, P. 472.

(17)

ذاته عاملٌ ضعيف، إذ لم يَقم الرخاء على تنمية القوى الإنتاجية في الساحل فكل السلع تقريباً لم تكن للاستهلاك المحلي بل للتصدير. والتجارة وحدها لم تكن أساساً كافياً أو حافزاً للحضارة، فهي عرضةٌ لتبدل المسالك، وتواصل العلاقات التجارية، وهو ما حدث بالفعل بعد مجيء البرتغاليين. لقد وجد البرتغاليون سكان مُدن الساحل في ذروة الرخاء، فطمعوا في الاستحواذ على هذه الثروات. وفي أقل من عشر سنوات، تمّ للبرتغاليين السيطرة على مدن الساحل، واتخذوا من موزمبيق مقراً لإدارتهم. ولم ينجُ من الاحتلال البريطاني سوى مدغشقر وجزر القمر⁽¹⁸⁾. إن الكلمة الدالة على البرتغاليين في السواحلية «عفرتي» afriti.

من هم الشيرازي؟

يقول جيمس كيركمان «إنه لا شك في أن أقوى المؤثرات في شرق أفريقيا في القرون الوسطى جاءت من الخليج، وهو ليس فارسياً، كما أن بحر الشمال ليس بحراً ألمانياً». إن معظم سكان ولاية فارس في القرنين التاسع والعاشر (وبها شيراز ومينائها سیراف بخوزستان/ عربستان) عربٌ لا فرسٌ، وهم الذين يشار إليهم بالشيرازي في شرق أفريقيا⁽¹⁹⁾.

إن أفضل تفسير للتسمية «شيرازي» هو أنها استعملت لتربط بين حكام مدن ساحل شرق أفريقيا وبين أمجاد بلاط شيراز العربي - الفارسي في عهد البُوَيّهين (932 - 1055 م).

يبدو أن الشيرازيين القادمين إلى شرق أفريقيا وصلوا من جنوب الجزيرة العربية، كما يبدو أن الشرفاء «الشيرازيين» فروا من وجه الغزو المغولي إلى العراق، ونزلوا عند أقربائهم في مَقْدشو، ثم انتقل بعضهم إلى كلوى وحكموها.

(18) نفسه، ص 479 - 480.

(19) Dr V. Allen, J. «The Shirazi» Problem in East African Coastal History». in Pridemna (28) 1982, Wiesbaden, P. 9.

ارتبط الشيرازيون بكلوى تدريجياً ارتباطاً تجارياً، وعن طريق المصاهرة، وهاجر بعضهم إليها. فجزر القمر قدم إليها بعض كبار القوم من كلوى في أواخر القرن الرابع عشر. كما قدم مهاجرون من الشرفاء من حضرموت واليمن، وشملتهم التسمية «شيرازي» في كل هذه الأماكن بشرق أفريقيا.

إن استعمال اللقب «شيرازي» في القرن العشرين في زنجبار والساحل يعني أن صاحبه مواطن من الفترة الأولى التي سبقت وصول العُمانيين في نهاية القرن السابع عشر، وهي الفترة التي كان يحكم مدن الساحل فيها شرفاء عُرفوا بالشيرازي. إن انتشار حكام المدن الساحلية للشيرازي شبيه بانتساب بعض اللوردات في إنجلترا إلى الأصل النورماني الفرنسي⁽²⁰⁾.

وصول عرب أندلسيين إلى شرق أفريقيا:

في أواخر القرن السادس عشر وصل إلى مدينة بتي على ساحل كينيا الشمالي فوجٌ من المستوطنين العرب، يُعرفون بالحاثمي، قادمين من مدينة براوة على ساحل الصومال الجنوبي. وقد ذكر هؤلاء المستوطنون الجُدُّ بأنهم قدموا أصلاً من الأندلس. وقد أسست مجموعة منهم مدينة دار السلام، عاصمة تنزانيا اليوم.

جاء في (تاريخ مدينة بتي) أنه في حدود سنة 995 هـ (1587 م)، وصل إلى مدينة بتي غرباء من براوة (بالصومال)، وهم عرب، وقبيلتهم حاثمي قبيلة مشهورة في الجزيرة العربية، وكانت الأندلس موطنهم في السابق. إن بعض عرب السواحل ينتمون إلى هؤلاء الأندلسيين. ويضيف (تاريخ مدينة بتي) إن هؤلاء العرب الأندلسيين جلبوا معهم ثروة طائلة مكنتهم من شراء المنازل والبساتين والآبار، فازدهرت بتي كثيراً إلى سنة 1010 هـ (1610 م) حينما بدأت الحروب مع البرتغاليين⁽²¹⁾.

(20) نفسه، ص 21.

Freeman Grenville, G. S. P., *East African Coast. Select Documents*, London 1975, (21) P. 258.

سلطنة كلوى:

تُعرف باسم كلوى عدة مواضع وجزر قرب ساحل شرق أفريقيا، إلا أن أشهرها كلوى التي تحدّث عنها الرحالة ابن بطوطة عند زيارته لها عام 731 هـ (1331 م)، وتُعرف اليوم باسم كلوى كيسيواني، وهي تقع على جزيرة صغيرة قرب ساحل تنزانيا الجنوبي على بعد 150 ميلاً جنوبي العاصمة دار السلام.

كانت كلوى عاصمةً سلطنة امتدّت أراضيها في أواخر القرون الوسطى من نهر روفيجي Rujiji إلى سفالة على ساحل موزمبيق. وكانت - إلى قدوم البرتغاليين - أكثر المدن التجارية الإسلامية في شرق أفريقيا رخاءً وازدهاراً، لاحتكارها لتجارة الذهب الذي كان يصل إلى سفالة (سفالة الذهب) من مناجمه في ما يُعرف اليوم بزمبابوي وموزمبيق. ويُستفاد من (كتاب السلوى في تاريخ كلوى) - المؤلف في أوائل القرن السادس عشر - بأن مؤسسي المدينة قدموا من شيراز بمنطقة الخليج في منطقة القرن الثالث الهجري. وكانت كلوى بادية الأمر محطةً تجاريةً يؤمّها التجار العرب في منطقة المحيط الهندي للحصول على الذهب والعاج من الداخل، في مقابل بيع الأقمشة القطنية والحريرية، والأواني الخزفية والفخارية، من الشرقين الأدنى والأقصى، ومن الهند⁽²²⁾.

كانت تجارة كلوى مع بلدان الشرق الأقصى بالغة الأهمية كما يُستدل من الكميات الوفيرة من الأواني الصينية التي عُثر عليها في كلوى من القرن الخامس عشر. وقد أصبحت كلوى منذ القرن الثالث عشر أكثر المدن التجارية على ساحل شرق أفريقيا رخاءً وازدهاراً. كان القرن الرابع عشر العصر الذهبي لمدينة كلوى، فنشطت حركة البناء، إذ أراد سلاطينها أن تكون مدينتهم صورةً من عدن وجدة، والقاهرة. وما زالت أطلال مسجدها الجامع ماثلة للعيان. كما دلّت الحفريات على أن قصر سلطانها من أوائل القرن الرابع عشر كان

(22) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة بالإنجليزية)، المجلد الخامس، لندن 1979، ص 106.

قصرأ رائعاً يذكر المرء بقصور الأمويين والعباسيين قبله بخمسة قرون⁽²³⁾.

وقد زار ابن بطوطة مدينة كلوى سنة 731 هـ (1331 م) فقال: «وهي مدينة عظيمة ساحلية... وذكر لي بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوى، وأن بين سفالة ويوفى مسيرة شهر، ومن يوفى يوفى بالتبر إلى سفالة. ومدينة كلوى من أحسن المدن وأتقنها عمارة... وأهلها أهل جهاد، لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج. والغالب عليهم الدين والصلاح، وهم شافعية المذهب»⁽²⁴⁾.

كان من نتائج انتشار الإسلام في مدن ساحل شرق أفريقيا تشييد المساجد وبناء المنازل من الحجر. والبناء الوحيد الذي ظل قائماً إلى اليوم من القرن الثاني عشر هو المسجد الجامع بكلوى، وهو مثال رائع للمعمار السواحلي بشرق أفريقيا.

نمت كلوى في القرن الثاني عشر في عهد أسرة مهذلي، وأصلها من حضرموت وفي عهد هذه الأسرة، وُسع المسجد الجامع، وأضيفت إليه أروقة وقباب. وشُيد قصر جديد رائع يُعرف بالحصن الكبير في الطرف الشمالي من جزيرة كلوى كان يشتمل على قاعة استقبال كبيرة، وبركة سباحة ثمانية الأضلاع، ومجموعة من العنابر لخبز السلع. وقد ذكر المؤرخ البرتغالي بَرَبُوسا (أوائل القرن السادس عشر) إن القصر الكبير في كلوى كان من عدة أدوار. والقصر متأثر بأنماط مباني الحصون في جنوب الجزيرة العربية، حيث الحصن عبارة عن برج، تُستعمل قاعدته مخزناً للحبوب ولإيواء الدواب، وفي الدور الأول حجرات لاستقبال الرجال، وفي الدور الثاني حجرات للنساء. وتصل حصون السلاطين في سِنُيون وشبام بحضرموت إلى اثني عشر طابقاً⁽²⁵⁾.

Fage, J. D, A History of Africa, London 1979, P. 125.

(23)

(24) رحلة ابن بطوطة، ص 249.

The Swahili Coast..., XVI, PP. 228 - 229.

(25)

وقد وصف كلوى برتغالي^{٢٦} (1505 م) فذكر أن بيوتها من الحجر، وسقوفها مسطحة، وخلفها بساطين كثيرة أشجار الفاكهة، وقد «بدت المدينة من سُنُنَّا جميلةً بيوتها البديعة، ومآذن مساجدها، وبساتينها، مما جعل رجالنا يتشوقون للاستيلاء عليها»⁽²⁶⁾. وهذا ما حدث بالفعل، إذا استولى البرتغاليون على كلوى عَثْوَةً عام 1505 م، وعاثوا بها، ونهبوا ثرواتها، وفتكوا بسكانها الآمين.

وذكر ألماني (هانس ماير) كان يرافق الحملة بأن بكلوى العديد من المساجد ذوات الأروقة والقباب، ويشبه أحدها جامع قرطبة. والواقع أنه مع أن المسجد الجامع بكلوى أصغر حجماً من المسجد الجامع بقرطبة، ويفتقر إلى الفسيفساء، ومع أنه مهذّم جزئياً، فإن غابة أعمدته تدعم وجهه مقارنة بجامع قرطبة⁽²⁷⁾.

ووصف كلوى المؤرخ البرتغالي المعروف دوارتي بَرُوسَا (1518 م) بأنها «مدينة إسلامية بها بيوت بديعة كبيرة من الحجر، وبها عدة نوافذ كبيوتنا. وشوارعها حسنة، وسقوف بيوتها مسطحة، وأبوابها حسنة الصنع من الخشب المحفور... ويرتدي سكانها ثياباً حسنة من القطن والحرير المقصّب، ولغتهم العربية، وهم مسلمون ورعون». ويضيف بَرُوسَا بأن البرتغاليين استولوا على المدينة عَثْوَةً بعد أن أبى سلطانها الخضوع لملك البرتغال وأداء ضريبة سنوية له⁽²⁸⁾.

ووصف كلوى طبيبٌ إنجليزي (جيمس برور) زارها عام 1811 م بأنها كانت في الماضي مدينةً بالغة الأهمية، وحاضرة مملكة متزامية الأطراف، فخر بها البرتغاليون ونهبوها. ويضيف معقّباً على ذلك بأن «مجرّد لمس البرتغاليين لمكان يعني هلاكه»⁽²⁹⁾.

East African Coast, PP. 85 - 86.

(26)

(27) نفسه، ص 108.

(28) نفسه، ص 131.

(29) نفسه، ص 203.

عُمَلات كلوى وانتشارها:

ضرب أول ملوك الفترة الشيرازية - علي بن الحسن - عُملةً لأول مرة في كلوى، وكانت من النحاس، وفيها يرد اسمُ الملك الذي ضربها دون ذكر تاريخ الضرب. وتتميّز الكتابةُ عليها بطابع فريد، فهي تلتزم السجع، ففي أول عُملة ضُربت في كلوى نجد على الوجه:

علي بن الحسن، وعلى الظهر:

يثق بمولى الجن (30).

وقد تم العثورُ على لقيّة من نقود كلوى في جزيرة صغيرة قرب ساحل أستراليا الشمالية، وعددها خمس قطع نقدية، من ضرب سلاطين حكموا كلوى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهي لا تحمل سنوات الضرب. ولم يُعثر قبل ذلك على نقود من ضرب كلوى خارج مدن ساحل أفريقيا باستثناء قطعة نحاسية واحدة عُثِر عليها في أطلال موقع في ظفار بسلطنة عُمان تعود إلى القرن الرابع عشر⁽³¹⁾. ولا يُستبعد أن تكون قطع النقود الخمس قد حملها تجارُ عربٍ من حضرموت في القرن الخامس عشر، إذ نشطت تجارتهم آنذاك مع كلوى ومدن ساحل أفريقيا ومع مدن ساحل مُلَيَّيار بغرب الهند وملاقة بشبه جزيرة الملايو، وكانت لهم فيها وفي جزيرة سومطرة جاليات مقيمة ونشاط تجاري واسع، ولعلَّهم وصلوا إلى أطراف القارة الأسترالية قبل نهاية القرن الخامس عشر، أي قبل وصول الهولنديين بأكثر من قرن.

جزيرتا زنجبار ويمبا (الجزيرة الخضراء):

الاسم القديم لجزيرة زنجبار أنجوجا (Unguja)، ولكن العرب سَمَّوا الساحلَ المقابلَ زنج - بار، أي ساحل الزنج، ثم لما كانت الجزيرةُ في مقدمة الأماكن التي قصدوها سَمَّوها «زنجبار».

The Swahili Coast, VII, P. 75.

(30)

(31) نفسه، 4/ ص 1 - 6.

يذكر المسعودي جزيرة قنبلو (ولعلها الجزيرة الخضراء إلى الشمال من زنجبار، ولو أن كيركمان يرى أنها إحدى جزر القمر) ويقول إن سكانها مزيج من العرب والسكان الأصليين تحت حكم أسرة مسلحة⁽³²⁾.

كانت زنجبار والجزيرة الخضراء من أقدم المستوطنات العربية. إن أقدم كتابة عربية معروفة في شرق أفريقيا تلك التي في كيزيماكي بجنوب زنجبار، وهي عبارة عن نقش على جدار يقول إن الشيخ السيد أبا عمران أمر ببناء مسجد في اليوم الأول من شهر ذي القعدة عام 500 هـ (27/7/1107 م)⁽³³⁾.

ومما يدل على الرخاء الذي كانت تنعم به زنجبار قبيل وصول البرتغاليين إليها عام 1503 م الوصف الذي كتبه المؤرخ البرتغالي بربوسا، فهو يقول: «سكان زنجبار وملوكها مسلمون... وهم يعيشون في بذخ ونعيم، ويرتدون الملابس الرقيقة من الحرير والقطن، ونساءهم يسيرن بالجواهر الكثيرة من ذهب سُفالة الجيد، وملابسهن من الحرير الفاخر. وفي الجزيرة مساجد كثيرة، والسكان متمسكون بالدين»⁽³⁴⁾.

مدغشقر:

عُرفت جزيرة مدغشقر منذ زمن بعيد في المصنّفات العربية. يقول ياقوت الحموي إن «القُمرَ جزيرة في وسط بحر الزنج، وليس في ذلك البحر جزيرة أكبر منها. يوجد في سواحلها العنبر وورق القُمّاري. وهو طيّب يسمونه ورق الثايل»⁽³⁵⁾.

ويقول ابن سعيد: جزيرة القُمر (مدغشقر) الطويلة العريضة التي يقال إن طولها أربعة أشهر، وعرض الواسع منها ثِيف وعشرون يوماً. وقد ذكر ابنُ فاطمة أنه دخلها، وأنها للمسلمين كمقدشو. والبحر الذي يمرُّ مع طولها

(32) مروج الذهب، 1/ ص 107.

The Swahili Coast, XV, P. 121.

(33)

East Africa Coast, P. 133.

(34)

(35) ياقوت الحموي، 4/ ص 397.

الجنوبي يختلط من الجنوب بالبحر المحيط، وأهلها مجتمعون من الأنظار، وصورهم أقرب إلى أهل الصين منهم إلى أهل الهند، وكذلك ملابسهم. وعبادتهم الأجداد (البوذية) كأهل الهند والصين⁽³⁶⁾.

بعد إقامة المستوطنات العربية على طول ساحل أفريقيا الشرقي، بدأت جماعات من هؤلاء المستوطنين تقوم بزيارات منتظمة إلى جزيرة مدغشقر وجزر القمر، كما تدعمت التجارة بين جانبي قناة موزمبيق بعد أن أقيمت مستوطنات عربية في أطراف مدغشقر وفي جزر القمر.

وتتحدث الروايات المتدوالّة في جزر القمر ومدغشقر عن أجداد من أصل عربي قدموا بعد أن اضطروا إلى مناصرة موطنهم الأصلي بسبب معتقداتهم الدينية، وكان ذلك - حسب إحدى الروايات - في القرن الخامس عشر. ومع أن هذه الروايات تؤكد على الدوافع الدينية للهجرات، فإن جاذبية مدغشقر وجزر القمر كانت قوية لأسباب تجارية.

وفي ضوء الاكتشافات الأخيرة يمكن القول بأنه ما بين سنتي 700 و 1000 م، قامت في شمال مدغشقر وجزر القمر حضارة على أيدي مستوطنين أندونيسيين وأفارقة. ثم قديم مهاجرون من العرب من الخليج وحضرموت ونشطوا في التجارة، وهم الذين علّموا سكان الساحل الملاحة، مما مكن البانتو من العبور من البر إلى الجزر.

وبعد القرن العاشر الميلادي أقام العرب صلات تجارية بين سيراف وضُحار بعمان من جهة وبين موانئ مدغشقر وجزر القمر. ثم ازداد عدد المستوطنات العربية بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر، وشيّدت المساجد من الحجارة، وكذلك المنازل والحصون⁽³⁷⁾.

كان القرنان الرابع عشر والخامس عشر العصر الذهبي للمستوطنات الإسلامية في مدغشقر. وبالشمال الشرقي من مدغشقر موقع في فوهيمار

(36) ابن سعيد المغربي، علي: كتاب الجغرافيا، بيروت 1970، ص 84.

General History of Africa, Vol. 4, P. 604.

(37)

Vohemar تبيين من الحفريات أنه كان مستوطنة إسلامية نشطة ككلوى .

وعلى الرغم من تعصب البرتغاليين، فإنهم تركوا أوصافاً هامة عن الحياة في موانئ شمال غربي مدغشقر في أوائل القرن السادس عشر. فقد وُصِفَتْ إحدى المستوطنات كالتالي: سكانها مسلمون، وهم أغنى وأكثراً تحضرًا من السكان في المراكز الأخرى على الساحل، ومساجلهم ومنازلهم مبنية من الحجر، ولها شرفات كالمنازل في كلوى وممباسة⁽³⁸⁾. وفي أواخر القرن الخامس عشر، أغار البرتغاليون على سواحل مدغشقر، ونهبوا بعض مدنها، ولكن المدن الإسلامية في الجزيرة لم تخضع للتاج البريطاني.

إن معظم الباحثين اليوم متفقون على ضرورة الكشف عن الدور المهم الذي قام به العرب في حياة مدغشقر السياسية والاجتماعية.

وقد انتقلت بعض المفردات العربية إلى اللغة الملقاشية عن طريق اللغة الساحلية، منها Sokany (أي سكان السفينة)، وبعض المفردات التجارية مثل mizana (ميزان)، وأسماء أيام الأسبوع، وأسماء الشهور التي تحمل أسماء البروج (الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد...) ⁽³⁹⁾.

جزر القمر:

جزر القمر أريق جزر صخرية بركانية تقع عند المنفذ الشمالي لقنال موزمبيق، في منتصف المسافة بين ساحل شرق أفريقيا وشمال مدغشقر. وسكانها مزيج من العرب والباتو، ومن عناصر من أصل أندونيسي - ماليزي، وكلهم مسلمون. أما العرب فقد قدموا إما مباشرة من جنوب الجزيرة العربية - وبخاصة حضرموت - وإما من المستوطنات العربية بشرق أفريقيا⁽⁴⁰⁾.

ويبدو أن اللغة العربية كانت ما تزال لغة الكتابة في القرن الماضي، أما اليوم فإن معظم المكاتبات والتواريخ تكتب باللغة المحلية بحروف عربية. وقد

(38) نفسه، ص 607، 611.

(39) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة)، بالإنجليزية، لندن 1984، ص 2 - 943.

(40) نفسه، ص 379 - 380.

ابتعدت لغة جزر القمر كثيراً عن السواحلية، ولا يُعَدُّ أهلُ الجزر لغتهم لهجةً
سواحلية.

من المؤكد أن تجاراً عرباً أو من عرب السواحل كانوا في الألف الأول
للميلاد على اتصال بجزر القمر، ولعلَّ بعضهم استقر فيها، وبدأ انتشارُ
الإسلام.

إن التحوُّلَ الحاسمَ في تاريخ جزر القمر حدث بوصول «الشيرازي» في
النصف الثاني من القرن الخامس عشر أو بداية القرن السادس عشر، فاستولوا
على السلطة في الجزر الأربع وأصبحوا المؤسسين الحقيقيين للثقافة الإسلامية
في الجزر. ويبدو أن الشيرازي الذين حكموا جزر القمر من الشرفاء، وقد
قدموا من اليمن وحضرموت⁽⁴¹⁾.

ينتسب كلُّ شرفاء اليمن وحضرموت إلى أحمد/ محمد بن عيسى
«المهاجر»، وقد هاجر من البصرة مع بقية الشرفاء سنة 318 هـ/ 930 م وقصد
اليمن ثم حضرموت. ومن جنوب الجزيرة نزحت ذريةُ أحمد بن عيسى إلى
شرق أفريقيا عن طريق مَقْدَشُو في وقتٍ تحوَّلت فيه تجارةُ الخليج، أيام
الفاطميين، إلى البحر الأحمر⁽⁴²⁾.

وقد عُثِرَ في دموني بجزيرة أنجوان (إحدى جزر القمر) على نقش على
دعامة خشبية إحياءً للذكرى ترميم المسجد على يد السلطان أحمد بن صالح من
آل أبي بكر بن سالم⁽⁴³⁾، دون ذكر تاريخ، ولعله يعود إلى حوالي سنة 1163
هـ/ 1750 م، وهذا نصُّه:

1 - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

(41) Shepherd, K., «The Making of The Swahili». in Pridemore, 142.

(42) المرجع نفسه والمفصلة نفسها.

(43) الشيخ أبو بكر بن سالم أكبر أولياء حضرموت، وهو ينتسب إلى علي بن أبي طالب، وكانت
وفاته سنة 992 هـ/ 1584 م بعد ثمانية شهور من وصول الفقيه للخراساني يوسف بن عابد الإدريسي
الحسني للاجتماع به - انظر كتاب (ملقط الرحلة من المغرب إلى حضرموت) ليوسف بن عاد،
تحقيق أمين توفيق الطيبي، الدار البيضاء 1988، ص 116 - 120.

- 2 - وصحبه وسلّم
- 3 - انكسر وعمّرها وجنّدها السلطان أحمد بن صالح [بن أحمد بن]
- 4 - السيد حبيب حسين ابن القطب مولانا الشيخ
- 5 - أبو بكر بن سالم غفر لمن عمّر هذه المسجد المباركة
- 6 - ومن صلّى فيها وأقامها ومن أخدمها بالأدوات⁽⁴⁴⁾.

المُسْتَشْرِقُونَ وَعَقِيدَةُ الْمَعْرِيِّ

الدكتور الطاهر القراضى

بجامعة السَّابِغ من البَرْدِيل

لتكوّن الدراسة دراسةً موضوعيّةً، فإن الدارس يجب أن يكون متجرداً من التعاطف والتحامل. وهذا التجرد هو أقل ما يتطلبه البحث العلمي. ومن أجل هذه الموضوعية المنشودة، فإنه لا يجوز لنا إنكار دور المستشرقين وفضلهم في تعريفنا بأبي العلاء المعري بعد أن نسيه العرب أو تناسوه قرابة قرنين من الزمان، فلقد طوى العرب صفحة المعري وتآلفه، فطمس التاريخ الأدبي بذلك قدرأ من الأدب ذا شأن عظيم. فأصبح المعري - وأدبه معه - نسياً منسياً إلا ما جاء عرضاً⁽¹⁾ حتى سخر الله له من يجدد اسمه ويبعث أدبه من سبات طويل وعميق؛ ففي عام 1898 م نشر الأستاذ المستشرق د. س. مرجليوث كتاباً بعنوان رسائل المعري. يحتوي هذا الكتاب مجموعة من

(1) مثل ما ورد في مجلة المقتطف، العدد الثامن، المجلد العاشر (1886 م) في مقالة بعنوان «شذور الإبريز في نواحي العرب والإنجليز» ص 449 - 456.

رسائل المعري مترجمة إلى اللغة الإنجليزية مشفوعة بشرح وتعليق، ونبذة وافية عن حياة أبي العلاء⁽²⁾.

وفي عام 1899 م كتب الأستاذ المستشرق رونالد أ. نيكلسون مقالة في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية حول مخطوطة فارسية منسوبة إلى فخر الدين الرازي وفي هذه المقالة أشار الكاتب إلى أنه عثر على مخطوطة يتيمة من رسالة الغفران تتكون من 219 صفحة. وقد وعد نيكلسون قراءه في هذه المقالة بأنه سيهتم اهتماماً خاصاً بهذه المخطوطة لأنها من الأهمية بمكان، ولأنها لم تنشر وتدرس من قبل. كما أن نيكلسون علق على موضوع رسالة الغفران تعليقاً موجزاً دون أن يدخل في التفاصيل مرجئاً ذلك إلى مقالة أخرى في عدد قادم من المجلة نفسها⁽³⁾.

وفي عدد عام 1900 م من المجلة المذكورة نشر الأستاذ نيكلسون ملخصاً مختصراً عن رسالة الغفران - المخطوطة - وقد قام بترجمة بعض أجزائها إلى اللغة الإنجليزية فكان التلخيص والترجمة في 38 صفحة⁽⁴⁾. ثم نشر بقية المخطوطة على صورة أجزاء مترجمة في عدد عام 1902 م من المجلة نفسها حيث احتلت هذه التمة 85 صفحة⁽⁵⁾.

وفي هذا العدد من المجلة نشر الأستاذ مرجليوث النص العربي مصحوحاً بترجمة إنجليزية لكل الرسائل التي دارت بين أبي العلاء المعري وأبي نصر هبة الله الشيرازي (المعروف بداعي الدعاة الفاطمي) حول نباتية المعري. وقد وقعت هذه الرسائل في 43 صفحة⁽⁶⁾.

Margoliouth, D.S. ed. trans. and comp. *The Letters of Abu'l 'Ala of Ma'arrat al - Nu'man* Oxford: Clarendon Press, 1898. (2)

Nicholson, Reynold A. «A Persian Manuscript Attributed to Fakhr'ddin Razi, With a note on Risalatul' Ghufran by Abu'l 'Ala al Ma 'arri, and other MSS. in the same collection» *Journal Of The Royal Asiatic Society*, 1899 pp. 671 - 672. (3)

المصدر السابق 1900 ص 637 - 720. (4)

السابق 1902 ص 75 - 101، 337 - 362، 813 - 847. (5)

السابق ص 289 - 332. (6)

هكذا أيقظ المستشرقون الباحثين العرب فأخذوا يبحثون وينقبون عن شاعرهم الفيلسوف أو فيلسوفهم الشاعر. ففي عام 1904 م نشر الأستاذ سليمان البستاني ترجمته الشعرية لألياذة هوميروس. وفي مقدمة هذا الكتاب أشار المؤلف إلى المعري وفصله على الشاعر الإيطالي دانتي (صاحب الكوميديا الإلهية) والشاعر الإنجليزي جون ملتون (صاحب الفردوس المفقود). وباستثناء هذه الإشارة فإن البستاني في هذا الكتاب لم يتكلم عن المعري⁽⁷⁾. ولكن رأي البستاني لم يكن له أثر أو صدى على الباحثين والدارسين، والسبب في ذلك راجع إلى أن البستاني لم ينشر رأيه في بحث خاص بالمعري، بل إنه أقحم وجهة نظره في كتاب لا يمت عنوانه بصلة إلى الأدب العربي عموماً أو إلى أدب أبي العلاء المعري خصوصاً.

ولسبب أو لآخر لم يحاول باحث عربي في العصر الحديث أن يخصص كتاباً حول المعري نشأة وأدباً وعقيدة، إلا الأستاذ طه حسين الذي قدم بحثاً عن أبي العلاء المعري. وقد قوبل هذا البحث بضجة سياسية دينية في كل الأوساط العلمية المصرية آنذاك. ثم أصبح هذا البحث كتاباً منشوراً وأعيدت طبعاته عدة مرات تحت عنوان تجديد ذكرى أبي العلاء.

وبعد طه حسين توالى الكتب والأبحاث والدراسات حول أبي العلاء. ومن أشهر الدارسين الذين كتبوا بعناية فائقة حول المعري: عائشة عبد الرحمن (المعروفة ببنت الشاطئ)، وأمين الخولي، وأحمد تيمور، وعباس محمود العقاد، ويوسف البديعي، وعبد الله العلائي، وأحمد الطرابلسي، وسحبان خليفات، ومحمد سليم الجندي، وغيرهم.

ولا أرى هؤلاء الدارسين والباحثين إلا مدينين للباحثين المستشرقين الذين يرجع إليهم الفضل في اهتمام العرب بشاعر فيلسوف كاد اسمه ينمحي من صفحات الأدب العربي فجعلوه معروفاً بعد أن كان «شخصاً مبهماً لا يعرف الناس منه إلا اسمه تحيط به الشكوك والأوهام»⁽⁸⁾.

(7) سليمان البستاني (مترجم). إلياذة هوميروس. القاهرة: مطبعة الهلال، 1904 ص 174 - 175.

(8) طه حسين. تجديد ذكرى أبي العلاء. القاهرة: دار المعارف، ط 9، 1951 ص 11.

وإننا إذ نعترف لهم بهذا الجميل، يجب ألا نغض النظر عما سببوه من إساءة إلى عقيدة المعري، كما يجب ألا نزعم بأن هذه الإساءة كانت مقصودة؛ فربما كانت بحسن نية أو ربما كانت بسبب القصور لا بسبب التقصير.

ومهما يكن السبب، فإن للمستشرقين علينا فضلاً ولنا عليهم حقاً؛ ففضلهم علينا أن وجهوا أنظارنا إلى شاعرنا، وأما حقنا عليهم فإن آراءهم الخاطئة - أو المخطئة - في عقيدة شاعرنا قد شاعت وانتشرت بيننا كمسلمات وبديهيات أخذها الباحثون والدارسون العرب ونسجوا على منوالها كتباً ومقالات لإظهار المعري كافراً أو زنديقاً أو متشككاً في أمور دينه.

وقد يكون من الجدير بنا أن ننظر في شيء مما قاله بعض هؤلاء المستشرقين حول عقيدة المعري لنرى بموضوعية وتجرد كيف فهموا المعري وعقيدته، وكيف قدموه لكتابتنا العرب الذين قدموه لنا كافراً أحياناً وزنديقاً أو متشككاً في دينه (الإسلام) أحياناً أخرى:

هذا الأستاذ مرجليوث يقول: «ربما كان المعري قد تأثر بالمتنبي الذي احتقر كل الأنبياء وقلل من قيمتهم»⁽⁹⁾. وللدرد الموضوعي على هذا الرأي نقول إن المعري قد أعجب إعجاباً شديداً بشعر المتنبي وشاعريته، ولنا على ذلك دليان الأول هو ما لقيه المعري من إهانة في مجلس الشريف المرتضى الذي كان يمقت المتنبي ويكرهه. وهذا الموقف بين المعري والمرتضى تسجله كل الكتب التي تتناول المعري وحياته في بغداد خلال الفترة 399 - 400 للهجرة. وأما الدليل الآخر فهو أن المعري قد ألف كتاباً ضخماً لشرح ديوان المتنبي أسماه شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، معجز أحمد. فكان المعري كان معجباً بشعر المتنبي إلى درجة أن وصفه بالإعجاز. ولكن هذا الإعجاب بالشعر ليس بالضرورة أن يكون إعجاباً بعقيدة المتنبي، ودليلنا على ذلك أنه لا يوجد بيت من شعر أبي العلاء فيه غمز أو إهانة لأي من الأنبياء والرسل أو

لأي من الديانات السماوية، إلا إذا فهم على غير مقتضاه أو أول إلى غير ما يرمي إليه الشاعر أو كان موضوعاً ومنحولاً باسم المعري. فالمعري - كغيره من المسلمين الصادقين - يجل الأنبياء والرسل ويقدرهم ويؤمن بهم ويكتبهم وينزههم عما نسب إليهم البشر سواء من أتباعهم أو غيرهم.

صحيح أن المعري قد شُنع بالمسلمين واليهود والنصارى وعرض بهم على حد سواء. ولكن ليس ذلك لأن الكتب السماوية باطلة وغير صالحة لبني البشر بل لأنهم حرفوها وزوروها وابتعدوا بها عن أصلها الرباني المنزه. فمنهم من حرف الكتب المقدسة كما فعل اليهود والمسيحيون بالتوراة والإنجيل، ومنهم من ابتعد عن روح الدين الصحيح القويم كما فعل المسلمون. إن الذي يشتم اليهود والمسيحيين الآن لا يطعن - مباشرة أو غير مباشرة - في أصل العقيدة السماوية التي أنزلها الله جل شأه في كل من التوراة والإنجيل، وإنما يطعن في الممارسات التي يقوم بها اليهود والمسيحيون باسم الدين وهي ليست من الدين في شيء وذلك لتحريفهم الكتابين كما هو ثابت لدينا في القرآن الكريم. ومن لا يعجبه سلوك المسلمين، أو يعترض على تصرفاتهم اليوم فإنه ليس ضد الإسلام بل ضد المسلمين غير الملتزمين بالشرعة الإسلامية كما جاءت من الله في القرآن الكريم وكما جاءت عن الرسول في السنة الصحيحة.

فالمعري عندما جمل المسلمين لا يختلفون عن اليهود والمسيحيين في

قوله:

هَفَّتِ الحنيفَةُ والنصارى ما اهدتْ ويهوذ حارث والمجوسُ مُضِلُّهُ
اثنان أهل الأرض: ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخر دينٌ لا عقلَ له⁽¹⁰⁾

إنما أراد أن يقول إن المسلمين - في عصره على الأقل - لم يكونوا كما أمرهم الله بل كانوا منافقين ومتاجرين بالدين ومتناحرين ومتفرقين لأجل كسب دنيوي زائل. والأمر في ذلك راجع إلى عيب في نفوس المسلمين لا في الإسلام نفسه.

(10) أبو العلاء المري. لزوم ما لا يلزم؛ تحقيق أمين عبد العزيز الخاتجي. بيروت: مكتبة الهلال

1969 م 2/208.

وهذا هو الشأن بالنسبة لليهود والنصارى والمجوس، فكل هذه الأمم والأقوام جاءت بها الكتب السماوية والرسول ومع ذلك لم تتبع الأديان الصحيحة كما أنزلها الله فضلت، وانحرفت عن الطريق القويم، وحارت في أمرها ولم تهتد إلى سواء السبيل.

ولكن الأستاذ نيكلسون استخدم هذين البيتين دليلاً على أن «الدين الإسلامي في نظر المعري لا أحسن ولا أسوأ من أي عقيدة أخرى»⁽¹¹⁾. وهذا الاستنتاج مردود على صاحبه بحجة أن المعري في هذين البيتين لم يتحدث عن الأديان في حد ذاتها بل إنه يتحدث عن معتقدها. والذي يرمي إليه الشاعر هنا هو أن هذه الأقوام بينها قاسم مشترك هو عدم التزامها بالأديان السماوية.

ولست أرى في ذلك مأخذاً على المعري لأنه يلقي بالتبعة واللوم على بني البشر لا على الأديان الصحيحة. ومن ثم فإنه لا يجوز لنا أن نعد المعري معترضاً على الأديان في قوله السابق.

وأما أن يكون «المعري قد اعترض على الطقوس والشعائر الإسلامية»⁽¹²⁾. فإن ذلك مردود أيضاً لأن النصوص الثابتة في كتابات المعري لم تشر إلى ذلك صراحة ولا تلميحاً. بل على العكس من ذلك تدعو إلى وجوب اتباع تعاليم الدين الإسلامي، والابتعاد عن مغريات الدنيا وملذاتها، فقله:

سَبَّحْ وَصَلِّ بِمَكَّةَ زَائِراً سبعين لا سبعاً فَلَسْتَ بِنَاسِكٍ
جَهْلَ الدِّيَانَةِ مَنْ إِذَا عُرِضَتْ لَهُ أطماعه، لم يُلَفَّ بِالْمَتَمَاسِكِ⁽¹³⁾

استخدمه الأستاذ نيكلسون دليلاً وشاهداً يوضح اعتراض المعري على الشعائر الإسلامية⁽¹⁴⁾. والذي يفهم من هذين البيتين يناقض تماماً هذا

Nicholson, R.A. *A Literary History of Arabs*. Cambridge: Cambridge University (11) Press, 1966 P. 318.

(12) السابق ص 319.

(13) اللزومات 2 / 165.

Nicholson, *A Literary History* P. 319.

(14)

الاستنتاج. فالمعري يوضح هنا أن النسك في الإسلام ليس أداء فروض فقط؛ لأن الشعائر والفرائض والطقوس مهما كثرت وبالح فيها الإنسان، لا تكفي للنسك والزهادة ما لم تكن مصحوبة بشيء آخر وهو التعفف والابتعاد عن هوى النفس ونزعاتها.

والأستاذ نيكلسون فهم من هذين البيتين أن الشاعر كان معترضاً على الحج والصلاة. ولكن المتفحص للبيتين يدرك ما يرمي إليه المعري من أن الذي لا يستطيع أن يقاوم نزعات نفسه ورغباتها وشهواتها لا يمكن أن يكون ناسكاً لأنه لا يعرف من الإسلام إلا شعائر تقام وفروضاً تؤدي، مع أن الإسلام الحق هو كبح جماح النفس في كل ما تنزع إليه، وذلك هو الجهاد الأكبر في الإسلام. فالمعري إذا لم ينكر الشعائر والطقوس والعبادات، بل أنكر أن يكون المسلم ناسكاً مهما أدى من الفروض ما دام غير قادر على محاربة النفس وأهوائها. ويعتبر المعري داعيةً إلى ضرورة إعمال العقل والفكر والابتعاد عن تقليد الآخرين، وذلك لإيمانه بأن العقل الكامل السليم لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية السمحاء. فالتعاليم الإسلامية كلها مقبولة عقلاً، وما لا يتمشى مع العقل لا يمكن أن يكون من صميم الإسلام. وإيماناً بهذا المبدأ الإسلامي، فإن المعري أنكر التقليد الأعمى وطالب بوجوب النظر والتفكير والتبصر في بدائع خلق الله، وأنكر وجود أي تضارب أو تعارض بين العقل السليم وتعاليم الإسلام. ولكن المقلدين آنذاك واجهوا التفكير بالتكفير والإلحاد، ولذلك قال المعري:

في كل أمرك تقليدٌ رضيته به حتى مقالك ربي واحدٌ أحدٌ
وقد أبرزنا بفكرٍ في بدائعِهِ وإنْ تَفَكَّرَ فيه معشرٌ لحدوا
وأهلٌ كلِّ جدالٍ يمسكون به إذا رأوا نورَ حقٍّ ظاهراً جحدوا⁽¹⁵⁾

فهذه الأبيات فيها تقرير من الشاعر بأن الإنسان - في عصره - إما أن يكون مقلداً وغير قادر على استعمال العقل الذي أمرنا الله به، وإما أن يصفه

(15) اللزوميات. 238/1.

الناس بالإلحاد حال استعمال العقل والتفكير. وفي هذه الآيات أيضاً إشارة إلى المذاهب الكلامية والفرق الدينية التي قد تجحد الحق الظاهر للعيان وذلك لتعصبها وتمسكها بأفكار ومفاهيم تخالف العقل الراجح وتخالف الدين الحق في كثير من أمرها.

ومع وضوح المعنى المقصود بقول المعري «... لحدوا» فإن من المستشرقين من فهم أنه يدعو إلى عدم استعمال العقل «لأن العقل في نظر المعري يجر إلى الإلحاد»⁽¹⁶⁾.

ويتساءل المعري - مستغرباً ومستنكراً - عن وجود الكفر وعدم الإيمان المطلق مع وجود الرسالات الإلهية؛ فكيف لم يكن كل اليهود يهوداً حسب ما جاء في التوراة؟ وكيف لا يكون كل المسيحيين مسيحيين حسب ما ورد في الإنجيل؟ ولماذا لا يكون كل المسلمين مسلمين حسب ما جاء في القرآن الكريم؟ فعلى الرغم من وجود هذه الكتب السماوية الصحيحة فإن الأقوام التي نزلت عليها لم تخضع جميعها لتلك الأديان. وليس ثمة قوم يدينون بأي من هذه الأديان إلا وجد بينهم كفرًا وملحدون ومكذبون ومتشككون:

دِينَ وَكُفْرَ وَأَنْبَاءَ تُقْصِرُ وَفِرَ قَانَ يُنْصِرُ وَتُورَاةَ وَإِنْجِيلُ فِي كُلِّ جِيلٍ أَبَاطِيلُ يَدَانُ بِهَا فَهَلْ تَفَرَّدَ يَوْمًا بِالْهَدَى جِيلُ⁽¹⁷⁾

فكأنني بالمعري هنا يقرر واقعاً لا يمكن إنكاره؛ فالبعض من معتنقي هذه الديانات قد انحرفوا عن سواء السبيل، وابتدعوا بدعاً وأباطيل تخالف الأديان السماوية وأصبحوا يدينون بها. فليس هناك جيل متفرد بالهدى خال من الضلالة نهائياً، بل أينما وُجدَ دينٌ وُجدَ معه كفرٌ. ولا أعتقد أن المعري هنا جاء بشيء يخالف الشريعة الإسلامية أو يعترض على الأديان السماوية الصحيحة كما ظن بعض المستشرقين.

فإذا كان للمعري موقف ضد المسلمين فإنه ليس ضد الإسلام، وهذا ما

Lacy, R. Kaven. *Man and Society in Lazumiyyat al-Ma'arri* U.S.A. University of (16) Utah, 1984 P. 147.

(17) اللزوميات. 2/ 183.

يقرره الفهم الصحيح للشعر الذي استشهد به هؤلاء المستشرقون الذين يعترفون بذلك، ويقولون بأن «هجوم المعري لم يكن موجهاً للعقيدة بالتحديد، بل موجهاً لما عايشه خلال فترة حياته من ممارسات تدل على أن الإسلام لم يفهم فهماً صحيحاً ولم يُمارس ممارسة صحيحة»⁽¹⁸⁾ ذلك أن «الإسلام الذي يعييه المعري في لزومياته لم يكن دينَ توحيدٍ لله ولا دينَ وحدةٍ للمسلمين؛ فإلى جانب السنة والشيعة ظهرت انشقاقات وانفصامات في صفوف المسلمين تبرهن على أن الدين الإسلامي في واد والمسلمين في واد آخر»⁽¹⁹⁾ هكذا تتضارب آراء المستشرقين - بل آراء المستشرق الواحد - حول عقيدة المعري، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الاختلاف بين ما قر في أنفسهم حول عقيدة المعري وما هو موجود بين أيديهم من شعره وأقواله.

ومن المستشرقين من قال عن رسالة الغفران بأنها «تصور فردوس المؤمنين صالوناً فاخراً وثيراً يسكنه أناس خالدون ولكنهم بوهيميون فاسقون»⁽²⁰⁾ وبأنها «تحويل الجنة صالوناً فاخراً يسكنه كثير من الشعراء الوثنيين الذين عُفِّرَ لهم». ومن هنا جاءت التسمية (رسالة الغفران)⁽²¹⁾.

وقد فند بعض العرب المتخصصين هذه المزاعم بقولهم إن رسالة الغفران تصور الجنة وفق ما جاءت أوصافها في القرآن الكريم، والثقافة الإسلامية العامة؛ إذ ليس هناك وصف للجنة في رسالة الغفران يخالف أوصافها في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وتفسير القرآن، والكتب الدينية. وأما أن تكون الجنة - في رسالة الغفران - مأوى يأوي إليه وثنيون وفجرة وفاسقون وبوهيميون، فذلك لا وجود له. ولعل من وَهَمَ هذا الوهم لم يقرأ رسالة ابن القارح التي جاءت رسالة الغفران رداً عليها. فهذا الأستاذ نيكلسون يصرح بأنه لم ير ولم يقرأ رسالة ابن القارح، وبأنه لم يعرف عن صاحبها شيئاً

Lacy Man P. 148.

(18) مثل

(19) السابق ص 170.

(20) السابق.

Nicholson «Risalatul Ghufuran» JRAS 1902 P 78.

(21)

وأما فيما يخص الشخص الذي كتبت إليه رسالة الغفران، فإن المعري زودنا عنه بمعلومات قليلة، اسمه الكامل هو علي بن منصور بن طالب الحلبي وكنيته أبو الحسن⁽²²⁾ وبعد ذلك يستتين يقول الأستاذ نيكلسون «إن هوية مراسل المعري ستبقى مجهولة، وأعتقد أنه أبو منصور الديلمي المعروف بأبي الحسن علي بن منصور⁽²³⁾» فالأحكام الصادرة عن سوء عقيدة المعري بسبب رسالة الغفران أحكام خاطئة لأن الذين أصدروها - من الحرب القلماء أو من المستشرقين - لم يكونوا قد قرؤوا الغفران، وإن قرؤوها فإنهم لم يقرؤوها كاملة، وإن قرؤوها كاملة فإنهم لم يقرؤوا معها رسالة ابن القارح. فهذا مثلاً الأستاذ ميغويل آسبين بلاثيوس لم يستطع فهم الغفران لأنه لم يقرأها بل قرأ ما كتبه عنها الأستاذ نيكلسون، ولم يقرأ - بل ولم ير⁽²⁴⁾ - رسالة ابن القارح وذلك لأن رسالة ابن القارح التي جاءت رسالة الغفران رداً عليها قد فقدت نهائياً⁽²⁵⁾ ولهذا السبب وقع الأستاذ بلاثيوس في كل الأخطاء التي وقع فيها قبله الأستاذ نيكلسون؛ فوضع بعض الشعراء في الجحيم بينما هم في جنة النعيم وذلك مثل الخنساء، وظن أن بعض الملحدين أسكنهم المعري في جنة الغفران، وظن أن المعري جعل بعض معاصريه الشعراء أبطالاً في رسالة الغفران. وغيرها من الأخطاء التي يمكن ردها إلى عدم قراءة الغفران في نص محقق متزامن مع رسالة ابن القارح⁽²⁶⁾. ومن لا يقرأ رسالة الغفران مع رسالة ابن القارح لا يمكن له أن يفهم الغفران لأنها تجيب فقرة فقرة، وجملة جملة على رسالة ابن القارح⁽²⁷⁾، ومن لا يقرأ رسالة ابن القارح والغفران متزامتين فإنه لا

Nicholson A Literary History pp. 318 - 319, and «Abu'l 'Ala» Encyclopedia of Islam p. 76.

Nicholson «Risalatul 'Ghufran» JRAS 1900 PP. 640 - 641. (23)

(24) السابق 1902 ص 78.

Islam and The Divine comedy translated by Harold Sunderland. Lahore: انظر كتابه (25) Sarwar Amin Printers, 1977 P. 55 footnote 3.

(26) السابق ص 55 - 76.

(27) بنت الشاطئ (محققة). رسالة الغفران لأبي العلاء للمعري، الطبعة الخامسة، القاهرة: دار المعارف، 1969 م للقلماء، ص 98.

يفهم الغفران، بل سيعتقد أنها «أجزاء متناثرة وغير مترابطة»⁽²⁸⁾.

ولهذه الأسباب جعل المستشرقون سكان الجنة - في غفران المعري - وثنيين وبوهميين. والحقيقة أن الغفران تخالف هذا الرأي تماماً؛ فالأصناف التي أدخلها المعري إلى جنة غفرانه لا تخرج عن أحد الأصناف التالية:

1 - من كان من الشعراء مسيحياً صادقاً في عقيدته قبل بعثة الرسول ﷺ، مثل عدي بن زيد العبادي الذي يقول لابن القارح «إني كنت على دين المسيح ومن كان أتباع الأنبياء قبل أن يُبعث محمدٌ فلا بأس عليه وإنما التبعة على من سجد للأصنام»⁽²⁹⁾.

2 - من كان من الشعراء مؤمناً بالله واليوم الآخر قبل الإسلام مثل زهير بن أبي سلمى الذي دخل الجنة لقوله:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى، ومهما يكتُم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم⁽³⁰⁾

3 - من عاصر البعثة المحمدية من الشعراء وحاول دخول الإسلام والذهاب إلى الرسول لإعلان إسلامه ولكنه صُدَّ ومُنِعَ من ذلك. فهذا ميمون بن قيس (الأعشى) ينظم قصيدة رائعة في مدح الرسول والرسالة، ويقرر الذهاب إلى الرسول لإعلان إسلامه بين يديه، ولكن قريشاً منعتة من ذلك ووقفت في طريقه.

4 - من كان من الشعراء مسلماً صادقاً قولاً وعملاً كالشعراء الصحابة؛ ليبد، وحسان، والنابغة الجعدي مثلاً.

فجنة الغفران إذاً لم يدخلها بوهمي، أو وثني، أو أي كافر أعلن كفره أو عُرف بكفر أو زندقة أو إلحاد. بل إن أهل الجنة من الشعراء كانوا موزعين في مراتب الجنة حسب أعمالهم وقوة إيمانهم في الدنيا؛ فمنهم من كان في

Nicholson JRAS 1899 PP. 671.

(28)

(29) بنت الشاطيء. - جليل في رسالة الغفران. ط 1 بيروت: دار الكتاب العربي، 1972 م ص 105.

(30) السابق ص 102 - 103.

أعلى عليين كزهير والنابعة، ومنهم من كان في أدنى درجات الجنة كالحطيثة لأنه - رغم إسلامه - كان معروفاً بركة إيمانه .

فما وصل إليه هؤلاء المستشرقون من استنتاجات مخطئة إنما أساسه عدم قراءة رسالة ابن القارح، وما كانوا ليقعوا في مثل هذه الأخطاء لو أنهم قرؤوا الغفران ورسالة ابن القارح مترامتين .

هذا بعض مما قاله المستشرقون حول عقيدة المعري حسب فهمهم لشعره الوارد في (اللزوميات) ونشره (رسالة الغفران) . وهكذا نرى أن المستشرقين قد أخطأوا - أو خطئوا - في فهم عقيدته وفق ما قرؤوه من أقواله بلغته الأصلية، أو من أقواله المترجمة وما صاحبها من تعليقات المترجمين .

وأما حكم المستشرقين على عقيدة المعري بسبب تأليفه كتاباً بعنوان الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، فإنه حكم مؤسس على ما سمعوه حول هذا الكتاب وعقيدة صاحبه . فهم لم يروا الكتاب فضلاً عن أن يكونوا قد قرؤوه وفهموه . وإذا علمنا بأن هذا الكتاب لم يُكتب له البقاء ولم يُنشر منه حتى الآن إلا جزء صغير جداً قام بتحقيقه ونشره لأول مرة الأستاذ محمود حسن زناتي عام 1938 م، وإذا علمنا بأن أغلب المصادر العربية القديمة التي تناولت المعري وتأليفه إنما تشير إلى الفصول والغايات دون دليل على أن مؤلفها قد اطلعوا عليه، فإنه بإمكاننا أن نقرر مطمئنين أن المستشرقين لم يروه ولم يقرأه . فأتى لهم أن يحكموا بسوء عقيدة المعري استناداً على كتاب لم يكونوا قد فهموه؟ إن أحكامهم هذه لا مصدر لها إلا ما أشيع حول كتاب وعقيدة صاحبه؛ وهذا ما يفهم من أقوالهم فمنهم من يقول: «يُقال إن المعري ألف كتاباً بعنوان الفصول والغايات في تقليد القرآن»⁽³¹⁾ . ومنهم من قال: «قيل إن المعري قد كتب قرآناً»⁽³²⁾ . فهذان الرأيان إذاً ليسا حكمين صحيحين حول الفصول أو صاحبه وإنما هما إقرارٌ بما كان قد قيل وأشيع حول هذا

Nicholson «Abu'l 'Ala» P. 76.

(31)

Huart, Clement. A History of Arabic Literature. Beirut: khayat Book and Publishing Company, 1966 P. 99.

(32)

الكتاب. والدليل على أن صاحبي هذين الرأيين لم يريا **الفصول والغايات** هو قولهما «قيل إنَّ» و «يقال إنَّ».

ومن المستشرقين من قال: «إنه [الفصول والغايات] أكبر عملٍ غير ملتزم [دينيًا] لأنه تقليد للقرآن»⁽³³⁾. و «لقد قلَّد المعري القرآن في كتابه المسمى **الفصول والغايات**»⁽³⁴⁾. و «إن **الفصول والغايات** تقليد للقرآن»⁽³⁵⁾. و «المعري هو آخر شاعر مرموق حاول تقليد القرآن، أو على الأقل بعض السور والآيات»⁽³⁶⁾. و «إن عقيدة المعري أصبحت موضوع نقاش لأنه حاول تقليد القرآن»⁽³⁷⁾. إن هذه الآراء لا تبعد كثيراً عن أن تكون منقولة عن السابقين دون الاطلاع على هذا الكتاب لأنها غير مشفوعة بأي دليل نقلي يبرهن على أن أصحابها قد اطلعوا على **الفصول**، كما أنها ليست مشفوعة بأي دليل عقلي يثبت صحتها.

إن هذه المزاعم كان لها أثر كبير في آراء الكتاب والنقاد - شرقيين وغربيين - وتداولتها الكتب والمقالات، وتوارثها الدارسون رداً من الزمان كما لو كانت حقائق ومسلمات. وما أن نُشيرَ الجزء المشار إليه من هذا الكتاب حتى تغيرت وجهات النظر إليه وإلى عقيدة مؤلفه بسببه، حيث اتضح أن **الفصول والغايات** كتاب «في الوعظ والإرشاد من غير شك»⁽³⁸⁾. كما اتضح أن هذا الكتاب «يتحدث عن الله، والقدرة الإلهية المطلقة، والعدل الإلهي، والخلود الإلهي... إلى جانب موضوعات أخرى متنوعة ومتعددة»⁽³⁹⁾.

Browne, Edward G. *A Literary History of Persia* (4 vols) Cambridge: Cambridge University Press 1956. 2 ñ 293.

(34) كارل بروكلمان. تاريخ آداب اللغة العربية. (6 أجزاء) ترجمة رمضان عبد التواب والسيد بكر ج 5 ص 38.

Nicholson *A Literary History of Persia* P. 318. (35)

Von Grunebaum, Gustave B. *Medieval Islam* Chicago: University of Chicago Press, 1961 P. 97. (36)

Margoliouth. *The Letters* P. 36. (37)

(38) طه حسين. تجديد ذكرى أبي العلاء. ص 279 الهامش.

Smoor, Pieter. «al Ma 'Arri» *Encyclopaedia of Islam* New ed. vol 5 P 239. (39)

ومما سبق يمكن أن نستنتج أن المستشرقين سمعوا المزاعم الكاذبة والأباطيل والإشاعات التي روجها معارضو المعري وخصومه من الساسة السفاحين الذين حاولوا القضاء عليه فلم يجدوا إلى ذلك من سبيل إلا تليفق المطاعن والتهم الدينية التي وجدت أذاناً صاغية في الأوساط العامة، ووجدت نصيراً ومذيعاً من الكتاب والأدباء الذين يدونون كل ما يسمعون دون أن يميزوا بين الغث والسمين. وبناء على ذلك استقر في عقول المستشرقين ووفر في أنفسهم أن المعري كان كافراً ومعارضاً لكل الشرائع دون استثناء. واستناداً إلى ما لديهم من الأحكام السابقة، انطلقوا يبحثون عن الدليل من أقواله ففهموها على غير ما ترمي إليه وتعسفوا في تأويلها محاولين إثبات كفره وإلحاده. فقد تعاملوا عليه أكثر مما تعامل عليه أعداؤه من الساسة، وذوي الاتجاهات والمذاهب الدينية، والفرق الكلامية الذين أسسوا فكرة كفره وإلحاده وزندقته، لا لشيء إلا لأنه عارضهم في متاجرتهم بالدين، وعارضهم في تطويعهم الدين للسلطة السياسية الجائرة المتعسفة آنذاك، وعارضهم في اتخاذ الدين وسيلة لاسترقاق رقاب العامة من الناس، أو وسيلة لكسب دنويي زائل، وعارضهم في أن يكون الدين الإسلامي قولاً بلا عمل أو مظهراً بلا جوهر.

ويتجلى تحامل المستشرقين على المعري في أنهم يركنون إلى الشواهد الشعرية المبتورة أحياناً. وعندما يجدون ما يدل على صدق إيمانه، فإنهم لا يقدمونه للقراء بل يقولون: «وأما ما ورد في اللزوميات من شعر ملتزم دينياً إنما هو وسيلة للرماد في العيون»⁽⁴⁰⁾.

فلننظر في هذه العبارة؛ هل الشعر الملتزم دينياً في اللزوميات أقل من الشعر الذي استشهد به المستشرقون؟ بالطبع لا. فالشعر الواضح الالتزام، والصادر عن عقل مفعم بالإيمان أكثر بكثير من شواهد المستشرقين ولكنهم أهملوا الكثير وتمسكوا بالقليل، والسبب في ذلك أن الكثير دليل على حسن عقيدة قائله، وهذا مما لا ينسجم مع ما وفر في نفوسهم وران على قلوبهم حول عقيدة المعري. إن عدد أبيات اللزوميات يقارب ثلاثة وعشرين ألف

Nicholson «Abu'l 'Ala» P. 76.

بيت، وما استشهد به المستشرقون على سوء عقيدة المعري من هذا العدد لا يتجاوز أبياتاً لا تشكل إلا نسبة ضئيلة جداً من هذا الكم الهائل في اللزوميات. زد على ذلك أن الأبيات التي استشهدوا بها لا يمكن أن تُفهَم بالطريقة التي فهموها بها ما لم يكن علمهم السابق مسيطراً على ما بين أيديهم من النصوص. فلو كانوا متجردين من فكرة كفر المعري، لفهموا شعره على غير ما فهموه به وهم يحملون هذه الفكرة. ولو كانت الأبيات التي استشهدوا بها لإثبات كفر المعري منسوبة إلى مَنْ عُرِفَ واشتهر بقوة الإيمان وصدق العقيدة لاستخدموها دليلاً وشاهداً على صدق عقيدة صاحبها. فالمسألة إذاً ذات جانبين: الجانب الأول أن المعري قُدِّمَ للمستشرقين ككافراً فحاولوا إثبات كفره بأي طريقة؛ فأهملوا الشعر الواضح والكثير، وتعسفوا في تأويل الأبيات التي استشهدوا بها لإثبات دعوى مزعومة أو باطلة. ولعل السبب في ذلك راجع إلى أنهم لم يقرؤا تلك الأبيات بمعزل عن قائلها للوصول إلى حكم ما بل إنهم قرؤوها وهم يحملون فكرة حول عقيدة قائلها، فأخذوا تلك الأبيات لدعم ما لديهم من الأفكار لا لاستنتاج حكم جديد منها. وأما الجانب الآخر فهو إهمال حياة الشاعر من أجل الوصول إلى حكم قاطع وصادق حول عقيدته. فإذا كان المعري - كما تحدثنا كتب الأدب والأعلام - يؤمن بالله، وينبؤة الأنبياء، وبصدق الرسلالات السماوية، وأنه كان مسلماً ولم يترك فرضاً من فرائض الدين الإسلامي، ولم يتأخر عن أداء صلاته مطلقاً، فإنه لا مجال لمتقول أن يقول إن ما دل من شعر المعري على صدق إيمانه إنما هو وسيلة لإسكات النقاد وإخفاء الحقيقة.

إن المعري لم يثبت عنه في حياته العملية اليومية أنه خالف الدين الإسلامي في شيء. ومن ثم فإنه لا يحتاج إلى ذر الرماد في انعيون. إن الذي اقترف من الأعمال ما يخالف الدين وتعاليمه هو الذي يحتاج إلى أقوال يستتر بها عن سوء أعماله وأفعاله. ولكن هذا الشأن ليس هو شأن المعري الذي عرفه معاصروه بقوة الالتزام الديني في حياته العملية والقولية.

صحيح أن المعري لم يترك مالأً وذلك لأنه كان معدماً، وكان من حقه

أن تدفع له الزكاة. وصحيح أنه لم يؤد فريضة الحج والسبب في ذلك أن هذه الفريضة مشروطة بالاستطاعة التي كانت تعوز المعري من الناحيتين الجسمية فهو ضريح، والمالية فهو معدوم.

فالمعري إذاً لم ينكر أصلاً من أصول الدين الإسلامي ولا ركناً من أركانه، ولكنه أنكر أن يكون الدين سلعة ومغتماً يغنمه المتاجرون بالدين، وأنكر أن يكون الدين وسيلة لاعتلاء سدة الحكم للتسلط على رقاب الناس وحياتهم. ومن هنا يمكن أن نصل إلى تصديق ما قالته بنت الشاطئ من أن المعري ما زال يدفع ثمن مهاجمته كل الأئمة، ورجال السياسة، والمنافقين الذين تحالفوا للعمل معاً لإظهاره على أنه لم يكن رجلاً متديناً⁽⁴¹⁾.

(41) انظر بنت الشاطئ، «أبو العلاء المعري». القاهرة: المؤسسة المصرية العامة، 1965 م. ص 213.

مِفْهُومُ الْمَبَالِغَةِ فِي الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ

سُلَاحُ عُبُودِ
جَامِعَتُكُمْ

تُدرس المبالغة في الكتب البلاغية ضمن موضوعات البديع، وضمن المحسنات المعنوية منه بشكل خاص. والمتأمل في النصوص التي تدرس من خلالها المبالغة يجد أنها تشتمل على الصور البيانية التي يتفاوت الشعراء في درجة واقعيّتها أو خياليّتها، وفي قربها من الحقيقة أو بعدها منها، وفي صدقها أو كذبها. كما تشتمل تلك النصوص على موضوعات من علم المعاني. وبما أن المبالغة ترتبط بالمعنى فهي غير خاضعة لجانب واحد من علوم البلاغة المعروفة (البيان والمعاني والبديع).

ولهذا فدراستها في إطار المحسنات البديعية المعنوية تضيق لمجالها، وإشعار بأنها من نمط (المحسنات). ومن المعلوم أن النظر إلى البديع قد شابه شيء من الازدراء في العصر الحديث خاصة، لما كان فيه من تكلف وتنطع طبع المرحلة السابقة لهذا العصر بطابعه.

وسوف نخرج المبالغة بهذا البحث عن إطارها الضيق ذلك إلى مجال هو أقرب إلى مجال الصورة الفنية، وإلى مجال المعنى الفني بشكل عام. تعريف المبالغة:

قال أبو هلال العسكري (والمبالغة أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازل، وأقرب مراتبه)⁽¹⁾ وقال السكاكي في تعريفها (أن يُدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستحيلاً أو مستبعداً لئلا يظن أنه غير متناه)⁽²⁾.

وهذا غير بعيد عن المعنى اللغوي للمبالغة، فهي أن تبلغ في الأمر جهدك، وتنتهي إلى غايته⁽³⁾.

وهذا مجال يتفاوت فيه الأدباء على ضوء رغبتهم في تثبيت معانيهم في نفوس السامعين. فهناك من المعاني التي لم تبلغ مبلغها من النفس، فتظل تتطلع إلى مزيد وربما اعتبر هذا عنصر ضعف أو خلل في المعنى الذي أراد الأديب إبلاغه. وهذه الفكرة تذكرنا بأضرب الخبر التي عني بها علماء المعاني. على ضوء حالات المخاطب الذي يكون خالي الذهن من الحكم، أو متردداً في الحكم شاكاً فيه، أو منكراً لحكم الخبر⁽⁴⁾. فتكون معرفتك بالحال التي عليها السامع وسيلة لقدرتك على إبلاغه ما تريد، بل غاية ما تريد أن تحدث في نفسه من استجابة وتأثير. وباستطاعتك - بناءً على معرفتك بنفسية المستلقي وحاله - أن تضخم الصورة أو المعادل الرمزي للمعنى لكي تجعل المعنى نفسه أشد ولوجاً إلى النفس وأكثر إثارة لكوامن النفس.

ولم تقف المبالغة عند هذا المعنى بل قسمها علماء البلاغة إلى ثلاثة أقسام: التبليغ والإغراق والغلو. فإذا كان الوصف المدعى ممكناً عقلاً وعادةً

(1) كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. ص 378.

(2) شرح التلخيص للشيخ أكمل الدين بن محمد البابري. تحقيق د. محمد مصطفى صوفية، المنشأة العامة، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية، ط 1، 1392 هـ، 1983 م، ص 643.

(3) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة بلغ.

(4) د. عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1، 1985، ص 55.

فهو التبليغ، وإذا كان ممكناً عقلاً لا عادةً فهو الإغراق، وإن كان ممتنعاً عقلاً وعادةً فهو الغلو⁽⁵⁾.

وهذا يعكس درجات المبالغة من حيث قبولها واستنكارها. وقد أوردوا أمثلة شعرية ونثرية لهذه الأنواع ووقفوا عند المستساغ منها وعند الذي ينبو عن الذوق.

فمن أمثلة التبليغ قول المتنبي:

إذا صلتُ لم أترك مصالاً لصائل وإن قلتُ لم أترك مقالاً لقائل
وهو معنى بلغ به الشاعر غايته بحيث لم يدع مجالاً لمزيد. وعلى هذا أغلب الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي. ولكن شعراء العصر العباسي أوغلوا في هذا الطريق من المبالغة حتى خرجوا به عن الحد المقبول، ومن هؤلاء الشعراء المتنبي نفسه. ومن أمثلة الإغراق قول عمير التغلبي:

ونكرمُ جارنا ما دام فينا ونُثبِّعُ الكرامةَ حيثُ مالا
وهو ما ينطبق عليه تعريف السكاكي السابق من حيث كونه ممكناً عقلاً لا عادة. فإكرام الجار مدة إقامته أمر مستحسن ووارد في العقل والعادة ولكن جعل الكرم تابعاً له أينما حلّ وأقام أمر غير مقبول عادة وإن كان لا يمتنع عقلاً.

أما الغلو فهو السير بالمبالغة إلى أقصى غاياتها المستحيلة، وهو الممتنع عقلاً وعادة. وقد سمّاه القاضي عبد العزيز الجرجاني بالإفراط والإحالة⁽⁶⁾، وقد تبارى في ميادينها شعراء العصر العباسي من أمثال أبي نؤاس وأبي تمام والمتنبي حتى خرجوا عن قيم الذوق والعقل والدين، إرضاءً لنزعة الترف والتفنن والزلزلة من الحكام. ومن أمثلة قول أبي نؤاس في مدح الرشيد: وأخذت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق

(5) شرح التلخيص، ص 643.

(6) الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ومحمد علي البجاوي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ص 40.

وقول ابن هانيء الأندلسي مخاطباً المعز لدين الله :
 ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحدُ القهار
 وقول المتنبي في مدح سيف الدولة :
 تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
 وقوله في الغزل :

يترشفن من فمي رشفاتٍ هُنَّ فيه أغلى من التوحيدِ
 فأنت تلاحظ هذا الغلو الذي تكون معه الاستحالة والإفراط والخروج
 على الأحاسيس الدينية الى الدرجة التي توهم بكفر قائله ، وما هو بكافر .
 ولكن الجري وراء الهوى والخيال الشعري الذي لا يقف عند حد يزين
 للشعراء هذا المنحى الذي يثبتون به براعتهم وتفوقهم على أقرانهم في حلبة
 المنافسة والصراع الدنيوي .

ومن الضروري هنا الإشارة إلى أن البلاغيين استحسنوا من الإغراق
 والغلو ما إذا دخل عليه أو اقترن به ما يقربه إلى الصحة والقبول بنحو قد ، ولو
 ولولا ، وكاد ، وما أشبه ذلك من أدوات التقريب⁽⁷⁾ . ومن أمثلة هذا الغلو
 المقبول قول الفرزدق في علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب :

يكاذُ يمسكُهُ عرفانُ راحته ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم
 وقول البحتري في مدح المتوكل :

ولو أن مشتاقاً تكلفَ فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبرُ
 وبعد هذه الوقفات السريعة عند تعريفات المبالغة لدى البلاغيين
 وأقسامها وأنواعها وأمثلتها في الشعر العربي نحاول أن نتأني في وقفنا عن
 مفهومها في القرآن الكريم فهل هي نفسها كما وردت لدى الأدباء أم أنَّ لها
 طابعاً متميزاً باعتبار أن كلام الله ليس كمثل كلام البشر . والحق أن المقاييس

(7) أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 403، وينظر الخطيب
 التزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج 1، ص 517.

التي تتبعها في هذا المجال لا ينبغي أن تكون هي المقاييس ذاتها التي نقيس بها كلام البشر، فالبون شاسع والمصادر متباينة على الرغم من أن القرآن الكريم قد نزل بلغة البشر أنفسهم، وبالأصاليب التي درج عليها البيان العربي في جزيرة العرب قبل الإسلام، ولكن - مهما يكن - فللقرآن الكريم خصوصياته الربانية، ودلالاته ومعانيه التي لا تصدق معها المقارنة بالأدب الأرضي البشري. كما سنلاحظ.

- 1 -

صور المبالغة في القرآن الكريم:

اختلف العلماء في قبول وجود المبالغة في المعاني القرآنية، وقد أنكر بعضهم أن تكون المبالغة من محاسن الكلام، ولكن الذي عليه أغلب العلماء أنها واردة في كتاب الله في مواضع متعددة⁽⁸⁾. والذي ينكرون إنما هو الغلو فيها، (ولو بطلت المبالغة كلها وعييت لبطل التشبيه وعييت الاستعارة إلى كثير من محاسن الكلام)⁽⁹⁾.

والحق أنه على الرغم من أن القرآن الكريم كتاب تشريع ودستور هداية، إلا أنه كتاب أدب عال، وأنه ينبغي أن يفهم على ضوء المقاييس الأدبية مع الاحتراز من أن تكون هذه المقاييس هي مقاييس الأدب الأرضي، بل هي مقاييس خاصة بكلام الله، وإن تشابهت من بعض الوجوه مع هذا الكلام البشري.

ولهذا رأى الزمخشري في مقدمة الكشاف أن أراد أن يتصدى لفهم كتاب الله يجب أن يكون بارعاً في علمي البيان والمعاني، فهما العدة التي لا تستقيم بدونها الدلالات واللطائف والإشارات، وأنه لا يكفي المفسر أن يكون

(8) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ح 3، ص 55.

(9) ابن رشيقي، العملة في صناعة الشعر ونقله، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل، بيروت، ط 4، 1972، ح 2، ص 50.

عالمًا بالفقه والنحو وعلم الكلام والقصص والأخبار⁽¹⁰⁾.

ونحن نستهدي بهذا الرأي، ونحاول أن نقف عند الصور الأدبية التي تنحو منحى المبالغة وإن كانت مبالغة من نوع خاص. ولنتأمل معاً نماذج المبالغة في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا. وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: 2].

قال أبو هلال العسكري (ولو قال: تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بياناً حسناً، وبلاغة كاملة، وإنما خصّ المرضعة للمبالغة، لأنّ المرضعة أشفق على ولدها لمعرفة حاجته إليها، وأشفق به لقربه منها ولزومه لها، لا يفارقتها ليلاً ولا نهاراً، وعلى حسب القرب تكون المحبة والإلف)⁽¹¹⁾.

والمبالغة تحسن من خلال صيغة المرضعة بالتأنيث مع أنه يقال للمرأة (مرضعا).

قال الرازي (فإن قيل: لم قال: مرضعة دون مريض؟ قلت: المرضعة هي التي في حال الإرضاع، وهي ملقمة ثديها الصبي والمريض شأنها أن ترضع، وإن لم تبشر الإرضاع في حال وصفها به. فليلد ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة)⁽¹²⁾.

هذه وقفات ذكية من لدن العلماء في فهم أسرار الأسلوب القرآني، ومنها المبالغة في التعبير عن المعنى.. فهي مبالغة توصل المشاهد إلى الذهن وتجعل الحدث ماثلاً أمام عينيك. فهول يوم القيامة لا يذهل الأم عن الولد عموماً بل عن الرضيع، وليس الرضيع عموماً، بل الرضيع الذي ينكب على ثديها.

(10) الكشف، دار المعرفة، بيروت، (المقدمة) ص 16.

(11) كتاب الصناعتين، ص 378. وعلم البيان، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة، بيروت، ط 1، 1985، ص 28.

(12) التفسير الكبير، التزام عبد الرحمن عمدة، القاهرة، ط 1، ح 23، ص 4.

فالمبالغة - كما ترى - واقعية تصور حالة واقعة، وهي حالة قد لا تشبه حالة نشهدها في حياتنا الدنيا. فإنه من الصعب أن تتخلى المرضعة عن رضيعها في حوادث الدنيا المشهودة - ولكنها حوادث يوم القيامة التي لا تشبه شيئاً مما نرى هنا - ونسمع هنا . .

إذاً، فهي مبالغة بالقياس إلى الأحداث المشهودة في حياتنا ومآلوفاتنا وأحاسيسنا في هذه الحياة. ولو قال أديب إن امرأة ذهلت عن رضيعها في حادثة ما من الحوادث الدنيوية، لقلنا إنَّ في كلامه مبالغة، لأنه ليس من المألوف عادةً أن تتخلى المرضعة عن رضيعها مهما كانت المصيبة والصدمة. فالكلام هنا: باصطلاح البلاغيين ممكن عقلاً، وغير ممكن عادةً وهذا ما يسمونه بـ (الإغراق). بينما الموضع في مشاهد يوم القيامة يصح أن يقال إنه ممكن «عادةً» و «عقلاً»، فالمقاييس اضبطرت . . فلا العادة هي العادة، ولا العقل هو العقل!! .

المبالغة بالمفهوم القرآني ذات طابع ديني، والأمور من خلالها تجري وفق المنطق الديني، فما يصدر من رب الكون وبارئ النفوس، الخالق الجبار المتكبر، شيء وما يصدر من هذا الإنسان شيء آخر . . فكيف يحق لنا أن نساوي بين المصدرين والقدرتين؟ .

فحين نسمع إنساناً يقول إنه يعلم جهرنا وسرنا، وما نخفي وما نعلن، في ضوء النهار وظلام الليل، نقول عن كلامه هذا إنه مبالغة وإفراط واستحالة وغلو، بل وكفر! أما حين يقول الله سبحانه: ﴿سِوَاةٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: 10] فإنه وإن كان على صورة المبالغة ولكن (هي بالنسبة إلى المخاطب (بفتح الطاء) لا إلى المخاطب (بكسر الطاء)، معناه أنَّ علم ذلك متعذر عنكم، وإلا فهو بالنسبة إليه سبحانه ليس بمبالغة)⁽¹³⁾. فما هو مبالغة هناك، ليس مبالغة هنا بالمعنى الديني، بل المبالغة تكمن في القدرة البشرية المحدودة التي يصعب عليها

(13) الزركشي، ج 3، ص 53. وينظر مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط 4، 1401 هـ، ج 3، ص 237.

تصور هذا العلم الرباني البالغ.

ومن صور المبالغة التي وقف عندها علماء البلاغة والمفسرون قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: 27].

قالوا: (والمراد بقبل أن تنفذ أن كلماته تعالى لا تنفذ إطلاقاً... والمعنى لو فرض أن البحار بكاملها حبر يكتب به كلمات الله لانتهى الحبر وبقيت كلماته إلى ما لا نهاية)⁽¹⁴⁾. وقالوا: (وليس المراد بكلمات الله هنا الألفاظ المؤلفة من الحروف الهجائية ولا الأمر الفعلي الذي عبارة عن قوله (كن فيكون)، إنما المراد بكلماته هنا القدرة على إيجاد الكائنات متى شاء... وهذه القدرة لا آخر لها ولا نهاية. أما البحار والأشجار، ومثلها معها فهي متناهية، وكل متناهٍ إلى نفاذ)⁽¹⁵⁾.

وظاهر الأمر أن لا مبالغة هنا لأن كلمات الله لا تنفذ وقدرته لا نهاية لها، في حين أن البحار والشجر إلى نهاية ونفاذ. ولكننا إزاء صورة أدبية في كتاب الهداية الربانية. إن الأمر هنا يتعلق بتقريب الفكرة إلى أفهام البشر وإدراكهم، فالبحر الذي يمد سبعة أبحر غاية ما يتصوره الإنسان لو كان حبراً تكتب به «كلمات»، والشجر المنتشر في بقاع الأرض كافة لو صنعت منه الأقلام، لما كان بعده غاية في الكثرة...

إنها مبالغة بحدود إدراك البشر وتصوره لما يحيط به من محسوسات ولكنها وفقاً للقدرة الإلهية ومقدار علم الله ليست مبالغة. وما دام هذا الكلام الإلهي موجهاً للبشر فباستطاعته أن يقيسه على ما عهده من كلامه، وفي البيئة التي نزل فيها هذا القرآن.

(14) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، ط 2، 1978، مج 5، ص 166.

(15) المصدر نفسه، مج 6، ص 167.

ومن الجدير بالملاحظة أن العدد (سبعة) في لغة العرب وأساليهم في العصر الجاهلي كانت تدل على الكثرة، ولا تعني الحصر بالعدد ذاته في الغالب، ومثلاً العدد سبعون. ومن هذا نستطيع أن نفهم عبارة (سبعة أبحر)، فقد تعني أكثر من سبعة للدلالة على الكثرة الكثيرة.

وباستطاعتنا أن نتذكر قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 80]. فليس العدد هو المطلوب، بل الدلالة على الكثرة غير المحدودة. وهذه صورة من صور المبالغة أيضاً. ثم إن المسألة تتخذ طابع الفرض كما قال الشيخ مغنية بمعنى أننا لو فرضنا أن البحار تكون مداداً، والأشجار أقلاماً لما كانت قادرة على إملاء أوامر الله وعلمه وقدرته. كما أننا لو فرضنا أنك استغفرت سبعين مرة فلن يكون ذلك سبيلاً لمغفرة الله لأولئك الكفار والمنافقين.

وهذا الفرض هو الذي يجعل المبالغة القرآنية في غاية الحسن كما يعبر القدماء، وهي التي تجعل السامع أو القارئ يتجاوب مع الدلالة دون شك في أنها حقيقة واقعة، وإنها . ما تكون عن التضخيم الذي ليس وراءه طائل، وأبعد ما تكون من الرغبة في إظهار الذات وحب التفوق على الأقران كما نشهده في الأدب الإنساني أو الأرضي. وما ينبغي لنا أن نأتي هنا بنماذج بشرية من المبالغة الممجوجة لأن هذا يكون مقارنة مع الفارق. إذ كيف لنا أن نقارن بين كلام البشر وكلام خالق البشر. وقديماً كان علماء اللغة والبلاغة يستعينون بالشعر العربي لفهم مفردات القرآن الغريبة وصوره غير المألوفة، ولم يكن عملهم هذا من قبيل المقارنة أو المفاضلة البتة.

إننا في صور الفرض السابقة نقترّب من مقولة البلاغيين التي أثبتناها في أول الحديث عن المبالغة في الشعر. حيث قالوا إن الإغراق أو الغلو إذا دخلته لو، أو لولا أو يكاد أو ما شابه ذلك تجعلهما إغراقاً أو غلوّاً مستساغاً أو مستحسنّاً. وهو يكون كذلك على الرغم من امتناع المعنى عادة، كما في الإغراق، وامتناعه عقلاً وعادة كما في الغلو.

وهذا يعني أن الإغراق والغلو موجودان في القرآن الكريم، ولكن

بدلالتين اثنتين . أولاها ما أشرنا إليه من فارق بين صدور الفعل من الإنسان ، وبين صدوره من الله . فمع الفعل البشري يكون الامتناع عقلاً أو عادة ، ولكن مع الفعل الإلهي لا يكون امتناع في العادة أو العقل ، كما لاحظنا من الأمثلة السابقة .

وثانيهما أن الإغراق والغلو يرفقان بأدوات التقريب سألغة الذكر . وهي الأدوات التي تجعل المبالغة مقبولة ومستحسنة لأنها تكون من قبيل الفرض . وقد تتحقق الداللتان في مثال واحد كما في قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 21] . فبإمكانك أن تحمل المعنى على الدلالة الأولى ، وهي قدرة الله على إحداث الحياة والإحساس في الجبل وجعله متأثراً بمواعظ القرآن وهدية . وحتى في هذه الدلالة يمكن أن نستشعر المبالغة على الرغم من صدور الفعل من الله ، ولكنها المبالغة التي تعني تمام التوصيل للفكرة بما لا يدع مجالاً للشك فيها أو التفكير في عدم كونها واقعة حقاً .

إنما على الدلالة الثانية ، وهي سبيل الفرض ، والتمثيل خاصة وأن الله سبحانه عَقَّبَ على الآية بقوله : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ، فالمبالغة متحققة ، لأن المعنى من قبيل ما قالوا عنه أنه ممتنع عقلاً وعادة إذ إن الجبل لم يعرف عنه عادة التأثير والخشوع ولا يمكن تصور خشوعه وتأثره وفق المقاييس المادية البشرية . ومع ذلك فقد استحسنت هذه المبالغة لأن لو ، أدخلتها في باب الفرض - وهي التي يقول عنها النحاة بأنها حرف امتناع .

ولعل من المستحسن أن ننقل فهم الشيخ محمد جواد مغنية لهذه الآية بقوله : (هذا مجرد فرض دلت عليه كلمته (لو) . والفرض منه بيان عظمة القرآن وأنَّ له من قوة التأثير ما لو نزل على جبل لخشع ولان على قساوته ، وتصدع وتهوى خوفاً من الله على صلابته . إذن فمال الإنسان الذي تولمه البقعة ، وتقتله الشرقة وتنته العرقه - كما قال الإمام علي رضي الله عنه - ما بال هذا الضعيف ﴿يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يُصِرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها﴾

[الجالية: 4]... فهل قلبه أفسى من الجبل وأشد تمكناً؟⁽¹⁶⁾.

وهذا الفهم هو الذي استهدينا به.

ومن الصور الأخرى التي تحتل الدالتين، دلالة واقعية الفعل لأنه صادر من الله الذي أنطق كل شيء، ودلالة الفرض والتمثيل، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ، وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [سورة ق: 30].

يؤكد بعض المفسرين أن حديث السماء والأرض ونار جهنم من باب التمثيل وتقريب المعنى. قال الزمخشري (وسؤال جهنم وجوابها من باب التخيل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته)⁽¹⁷⁾. وهذا هو الفهم الأدبي لكتاب الله: وهو ليس بعيداً عن تحقيق المقاصد القرآنية إذا استخدم بحذر وحيطة وصدق نية. والمبالغة هنا في هذه الصورة المتخيلة للجحيم الناطق من سماء وأرض ونار، وهو من باب الاستعارة التي تشخص الأشياء وتجسمها، وهي باب من أبواب المبالغة ومدخل من مدخلها، كما سنشير.

ومرة أخرى نقول إننا لو لم نوافق أهل التمثيل والتخيل، وذهبنا إلى القول بأن الأرض والسماء والنار تحدثت وأحسّت حديثاً حقيقياً وإحساساً حقيقياً، كما روى ابن كثير في تفسيره عن الحسن البصري قال: (لو أيا عليه أمره لعدّ بهما عذاباً يجدان ألمه)⁽¹⁸⁾. أقول لو أننا اعتقدنا بحياة الأرض والسماء والنار فالصورة ذات الدلالة على الطاعة الكاملة من لدن هذه الموجودات لبارئها وخالقها، صورة تشي ببلوغ الهدف وتحقيق الفكرة في نفس المتلقي بخضوع الكون كله لله بلا استثناء... وهذه صورة من صور المبالغة.

(16) نفسه، مج 7، ص 294.

(17) الكشف، ج 2، ص 163. وينظر د. محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن، ص 149، وكتابتنا أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، دار المعرفة، دمشق، ط 1، 1987، ص 111.

(18) مختصر تفسير ابن كثير، ج 3، ص 258.

وقد قيل بأن أحد طرق المبالغة (أن يستعمل اللفظ في غير معناه لغةً، كما في الكناية والتشبيه والاستعارة من أنواع المجاز)⁽¹⁹⁾. وما من شك في أن منحى الآيتين السابقتين منحى مجازي.

- 2 -

صورة فنية للمبالغة:

مرّ علينا أن المعاني القرآنية التي تكون الأفعال فيها صادرةً من الله سبحانه تفسر فيها المبالغة على نحو خاص. فهي من جانب لا مبالغة فيها لأنها صادرة من خالق الأفعال، ومن جانب آخر فإن القارئ يجد فيها معنى المبالغة من حيث كمال الصورة ودقة توصيل المعنى الذي يستعصي على الفهم البشري إلا من خلال الإيضاح الذي يسلكه القرآن.

وقد أشرنا إلى أن بعض المفسرين والبلاغيين تعاملوا مع تلك الأنماط من المبالغة على أنها صور مجازية لا تتعلق بقضية قدرة الله سبحانه على منح الحياة للأشياء في الوجود.

وفي هذه الفقرة نريد الوقوف عند صور فنية للمبالغة نتناولها من جانبها الفني، وليس من جانب كون أفعالها صادرة من الخالق سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُم أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَهْلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 39].

هناك فكرة أراد الله سبحانه إبلاغها للبشر وهي أن المشركين لا يدخلون الجنة أبداً. ولكنه لو جاء التعبير بهذه الصورة التقريرية المباشرة الخالية من تقريب المعنى بالمحسوسات وشحنه بعنصر الإثارة المعتمدة على التجربة الإنسانية، لما قلنا إن المعنى بلغ أقصى غاياته وأبعد نهاياته، كما قال أبو هلال العسكري في تعريف البلاغة، وأشرنا إليه في بداية البحث.

فإيصال المعنى بالدرجة التي يأخذ على النفس أقطارها، ويشدها إلى

(19) البرهان في علوم القرآن، ج 3، ص 55.

المقصد الذي يُراد استدراجها إليه هو الذي يُراد من معنى المبالغة، وهي المبالغة الهادفة الموظفة إلى خدمة المعنى وتوصيله. وما تلك التي يغالى فيها بما لا طائل وراءه في خدمة المعنى إلا نوعاً من (الشطارات) والفذلكات البديعية في عصور الفراغ من حياة البشر.

ونعود إلى المبالغة في الآية. فنقول إن المعنى في الآية تعلق بمُحال. أو أن الصورة الحسية المعبرة عن المعنى تعلقت بمُحال، وما يعلق بمُحال فمحال، كما قال الشيخ مغنية⁽²⁰⁾. والعرب تضرب المثل لما لا يكون بقولهم لا أفعله حتى يشيب الغراب!!.

ففكرة استحالة دخولهم للجنة مغضوبة في الآية ببينة مادية كحجة صاحب الدعوى المقامة على دليل مادي (لأنه جعل ولوج الجمل في السم غاية لنفي دخولهم الجنة، وتلك غاية لا توجد، فلا يزال دخولهم الجنة متنفياً)⁽²¹⁾.

هذا نمط من المبالغة يشبه كلام البشر، ويمكن الاستعانة على فهمه بما يتعارف عليه البشر من مواضع تعبيرية. وهذا النمط - كما قلنا - لا يتعلق بالأفعال الآلهية التي تؤدي بنا إلى فهم خاص للمبالغة، وهو الفهم المرتبط بالتفسير الديني والعقدي.

ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً، وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ. وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ. أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجْجٍ يَغْشَاءُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوَاجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ. ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا. وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً، فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 39 - 40].

إننا أمام صورتين حسيتين تتخذان طابع المثل، يضرب في الآية الأولى لخبيبة الكافر في الآخرة، ويضرب الثاني لعقائد الكافرين. وهذا ما قرره

(20) التفسير الكاشف، مج 3، ص 328.

(21) البرهان، ج 3، ص 47.

فالكافر لا يجد من عمله إلا كما يجد الظمآن من السراب، إذ لم يجد إلا حسرة بعد الحاجة واللهفة، وحسرتة يوم القيامة أكبر. . أما عقائد الكافرين فهي ظلمات في ظلمات، كشأن البحر العميق المظلم، فإذا ترادفت عليه الأمواج ازداد ظلمة، وإذا كان ثمة فوق هذا سحب بلغت الظلمة مبلغها، فلا يستطيع معها الراي أن يرى حتى يده!!.

وهذا التعاقب في الصفات والأحوال المظلمة، تصرف في أداء المعنى على وجه المبالغة بما لا يدع فرصة إلا أن يطمئن القلب إلى جهالة أولئك الكفار وعماهم، وهو المعنى الذي أراد التعبير القرآني أن يقودنا إليه. . وتلك - لعمري - مبالغة في الإحاطة بالمعنى والبلوغ غاية ما بعدها غاية.

ومع ذلك فالتعبير مرفق بأداة التقريب (كاد)، حيث قال تعالى (لم يكد يراها)، وهذا هو القانون الذي استنبطوه من استقصاء الكتاب الكريم، ومن نماذج الشعر العربي القديم.

ومقياسنا ليس وجود (كاد) أو عدم وجودها، بل بلوغ (المعنى أقصى غاية وأبعد نهاياته) دونما إفراط أو إحالة أو الخروج من التعبير بدون طائل.

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ [الأحزاب: 10]. سواء قلنا بتقدير كاد أو لم نقل فإن القلوب قد بلغت الحناجر!! ولكننا نفهم هذا البلوغ فهماً نفسياً عن طريق الإيحاء الأدبي والتصوير البياني وليس عن طريق البلوغ الحقيقي حيث قيل (إن الخوف والروع يوجب للخائف أن تنفتح رتته ولا يعد أن ينهض بالقلب نحو الحنجرة) كما روى الزركشي عن الفراء (23)!!.

وهذا محال فليس هناك حياة لو أن القلب خرج من موضعه ووصل الحنجرة حقيقة!!

إن السياق الذي وردت فيه (وبلغت القلوب الحناجر) هو ﴿وإذا

(22) التفسير الكبير، ج 24، ص 9، 27.

(23) قال صاحب البرهان عن قوله تعالى: ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالابصار﴾ النور 42 ما يلي: «فإن اقتران هذه بـ (يكاد) صرفها إلى الحقيقة فانقلبت من الامتناع إلى الإمكان» ج 3، ص 53.

جاؤوكم، من فوقكم، ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار . . . ﴿ وكان ذلك في حصار الأحزاب، فقد جاؤوا المدينة من كل قطر يعصدهم من الداخل اليهود، بما لدى أولئك وهؤلاء من سلاح وعدد رجال، وبما لأولئك وهؤلاء من فرسان مشهورين . . . وكانوا إزاء ذلك كله قلة مع ضعف عدة وسلاح . فبلغ الخوف فيهم مبلغه حتى كأن قلوبهم من اضطرابها وجيبها قد بلغت الحناجر متفذاً للهروب!! :

وهو تعبير نلجأ إليه نحن البشر حين نقول عن بعض المواقف، (مات فلان هلعاً)، وما هو بميت . . . والتعبير القرآني هنا شبيه بالتعبير البشري، مع الفارق في المصدر . .

فعلى الرغم من المصدر الإلهي للحديث القرآني، فإننا نستطيع ألا نحمله محمل التعبير الحقيقي، بل التعبير الذي يقصد به ما وراء دلالة الظاهرية، فتكون (وبلغت القلوب الحناجر) إنها بلغت من الرعب والخوف والهلع ما يكون بدرجة خروجها من نياطها وشرائينها وأعصابها إلى حيث أي منفذ!! .

وهذه هي المبالغة القرآنية التي تراعي الجانب النفسي والمواضع التعبيرية للبشر، لتبلغ هدفها ومقصدها إلى الدرجة التي ما وراءها درجة . وما هي الدرجة التصويرية للخوف أكثر من بلوغ القلوب الحناجر!؟ .

ونريد أن نختم هذا النمط التصويري من المبالغة بهذه الصورة الفنية العجيبة . قال تعالى : ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ [الحج : 31] .

ونستأنس بتفسير الزمخشري ووقوفه عندها قال (من أشرك بالله، فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة من خر من السماء، فتخطفه الطير، فتفرق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة)⁽²⁴⁾ .

(24) الكشف، ج 3، ص 12.

وفي الآية من الإيحاءات والدلالات الكثيرة التي تنتهي بك إلى التسليم بأن خسارة المشرك ما بعدها خسارة، وعاقبته ليس كمثلهما عاقبة!! فأية سماء هذه في البعد؟ وأية بقعة تحت سطح الأرض في السُّحق هذه التي خَرَّ منها الإنسان وانتهى إليها؟!

وهذه مبالغة تبلغ بالصورة ما تشمئز معها النفوس من الشرك، وترتعب من مآله، وتبتعد عن مقدماته وصوره بعد أن اقترنت بصورة معاناة بالحس والوجدان.

ومن المفيد الإشارة إلى أن المتابع لصور المبالغة في القرآن يجدها تتوزع بين الموضوعات البلاغية الكثيرة، فقد تجد المبالغة في التشبيه أو التشبيه المقلوب. قال الأستاذ علي الجندي (إن التشبيه على السنن المألوف لا يخلو من المبالغة)⁽²⁵⁾، وقال الدكتور عبد العزيز عتيق: (ومن مقاصد التشبيه إفادة المبالغة، ولهذا قلما خلا تشبيه مصيب عن هذا القصد)⁽²⁶⁾، وقد تجدها في الكناية والاستعارة والمجاز العقلي والمجاز المرسل، وفي المجاز عموماً⁽²⁷⁾. كما تجدها بالحذف وتكرار اللفظ للتهويل والتعظيم الذي يقوم مقام الأوصاف المتعددة، مثل قوله تعالى: ﴿الحاقة ما الحاقة﴾⁽²⁸⁾. وقد تجدها فيما يُسمى بالتميم والتكميل في علم البديع، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، حيث يكون قوله تعالى: ﴿على حبه﴾ من باب إيفاء المعنى وإعطائه حقه من بلوغ الهدف⁽²⁹⁾.

وهذه السعة في المجالات التي ترد منها المبالغة يؤكد قولنا في بداية هذا البحث أنه من غير الصحيح حصر موضوع المبالغة في البديع، بل هو موضوع أشمل من هذا بكثير خاصة في القرآن الكريم. ولهذا كان من الضروري أن

(25) فن التشبيه، ج 1، ط 2، 1386 - 1966، ص 156.

(26) علم البيان، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1، 1405 هـ، 1985 م، ص 124.

(27) البرهان، ج 3، ص 55.

(28) المصدر السابق، ج 3، ص 55.

(29) د. عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1، 1405 هـ، 1985 م، ص 120، وينظر كتاب الصناعتين، ص 389.

تفهم المبالغة على وجوهها المتعددة من البيانية المتعددة.

كما أنه من الضروري أن يُعاد النظر في فهم المبالغة القرآنية من حيث أن مقاييسها ليست دائماً هي المقاييس التي نتبعها في فهم الأدب البشري، بل لها مقاييس خاصة أحياناً، ومقاييس مشابهة لهذا الأدب في بعض الأحيان. وهذا ما حاولنا إيضاحه بإيجاز في الصفحات السابقة. ونرجو أن نكون قد وفقنا إليه.

دراسات في وحشياتكم مطهر

الدكتور محمد عثمان علي
جامعة الفكاك

لم يحظ اختيار أبي تمام في كتاب «الوحشيات» بالعناية التي وجدها اختياره الموسوم بديوان الحماسة، فالأخير حظي بالرواية والشرح من قبل العلماء والمشتغلين بالأدب منذ القرن الثالث الهجري وإلى عصرنا هذا الحديث⁽¹⁾ وبلغ ما أحصيناه له من شروح أربعة وأربعين شرحاً؛ وهي شروح منها ما هو مطبوع، ما هو مخطوط، وما هو مفقود، هذا فضلاً عن أربعة شروح مجهولة المؤلف، أحدها أشار إليها كارل بروكلمان، وأفاد بأن مخطوطته موجودة في مكتبة (ميونخ) بألمانيا تحت رقم 889⁽²⁾ وثلاثه وقفت

(1) من القدماء الذين عونا بشرح الحماسة أبو القاسم الديلمي (ت 287) وأبو رياش (ت 339) وأبو عبد الله النمري (ت 385) ومن المعاصرين سيد علي المرصفي وقد طبع الجزء الأول من شرحه سنة 1911م والشيخ الطاهر بن عاشور، وشرحه لا يزال بالمكتبة العاشورية بتونس.

(2) ينظر تاريخ الأدب العربي ط دار المعارف مصر ج 1 ص/ 80.

عليها في مكتبة السلمانية بتركيا تحت أرقام 1814؛ 2775؛ 2776⁽³⁾.

أما اختيار «الوحشيات» فلم يتعرض إليه أحد بالشرح - فيما نعلم - إلى يومنا هذا بل إن ذكره في مصادر الأدب ومراجعته يعد ضئيلاً جداً، فقد قال عبد العزيز اليميني في مقدمة تحقيقه للوحشيات: «وأما الوحشيات هذا فإني لا أعرف أحداً يكون عرفه غير التبريزي في مقدمة شرح الحماسة»⁽⁴⁾.

وأضاف محمود محمد شاكر عالمين اثنين ذكرا هذا الكتاب، أحدهما القاضي الباقلاني المتوفى سنة 403 هـ في كتابه «إعجاز القرآن» والآخر قاضي القضاة بدر الدين العيني المتوفى سنة 855 هـ في «شرح شواهد الألفية» وقد ذكره باسم الوحشي. وقال شاكر بعد هذا: «وقد وقفت على ذكر الوحشيات في غير هذين الكتابين، ولكنني فقدت الأوراق التي كنت علقته فيها بعض حواشي الأخرى على الوحشيات»⁽⁵⁾ وهو صادق في هذا لأنني وجدت اسم هذا الكتاب قد ورد باسم الوحشي في مقدمة شرح كتاب الحماسة لزيد بن علي الفارسي، حيث أشار إلى أن أبا تمام لما قفل من نيسابور متوجهاً إلى العراق دخل همدان ونزل ضيفاً على أبي الوفاء محمد بن عبد العزيز بن سهل فحال الثلج بينه وبين الرحيل... ثم قال:

(وأحضره أبو الوفاء كتبه، فاختار منها هذا - يعني الحماسة - والوحشي وشيئاً من انتخابي، ثم شخص أبو تمام، وبقيت الكتب عند أبي الوفاء، لا يمكن أحداً منها إلى أن مات، ووقعت الكتب تحت رجل من أهل (دينور) يعرف بأبي الهواذل فنسخ هذه الكتب الثلاثة وحملها إلى (أصبهان) فانتشرت النسخ منها، وعني أهل أصبهان بتصحيحها)⁽⁶⁾.

كذلك ذكره الأمدي المتوفى سنة 370 هـ ولكن باسم: اختيار المقطعات، قال - وهو يعدد الاختيارات التي خلفها أبو تمام «ومنها اختيار

(3) ينظر في شأن هذه الشروح كتابنا شروح حماسة أبي تمام ط. دار الأوزاعي بيروت الطبعة الأولى 1987 ج 1 الصفحات 72 - 90.

(4) الوحشيات تحقيق عبد العزيز اليميني ط. دار المعارف مصر الطبعة الثالثة.

(5) المصدر السابق ص 11.

(6) ينظر شرح كتاب الحماسة زيد بن علي الفارسي بتحقيقنا ط. دار الأوزاعي بيروت ج 2 ص/ 75.

المقطعات، وهو محبوب على ترتيب الحماسة إلا أنه يذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم والقدماء والمتأخرين... وقد قرأت هذا الاختيار وتلقت منه نفعاً وأيضاً كثيرة وليس بمشهور شهرة غيره.⁽⁷⁾

وإذا كنا قد رأينا اختلافاً عند هؤلاء في اسم الكتاب فإن من المرجح أن أبا تمام هو الذي سماه «الوحشيات»، يقول عبد العزيز الميمني: «وإنما سماه أبو تمام الوحشيات لأن هذه المقاطيع أوابد وشوارد لا تعرف عامة، وأغلبها للمقلين من الشعراء أو المغموين منهم»⁽⁸⁾

وعلى الرغم مما أشار إليه زيد بن علي الفارسي من أن النسخ انتشرت بأصبهان من اختيارات أبي تمام الثلاثة التي خلفها في بيت أبي الوفاء فإن الوحشيات لم يصل إلينا منه سوى نسخة واحدة توجد بكتبخانة السلطان أحمد الثالث باستانبول تحت رقم 2614 في ثلاثة وأربعين ومائتي صفحة وتوجد نسخة مصورة من هذه النسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم 3 - 431. وقد اعتمد عبد العزيز الميمني في تحقيق الوحشيات - على النسخة الأصل الموجودة باستنبول، فكان أن أخرجه للقراء في طبعته الأولى سنة 1940م ثم توفّر له جهد طيب من محمود محمد شاكر الذي زاد في حواشيه بطلب ورجاء من أستاذه الميمني⁽⁹⁾ فصدر في طبعته الثانية عام 1968 بصورة تعد مثلى في التحقيق والضبط والتخريج وشرح بعض ما غمض من الشعر.

وقد سبقت الإشارة إلى أن الأمدى قد ذكر أن مقطعات الوحشيات مبوبة على ترتيب الحماسة، وهي كذلك إلا في باب واحد، ذلك أن ديوان الحماسة جاء على عشرة أبواب هي «الحماسة» و«المراثي» و«الأدب» و«النسيب» و«الهجاء» و«الأضياف والمديح» و«الصفات» و«السير والنعاس» و«الملح» و«مذمة النساء».

(7) كتاب الوحشيات مقدمة الميمني ص 6.

(8) كتاب الوحشيات مقدمة شاكر ص/ 11.

(9) إعجاز القرآن لأبي بكر محمد الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، ط. دار المعارف مصر 1961 م ص/ 117.

أما الوحشيات فإن أبا تمام قد أسقط باب «السير والنعاس» ووضع بدلاً منه باباً جديداً هو «المشيب» ومن ثم فإن الأبواب في الكتابين جاءت متساوية من حيث العدد، غير أن الاختلاف جاء واضحاً في عدد القطع التي أوردها أبو تمام في أبواب الكتابين، فباب الحماسة في «ديوان الحماسة» بلغت قطعه في رواية شرح المرزوقي إحدى وستين ومائتي قطعة وفي كتاب الوحشيات تسعاً وتسعين ومائة قطعة، وباب المراثي جاءت قطعه في رواية شرح التبريزي سبعاً وثلاثين ومائة قطعة، وفي الوحشيات ستاً وخمسين قطعة، وفي باب الأدب بلغت القطع في رواية المرزوقي خمساً وخمسين قطعة وفي الوحشيات سبعاً وثلاثين قطعة.

وهكذا لو تتبعنا بالموازنة عدد القطع في الكتابين وجدنا ديوان الحماسة متفوقاً في كمية القطع المروية في كل باب عدا باب الصفات الذي جاء في الوحشيات عشر قطع، في حين لم يتجاوز الثلاث قطع في رواية كل من المرزوقي والتبريزي في شرحيهما لديوان الحماسة.

مقياس أبي تمام في اختيار الوحشيات:

أما مقياس الاختيار عند أبي تمام في الوحشيات فقد كان نفس المقياس الذي اختار به ديوان الحماسة، وهو مقياس فني جمالي يقوم على اختيار الجيد من الشعر في سائر الأبواب التي حددها في اختياراته الشعرية، وقد تكلم عن هذا المقياس من القدماء كل من القاضي الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن» وأبي علي المرزوقي في مقدمة شرحه للحماسة، فقد ذكر الباقلاني بعد أن أشار إلى أن الشعر العربي يضم بين طياته المستنكر الوحشي، والمبتذل العامي ومن ثم فإن الأعدل في الاختيار الشعري هو «ما سلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب الحماسة وما اختاره من الوحشيات، وذلك أنه تنكّب المستنكر الوحشي والمبتذل العامي، وأتى بالواضحة، وهذه طريقة من ينصف في الاختيار⁽¹⁰⁾.

(10) إعجاز القرآن لأبي بكر محمد الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، ط. دار المعارف مصر 1961.

ووازن المرزوقي بين طريقة أبي تمام في اختيار الشعر وطريقته في قول الشعر فقال: «إن أبا تمام كان يختار ما يختار من الشعر لجودته لا غير، ويقول ما يقول من الشعر لشهوته، والفرق بين ما يشتهي وما يستجد ظاهر، بدلالة أن العارف بالبز قد يشتهي لبس ما لا يستجده، ويستجيد ما لا يشتهي لبسه»⁽¹¹⁾.

كذلك تحدث عن مقياس أبي تمام في الاختيار الشعري من المعاصرين الدكتور إحسان عباس - رحمه الله - فهو أيضاً كالمرزوقي وازن بين طريقة اختيارات أبي تمام الشعرية وطريقته في العمل الشعري فقال: «من يقارن بين هذه المختارات التي تضمناها دفئا ديوان الحماسة وبين أشعار أبي تمام التي نظمها بنفسه يستطيع أن يلاحظ أنه استطاع أن يتجاوز طريقته الشعرية وما تميزت به من طلب للصور، ومن إغراب في توليد المعاني، واستغلال الذكاء الواعي إلى شعر يتميز بالبساطة، وشيء غير قليل من العفوية والصدق العاطفي المباشر، وهو في اختياراته هذه يعتمد على ذوقه الخاص، وبذلك كان البون بعيداً حقاً بين اختيار أبي تمام في حماسه وبين طريقته الشعرية»⁽¹²⁾.

ومن ثم فإن أبا تمام بمقياسه الفني الجمالي كان يختار القطع الجيدة في ذوقه في كل باب من أبواب الوحشيات غير أنه - كما لاحظناه في ديوان الحماسة - كان يصدر كل باب بأجود قطعة فيه، فقد صدر باب الحماسة بقطعة مالك بن النبتف الضببي وهي من ثلاثة أبيات جاء في أولها:

نَجَاكَ جَدُّ يَفْلِقُ الصُّخْرَ بَعْدَمَا أَظْلَمْتَكَ حَيْلُ الْحَارِثِ بْنِ شَرِيكٍ⁽¹³⁾

أما باب المراثي - فقد صدره بالأبيات - التي نسبها إلى طفيل الغنوي وقال: إن أبا زيد الأنصاري رواها لمرداس بن حصين الكلابي وهي في رثاء زرعة بن عمرو بن الصَّبِق، وقد جاءت في ستة أبيات جميعها من الزائع

(11) شرح المرزوقي على حماسة أبي تمام، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ط. لجنة التأليف والنشر والترجمة القاهرة ق 1 ص/ 13.

(12) تاريخ النقد الأدبي. إحسان عباس ط. دار الثقافة بيروت الثانية 1978 م ص/ 72.

(13) كتاب الوحشيات ص/ 7.

النفيس، جاء في أولها:

ولم أرَ هالكاً من أضلّ نَجْدٍ كزُرعة يومَ قام به النواصي⁽¹⁴⁾
وجاء في صدارة باب الأدب بيتان للفرزدق يعدنان من رائق الكلم
وأصدقهما:

الموت شرٌّ جديدٌ أنتَ لابسُهُ ولن ترى خَلْفاً شراً من الهرم
إنني لينفَعني يَأْسي فتصرفه إذا أتى دون شيءٍ مِرَّةً الوَدَمُ⁽¹⁵⁾
وفي باب السماحة والأضياف صدر أبو تمام هذا الباب بكلمة رائعة لعبد
الله بن الزبير الأسدي قالها في مدح أسماء بن خارجة الفزاري وقد جاء في
مطلعها:

إذا مات ابن خارجة بن حصن فلا مطرت على الأرض السماء⁽¹⁶⁾
وهي أبيات كانت سائرة في زمانها حتى أن مصعب بن الزبير لما غلب
على الكوفة وجيء له بابن الزبير الشاعر أسيراً وكانت أبياته في أسماء بن
خارجة قد بلغت له في التأنيب: ألم تمنعنا السماء قطرها في مدحك
لأسماء؟⁽¹⁷⁾

كذلك صدر أبو تمام باب التسيب ببيتين من الشعر لم ينسبهما لقائل
ولكن فيهما من الرقة والسلاسة والعفوية ما لا يخفى على أحد، إذ جاء فيهما:
عليك سلام الله أما قلوبنا فمرضى وأما ودنا فصحيح
وراني لأستسقي بكلل صحابة تمر بها من نحو أرضك ريح⁽¹⁸⁾

(14) كتاب الوحشيات ص/ 125.

(15) نفسه ص/ 161 والمرّة القوة والودم السيور التي بين آذان اللؤلؤ وأطراف المراقي الواحدة وذمة،
يقول ذلك على التصوير الإستعاري يريد أن يأسه ينفعه حين يصرفه عن الأشياء سيور قوية
متينة.

(16) نفسه ص/ 247.

(17) ينظر الخبير في ترجمة ابن الزبير في الأغاني ط دار الكتب المصرية ج/ 13 ص/ 31 وما بعدها.

(18) كتاب الوحشيات ص/ 183.

وهكذا لو تتبعنا سائر أبواب الوحشيات العشرة لوجدنا أبا تمام يصدر كل باب بأجود ما فيه من قطع، شأنه في ذلك شأن عمله في ديوان الحماسة.

وجود قطع في الأبواب ليست في حدها

كان شراح الحماسة الذين وقفنا على شروحهم من أمثال المرزوقي، وزيد بن علي، والخطيب التبريزي قد نبهوا إلى أن في أبواب ديوان الحماسة قطعاً خرجت من حد الباب الذي رويت فيه، وكنا وفقاً لما ورد من تعليقات في هذه الشروح، ولما قال به بعض الباحثين المعاصرين - قد حصرننا أسباب هذا الخلل الناجم في الأبواب في عاملين: أحدهما أن أغراض الشعر لم تكن قد تبلورت بعد في عصر أبي تمام بالصورة التي نراها اليوم، وأول دليل على ذلك أن البحثري تلميذ أبي تمام قد بلغ بها أربعة وسبعين ومائة باب في حماسته التي تنسب إليه والتي قيل إنه جاري فيها أستاذه، والعامل الآخر هو أن أبا تمام كان يراعي في الباب الواحد مشكلة القطع في بعض المعاني وإن خرجت عن الحد الذي يقوم عليه الباب.⁽¹⁹⁾

أما الوحشيات فقد كشفت دراستنا لها أن الخلل الذي لاحظته شراح ديوان الحماسة في أبوابه ظل قائماً، حيث يتضح ذلك للقارئ في جملة من الأبواب التي انتظمها كتاب الوحشيات، ففي باب الحماسة مثلاً نجد القطعة رقم (52) وهي من بيتين نسبهما أبو تمام لآخر، وهما:

رمى الفقر بالفتيان حتى كأنهم بأقطار آفاق البلاء نجوم
وإنّ امرأ لم يُفقر العام نبته ولم يتخذد لحمةً للثيم⁽²⁰⁾

فهذان البيتان أليق بباب الأدب من باب الحماسة فضلاً عن أنهما لم يشاكلا القطعة السابقة في معنى من معاني أبياتها.

كذلك قرأنا في باب الحماسة ثلاثة أبيات في القطعة رقم (85) للعين المنقري قالها في تعرضه لجريير والفرزدق بالهجاء بقصد الشهرة فلم يلتفت إليه

(19) ينظر شروح حاسة أبي تمام للمبد الضعيف ج 1 ص/ 31 وما يليها.

(20) كتاب الوحشيات ص/ 40.

الشاعران الكبيران فقال :

سَأَقْضِي بَيْنَ كَلْبِ بَنِي كَلَيْبٍ وَبَيْنَ الْقَيْنِ قَيْنِ بَنِي عِقَالٍ
فَإِنَّ الْكَلْبَ مَطْعَمُهُ خَبِيثٌ وَإِنَّ الْقَيْنَ يَذْهَبُ فِي سِفَالٍ
فَمَا بُقِيَا عَلَيَّ تَرْكُثُمَانِي وَلَكِنْ خِفْتُمَا صَرَدَ النُّبَالِ

فهذه الأبيات كان حقها أن تأتي في باب الهجاء، ولا تعليل لوجودها في باب الحماسة سوى أن أبا تمام روى للعين المنقري قطعة قبلها داخله في باب الحماسة مطلعها :

أَنَا ابْنُ جَلَا إِنْ كُنْتَ تَعْرِفُنِي يَارُؤُبَ وَالْحَيَّةَ الصَّمَاءَ فِي الْجَبَلِ (21)

وفي باب الحماسة أيضاً قرأنا أبياتاً لعيسى بن فاتك الخارجي تدور حول خوفه على بناته بعد رحيله عن الحياة وعلى مواجهتهن الفقر وجلافة الأعمام إن اضطرن الدهر إلى اللجوء إليهم، وهي من ستة أبيات جاء في مطلعها :

لَقَدْ زَادَ الْحَيَاةَ إِلَيَّ حُبًّا بِنَاتِي إِنَّهُنَّ مِنْ الضَّعَافِ (22)

وهي قطعة جيدة في بابها ولكنها لا تدخل في حد باب الحماسة، ولا تعليل لوجودها فيه سوى أن أبا تمام روى قبلها قطعة من ثلاثة أبيات لسلامة ابن جندل تدخل في حد باب الحماسة ولكنها شاكلت قطعة عيسى بن فاتك في بعض معانيها وبخاصة البيت الأول منها الذي يقول :

تَقُولُ ابْنَتِي إِنْ أَنْطَلَقْتُ وَاحِدًا إِلَى الرُّوحِ تَارِكِي لَا أَبَا لِيَا (23)

كذلك قرأنا قطعة من أربعة أبيات رواها أبو تمام لحارث بن كلدة الثقفي جاء في مطلعها :

تَبِعَ ابْنَ عَمِّ الصَّدِيقِ حَيْثُ وَجَدْتُهُ فَإِنَّ ابْنَ عَمِّ السُّوءِ أَوْعَرُ جَانِبُهُ (24)

(21) نفسه ص/ 63.

(22) كتاب الوحشيات ص/ 90.

(23) نفسه ص/ 89.

(24) نفسه ص/ 120.

وجميع ما في الأبيات الأربع من معان لا علاقة له بباب الحماسة، وإنما كان وجودها في باب الأدب الصق وأليق من باب الحماسة.

ولم يقع هذا الخلل في إيراد قطع خارجة عن حد الباب في باب الحماسة فحسب بل تجاوزته إلى بابي المراثي والنسيب، ففي باب المراثي روى أبو تمام قطعة من عشرة أبيات لحارث بن زيد النمري قالها في ابنه عداس لما أخذه كسرى أسيراً وحسبه، قال الميمني في هوامشه: «فظهر أن أبا تمام جازف في إيرادها في المراثي»⁽²⁵⁾ وكان الميمني قد قال في مقدمته عن رواية أبي تمام هذه القطعة في باب المراثي: «فلعله وهم منه إذ لم يقف على خبر الأبيات وقد عرفه المرزباني»⁽²⁶⁾ وهذا القول أفضل - في رأينا - من القول السابق الذي أورده في هامش القطعة لأن الذي يقرأ الأبيات ولم يعرف خبرها يظن أنها من الرثاء حيث جاء في أولها:

أَعْدَاسُ هَلْ يَأْتِيكَ عَنِّي أَنَّهُ تَغَيَّرَ خُلَانٌ وَطَالَ شَحُوبٌ
أَعْدَاسُ مَا يُنْذِرُكَ أَنَّ رُبَّ هَالِكٍ تَقَطَّعَ مِنْ وَجَدٍ عَلَيْهِ قُلُوبٌ⁽²⁷⁾

وأما في باب النسيب فقد روى أبو تمام أربع قطع لا تدخل في حد هذا الباب، أولها تلك الأبيات المشهورة في كتب النقد والأدب والتي كان ابن قتيبة قد استشهد بها عندما قسّم الشعر إلى أربعة أضرب أحدها ضرب حسن لفظه وساء معناه واستشهد له بثلاثة أبيات تنسب لكثير عزة أو لعقبة المضري وهي:

ولما قضينا من منى كل حاجة وَنَسَحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشَدَّتْ عَلَى خُذْبِ الْمَهَارَى رِحَالُنَا وَلَا يَنْظُرُ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحِ⁽²⁸⁾

(25) ينظر هامش ص/ 141 من كتاب الوحشيات.

(26) ينظر مقدمة الكتاب ص/ 7.

(27) المصدر السابق (ص/ 141).

(28) ينظر الشعر والشعراء تحقيق أحمد محمد شاكر ط. دار المعارف مصر ج 1 ص/ 66 وينظر كتاب الوحشيات ص/ 87.

وهي أبيات كما نرى لا علاقة لها بالنسب ومع ذلك فإن أبا تمام أسقط البيت الثاني منها وروى الاثنين بين قطع النسب دون مشكلة في معنى من معانيهما بالقطعة السابقة لها.

وأما القطعة الثانية فتتكون من ثلاثة أبيات لأبي محجن الثقفي يتحدث فيها عن صبره على فقد الخمر التي حرمها الاسلام ومنع صنعها وتعاطيها قال:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ يَغْتَرُّ بِالْفَتَى وَلَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ صَرْفَ الْمَقَادِرِ
صَبْرْتُ وَلَمْ أَجْزَعْ وَقَدْ مَاتَ إِخْوَتِي وَلَسْتُ عَلَى الضَّهْبَاءِ يَوْمًا بِصَابِرِ
رَمَاهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَتْفِهَا فَشَرَّائِهَا يَبْكُونَ حَوْلَ الْمَعَاصِرِ⁽²⁹⁾

ثم روى أبو تمام في الباب نفسه قطعة للوليد بن عقبة يقول فيها:

شَرِبْتُ عَلَى الْجُوزَاءِ كَأَسَا رُويَةً وَأُخْرَى عَلَى الشَّعْرَى إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ
مُسْتَعْشَعَةً كَانَتْ قَرِيشٌ تُكِيْشُهَا فَلَمَّا اسْتَحَلُّوا قَتَلَ عِثْمَانُ حُلَّتْ⁽³⁰⁾

فهذه القطعة وسابقتها تدخلان في باب وصف الخمر، وليس فيها نسيب قط، ثم روى بعد هذه القطعة أربعاً وعشرين قطعة جميعها تدخل في باب النسب كان آخرها قطعة لمجنون ليلى أولها:

أَيَا حُبِّ لَيْلَى عَافِنِي قَدْ قَتَلْتَنِي فَكَيْفَ تَعَافِنِي وَأَلَّتْ تَزِيدُ⁽³¹⁾

ولكنه روى بعد ذلك قطعة لأبي الدلهات الحريثي يقول فيها:

أَلَمْ تَرْنِي عَلَى كَسَلِي وَفَتْرِي أَجَبْتَ أَبَا حَذِيفَةَ إِذْ دَعَانِي
وَكُنْتَ إِذَا دَعَيْتَ إِلَى نَبِيذٍ أَجَبْتَ وَلَمْ يَكُنْ مِنِّي تَوَانِي
كَأَنَا مِنْ بِشَاشَتِنَا ظَلَّلْنَا بِيَوْمٍ لَيْسَ مِنْ هَذَا الزَّمَانِ⁽³²⁾

(29) كتاب الوحشيات ص/ 192

(30) نفسه والمصفحة ذاتها

(31) نفسه ص/ 203.

(32) كتاب الوحشيات ص/ 203.

فهذه القطعة هي مثل قطعتي أبي محجن الثقفي والوليد بن عقبة تدخل في باب الخمريات الأمر الذي يدفع إلى سؤال هل كان أبو تمام يرى في فكره أن صلة ما تربط بين الخمر والنسيب من حيث أن من يبدي تعلقه بالخمير وشربها كمن يبدي تعلقه بالمحبة والتشوق إليها، أو أن الأمر كما صورناه في السابق راجع إلى أن أبواب الشعر لما تكن قد تبلورت بعد في عصر أبي تمام على النحو الذي نراه اليوم حيث صارت الخمريات باباً قائماً بذاته بعيداً عن النسيب، أو أن أمر هذا الخلط وقع من ناسخ كتاب الوحشيات الذي أبان الميمني أنه خلط في قطع أبواب الكتاب (فأنتج صنيعة هذا إيراد جملة صالحة من المقاطيع في غير أبوابها التي أوردها أبو تمام فيها، فاختل بذلك الترتيب جملة وزاد ضيفاً على إيالة⁽³³⁾).

غير أن هذا إن صح في القطع التي لاحظناها في باب الحماسة ورجحنا دخولها في باب آخر من أبواب الوحشيات فإنه لا يصح في هذه القطع الأخيرة المتصلة بوصف الخمر والتي وردت في باب النسيب لأننا رأينا أبا تمام في باب الحماسة يضع بعض القطع الخمرية في باب النسيب، وليس للخمريات باب في ديوان الحماسة أو كتاب الوحشيات ومن ثم فإن هذا الخلط وقع من أبي تمام نفسه، وهذا ما يفسر لنا قول الميمني عن ناسخ مخطوطة الوحشيات إنه (زاد ضيفاً على إيالة) إذ قال بعد ذلك (فإن أبا تمام - رحمه الله - أخذوا عليه في الحماسة إخلاله بالترتيب وإيراده في الأبواب المعقودة ما ليس منها فقيض الله لكتابه هذا (الوحشيات) ناسخاً ثقيله واقتفى قفوه)⁽³⁴⁾، ومن هنا رأينا الأخذ بالرأي الذي يقول:

بأن أبواب الشعر لم تكن واضحة المعالم في عصر أبي تمام، هذا فضلاً عن أن الرجل كان رائداً في اختياراته وكل رائد يكون عرضة للوهوم حتى وإن كان مثل أبي تمام في نقده الشعر واختياره.

(33) تنظر مقدمة الميمني ص/7 وقوله: «زاد ضيفاً على إيالة» مثل يراود به أنه زاد بلية على أخرى كانت قبلها، والضغث ربطه حشيش مختلطة الرطب باليابس والإيالة الحزمة من القش.

(34) المقدمة نفسها والصفحة ذاتها.

شعراء الوحشيات :

اختار أبو تمام لشعراء من عصور مختلفة ابتداء من عصر ما قبل الإسلام وإلى عصر بني العباس الذي عاش فيه ، وجلّ شعراء الوحشيات من الشعراء المغمورين المجهولين أو المقلين ولكنه بجانب هؤلاء وجدناه يروي لشعراء معروفين في عصورهم ، وقد حاولنا أن نعقد موازنة بين من روى لهم أبو تمام في كتاب الوحشيات ومن ذكرهم ابن سلام في طبقات فحول فكتشف الموازنة عن أنّ أبا تمام روى لعشرة شعراء وردوا في طبقات فحول الجاهلية ، وهم لبيد بن ربيعة الذي وضعه ابن سلام في الطبقة الثالثة ، وعبيد بن الأبرص وقد وضعه في الطبقة الرابعة ثم خدّاش بن زهير وتميم بن مقيل اللذان جاءا في الطبقة الخامسة عند ابن سلام ، فالحارث بن حلزة الذي جاء في الطبقة السادسة ثم كل من المتلمس جرير بن عبد المسيح وسلامة بن جندل اللذين وردا في الطبقة السابعة ، ثم سحيم عبد بني الحسحاس الأسديين الذي وضعه ابن سلام في الطبقة التاسعة وأخيراً الكميت بن معروف الأسدي الذي جاء في الطبقة العاشرة عند ابن سلام⁽³⁵⁾ .

أما فحول ابن سلام الإسلاميون فقد روى أبو تمام لأحد عشر شاعراً منهم ، يأتي في مقدمتهم جرير والفرزدق اللذان جاءا في الطبقة الأولى عند ابن سلام ، فكثير بن عبد الرحمن الذي جاء في الطبقة الثانية ، ثم حميد بن ثور الهلال الذي جاء عند ابن سلام في الطبقة الرابعة ، ثم كل من الأحوص ، ونصيب ، وعبيد الله بن قيس الرقيات الذين جاءوا في الطبقة السادسة عند ابن سلام ، فزياد الأعجم وعدي بن الرّقاع اللذان جاءا عند ابن سلام في الطبقة السابعة ، فيشامة بن الغدير وقد جاء عند ابن سلام في الطبقة الثامنة ، وأخيراً يزيد بن الطثيرة الذي ورد في الطبقة العاشرة⁽³⁶⁾ .

(35) ينظر طبقات فحول الشعراء تحقيق عمود محمد شاكر مطبعة المدني القاهرة ج 1 الصفحات 135 ، 138 ، 144 ، 150 ، 151 ، 155 ، 187 ، 195 .

(36) نفسه ج 1 الصفحات 374 ، 399 ، وج 2 الصفحات 540 ، 580 ، 648 ، 655 ، 675 ، 693 ، 699 .

وبجانب هؤلاء الذين ذكروا في فحول ابن سلام الجاهليين والإسلاميين روى أبو تمام لواحد من شعراء المرثي الذين أوردتهم ابن سلام وهو كعب بن سعد الغنوي⁽³⁷⁾ كما روى أبو تمام لاثنتين من شعراء القرى عند ابن سلام هما أبو طالب بن عبد المطلب، من شعراء مكة وأبو محجن الثقفي من شعراء الطائف⁽³⁸⁾.

كذلك عني أبو تمام في الوحشيات بالرواية لشعراء ثلاثة ذكرهم ابن سلام في شعراء يهودهم: السموءل بن عادياء، والربيع بن أبي الحقيق، وسعية بن غريض.⁽³⁹⁾

وهناك شعراء كانوا بارزين في زمانهم روى لهم أبو تمام في الوحشيات ولم يذكرهم ابن سلام في طبقاته، وذلك مثل عبدة بن الطبيب وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وكلاهما من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وكذلك مثل عمر بن أبي ربيعة والطرماح بن حكيم، والعرجي وثلاثتهم من شعراء الدولة الأموية.

أما الشعراء البارزون من عصر بني العباس الذين حفل بهم أبو تمام، وروى لهم في وحشياته فيأتي في مقدمتهم بشار بن برد، وأبو العتاهية، ومسلم ابن الوليد، وأبو نواس ودعبل الخزاعي، كما عني بالرواية لشعراء يعدون من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وذلك مثل إبراهيم بن هرمة، وابن ميادة الرماح بن أبي برد، والحكم الخضري وثلاثتهم من الشعراء الذين سماهم الأصمعي «ساقه الشعراء» الذين يحتج بشعرهم في اللغة⁽⁴⁰⁾.

وإذا كانت جل قطع الوحشيات في سائر الأبواب قد جاءت لشعراء رجال فإن أبا تمام لم يهمل الرواية للشواعر من النساء، وقد أحصينا الشواعر اللاتي روى لهن في كتابه فبلغن سبعا، أولاهن عفيرة بنت طرامة الكلبيه التي

(37) تنظر طبقة أصحاب المراثي في المصدر نفسه ص 212.

(38) المصدر السابق ج 1 ص/ 244. ص/ 268.

(39) نفسه الصفحات 279، 281، 285.

(40) ينظر الأغاني لأبي الفرج ج 4 ص/ 104.

روى لها القطعة الثانية من باب الحماسة، وهي من ستة أبيات قالتها عفيرة في الحرب التي جرت بين كلب وقيس، أيام دولة بني أمية⁽⁴¹⁾

وأما الشاعرة الثانية فهي دُرّة بنت أبي لهب بن عبد المطلب، وقد روى لها الوحشية رقم (95) في باب الحماسة أيضاً وهي من خمسة أبيات قالتها درة في حروب الفعجار التي جرت بين قریش وهوازن قبيل مبعث النبي ﷺ⁽⁴²⁾.

ثم تأتي الشاعرة الثالثة وهي جلييلة بنت مرة وقد روى لها أبو تمام الوحشية رقم (206) في باب المراثي، وهي قصيدة مشهورة في كتب الأدب تبلغ ستة عشر بيتاً قالتها جلييلة حين قتل أخوها جساس بن مرة زوجها كليياً ومطلعها:

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا تعجلي باللوم حتى تسألني⁽⁴³⁾
كما روى في باب المراثي أيضاً قطعة من خمسة أبيات قال: إنها لأخت سعد بن قرط العبدي قالتها في رثائه⁽⁴⁴⁾.

والشاعرة الخامسة هي الفارعة بنت طريف الشيبانية وقد روى لها أبو تمام الوحشية رقم (245) في باب المراثي، وهي قصيدة من ثلاثة عشر بيتاً قالتها الفارعة في رثاء أخيها الوليد بن طريف الشيباني الشاري، ولقد كانت هذه القصيدة من جيد شعر الرثاء منها هذا البيت الذي يدور على السنة المشتغلين بالأدب ومحييه وهو:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف⁽⁴⁵⁾
وأما الشاعرة السادسة فهي امرأة دعاها أبو تمام أم الضحاك، وروى لها الوحشية رقم (311) في باب النسب وهي تتكون من بيتين فقط⁽⁴⁶⁾.

(41) كتاب الوحشيات ص 7 وما يليها.

(42) المصدر نفسه ص/66.

(43) المصدر السابق ص/128 وما يليها.

(44) نفسه ص/140.

(45) نفسه ص/150 وما يليها.

(46) نفسه ص/191.

والشاعرة السابعة والأخيرة لم يسمها أبو تمام، وإنما قال: «امرأة من طيء» وقال الميمني في هوامشه على الكتاب «إنها زينب بنت فروة كما جاء في كتاب الزهرة» وقد روى لها أبو تمام قطعة من أربعة أبيات⁽⁴⁷⁾ وبذلك تكون جملة ما رواه أبو تمام من قطع للنساء في وحشياته سبع قطع من مجموع قدره تسع وثمانون وأربعمائة قطعة، وهي نسبة ضئيلة إذا ما قيس شعر الرجال الوارد في الوحشيات، وليس من تفسير لذلك سوى قلة الشعر النسوي المحمول من قبل الرواة الذين اعتمد عليهم علماء الشعر ورواته حين بدأ عصر التدوين في أواخر عصر بني أمية وأوائل عصر بني العباس.

قيمة كتاب الوحشيات:

لا شك في أن قيمة كتاب الوحشيات تقل عن قيمة ديوان الحماسة وقد وضح ذلك بجلاء محققه عبد العزيز الميمني حين قال: «ولا غرو أنه في حسن الاختيار وجودة الانتقاء دون صنوه الحماسة»⁽⁴⁸⁾ كما لا يغيب عن بالنا أن كتاب الوحشيات - كما وضحنا في صدر هذه الدراسة - لم يجد عناية بالشرح والدراسة، وهذا يقلل من قيمة قراءته لأن كثيراً من الشعر الذي ضمه يحتاج إلى شرح وتوضيح، كما أن كلاً من عبد العزيز الميمني ومحمود محمد شاكر والسيد محمد يوسف قد ركزوا في التخفيف على تخريج الأبيات ومناقشة نسبتها، ولم يحفلوا بشرح ألفاظ الشعر كثيراً اللهم إلا في النادر القليل الذي رأيناه عند محمود محمد شاكر في بعض قطع الكتاب، أما عبد العزيز الميمني والسيد محمد يوسف فيبدو أن شرح الشعر لم يكن من وكدهما، ومن ثم فإن كتاب الوحشيات على الرغم من الجهد الجليل الذي بذله الميمني وشاكر في هوامشه يحتاج إلى جهد آخر يتمثل في إضافة هوامش أخرى تعنى بشرح ألفاظ الشعر وتوضيح ما في الأبيات من معان على نحو ما فعل عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر نفسه في تحقيقه كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي.

(47) نفسه ص/ 202

(48) تنظر مقدمة المحقق ص/ 8

ومع هذا الذي قلناه فإن للوحشيات قيمة تبدو في رواية شعر لا نجده إلا فيها، ومن أمثلة ذلك قصيدة للمرار بن سعيد الفقعسي تبلغ سبعة وأربعين روت منها بعض المصادر أبياتاً متفرقات، ولم ترد كاملة إلا في كتاب الوحشيات وهي الهمزية التي جاء في أولها:

وجدت شفاء الهموم الرحيل قَصَزُمُ الخِلاجِ وَوَشَكَ الفِضاء⁽⁴⁹⁾

وقصيدة أخرى لعبد الله بن همام السلولي رواها أبو تمام في باب الحماسة وهي تتكون من ثمانية أبيات روى بعضاً منها المسعودي في كتابه مروج الذهب حسب ما أبان شاكر في هوامشه، ولم ترد كاملة إلا في الوحشيات⁽⁵⁰⁾.

وثمة خمسة أبيات رواها أبو تمام لعبيد بن الأبرص، قالها في رثاء فُطرة الطائي وليس لها أثر في ديوان عبيد سواء في طبعة السير تشارلس ليال التي صدرت في سنة 1919م أو في طبعة حسين نصار التي أصدرها سنة 1957م أو في طبعة دار صادر بيروت الصادرة سنة 1964، وكنت قد أجهدت نفسي في البحث عنها في المصادر الأخرى إبان أن كنت أجمع شعر بني أسد فلم أجدها إلا في الوحشيات⁽⁵¹⁾.

وهناك قطعة أخرى من سبعة أبيات لشاتم الدُّهر العبدى رواها أبو تمام في باب الهجاء روت منها بعض المصادر البيت والبيتين ولم ترد سبعة إلا في الوحشيات⁽⁵²⁾ وغير ذلك كثير مما يصعب حصره ويضيق المجال لذكره، الأمر الذي جعل للوحشيات قيمة خاصة في رواية الشعر، وهذه القيمة إنما تتضح في أن أبا تمام كما مر بنا في صدر هذا العمل كان قد اختار ديوان الحماسة

(49) كتاب الوحشيات ص/ 53 وما بعدها

(50) المصدر نفسه ص/ 102

(51) تنظر مصادر شعر بني أسد في كتابنا شعراء بني أسد إلى نهاية القرن الثالث الهجري ط. دار الأرزاعي بيروت 1986م وتنظر الوحشية رقم (218) ص 136 وما يليها من كتاب الوحشيات.

(52) كتاب الوحشيات الوحشية رقم (362) ص/ 220 وينظر في شأن المصادر التي روتها هوامش هذه الصفحة.

وكتاب الوحشيات من كتب وقف عليها في مكتبة أبي الوفاء محمد بن سهل بهمدان وجل هذه الكتب مجاميع شعرية لشعراء القبائل صنعها العلماء للرواة الأوائل. غير أنها لم تصل إلينا، إذ أن دواوين القبائل التي صنعها أبو عمر الشيباني، وتبلغ نحو ثمانين ديوان كما أفاد صاحب الفهرست.⁽⁵³⁾ وكذلك الدواوين التي صنعها أبو سعيد السكري، لم يصل إلينا منها سوى جزء من ديوان هذيل بشرح السكري، ومن ثم فإن كتاب الوحشيات يعد في جملة من الشعر الذي ضمه بين دفتيه مصدراً أصيلاً من حيث انفراده بروايتها.

ملاحظات حول تحقيق الوحشيات:

لا شك في أن عبد العزيز الميمني محقق ثبت قد وفر للوحشيات جهداً مضمناً لإخراجه في صورة تليق به، ويتضح هذا الجهد في أنه اعتمد على مخطوطة واحدة للكتاب لا رصيفة لها في المكتبات يقابلها بها، وكذلك ينطبق هذا القول على المحقق الفذ المشهور له محمود محمد شاعر الذي زاد في حواشي الوحشيات فسر الكثير مما فات على أستاذه الميمني ذكره، وكذلك ما فعله الدكتور السيد محمد يوسف الذي أضاف في هوامشه فواتاً على الاثنين معاً، وكل ذلك جهد محمود مشكور، غير أنني وأنا أقرأ كتاب الوحشيات قراءة دارس بدت لي بعض الملاحظات رأيت من المفيد إيرادها لعلها تضيف إلى الكتاب خدمة باحث لا يملك إلا جهد المقل بالقياس إلى هؤلاء الرجال الأفاضل.

وأولى هذه الملاحظات تتصل بصاحب الوحشية رقم (31) وقد ورد اسمه هكذا: (عبد الله بن سبرة الحرشي بحاء مهملة مفتوحة) وقد ورد كذلك في أمالي القالي الذي روى القطعة ذاتها وقال محقق الأمالي «الحرشي» نسبة إلى «الحرش» بلدة في اليمن، وواضح أن تصحيحاً قد وقع من ناسخ الوحشيات وناسخ الأمالي⁽⁵⁴⁾ إذ الصحيح أنه (الجرشي) بجيم معجمة مضمومة

(53) الفهرست ط. المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ص/ 101.

(54) ينظر الوحشيات ص/ 25 والأمالي ط. دار الآفاق بيروت ج 1 ص/ 27

ففي سيرة ابن هشام ورد ما نصه «فخرج صرد بن عبد الله يسير بأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بجرش وهي يومئذ مدينة معلقة وبها قبائل من قبائل اليمن»⁽⁵⁵⁾ كذلك ورد اسم جرش بالجيم أربع مرات في غير هذا الموضع بالسيرة، وجاء في الصحيح للجوهري «جَرْش» موضع باليمن ومنه أد يم جَرْشي وناقَة جَرْشِيَّة قال بشر:

تحلدر ماء البشر عن جَرْشِيَّة على جزيرة تعلو الديار عُرُوها
يقول: «دموعي تحلدر كتحلدر ماء البشر عن دَلُو تستسقى بها ناقَة جَرْشِيَّة
لأن أهل جَرْش يستقون على الإبل»⁽⁵⁶⁾

وثمة ملاحظة ثانية في قطعة عبد الله بن سبرة تتمثل في أن خلافات وقعت في الرواية بين روايتي كل من الوحشيات والأمالى فات على المحققين الثلاثة أن يشيروا إليها، وأحد هذه الخلافات جاء في البيت التاسع من رواية الوحشيات فقد روي هكذا:

كل ينوء بماضي الحدّ ذي شُطْبٍ جَلأ الصياقل عن دُرّه الطبعَا
دُرّه بالبدال المهملة المضمومة، وفي رواية الأمالى «دُرّه». بالذال المعجمة المتقدمة⁽⁵⁷⁾، وهي أوفق من رواية دُرّه لأن الشاعر أراد أن الصياقل جلوا ما كان على السيف من صدأ والذرا - كما جاء في الصحاح «كل ما استترت به» فكان الصدا كان غطاء وستراً لهذا السيف فأزال الصياقل بصقله وجلائه هذا الغطاء والستر وأما دُرّه فلا معنى لها إلا إذا قلنا أن الشاعر أراد تشبيه جانبي السيف بالدر في البياض واللمعان.

وهناك خلاف ثان في الرواية بين الكتابين لم يشيروا إليه وذلك في البيت

(55) سيرة ابن هشام ط. دار الجيل بيروت ج 4 ص 173.

(56) الصحاح للجوهري تحقيق أحمد عبد العزيز أحمد عبد الغفور عطار ط دار العلم للملايين ج 3 ص 997. وتجدد الإشارة إلى أن عبد الله بن سيرة قد التقى بالفارس الرومي في موقعة خلطاطس فاختلفا ضربتين أصابت ضربة عبد الله مقتلاً من الرومي وأصابت ضربة الرومي يد عبد الله فقطعت منها إصبعين وجزءاً من إصبع.

(57) ينظر الوحشيات ص 26 والأمال ج 1 ص 48 والصحاح للجوهري ج 6 ص 2345.

العاشر في الوحشيات وهو:

حاسيته الموت حتى استفّ آخره فما استكان لما لاقى ولا جزعا
«استفّ» بالسین المهملة، وفي الأمالي «اشتف» بالشین⁽⁵⁸⁾ المعجمة،
وهي أيضاً أوفق من رواية الوحشيات لأن اشتفّ من الاشتفاف، وهو يشرب
ما في الإناء كله، والشاعر إنما يقول على التصوير الاستعاري أنه ساقى هذا
الفارس الرومي كأس الموت فشربها حتى ثمالتها دون أن يستكين أو يجزع،
ولا معنى لاستف الواردة في الوحشيات إلا إذا صوّرنا الموت بالتراب ونحوه
كما هو واضح من قول الشفري في اللامية حسب رواية العكبري في شرحه:
وأستف تُزب الأرض كيلا يرى له علي من الطول امرؤ مُتَطَوِّلُ⁽⁵⁹⁾
وتصوير الموت بالتراب في ابن سيرة بعيد جداً.

ولم يشر الثلاثة إلى خلاف ثالث في الرواية بين الكتّابين وذلك في البيت
الأخير من القطعة، وقد جاء في الوحشيات هكذا:

بنانتان وجذمور أقيم به صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا
وروى صاحب الأمالي:
«بنانتان وجذموراً أقيم بها»⁽⁶⁰⁾.

بنصب البنانتين والجذمور على البذل من «منتفعاً» الوارد في البيت
السابق وهو:

وإن يكن أطربون الرّوم قطعها فإن فيها بحمد اللّهِ منتفعا
ولعمري إن رواية القالي أوفق من رواية الوحشيات لأنه جاء فيها «أقيم
بها» أي بالبنانتين والجذمور معاً ورواية الوحشيات «أقيم به» أي بالجذمور
الذي هو الأصل الباقي من الإصبع وهو لا يقيم صدر القناة منفرداً إلا إذا

(58) الأمالي ج 1 ص 48 والوحشيات ص 26.

(59) شرح لامية العرب لأبي البقاء العكبري تحقيق محمد خير الحلواني منشورات دار الآفاق الجديدة
بيروت ص/32.

(60) ينظر الوحشيات ص/26 والأمالي ج 1 ص/84.

أعانه على ذلك البناتان اللتان بقيتا من يده بعد إصابة الرومي لها.

كذلك لاحظنا خلافاً كثيرة بين ما روي في الوحشيات وما روي في الأصمعيات في القطع التي التقى فيها الكتابان، ولم يشر إليها الميمني في هوامشه ولا شاكر والسيد يوسف في استدراكتهما، ويكفي أن نعرض لذلك في قصيدة واحدة هي الوحشية رقم (58) في باب الحماسة، وهي للأسعر الجعفي فقد روى أبو تمام القصيدة في خمسة وثلاثين بيتاً ورواها الأصمعي في ثلاثين، وواضح أن في اختلاف العدد دليلاً على اختلاف مصادرها في الرواية، وقد اكتفى الميمني بالإشارة إلى أنها الأصمعية رقم (44) بتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون وأحال إلى سمط اللالي ص (94) وأفاد بأن بعض أبياتها وردت في كتاب الخيل لأبي عبيدة ولم ينظر إلى الخلافات الواقعة بين رواية أبي تمام ورواية الأصمعي، ولم نجد استدراكاً لكل من شاكر والسيد يوسف في هوامش هذه القصيدة. وهذه الخلافات جاءت على النحو التالي:

البيت الثاني روى الأصمعي شطره الثاني هكذا:

ولكي يعود على فراشهم فتى

ورواه أبو تمام «ولكي يبيت»

والبيت الثالث جاءت رواية الشطر الأول عند الأصمعي:

حتى إذا ما بزَّ عنها ثوبها

وعند أبي تمام «حتى إذا ما ابتز عنها»

والشطر الأول من البيت الخامس جاء في رواية الأصمعي:

تقضي بعيشة أهلها ملبونة

وروى أبو تمام «وثابة» بدلاً من ملبونة،

والبيت الثامن رواه الأصمعي هكذا وهو في وصف الفرس:

نَهْدُ المَرَاكِلِ مُدْمَجٌ أَرْسَاغُهُ عِبْلُ المَعَاقِمِ مَا يُبَالِي مَا أَتَى

ورواه أبو تمام:

نههد المراكل لا يزال زميله فوق الرحالة ما يبالي ما أتى
والبيت السابع عشر روى الأصمعي شطره الأول هكذا:
وكتيبة وجْهَتْها لكتيبة:

وروى أبو تمام:

وكتيبة لبستها بكتيبة.

والبيت الثالث والعشرين جاء شطره الأول في رواية الأصمعي
ومرأس أقصدت وسط جموعه

وروى أبو تمام «ومناهب» بدلاً من مرأس، والمرأس رئيس القوم
والمناهب المتباري من المناهبة، وهي أن يتبارى الفرسان، وليس من شك في
أن رواية الأصمعي أدل في الفخر من رواية أبي تمام⁽⁶¹⁾.

وهكذا لو تتبعنا بقية القصيدة والقصائد الأخرى التي اشترك في روايتها
كل من الأصمعي وأبو تمام لوجدنا فروقاً في الروايتين لم تنل حظها في
التوضيح من قبل هوامش الوحشيات، ولا أظن في ذلك قصوراً في العمل،
وإنما هو راجع إلى التركيز على تخريج الأبيات التي رويت في المصادر
الأخرى وقد نال ذلك جهداً مضمناً سواء من عبد العزيز الميمني أو من محمود
شاكر أضف إلى ذلك الجهد الطيب الذي قاما به في التعريف بالشعراء الواردين
في الوحشيات، وبيان الشعراء الذين كان أبو تمام يروي لهم مصدراً قطعهم
بعبارة «وقال آخر» أو «وقال» دون عزو لأحد، وهذا وحده يدل على مدى ما
قدمه الرجلان من خدمة للكتاب فلعلهما وقد استغفرا جهديهما في هذه
الجوانب المهمة في خدمة الكتاب تركا قصداً التعرف لمضاهاة رواية
الوحشيات بالمصادر الأخرى التي التقت مع الوحشيات في رواية بعض
القطع.

وبعد فإن كتاب الوحشيات يعد معلماً بارزاً من معالم الاختيارات،

(61) ينظر الوحشيات الوحشية رقم/43 وما بعدها، والأصمعيات الأصمعية رقم 44 بتحقيق أحمد
محمد شاكر وعبد السلام هارون ط. دار المعارف مصر. ص/140 وما بعدها.

الشعرية، وهو جد مفيد للدارسين في الأدب القديم لأن صاحبه كان «أشعر في اختياره من شعره» ولأنه كان «يلتقط الأرواح دون الأشباح» وهو لا يزال في حاجة إلى جهد يشرح أبياته ويكشف عن مضامينها، أو يقوم بتحليل جملة صالحة من قطعه وقصائده على نحو ما فعل علي ناصف النجدي في كتابه «دراسة في حماسة أبي تمام» وإني لأمل أن تكون هذه الدراسة قد أدت غرضها، والله تعالى من وراء القصد. إنه نعم المعين على كل شيء.

مصادر الدراسة اللغوية عند العرب

الدكتور صبيح التميمي
جامعة الفساح

«مصادر الدراسة الصوتية»(*)

تنطلق فكرة هذا الموضوع من الشعور بأن كثيراً من الدارسين والباحثين بحاجة إلى معرفة أبرز المصادر الرئيسية للتفكير الصوتي عند العرب، وقد يفتقد كثير منهم إلى معرفة شمولية بهذه المصادر، فقد وجدناهم يقفون عند ما خلفه لنا سيبويه وابن جني في هذا اللون من الدراسة اللغوية، مع أن هناك مصادر أخرى ذات فائدة كبيرة.

لذا أردت التنبيه إليها، لعلمي أنها تعين على كشف جوانب جديدة، فذكرت أبرزها، دون أن أتناول مادتها بالتحليل، لأن الموضوع ليس موضع تحليل ودراسة، بقدر ما هو إشارة وكشف لجوانب مضيئة في غير ميادينها،

(*) ستابع ذكر المصادر الأخرى في الأعداد اللاحقة.

رواية اللغة وجمعها

شهد القرن الثاني للهجرة⁽¹⁾ بواكير الرحلات العلمية لعلماء العربية من البصرة والكوفة إلى البادية: مهد العرب الفصحاء، ينهلون اللغة الفصيحة من مصادرها الصافية التي لم تشهد ذلك التفاعل اللغوي بين العرب وغيرهم، حال تجاورهم في حواضر المسلمين، فبقيت ألسنة البدو سليمة فصيحة لم تفسد لبعدهم عن مخالطة غيرهم.

هذه الرحلات الميدانية قصدها علماء العربية قَصْداً؛ لأنهم لم يجدوا بين أيديهم ثروة لغوية تعينهم على تحقيق أهدافهم.

ويمكن إيجاز الملاحظات العامة على هذه الرواية بما يأتي:

1 - تتمثل بواعثها ودواعيها في الخوف من تسرب اللَّحْن إلى النص القرآني بعد ضعف السلائي، واختلاط العرب بغيرهم من المسلمين، فكان هذا باعثاً على اتخاذ خطوات على سبيل إيجاد الضوابط اللغوية التي تقي اللسان من الوقوع في الزيغ، ولا يمكن تحديد هذه الضوابط، من غير الوقوف على أساليب العربية، ونظمها في كلام العرب الفصحاء.

● ومن جانب آخر كانت هناك حاجة إلى تفسير آيات القرآن الكريم تفسيراً لغوياً⁽²⁾، وهذا يحتم عليهم أن يعودوا إلى الآثار الأدبية لبيان ما عُمِضَ عليهم، ومنها: الشعر: ديوانهم الذي يرجعون إليه عند غموض المعنى، وقد كان ابن عباس (رض) إذا سُئِلَ عن شرح لفظة قرآنية، أجاب عن معناها، موثقاً له بما جاء في شعر العرب⁽³⁾.

(1) لا يعني هذا عدم وجود رواية عند العرب قبل هذا التاريخ، بل إنهم عرفوا الرواية قبل فجر الإسلام كرواية الشعر، ورواية أنساب قبائلهم، وتعدتها إلى أنساب خيلهم، ولكن المقصود هنا الرواية اللغوية التي اتخذت وسيلة لجمع اللغة، وضبط أصولها، وتراكيبها، وأساليبها.

(2) رواية اللغة: 58.

(3) الفاضل، للمبرد: 10، وانظر: كتاب سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، مجلة رسالة الإسلام، كلية أصول الدين الأهلية، بغداد.

● وباعث ثالث تمثل في رغبة المسلمين من غير العرب، وحرصهم على تعلّم العربية، وإجادة نطقها، والبراعة في حذقها، لأسباب اجتماعية، وسياسية.

وفي هذا قال ابن شبرمة: «إذا سرك أن تعظم في عين من كنت في عينه صغيراً، ويصغر في عينك من كان عظيماً، فتعلّم العربية، فإنها تجريك على المنطق، وتدينك من السلطان»⁽⁴⁾.

● وباعث رابع قد تأخر زمنياً هو:

الحاجة العلمية ذاتها لوضع الضوابط النحوية، بعد أن أصبح الدرس اللغوي علماً يطلب لذاته⁽⁵⁾.

2 - أن هذه الرواية اتخذت طريقتين:

أولاهما: تمثّلت في رحلة العلماء إلى البادية، لمشاهدة الأعراب، واستنطاقهم والرواية عنهم.

وثانيتهما: تمثّلت في رحلة أعراب البادية إلى الحواضر من أجل التّكسّب، والعيش برواية اللغة⁽⁶⁾.

3 - اقترنت رواية اللغة بالتدوين، من أجل الضبط والإتقان⁽⁷⁾، بالإضافة إلى ما وقر في صدور العلماء⁽⁸⁾.

4 - أن القائمين بهذا العمل اللغوي هم رواة علماء من المصريين: كأبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، والنضر بن شميل، وأبي زيد الأنصاري من البصرة، والكسائي، وأبي عمر الشيباني، وابن الأعرابي من الكوفة، ثم تحوّل من هؤلاء، ومن هؤلاء إلى بغداد التي شاركت بهذا العمل أيضاً.

(4) عيون الأخبار: 2/157، وابن شبرمة من صبيّة كان قاضياً على سواد الكوفة، (انظر: المعارف: 470).

(5) الدراسات اللغوية عند العرب: 66.

(6) الفهرست: 65، وطبقات الزبيدي: 166، ومعجم الأدياء: 75/16.

(7) نزهة الألباء: 59، 78.

(8) طبقات الزبيدي: 95.

5 - سارت الرواية اللغة عند البصريين وفق منهج صارم تمثل في عملية انتقاء محدّد للقبائل العربية⁽⁹⁾ التي شافهوا أعرابها، ونقلوا عنهم، - معلّلين هذا الانتقاء بالاختلال والفساد اللغوي الذي عرض لألسنة أعراب القبائل المستبعدة، وذهبوا إلى أكثر من هذا الانتقاء والتحديد، وذلك بإخضاع الأعراب إلى امتحان لغوي خوفاً من ليونة ألسنتهم⁽¹⁰⁾.

● أما الكوفيون فقد وسّعوا دائرة استشهداهم اللغوي، وسمعوا أعراباً كان البصريون أبوا الأخذ عنهم، وقد عيب عليهم هذا التوسّع⁽¹¹⁾.

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى التعاون بين رجال المدينتين، فهناك كوفيون أخذوا عن البصريين⁽¹²⁾، وهناك بصريون أخذوا عن الكوفيين⁽¹³⁾.

6 - لم يقتصر السماع - عندهم - على العرب الفصحاء، بل سمعوا الفصحاء من غير العرب، كموسى بن سيار الأسواري، والحسن البصري⁽¹⁴⁾.

7 - لم يتقيّد الرواة بنوع معيّن من السماع، بل سمعوا الروايات اللغوية، والأدبية، والأخبار، والأنساب، ومعرفة المواضع، وغيرها⁽¹⁵⁾.

8 - توقّفت رواية اللغة عن عرب الحواضر عند أواسط القرن الثاني للهجرة، واستمرّت عن أعراب البادية إلى أوائل القرن الرابع للهجرة. وكان السماع والنقل عن الرواة الذين شافهوا الأعراب، وسمعوا منهم، كالنقل عن الخليل بن أحمد، أو أبي زيد الأنصاري، أو الأصمعي، أو الكسائي، موازياً للأخذ عن العرب الفصحاء، ثم أصبح الأخذ عن هؤلاء بعد اختلال السلاسل في البادية هو المصدر الوحيد - مكتوباً أو مسموعاً - لرواية اللغة وحفظها.

(9) المزهر في علوم اللغة: 212/1.

(10) الخصائص: 5/2، 12.

(11) أخبار النحويين البصريين: 90، والفهرست: 86.

(12) نحو سماع الكسائي عن الخليل ويونس (معجم الأدباء: 169/13).

(13) نحو سماع يونس بن حبيب عن حماد بن سلمة (أخبار النحويين البصريين: 43).

(14) البيان والتبيين: 368/1، 163.

(15) مادة المعجمات العربية والمسروعات الأدبية كفيلة بإثبات رواية هذه الجوانب المتعددة.

9 - من ثمرات هذا العمل الكبير أن فُسِّطت اللغة، وُجِّعَتْ ألفاظها، وُحْصِرَتْ أبْنيتها، وانمازت أساليبها، وبالتالي كان العمل بمجموعه ممهداً لنشوء علوم اللغة العربية، ودافعاً لحركة التأليف بعد وضعه مادة دراسية متنوعة في متناول علماء العربية.

من ذلك :

الدراسة الصوتية

فلعلماء العربية القدامى جهود رائعة أصلية في الدراسات الصوتية ألزمت جملة من اللغويين الغربيين الاعتراف بها، وبزيادتها في هذا الميدان.

من ذلك :

● قول المستشرق الألماني «برجشتراسر» :

«ولم يسبق الغربيين في هذا العلم إلا قومان من أقوام الشرق، وهما أهل الهند - يعني البراهمة - والعرب»⁽¹⁶⁾.

● وقول اللغوي الأنجليزي «فيرث» :

«إن علم الأصوات قد نما وشبَّ في خدمة لغتين مقدستين، هما السنسكريتية والعربية»⁽¹⁷⁾.

● وقول اللغوي الفرنسي «كانتينو» :

«هي دراسات نفيسة، ولو رجع إليها الباحثون العصريون أكثر مما فعلوا لتمكّنوا من اجتناب كثير من الهفوات التي وقعوا فيها»⁽¹⁸⁾.

● وقول اللغوي الألماني «أ. شاده» بعد دراسته لما خلفه سيويه :

«فيستحق ما قد وصل إليه من غايات علم الأصوات أن نعتبره ما أجمع

(16) التطور النحوي للغة العربية : 11.

(17) دراسات في علم اللغة، كمال بشر ق 2 : 67.

(18) دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي : 11.

على تسمية كل مَنْ درسه من علماء الشرق والغرب: مفخراً من أعظم مفاخر العرب⁽¹⁹⁾.

وقد جاءت الدراسات الصوتية العربية على مستويين، هما:

- 1 - مستوى الصوت اللغوي المنفرد: من حيث المخرج والصفة.
- 2 - مستوى التشكيل الصوتي: أي حال تألف الصوت مع غيره الذي ينتج عنه: الإعلال، أو الإبدال، أو الإدغام، أو المخالفة، أو الإنباع، أو الإمالة.

وهذه الدراسات نجلدها في مصادر متعددة متنوعة تنوع مستويات البحوث اللغوية التي أفادت من الدرس الصوتي، وارتبطت به. وأبرزها:

- 1 - كتب الأصوات.
- 2 - كتب قراءات القرآن، وتجويده، ومعانيه.
- 3 - كتب اللغة المتخصصة.
- 4 - المعجمات اللغوية.
- 5 - كتب الإعجاز والبلاغة.
- 6 - كتب الأدب العامة⁽²⁰⁾.

- 1 -

«كتب الأصوات»

أ - ما ذكره الكوفيون من الإدغام⁽²¹⁾، لأبي سعيد السيرافي (ت 368

(19) هكذا ورد النص في علم الأصوات عند سيبويه وعندنا محاضرة له نشرت في صحيفة الجامعة المصرية عام 1349 هـ. ص (30) وهي ملخص لرسالة علمية نال بها درجة الدكتوراه في ألمانيا.

(20) سنقتصر في هذا البحث على إعطاء أفكار موجزة عن كل كتاب من كتب الأصوات فحسب، دون غيرها من مصادر الدراسة الصوتية.

(21) حققه د. صبيح التميمي ونشره مرتين، أولاً بدار البيان - جدة/ السعودية عام 1985، والثانية بدار الشهاب - باتنة - الجزائر عام 1987، وصدره بدراسة لظاهرة الإدغام وآراء الكوفيين فيه.

هـ..)، وهي رسالة نادرة، وربما المتفردة فيما نقلت إلينا ما ذكره الكوفيون من مسائل عالجوا فيها جوانب من هذه الظاهرة الصوتية، مما خالفوا فيها دراسات سيبويه الصوتية.

وأصحاب هذه المسائل هم أعلام مدرسة الكوفة:

«الكسائي، والفراء، وثعلب».

وقد ناقش السيرافي آراءهم، وانتصر لسيبويه، غير أنه وَهَمَ في بعض شروحه لأقوال الفراء، ورددنا عليه هذا الوهم في دراستنا لهذه الرسالة.

ب - سر صناعة الإعراب⁽²²⁾، لابن جني (ت 392 هـ).

● وهو أول كتاب في تاريخ العربية يُفرد للدراسة الصوتية المتكاملة أراد له مؤلفه أن يشتمل على أغلب آراء أسلافه في هذا اللون من الدراسة، مع التحليل العلمي لأقوالهم، والتقدير الدقيق لآرائهم، بالإضافة إلى ما هداه إليه عقله المبدع من إضافات أصلية. وصُدِّرَ الكتاب بمقدمة تضمّنت أفكاراً عامة في علم الأصوات من حيث: الصوت، والحرف واشتقاقهما اللغوي، وكيفية حدوث الصوت اللغوي، ومخارج الأصوات، وصفاتها. بعدها بدأ بذكر الأبواب الرئيسية للكتاب، حيث أفرد لكل حرف باباً مستقلاً مراعيّاً الترتيب الألفبائي، وتناول في كل باب:

● الصفات العامة للحرف المعقود له الباب.

● ما يطرأ عليه في سياق الكلام من ظواهر الإبدال، أو الإدغام، أو الزيادة، أو الحذف مع الإشارة أحياناً إلى معانيه المستخدمة في كلام العرب.

● وقد تخلّلت هذه الأبواب قضايا صرفية، وقضايا نحوية، بسبب الاستطراد في الشرح، ففي باب «الباء» استطرّد إلى الحديث عن حروف الجر، وعلة الجر بها، وإعراب الجار والمجرور...

وفي باب «التاء» استطرّد إلى الحديث عن «تاء» الضمير، ثم عن شدة

(22) نُشر الجزء الأول منه بتحقيق مصطفى السقا وآخرين بالقاهرة عام 1374 هـ = 1954 م، ثم أعاد الدكتور حسن هتلاوي نشره كاملاً بدمشق عام 1985 م.

اتّصال الفعل بالفاعل ، وعدم جواز تقديمه على الفعل . . .

ج - أسباب حدوث الحروف⁽²³⁾، للشيخ الرئيس ابن سينا (ت 428 هـ). وهي رسالة كُتبت بقلم رجل جمع بين اللغة، والطب، والفيزياء، لذا جاءت مادتها اللغوية متأثرة بهذه الجوانب المعرفية، وقد رسمها بستة فصول، بيّانها هو:

- 1 - دراسة فيزيائية عن سبب حدوث الصوت العام.
- 2 - دراسة لغوية عن سبب حدوث الصوت اللغوي.
- 3 - دراسة تشريحية عن غضاريف الحنجرة، وعضلات اللسان.
- 4 - دراسة عن كيفية حدوث الأصوات العربية وفق أساس تشريحي.
- 5 - دراسة صوتية مقارنة بين أصوات عربية وأصوات فارسية.
- 6 - رصد التشابه الصوتي بين أصوات العربية، وبين ما يسمع في الطبيعة من حكّ الأجسام، أو شقّها، أو قلعها، أو اهتزازها، أو تدحرجها، أو حفيفها.

● ومما تجدر الإشارة إليه أنّ لابن سينا إشارات مشابهة لما في «أسباب حدوث الحروف» من معلومات صوتية في كتابه «الشفاء»⁽²⁴⁾، وقد عمّق إشارات الفيزيائية فذكر هناك أثر الذبذبات في نقل الأصوات، وحركتها التمرجية، والوسط الناقل لها وأنواعه.

● ولا بأس بالتذكير أنّ لإخوان الصفا إشارات صوتية علمية دقيقة في ميدانها جاءت في رسائلهم⁽²⁵⁾.

(23) نُشرت هذه الرسالة عدّة مرات: بالقاهرة عام (1332 هـ)، وكذلك في عام (1398 هـ)، وألمانيا ضمن كتاب (مواد ويحوت في علم الأصوات عند العرب لبرافمان) عام 1934 م وبطهران عام 1954 م، وببيروت عام 1962، وفي روسيا عام 1966، وأخيراً حُققت بمجمع اللغة بدمشق عام 1983 م.

(24) تنظر: 170/6.

(25) تنظر: 189/1.

د - الحروف⁽²⁶⁾، لأحمد بن المظفر الرازي «ت في حدود 631 هـ».

وهي رسالة صغيرة رتبها مؤلفها على خمسة عشر فصلاً، تحدّث فيها عن: عدد الأصوات العربية، وصفاتها بإيجاز، ومخارجها، والإبدال الجاري فيها، ومعانيها، وحساب الجمل في أبجد، هوز... وما قيل فيها من أشعار، ورسومها، وحديث عام عن حروف المعجم في أوائل السور القرآنية. ومنهج هذه الرسالة مخالف لما هو مشهور في كتب الحروف التي أفردت مباحثها لقضايا نحوية، ودلالية.

هـ - مخارج الحروف وصفاتها، لعبد العزيز بن الطحان «ت 560 هـ».

حقّقه: د. محمد يعقوب تركستاني ببيروت، 1948، ولم أقف عليه.

و - كتب الضاد والطاء.

● لم يكن نطق صوت «الضاد» - بأدائه الفصيح - أمراً ميسوراً للعرب، فضلاً عن الأعاجم الذين يريدون تعلّم العربية، ومبعث صعوبة نطقه أمران، هما:

1 - مقدار الجهد الذي يبذله اللسان من أجل نطق هذا الصوت كما وصفه القدماء من علماء النحو والقراءات.

2 - مشاركته والتباسه بصوت «الطاء» في أغلب صفاته، كالاستعلاء، والإطباق، والجهر، والرخاوة.

● وقد سبّب هذان الأمران نشوء الخلط⁽²⁷⁾ بين الصوتين، وهو أمر التفت إليه رجال العربية منذ القرن الأول للهجرة المباركة، فعنوا بمعالجة الأمر من جانبيين:

أولهما: بيان الأداء الصحيح لنطق الصوتين، وذلك لتحديد مخرجهما،

(26) حقّقه الدكتور رشيد العبيدي بمجلة معهد المخطوطات م 20 ج 1 (الكويت، 1349 هـ). ثم حقّقه الدكتور رمضان عبد التواب - ضمن ثلاثة كتب في الحروف بالقاهرة عام 1402 هـ.

(27) استمر هذا الخلط إلى يومنا هذا، فلا نكاد نسمع من ينطق بـ «الضاد» نطقاً فصيحاً بل تطور في لهجاتنا العربية المعاصرة إلى: «ظاء»، أو «دال مفتحة» أو «طاء»، أو «لام مفتحة».

وبيان صفتاهما، لذا فهو موضع حاجتنا من هذه الكتب، لأنه مبحث صوتي.
وثانيهما: حصر الألفاظ الظائية والضادية، أو إحداهما لتتضح الثانية،
وبيان الاختلاف الدلالي المبني على تغيير نطق الصوت إلى ما شابهه، وهذا
مبحث معجمي دلالي⁽²⁸⁾.

وقد اصطُِّلِحَ على الكتب التي عالجت هذا الخلط بـ «كتب الضاد
والظاء»، وهي تراث ضخم، سنكتفي بالإشارة إلى ما وقفنا عليه من المطبوع
حسب التسلسل الزمني⁽²⁹⁾.

1 - منظومة في الفرق بين الظاء والضاد، لابن قتيبة «ت 276 هـ»، تح:
د. داود الجلي، مجلة لغة العرب، بغداد ج 6، 1929 ويرى د. حاتم الضامن
أنها لأبي نصر محمد الفروخي «ت 557 هـ».

2 - الفرق بين الضاد والظاء، للمصاحب بن عباد «ت 385 هـ»، تح:
الشيخ محمد حسن آل ياسين، (بغداد 1958).

3 - الضاد والظاء، لابن سهيل النحوي «ت بعد 420 هـ» تح: د. عبد
الحسين الفتلي، مجلة المورد. م 8 ع 2، 1979.

4 - الاقتضاء للفرق بين الذال والضاد والظاء، لأبي عبد الله الداني: «ت
470 هـ» تح: د. علي البواب (الرياض 1987).

5 - الفرق بين الضاد والظاء، للحريري «ت 516 هـ» تح: محمد جبار
المعبيد (بغداد ؟).

6 - معرفة الضاد والظاء، لعلي بن أبي الفرج الصقلي «ت ق 5 هـ»
تح: د. حاتم الضامن (بغداد، 1982).

7 - الفرق بين الأحرف الخمسة: الظاء والضاد والذال والصاد والسين.
لابن السيد البطيلوسي «ت 521 هـ».

(28) انظر: مقدمة محقق «غاية المراد في معرفة إخراج الضاد» د. طه محسن.

(29) بعد الاستعانة بقائمتي الأستاذين: د. رمضان عبد التواب، ود. حاتم الضامن.

تح: د. حمزة النشرتي (الرياض 1978)، وعبد الله الناصر بدمشق 1984.

8 - زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والطاء، لأبي البركات الأنباري «ت 577 هـ». تح: د. رمضان عبد التواب (بيروت 1971).

9 - مختصر في الفرق بين الضاد والطاء، لمحمد بن نشوان الحميري «ت 610 هـ». تح: الشيخ محمد حسن آل ياسين (بغداد، 1961).

10 - الاعتضاد في الفرق بين الطاء والضاد، لابن مالك النحوي «ت 672 هـ». تح: حسين تورال، وطه محسن (النجف الأشرف، 1972).

11 - الاعتماد في نظائر الطاء والضاد، لابن مالك النحوي «ت 672 هـ». تح: د. حاتم الضامن (بغداد 1980)، (بيروت، 1984).

12 - الارتضاء في الفرق بين الضاد والطاء، لأبي حيان الأندلسي «ت 745 هـ». تح: الشيخ محمد حسن آل ياسين (بغداد، 1961).

13 - غاية المراد في معرفة إخراج الضاد، لشمس الدين ابن النجار «ت 870 هـ». تح: د. طه محسن مجلة المجمع العلمي العراقي ج 6 م 39 عام 1988.

وقد أفرد جملة من أعلام الدراسات القرآنية والعربية تأليفهم لما ورد من ألفاظ القرآن الكريم بـ «الطاء» ليُعلم أن ما عداها ألفاظاً ضادية، وهي كثيرة، وبعضها جاء بشكل منظومات، ثم تصدّوا لشرحها، وسنذكر ما هو مطبوع منها⁽³⁰⁾:

1 - الطاءات في القرآن الكريم، لأبي عمرو الداني «ت 444 هـ». تح: الدكتور علي البواب بالرياض عام 1406 هـ = 1985.

2 - شرح منظومة الطاءات القرآنية، لأبي عمرو الداني «ت 444 هـ».

(30) من أراد الاطلاع على الخطوط من هذا النوع فليراجع قائمة الدكتور طه محسن في مقالة له بعنوان (في سبيل فهرسة متخصصة للدراسات القرآنية) بمجلة المورد البغدادي م 17 ع 4 عام 1409 - 1988.

تح: د. محسن جمال الدين بمجلة البلاغ البغدادية، السنة الثالثة ع 1 - 2 عام 1970.

3 - ظاءات القرآن، لسليمان التميمي السرقوسي، [ت قبل 591 هـ]. تح: د. حاتم الضامن بمجلة المجمع العلمي العراقي ج 1 م 40. عام 1409 هـ.
ولا يفوتنا أن نشير إلى أن في تراثنا اللغوي كتباً كثيرة يمكن - في ظاهرها - أن تُضمّن إلى كتب الأصوات، وهي قسمان:

أولهما: لم يُقدر له الوصول إلينا، ويظنّ أنّها صوتية، أو تحمل بين طياتها قضايا صوتية، ولو قُدّر لها الوصول إلينا لأضاءت لنا جوانب أخرى من الدراسات الصوتية عند العرب، منها:

1 - كتاب الإدغام، لأبي حاتم السجستاني (الفهرست 87).

2 - كتب الأصوات: نحو:

الأصوات، لقطرب. والأصوات، للأخفش.

والأصوات، للأصمعي (الفهرست 78، 83).

والأصوات، لابن السكيت (وفيات الأعيان 5/ 443).

3 - كتب الحروف: نحو:

الحروف، للكسائي (الفهرست 98).

الهاء، للفراء (بغية الوعاة 1/ 396).

اللامات، للأخفش (الفهرست 54).

الألف واللام، للمازني (الفهرست 85).

الحروف، للمبرد (الفهرست 88).

اللامات، والياءات، لأبي بكر الأنباري (الفهرست 54، 112).

الهاءات، والياءات، لابن مجاهد (الفهرست 47).

4 - كتب الهمز: نحو:

الهمز، لابن أبي إسحاق الحضرمي.

والهمز، لقطرب.

والهمز، للأصمعي، (الفهرست 79، 82).

وثانيهما: ما بين أيدينا من تراث مماثل للقسم الأول المفقود، نحو:

● الحروف، للخليل بن أحمد، ضمن ثلاثة كتب في الحروف، تح: د. رمضان عبد التواب بالقاهرة عام 1982.

● الحروف، للنضر بن شميل، نشره لويس شيخو في كتاب البلغة بيروت عام 1914.

● الهمز، لأبي زيد الأنصاري، نشره لويس شيخو ببيروت عام 1910.

● الحروف، لابن السكيت، ضمن ثلاثة كتب في الحروف، تح: د. رمضان عبد التواب بالقاهرة عام 1982.

● حروف المعاني، للزجاجي، تح: د. علي الحمد بيروت عام 1984.

● منازل الحروف، للرماني، تح: د. مصطفى جواد (بغداد، 1969).

● الحروف، لأبي الحسين المزني، تح: د. محمود حسني، ود. محمد حسن عواد (عمان، 1989).

وغيرها كثير سنأتي على ذكرها في موضع قادم «إن شاء الله تعالى».

غير أن الدارس لهذه الكتب يجد أنها جمعت مادة لغوية متنوعة تجمع بين النحو، والمعاني، وهي بعيدة كل البعد عن الدراسة الصوتية، ومع ذلك لا نستطيع الحكم على ما فقد من نظائرها بالحكم نفسه.

ومما يلحق بكتب الأصوات «كتب الإبدال»⁽³¹⁾ وما بين أيدينا منها، هو ثلاثة كتب مطبوعة، ورابع مخطوط، وهي:

1 - الإبدال، لابن السكيت (ت 244 هـ).

نُشر أولاً بعنوان «القلب والإبدال» ببيروت عام 1903، ثم نُشر بعنوان (الإبدال) تح: د. حسين شرف بالقاهرة عام 1978.

(31) مما هو جدير بالذكر أن كتباً كثيرة تناولت ظاهرة الإبدال ضمن مباحثها اللغوية.

2 - الإبدال والمعاقبة والنظائر، للزجاجي (ت 337 هـ).

تح: د. عز الدين التنوخي بدمشق 1962.

3 - الإبدال، لأبي الطيب اللغوي (ت 351 هـ).

تح: د. عز الدين التنوخي بدمشق 1960.

أما الرابع المخطوط فهو:

● وفاق المفهوم في اختلاف المقول والمرسوم، لابن مالك النحوي (ت 672 هـ).

● ومخطوطة الكتاب في خزانة مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة تقع في 38 ورقة، وألفاظه كثيرة غير أنه مبني على الاختصار في عرض المادة اللغوية.

ومن العناية بظاهرة الإبدال ما وجدناه عند مجد الدين الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط (ت 817 هـ). حيث بحث الظاهرة عندما يتعاقب حرفان معيّنان فقط، وهما السين، والشين بكتاب له سَمَاء «تحرير الموشين في التعبير بالسين والشين». وقد نُشر بتحقيق الأستاذ محمد بن أبي شنب (الجزائر، 1327 هـ).

ثم بتحقيق الأستاذ محمد خير البقاعي (دمشق، 1403 هـ).

ومع أن السمة العامة لمادة كتب الإبدال اللغوية المستقلة، أو مادة الموضوعات المتفرقة التي اشتملت عليها كتب اللغة الأخرى، هي القضايا اللهجية، أقول على الرغم من ذلك فإنّ فيها نصوصاً كثيرة يمكن أن تكون أساساً لدراسة صوتية كالحديث عن العلاقات الصوتية التي تسوّج حدوث الإبدال، مثل: التجانس، والتقارب، وكذلك ما نقف عليه من حدوث الإبدال بين الحروف المتباعدة في مخرجها.

● ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الكتب تشتمل على ثروة لفظية كبيرة مما تندرج تحت أحد قسمي الإبدال، وهو الإبدال اللغوي أي الألفاظ التي أبدل أحد أصواتها بصوت آخر لغير ضرورة تصريفية، فتروي لنا هذه الكتب

ألفاظاً جاءت بصورتين مستعملتين، قد تكون إحداهما أكثر استعمالاً من الأخرى، أو أعلى فصاحة.

أما ألفاظ القسم الثاني من الإبدال، وهو الإبدال الصرفي أو القياسي، الذي يحدث لضرورة تصريفية، وفي حروف معينة، فهي مما اعتنت بها كتب الصرف، وكتب النحو تحت باب الإدغام.

«كتب قراءات القرآن وتجويده ومعانيه»

القراءة القرآنية هي: «علم بكيفية أداء كلمات القرآن معزّوً لناقله»⁽³²⁾.
عُرف أصحابه بـ«القراء»، وكثير من جوانب الأداء هي قضايا صوتية، وقد بدأ التأليف بها مبكراً وفق مناهج مختارة في عدد القراءات، وأشهر ما بين أيدينا، هو:

● السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ت 324 هـ.)، تح: د. شوقي ضيف (القاهرة، 1972).

● التبصرة في القراءات السبع، لمكي القيسي (ت 437 هـ.)، تح: د. محي الدين رمضان، (الكويت، 1985).

● التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني (ت 444 هـ.)، تح: أوتو برتزل (استانبول 1930).

● العنوان في القراءات السبع، لإسماعيل الأنصاري (ت 445 هـ.)، تح: زهير زاهد ود. خليل العطية (بيروت، 1985).

● الإقناع في القراءات السبع لابن الباذش (ت 540 هـ.)، تح: عبد المجيد قطاش (مكة المكرمة، 1403 هـ.).

● إبراز المعاني من حرز الأماني، لأبي شامة (ت 665 هـ.)، تح: د. إبراهيم عطوة، (القاهرة، 1982).

- البديع في قراءات الثمانية لابن خالويه، (ت 370 هـ.)، تح: جايد

(32) منجد المقرئين لابن الجزري: 3.

زيدان، رسالة دكتوراه (كلية الآداب جامعة بغداد، 1986).

- الوجيز في شرح قراءات القرآن الثمانية، للحسن الأهوازي (ت 446 هـ)، تح: دريد أحمد، رسالة ماجستير (كلية الآداب جامعة بغداد 1985).

● الغاية في القراءات العشر، لابن مهران (ت 381 هـ)، تح: محمد غياث (الرياض، 1985).

● المبسوط في القراءات العشر، لابن مهران (أيضاً)، تح: سبيع حاكمي، (دمشق، 1986).

● إرشاد المبتدئ وتذكرة المنتهي في القراءات العشر، للقلانسي (ت 521 هـ)، تح: د. عمر الكبيسي (مكة المكرمة، 1984).

● النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (ت 833 هـ)، تح: محمد سالم محسن (القاهرة، 1978).

● إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، لابن البنا الدمياطي (ت 1117 هـ)، تحقيق د. شعبان إسماعيل (بيروت، 1987).

● لطائف الإشارات لفنون القراءات، للقسطلاني (ت 923 هـ)، تح: عمر عثمان، ود. عبد الصبور شاهين (القاهرة، 1972). وهو أكثر الكتب السابقة عناية بالدراسة الصوتية.

أما علم التجويد: فهو الأسلوب الصوتي العملي لأداء القراءات القرآنية، فإذا كانت القراءة علماً نظرياً، فالتجويد هو «أداؤه وتطبيقه» لذا فهو متوقف على معرفة: مخارج الأصوات وصفاتها، وأحكام بعضها في المد، والإمالة، والإدغام، والوقف، والتفخيم، والترقيق، وكلها مباحث أصيلة في الدراسة.

أما التأليف فيه فيبدو أنه بقي متناثراً في الكتب المختلفة، ولم يستقل كما هو مشهور إلا في القرن الرابع في «القصيدة الخاقانية في فن التجويد» للمقرئ موسى بن عبد الله بن يحيى بن خاقان المتوفى سنة 325 هـ. ومرت السنون حتى زمن مكّي القيسي الذي صنف كتابه «الرعاية لتجويد القراءة» ثم توالى التأليف في هذا العلم.

وأشهر ما بين أيدينا من كتب التجويد، هو:

- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، لمكي القيسي (ت 437 هـ)، تح: أحمد فرحات (دمشق، 1973).

- التحديد في الإتقان والتجويد، لأبي عمرو الداني (ت 444 هـ)، تح: غانم قدوري (بغداد، 1988).

- منهاج التوفيق إلى معرفة التجويد والتحقيق، للسخاوي (ت 643 هـ)، تح: صالح مهدي عباس بمجلة المورد م 17 ع 4 (بغداد، 1988).

- المفيد في شرح عمدة المجيد في النظم والتجويد، للمرادي (ت 749 هـ)، تح: د. علي البواب (الأردن، 1987).

- التمهيد في علم التجويد، لابن الجزري (ت 833 هـ)، تح: د. غانم قدوري (بيروت، 1986).

كتب الاحتجاج للقراءات:

أعقبت ظاهرة التأليف في «القراءات القرآنية»، ظاهرة أخرى مرتبطة بها، وهي التأليف في ميدان الاحتجاج لها، وهي دراسات يُراد بها توثيق القراءات في الجوانب اللغوية والنحوية، الصرفية، أو الصوتية، والدلالية.

وهي على نوعين:

أولهما: الاحتجاج للقراءات المشهورة:

وأشهر كتبها هو:

- الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه (ت 370 هـ)، تح: عبد المال مكرم (بيروت، 1977).

- الحجة في علل القراءات السبع، لأبي علي الفارسي (ت 377 هـ)، تح: النجدي وآخرين (القاهرة، 1965).

- حجة القراءات، لأبي زرعة (ت في القرن 4 هـ)، تح: سعيد الأفغاني، (بيروت، 1974).

- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لمكي القيسي

(ت 437 هـ.)، تح: د. محي الدين رمضان (دمشق، 1974).

وثانيهما: الاحتجاج للقراءات الشاذة:

وأشهر كتبها هو:

- مختصر في شواذ القراءات، لابن خالويه (ت 370 هـ.)، تح: برجشتراسر (القاهرة، 1934).

- المحتسب في تبیین وجوه شواذ القراءات، لابن جني (ت 392 هـ.)
تح: علي النجدي وشلبي، (القاهرة، 1965).

ففي هذه الكتب دراسات صوتية لا يُستهان بها، خاصة ما نجده في كتب أبي علي الفارسي، وتلميذه ابن جني.

أما كتب معاني القرآن، ومجازه، وتأويله:

فهي تصانيف قرآنية تناولت النص القرآني الذي ترى فيه ما يُشكل على أفهام الناس، بالتفسير، والشرح لإزالة اللبس الذي يكتنفه سواء أكان في المعنى، أم في القراءة، أم في الأحكام اللغوية من: نحو، وصرف، وصوت، وبهذا اختلفت عن كتب التفسير التي اتخذت مبدأ الاستقصاء أساساً في شرح الآيات، وبيان مقاصدها، وإظهار أحكامها، وإيضاح جوانبها اللغوية، والذي يعيننا من هذه المؤلفات جملة الآراء والدراسات الصوتية التي لجأ إليها مؤلفوها من أجل تفسير الظواهر الصوتية، والصرفية خاصة، إذا عرفنا أن مؤلفيها هم من كبار علماء العربية.

ومن هذه الكتب:

- معاني القرآن، للفراء (ت 207 هـ.)، تح: أحمد نجاتي وآخرين (القاهرة، 1972).

- مجاز القرآن، لأبي عبيدة (ت 210 هـ.)، تح: فؤاد سزكين، (القاهرة، 1954).

- معاني القرآن، للأخفش، (ت 215 هـ.)، تح: د. فائز فارس (الكويت، 1979).

- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ت 276 هـ.)، تح: د. سيد أحمد صقر، (القاهرة، 1954).

- معاني القرآن وإعرابه، للزجاج⁽³³⁾ (ت 311 هـ.)، تح: د. عبد الجليل شلبي، (بيروت، 1973).

ومما هو جدير بالذكر أن أبا علي الفارسي (371) قد تعقب هذا الكتاب واستدرك عليه بكتاب عنوانه «الإغفال فيما أغفله الزجاج من المعاني» وقد حققه ودرسه الدكتور محمد حسن عواد برسالة علمية تقدّم بها إلى جامعة عين شمس عام (1974) للحصول على شهادة الماجستير، بمجلدين.

- الفوائد في مشكل القرآن، لعز الدين بن عبد السلام (ت 660 هـ.)، تح: د. سيد رضوان (الكويت 1967).

كتب اللغة المتخصصة

وهي تأليف تناولت موضوعات لغوية متنوعة مالت إلى نوع من التخصص في بحثها اللغوي من: نحو، وصرف، وصوت، ومباحث لغوية أخرى، والذي يعنيها منها: المباحث الصوتية.

فكتب النحو والصرف - مثلاً - ساهمت منذ عصر التأليف المبكر بجهود صوتية - غدت قوام الدرس الصوتي عند العرب - وجاءت هذه الدراسات ضمن أبواب الإدغام والإمالة والإبدال، التي أفردوها لهذا اللون من الدراسة من أجل معالجة الظواهر الصرفية والنحوية التي تعتمد في عللها على القضايا الصوتية. وأشهرها:

- الكتاب، لسيبويه، (ت 180 هـ.)، تح: عبد السلام هارون (القاهرة، 1966 - 1979).

- المقتضب، للمبرد (ت 285 هـ.)، تح: الشيخ محمد عزيمة، (القاهرة، 1963 - 1980).

(33) نشر أخيراً كتاب «معاني القرآن» لأبي جعفر النحاس، في السعودية وهو من كتب التفسير.

- الجمل، للزجاجي (ت 340 هـ)، تح: د. علي الحمد (بيروت 1984) وكان ابن أبي شنب قد نشره في باريس عام 1957.

- التبصرة والتذكرة، للصيمري (ت. ق 4 هـ)، تح: فتحي أحمد (مكة المكرمة، 1982).

- دقائق التصريف، للقاسم المؤدب (ت. ق 4 هـ)، تح: د. حاتم الضامن (بغداد، 1987).

- المنصف، لابن جني (ت 392 هـ)، شرح تصريف المازني، تح: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، (القاهرة، 1954).

- المفصل، للزمخشري (ت 538 هـ) (القاهرة، لا، ت).

- شرح المفصل، لابن يعيش (ت 643 هـ) (القاهرة، لا، ت).

- الممتع في التصريف، لابن عصفور (ت 669 هـ)، تح: د. فخر الدين قباوة، (طرابلس، 1983).

- شرح شافية ابن الحاجب، للاسترابادي. (ت 688 هـ)، تح: محمد نور الحسن وآخرين (القاهرة، 1356 هـ).

ويندرج تحت هذا القسم الكتب التي اختصت بمباحث (فقه اللغة) فقد نجد بين طياتها ملاحظات أو آراء صوتية مبثوثة كما نجدها عند ابن فارس، أو أبواباً مستقلة كما عند ابن جني.

وأشهر هذه الكتب:

- الخصائص، لابن جني (ت 392 هـ)، تح: النجار (القاهرة 1985).

- الصاحبي في فقه اللغة، لابن فارسي (ت 395 هـ)، تح: د. الشويبي (بيروت، 1964).

- المزهري في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي (ت 911 هـ)، تح: محمد أبو الفضل، وآخرين: (القاهرة، 1958).

المعجمات اللغوية

ونخصّ منها - في هذا الموضع - المعجمات التي اتّخذت من الترتيب الصوتي للحروف أساساً لترتيب الألفاظ، وقد صُدّرت هذه الكتب بمقدمات عالجت قضايا صوتية ك: تحديد عدد الأصوات العربية، ومخارجها، وصفاتها، وتآلفها وتنافرها، من أجل الإفادة منها في حصر الألفاظ العربية وتحديد المستعمل منها والمهمّل، وبالتالي ترتيبها داخل تأليف وفق منهجهم المختار:

- العين، للخليل الفراهيدي (ت 175 هـ.)، تح: د. السامرائي، ود. المخزومي: (بغداد، 1980).

- البارع، لأبي علي القالي (ت 356 هـ.)، تح: د. هاشم الطعان (بيروت، 1975)، وهذه النشرة تمثل قطعة منه.

- تهذيب اللغة، للأزهري (ت 370 هـ.)، تح: عبد السلام هارون وآخرين (القاهرة، 1984).

- المحيط، للمصاحب بن عباد (ت 358 هـ.)، تح: الشيخ محمد حسن آل ياسين (بغداد، 1976).

- المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده (ت 458 هـ.)، تح: مصطفى السقا وآخرين (القاهرة، 1958).

ولا نعدم وجود معجمات ذات مناهج أخرى عرضت لمثل هذه المقدمات الصوتية، أو الملاحظات في ثنانيا المادة اللغوية.
من ذلك:

- جمهرة اللغة، لابن دريد (ت 321 هـ.)، نشر كرنكو (حيدر آباد الدكن، الهند - 1344 هـ.)، وقد حقق أخيراً، ولم أقف عليه بعد.

- لسان العرب، لابن منظور، (ت 711 هـ.) طبعة دار صادر بيروت، (1955).

كتب الإعجاز والبلاغة

وما يعيننا من هذه التأليف مباحثها في «فصاحة اللفظة» و«تلاؤم الحروف وتنافرهما»، وهي مباحث ارتكزت على دراسة مخارج الأصوات، وصفاتها، وإمكان تألفها، فدرسوا هذه الجوانب، وعملوا لبعض التشكيلات الصوتية بعلم قد لا نجدها في كتب غيرهم.

وأبرزها:

- البرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاتب، (ت بعد 335 هـ.)،
تح: د. أحمد مطلوب وخديجة الحديثي (بغداد، 1967).

- النكت في إعجاز القرآن، للرماني، (ت 384 هـ.)، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تح: محمد خلف الله (القاهرة، ؟).

- إعجاز القرآن، للباقلاني، (ت 403 هـ.)، تح: سيد، أحمد صقر،
(القاهرة، 1954).

- سرّ الفصاحة، للخفاجي، (ت 446 هـ.)، شرح عبد المتعال الصعيدي
(القاهرة، 1969).

- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، لفخر الدين الرازي⁽³⁴⁾ (ت 606 هـ.)،
(القاهرة، 1317 هـ.).

- الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور، لضياء الدين ابن الأثير،
(ت 637 هـ.)، تح: د. مصطفى جواد، ود. جميل سعيد (بغداد، 1965).

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين ابن الأثير (ت
637 هـ.). تح: د. الحوفي وطبانه (القاهرة، 1959).

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، ليحيى العلوي (ت 749 هـ.)،
(القاهرة 332 هـ.).

(34) للرازي ملاحظات وآراء صوتية قيمة سجلها في أوائل تفسيره الكبير.

كتب الأدب العامة

ونعني بها التكاليف ذات الموضوعات المتنوعة: نحوية، وصرفية، وصوتية، ودلالية، ونقدية، وأشعار، وقصص، وأخبار، وأنساب، وألغاز غريبة ونادرة...، ونجد بين ثنايا هذه المواد المختلطة قضايا صوتية ومعالجات لا تتوافر عليها في كتب الأصوات، نظير:

- تعرضهم لعيوب النطق، وإحصاء الأصوات كثيرة الدوران على السنة العرب، والمقارنات الصوتية، وإدراك أثر الحياة الاجتماعية على نطق الأصوات، ونسج أصوات الكلمة العربية، وأمثلة هذه الموضوعات: وأبرز هذه الموسوعات:

- البيان والتبيين، للجاحظ (ت 255 هـ.)، تح: عبد السلام هارون (القاهرة، 1975).

- الكامل في اللغة، للمبرد، (ت 285 هـ.)، تح: محمد أبو الفضل، (القاهرة، 1956).

- الأمالي، لأبي علي القالي (ت 356 هـ.)، (القاهرة، 1975).

حَوْلَ ظَاهِرَةِ النَّحْتِ فِي اللِّفَةِ الْعَرَبِيَّةِ

الأستاذ عبد الله الأسطى
كلية الدعوة الإسلامية

النحت: لغة واصطلاحاً⁽¹⁾.

النحت في اللغة هو النشر والقشر والترقيق، والتسوية. يقال: نحت النجار الخشب ينحته؛ إذا قطعه. أما في الاصطلاح: فهو يختصر من كلمتين أو أكثر كلمة واحدة تدل على ما اختصرت منه، فيقال: (حمدل) من الحمد لله. ويقال في المنتسب إلى دار العلوم (درعمي). وقد تناوله علماءنا القدماء منهم: الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه، وغيرهما، من متقدمي النحاة

(1) الفاموس المحيط للفيروزآبادي 1 - 165 مكتبة الحلبي عام 1952 م، وتاج العروس للزبيدي 5 - 119، وأساس البلاغة للزغشري ص 449، وفي أصول النحو لسميد الأفغاني ص 134، 935 سنة 1963 م، ومجمع اللغة لابن فارس 3 - 860 تحقيق زهير عبد المحسن طبعة مؤسسة الرسالة 1 سنة 1984 م، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس 5 - 404 تحقيق عبد السلام هارون. ولسان العرب 2 - 97 - 98 بيروت.

ومتأخريهم، وقد وقف عنده ابن فارس طويلاً وقد عرف بتميز مذهبه وهو استقلالته فيه وقد تناول العلماء المحدثون؛ لأن لغة العلوم العربية تحتاج إليه وهو ضرب من الاختصار، والتسهيل ومعروف أن اللغة العربية تلجأ دائماً إلى السهولة والاختصار بعبارة واضحة ومفيدة؛ لأنها وسيلة من وسائل تنمية الألفاظ، وكما تناول النحت المتقدمون أفاض في الحديث عنه المتأخرون منهم إبراهيم أنيس، وجورجي زيدان وساطع الحصري، وغيرهم من اللغويين، والعلماء، والأدباء، وللجميع فيه آراء دار حولها النقاش الطويل ثم استقر الرأي إليه دون خلاف كما يحصل في بعض القضايا التي يسهب فيها العلماء.

ممن تعرض للنحت ابن السكيت⁽²⁾ حيث يقول: قد أكثرت من البسملة إذا أكثرت من قول: «بسم الله الرحمن الرحيم» وقد أكثرت من الهليلة إذا أكثرت من قول (لا إله إلا الله) وقد أكثرت من الحوقلة إذا أكثرت من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، ومن الشواهد على نحت البسملة، قول عمر بن أبي ربيعة:

قد بسملت ليلي غداة لقيتها فيا حبذا ذاك الحبيب المُبْسِمِل

وقال ابن الأنباري: «فلان: يُبرِّقُل علينا» و: دعنا من البرقلة، وهو أن يقول، ولا يفعل، ويَعِد ولا ينجز، أخذ من (البرق والقول) ومن الرباعي المؤلف قولهم لمرقة حب الرمان: المُحَبَّرَم. وقال شفر: المشلُوز المشمشة الحلوة المخ. قال وهذا غريب، قال الأزهري: أخذ من المشمش واللوز⁽³⁾ «وجاء في حاشية الخضري (الحزمة من الحزم والرأي)⁽⁴⁾ وما ذكره اللغويون من كلام المتأخرين: الفذلكة من قولهم: فذلك العدد كذا كذا. والبلكفة.

(2) إصلاح المنطق لابن السكيت ص 303 ط 3 دار المعارف بمصر تحقيق عبد السلام هارون عام 1970 م.

(3) تهذيب اللغة للأزهري 2 - 273 - 5 - 333، 11 - 302 الهيئة المصرية للكتاب.

(4) حاشية الخضري - للخضري على شرح ابن عقيل ص 3، ومجلة المجمع 7 - 201 مجلد 57 عام 1982 م.

أخذها الزمخشري من قول أهل السنة: إن الله يُرى بلا كيف. والفنقلة من قولهم: فإن قيل: ويرى السيوطي أن الظهير النعماني أملى على عثمان بن عيسى النحوي في الكلمات المنحوتة نحو عشرين ورقة من حفظه، وسماها كتاب «تنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب»⁽⁵⁾. ومما يروى في شذرات الذهب أن الشاعر الملقب بكُشاجم سئل لم لُقِبَ بهذا اللقب؟ فقال: الكاف من كتاب، والشين من شاعر. والألف من أديب، والجيم من جواد، والميم من منجم «وقيل: إنه طلب الطب حتى مهر فيه؛ فصار أكبر علمه، فزيد على لقبه الطاء من طبيب، فصاء طُكُشاجم؛ ولكنه لم يشتهر لمخالفته الظاهرة للأبنية العربية»⁽⁶⁾.

«النحت عند القدماء»

كان الخليل بن أحمد أول من تكلم عن النحت في معجمه (العين) باب العين والحاء؛ فقال: «والعين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة؛ لقرب مخرجيهما إلا أن يشق فعل من جمع بين كلمتين مثل: (حيّ على) كقول الشاعر:

ألا رب طيف بات منك معانقي إلى أن دعا داعي الفلاح فحيعلا
يريد قال: حيّ على الفلاح «ثم يقول (فهذه كلمة جمعت من «حي» ومن «على» وتقول: حَيْعَل، يُحْيِل، حَيْعَلَة، وقد أكثر من الحيلة أي من قول: (حي على)، ثم يستطرد إلى نوع آخر منه، ويقول: وهذا يشبه قولهم: تعبشم الرجل، وتعبقس، ورجل عبشمي إذا كان من عبد شمس. «فأخذوا من كلمتين متعاقبتين كلمة واشتقوا فعلاً قال:

وتضحك مني شبيخة عبشمية كأن لم تر قبلي أسيراً يمانياً⁽⁷⁾
نسبها إلى (عبد شمس)، فأخذ العين والباء من (عبد وأخذ الشين والميم

(5) الزهر للسيوطي 1 - 482 - 483 تحقيق جاد المولى وآخر دار إحياء الكتب العربية.

(6) 3 - 37 شذرات الذهب في أخبار من ذهب عبد الحي بن العماد الحنبلي المكتب التجاري بيروت. طبعة مصورة.

(7) البيت: لعبد يفوث بن وقاص الجارثي شاعر جاهلي. الكتاب لسيويه 2 - 376.

من (شمس)، وأسقط الدال والسين، فبنى من الكلمتين كلمة. فهذا من النحت⁽⁸⁾.

وتعامل الكلمة معاملة المشتقات، إن كانت اسماً، فيشتق منها وينسب إليها وتصغر. أما سيبويه فتناول موضوع النحت في كتابه. إذ يقول: عن «ما لا ينصرف من المركبات»: وأما: «حَيْهَل» التي للأمر فمن شيئين، بذلك على ذلك: «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ». وزعم أبو الخطاب: أنه سمع من يقول: حَيَّ هَلْ الصَّلَاةِ والدليل على أنهما جعلاً اسماً واحداً قول الشاعر:

وَحَيَّجَ الْحَيَّ مِنْ دَارٍ فَظَلَّ لَهُمْ يَوْمٌ كَثِيرٌ تَنَادِيهِ وَحَيَّهْلُهُ⁽⁹⁾
والقوافي مرفوعة، وأنشدناه هكذا أعرابي من أفصح الناس، وزعم أنه شعر أبيه. (يقصد ارتفاع اللام) في (حيهله)؛ لأنه جعله اسماً للصوت وإن كان مركباً من شيئين فهو بمنزلة (معد يكرب) في وقوعه اسماً للشخص. فالكلمة (حيهله) معطوفة على (تناديه).

وعند حديث سيبويه عن النسب - في الإضافة - اسماً بمنزلة جعفر. قال: وقد يجعلون للنسب في الإضافة اسماً بمنزلة (جعفر)، ويجعلون فيه من حروف الأول والآخر، ولا يخرجونه من حروفهما؛ ليعرف، كما قال: (سَبَطَر) فجعلوا فيه حروف السبط إذ كان المعنى واحداً... من ذلك عبشمي، وعبدري، وليس هذا بالقياس، إنما قالوا هذا كما قالوا: عُلُوِّي، ورُبَانِي⁽¹⁰⁾. فذا ليس بقياس كما أن عُلُوِّي ونحو علوي ليس بقياس⁽¹¹⁾. وعلى الرغم من حديث سيبويه عن النحت إلا أنه لم ينح نحو أستاذة الخليل، ولم يجعل له باباً كما هو الحال عنده حينما تحدث عن أبواب النحو والصرف، حيث تكلم عنه عرضاً، عن الاقتضاء وعدم الإسهاب فيه. وقد تحدث عن النحت الفراء أيضاً، وإن لم يسمه. يروى عنه أنه قال: لم نسمع بأسماء بنيت

(8) معجم العين 1 - 68، 69 تحقيق عبد الله درويش.

(9) الكتاب 3 - 300 مكتبة الخانجي تحقيق عبد السلام هارون سنة 1988 م ط 3.

(10) وذلك في النسبة إلى (هالية)، و «زينة» ينظر هامش 3 - 335.

(11) السابق 3 - 376 - 377.

من أفعال إلا هذه الأحرف (البسمة، والهيللة، والحقولة). أراد أن يقال: بسمل إذا قال: بسم الله، وسبحل إذا قال: سبحان الله... (12). وكلمة (اللهم) يقرر الفراء أنها تعني لفظ الجلالة: الله، ضم إليها (أَمْ) تريد (يا الله أُمَّنا بخير)؛ فكثر في الكلام، فاختلقت ثم يقول: وترى أن قول العرب: هلم إلينا إنما كانت (هل)؛ فضم إليها (أَمْ). وفي عرضه لآراء النحاة في (ويكأن) قائلاً: «وقد يذهب بعض النحويين إلى أنهما كلمتان يريد (ويكأن) أراد (ويلك): فحذف اللام وجعل (إن) مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال: ويلك اعلم أنه... ثم يقول: «وقال آخرون: إن معنى (ويكأن) أن (وي) منفصلة من (كان) كقولك للرجل: وي أما ترى ما بين يديك فقال: وي ثم استأنف «كان»... وهي تعجب، وكان «في مذهب الظن والعلم» فهذا وجه مستقيم، ولم تكتبها العرب منفصلة، ولو كانت على هذا لكتبوها منفصلة» (13). «كما جاء في المقتضب للمبرد قوله: وقد تشتت العرب من الاسمين اسماً واحداً؛ لاجتناب اللبس. وذلك لكثرة ما يقع (عبد) في أسمائهم مضافاً؛ فيقولون في النسب إلى عبد القيس: عبقسي وإلى عبد الدار: عبدري، وإلى عبد شمس عيشمي. ويقول في (حيهل) فإنما هي اسمان جعلاً اسماً واحداً» (14) وما يعرف عند المبرد بالاشتقاق هو النحت في عبارة الخليل، والأمثلة هي هي. أما ابن فارس فكان من أكثر علماء العربية اهتماماً به، وله فيه مذهب انفرد به، يقول في الصاحبي: العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة، وهو جنس من الاختصار، وذلك مثل قولهم: رجل عيشمي وهو منسوب إلى اسمين. وأنشد الخليل:

أقول لها ودمع العين جبارٍ ألم تحزنك حيلة المنادي
من قوله (حيي على)، ويضيف قائلاً: «وهذا مذهبنا في أن الأشياء

(12) تهذيب اللغة للأزهري 3 - 373.

(13) معاني القرآن للفراء 1 - 203 - 212 - 213.

(14) المقتضب للمبرد 3 - 142 - 205 تحقيق عبد الحالق عضية. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1399 هـ.

الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد (ضِبْطَر) من (ضبط) و (ضبر). وفي قولهم (صَهْصَلِق) إنه من (صهل)، و (صَلَق) وفي (الصَلْدِم) إنه من (الصَلْد) و (الصَّدْم)⁽¹⁵⁾.

ويقول في مقاييس اللغة: «اعلم أن للرباعي والخماسي مذهباً في القياس يستنبطه النظر الدقيق، وذلك: أن أكثر ما تراه منه منحوت، ومعنى النحت أن تؤخذ كلمتان وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعاً بحظ. والأصل في ذلك ما ذكره الخليل⁽¹⁶⁾.

من قولهم: حيعل الرجل، وعبشمي، فعلى هذا الأصل بنينا ما ذكرناه من مقاييس الرباعي ولذلك نجده يقسم الرباعي إلى ضربين، الأول: المنحوت الذي ذكر آنفاً من نحو: حيعل، وعبشمي. والثاني: الموضوع وضعاً لا مجال له في طرق القياس، وهذا الضرب أيضاً نوعان:

النوع الأول: ما أخذ من الثلاثي ثم زيد عليه حرف لمعنى من المعاني مثل: بلعوم فهو مأخوذ من بَلَع ثم زيد عليه الميم للمبالغة.

والنوع الثاني: ما أخذ من كلمتين أو ثلاثة (يعني جذرين أو ثلاثة) ومنه بحثرت الشيء إذا بددته، وهي منحوتة من كلمتين من بحثت الشيء في التراب (البشر) الذي يظهر على البدن، وذلك أنه يظهر متفرقاً على الجلد. ومنه (القلفع) وهو ما يبس من الطين على الأرض: فيتقلف، وهو منحوت من ثلاث كلمات قفع، وقلع، وقلف⁽¹⁷⁾ ومثل هذا يفعله في الخماسي. أي أن مذهبه هو أن الكلمة الرباعية أو الخماسية إذا عرضت له حاول أن يرد تأليفها إلى النحت، فإن استجابت له استقام له منهجه، وإلا حاول أن يجعلها من مزيد الثلاثي. فإن أعياه الأمران جعلها مما وضع هكذا رباعياً أو خماسياً. وما

(15) 461 تحقيق السيد أحمد صقر مكتبة عيسى البابي الحلبي، وينظر مقاييس اللغة. تحقيق عبد السلام هارون باب النحت.

(16) ينظر المزهري للسيوطي 1 - 482.

(17) نقل هذه النماذج عباس حسن في كتابه (رأي في بعض الأصول اللغوية والنحوية) ص 98 - 99 نقلاً عن كتاب ابن فارس فقه اللغة. ينظر المزهري 1 - 482.

خصه ابن فارس للرباعي أو ما فوقه في كتابه المقاييس والتي كانت عنده منحوتة جميعها على النحو السابق يربو عددها على المائتين، نذكر منها نماذج تمثل ما ذهب إليه من أن أكثر الكلمات الزائدة على ثلاثة أحرف منحوت: كقول العرب للرجل الشديد «ضبطر» من «ضبط وضبر». كما ذكر آنفاً. ومن أمثله الواردة⁽¹⁸⁾:

- حمدل الرجل ← أكثر من قوله: الحمد لله.
- هيل الرجل ← أكثر من قوله: لا إله إلا الله.
- جعفد الرجل ← قال: جعلني الله فداءك.
- حيعل الرجل ← قال: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح.
- دمعز الرجل ← قال: أدام الله عزك.
- سبحل الرجل ← قال: سبحان الله.
- حسبل الرجل ← قال: حسبي الله.
- مشكن الرجل ← قال: ما شاء الله كان.
- سمعل الرجل ← قال: سلام عليكم.
- طلبق الرجل ← قال: أطال الله بقاءك.
- عبشمي ← قال: في النسبة لعبد شمس.
- عبدري ← قال: في النسبة لعبد الدار.
- مرقسي ← قال: في النسبة لامرئ القيس.
- عبد قسي ← قال: في النسبة لعبد القيس.
- تبملي ← قال: في النسبة لتييم الله.
- شفعتني ← قال: في النسبة إلى الشافعي وأبي حنيفة معاً.
- حنفلتني ← قال: في النسبة إلى أبي حنيفة مع المعتزلة.

(18) المرجع السابق

ولكن من خلال تتبع (مقاييسه) يتبين للمرء، وهو يراجع محاولته إرجاع الرباعي أو الخماسي إلى جذرين ثلاثيين أو أكثر، أن هناك شيئاً من التكلف أو العسف في تلك الصياغة، وذلك مثل قوله: إن: (البُرْجُد) كساء مخطط، وقد نحت من كلمتين من (البجاد) وهو الكساء، ومن (البُرْد) والشبه بينهما قريب. أي بين الكساء والبرد، فكيف يستقيم هذا؟ ولذلك لا معنى لإضافة البرد إليه، ومثل هذا قوله في (جُذْمور) أنها من الجُذْم وهو الأصل، والجذر وهو الأصل، وإذا صح هذا فقد فات الغرض من النحت وهو الاختصار. وقال: ومن ذلك قولهم للرجل إذا ستر بيده طعامه؛ كي لا يتناول: (جردب) من كلمتين: من جَدَب، لأنه يمنع طعامه. فهو كالجَدَب المانع خيره، ومن الجيم والراء والباء، كأنه جعل يديه جِراباً يعي الشيء ويحويه.

وهذا الذي قاله مخالف لما قاله الجوهري في كتابه (الصحاح) حيث قال: (الجُردبان) بالبدال غير معجمة فارسي معرب، أصله (كرده بان) أي حافظ الرغيف، وهو الذي يضع شماله على شيء يكون على الخوان كيلا يتناوله غيره. وأنشد الفراء:

إذا ما كنت في شَهَاوَى فلا تجعل شمالك جُرْدُ باناً
وتقول منه: جردب الطعام وجردم⁽¹⁹⁾. وهذا ما ذكره صاحب اللسان والقاموس، ورجحه الأستاذ عبد السلام هارون من خلال تعليقه الوارد في هامش كتاب مقاييس اللغة.

أما علاقة النحت بالاشتقاق فقد جزم (العصام) في شرح الرسالة العضدية بأن النحت من عداد الاشتقاق الأكبر، وهو رد لفظ إلى آخر لمناسبة بينهما في المعنى، وأكثر الحروف الأصلية مع الترتيب كما في ثلم وثلب أي أنه توليد الألفاظ بعضها من بعض، ولا يكون ذلك إلا من بين الألفاظ التي يفترض أن بينها أصلاً واحداً ترجع إليه، وتتولد منه، وهو طريق للتجديد والتنويع الفني كاستعمال القرآن للفظ: الواقعة والغاشية، والطامة والقارعة

(19) مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام هارون 1 - 320 - 506 مطبعة مصطفى الحلبي 1389.

بمعنى القيامة؛ لتجديد اللفظ، وإلباس المعنى حلة جديدة، وهو يعطي للغة العربية مظهراً من مظاهر حيويتها، وقوتها وقدرتها على التطور والتجديد مما يزيدها جمالاً، وجدة. وهو الطريق إلى حسن فهم اللغة والتفقه فيها، ومعرفة أسرارها.

ولكن في ما ذكر العصام قد خالفه الشيخ النجار، لأنه راعى أن أصل المنحوت الكلمتان اللتان كان الانتزاع منهما لم تر شيئاً من المخالفة في الحروف الأصول، وإن أراد إحدى الكلمتين، فما وجه تخصيصها بأنها الأصل؟ وهل هي الأولى أو الثانية؟ وبذلك لا يكون من الاشتقاق الأكبر، وهو ليس من الصغير؛ لعدم احتوائه على كل أصوله، وعلى أية حال فالمعروف في الاشتقاق أنه انتزاع كلمة من كلمة، فلا يدخل فيه الانتزاع من أكثر من كلمتين⁽²⁰⁾ بيد أن الكلمة المنحوتة - وإن لم تعد مشتقة - فإنه يشتق منها، فإن كانت فعلاً جاز أن يجري عليها أحكام الأفعال من التعدي وال لزوم والبناء والمعلوم، والمجهول... وإذا كانت اسماً جرت عليها أحكام الأسماء من التعريف والتذكير، والإفراد والتثنية... إلخ ما احتيج إلى ذلك.

النحت بين القياس والسمع:

يرى اللغويون القدامى أن أغلب أمثلة النحت من المولد، أو المحدث، وقد أوجز المعري، وأصاب حين قال في بيت عمر بن أبي ربيعة الذي تم الاستشهاد به آنفاً. «وهذا مبني من باء بسم الله، وسين اسم وميمه، واللام في (الله)، ولا يعرف مثل هذه الأشياء في الكلام القديم، وإنما هي محدثات، ويجوز أن يكون المنقول من كلام الجاهلية ليس فيه شيء من هذا النوع»⁽²¹⁾. إن القدماء لم يضعوا نظاماً بعينه للنحت، ولا ضابطاً يجب الخضوع له، وكل ما قالوه: إن العرب قد تلجأ إلى الاختصار؛ فتصنع الكلمة الواحدة من

(20) مجلة الأزهر مجلد 15 ج 8 - ص 453 - النجار (محمد علي) من مقال بعنوان (النحت في كلام العرب سنة 1363 هـ).

(21) عبث الوليد لأبي العلاء المعري ص 125 - 216. تعليق محمد عبد الله المدني مطبعة الترقى دمشق 1936 م.

الكلمتين أو الكلمات: تأخذ من هذه، ومن تلك بعض حروفها، وتدع بعضاً آخر، وتصوغ مما تأخذه كلمة تستغني بها عن تينك الكلمتين أو الكلمات، من ذلك قولهم: بسمل الرجل إذا قال: بسم الله، وحوقل إذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله... وقد نسب القول بقياسيته إلى السلف بعض المتأخرين، جاء في حاشية الخضري على شرح (ابن عقيل): والنحت - مع كثرته عن العرب - غير قياسي كما صرح به الشمني ثم يقول: «ونقل عن (فقه اللغة) لابن فارس قياسيته، بيد أن عبارة ابن فارس التي ذكرناها آنفاً ليست نصاً صريحاً في ذلك، إلا إذا نظرنا إلى أن ابن فارس ادعى أكثرية النحت فيما زاد عن ثلاثة، ومع الكثرة تصح القياسية والاتساع»⁽²²⁾.

وقد نسب الخضري إلى الزمخشري. أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ (سورة العاديات الآية 9): وهو منحوت من (بعث، وأثير) أي بعث موتاهاً وأثير ترابها. وعبارة الزمخشري لا تغير ما نسب إليه، يقول: بعث، وبعثر. بمعنى، وهما مركبتان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما، والمعنى بعثت، وأخرج موتاهاً⁽²³⁾. أما سيبويه فلا يجيز القياس في النسب إلى المنحوت⁽²⁴⁾. وقد جرى النحاة من بعده على ذلك. جاء في المفصل لابن يعيش قوله: «وذلك ليس بقياس، وإنما يسمع ما قالوه، ولا يقاس عليه لقلته»⁽²⁵⁾، وقد عدّه الرضي شاذاً، قائلاً: هذا وقد جاء شاذاً مسموعاً في (عبد) مضافاً إلى اسم آخر أن يركب من حروف المضاف والمضاف إليه اسم على (فعل)، بأن يؤخذ من كل واحد منهما الفاء والعين نحو: عبشمي في عبد شمس، وإن كان عين الثاني معتلاً كمل البناء بلامه نحو: «عبيسي من عبد القيس»⁽²⁶⁾. أما السيوطي فقد عرف المركب المزجي بأنه (كل إسمين جعلاً إسماً واحداً لا بالإضافة ولا بالإسناد بتنزيل ثانيهما منزلة

(22) الخضري 1 - 3.

(23) الكشف للزمخشري 4 - 279.

(24) الكتاب 3 - 376 - 4 - 288 - 289.

(25) 6 - 9.

(26) شرح الرضي، عل الشافية 2 - 76 تحقيق محمد عي الدين عبد الحميد وآخرين.

(هاء) التأنيث نحو «بعلبك، ورامهرمز ومارسرجس»⁽²⁷⁾. ومن صورته: المركب المزجي المعرب كـ بعض الأعلام معربة وعربية، ومنه المركب المزجي المبني مثل (سيبويه) و (خالويه). ومركبات أخرى كالأعداد، والظروف والأحوال. المركب العددي مثل: أحد عشر. ومركبات الظروف الزمانية مثل: صباح مساء. ومركبات الظروف المكانية مثل: هو جاري بيت بيت أي تلاصقاً. ومركبات أحوال مثل: وقعوا في حيص بيص، أي فتنة مائجة. ومركبات صوتية مثل: غاق، غاق. ومركبات أعلام شخصية عربية غير معربة مثل: معد يـ كرب. ومركبات أعلام شخصية معربة غير عربية مثل: «بعلبك»⁽²⁸⁾.

والمركب المزجي حين ينسب إليه يندرج في المركب بعامة، فينسب إلى صدره؛ فيقال في النسب إلى (بعلبك): بغلي، وأجاز الجرمي النسب إلى الأول أو إلى الثاني، أيهما شئت، فنقول: بغلي أو بكبي. وقد جاء النسب إلى كل واحد من الجزئين قال:

تزوجتها رامية هُـرمزية بفضل الذي أعطى الأميرُ من الرزق
وأجاز بعضهم النسب إلى المركب غير مزال تركيبه إذا خف اللفظ مثل:
«بعلبكي»⁽²⁹⁾. وما من شك أن التركيب هنا يختلف عن النحت، وذلك لأن الكلمة المنحوتة تؤخذ من حروف الكلمتين أو الكلمات التي نحتت منها. والمنقول من أمثلتها يخضع للأوزان العربية، فالكلمة (عشم) مثلاً أخذت العين والباء من (عبد)، والشين والميم من (شمس) ومثالها (فعلل) أما المركب غير العربي؛ فيبقى على حاله، ولا يلتزم فيه أن يجيء على مثال عربي كما في بعلبك، وسيبويه، وحضرموت.

(27) هم الهوامع 1 - 32.

(28) في أصول اللغة 1 - 49 - 1 - 50 - 51 (مجموعة القرارات التي أصدرها للمجمع اللغوي عند دورته التاسعة والعشرين إلى الدورة الرابعة والثلاثين في أقيسة اللغة وأوضاعها العامة ط 1388 هـ الموافق 1969 م).

(29) شرح الشافية للرضي 2 - 72 - 74.

كيفية صياغة النحت:

أما طرق صوغ النحت فتختلف اختلافاً كبيراً بحيث لا نكاد نجد لها ضابطاً محكماً، أو طريقة مطردة، ولذلك يقول الخضري: ولا يشترط فيه حفظ الكلمة الأولى بتمامها بالاستقراء - خلافاً لبعضهم - ولا الأخذ من كل الكلمات، ولا موافقة الحركات والسكنات كما يعلم من شواهد. نعم. كلا. مهم يفهم اعتبار ترتيب الحروف، ولذا عُدَّ ما وقع للشهاب الخفاجي في (شفاء العليل) من (طلبق)، بتقديم الباء على اللام إذا قال: «أطال الله بقاءك» سبق قلم، والقياس (طلبق)⁽³⁰⁾.

والمجمع اللغوي قد شغل منذ نشأته بالنحت، وكيفية صوغه، وتوقف فترة دون الخوض في غماره، ولا سيما بعد عدم تقبله من قبل بعض أعضائه ولكنه عاد إلى بحث هذا الموضوع من جديد بعد أن مَحَّص القول فيه بصورة شمولية، فأعدَّ المجمع لجنة دراسة لهذا الموضوع وكلفت لجنة الأصول بهذا وهي بدورها أعدت تقريراً إضافياً قدمته إلى مؤتمر المجمع، فوافق على إباحة النحت عندما تلجئ إليه الضرورة العلمية، ويمكن تلخيص النقاط التالية من ذلك التقرير:

النحت ضرب من الاختصار، وهو أخذ كلمة من كلمتين فأكثر، وقد نحتت العرب قديماً على منهاج الأفعال الرباعية في الأفعال والخماسية في الأسماء؛ فقالوا: (سبحل ودمعز).

يؤخذ من النحت المتقدم:

أ: أنه لا يجب في النحت الأخذ من كل كلمة من المنحوت منه فإن (دمعز) لم يؤخذ منها حرف من حروف لفظ الجلالة.
ب: لا يجب أن تؤخذ الكلمة الأولى بتمامها.

ج: لا يجب المحافظة على حركات الحروف وسكناتها، فإن الشين في (مَشْكَنَة) ساكنة، وهي في المنحوت منه متحركة؛ لأنها من (ما شاء الله كان).

(30) حاشية الخضري 1 - 3.

ترتيب الحروف في النحت محل خلاف، فبعضهم يرى أنه لا بد منه، ولذا خطيء من قال (الجعفلة) وقيل: إن الصواب (جعفلة) من جعلت فداك، وبعضهم يرى لا ضرورة لذلك ويكون عدم الترتيب تفتناً. لقد نحت العرب من المركب الإضافي فقالوا: عبقيسي، من عبد قيس، ولم يلتزموا فيه طريقة واحدة في الأخذ من الكلمتين فقالوا: دريخي من دار البطيخ، وسقزني من سوق مازن ورسعني من رأس عين، وبهشمي من بني هاشم.

ويرى المتقدمون: «أن النحت سماعي، فيوقف على ما سمع وليس لنا أن ننحت، ولعل هذا، لأن النحت اختراع ألفاظ لم تعرفها العرب فلا تدخل في لغتهم. ولكن ينتهي التقرير المقدم من لجنة الأصول بالقول بجواز النحت في العلوم والفنون للحاجة الملحة إلى التعبير عن معانيها بألفاظ عربية موجزة»⁽³¹⁾.

«النحت عند العلماء المحدثين».

إن اللغويين في العصر الحديث ينصرفون عن البحث في نشأة اللغة الإنسانية وعن البحث في تطوراتها خلال العصور التي تجهل تاريخها، قانعين، ببحث تلك التطورات خلال القرون التي رويت لها نصوص لغوية، وتطورت هذه النصوص، إلى أن انحدرت إلينا الآن في صورة حديثة، ويعتمدون في بحث مظاهر التطور اللغوي إلى حد كبير على ما أصاب نصوص (السنسكريتية) و (الأغريقية) و (اللاتينية)، وغيرها من اللغات التي تعرف أن معظم اللغات (الأروبية) الحديثة قد انحدرت منها. وهم يصدد تطور البنية في الكلمات يؤكدون لنا أن الاتجاه العام في تطورها يميل نحو تقصيرها واختصارها، فيقول جبرسن - ما ترجمته - (ليس هناك أدنى شك في أن الاتجاه العام لجميع اللغات هو نحو تقصير الصيغ للكلمات)⁽³²⁾ ولذلك نجد أن في العصر الحديث - وهو عصر السرعة - يسيطر على الناس هذا الميل العام في

(31) ينظر مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة 7 - 201 - 204.

(32) ينظر مقال، ورد في موضوع النحت للدكتور إبراهيم أنيس بكتاب أصول اللغة ص 50.

كلامهم ويفرق اللغويون بين مسلك الأطفال في اختزال الألفاظ الكبيرة البنية، ومسلك الكبار. فالأطفال يقتطعون الجزء الأول من الكلمة في حين أن الكبار يقتطعون الجزء الأخير منها.

إن ظاهرة النحت التي تحدث عنها القدماء من علماء العربية ليست في الحقيقة إلا ناحية من الاتجاه العام في اللغات. والذي لا شك فيه أن أمثلة كثيرة لظاهرة النحت، قد وردت عند العرب القدماء، تقرر هذا دون التورط في ما أسرف فيه ابن فارس، وأمثاله من تلمس أمثلة النحت في معظم الكلمات الرباعية والخماسية من كلمات اللغة العربية.⁽³³⁾

ونظراً لمستحدثات العصر كان العلماء المحدثون يدعون إلى استعمال النحت، فأول من دعا العلماء والمربين إلى استعمال النحت هو (الشدياق) في كتابه (كنز الرغائب) قائلاً: «إنه طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة، وتوسع أساليبها، وله نظير في اللغة اليونانية وسائر اللغات الأفرنجية، وهي التي كثرت مواد لغاتهم، واحوجتنا إلى الأخذ منها.

ولما كانت مصر مورد العلوم، وكان كلام مشايخها متبعاً في جميع الأمصار في فترات معينة، فإنه يحثهم على أن يقرروا طريقة لصوغ الألفاظ المنحوتة إلا أن (الشدياق) يعترض على من يقصر النحت على الألفاظ التي نقلت عن القدماء. بقوله: «وهذا مستبعد جداً، فهل لعاقل أن يقول: إن (الطلبقة) لازمة، وغيرها غير لازم مع أن الوضع إنما يراعى به اللزوم والضرورة، وتهذيب اللغة من أن تشان بالألفاظ الأعجمية ولا سيما إذا كانت مستهجنة كلفظة (الكونسيتومسيون) وإذا ساغ للمستعربين أن يقولوا: (عيد شون) وهي في القاموس: دوية، (لغة مصنوعة) و(جيثلوط) ونحوهما، وهو كثير ساغ لنا - أيضاً - من ذلك ما تمس الحاجة إليه، فهم رجال ونحن رجال».⁽³⁴⁾ ولكن الحركة العلمية التي نشأت آنذاك كانت تؤثر التعريب على

(33) السابق، ومقاييس اللغة لابن فارس 1 - 329، 5 - 117.

(34) كنز الرغائب 1 - 204، 205 لأحد فارس الشدياق. مطبعة الجواب.

النحت، فلم يوجد في معجم المعربات الذي نشره (المقتطف) عام 1883،
 1884م والذي جمع فيه واضعه الألفاظ العلمية التي عربها المقتطف منذ إنشائه
 عام 1876م كلمة واحدة منحوتة⁽³⁵⁾ إلا أن كلمات منحوتة كانت قد بدأت
 تستعمل. فقد صاغ (جرجس) همام عام 1887م للطير الذي يأكل اللحم
 والنبات كلمة (اللحني) وللحيوان الذي يعيش في البر والماء (البرمائي) ويقول
 محرر المقتطف في (جرنا لوفوبيا) و (جرنا لوفاجيا) الأول معناه: الخوف من
 الجرائد. والثاني: التهامها. وقد نحت لهما بعضهم اسمين عربيين فسمى
 الأول (الجنفرة) من النفور. والثاني (الجبيلة) من البلع أو (الجاكلة) من
 الأكل، وهما مرضان لم يسبق لأحد وصفهما⁽³⁶⁾. أما جورجى زيدان فهو
 الآخر. في أثناء ذلك - نشر كتابه (الفلسفة اللغوية) وقد خص فيه النحت بفصل
 مطول يمتد حديثه عن الألفاظ الدالة على معنى في غيرها، وهي - في تقديره -
 بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها كالحروف، وأحرف الزيادة... الخ.

والنحت عنده ناموس فاعل على الألفاظ، وغاية ما يفعله فيها إنما هو
 الاختصار في نطقها تسهياً للفظها، واقتصاداً في الوقت بقدر الإمكان، وهذا
 الناموس لم تنج من فتكه لغة من لغات البشر... من أول نشأتها ولم يزل
 حتى الآن، ولن يزال إلى ما شاء الله... وليس للإنسان يد في عمله، فالنحت
 جار في الألفاظ عن غير قصد من الناطقين.

وقد نظر في العربية الفصحى فأسعفته من جديد من الأمثلة تكشف عن
 أصول هذه الألفاظ، وهي أحرف الجر والعطف، والمشبهة بالفعل، والمشبهة
 بليس وحروف الاستثناء، والنواصب، والجوازم، والحروف المبنية وأحرف
 الزيادة ومن هذه الحروف ما لا يزال ملموحاً فيه معناها الأصلي مثل (عدا) من
 أدوات الاستثناء، فإنها مأخوذة من: عدا يعدو أي تجاوز، وهكذا الحال في
 (على). ومنها ما لم يعد تتبعها سهلاً، لأنها خسرت بعض حروفها لكثرة
 الاستعمال مثل الباء وهي من حروف الجر، ولا تستعمل في اللغات السامية،

(35) المقتضب مجلد 8 ص 107، 112، 166، 167، 212، 216 سنة 1399 هـ.

(36) السابق مجلد 11 ص 384، مارس 1887 م.

إلا للظرفية، وهذا هو الأصل في دلالتها، وبالاستقراء يقرر أنها بقية كلمة ذات معنى مستقل هي (بيت)⁽³⁷⁾ ثم أنه يقرر أن بعض الأدوات قد كانت في القديم من أصليين، فمنذ هي من (من) و (إذا). ولن منحوتة من (لا) النافية و(أن) المصدرية و(كم) منحوتة من (كاف) التشبيه و(ما) و(لكن) أخذت من (لا) و(كن) بمعنى (كذا) . . .

وليست أحرف المضارعة إلا بقايا بعض الضمائر المنفصلة، فالألف والنون من مختصات المتكلم على إطلاقه، والياء للغائب والتاء للمخاطب . . . (38)

وقد حدث ذلك في العربية منذ عهد بعيد قبل أن تجمع ألفاظها وتحكم قواعدها، وقد حدث شيء شبيه به منذ عهد ليس بالبعيد، فهو يرى أن الشين في (شلون) في بعض اللهجات العربية الحديثة منحوتة أصلاً من ثلاثة ألفاظ مستقلة لفظاً ومعنى وهي (أي شيء هو) [لهجة عراقية شامية] و (ليش) المستعملة بمعنى لماذا. مؤلفة من لام الإضافة و(أيش) المنحوتة من (أي شيء هو)، فكان أصلها: (لأي شيء هو) ويستشهد جورجي زيدان في درس هذه الألفاظ وردّها إلى أصولها القديمة التي نحت منها باللغات السامية واللهجات العربية⁽³⁹⁾. وإنه لا يكتفي برد الرباعي، والخماسي إلى الثلاثي، وهو ما يتصل بالأفعال بل يقول أيضاً: بإرجاع الثلاثي إلى الثنائي، ويعتقد أن (قطف) مثلاً منحوتة من (قط) و (لف) وكلمة (قمش) منحوتة من (قم) (وقش) . . . وفي هذه الأمثلة يقول: مثل ذلك كثير من الألفاظ الثلاثية، وإن استبعد بعضهم هذا التعليل فلا يستبعده من له شيء من الاطلاع على خصائص الألفاظ وقابليتها للإبدال والنحت، زد على ذلك أن من يسلم حدوثه في الرباعي بنحت أربع كلمات أو خمس كلمات إلى كلمة واحدة كقولهم بسم الله (قال بسم الله). وسبحل (قال سبحان الله). . . لا يستبعد حدوثها في الثلاثي.

(37) الفلسفة اللغوية لجورجي زيدان 71 - 72، ترجمة وتعليق مراد كامل دار الهلال 1969 م.

(38) السابق ص 85، وينظر مغني اللبيب لابن هشام ص 291.

(39) السابق، 71 - 72، وينظر في تركيب الأدوات: المغني 291.

ويرى الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه (فصول في فقه اللغة) أن بعض الكلمات الثلاثية قد تكون منحوتة مثل: أسمر فهي من أسود وأحمر⁽⁴⁰⁾. وقد وقع في اللغة المعاصرة شيء من هذا يمكن تفسيره على هذا النحو. وهي الكلمة (لعم) من (لا) و (نعم) يشار بها إلى صيغة سياسية تموهية لا ترفض شيئاً ولا تقبل شيئاً، فلا تقول: (لا) ولا تقول: (نعم)⁽⁴¹⁾ إلا أن تلك التفسيرات التي افترضها لم يسلم بها أو ببعضها معاصروه، وقد دار حولها حوار شائق كان له - ولا شك - أثر في توجيه الباحثين والمعربين إلى الأسلوب من تنمية الألفاظ، ولا سيما إشارته إلى أنه (ناموس فاعل) جرت عليه اللغات قديماً، ولم تزل ولن تزال. أما عبد القادر المغربي فقد عقد فصلاً عن النحت في كتابه (الاشتقاق والتعريب)، وقد جعله من قبيل الاشتقاق، وليس اشتقاقاً بالفعل، لأن الاشتقاق أن تنزع كلمة من كلمة، والنحت أن تنزع كلمة من كلمتين أو أكثر. وقد قسم النحت إلى أربعة أقسام وهي:

أ - النحت الفعلي: وهو أن تنحت من الجملة فعلاً يدل على النطق بها أو على حدوث مضمونها مثل: (سبحل) من (سبحان الله) ومنه (لا شاه) من صيره لا شيء، ويعثر من بحث وأثير.

ب - النحت الوصفي: وهو أن تنحت من كلمتين كلمة واحدة تدل على صفة بمعناها أو بأشد منه مثل (غبيط) للرجل الشديد من (ضبط، وضبر).

ج - النحت الاسمي: وهو أن تنحت من كلمتين اسماً مثل (جلمود) من (جلد، جمد).

د - النحت النسبي: وهو أن تنسب شيئاً أو شخصاً إلى بلدتي (طبرستان وخوارزم) مثلاً، فتنتح من اسميهما اسماً واحداً على صيغة المنسوب، فتقول: (طبرخزي). وقد أعمل عبد القادر المغربي فكره في بعض الكلمات الرباعية والخماسية، وأرجعها إلى كلمتين ثلاثيتين. ومن ذلك (دحرج) فهي

(40) فصول في فقه اللغة ص 305 رمضان عبد التواب مكتبة الحانجي بمصر ط 2 سنة 1983 م.

(41) جريدة الشرق الأوسط ص 15 بتاريخ 1987 / 4 / 20 م.

من (دحره فجري) و (هرول) من (هرب وولى)⁽⁴²⁾ ولم يذكر شيئاً عن دوره في تنمية الثروة اللغوية في العربية الحديثة على الرغم من أن الكتاب كان خالصاً للدعوة إلى الاشتقاق والتعريب وبيان دورهما في تحديث اللغة، ووفائها بحاجات العصر. وقد اكتفى بذلك المبحث التعليمي التصنيفي، أما في المصطلحات العلمية، وما يخصها من النحت فسوف يكون للمغربي دور كبير في الدعوة إليه إذا عين عضواً لمجمع اللغة العربية بعدما يقرب من ثلاثين سنة من نشر هذا الكتاب وهو لغوي مجدد.

ويقول ساطع الحصري في هذا الصدد - وهو من الذين عنوا بمسألة النحت ولم يتردد في أن يقول: إن اللغة العربية - وإن أصبحت فقيرة بالمصطلحات اللازمة - لا تزال غنية بالقابليات الكامنة «وهو يرجع فقرها اليوم بعد أن كانت بالأمس غنية وقديرة إلى أن المتكلمين بها قد انقطعوا عن مزاوله العلوم منذ قرون، وأنهم حبسوا أذهانهم في دائرة ضيقة من الأدبيات، والشرعيات». وهو يعتقد أن التوسع في النحت أصبح من أهم حاجات اللغة العربية، وأنه لا سبيل من دون ذلك إلى إغنائها بما تحتاج إليه من الاصطلاحات العلمية المتنوعة الجديدة. ومع أن الحصري يرى أن الاشتقاق هو أهم الوسائل التي يمكن الاستفادة منها في تكوين المصطلحات، فإنه يؤكد «إنه وحده لا يكفي لتوليد الكلمات التي يحتاج إليها التفكير البشري لأن عمله مقصور على أوزان، وقوالب معينة، وهذه الأوزان والقوالب - مهما كانت كثيرة ولودة - لا تستطيع أن تستوعب جميع المعاني العقلية، فلا بد من الاستعانة بالتراكيب، وبالإقدام على تركيب كلمتين أو أكثر على شكل تراكيب مزجية، ووصفية، وإضافية وحتى على هيئة جمل فعلية»⁽⁴³⁾. وقد كان للنحت دور في العربية قديماً، فإنه أوجد معظم الأفعال الرباعية والخماسية - إن لم نقل كلها - كما أنه أوجد عدداً من الكلمات مثل: (اللا أدريه) من (لا) و

(42) الاشتقاق والتعريب ص 21 - 24 مطبعة الهلال 1908 م عبد القادر المغربي.

(43) في اللغة والأدب ص 74 - 81. وقد نشر المقال المذكور في عام 1928 م بمركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1985 م.

(أدري) والملاشاة من (لا) و(شيء)، والعنينة من (عن) مما لا يعد من النحت، وفقاً للتعريف الذي اختاره. ومن أمثلة ما نحتته ودعا إلى استعماله: لا شعوري، ولا أدري، ولا سلبي، ولا فقاريات... وهي في السوابق التي تستخدم للنفي أو السلب ومن ثم يقال: لا محدود، ولا أخلاقي ولا مائي...⁽⁴⁴⁾ والحُصْري بمعالجته هذا الموضوع أتاح لنا أنموذجاً للكلمات المنحوتة، تكون بمقتضاء مرادفة للكلمات المركبة أو ذات اللواحق في اللغات الأوزوبية ويذكر له أنه نظر إليها نظرة تراعي ما بينها من علاقات، بحيث تكون في النهاية قائمة متناسقة⁽⁴⁵⁾.

ويناقش في نهاية الفصل ما قد يوجه من نقد إلى التوسع في استخدام النحت، فيقول: إنني أعرف أن مثل هذه الكلمات المنحوتة تظهر في بادئ الأمر غريبة على الأسماع، ولكن قد لا نجد فيها ما يزيد غرابة من الكلمات المنحوتة القديمة، التي دخلت في القواميس، وشاعت بين الناس من البسمة والحوقة... وقد يقال: ليس للنحت قواعد وأصول ثابتة أو أوزان معينة، والاسترسال في النحت يخل بتناسق اللغة، ويفتح باباً للفوضى، ولكننا لا نجد مسوغاً للتخوف من هذه الناحية، لأننا نقترح استعمال النحت، لأجل الاصطلاحات العلمية، وهذه الاصطلاحات العلمية محدودة بطبيعة الحال، فلا يصعب مراعاة التناسق في تكوينها، ثم يشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن انصرافنا عن النحت سيوقعنا في خطر أشد وهو التعريب، يقول: ولا يمكن نشر العلم بالتركيب المطولة، فإذا لم نقبل النحت سنضطر إلى استعمال الاصطلاحات الأفرنجية نفسها، ولا حاجة لإثبات أن اتساق اللغة في هذه الحالة يصبح أشد تعرضاً للخطر⁽⁴⁶⁾ ومن العلماء المحدثين والمهتمين بموضوع النحت اللغوي والأديب وعالم الأحياء (إسماعيل مظهر). كان مرجع ذلك اعتقاده أن النحت ييسر حاجة من حاجات العربية الملحة (وهي وضع أسماء

(44) السابق 88 - 89.

(45) السابق.

(46) السابق 90.

عربية لأفراد الحيوان والنبات، تعين الأشخاص والطبقات المختلفة بما فيها من الفصائل والعشائر والمراتب والأجناس والأنواع. وهو يرى أن التعريب لا يحقق الهدف السابق فأصحابه يريدون اختصار الطريق وأخذ الأمر بظواهره، وفي التوسع فيه افتتات على جرس اللغة العربية، وقوالبها، فنادرًا ما تكون الكلمة المعربة موافقة لها أو صالحة للخضوع إليها، وينبغي أن لا نلجأ إليه إلا لضرورة.⁽⁴⁷⁾

أما النحت عنده فيراه أصلاً من أصول العربية، وطريقاً من طرق إثرائها، ولهذا يعارض رأي الشيخ أحمد الاسكندري الذي يرى أن النحت قد كان جائزاً في نشأة اللغة، لتستكمل عدتها من الألفاظ، ولكن زمانه الآن قد ولّى وبابه قد أقفل بعد أن تكفّت العربية، وأصبحت بقواعدها لغة الاشتقاق، لا النحت. وهو يرى أن حاجة العربية إليه ما تزال قائمة. بل إن حاله اليوم أشبه بحاله إبان نشوئها من حيث حاجتها إلى استكمال عدتها من الألفاظ المعبرة عن شتى المعاني.

ويرى إسماعيل مظهر أن كل اللغات الحية كانت في أصل بنيتها لغات اشتقاقية، وإنما لجأ أهلها إلى النحت، أو التركيب، ليستعينوا به على صوغ ألفاظهم. ومن ثم لا ينبغي أن تكون هذه المقالة حائلاً دون استفادة العربية من النحت بدعوى أنها لغة اشتقاق⁽⁴⁸⁾ ومن جملة ما قاله إسماعيل مظهر في الرد على من يمنعون استعمال النحت في المصطلحات العلمية: أنه يجوز لنا النحت في المصطلحات التي نعجز عن ترجمتها، أو تعريبها تعريباً يفي بالحاجة. وأن النحت لن يفسد العربية إذا روعي فيه ألا يكون نابياً في الجرس عن سليقة اللغة وأن يكون المنحوت على وزن عربي معروف، وأن تستجيب اللفظة المنحوتة لقواعد العربية النحوية والصرفية.

ولما كانت مسألة القياس، وحد القلة والكثرة أساسية في الاعتراض على

(47) تحديد العربية ص 6 - 10، لإسماعيل مظهر.

(48) السابق 17.

دعوته، فإنه يذلل محاولة مضنية، ليتثبت رأي ابن فارس في أن النحت كثير في العربية وهو الرأي الذي أنكره عليه الكثيرون ولا يقف في سبيل ذلك عند الألفاظ التي ذكرها ابن فارس بل يصنع ما يشبه القاعدة في رد الكلمات ذات الأصول الرباعية والخماسية إلى أصلين ثلاثين نحتت منهما، ومن أمثلة ذلك أنه يرد الكلمة (صلخد) إلى أصلين هما (صلد) و (صخد) وفي الأصلين - كما في الكلمة الرباعية معنى الشدة والقوة، وهو في هذا يخالف القائلين بالاشتقاق الذين يرون أنها من (صخد) واللام زائدة⁽⁴⁹⁾ وقد توسع الدكتور عبد الصبور شاهين في درس هذه الظاهرة، واستخدم لها مصطلح الاختصار. يقول: عرفت اللغات [الأجنبية] الأوربية نهجاً من الاختصار، يقوم على اختيار الحرف الأول من جميع الكلمات التي يشتمل عليها التركيب المراد اختصاره، ثم توضع هذه الحروف بتركيبها منفصلاً بعضها عن بعض، تنطق غالباً متصلة، وأحياناً منفصلة على شكل كلمة ذات مدلول اصطلاحي وقد شاع هذا اللون من الاختصار في اللغة العلمية حتى أصبح وسيلة الرياضيات، والفيزياء والكيمياء في التعبير عن مفاهيمها الثابتة، ويكفي في بيان أهميته أن نرجع إلى جدول الرموز العلمية للعناصر الكيميائية مثلاً⁽⁵⁰⁾

أما النحت فهو ظاهرة الدافع إليها هو اتخاذ هذه المختصرات، قصد السهولة واجتناب التكرار والإطالة، إذ إن المصطلح (وقد يكون مركباً في أصله من كلمات عديدة) قد يتكرر ذكره مرات عديدة في كل صفحة من النص العلمي. بل وفي كل سطر، ففضلوا لذلك اختصاره اقتصاداً في المكان وفي الوقت. وهذا هو في الواقع ما دفع علماء العرب إلى نحت كلمات البسملة، والحيعة...

ومهما يكن من أمر فإن ظاهرة النحت ظاهرة صحيحة وهي مزية من مزايا اللغة العربية، ولا ينبغي لنا أن نضيع على لغتنا الجائلة مزية وجدت فيها بالنحت وبخاصة في الألفاظ الطويلة وفي المصطلحات العلمية التي تحتاج إلى

(49) السابق ص 11، 25.

(50) ينظر العربية لغة العلوم والتقنية. عبد الصبور شاهين ص 294 - 296.

النحت احتياجاً ضرورياً. وحتى إذا سلمنا بأن هناك من يرى أنه ظاهرة شاذة لا يقاس عليه، فهو لا مناص من أن نقول: بأننا لا يمكن أن نترك ما استعمله العرب، وأما الرأي القائل بأن النحت لا يدرك إلا عند طائفة قليلة، وأنه يزيد غموضاً بزوالهم - فالشأن فيه شأن الألفاظ المنحوتة المسموعة عن العرب، فإننا لا نفهم معناها إلا بتوقيف، وشأن سائر المصطلحات العلمية المختلفة، بل شأن كثير من الكلمات اللغوية، التي لا تدرك إلا بتوقيف، وتلقين ورجوع إلى مظائنها. ولا يغيب عنا أن الألفاظ المنحوتة التي نطالب بقياسيتها إنما تدول، وتروج بين طوائف معينة، تشتد حاجتهم إليها، فالأمر فيها كالأمر في باقي المصطلحات المختلفة، سواء أكانت طبية أم هندسية، أم نحوية، أم بلاغية أم كيميائية أم غيرها... لا يعلمها إلا أهلها، ولهم وضعت، وعليهم قصرت. أما غيرهم فلا يعينهم من أمرها شيء. وعلى هذا قامت شؤون الحياة العلمية كلها. وإذا انقرضت طائفة من الطوائف المتخصصة المدركة لتلك المصطلحات فإن أخرى ستحل محلها، ولن يخلو الميدان من أهله، إلا إذا انقرض معهم العلم أو الفن الذي كانوا به يشتغلون. وعندئذ سيكون اللفظ المنقرض معروفاً في تاريخ العلوم، موضحاً في المعاجم التي تسجل الكلمات، ومعانيها على وجه الدقة لمن أراد أن يستبين. ويكون مثلها - والحال ما ذكر - مثل الأسماء التي انقرضت مسمياتها، وذُهِبَت الأيام ببدلولاتها، ولكنها لم تذهب بتلك الأسماء ولم تمحُها من بطون الكتب والمراجع المنتشرة في أرجاء الكرة الأرضية، ولا سيما الكتب اللغوية والمراجع العلمية الخاصة التي تسجل المصطلحات وتاريخها وتطورها، وما يتصل بها، فهي - إذن - باقية - بإذن الله تعالى - في انتظار من يشمر عن ساعد الجد، ويبحث عنها، ويزيل الغبار الذي ران عليها حقبة من الزمن، وذلك للاستفادة بها من قبل الأجيال القادمة التي هي في أمس الحاجة إليها أكثر من أي وقت مضى، لأنها تراث للماضي، أو لمعرفة مسمائها، حتى لا تنسى.

ومما لا شك فيه أن الذي نصل إليه وهو حقيقة القول: بأن النحت سائغ ومباح يمثل ظاهرة لغوية استعملت ماضياً وحاضراً، وستستعمل مستقبلاً - دون شك - مهما اختلف الباحثون في موضوع النحت، وأن الوقوف في طريقه يُعَدُّ

عرقلة لتطور هذه اللغة التي تنمو كالكائن الحي، وتشق طريقها بخطاً ثابتة، وهو أمر يتصف بالتشديد الذي لا يجد له سنداً قوياً يدعمه سواء أكان عقلياً أم نقلياً أم واقعياً... أما طرائق النحت فموكولة إلى الباحثين أنفسهم، يتخيرون منها ما يلائمهم ويوافق بحوثهم، ولذلك علينا أن ندفع بجهودهم المخلصة إلى الأمام، وبهذا نفتتح باباً من التشجيع والتوسعة الحميدة، لنظل دائماً من خلال آفاق المستقبل العلمي والتطور الذي يواكب العصر، وهو عمل يعينهم في مهامهم، ويأخذ بأيديهم إلى حيث ينتجون ويفيدون، تاركين الجمود، والاستكانة، وهو أمر يحيد بالبذل والعطاء عن السبيل، فالأمة العربية أمة لم تجمد عقبرياتها في الميدان اللغوي الذي يمثل أكبر تراث لغوي هائل عرفته هذه الأمة الخالدة. فلغتنا تراث موروث عن الآباء والأجداد وهي صورة ناطقة تعبر عنهم وتواكب حياتهم، ومن ثم فهي قادرة على أن تواكب حياتنا العصرية، لأنها تفرض نفسها، ولكن يجب علينا - نحن أبناء - هذه الأمة أن نحسن التصرف في تراثنا اللغوي خاصة إذ يعتمد عليه تقويم اللسان وأن نحافظ على أصالة هذا التراث وثبات قواعده، مهما بلغ قول القائل: هم رجال ونحن رجال، ولكن يختلف الرجال.

فقد كان علم العرب غزيراً في رحبة اللغة ومجالاتها، وإن لسانهم أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً، فالنحت رافد من روافدها وجدول من جداول حدايقها، ولا نعلم أنه يحيط بجميع علومها إنسان غير نبي ولا عجب في ذلك أنها لغة كلام الله تعالى المعجز، لكل مخلوق.

والله ولي التوفيق

مراجع البحث

- 1 - الاشتقاق والتعريف. عبد القادر المغربي. مطبعة الهلال 1908م.
- 2 - إصلاح المنطق. لابن السكيت دار المعارف بمصر 1970م
- 3 - أصول اللغة [مجموعة قرارات المجمع اللغوي] القاهرة 1969م
- 4 - تهديد العربية: اسماعيل مظهر.
- 5 - تهذيب اللغة للأزهري الهيئة المصرية للكتاب.

- 6 - حاشية الخضري - على شرح ابن عقيل.
 - 7 - رأي في بعض الأصول النحوية. عباس حسن. مطبعة العالم العربي بالقاهرة 1951م.
 - 8 - شذرات الذهب. عبد الحي العماد الحنبلي - المكتب التجاري بيروت (طبعة مصورة).
 - 9 - شرح الرضي على الشافعية. تحقيق محمد عبي الدين عبد الحميد وآخرين.
 - 10 - عبث الوليد. أبو العلاء المعري. تعليق محمد عبد الله المدني. مطبعة الترقى دمشق 1936.
 - 11 - العربية لغة العلوم والتفنية. عبد الصبور شاهين.
 - 12 - فصول في فقه اللغة - رمضان عبد التواب/ مكتبة الخانجي مصر. ط 2 1983م.
 - 13 - الفلسفة اللغوية جرجي زيدان، مراجعة وتعليق د. مراد كامل دار الهلال 69م
 - 14 - في اللغة والأدب. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت 1985م.
 - 15 - الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي تحقيق عبد السلام هارون ط3
- عام 1988م
- 16 - الكشف للزخشري دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط أولى عام 1977م.
 - 17 - كنز الرغائب. أحمد فارس الشدياق. مطبعة الجوائب.
 - 18 - المزهرة. السيوطي تحقيق جاد المولى.
 - 19 - معاني القرآن للقراء.
 - 20 - مغني اللبيب لابن هشام.
 - 21 - مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام هارون.
 - 22 - المقتضب للمبرد. تحقيق عبد الخالق عزيمة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1399 هـ.
 - 23 - معجم الهوامع للسيوطي، وقاموس المحيط 1952م وتاج العروس.
 - 24 - وأساس البلاغة، للزخشري وفي أصول النحو لسعيد الأفغاني 1963م ومجمع اللغة لابن فارس 1984م، ومعجم مقاييس اللغة، ولسان العرب بيروت.
 - 25 - مجلة الأزهر - مجلد 15 - ج 8 سنة 1363 هـ.
 - 26 - مجلة المجمع اللغوي مجلد 57 عام 1982م.
 - 27 - الشرق الأوسط بتاريخ 20/ 4/ 1987م (جريدة).

الفَصِيحُ وَشَرْحُهُ

الدكتور عبد الكريم عوفي
جامعة باتنة - الجزائر

توطئة :

لقد شرف الله سبحانه وتعالى اللغة العربية وأهلها عندما أنزل بها كتابه الكريم، ليكون هادياً لهم في أمور دينهم ودنياهم. وما أن أخذت الدعوة الإسلامية في الانتشار في أصقاع العالم حتى أخذت اللغة العربية تخرج من محيط شبه الجزيرة العربية، فأقبلت عليها أقوام ليس لهم عهد بها. بهدف تعلم القرآن الكريم ومبادئ الإسلام.

وكان من نتائج اختلاط العرب بالأعاجم وتأثر اللغات بعضها ببعض ظهور انحرافات في اللغة العربية في مستوياتها المختلفة. وتفشي اللحن في ألسنة الناس، وهو أمر طبيعي فرضته الظروف الجديدة التي أحاطت باللغة العربية في موطنها الأصلي أو في مواطنها الجديدة.

ولما خيف على النص القرآني أن يمتد إليه خطر هذا اللحن انتبهت

جماعة من اللغويين إلى هذا الوضع الجديد الذي عرفته العربية الفصحى فراحت ترصد ما طرأ على اللغة العربية من انحرافات لصون اللسان من الزلل وألفت كتباً في الظاهرة الجديدة عرفت تارة باسم كتب اللحن، وتارة أخرى باسم كتب التصحيح، هدفها تضويب اللغة مما لحق بها من شوائب وخروج عن القاعدة الصحيحة.

وكان من أوائل المتصدين لهذه الظاهرة اللغوية الجديدة أبو العباس ثعلب (ت 291 هـ) رأس المدرسة الكوفية في عصره الذي ألف كتابه الشهير باسم «الفصح» فدفع بين الناس مع صغر حجمه، وأثار حركة لغوية واسعة - كما سنرى - تجسدت بإقبال العلماء والمتعلمين عليه: العلماء يشرحونه وينتقدونه ويتصرفون له، والمتعلمون يحفظونه لأنه أوجز كتاب تعليمي في ميدانه.

ولم تقتصر شهرة الفصح على المشرق العربي فقط، بل امتدت إلى بلاد المغرب والأندلس، حيث لقي فيها ما لقيه في موطنه الأصلي فأقبل عليه علماء المنطقة يشرحونه ويبيّنون غوامضه ونواقصه لاستكمال فائده التعليمية كما هي الحال في المشرق العربي.

وقد ساعد على ذلك وجود حركة علمية نشيطة في المشرق والمغرب تنامت وازدهرت بتقدم السنين وما صاحب ذلك من حركة في الرحلات العلمية التي كان يقوم بها العلماء، وطلاب العلم بين المشرق والمغرب.

وكذا تشجيع الأمراء والولاة نشر العلم. وإنشاء المراكز العلمية واستقدام العلماء من مختلف الأنحاء.

إن الباحث المدقق عندما يقف على التراث العلمي الذي خلفه أجدادنا في المشرق والغرب الإسلامي فإنه يجد حقائق مذهلة إذ أن وقفة على ما تحتفظ به الخزانة الحسينية والخزانة العامة بالرباط، وخزانة الأوسكوريال بمدريد ومعهد المخطوطات العربية ودار الكتب المصرية، وغير ذلك من الدور العلمية والخزانات في العالم الإسلامي والغربي من كنوز المعرفة

الإنسانية، تعطينا صورة حية عما بلغه «لاء العلماء من درجة في الرقي الفكري والعلمي».

ومن هذا المنطلق أردت الوقوف عند كتاب من كتب التصويب اللغوي وما أثاره من حركة لغوية واسعة، ليقف القارئ على طبيعة التفكير اللغوي عند علمائنا القدامى وذلك من خلال الشروح الكثيرة والمتنوعة التي ألقت حول واحد من كتب التصويب اللغوي عسى الله أن يقيض رجلاً مخلصين للعلم يعملون على الكشف على الشروح التي سنذكرها ويساعدون على تحقيقها ونشرها لتستفيد منها الأجيال اللاحقة ويتعرفوا على الحركة اللغوية التي قام بها أجدادنا.

وقبل أن أذكر هذه الشروح يحسن بنا التوقف عند الكتاب الأصلي «الفصيح» لتتعرّف على صاحبه وموضوعه ومنهجه وموقف العلماء منه وشهرته بين الناس.

أولاً: ثعلب والفصيح:

1 - ثعلب (200 - 291 هـ): هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن يسار الشيباني المعروف بـ «ثعلب»⁽¹⁾، رأس المدرسة الكوفية في أيامه وأحد أئمة النحو واللغة.

أخذ العلم عن علماء كثيرين⁽²⁾ كأبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي (ت 231 هـ)، وأبي الحسن علي المغيرة ابن الأثرم (ت 232 هـ) وأبي عبد الله الطوال (ت 243 هـ) وأبي عبد الله الزبير بن بكار (ت 256 هـ) وأبي محمد سلمة بن عاصم (ت 270 هـ).

أما تلاميذه فكثيرون أيضاً، أشهرهم: أبو إسحاق الزجاج (ت 311 هـ)

(1) تنظر ترجمته في: مروج الذهب 4/ 284، وطبقات الزبيدي 141، والفهرست 80، وتاريخ العلماء النحويين 181، وفيات الأعيان 1/ 103، والبلغة 34، وطبقات ابن الجوزي 1/ 181، وبنية الوعاة 1/ 396. ومقدمة محقق المجالس، مقدمة محقق قواعد الشعر.

(2) عن شيوخه وتلاميذه تنظر: مقدمة الدكتور صبيح لكتاب «الفصيح» 9 - 16.

وإبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه (ت 323 هـ) وأبو موسى سليمان ابن محمد، المعروف بالحامض (ت 305 هـ)، وأبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري (ت 328 هـ)، وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه (ت 347 هـ).

وقد ترك لنا مكتبة غنية ومتنوعة، إذ ألف في علوم العربية كالنحو واللغة، والقراءات القرآنية، والشعر⁽³⁾ ووصلنا من تراثه: المجالس، وقواعد الشعر، والفصيح، وشرح ديوان الأعشى الكبير وديوان زهير بن أبي سلمى، وديوان ابن الدمينه، وديوان عدي بن زيد الرقاق العاملي. وهذه الكتب كلها مطبوعة.

2 - كتاب الفصيح⁽⁴⁾:

يعد كتاب «الفصيح» أحد كتب التصويب اللغوي التي ظهرت في وقت مبكر. وهو أشهر كتب ثعلب، لكثرة تداوله بين العلماء والمتعلمين، في مختلف الأعصر.

يحتوي الكتاب على مقدمة وثلاثين باباً وخاتمة، تحدث في المقدمة عن موضوع الكتاب وأسس اختياره الكلام الفصيح فقال: «هذا كتاب اختيار فصيح الكلام مما يجري في كلام الناس وكتبهم فمنه ما فيه لغة واحدة والناس على خلافها فأخبرنا بصواب ذلك، ومنه ما فيه لغتان وثلاث وأكثر من ذلك فاخترت أفصحهن ومنه ما فيه لغتان كثرتا واستعملتا فلم تكن إحداهما أكثر من الأخرى فأخبرنا بها⁽⁵⁾.

أما خاتمة الكتاب فهي قصيرة وتكملة لما ذكره في المقدمة إذ بيّن فيها منهجه في تناول المادة اللغوية فقال: «هذا كتاب ألفناه واختصرناه على نحو ما ألف الناس ونسبوه إلى ما تلحن فيه العامة، ولم نكشره بالتوسعة واللغات

(3) الفهرست 81.

(4) ساجل على طبعه الجزائر من الكتاب بتحقيق الدكتور صبيح التميمي.

(5) الفصيح 45.

وغريب الكلام»⁽⁶⁾.

ومن مقدمة الكتاب وخاتمته يتجلى الغرض الذي هدف إليه ثعلب، والطريقة التي رآها مناسبة لتحقيقه فالغرض من الكتاب هو تصويب الخطأ الذي تفشى في ألسنة الناس من العامة والخاصة ويتحقق ذلك باختيار الفصيح من كلام العرب.

وقد نص ثعلب في كلامه أن الكلام فيه لغات لكنها متفاوتة من حيث الفصاحة. وأنه ألف الكتاب على نهج الذين ألفوا في لحن العامة من متقدميه أو معاصريه كما أنه تجنب الإكثار من اللغات والغريب أن ذلك لا يحقق له الفائدة التعليمية التي يرمي إليها.

أما المادة اللغوية التي اختارها وشكلت محتوى الكتاب فهي متنوعة من حيث الأبنية والاشتقاق، وقد وزعها على ثلاثين باباً، يمكن تقسيمها إلى المجموعات المتجانسة الآتية:

أولاً: أبواب أبنية الأفعال، وهي:

- 1 - باب فعلت بفتح العين.
- 2 - باب فعلت بكسر العين.
- 3 - باب فعلت بغير ألف؟
- 4 - باب فُعل بضم الفاء.
- 5 - باب فعلت وفعلت باختلاف المعنى؟
- 6 - باب فعلت وأفعلت باختلاف المعنى.
- 7 - باب أفعل.
- 8 - باب ما يقال بحرف الخفض.
- 9 - باب ما يهمز من الفعل.

(6) الفصيح 182.

ثانياً: 10 - باب من المصادر⁽⁷⁾.

ثالثاً: أبواب أبنية الأسماء:

- 11 - باب ما جاء وصفاً من المصادر.
 - 12 - باب المفتوح أوله من الأسماء.
 - 13 - باب المكسور أوله من الأسماء.
 - 14 - باب المكسور أوله والمفتوح باختلاف المعنى.
 - 15 - باب المضموم أوله.
 - 16 - باب المضموم أوله والمفتوح باختلاف المعنى.
 - 17 - باب المكسور أوله والمضمون باختلاف المعنى.
 - 18 - باب ما يخفف وما يثقل باختلاف المعنى.
 - 19 - باب المشدد.
 - 20 - باب المخفف.
 - 21 - باب المهموز.
 - 22 - باب ما يقال للأثنى بغير هاء.
 - 23 - باب ما أدخلت فيه الهاء من وصف المذكر.
 - 24 - باب ما يقال للمذكر والمؤنث بالهاء.
 - 25 - باب ما الهاء فيه أصلية.
 - 26 - باب آخر منه.
- رابعاً: أبواب أخرى:

- وهي تضم أبنية من القسم الأول والثاني والثالث، باستثناء الباب الأخير وهو: (باب من الفرق) لأنه يندرج تحت أبواب الأسماء. وهذه الأبواب هي:
- 27 - باب ما جرى مثلاً أو كالمثل.
 - 28 - باب ما يقال بلغتين.
 - 29 - باب حروف منفردة.
 - 30 - باب من الفرق.

(7) فصلت باب المصادر عن أبنية الأسماء لأن بعض القدماء صنفوا المصادر مع الأفعال.

هذه هي الأبواب التي وزع عليها ثعلب مادة «الفصح» وقد عرض في القسم الأول أبنية الأفعال الثلاثية والرابعة وما يعتورها من تغير في بنيتها حركة كانت أم حرفاً في أثناء الاستعمال.

ومن منهج ثعلب أنه لا يذكر ما تخطئ فيه العامة، كما هو الحال عند العلماء الذين ألفوا في التصويب اللغوي، ويندر أن يذكر أقوال العامة وأحياناً يعقب على العبارة التي ذكرها بقوله (ولا تقل كذا).

وعلى هذا النهج سار في القسم الخاص بأبنية الأسماء فذكر التي أتى أولها مفتوحاً أو مضموماً أو مكسوراً والتي تشترك فيها حركتان أو ثلاثة في حرف واحد، مع مراعاة ما ينشأ عن تغير الحركة من حروف دلالية بين الألفاظ.

وفي القسم الرابع عرض طائفة من الأساليب والعبارات التي جرت على السنة الناس مثلاً أو ما جرى مجراها، وألفاظاً أخرى جاءت بلغتين متساويتين أو اعترتها حالات صوتية كالإبدال والقلب. وتناول في الباب التاسع والعشرين مجموعة من الألفاظ والأساليب تشترك بين الأفعال والأسماء، ويبدو أن أبا العباس ثعلب لم يرد إدخال الأبواب (27، 28، 29) ضمن قسم معين، لعدم انتظامها تحت باب واحد.

أما الباب الأخير (باب الفرق) فقد أدرج فيه مجموعة من الأسماء التي تستعمل في الإنسان وما يقابلها في الحيوان، وما يستعمل منها على سبيل الاستعارة، وهو من الموضوعات التي لقيت عناية كبيرة من قبل اللغويين فألفوا فيها كتباً مستقلة تحت اسم (الفرق). وأشهر ما وصلنا منها الفرق لنفطويه والأصمعي، وثابت وابن فارس⁽⁸⁾.

وقد اتسم منهج ثعلب في باب (الفرق) بذكر ألفاظ الشفة والأنف والظفر والثدي، والغلظة والموت، وغلاف البيضة والقضيب والغائط.

ومما هو جدير بالتنبيه إليه في هذا المقام هو أن ابن فارس قد جعل من

(8) الكتب التي ذكر أصحابها في اللحن عقيقة ومطبوعة.

ألفاظ ثعلب الخاصة بالفرق أساساً لكتابه (الفرق)⁽⁹⁾.

أما ترتيب المادة اللغوية داخل أبواب «الفصيح» فإن أبا عباس ثعلب لم يرع فيها أي ترتيب معين، كما هو الحال عند أصحاب كتب اللحن والتصويب اللغوي والمعجميين الذين رتبوا مصنفاتهم بحسب الموضوعات أو المواد اللغوية المقصودة بالدراسة فثعلب عرض مادة كتابه عرضاً اعتباطياً وحسب ما تستدعيه الذاكرة. ولذلك يجد القارئ في «الفصيح» بعض التداخل بين مواده وإن كان ذلك لم يؤثر على المنهج العام الذي سار عليه.

وشاهد ثعلب في «الفصيح» قليلة بالقياس إلى بعض الكتب المماثلة كـ «إصلاح المنطق» لابن السكيت، و «أدب الكاتب» لابن قتيبة، فالشاهد القرآني عنده لم يتعد أربع آيات قرآنية والشاهد من الحديث النبوي الشريف لم يتجاوز خمسة أحاديث، أما الشعر فقد بلغت شواهد منه نيفاً وأربعين بيتاً. كما أن أبا العباس ثعلب قد جرد كتابه من ذكر أسماء شيوخه والرواة الذين أخذ عنهم ولم يذكرهم إلا نادراً.

وفي اعتقادنا أن هذه القلة من الشواهد وعدم ذكر أسماء العلماء والرواة مسألة لا تقلل من قيمة الكتاب وصاحبه لأنه كتاب تعليمي ومنهجه يقتضي عدم التوسعة فيه كما ذكر في خاتمته.

هذه لمحة وجيزة عن «كتاب الفصيح» وهو في الحقيقة ميدان لبحوث عدة وقبل أن أنهى الحديث عن مادته ومنهجه أشير إلى أن للكتاب نسخاً خطية كثيرة مودعة في مكتبات وخزانات العالم الإسلامي والغربي⁽¹⁰⁾. وإن أول طبعة ظهرت للفصيح هي طبعة المستشرق الألماني (يارث) وقد نشرت في ليبزك سنة 1876 م مع شرح وملاحظات باللغة الألمانية وهي من الطباعات النادرة⁽¹¹⁾.

(9) الفرق لابن فارس 51.

(10) في الجزائر نسخة خطية من «الفصيح» تحتفظ بها زاوية الشيخ الحسين ببلدية سيدي خليفة بولاية مليلة كتبت سنة 583 هـ بخط مشرقي جميل.

(11) لم أستطع الوقوف على هذه الطبعة ينظر: ثعلب ومنهجه في النحو واللغة 91 ومقدمة محقق شرح الفصيح لابن نايقا 53.

كما أنجز الدكتور عاطف مذكور رسالة علمية حول الفصيح «دراسة وتحقيق»، نال بها درجة الماجستير من كلية الآداب في جامعة القاهرة عام 1983 وطبعها في دار المعارف عام 1984 م، لكن هذه الطبعة مشوبة ببعض الأخطاء المطبعية.

أما آخر طبعة للفصيح فهي طبعة الجزائر بتحقيق الدكتور صبيح التميمي، نشرتها دار الشهاب بباتنة في الجزائر عام 1988 م⁽¹²⁾.

3 - إنكار العلماء نسبة الفصيح إلى ثعلب:

انقسم العلماء والرواة إزاء «الفصيح» إلى طائفتين: طائفة تزعم أن «الفصيح» ليس من تأليف ثعلب وإنما هو من تأليف الفراء أو ابن الأعرابي أو ابن السكيت، أو الحسن بن داود الرقي.

وطائفة ثانية لم تسلب ثعلب حقه في تأليف «الفصيح» وإنما حاولت تخطئته والتقليل من شأنه وهذه الطائفة سنذكر بعض مؤلفاتها ضمن شروح الفصيح في القسم الثاني من هذه الدراسة.

أما تحقيق القول في آراء الطائفة الأولى فلإني أوجزها في الفقرات الآتية تجنباً للتطويل على أن أردفها بالانتقادات التي تفندھا، فالكتاب ليس لثعلب وإنما هو:

1 - كتاب «البهي» أو «البهاء» للفراء (ت 207 هـ)، هذا ما قاله ابن خلكان⁽¹³⁾ وتبعه الدكتور أحمد مكي الأنصاري⁽¹⁴⁾، وهذا الرأي مردود لأمر منها:

أ - وجود كتاب «البهي»، ومنه نسخة خطية في إحدى خزائن اسطنبول وقف عليها المحقق الهندي عبد العزيز الميمني عام 1936 م⁽¹⁵⁾.

(12) لم أشر إلى طبعة عبد المنعم خفاجي لأن ما نشره هو التلويح «للهروري وليس الفصيح».

(13) وفیات الأعيان 181/6.

(14) ابن درستويه 140، 141.

(15) ابن درستويه 142.

ب - كتاب «البهي» أحد مصادر اللبلي في «تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح»⁽¹⁶⁾.

ج - ذكر ابن خبير أن شيوخه رووا عن ثعلب كتاب «البهي» وهو «ما تلحن فيه العامة»⁽¹⁷⁾.

د - رواية ابن خلكان مدفوعة أيضاً، لأن أبا العباس ثعلب كان راوية الفراء⁽¹⁸⁾ ومكانته العلمية لا تسمح له بالتطاول على أعمال أستاذه، كما أن المتن اللغوي مشترك بين الناس، فإذا ورد تشابه بين نصي «الفصيح»، و«البهي» فإن ذلك لا يعني سطو ثعلب على الفراء ولا سيما عندما نعلم أن ابن النديم يذكر لنا أن ثعلباً حفظ كتب الفراء كلها⁽¹⁹⁾.

هـ - ونسأل بدورنا مع الدكتور عاطف مذكور لماذا لم يحتضن الناس كتاب «البهي» للفراء كما احتضنوا كتاب «الفصيح»، والفراء كان علماً له قدم راسخة في العلم وثلعب تلميذه⁽²⁰⁾؟.

ومن جهة أخرى يذكر عبد الله الجبوري أنه عقد موازنة بين بعض أعمال الفراء وكتاب «الفصيح» فتبين له أن أساليب القول تختلف في «الفصيح» عما في كتب الفراء⁽²¹⁾.

2 - روى ابن نايقا في «شرح الفصيح» أن كتاب «الفصيح» نسبة قوم إلى ابن الأعرابي (ت 231 هـ) وذكر أن بعضهم رآه بخط الخراز يرويه⁽²²⁾ عنه.

وهذه الرواية دفعها عبد الله الجبوري بعد الموازنة بين مادة «الفصيح» ومنهجه وما ورد في كتابي «البئر والنوادر» لابن الأعرابي، إذ ثبت لديه أنه لا

(16) ينظر على سبيل المثال الصفحات: 6/1، 10، 131، 141.

(17) فهرسة ابن خبير 311، 312.

(18) طبقات الزبيدي 134.

(19) الفهرست 81.

(20) مقدمته للفصيح 46.

(21) ابن درستويه 143.

(22) شرح الفصيح 1 والخراز هو أحمد الحارث بن المبارك (ت 258 هـ).

مجال للمقارنة بين منهج الرجلين، لذا فإن عزو «الفصيح» لابن الأعرابي مردود أيضاً⁽²³⁾.

3 - أورد ابن نايقا في شرحه أيضاً رواية أخرى مفادها أن ثعلباً استعار كتاب «إصلاح المنطق» لابن السكيت فنظر فيه ولما أظهر «الفصيح» قال يعقوب: جدع كتابي جدع الله أنفه⁽²⁴⁾.
وهذا الرأي مردود أيضاً، لأمور أبرزها:

أ - ما رواه المرزباني عن أبي عمر الزاهد (ت 345 هـ)، تلميذ ثعلب من أن ثعلباً قال: «دخلت على يعقوب ابن السكيت وهو يعمل «إصلاح المنطق» فقال: يا أبا العباس رغبت عن كتابي فقلت له: كتابك كبير وأنا عملت «الفصيح» للصبيان⁽²⁵⁾.

وحسب هذه الرواية فإن «الفصيح» ظهر قبل «إصلاح المنطق»، ثم إن ابن السكيت لم يشع في الناس أن أبا العباس ثعلب قد انتحل كتابه ولزم الصمت.

ب - إذا سلمنا بتأخر ظهور «الفصيح» عن «إصلاح المنطق» فإن شيوع المتن اللغوي بين العلماء وحصول التأثير والتأثر بين المتقدم والمتأخر ليس مدعاة للقول إن «الفصيح» هو «إصلاح المنطق».

ج - إن الناظر في الكتابين يجد اختلافاً واضحاً بينهما من حيث مادتهما وأبوابهما ومنهجهما وشواهدهما وكيفية تناول ظاهرة اللحن التي نفشت في ألسنة الناس، وكذلك المقياس الصوابي الذي أخذ به المؤلفان ومع ذلك لا نستبعد حصول التأثير والتأثر بين الكتابين.

4 - أورد ياقوت الحموي رواية تقول: إن «الفصيح» من تأليف الحسن بن داود الرقي (ت؟) واسم الكتاب في الأصل «الحلي»⁽²⁶⁾، وهذه الرواية

(23) ابن درستويه 145.

(24) شرح الفصيح 1، 2، وينظر: الزهر 1/207، وكشف الظنون 2/284.

(25) معجم الأدباء 2/284.

(26) معجم الأدباء 8/108، 109.

ذكرها أيضاً حاجي خليفة⁽²⁷⁾.

وهذه الرواية مردودة أيضاً، لأن الحسن بن داود لم يذكر له شأن بين العلماء بشأن كتابه «الحلي» قياساً بكتاب «الفصيح» لثعلب⁽²⁸⁾.

تلك هي خلاصة آراء العلماء والروايات التي وردت بشأن نفي نسبة «الفصيح» لثعلب، وردود العلماء المحدثين⁽²⁹⁾ عليها، وليس لنا جديد نضيفه إلى ما قاله الذين تناولوا المسألة بالتحليل والنقد إلا التأكيد على أن المكانة العلمية التي اشتهر بها ثعلب لا يمكن أن تسمح له بالسطو على أعمال زملائه وانتحال مجموعة من الكتب وإخراجها في كتيب كـ «الفصيح» كما أن الشهرة التي نالها الكتاب عبر العصور المختلفة، والحركة اللغوية التي أعقبته كما سرى - كلها حجج تؤكد صحة نسبته إلى ثعلب.

4 - شهرة الفصيح والعناية به :

ذكرنا أن كتاب «الفصيح» كتاب تعليمي متميز بمادته ومنهجه ومن أوائل كتب التصويب اللغوي التي تصدرت لمجاربة اللحن والفساد اللغوي. وقد أشرنا أيضاً إلى أنه أثار حركة لغوية واسعة لم يثرها كتاب قبل ظهوره سوى كتاب سيبويه امتدت حتى منتصف القرن الماضي. وشهر الكتاب في الناس فذاع خبره وتهافت عليه العلماء والمتعلمون، ولعل هذه الشهرة مستمدة من شخصية صاحبه الذي انتهى إليه علم الكوفيين.

وهذه آراء⁽³⁰⁾ بعض العلماء تعكس حقيقة ذبوع الكتاب وشهرته بين الناس عامتهم وخاصتهم :

(27) كشف الظنون 2/ 1273.

(28) ينظر: ابن درستويه 141، 142، ومقدمة د. مذكور للفصيح 56، 57.

(29) في مسألة تحقيق نسبة الفصيح إلى ثعلب عند علمائنا المحدثين ينظر: ثعلب ومنهجه في النحو واللغة 191، وابن درستويه 139 ومقدمة محقق شرح الفصيح لابن ناقي 49 ومقدمة د. مذكور للفصيح 42. (وللأمانة العلمية فقد أفدت من هذه الدراسات، لكنني لم أكتف بما جاء فيها بل عدت إلى المظان التي تناولت المسألة وأعدت قراءتها من جديد حتى أطمئن إلى سلامة ما قيل فيها).

(30) عرضت آراء العلماء حسب التسلسل الزمني لتاريخ وفياتهم.

- 1 - الكتاب حفظه أبو إسحاق الزجاج (ت 311 هـ) وأخذ فيه أبا العباس ثعلب في عشر مسائل، وخطأه⁽³¹⁾ فيها. وقد أورد ابن هشام اللخمي (ت 577 هـ) في شرحه على الفصيح جملة من هذه القضايا.
- 2 - انتفاع الأخفش الصغير (315 هـ) به وجعله مرجعه الأساسي، فقد قال: «أقمت أربعين سنة أغلظ العلماء، من كتاب الفصيح»⁽³²⁾.
- 3 - قول الهروي (ت 433 هـ) في مقدمة كتابه «التلويح»: «إِنَّه لما كان جمهور الناس الذين يؤدبون أولادهم ومن يعنون بأمرهم يحفظونهم «كتاب الفصيح» قبل غيره من كتب اللغة، لما فيه من الألفاظ السهلة المستعملة، ولأن العامة تخطيء في كثير منها»⁽³³⁾.
- 4 - قول ابن هشام اللخمي في «شرح الفصيح»: «وإن صغر جرمه وقل حجمه ففائدته كبيرة عظيمة ومنفعته عند أهل العلم خطيرة جسيمة»⁽³⁴⁾.
- 5 - تكسب أبي محمد يحيى بن محمد الأزري (ت 415 هـ) من الكتاب إذ روي أنه كان يخرج وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب نسختين من «الفصيح» فيبيع النسخة بنصف دينار ويشتري نيئاً ولحمًا وفاكهة»⁽³⁵⁾.
- 6 - تسمية أبي الحسن علي بن محمد (ت 516 هـ) بالفصحي نسبة إلى «الفصيح»، لأنه كان يكثر من حفظه وتدارسه، ويكثر من قراءته على تلاميذه⁽³⁶⁾.
- 7 - إهداء أحمد بن كليب النحوي الأندلسي (ت 426 هـ) «الفصيح» إلى

(31) نشرها الدكتور صبيح التميمي بعنوان «الرد على الزجاج في مسائل أخذها على ثعلب».

(32) شرح الفصيح لابن هشام اللخمي 3، وموطئة الفصيح الورقة 16 نقلاً عن مقدمة محقق شرح الفصيح لابن نايقا 52.

(33) التلويح 2.

(34) شرح الفصيح 3.

(35) معجم الأدباء 20/ 34، 53.

(36) معجم الأدباء 67/ 15، 68، والعربية ليوهان فك 219.

صاحبه اللغوي أسلم بن محمد بن سعيد الأندلسي بعدما كتب عليه :

هذا كتاب الفصيح بكل لفظ ملبح
وهبته لك طوعاً كما وهبتك روعي⁽³⁷⁾

8 - وقال عنه المستشرق (يوهان فك): «يحتوي في ترتيب واضح وأسلوب مختصر على طائفة كبيرة من قوالب اللغة الفصحى، التي كانت تهدد إذ ذاك قوالب أقل فصاحة»⁽³⁸⁾.

هذه بعض مواقف وآراء العلماء من «الفصيح» وصاحبه إذا أضفناها إلى المؤلفات التي أقيمت حوله وما تضمنته من الآراء أدركنا قيمة «الفصيح» ومكانته بين كتب التصويب اللغوي على مر الأعصر.

ثانياً: شروح الفصيح:

شرح الكتب في التراث العربي ظاهرة معروفة منذ القديم ومتميزة في التأليف العربي، إذ كلما ظهر كتاب جديد وأدرك العلماء فائدته أسرعوا إلى شرحه وتفسير غوامضه، والإبانة عن منهجه، حتى تعم فائدته الجميع لتشمل المتعلم والعالم المتخصص.

ومن الكتب التي نالت إعجاب العلماء كتاب «الفصيح» لأبي العباس ثعلب الذي تبارى جمع من العلماء على شرحه ونقده وترتيبه ونظمه والاستدراك عليه.

ولأهمية هذه الحركة اللغوية التي أعقبت ظهور «الفصيح»، قمت بمحاولة رصد معالمها عندما شرعت في تحقيق ودراسة «شرح الفصيح» لابن هشام اللخمي، وهو العمل الذي تقدمت به لجامعة الجزائر لنيل درجة دكتوراه الدولة في فبراير 1993 م⁽³⁹⁾ وقد كانت أسس هذه الحركة التي أثارها «الفصيح» متنوعة وغنية من حيث مادتها ورجالاتها ولذلك رأيت أن جمع عناصر هذه

(37) معجم الأدباء 116/4 وشرح الفصيح لابن هشام اللخمي 6.

(38) العربية 149.

(39) منح صاحب البحث درجة دكتوراه دولة في اللغة العربية بتقدير [مشرف جداً مع غنينة لجنة المناقشة].

الحركة من أؤكد الأمور التي ينبغي القيام بها، لأنها تجسد مسيرة الدرس اللغوي في أحد جوانبه الهامة وهو التصويب اللغوي وكيف تطورت وسائله عبر العصور المختلفة من خلال متن الفصح.

وهذا ما سأتوقف عنده في هذه المقالة مع الإشارة إلى المطبوع والمخطوط من الكتب التي ألقت حول الفصح، كما أنني سأنبه إلى أماكن وجود الأصول الخطية لما لم يطبع منها إن وجدت، وذلك تعميماً للفائدة وتسهيلاً لمهمة الباحثين الذين يرغبون في تتبع الحركة العلمية التي أثارها «الفصح»⁽⁴⁰⁾.

وسأذكر هذه الكتب في مجموعات مستقلة بحسب موضوعاتها والأهداف من تأليفها وذلك في ست مجموعات هي: الشروح، والاستدراكات والمنظومات والترتيب والتهذيب، والنقد، والانتصار له، مع مراعاة الترتيب الزمني داخل كل مجموعة.

وفيما يلي بيان المجموعات المذكورة:

أولاً: الشروح:

اهتمت جماعة من العلماء منذ أن ظهر «الفصح» بشرح ألفاظه وتعابيره بهدف توضيح ما غمض منها وما يشكل على القارئ، فكانت حصيلة هذا النشاط العلمي زهاء أربعين شرحاً حول الفصح وهذه صورة عامة للشروح التي وصلتنا أخبار عنها:

(40) اعترافاً بفضل أهل العلم واحتراماً للأمانة العلمية أذكر أنني أفدت من الدراسات الحديثة التي سبقَت هذه الدراسة، ومنها: ابن درستويه، وثلعب ومنهجه في النحو واللغة، ومقدمة محقق شرح الفصح لابن نايقا ومقدمة الدكتور صبيح للفصح، ومقدمة الدكتور مذكور للفصح، ومقدمة محقق مجالس ثلعب، وأبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي.

كما أنني لم اكتف بما جاء في هذه الدراسات بل رجعت إلى كتب التراجم والطبقات وأمعنت النظر فيها - حسب ما توفر منها لدي - فكانت خلاصة قراءاتي لها هذا العدد الذي أوردته تحت المجموعات المذكورة أعلاه وأتوقع أن تكشف الدراسات والبحوث في المستقبل عن أعمال أخرى من هذه الآثار التي لم تصل إلينا، ولا شك أن الوقوف على هذه الآثار يساعد على إثراء الدرس اللغوي، ويكشف عن جهود أسلافنا في خدمة اللغة العربية.

١ - الشروح المطبوعة، وهي:

1 - تصحيح الفصيح (شرح الفصيح): لأبي عبد الله محمد جعفر بن درستويه (ت 347 هـ)، وقد حققه عبد الله الجبوري، ونشر الجزء الأول منه في بغداد عام 1975 م، وأخبرني⁽⁴¹⁾ أنه سيعيد طبعه.

2 - شرح الفصيح: لأبي منصور محمد بن علي بن عمر الجبان (توفي بعد 416 هـ). وقد حققه عبد الجبار جعفر القزاز، ونشره في بغداد عام 1991 م.

3 - التلويح في شرح الفصيح: لأبي سهل محمد بن علي بن محمد الهروي (ت 433 هـ) وهذا الكتاب أول شروح الفصيح التي تحظى بالطبع، إذ طبع أربع مرات آخرها طبعة عبد المنعم خفاجي ضمن مجموع يحمل اسم فصيح ثعلب والشروح التي عليه عام 1949 م.

وأخبرني الدكتور رمضان عبد التواب أن طالبة بآداب عين شمس تعمل على تحقيق «التلويح» ودراسة بإشرافه⁽⁴²⁾.
وللهروي ثلاثة شروح⁽⁴³⁾ على «الفصيح»، كما ذكر في مقدمته «التلويح»، هي:

«تهذيب كتاب الفصيح» و«أسفار الفصيح» و«التلويح في شرح الفصيح».

4 - شرح الفصيح: لابن هشام اللخمي (ت 577 هـ) وقد حققه الدكتور مهدي عبيد جاسم على نسختين. ونشره في بغداد عام 1989 م، وهي الفترة التي كنت أعمل فيها على تحقيقه ودرسته على خمس نسخ خطية، وقد تبين بعد إجراء موازنة بين التحقيقين أن طبعة العراق فيها نقص وأوهام في

(41) مقابلة في مكتبه بجامعة بغداد، فبراير 1989 م.

(42) مقابلة في منزله بالمنيل يوم 9/10/1991 م.

(43) التلويح 1، وينظر: تاريخ بروكلمان 2/211، والأعلام 6/275، وابن درستويه 148، 149، ومقدمة محقق شرح ابن نايقا 57، ومقدمة د. مذكور للفصيح 170 - 172.

النصحيف وللتحريف وأعد الفارء الكرم أنى سأنشر الاستدراكات التى سجلتها على الطبعة المذكورة فى فرصة قريبة إن شاء الله .

ب - الشروح المخطوطة :

وهذه الشروح نوعان : المحققة ، وغير المحققة .

1 - الشروح المحققة وهى :

أ - شرح الفصيح : لعبد الله بن محمد بن ناقيا البغدادى (ت 485 هـ) وقد حققه عبد الوهاب محمد العدوانى ونال به درجة الماجستير من كلية الآداب فى جامعة القاهرة عام 1973 م .

ب - جهد النصيح وحظ المنيح : من مساجلة أبى العلاء المعري فى خطبة الفصيح : لأبى الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى (ت 634 هـ) ، وقد حققته الدكتورة ثريا لهى ، ونالت به درجة الدكتوراه من كلية الآداب فى جامعة محمد الخامس بالرباط عام 1991 م .

2 - الشروح المخطوطة غير المحققة وهى :

أ - شرح الفصيح : للحسن بن أحمد بن خالويه (ت 370 هـ) وقد ورد ذكره فى :

فهرسة ابن خير 342.

وتحفة المجد الصريح فى شرح كتاب الفصيح 6/1.

والمزهر 201/1 ومنه نقول كثيره⁽⁴⁴⁾ فيه .

وكشف الظنون 2/1272.

ومن هذا الشرح نسخة مصورة فى مكتبة الدكتور حاتم صالح الضامن فى العراق⁽⁴⁵⁾ .

(44) ينظر على سبيل المثال : 1/213 ، 225 ، 232 ، 303 ، 371 ، 2/62 ، 93 ، 158 ، 243 ، 427 ، 475 ، 504 .

(45) هذا ما ذكره الدكتور مهدي عبيد جاسم ضمن مصادره لتحقيق شرح الفصيح لابن هشام اللخمي 305.

ب - شرح الفصيح: لأبي هلال العسكري الحسن بن عبد الله (ت 395 هـ) ذكره أبو هلال نفسه في كتابه «جمهرة الأمثال» عندما شرح المثل (نسيج وحده) وقال: وقد استقصيت ذلك في شرح الفصيح⁽⁴⁶⁾.

ومن هذا الشرح نسخة في مكتبة علي كاظم مشري، في العراق⁽⁴⁷⁾.

ج - شرح الفصيح: لأحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت 421 هـ)، وقد ورد ذكره في:

معجم الأدباء 35/5.

وبغية الوعاة 1/365.

والمزهر 1/201، ومنه نقول كثيره⁽⁴⁸⁾ فيه.

وكشف الظنون 2/1273.

وخزانة الأدب 1/25، 339.

وتاريخ بروكلمان 2/211.

وقد وصلتنا من هذا الشرح نسخة⁽⁴⁹⁾ واحدة، تحتفظ بها مكتبة (كوبرلي) برقم: 1323، ومنها صورة في معهد المخطوطات العربية في القاهرة برقم: 154 وأخرى في دار الكتب المصرية بالرقم نفسه.

وهذه النسخة اطلعت عليها في دار الكتب ووجدت بعض أوراقها مطموسة.

د - شرح الفصيح: لأبي القاسم عبد الله بن عبد الرحيم بن ثعلب الأصبهاني (ت 432 هـ)، ورد ذكره في: كشف الظنون 2/1273.

(46) جمهرة الأمثال 2/304 نقلاً عن مقدمة د. مذكور للفصيح 159.

(47) هذا ما ذكره الدكتور مهدي عبيد جاسم ضمن مصادره لتحقيق شرح الفصيح لابن هشام اللخمي 305.

(48) ينظر على سبيل المثال: 1/179، 306، 2/50، 65، 68، 80، 93، 103، 292.

(49) تاريخ بروكلمان 2/211 وفهرس المخطوطات المصورة 1/358، ومقدمة العدواني لشرح الفصيح لابن نايقا 54.

وتاريخ بروكلمان 2/212.

وابن درسته 51.

ومن هذا الشرح نسخة في رامبور برقم: (1/510، رقم: 38)، ونسخة ثانية في خزانة الشيخ الميمني.

هـ - أسفار الفصيح: للهروي (ت 433 هـ) وقد ورد ذكره في:

التلويح 1:

وبغية الوعاة 1/195.

وكشف الظنون 2/1273.

وخزانة الأدب 1/25.

ومعجم المؤلفين 11/16.

والأعلام 6/275.

ووصلتنا من هذا الكتاب ثلاث نسخ خطية، الأولى بخط مؤلفه وتوجد في خزانة الأستاذ عبد القدوس الأنصاري بمكة المكرمة، والثانية في مكتبة شهيد علي في تركيا برقم: 2592 أما الثالثة فتحفظ بها مكتبة طلعت في دار الكتب المصرية، برقم 381⁽⁵⁰⁾ لغة.

و - المنيع في شرح كتاب الفصيح: لعلي بن أحمد الواحدي (ت 468 هـ)، وقد ورد ذكره في كتابه «الوسيط في الأمثال» في مواضع كثيرة⁽⁵¹⁾ منها:

أ - «إذا عزَّ أخوك فهن قال الواحدي: وقد ذكرت معنى ذلك بوجهه في كتابي المترجم (المنيع في شرح كتاب: الفصيح) فلا نطل هذا المختصر بذكره، فالحق الموفق».

(50) ينظر: الأعلام 6/275، وابن درسته 148، 149، ومقدمة المدون لشرح ابن نايبا 57، ومقدمة د. مذكور للفصيح 170 - 172.

(51) الوسيط في الأمثال، خطوط بقسم الوثائق في الخزانة العامة بالرياض رقم 102 ق، وقد أفادتني بالنصوص المنقولة منه الأستاذة ثريا لهى في رسالة مؤرخة يوم 12/12/1990، وهي مشكورة على هذا الصنيع العلمي.

- ب - وورد ذكره أيضاً في الصفحات: 35، 97، 128، 250.
- وللتذكير فإن كتاب «الوسيط في الأمثال» نشر بتحقيق الدكتور عفيف عبد الرحمن في الكويت عام 1975م.
- ز - شرح غريب الفصيح: لأبي العباس أحمد بن عبد الله الدميري (ت 555 هـ)، وقد ورد ذكره في: تحفة المجد الصريح 6/1، وفي مواضع أخرى.
- والبلغة 21.
- وبغية الوعاة 221/1.
- وكشف الظنون 2/1273.
- وتاريخ بروكلمان 2/211.
- والأعلام 1/143.
- ومن هذا الشرح نسخة في نور عثمان باستنبول برقم 3992، ومنها مصورة في مكتبة الأستاذة ثريا لهي في المغرب، وقد أخبرتني⁽⁵²⁾ أن لهذا الشرح نسخة أخرى بعنوان «المختصر من التعليق على فصيح ثعلب»، تحتفظ بها خزانة ابن يوسف في مراكش، ضمن مجموع يحمل رقم 593.
- ح - تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح: لأبي جعفر أحمد بن يوسف بن علي بن يوسف الفهري اللبلي (ت 691 هـ)، وقد ورد ذكره في:
- البلغة 35.
- وبغية الوعاة 1/403.
- وكشف الظنون 2/1273.
- وخزانة الأدب 1/25.
- وتاج العروس (لغب) 1/472.
- وتاريخ بروكلمان 2/212.

(52) في رسالة مؤرخة في يوم 27/10/1990 م.

ومن هذا الكتاب نسخة (الجزء الأول) في دار الكتب المصرية، برقم: (20 لغة)، وفي مكتبتي مصورة منها حصلت عليها هدية من الدكتور حاتم صالح الضامن وقد أفادني الأستاذ الضامن أن أحد الباحثين في السعودية يعمل على تحقيق الكتاب.

ومن جهة أخرى أفادني الأستاذة⁽⁵³⁾ ثريا لهي أن اللبلي له مختصر على «تحفة المجد» اسمه «الباب تحفة المجد»، ولكنها لم تذكر لي المصدر الذي أشار إلى هذا المختصر، ولعل هذا المختصر هو الذي عناه عبد السلام محمد هارون عندما قال: إن للبلي شرحين على الفصيح⁽⁵⁴⁾.

ط - موطئة الفصيح لموطأة الفصيح: لأبي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد بن الشرقي الفاسي (ت 1170 هـ)، وهذا الكتاب شرح على نظم للفصيح سيأتي ذكره، وقد وردت الإشارة إليه في:

تاريخ بروكلمان 2/ 212.

والأعلام 6/ 177.

وقضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي 24، 25.

ومقدمة د. مذكور للفصيح 197، 198.

وقد وصلتنا من هذا الكتاب ست نسخ خطية هي⁽⁵⁵⁾:

1 - نسخة الخزانة الزيدية في الخزانة الحسنية بالرباط برقم: 1563.

2 - نسخة الأستاذ المتوني في الرباط.

3 - ثلاث نسخ في دار الكتب المصرية بأرقام:

أ - رقم: 5010 هـ.

ب - رقم: 179.

(53) في رسالة مؤرخة في يوم 27/10/1990 م.

(54) مقدمة مجالس ثعلب، 1/ 26.

(55) ينظر: قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي 24، 25.

ج - رقم: 15 ش.

6 - نسخة الزركلي صاحب الأعلام، وهي الآن في المملكة العربية السعودية في جامعة الرياض، برقم: 2991. ومنها مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم: 279 لغة.

وللإفادة أشير إلى أن الدكتور عبد العلي الودغيري قد أنجز عملاً علمياً حول ابن الطيب الشرقي نال به درجة الدكتوراه من كلية الآداب في جامعة محمد الخامس بالرباط تناول فيه هذا الشرح بالدراسة والتحليل، وقد نشر قسماً منه في مجلة اللسان العربي العدد 29، عام 1987 ثم نشره كاملاً بعنوان «قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي» في الرباط عام 1989 م.

ي - شرح الفصيح: لمجهول ومنه نسخة في المدينة المنورة، برقم: 507، ومن هذه النسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، برقم: 155 لغة⁽⁵⁶⁾.

ك - شرح مختصر الفصيح: لمجهول، ومنه نسخة في مكتبة المتحف العراقي، برقم: 1002 ضمن مجموعة رسائل في اللغة⁽⁵⁷⁾.

ج - الشروح المفقودة:

وهي كثيرة، وصلتنا أخبار عن المجموعة الآتية:

1 - شرح الفصيح: لأبي عمر الزاهد غلام ثعلب⁽⁵⁸⁾ (ت 345 هـ) وقد ورد ذكره في:

الفهرست 83.

وتحفة المجد الصريح 16/1، وفي مواضع أخرى.

وبغية الوعاة 166/1.

(56) فهرس المخطوطات المصورة 358/1، ومقدمة العدواني لشرح الفصيح لابن نايقا 60، ومقدمة د. مذكور للفصيح 152.

(57) ابن درستويه 164.

(58) لقب بهذا اللقب لطول ملازمته ثعلب.

وكشف الظنون 2/ 1273.

ولأبي عمر الزاهد كتاب آخر استدرك فيه على مواد لغوية في الفصيح
سيأتي ذكره.

2 - شرح الفصيح: لأبي الفتح عثمان بن جني (ت 392 هـ)، وقد ورد
ذكره في:

معجم الأدباء 12/ 163.

وبغية الوعاة 2/ 132.

وكشف الظنون 2/ 1273.

وهدية العارفين 1/ 652.

3 - شرح الفصيح: لأبي القاسم يوسف بن عبد الله الزجاجي (ت 436
هـ) وقد ورد ذكره في: معجم الأدباء 20/ 61.

وبغية الوعاة 2/ 358.

وكشف الظنون 2/ 1272.

4 - شرح الفصيح: لتمام بن غالب بن عمر المرسي، المعروف ابن
التيباني (ت 346 هـ)، وقد ورد ذكره في: تاج العروس (سهج) 2/ 159، 443.

ومجلة لغة العرب «بحث للكرملي»، المجلد الرابع ص 5 - 14 نقلاً عن
ابن درستويه 156، ومقدمة د. مذكور للفصيح 173.

5 - شرح الفصيح: لمكي بن أبي طالب القيسي (ت 437 هـ)، وقد ورد
ذكره في:

تحفة المجد الصريح 1/ 6، وفي مواضع أخرى كثيرة وذكره اللبلي باسم
«مكي» فقط وأغلب الظن أنه مكي بن أبي طالب لأنه كان صاحب تأليف
كثير⁽⁵⁹⁾.

6 - خطبة الفصيح (تفسير خطبة الفصيح): لأبي العلاء المعري (ت 449

(59) مقدمة المدائني لشرح الفصيح لابن نايقا 59.

هـ)، وقد ورد ذكره في:

فهرسة ابن خير 342.

ومعجم الأدباء 168/3.

والأعلام 157/1.

وذكرت الأستاذة ثريا لهي أن المعري ألف شرحين على الفصيح، هما:
«خطبة الفصيح» و «تفسير خطبة الفصيح» والأخير رواه أبو بكر بن العربي عن
التبريزي عن المعري⁽⁶⁰⁾.

7 - شرح الفصيح: لعبد الله محمد بن السيد البطليوسي (ت 521 هـ) وقد
ورد ذكره في:

المزهر 201/1 وفيه نقول كثيرة⁽⁶¹⁾.

وكشف الظنون 1273/2.

8 - شرح الفصيح: لأبي القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد
الزمخشري (ت 538 هـ)، وقد ورد ذكره في:

تحفة المجد الصريح 9/1، 23، ومواضع أخرى.

9 - شرح الفصيح: لأبي حفص عمر بن محمد بن أحمد بن علي
القضاعي البلسني (ت 570 هـ)، وقد ورد ذكره في:

بغية الوعاة 2/223.

وكشف الظنون 1273/2.

ومعجم المؤلفين 307/7.

10 - شرح الفصيح: لأحمد بن علي بن هبة الله بن الحسين بن علي
المشهور بالمأمون وابن الزوال (ت 586 هـ) وقد ورد ذكره في:

(60) ينظر: الليل والتكملة 6/462 نقلاً عن أبي الربيع الكلاعي 138، ورسالة بمشتها إليه بتاريخ 27/1990/10.

(61) ينظر على سبيل المثال: 1/215، 224، 474، 475، 499 و 2/272، 427.

معجم الأدباء 4/ 182.

وبغية الوعاة 1/ 349.

وكشف الظنون 2/ 1273.

11 - شرح الفصيح: لأبي بكر محمد بن عبد الله بن صاف الإشبيلي (ت 586 هـ)، وقد ورد ذكره في:

معرفة القراء الكبار 5. 2/ 555.

والبلغة 221.

وطبقات الجزري 2/ 138.

وبغية الوعاة 1/ 100.

وتاج العروس (مغدام) 2/ 305.

والأعلام 6/ 115.

12 - شرح الفصيح: لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (ت 616 هـ) وقد ورد ذكره في:

نكت الهميان 179.

والبلغة 108.

وبغية الوعاة 2/ 39.

وكشف الظنون 2/ 1273.

13 - شرح الفصيح: لأبي بكر محمد بن طلحة بن محمد بن عبد الملك الإشبيلي (ت 618 هـ) وقد ورد ذكره في:

تحفة المجد الصريح 1/ 6، ومواضع أخرى.

14 - شرح الفصيح: لعلي بن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري (ت 620 هـ) وقد ورد ذكره في:

الذيل والتكملة 5/ 231. ولم يصرح المراكشي بالعنوان المذكور «شرح الفصيح» وإنما ذكر أن له مؤلفاً على فصيح ثعلب.

15 - التبيين والتنقيح لما ورد من الغريب في كتاب الفصيح: لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن أحمد الفهري (ت 651 هـ)، وقد ورد في: المزهري 210/1.

ومعجم المؤلفين 63/1.

وكشف الظنون 1273/2.

16 - شرح الفصيح: لأبي بكر محمد بن إدريس بن مالك القضاعي وقيل إن اسمه هو محمد بن أحمد الأسطنبولي (ت 707 هـ)، وقد ورد ذكره في:

كشف الظنون 1273/2.

ومعجم المؤلفين 34/9.

ومقدمة عبد السلام هارون لمجالس ثعلب 20/1.

وثعلب ومنهجه في النحو واللغة 104.

ومقدمة الدكتور صبيح للفصيح 27.

17 - شرح الفصيح: لأبي علي الحسن بن أحمد الاستربادي (ت 717 هـ)، وقد ورد ذكره في:

معجم الأدباء 5/8.

وبغية الوعاة 494/1.

وكشف الظنون 1273/2.

18 - شرح الفصيح لتاج الدين أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكشوم القيسي (ت 749 هـ)، وقد ورد ذكره في:

بغية الوعاة 327/1.

وكشف الظنون 1273/2.

وشذرات الذهب 159/6.

19 - شرح على نظم ابن المرحل لفصيح ثعلب: لأبي حفص حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج السلمي الفاسي (ت 1332 هـ) وقد ذكره له ابنه

محمد الطالب بن الحاج (ت 1275 هـ) في كناشته المخطوطة، في جملة مؤلفاته، وقال عنه أنه لم يكمل⁽⁶²⁾.

20 - شرح الفصيح: للحضرمي (؟)، وقد ورد ذكره في:

تحفة المجد الصريح 41/1 ومواضع أخرى.

21 - شرح الفصيح: لابن الدهان اللغوي (؟)، وقد ورد ذكره في:

تحفة المجد الصريح: 9/1، ومواضع أخرى.

22 - شرح الفصيح: لأبي بكر بن حيان (؟) وقد ورد ذكره في:

المزهر 201/1.

23 - شرح الفصيح: لأبي علي عبد الكريم بن حسن السكري (؟) وقد

ورد ذكره في:

كشف الظنون 2/1273.

د - الشروح المنسوبة خطأ، وهي:

1 - شرح الفصيح: لأبي عمرو الشيباني (ت 206 هـ) وقد ورد ذكره في:

الفهرست 75.

ويبدو أن ابن النديم التبس عليه الأمر، إذ كيف يمكن لأبي عمرو الشيباني أن يشرح «الفصيح» وتعلب لا يزال صبيّاً وكتابه لم يظهر بعد.

ولذا فإن نسبة هذا الشرح لأبي عمرو الشيباني ليس له ما يبرره، ويمكن تعداده ضمن الشروح⁽⁶³⁾ المنفية.

2 - شرح الفصيح: لأبي العباس المبرد (ت 285 هـ)، وقد ورد ذكره

في: كشف الظنون 2/1272.

وهذه النسبة مشكوك فيها، للمنافرة القوية التي كانت بين ثعلب⁽⁶⁴⁾

(62) قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي 16، 17.

(63) ينظر: مقدمة المدوّاني لشرح ابن نايقا 60، ومقدمة د. مذكور للفصيح 150.

(64) ينظر: ثعلب ومنهجه في النحو واللغة 104.

والمبرد، وكذلك عدم وروده في المصادر القديمة، لأن أخبار الرجلين ذاعت بين الناس وتناقلها العلماء فيما بينهم، ولم ترد فيها إشارة قيام المبرد بشرح كتاب «الفصيح» لثعلب.

ولذلك يمكن إدراج هذا الشرح ضمن الشروح المنفية⁽⁶⁵⁾ أيضاً.

ثانياً: الاستدراك على الفصيح:

لم يقتصر نشاط العلماء حول الفصيح على الشروح التي تقدم ذكرها بل وصلتنا كتب أخرى حاول أصحابها استكمال النقص الذي لاحظوه في الكتاب، ولم يقللوا من قيمة صاحبه، وهذه الكتب حملت عناوين مختلفة لكنها تندرج كلها في موضوع واحد هو الاستدراك على مادة الفصيح، ومن هذه الكتب:

1 - الاستدراكات المطبوعة، وهي:

أ - فائت الفصيح: لأبي عمر الزاهد (ت 345 هـ)، وقد نشره الدكتور محمد عبد القادر في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد التاسع عشر، الجزء الثاني عام 1973 م، وذكر محمد عبد الوهاب العدواني أنه أعد للنشر⁽⁶⁶⁾.

ب - تمام فصيح الكلام: لأبي الحسن أحمد بن فارس (ت 395 هـ)، وقد نُشر هذا الكتاب مرات عدة، نشره المستشرق الإنجليزي (أ، ج آربر) في لندن، عام 1951 م، ثم نشره الدكتور مصطفى جواد، ويوسف يعقوب مسكوني، في بغداد عام 1969 م، ضمن كتاب «رسائل في اللغة»، أعاد نشره الدكتور إبراهيم السامرائي في مجلة المجمع العلمي العراقي في المجلد الحادي والعشرين، عام 1971 م.

ج - ذيل الفصيح: لعبد اللطيف بن يوسف البغدادي (ت 629 هـ) وقد

(65) ينظر: مقدمة العدواني لشرح ابن نايقا 60.

(66) مقدمته لشرح الفصيح لابن نايقا 61.

نشر الكتاب مرتين الأولى ضمن مجموعة (الطرف الأدبية) بعناية محمد بدر الدين النعساني، والثانية ضمن مجموعة (فصيح ثعلب والشروح التي عليه) بعناية محمد عبد المنعم خفاجي عام 1949 م.

2 - الاستدراكات المخطوطة:

وهو كتاب واحد بعنوان «فصيح الكلام»، لأبي الفوائد محمد بن علي الغزنوي (ت 442 هـ)، وقد سماه بروكلمان «ذيل فصيح الكلام»⁽⁶⁷⁾.

وذكر عبد الله الجبوري أن مؤلفه سماه «فصيح الكلام»، أي المتلفظ يتفصح ويتوسع فيه⁽⁶⁸⁾.

ومن هذا الكتاب نسخة خطية في بشير آغا 193، برقم⁽⁶⁹⁾: 16، ومنها مصورة في معهد المخطوطات العربية في القاهرة برقم: 196 لغة ونسخة ثانية في مكتبة لالي بإستانبول، برقم: 3614⁽⁷⁰⁾.

ثالثاً: الترتيب والتهذيب:

اهتمت جماعة من العلماء بترتيب مواد الفصيح على حروف المعجم وتهذيبه، حتى يسهل حفظه واستيعابه، ومما وصلنا من هذه الكتب ما يلي:

1 - الكتب المطبوعة:

وهو كتاب واحد بعنوان «قلائد الذهب في فصيح كلام العرب» لمحمد أفندي دياب أحد مفتشي نظارة المعارف بمصر، في أواخر القرن الماضي.

وهذا الكتاب رتبته على حروف المعجم، وقد نشرته المطبعة الأميرية ببولاق عام 1311 هـ⁽⁷¹⁾.

(67) تاريخ الأدب العربي 2/212.

(68) ابن درستويه 163، 164.

(69) تاريخ الأدب العربي 2/212.

(70) ينظر: فهرس المخطوطات للصورة 1/358، وتاريخ الأدب العربي 2/212، وابن درستويه 163.

(71) مقدمة المدداني لشرح ابن نقييّا 65.

2 - الكتب المخطوطة:

كتابتان فقط، وهما:

أ - فسيح الكلام: لأبي الفوائد محمد بن علي الغزنوي (ت 442 هـ) وقد تقدم ذكره مع الاستدراكات، لأن بروكلمان سماه «ذيل فسيح الكلام»، وهو كتاب واحد.

والكتاب رتبه المؤلف على حروف المعجم، وليس فيه من مادة الفصيح التي اختارها ثعلب سوى خمس كلمات على ما ذكر بروكلمان وغيره⁽⁷²⁾. وقد تقدم ذكر نسخه التي وصلتنا.

ب - ترتيب الفصيح على حروف المعجم: لأحمد حسن سني، أحد علماء النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، ومنه نسخة في دار الكتب المصرية برقم: 4819 هـ⁽⁷³⁾.

3 - الكتب المفقودة:

وهو كتاب واحد بعنوان «تهذيب الفصيح»، لأبي سهل محمد بن علي ابن محمد الهروي (ت 433 هـ)، وقد ذكره المؤلف فقط في كتابه «التلويح في شرح الفصيح»⁽⁷⁴⁾.

رابعاً: المنظومات الشعرية:

نظم الكتب النحوية واللغوية ظاهرة معروفة في تراثنا العلمي، يهدف أصحابها إلى تمكين المتعلمين من حفظ الكتب في أقصر وقت ولتبقى راسخة في الأذهان.

وقد كان «الفصيح» أحد الكتب التي أقبل العلماء على نظمها، لما فيه من فوائد لغوية تصون اللسان من اللحن والخطأ.

(72) فهرس المخطوطات المصورة 1/ 363. ومقدمة العدواني لشرح ابن نايقا 62، 64، وتاريخ بروكلمان 2/ 212 وابن درستوبه 163.

(73) فهرس المخطوطات المصورة 1/ 152، ومقدمة العدواني لشرح ابن نايقا 64.

(74) التلويح: 1.

وفيما يلي ذكر للمنظومات التي تناولت «الفصيح» حسب ظهورها زمنياً:

1 - المنظومات المطبوعة:

ومنها كتابان فقط، هما:

أ - نظم لعبد الحميد بن أبي الحديد المدائني (ت 655 هـ) نشره الدكتور محمد بدوي المختون في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس والعشرون عام 1979 م.

ب - نظم باسم «موطأة الفصيح»⁽⁷⁵⁾، لأبي الحكم مالك بن عبد الرحمن بن المرحل المالقي (ت 699 هـ).

وقد ذكر الدكتور عبد العلي الودغيري أن هذا النظم طبع بالمطبعة الفاسية، ضمن مجموع «المتون العلمية» ولهذا النظم نسخ خطية كثيرة في خزائن المملكة المغربية، وخزائن أخرى في العالم الإسلامي⁽⁷⁶⁾.

ج - نظم باسم «حلية الفصيح»، لأبي عبد الله الأعمى محمد بن أحمد ابن علي بن جابر الأندلسي (ت 780)، وقد ذكر عبد السلام هارون أن الكتاب طبع في بيروت عام 1321 هـ⁽⁷⁷⁾.

2 - المنظومات المخطوطة:

ومنها كتابان فقط أيضاً، هما:

أ - الصبيح في نظم الفصيح: لأبي الحكم مالك بن عبد الرحمن بن المرحل المالقي (ت 699 هـ)، وقد ذكره صاحب نواذر المخطوطات العربية في مكتبة تركيا المجلد الأول ص 179، ومنه نسخة في مكتبة نور عثمانية بإستانبول برقم 4485⁽⁷⁸⁾.

(75) لابن المرحل نظم مخطوط سيأتي ذكره بعد حين.

(76) قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي 21، وينظر: ابن درستويه 158، 159، ومقدمة د. مذكور للفصيح 196.

(77) مقدم مجالس ثعلب 21/1.

(78) نقلاً عن قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي 21، هامش (28).

ب - نظم فصيح ثعلب وشرحه: لأبي بكر الشريف الحسن الإدريسي السبتي (809 هـ)، وقد ذكره له محمد بن شقرون، وقال عنه: أنه مخطوط في الخزانة العامة بالرباط، وهو أحد المخطوطات التي قدمت للمشاركة في جائزة الملك الحسن الثاني⁽⁷⁹⁾.

3 - المنظومات المفقودة:

ومنها:

أ - نظم لعبد اللطيف بن يوسف محمد البغدادي (ت 629 هـ)، وقد ورد ذكره في:

كشف الظنون 2/ 137.

ب - نظم لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخوي (ت 693 هـ)، وقد ورد ذكره في:

الرافعي بالوفيات 2/ 137.

وبغية الوعاة 1/ 24.

وكشف الظنون 2/ 1273.

ج - نظم لأبي عبد الله محمد بن محمد بن جعفر بن مشتمل البلياني (؟)، وقد ورد ذكره في:

بغية الوعاة 1/ 221.

وكشف الظنون 2/ 1273.

د - رجز في فصيح ثعلب وشرحه، لعلي بن محمد المرادي (؟)، رفعه إلى أبي يعقوب بن عبد المؤمن، وقد انتهى من تأليفه سنة 567 هـ⁽⁸⁰⁾.

(79) قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي 17، وينظر: الهامش (16) من الصفحة نفسها.

(80) الذيل والتكملة 5/ 404، وينظر: أبي الربيع الكلاعي 140. |

خامساً: نقد الفصيح:

لم تقتصر حركة التأليف حول «الفصيح» على الشرح والاستدراك والترتيب والنظم بل عنت جماعة أخرى بانتقاده فوقفت إزاء ثعلب موقفاً حاداً، وحاولت النيل منه والتقليل من قيمة «الفصيح».

ولعل ذلك يعود إلى العصبية المذهبية والحقد الشخصي. كما يرى الدكتور عاطف⁽⁸¹⁾ مذكور - وهذه الظاهرة معروفة في الوسط العلمي، ولم تقتصر على ثعلب وخصومه، فهي موجودة في كل الأعصر.

ومن الكتب التي تصدى أصحابها لانتقاد ثعلب ما يلي:

1 - استدراك الزجاج على الفصيح: لأبي إسحاق الزجاج إبراهيم بن السري بن سهل (ت 311 هـ)، وهو أحد تلامذة ثعلب والمبرد.

وهذا النقد نقله جمع من العلماء في كتبهم، كأبي⁽⁸²⁾ حيان، والسيوطي⁽⁸³⁾، وغيرهما من شراح الفصيح، كابن ناقي البغدادي وابن هشام اللخمي.

وهذا الكتاب نشره الدكتور صبيح التميمي بالاشتراك، في جامعة السليمانية بالعراق عام 1979 م، ضمن انتصار الجواليقي لثعلب، وسمياه «الرد على الزجاج في مسائل أخذها على ثعلب، صنعه الجواليقي».

2 - التنبيه على ما في الفصيح من الغلط: لأبي القاسم علي بن حمزة البصري (ت 375 هـ)، وقد نشره المستشرق (ريشارد بل) في المجلة البريطانية عام 1904 م⁽⁸⁴⁾، ثم أعاد نشره الأستاذ عبد العزيز الميمني، ضمن كتابه «التنبيهات» مع كتاب «المنقوص والممدود» للفراء، بدار المعارف بمصر، عام 1967 م.

(81) مقدمة الفصيح 206.

(82) البحر المحيط 499/2، ومواضع أخرى.

(83) المزهر 1/205، والأشياء والنظائر 4/313 - 323.

(84) ابن درسته 161، ومقدمة د. مذكور للفصيح 206.

3- نقد لأبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الحسن الجواليقي (ت 450 هـ)، وقد ذكره أبو حيان⁽⁸⁵⁾ في البحر المحيط، ولم يذكره غيره.

وقد أشار عبد الوهاب العدواني أن هذا الكتاب هو القسم الثاني من رسالة له ضم القسم الأول منها انتصاره لثعلب وردة على الزجاج ومنه نسخة في مكتبة الأسكوريال، برقم: 772، وذكر أنه أعدده للنشر⁽⁸⁶⁾.

وهذا الكتاب هو الذي نشره الدكتور صبيح التميمي بالاشتراك باسم «الرد على الزجاج في مسائل أخذها على ثعلب»، وقد تقدم الكلام عنه.

سادساً: الانتصار للفصيح:

الانتقادات السابقة والتحامل الذي ظهر من بعض أصحابنا تجاه ثعلب وكتابه «الفصيح» لم يرض فريقاً آخر من العلماء المنصفين فردوا حجج المنتقدين بحجج أقوى كانت انتصاراً قوياً لثعلب وفصيحته.

ومن هؤلاء العلماء الذين انتصروا لثعلب:

1- أبو عبد الله الحسن بن خالويه (ت 370 هـ)، وقد حفظ لنا ابن نايقا في «شرح الفصيح»⁽⁸⁷⁾، والسيوطي في «الأشباه»⁽⁸⁸⁾ والنظائر انتصاره لثعلب، ولم يصل إلينا في كتاب مستقل.

2- أبو الحسن أحمد بن فارس (ت 395 هـ)، وكتابه سماه «الانتصار لثعلب»، وقد ورد ذكره في: بغية الوعاة 1/352.

ومفتاح السعادة 1/110.

وهو من الكتب المفقودة.

3- أبو منصور الجواليقي (ت 450 هـ)، وانتصاره ورد ضمن «الرد على الزجاج في مسائل أخذها على ثعلب» الذي تقدم ذكره.

(85) البحر المحيط 2/499، ومواضع أخرى.

(86) مقدمته لشرح ابن نايقا 63، وينظر: مقدمة د. صبيح التميمي للفصيح 28.

(87) الشرح 3، 137، 188، 211، 212، 223، 385، 386.

(88) الأشباه والنظائر 4/324، 335.

أخي القارئ هذه هي حصيلة الحركة اللغوية التي أثارها كتاب «الفصح» لأبي العباس ثعلب، كما تناهت إلينا أخبارها، وهي متنوعة، يمكن أن تشكل معلماً بارزاً في حركة التصويب اللغوي، أرجو أن أكون قد وفقت في جمع شتات هذه الحركة، وآمل أن تقام دراسات علمية في جامعاتنا حول الكتب التي لم تر النور بعد، لنستفيد منها في إثراء لغتنا العربية التي مجدها الله وحفظ لها الاستمرارية بفضل كتابه المبين على مدى أربعة عشر قرناً.

والله نسأل التوفيق والهداية

معاجز الدراسة

أولاً: المخطوطات:

- 1 - أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي «حياته وآثاره»: ثريا لهي، رسالة ماجستير، مقدمة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، 1985 م.
- 2 - تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصح: أبو جعفر الليلي، الجزء الأول، مصورة في مكتبي عن نسخة الدكتور حاتم صالح الضامن.
- 3 - التصريح بشرح غريب الفصح: أبو العباس أحمد بن عبد الجليل الدميري، نسخة مصورة على الميكروفيلم في مكتبة الأستاذة ثريا لهي، في المغرب.
- 4 - ثعلب ومنهجه في النحو واللغة: أحمد حنفي، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب في جامعة القاهرة، 1961 م.
- 5 - شرح الفصح: ابن ناقياً البغدادي، تحقيق عبد الوهاب محمد العدواني، رسالة ماجستير، مقدمة لكلية الآداب في جامعة القاهرة، 1383 هـ - 1973 م.
- 6 - شرح فصح ثعلب: ابن الجبان الأصبهاني، تحقيق عبد الجبار جعفر الغزاز، رسالة ماجستير، مقدمة لكلية الآداب في جامعة بغداد، 1974 م.
- 7 - شرح الفصح: لابن هشام اللخمي، تحقيق الدكتور عبد الكريم عوفي، رسالة دكتوراه مقدمة لمعهد اللغة والأدب العربي في جامعة الجزائر، 1412 هـ - 1992 م.
- 8 - الفصح: أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، مخطوط بمكتبة زاوية الشيخ الحسين ببلدية سيدي خليفة ولاية مليلة، الجزائر.

9 - الوسيط في الأمثال: علي بن أحمد الواحدي، مخطوط بقسم الوثائق في الخزانة العامة بالرياض، برقم: 102 ق.

ثانياً: المطبوعات:

- 1 - ابن درستويه عبد الله بن جعفر بن المرزبان الفارسي: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني بغداد، ط: 1 1973 - 1974 م.
- 2 - الأشباه والنظائر في النحو: جلال الدين السيوطي، تحقيق عبد الإله نبهان وآخرين، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1407 هـ - 1986 م.
- 3 - الأعلام «قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين»: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 7، 1986 م.
- 4 - البحر المحيط: أنير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، مطبعة السعادة بمصر، ط: 1، 1328 هـ.
- 5 - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة غيسى البابي الحلبي وشركاه، ط: 1، 1386 هـ - 1964 م.
- 6 - البلغة في تاريخ أئمة اللغة: مجد الدين محمد يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق محمد المصري، مطبعة جامعة دمشق، 1392 هـ - 1972 م.
- 7 - تاج العروس من جواهر القاموس: مرتضى الزبيدي، تحقيق عبد الستار أحمد فرح مطبعة حكومة الكويت، 1391 هـ - 1971 م.
- 8 - تاج العروس من جواهر القاموس: مرتضى الزبيدي منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (د. ت).
- 9 - تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم: أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعد التنوخي المعري، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، 1401 هـ - 1981 م.
- 10 - تصحيح الفصيح: عبد الله بن جعفر بن درستويه، الجزء الأول، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة الإرشاد، بغداد، ط: 1، 1395 هـ - 1975 م.
- 11 - التلويح في شرح الفصيح: أبو سهل محمد بن علي بن محمد الهروي نشر محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة التوحيد، القاهرة، 1368 هـ - 1949 م.
- 12 - غام فصح الكلام: أحمد بن فارس تحقيق إبراهيم السامرائي مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الحادي والعشرون، 1971 م.
- 13 - التنبيهات على أغاليط الرواة: علي بن حزة البصري، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي، دار المعارف بمصر، 1977 م.
- 14 - خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادی، تحقيق عبد

- السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة، 1387 هـ - 1967 م.
- 15 - ذيل الفصيح: عبد اللطيف بن يوسف البغدادي (ضمن فصح ثعلب والشروح التي عليه)، نشر محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة التوحيد، القاهرة، 1368 هـ - 1949 م.
- 16 - الذيل والتكملة لكتايب الصلة والموصول: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي، تحقيق محمد بن شريفة وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د.ت).
- 17 - الرد على الزجاج في مسائل أخذها على ثعلب: صنعه أبي منصور الجواليقي، تحقيق صبيح التميمي وعبد المنعم أحمد، جامعة السليمانية، العراق: 1979 م.
- 18 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب: أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت (د.ت).
- 19 - شرح الفصيح: ابن هشام اللخمي، تحقيق مهدي عبيد جاسم، دار صدام للمخطوطات ط: 1، 1309 هـ - 1988 م.
- 20 - طبقات النحويين واللفويين: أبو بكر بن الحسن الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، (د.ت).
- 21 - العربية «دراسات في اللغة واللهجات والأساليب»: يوهان فك، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بمصر، 1400 هـ - 1980 م.
- 22 - غاية النهاية في طبقات القراء: أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري، نشر برجستراس دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 3، 1402 هـ - 1982 م.
- 23 - فائت الفصيح: أبو عمر الزاهد، تحقيق محمد عبد القادر، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد التاسع عشر، الجزء الثاني، 1973 م.
- 24 - الفرق: أحمد بن فارس تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، 1402 هـ - 1982 م.
- 25 - الفصيح: أبو العباس ثعلب، تحقيق الدكتور صبيح التميمي، دار الشهاب بياتة الجزائر، 1988 م.
- 26 - الفصيح أبو العباس ثعلب، تحقيق الدكتور عاطف مذكور، دار المعارف بمصر، 1984 م.
- 27 - فصح ثعلب والشروح التي عليه: نشر محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة التوحيد، القاهرة، 1368 - 1949 م.
- 28 - فهرس المخطوطات المصورة، الجزء الأول: تصنيف فؤاد سيد، دار الرياض للطبع والنشر، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1954 م.
- 29 - فهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية بتونس (خزانة جامع الزيتونة) عبد الحفيظ منصور، مجلة كلية الدعوة الإسلامية (العدد الحادي عشر).

- دار الفتح للطباعة، بيروت؛ ط: 1، 1388 هـ - 1966 م.
- 30 - الفهرست: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق، المعروف بابن النديم، تحقيق رضا تجمد، طهران، 1391 هـ - 1971 م.
- 31 - فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الإشبيلي، تحقيق فرنسكة قدارة زيد بن خلفان ريارة طرغوة، المكتب التجاري بيروت، مكتبة المثنى، بغداد مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط: 2، 1382 هـ - 1963 م.
- 32 - قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي: الدكتور عبد العلي الودغيري منشورات عكاظ، الرباط، ط: 1، 1409 هـ - 1989 م.
- 33 - قواعد الشعر: أبو العباس ثعلب، تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب، القاهرة، 1966 م.
- 34 - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، دار الفكر، 1402 هـ - 1982 م.
- 35 - اللفظ ومستواه الصوابي من خلال موطئة الفصيح: الدكتور عبد العلي الودغيري مجلة اللسان العربي، العدد التاسع والعشرون، مكتب تنسيق التعريب، 1408 هـ - 1987 م.
- 36 - مجالس ثعلب: أبو العباس ثعلب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ط: 2، (د.ت).
- 37 - مروج الذهب ومعادن الجوهر: أبو الحسن علي بن علي المسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).
- 38 - المزهري في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي، شرح وتعليق محمد الأحمد جاد بك المولى وآخرين، دار التراث، القاهرة، ط: 3، (د.ت).
- 39 - معجم الأدباء: ياقوت الحموي، عيسى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الأخيرة. (د.ت).
- 40 - معجم الأدباء: ياقوت الحموي، مطبعة دار المأمون مصر، (د.ت).
- 41 - معجم المؤلفين: «تراجم مصنفى الكتب العربية» - عمر رضا كحالة مكتبة المثنى، دار إحياء التراث، بيروت، (د.ت).
- 42 - معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق بشار عواد وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1404 هـ - 1984 م.
- 43 - مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم: أحمد مصطفى الشهير بـ «طاش كبرى زاده».
- 44 - نكت الهميان في نكت العميان: خليل بن أيك الصفدي، مصر، 1984 م.
- 45 - هدية العارفين «أسماء المؤلفين وأثار المصنفين»: إسماعيل باشا البغدادي، طبعه

- بالأوفست، مكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي، طهران، ط: 3، 1387 هـ - 1967 م.
- 46 - الوافي بالوفيات: خليل بن أبيك الصفدي نشر هلموت ديتر، دار النشر فرانز شتاينرف سبون، ط: 2، 1481 هـ - 1961 م.
- 47 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، (د.ت)⁽⁸⁹⁾.

(89) من المصادر التي أخذت منها في كتابه هذا البحث أيضاً المقابلات الشخصية مع رجالات العلم أذكر منهم الأساتذة (د. رمضان عبد التواب، د. حاتم صالح الضامن، د. ثريا لهي، عبد الله الجبوري، د. عبد العلي الودغيري) وكذلك الرسائل التي تلقتها منهم ومن غيرهم. فلي هؤلاء جميعاً أقدم خالص الشكر على صنيعهم العلمي.

أَفْرِ الْمَخْدَرَاتِ وَحَظَرَهَا عَلَى الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ

الدكتور محمد صبيحة سالم
الإمارات العربية المتحدة

تمهيد:

إن الطريق الذي اختاره الله للإنسان خير منهج في الحياة وخير ضامن لكرامة الإنسانية لتسمو في معارج الرشاد والكمال والتاريخ أكبر شاهد على ذلك فإن التدين الحق ليس إلا السير في درب الحياة على صراط الله المستقيم ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾⁽¹⁾.

وهذه السبيل هي التي ينعم فيها المؤمن بالعز والازدهار في ظل الأمن والاستقرار ويأمن بوائق الحيرة والضياغ والضللال.

وإذا كانت نزعة التدين في حقيقتها امتداداً لقوى النفس الثلاث: الفكر الذي به يكون التطلع إلى المبادئ والحلل الأولى والغايات البعيدة.

(1) سورة يوسف، الآية: 108.

- والوجدان الذي يمد العواطف النبيلة بحاجتها من الوقود الدافع إلى الخير .

- والإرادة التي تكون البواعث على العمل والدوافع إليه .

فإن ديننا الحنيف يوقظ في المسلم حاسة دينية تلازمه ولا تنفك عنه وتحرص على سلامة قواه وتصونها من كل آفة تحدث بها خللاً أو تعطلها أو تصرفها عما خلقت له .

فتكوين شخصيته كفرد يتطلب العناية بقيادته الفكرية : (العقل) وحمايتها من كل ما يؤثر فيها تأثيراً سيئاً ينال من قوتها ويضعف من قدرتها على التمييز بين الحق والباطل في المعتقدات والخطأ والصواب والضار والنافع في التصرفات قولية كانت أو عملية .

ومن هنا كان اهتمام الإسلام بتحريم المسكرات والمخدرات ليبقى المسلم دائماً محلاً للشواب على ما قدم لخالقه من قريات ولمجتمعه من خدمات قادراً على ممارسة مهامه مسؤولاً عن تصرفاته . . إذ من واجبه أن يعمل على تكميل نفسه بالفضائل والمعارف كوسيلة للمبلوغ بمجتمعه إلى الكمال⁽²⁾ .

وقديماً قال الشاعر :

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

مكانة العقل في الإسلام :

وقد جعلت شريعتنا الغراء من الكليات الخمس أموراً تجب المحافظة عليها وهي العقل وبقية الكليات أو المصالح العامة التي تقوم عليها حياة الناس وهي : حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ النسل وحفظ المال . ولما كان العقل مناط التكليف والمسؤولية والأمانة ومنبع الحكمة ونور البصيرة ووسيلة الهداية

(2) محمد عبد الرحمن البيطار : العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع : 75 - 1980 .

إلى الحق والخير والسعادة أشاد القرآن الكريم بقيمة العقل في أكثر من آية كقوله تعالى ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾⁽³⁾.

فبالعقل كمل الإنسان واستحق الخلافة في الأرض وتلقى الخطاب من لدن الحكيم الخبير فنال الشرف وحظي بالتكريم.. قال تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ سورة الإسراء - 70.

وعن طريق العقل فتح آفاق الكون وغاص في الأعماق وجال في الأجواء وطار في الفضاء ونزل على سطح القمر وربط بين عالم الشهادة وعالم الغيب وبين المادة وتغلب على ما يحول دون بلوغ أهدافه المادية والمعنوية.

وإن أعظم ميزة للعقل أن الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم اهتدى به إلى معرفة ربه فعبده ونزهه عن كل نقص وأثبت له الكمال والجلال فتحرّيم كل ما يخل بميزان العقل ويتميزه وحسن إدراكه والتشديد على هذا التحريم في الإسلام واتخاذ أسباب الحماية بالعقوبة لمن أقدم على شرب الخمر وتعاطي المخدرات أياً كان نوعها.. إنما كان ذلك كله دفعاً لكبيرة من أعظم الكبائر ومنعاً من الشر الذي يلغي العقل ويتلفه ولو إلى حين لأن من أضعف عقله فقد مداركه ومن فقد مداركه فقد صوابه وأصبح خطراً على نفسه ومصدر أذى أو أداة فساد وعلى المجتمع أن يصدّه عن السوء كما يصد المجنون عن العبث الشنيع حين يركب رأسه.

قال ﷺ (لا ضرر ولا ضرار)⁽⁴⁾.

فمن هذه القاعدة العامة يجب أن يكون الإنسان بصيراً على نفسه أميناً عليها فلا يفعل ما يضر بها ويؤذيها مخلصاً للمجتمع الذي نشأ فيه وعاش في ظله فلا يفعل ما يضر بالآخرين كترويج الخمر والمخدرات فيه فيكون جرثومة فساد في مجتمعه وخطراً عليه.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 43.

(4) رواه أحمد وابن ماجه.

فلقد جاء في إحدى الإحصائيات بفرنسا أن الذين قتلتهم الخمر في إحدى السنوات بلغ 26 ألفاً والذين ماتوا بمرض السل 13 ألفاً.

وشرب الخمر والإدمان عليه من أهم أسباب مرض السل والأمراض الصدرية كما أثبت ذلك الأطباء⁽⁵⁾.

وقد جعل الله الذين لا يعقلون شر الدواب.. فقال: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾⁽⁶⁾.

والغاء العقل قد يترتب عليه الشقاء الأبدي كما أخبر القرآن الكريم ذلك عن أصحاب السعير: ﴿وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾⁽⁷⁾.

هكذا فإن العقل هبة الله للإنسان ونعمة من نعمه الكبرى عليه يجب أن يستخدم فيما خلق له مثل التمييز بين الحق والباطل والخير والشر والصالح والفساد واكتساب المعارف والعلوم. سمي كذلك لأنه يعقل صاحبه عن فعل القبيح.. قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾⁽⁸⁾.

كما سميت العقول بالنهى لأنها تنهى عن قول ما يستهجن وفعل ما يقبح قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾⁽⁹⁾.

وسماه القرآن باللب على اعتبار أنه أنفس ما في الإنسان.. قال تعالى: ﴿واتقوا يا أولي الألباب﴾⁽¹⁰⁾.

لذلك حرم الله عز وجل كل ما يؤدي إلى زواله أو اضطرابه وجرم كل من يحاول أن يطمس نوره أو يسلب قدرته على أداء دوره الذي خلقه الله تعالى

(5) الإسلام وقضايا الإيمان والسموم البيضاء: 31 (ط: روز اليوسف).

(6) الأنفال، الآية: 22.

(7) الملك، الآية: 10.

(8) الرعد، الآية: 4.

(9) طه، الآية: 54.

(10) البقرة، الآية: 197.

من أجله سواء أكان ذلك بالتعذيب أم بتناول المسكرات والمخدرات فالمسكرات تحبس العقل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سَكِرَتْ أَبْصَارُنَا﴾⁽¹¹⁾ أي حبست عن النظر والتأمل والتفكير.

والمخدرات أشد وأقسى خطراً على العقل فإدمان المخدرات يमित طاقات العقول ورسول الله ﷺ نهى عن كل مسكر ومفتر⁽¹²⁾.

قال الخطابي: المفتر كل ما يورث الفتور والرخاوة في الأعضاء ونقل العراقي إجماع العلماء على تحريم المخدرات وإن من استحلها فقد كفر وقال الزركشي: الحشيشة والأفيون والبنج وجوزة الطيب تؤثر في متعاطيها، المعنى الذي عرفوا به السكران: وهو الذي اختل كلامه المنظوم وانكشف سره المكتوم.

وهناك صنف يعد من المسكرات المخدرات مثل الأفيون... ومن هذه المخدرات ما يطحن ويسحق ويستعمل سعوياً في الأنف فيخدر تخديراً شديداً وتصبح عادة ملحة لا يصبر صاحبها عنها وقد بلغ ممن مارسوا هذه العادة السيئة مرحلة الجنون أو الانتحار، وكفى بذلك دليلاً على التحريم بالإضافة إلى أدلة تحريم الحشيش وملحقاته⁽¹³⁾.

كيف يقدم على استهلاك هذه السموم من وهبه الله عقلاً كرمه به واتمته عليه ليصونه من كل ما يفسده ويحفظه من كل ما يسلبه الصحة النفسية، ويفقد السيطرة على النفس؟

الخمر والمخدرات:

الخمر كل ما خامر العقل، فيشمل جميع المسكرات، ولا عبرة بخصوص المادة التي يتخذ منها فقد يكون من العنب وقد يكون من غيره والأحاديث الصحيحة الواردة في الخمر واضحة، وهي أن كل مسكر خمر

(11) الحجر، الآية: 15.

(12) أخرجه أبو داود وأحمد.

(13) عبد القادر أحمد عطا، هنا حلال وهنا حرام: 28 (ط: دار التراث).

وكل مسكر حرام، بل ما أسكر كثيره فقليله حرام، وهذا ما فهمه أصحاب الرسول ﷺ من عبارة (خمر).

ومن هنا نعلم أن الذين يعلنون في مجالسهم الخاصة انقياداً لشهواتهم وعبثاً بالدين والعقول، أن المحرم هو المتخذ من العنب وأن المتخذ من غيره لا يحرم تناوله، هم قوم لا يكثرثون بلغة الألفاظ ودلالاتها ولا ببيان الرسول، ولا يركنون إلى فهم الصحابة الذين تحدثوا عما شاهدوا وسمعوا وهم بعد هذا كله يغالطون أنفسهم ويخدعون غيرهم في علة تحريم الخمر التي حرمها الله لأجلها، ودين الله بين واضح ولا ينبغي أن تتخذ آياته سبيلاً للهو واللعب.

وليس تحريم الخمر من التكاليف التعبدية التي لا يدرك المؤمن سر تكليفه بها وإنما هو من التكاليف المعقولة التي يلمس الإنسان سر تحريمها ويراه واضحاً في نفسه وفي نفس غيره عقلاً وصحة ومالاً وكرامة⁽¹⁴⁾.

فينبغي النظر إلى الأثر السيء الذي تحدثه في شاربها من زوال عقله فتسلبه مكانة التكريم التي منحه الله إياها وتفسد عليه ما يجب أن يكون بينه وبين الناس من صلوات المحبة والصفاء، وتطوع له انتهاك الأعراض وقتل النفس وتعكر عليه صفو المعرفة بالله، والناشئة عن مراقبته وعبادته وذكره وتذكر عظمتة سبحانه وتعالى.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: أوصاني رسول الله ﷺ: (ألا أشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر)⁽¹⁵⁾.

وروي عن عثمان رضي الله عنه قال (اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث)⁽¹⁶⁾.

وروي عن أبي مالك الأشعري: أنه سمع النبي ﷺ يقول (ليشرين أناس من أمتي الخمر ويسمونها بغير أسمائها)⁽¹⁷⁾.

(14) رسالة الإمام: إحتز المخدرات: 4/7/1986، صفحة 159 - 160.

(15) أخرجه ابن ماجه.

(16) محمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: 3/55.

(17) أخرجه أحمد وأبو داود.

قال ابن تيمية في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾⁽¹⁸⁾.

ولا يصد عن الصلاة مثل الخمر لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾⁽¹⁹⁾.

أي يوقعهم في العداوة والبغضاء وهذا من أعظم المنكرات التي تنهى عن الصلاة والخمر تدعو إلى الفحشاء والمنكر كما هو الواقع فإن شارب الخمر تدعوه نفسه إلى الزنى، والسكر يزيل العقل الذي كان به يميز السكران بين الحلال والحرام، والعقل الصحيح ينهى عن مواجهة الحرام ولهذا يكثر الشارب من مواجهة الفواحش ما لا يكثر من غيرها وربما يقع على ابنته ومحارمه ويدعو شرب الخمر إلى أكل أموال الناس بالباطل من سرقة ومحاربة وغير ذلك لأنه يحتاج إلى الخمر وما يتبعه من مأكول وغناء وفواحش، وشرب الخمر يظهر أسرار الرجال حتى يتكلم شاربه بما في باطنه وكثير من الناس إذا أرادوا استفهام ما في قلوب الرجال من الأسرار يسقونهم الخمر، وربما يشربون معهم ما لا يسكرون به، وأيضاً فالخمر يصد الإنسان عن علمه وتدبيره ومصلحته في معاشه ومعاده وجميع أموره التي يدبرها برأيه.

فجميع الأمور التي توقعها الخمر في المفاسد داخلة في قوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾.

وإيقاع العداوة والبغضاء هو منتهى قصد الشيطان وإذا كان كل مسكر خمراً سواء أكان مائعاً أو جامداً عصيراً أم مطبوخاً مصداقاً لقول النبي ﷺ في حديث صحيح لا مطعن في سنده وله إجمال في منته (كل مسكر خمر) ..

قال الصنعاني في سبل السلام (إنما يحرم ما أسكر من أي شيء وإن لم يكن مشروباً كالخشيش) ..

(18) النكبات، الآية: 45.

(19) سورة المائدة، الآية: 91.

بل إن من الفقهاء من يحرم كل ما يسكر أو يشوش الذهن أو يحدث فيه اختلاطاً حتى في الأدوية، فإن القدر المسموح به للعلاج يجب ألا يذهب العقل.

لأن أكثر الفقهاء جوزوا استعمال البنج للمريض في عملية جراحية. ويعجبني تقسيم القرافي في الفروق أن يفرق بين المواد المختلفة التي تؤثر على العقل، فقسمها إلى ثلاثة أنواع:

- المسكرات وهي التي تغيب العقل دون الحواس كالخمر مع نشوة وفرح.

- والمفسدات وهي التي تغيب العقل دون الحواس ولكن بدون نشوة كعسل البلاذر.

- والمركبات وهي التي تغيب العقل والحواس كالسكران.

- واعتبر القرافي الحشيش من نوع المفسدات⁽²⁰⁾.

وتابع الحطاب في كتابه (مواهب الجليل على شرح متن خليل تقسيمات القرافي) إلا أنه اعتبر المسكرات أربعة: الخمر والحشيش والأفيون وجوزة الطيب.

واعتبر ابن تيمية وابن القيم ومن تابعهم من الفقهاء الحشيش (القنب الهندي) خمراً من ناحية الحد والنجاسة واعتبار القليل والكثير منها سواء.

قال ابن تيمية في الفتاوى:

(السكر من هذه الحشيشة الملعونة بما تورثه من قلة الغيرة وزوال الحماية حرام يحد مُتَنَاولُهَا كما يحد شارب الخمر وهي داخلة فيما حرمه الله ورسوله من المسكرات لفظاً ومعنى ومن استحلها وزعم أنها حلال فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل مرتداً لا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين⁽²¹⁾).

(20) القرافي: الفروق - 7/ 218 (ط: بيروت).

(21) أحمد تقي الدين ابن تيمية: الفتاوى: 4/ 275 - مسألة: 508 (ط: الرباط).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المخدرات في الفقه الإسلامي لم يستعمل لفظها إلا في القرن العاشر الهجري، أما قبل ذلك فقد تحدث الفقهاء عن الحشيش والأفيون وغيرهما من المواد المفترية أو المواد المسكرة. والمفتر: كل ما أسكن الجسد وخلده وإن لم ينته إلى حد الإسكار كالبنج ونحوه، ولكنه قد ينتهي إليه من حيث الإضرار إذ هو يورث ضعفاً بعد قوة واسترخاء بعد صلابة وهموداً بعد حركة، وقصوراً بعد نشاط. وهكذا نلاحظ تداخلاً عجيباً في تعريف الخمر لغة وفقهاً وطباً وفي تعريف المخدرات أيضاً.

وأصبحت عبارة (المخدرات) في العصر الحديث تطلق على كل مادة تحدث خللاً في عقل إنسان وجسمه وهي تتفاوت قوة وضعفاً وتأثيراً سلبياً على صحته النفسية والبدنية، ومن المخدرات ما يشتد مفعوله ويحدث مضاعفات خطيرة أكثر من الخمر، ويؤدي إلى فقدان الكليات الخمس التي حرص الإسلام على الحفاظ عليها علاوة على الخسائر الصحية والاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن فقدان العمل وتضاؤل الإنتاج وحوادث المرور، وتكاليف العلاج من التسمم، وما يتسبب فيه الإدمان لمتعاطيها من زيادة الكمية شيئاً فشيئاً.

وقد سجل الأطباء حالات إدمان للهرويين يتعاطى فيها المدمن خمسة آلاف مليغرام من الهيرويين يومياً، وتكفي في العادة مليغرام واحد لقتل إنسان غير مدمن فوراً⁽²²⁾.

وكم يتحمل المدمنون على الأفيون ومشتقاته (الهرويين والمورفين) من نفقات باهظة جداً تفني الجنس وتقضي على الثروات الطائلة، وتقود إلى الإجرام والسرقة من أجل الحصول على المال اللازم لشرائها.

ومدمن المخدرات يبيع زوجته وابنته وأخته في سوق النخاسة في سبيل الحصول على شمة أو حقنة أو يطلب إلى واحدة منهن أن ترافق زملاءه ورفقاءه.

(22) محمد علي البار: المخدرات (الأفيون ومشتقاته: 163) (ط: دمشق: 1988).

وكما حرم الإسلام الخمر باعتبارها مفتاح كل شر بالنص بعلّة إفساد العقل والإضرار بالجسم فإن هذه العلّة حاصلة في المخدرات بل تزيد عليها الإضرار بالمال إلى حد الإفلاس والإضرار بالإدمان إلى حد الجنون.

وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (أتاني جبريل فقال: يا محمد، إن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وساقها ومسقاها)..

أما المخدرات فقد نقل العلماء إجماع فقهاء المذاهب على حرمة تعاطيها بأي وجه من أكل أو شرب أو شم أو حقن لأنها من أعظم المفسدات وأسوأها ودرء المفسدات من المقاصد الضرورية لشريعتنا الغراء حماية للنفس والعقل، ولا تسامح في الإقدام على المنهيات إلا عند الاضطرار بشرط الاقتصار على القدر الذي يزول به الضرر، وتعود به الصحة ويتم به العلاج إذا لم يوجد بديل عنه من الدواء المباح، ويدخل في الاضطرار علاج المدمن.

فقد أفتى ابن حجر حين سئل عن ابتلي بتعاطي المخدرات وصار حاله بحيث إذا لم يتناول هلك، يجوز تعاطيه بحسب الضرورة الملحة حفاظاً على عقله وحياته، ولكن يجب عليه التدرج في تقليل الكمية التي يتناولها شيئاً فشيئاً حتى يتطهر دمه منه، ويحول اعتياده له.

وهذا أمر يرجع إلى نصح الأطباء وعلاجهم للمدمنين عليها، لقوله تعالى: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾⁽²³⁾.

وفي العصر الحديث انعقد إجماع الفقهاء والمحدثين مثل القدامى على تحريم المخدرات تناولاً وزراعة وصناعة وتجارة، وإن كسبها حرام وإن صلاة من كان تحت تأثيرها غير مقبولة، وأن الربح الناتج عنها حرام لا يجوز التصديق به ولا عمل البر منه.. ومن العلماء المحدثين من جعل التبغ من المخدرات فحرم التدخين لإضراره بالصحة والمال والعقل أيضاً لما للإدمان عليه من تأثير على المدخنين ومن الفتاوى الحديثة في المخدرات:

(23) سورة البقرة، الآية: 173.

- فتوى مفتي مصر سابقاً سماحة الإمام الشيخ جاد الحق المنشورة في كتاب الفتاوى الإسلامية⁽²⁴⁾ وجاء فيها موضحاً: (وإذا كانت المخدرات كالحشيش والأفيون والكوكايين وغيرها من المواد الطبيعية المخدرة وكذلك المواد المخدرة المخلقة تحدث آثار الخمر في الجسم والعقل بل أشد فإنها تكون محرمة بحرفية النصوص المحرمة للخمر وبروحها ومعناها دفعا للمضار ودرءا للرديلة، وسداً لذرائع الفساد ثم بين حرمة زراعتها وإنتاجها والاتجار فيها والتعامل بها على أي وجه كان، وإن صلاة من كان تحت تأثير المخدرات أو المسكرات غير صحيحة، وأن الربح الناتج عنها حرام، ولا يجوز التصديق به، ولا عمل البر منه لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

وجاء في مجلة (اللواء الإسلامي)⁽²⁵⁾: إن التعزير في عقوبة مروجي المخدرات يصل إلى حد الإعدام، وأفتت معظم الدول العربية باعتبار القات من المخدرات في حين أن أكثر علماء اليمن لا يعتبرونه منها.

الإدمان وأخطاره:

الإدمان على الخمر أو المخدرات هو تكوين عادة قوية ملحة يتعذر التخلص منها والإفلات من تأثيرها على المدمن فتدفعه إلى الحصول على ما اعتادته نفسه بأي ثمن وبجميع الوسائل مع زيادة الكمية والجرعة، ومع صعوبة قد تبلغ درجة الاستحالة في الإقلاع عنه إلا بعلاج طبيب مختص طويل المدى، وذلك لأن بعض الأنسجة في الجسم أصبحت مفتقرة إليه ولا تستطيع الاستغناء عنه.

ويخضع هذا الإدمان إلى عدة عوامل تجعله يتفاوت قوة وضعفاً ومن أهمها نوع العقار المستعمل ومن المخدرات ما يجعل مستعملها مدمناً ولو مرة واحدة مثل الكوكايين، ثم قدرة متعاطيه وإرادته على التحرر من ضغط الإدمان فسيولوجياً ونفسياً، بل على التقليل من الكمية التي تعود عليها والتأخير في

(24) 3507/10 - الفتاوى الإسلامية (القاهرة - 1983).

(25) مجلة لواء الإسلام: 195 - 1985/10/17.

الاستعمال عن وقته المعتاد.

فالإدمان على المسكر أو المخدر يؤدي إلى تدهور صحة المدمن، ومن أعراضه المرضية الفشل والانهيار والأرق والاكتئاب والتشنج وعدم احتمال الضوء والضوضاء، وقد تظهر أعراض أخطر من ذلك وتفضي إلى الموت كصعوبة التنفس وبطء النبض أو ارتفاع ضغط الدم مع نزوع باطني إلى الانتحار.

أما نتائجه فانهلال جسمي وأخلاقي تدريجي وفقدان لشهية الطعام ونقص الرغبة الجنسية وعدم المبالاة والاكتراث بحيث لا يعتمد عليه في شيء، وكذلك شحوب اللون والارتعاش وارتفاع درجة الحرارة وربما مات المدمن من فشل يصيب عضلات التنفس.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأعراض والنتائج يختلف نوعها باختلاف نوع المخدر ومفعوله فأعراض المدمنين على الأفيون غير أعراض المدمنين على الكوكايين، وهذا يعرفه الأخصائيون من الأطباء الباحثين⁽²⁶⁾ وأعراض الإدمان على الخمر تختلف عن أعراض الإدمان على المخدرات وإن التقت معها في فداحة الأضرار، وعجز كل منهما عن القيام بواجباته والوفاء بالتزاماته.

فقد أثبت علماء الطب والاجتماع أن إدمان الخمر يجمد الفكر ويضعف الإرادة ويغير الأخلاق، فيتحول طبع المدمن إلى عناد ومشاكسة وهذيان وجنون، وكثيراً ما يدفع إلى الإجرام.

وأثبتت إحصائيات جرت في ألمانيا أن أكثر من 50 في المائة من حوادث الاعتداء الإجرامي ناتج عن تأثير الخمر، إذ تنعدم في شأبيه سيطرة المخ على أفعاله كما أن المدمن على المخدرات تكثر منه الانحرافات والشذوذ السلوكي بكل أنواعه وشعوره العميق بأنه يرتكب ما هو مخالف للتقاليد الاجتماعية المرعية يحمله على عدم الانتماء إليه وعدم الارتباط المعنوي به وهو يقضي

(26) انظر كتاب الإدمان: عبد الحكيم العفيفي: 28 - 40 (ط: الزهراء: 1986).

معظم وقته خارج البيت مع رفاق السوء في أماكن تعاطي المخدرات بعيداً عن أعين الناس، فيفقد الشعور بالمسؤولية نحو زوجته وأولاده كما يفقد الحنان والعطف والسند المعنوي والدعم الفكري.

والقصص الغربية التي يرويها علماء الاجتماع وعلماء النفس عن تأثير المخدرات بكل أنواعها على العقل ومالها من أثر على الفعل مما يدمي القلوب ويبعث على الأسى.

فقد قامت فتاة وقفت من الطابق الخامس بعد تعاطيها كمية من الحشيش وكانت قبل أن تلقي نفسها تتحدث عن قدرتها على الطيران مثل العصافير وقال آخر: إنه يستطيع أن يشق الحائط بيده، ذلك أن مرض الخيال الجنوني لدى المخدرين يؤثر في إدراكهم وإحساسهم وعملهم كتخيل أشخاص غير موجودين، وسماع أصوات غير موجودة، أو يخترع قصصاً يزعم أنها وقعت له وليس لها أصل وتنشأ لديه أفكار خيالية تثبت أن ما يجول بخاطره من الأوهام هو حقيقة واقعة ثم تكون النتيجة الاختلاط العقلي والجنون المزمّن.

أما مرض الجنون الكحولي أي الناتج عن تناول الكحول في الخمر وفي غيره فقد قرر علماء الطب النفسي أن له تأثيراً مباشراً في علم المرء وإدراكه وهو السبب المباشر للجرائم الجنسية الناجمة عن الخيرة فيذهب ضحيتها أبرياء فيقتلهم ظناً منه أنهم اعتدوا على شرفه، ويخيل إليه أن ما يجول بخاطره من الأوهام حقيقة.

وقد حدث أن مدمناً أرغم زوجته، على الاعتراف بأنها تحب سواه وبعد شجار طويل عمد إلى قتلها وربما قتل أولاده ظناً منه بأنهم ليسوا بنيه وهكذا فإن الجنائيات التي يقرتها المدمن على شرب الخمر كبيرة لا تغتفر علاوة على ما يتسبب فيه من وجود أطفال معرضين لتشوه خلقي نتيجة تغلغل الخمر في جميع خلايا الجسم خاصة العصبية منها ولا تخلو منها الحيوانات المنوية⁽²⁷⁾.

(27) عبد الحكيم حقيقي: الامنان: 156 - 157.

خطر الحشيش وسائر المخدرات:

يشعر المدمن على الحشيش في البداية بنشوة تشبه السكر، ولكن سرعان ما يجعله ذا وجه عبوس، سوداوي المزاج غيباً خاملاً أبله، غارقاً في أحلامه بطيء الحركات متردداً، نحيف الجسم غير قادر على العمل ينتابه المرض المزمن، فيموت لانحلال وسائل الدفاع في جسمه.

وأكثر أنواع المخدرات خطورة الهيرويين الذي يحدث به الإدمان باستعماله مرة واحدة ويؤخذ إما عن طريق الشم أو عن طريق الحقن بالوريد وهو أشد خطورة لأنه يصل إلى الدم مباشرة، فإذا تأخر المدمن عن شمة في موعدها أحس برشح وإسهال وانهايار في الوظائف الجنسية، وفي وظائف الكبد مما يؤدي إلى الصرع والاضطرابات العصبية والاختلال العقلي والاكتئاب النفسي والتهرب من الواجبات والمسؤوليات في الحياة والاستجابة العدوانية لمواقف الإثارة والضغط ومعاناة القلق وعدم الاستقرار والركون إلى الراحة والخمول وكثرة حوادث المرور.

وهكذا فإن إدمان المخدرات يؤثر على كافة أعضاء الجسم صحياً، فيؤثر على العيون والجلد والأسنان والشعر وأمراض الجهاز التنفسي والجهاز الهضمي وضغط الدم والضعف الجنسي المزمن والعتة واضطراب التفكير والوجدان والذهول والنسيان وحدة الطبع والهواجس والوساوس.

وعلى أحد الأخصائيين في أمراض المخدرات كثرة حوادث الطرقات التي يسببها الإدمان فتبذل الجهاز العصبي يزيد في مدة ردة الفعل وهو الوقت الذي يمر بين وقوع الصورة على شبكة العين وسريان هذه الومضات إلى الجهاز العصبي فألى النخاع الشوكي فألى خلايا عضلة القدم التي تضغط على فرامل السيارة لإيقافها فإذا طال وقت رد الفعل بسبب الإدمان حصلت الكارثة لا محالة وقد ثبت أن دماء من يحقن نفسه بالمخدرات تكون عرضة للتلوث وأن التهاب الكبد تكثر الإصابة به نتيجة الحقن في الوريد الذي يسرع بدخول العقاقير المخدرة السامة إلى الأجهزة العصبية بالإضافة إلى ما يؤدي إليه الإدمان من ممارسات قبيحة تهدر كرامة الإنسان بسبب اختلال المقاييس عنده

وضعف سيطرته على دوافعه الغريزية.

وقد ذكر أحد المشاركين في المؤتمر الدولي العربي للمخدرات أن السلطات الإسرائيلية تقوم بتوزيع كمية منها في أهم المناطق التي يقيم العرب فيها وفي داخل السجون الإسرائيلية التي يزوج بهم فيها بقصد تدمير العنصر العربي عامة والفلسطيني خاصة، وشل حركته في المقاومة⁽²⁸⁾.

ومنذ أقدم عصور التاريخ أدرك الإمام بدر الدين الزركشي ما في تناول الحشيش من مضار، وكانت قد عمت بها البلوى في عصره فألف فيها نصاً عنوانه (زهرة العريش في تحريم الحشيش) حققه وعلق عليه الدكتور السيد أحمد فرج ومما جاء فيه:

(كل ما في الخمر من المذمومات موجود في الحشيش وزيادة)⁽²⁹⁾.

وهي تشارك الخمر في السكر، وفساد الفكر، ونسيان الذكر، وإفشاء السر وذهاب الحياء، وكثرة المراء وعدم المروءة، وكشف العورة، وقمع الغيرة وإتلاف الكيس، ومجالسة إبليس، وترك الصلاة والوقوع في المحرمات هذا بعض ضررها في الدين... أما البدن فتفسد العقل وتقطع النسل وتولد الجذام، وتورث البرص، وتجلب الأسقام، وتكسب الرعشة، وتنتن الفم وتخفف المني، وتسقط شعر الأجفان، وتحرق الدم، وتحفر الأسنان وتظهر الداء الخفي، وتضر الأحشاء، وتبطئ الأعضاء، وتضيق النفس وتقوي الهوس، وتنقص القوى وتصفر الألوان، وتسود الأسنان وتثقب الكبد، وتوهج المعدة وتولد في الفم البحر، وفي العين الغشاوة، وقلة النظر.

قلت: ومن أعظم دائها أن متعاطيها لا يكاد يتوب لشدة تأثيرها في

(28) مجلة الأمن العام - 68 / يناير 1975 - صفحة 124.

(29) والأطباء يسمونها: القنب الهندي ومنهم من يسميها بالحيدرية نسبة إلى حيدر أحد شيوخ الصوفية الأدياء الذين أباحوا الحشيش، قيل كان ظهورها على يد حيدر هذا سنة 550، وقال: أبو العباس ابن تيمية: لم يتكلم فيها الأئمة الأربعة وغيرهم من علماء السلف لأنها لم تكن في زمنهم وإنما ظهرت في أواخر المائة السادسة، وأول المائة السبعة حين ظهر التتار، وكانت شراً دخل على بلاد المعجم حين استولى التتار عليها، ثم نقلها إلى بغداد، وقد علم ما جرى على أهلها من قبيح الأثر: (مجموع الفتاوى: 4 / 263 - 264).

مزاجه وأنت ترى أهلها أكثر الخلق ضللاً وتجاufاً عن الاستقامة وأقرب إلى الدنية⁽³⁰⁾ وما عسى أن يقول هذا العالم (الزركشي) لو علم أنواعاً أخرى من المخدرات ظهرت من بعد، ومالها من قتل ذريع بقوى الإنسان وكل طاقاته ومالها من أثر سيء في سلوكه وحياته عامة، ومن عاقبة مشؤومة تفضي به إلى الموت والتعاسة والشقاء في الدارين مثل الأفيون والكوكايين والهيرويين، والجرائم التي ارتكبتها متعاطو هذه المخدرات وأمثالها لا تكاد تحصى.

وعلى سبيل المثال في سنة 1985 قام شابان بدعوة اثنين من أصدقائهما لقضاء سهرة معهم ببور سعيد وأثناء هذه السهرة قاموا بشم الهيرويين وتحت حالة فقدان الوعي قاما بقتلهما وفرا إلى القاهرة وتمكنت المباحث من القبض عليهما واعترفا بارتكاب جريمة القتل فقررت محكمة الجنايات ببور سعيد إحالتهما إلى المفتي.

وقد أدى الحشيش بشاب فشل في دراسته إلى إصابته بداء الاكتئاب النفسي، فلما عابته أمه انهال عليها طعناً بسكين مزق جسمها وقتلها.

هكذا يتحول متعاطو المخدرات إلى وحوش كاسرة، وقد فقدوا رشدهم وظنوا خطأ أنهم يتمتعون أنفسهم بالنشوة والانتعاش ولكنهم في واقع الأمر يدمرونها ويسلبون حريتهم ليصبحوا عبيداً للمخدر الذي يدمنون عليه.

فتأثير الكوكايين الذي يستنشق كمسحوق أبيض يشبه السكر أو يحضر على شكل محلول ويحقن أو يحول إلى قاعدة حرة ويدخن في غليون قوي جداً يستطيع تغيير الحالة النفسية الفسيولوجية لمن يتناوله إلى حد بعيد واستنشاق مسحوقه يؤدي إلى تدمير الأغشية المبطنة للممرات الأنفية، والدافع الأول لاستعماله كما يقول الأطباء المختصون، أنه يولد في الجهاز العصبي المركزي شعوراً بالنشوة، ويوهم متناوله أنه يزوده بالتفاؤل وبالطاقة وبالشعور المفرط بالقوة الذاتية لديه، ولكن الواقع بخلاف ذلك، فهو يعرقل القدرة على اتخاذ القرارات وإصدار الأحكام ويحرر الكوابيت، ويصير متناوله عدوانياً، له

(30) الزركشي: زهرة العريش في تحريم الحشيش: 96 - 99 (ط: مصر 1987).

انفعالات جنونية يحدث له حالة من الكآبة تقترن بهيجان شديد ينشأ عنه في كثير من الأحيان شعور بأنه لم يعد هناك أي وجود للسان في الفم . . وقد يستمر شعور متناوله مدة تتراوح بين 45 دقيقة وساعتين، وعندما تلاشى آثاره يبدأ شعور آخر بالكآبة والحزن والتعب والصداع إلى حد الانزعاج وهذا ما يدفع متناوليهِ إلى إعادة تعاطيه ليستريحوا وليحصلوا على الاسترخاء وتكفي جرعة واحدة في مرة واحدة أن تكون قاتلة لمعظم الأفراد، وتبين دراسة علمية أجريت في لوس أنجلِس أن عشرة في المائة ممن يتناولون الكوكايين بانتظام أصبحوا مرغمين على استعماله⁽³¹⁾ أما الأفيون فهو من أعظم المخدرات المؤدية إلى الإدمان بسرعة غريبة والإدمان هو حالة التسمم الدوري أو المزمن، والذي يؤثر على الفرد وعلى من يعاشره، وذلك نتيجة التعاطي المستمر للعقار.

ويتغير الإدمان على الأفيون بالخصوص به:

- قوة قاهرة ورغبة ملحة لتعاطيه والحصول عليه بأية وسيلة، وبأي ثمن .
- الاتجاه المستمر في زيادة الكم - الاعتماد النفسي والجسمي على هذا العقار أعراض جانبية عند التوقف عن استعماله قد تشتد حدتها فتسبب آلاماً جسمية دائمة من مرض مستعص .

- التوقف عن تناوله تدريجياً حتى لا يتعرض المريض لنوبات الصداع والاختناق.

- الإصابة بحالة تسمم، مع ارتخاء العضلات.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الغرب يبيع الخمر رغم أضراره التي لا تقل إيذاءً عن أضرار المخدرات، فإنه يدين متناول المخدرات ومهربها والمتاجر فيها على الخصوص بأقسى العقوبات التي تصل في بعض البلدان إلى الإعدام أو السجن المؤبد، وذلك لما لها من أثر سيئ على الفرد والمجتمع ولما تسببه من أمراض بدنية وأعراض ذهنية وانفصام عن الحياة الاجتماعية . وقد

(31) المخدرات حقائق وأرقام: ترجمة نصار وشاهين: 159 - 161 (ط: 4/ 1988).

تختفي أعراض الاعتماد الجسمي للمورفين والهرويين والكوكايين في غضون أسبوعين، ولكن تبقى المشكلة بعد ذلك في العلاج النفسي والتأهيلي وهذا العلاج ليس بالأمر الهين وقد يطول أمده.

أثر المخدرات في المجتمع:

العلاقة بين الفرد وبين المجتمع الذي نشأ فيه علاقة عضوية متفاعلة يؤثر فيها ويتأثر بها كلاهما في الآخر ودراسة الظواهر التي تسود المجتمع مثل ظاهرة تعاطي المخدرات قد تكشف عن عوامل انتشار هذه الآفة بشكل مريع وسريع فيه، خاصة بين الأحداث بقصد معرفة الدواء الذي يعيد إليه صحته واجتناب أصل الداء، أو التخفيف من حدته وطاقته على الأقل، والمجتمع هو الذي يصف السلوك الاجتماعي بأنه سوي أو منحرف في ضوء عقيدته وأخلاقه وتقاليد المرعية فالمنحرفون أو الجانحون في نظره هم ذوو السلوك المضاد له والذين يكونون بالنسبة إليه عنصر قلق أو اضطراب، يمثلون خطراً على حياتهم، ويعرضون حياة الآخرين للخطر بإشاعة الجريمة عن طريق العدوى والاختلاط.

فالشعور بالنقص مدعاة لمضاعفة الجهد، والإحباط عامل لمزيد من البذل ولكن قد يكون كلاهما سبباً للاضطراب العصبي والسلوك الشاذ.

صحيح أن هناك مشاكل مشتركة بين المجتمعات البشرية عامة في هذا العصر، ولكن ذلك لا يعني استخدام مفاهيم واحدة من منطلقات غير مختلفة، فاختلاف نمط الحياة بين المجتمعات وتباين واقعها، وتنوع مشاكلها كل ذلك يفرض على الباحثين أن يقوموا بدراسات ميدانية استطلاعية تنسجم مع واقع المجتمع من ناحية، ولا تجتر الخطوات المنهجية لدراسات اجتماعية مماثلة في مجتمعات مغايرة.. ولكن معظم الدراسات الميدانية للواقع العربي في مجال انحراف الأحداث وتعاطي المخدرات لم تكن سوى تكرار لدراسات مشابهة أجريت في المجتمعات الغربية باستخدام أدوات البحث نفسها، في حين أن مشاكل المجتمعات العربية في ذاتها تختلف من قطر إلى آخر، فضلاً عن مشاكل المجتمعات العربية والمجتمعات الغربية.

فدولة الإمارات العربية تعرضت إلى تغيير كبير نتيجة نمو سكاني سريع بسبب توافد المهاجرين من مختلف الجنسيات عليها من الأيدي العاملة بعد سنة 1972 وذلك نتيجة لتطور إنتاج النفط في الدولة .

إذ دخلت منذ ذلك التاريخ مرحلة هامة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية أدت إلى اكتظاظ المهاجرين إليها من شتى الجنسيات والأجناس وعدم التجانس في التركيبة السكانية وظهور علاقات اجتماعية وأنماط سلوكية وقيم اجتماعية دخيلة كان من أبرز آثارها في المجتمع الإماراتي الذي كادت تصح تسميته بمجتمع المغتربين، أن ازدادت معدلات الانحراف والأمراض الاجتماعية بما فيها تعاطي المخدرات في بعض الأوساط التي كونت مناخاً مشحوناً بالمتناقضات لا يتسق مع أهداف التنمية الحقيقية المنشودة للمجتمع الإماراتي، رغم ما تقوم به جامعة الإمارات من خدمة المجتمع وتحقيق التطور العلمي فيه وإعداد المتخصصين والفنيين وتطوير المجتمع مع الحفاظ على تراثه المجيد ومقومات أصالته العربية الإسلامية⁽³²⁾.

ويتضح من الإحصائيات الرسمية للدولة الصادرة عن وزارة الداخلية بأن معدل جرائم الاتجار بها وترويجها في الدولة نزل إلى 159 جريمة سنة 1981 بينما كان عدد الجرائم في سنة 1980 مثلها و16 جريمة، وتبذل مكاتب مكافحة المخدرات على مستوى الدولة جهوداً كبيرة في مواجهة هذه الظاهرة الخطيرة ومحاولة الحد منها، وتأتي في مقدمة هذه الجهود حملات التوعية المتنوعة، ومحاولة التعرف على العوامل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي تؤدي إلى استنشاق المخدرات، وتحديد طرق المقاومة والوقاية والعلاج لهذا الوباء الفتاك⁽³³⁾.

ويتضح من الإحصائيات أن أكثر المتعاطين للمخدرات من الأجانب، وخصوصاً الآسيويين منهم، يليهم العنصر العربي فالمواطنون. وأكثر المواد المخدرة انتشاراً الحشيش والأفيون والهيريون.

(32) انظر مقدمة كتاب: المخدرات وظاهرة استنشاق المخدرات لناصر ثابت: (ط: الكويت 1984).

(33) المصدر السابق: 65 - 66.

ولحماية المجتمع الإماراتي مما يهدده لا بد من تعاون المواطنين مع الشرطة في ملاحقة المهربين والتجار وبالخصوص الطلاب الذين لهم من حصافة الرأي ومن الغيرة على وطنهم ما يدفعهم بحماس، وإخلاص للمقاومة التي تعتبر واجباً دينياً وواجباً وطنياً في الآن نفسه.

يقول علم الاجتماع: المجتمع مسؤول عن ضمان سيره في الطريق الذي انتهجه وعن أخلاق أفرادهِ وتمتعهم بحياة كريمة مستقرة، بعيدة عن الانحراف والفوضى، سواء في علاقات الأفراد ببعضهم، أو علاقتهم بالمجتمع كمجموعة تمثل أهدافاً مشتركة ومثلاً علياً هي على اتفاق بينهم. . فكان لا بد للسلطة المنبثقة عن هذا المجتمع أن تحدد طريقة مقاومتها لتسرب المخدرات وحماية ناشئها وشبابها جيل الغد وأمل الأمة من كل انحراف لا يقتصر ضرره على صاحبه في تهديم شخصيته، والقضاء على مستقبله، ولا على فئة من الشباب أصيبت بمرض عضوي أو عقلي أو أخلاقي يستوجب علاجاً دقيقاً لإعادتها إلى حالتها الطبيعية، بل إن الضرر يتجاوز الأفراد والفئات إلى المجتمع كله في حاضره ومستقبله فلا يقدر على تحقيق طموحاته في مجالات التنمية الشاملة، ولا في ميادين التقدم العلمي والحضاري، لأنه فقد السند الذي كان يعتمد عليه والطاقات الحية التي تنهض بأعباء المسؤولية، وحمل مشعل الرقي والنهضة وعلى قدر اتساع دائرة الضرر وعمقها يتضخم حجم الجريمة وتعظم المسؤولية في قمعها وملاحقة مرتكبيها.

وهذه المسؤولية التي تتحملها أجهزة الدولة بكل صرامة وحزم يجب أن يشرك فيها كل مواطن مخلص لربه صادق في وطنيته، فيحب لمجتمعه الذي نشأ في ظله وأفاد من خدماته، وعاش فيه عزيزاً آمناً فلا غرابة أن ترى المجتمع الدولي يهتم بظاهرة انتشار المخدرات منذ عهد بعيد، فتتضم ستون دولة إلى الاتفاقية الدولية للأفيون ثم تنضم معظم دول العالم إلى اتفاقية المخدرات التي جاءت في 52 مادة، ثم وقع تعديلها في بروتوكول 1972 لتكون أكثر مساهمة للأوضاع الجديدة وللتطور السريع الذي تتعرض له المخدرات في العالم وتعتبر الاتفاقيات الدولية جريمة المخدرات جريمة

دولية، تسمح بمتابعة الجناة خارج الحدود الإقليمية، ليتسنى استخدام قواعد تسليم المجرمين وهنا يقتضي أن تصير القوانين الداخلية لكل دولة أدوات فعالة للقانون الدولي من شأنها أن تساعد على توفير التدابير الناجعة لمكافحة هذه الظاهرة الوبائية الخطيرة على المستوى الدولي⁽³⁴⁾.

فإذا كان المجتمع الدولي على اختلاف أجناسه وأوطانه ومصالحه - يدعو إلى تضافر الجهود وتوحيد المساعي والقوانين للقضاء على جرائم المخدرات التي كادت تأتي على الأخضر واليابس، فكيف لا تتوحد جهود المجتمع الواحد الذي يجمعه رابطة الدين، ورابطة الجنس واللغة التاريخ ورابطة المصير المشترك.

إن الواجب الإسلامي والوطني ليفرض على أبناء هذا المجتمع أن يتجنّدوا لمكافحة هذا العدو للدين والأخلاق والعلم والحضارة، ولا ينسوا أنهم في سفينة واحدة، وخير مثل يحسم هذه الحقيقة ويوضح الترابط الوثيق بين أفراد مجتمع يؤدي كله ما يؤدي بعضه. . قول النبي ﷺ في حديث أخرجه البخاري في باب الشركة. .

(إن قوماً استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم.. فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهما وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)..

ثم إن كل الدراسات تحذر من خطر التزايد المستمر في عدد المدمنين الذين يستعملون المخدرات في المجتمعات الغنية والفقيرة على السواء.

وقد رت هيئة الأمم المتحدة حسب دراسة قام بها أحد خبراءها أن عدد المدمنين على المواد المخدرة المعروفة بلغ نحو ثمانية وأربعين مليوناً في العالم يتعاطون الحشيش أو الكوكايين أو الأفيون أو مشتقاته والأرقام في تصاعد مذهل يدعو إلى مزيد من الحزم واليقظة وتضافر الجهود في الكفاح

(34) مكافحة المخدرات: إعداد دار النشر للمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض: 145.

على المستويين الوطني والدولي⁽³⁵⁾.

يقول بعض علماء النفس: إن الأضرار النفسية لا تصيب المجتمع، بل يقتصر ضررها على المدمن، وبذلك يمكن القول بأن الإدمان مشكلة سيكولوجية لها أسباب نفسية كثيرة ينبغي معرفتها للاعتماد عليها في علاج حالات الإدمان.

والحق أن الأضرار التي تحدث نتيجة إدمان مواطن هي أضرار تمس المجتمع بدءاً بالأسرة الخلوية الأساسية له، فإن الأب أو الأم إذا كان أحدهما أو كلاهما مدمناً وأنجباً طفلاً يكون في هذا الطفل استعداد ما لضعف جهازه العصبي وقد يصبح فيما بعد مريضاً بمرض عقلي عضوي، إن الإدمان على المخدرات من قبل أحد أفراد الأسرة يحطم معنوياتها ويخفض مكانتها، فتسقط المثل العليا ويتجه الأبناء إلى الانحراف، وتنعدم فيها القدوة الحسنة، ثم تنتقل الأضرار إلى المجتمع فتمس نظمته وأخلاقه وتقاليده المرعية وهيئاته الاجتماعية.

ومن يرى في الإدمان أضراراً صحية جسيمة، فلماذا لا ينظر أيضاً إلى الخسائر الاجتماعية الفادحة التي تحدث من وراء الإدمان؟.

وأي جرم أعظم من جريمة شخص يساعد بصورة مباشرة على تفشي الإدمان وتجارة المخدرات في المجتمع الذي يعيش فيه، وهو مهياً نفسياً للقيام بأي نوع من أنواع الجرائم: سرقة، اغتصاب، تخريب، قتل... إلخ.

وجريمة من هذا النوع كشرارة في الهشيم، والمشاكل الصحية الناتجة عن الإدمان لا تقارن بمدى الأخطار التي تحيق بالمجتمع ورفاهيته وسلامته وأمنه، وحرية أفرادهِ. . . وكم تنفق من أموال في السهر على أمن المجتمع من هذا الداء الويل، ومطاردة التجارة فيه من ملاحقة المهربين وعلاج المدمنين لإرجاعهم إلى حظيرة المجتمع الذي أنكره وكرهه وخرجوا عنه وتجاوزوا قوانينه وأعرافه ولكي تعيش مجتمعاتهم ودولهم قوية متماسكة، وتقطع على

(35) عبد الحكيم العفيفي: الإدمان - 161 - 162 (ط: نصر 1986).

العدو ما يخطط له من إهدار قوتها وتهوين أمرها والفت في عضدها .

وقد لاحظ أحد الساسة من المفكرين الطريق الذي سارت فيه المخدرات وأن هناك دولاً بعينها تستخدمها كسلاح من أسلحة الحرب ضد الشعوب المستهدفة، لتهوين شبابها الذي سيفقد بالمخدرات كل إرادته وطاقته وعنفوانه، ويستسلم إلى الإدمان فالأضمحلال .

ويرى هؤلاء المحللون أن الشعوب العربية خاصة تأتي في قمة الشعوب المستهدفة، وأن الغاية الكبرى لحرب المخدرات في البلاد العربية هي الانهيار الاجتماعي الذي يعقبه الانهيار الاقتصادي، والاستسلام لإرادة الدول الخارجية، وذلك منتهى أي هدف سياسي على مدى التاريخ .

وقد نجحت مافيا المخدرات التي أصبحت لها مكاسب مادية ضخمة بعمليات التهريب والاتجار وبوسائل الترويج المتطورة التي اقتنحت الجامعات والمدارس .

ومما جاء في بيان مؤتمر دولي عربي للمخدرات انعقد في المملكة العربية السعودية :

- يهيب المؤتمر بالدول العربية التي لم تنضم إلى الاتفاقية الوحيدة للمخدرات سنة 1971م، وبالبروتوكول المعدل لها سنة 1972م، واتفاقية المواد النفسية لسنة 1972م أن تنضم إليها، وأن توفى بالتزامات المترتبة عليها .

- يناشد كلاً من تركيا وإيران وباكستان وأفغانستان والدول العربية المجاورة لها إلى وضع نظام ثابت يكفل تعاوناً أكثر فاعلية بين أجهزة مكافحة في هذه الدولة، وأن يتولى المكتب الدولي العربي لشؤون المخدرات العمل على تحقيق هذا الغرض .

- يؤكد المؤتمر أن التعاون الدولي في مكافحة المخدرات لا يتحقق بصورة فعالة إلا بتنظيم دقيق للاتصال السريع عند الحدود لتبادل المعلومات عن طريق الشبكات اللاسلكية الإقليمية .

- نظراً لما اتضح من أن الهجرة الخارجية إلى بعض الدول العربية، ولا سيما دول الخليج العربي، سهل تهريب المخدرات إليها. . فإن المؤتمر يهيب بهذه الدول أن تعمل على تنظيم الهجرة إليها، أو فرض رقابة تتضمن منع هذا التهريب. ودولة الإمارات العربية المتحدة، التي يدرك قادتها وشعبها ما للمخدرات التي تنشرها عصابات التهريب المنظمة من خطر على الأمن والصحة والعقل على مستويات الفرد والمجتمع والشعوب، فأسهمت في التصدي لهذا الوباء الفتاك، وعقدت في أبوظبي سنة 1413، 1992 مؤتمراً عالمياً لمقاومة المخدرات. . مؤتمر أبو ظبي العالمي.

الأحداث والمخدرات:

وتشير الدراسات التي أعدها خبراء عن تعاطي المخدرات أن معظمهم من الأحداث والشباب.

ففي دولة الإمارات العربية المتحدة أسفرت أبحاث ودراسات ميدانية عن الذين يمارسون استنشاق الغازات يمثل صغار السن منهم الأغلبية الساحقة، وقد انتقلت هذه الظاهرة حديثاً إلى مجتمع الإمارات من مجتمعات مختلفة عبر الهجرات الوافدة، ويرجع انتشارها إلى حب الاطلاع والتقليد والعدوى، حتى انتشرت بشكل سريع بين فئة معينة من فئات المجتمع وهم طلاب المدارس في مراحل التعليم العام الذين هم في سن صغيرة وقد اكتسبوا على الترتيب الآتي: من الأصدقاء والمدرسة والصحف والأجانب واعتماداً على استمارات وأبحاث ميدانية يمكن القول بأن معظم الأحداث الذين يمارسون الاستنشاق يقطنون في مناطق سكنية مختلطة من عدة جنسيات والظروف الاجتماعية السيئة التي يعيشون فيها من أكبر العوامل والدوافع، ومن أهمها:

الخلاقات الأسرية - الطلاق - تعدد الزوجات - عمل الوالدة خارج البيت - سوء تصرف الأب - وفاة أحد الأبوين وبالأحرى وفاتهما معاً - بعد الأهل -

الفراخ - الهروب من الواقع المر - صعوبة ظروف العمل⁽³⁶⁾.

وتجدر الإشارة إلى أنه لم تهيأ دراسة موضوعية عن تأثير الوراثة على تعاطي المخدرات خلال عدة أجيال لمعرفة ما إذا كان إدمان الآباء ينتقل إلى الأبناء، ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن الوراثة تؤثر في العوامل الشخصية الأخرى للفرد، إذ يرث الابن بعض الصفات الخلقية لوالديه، بل قد تنتقل إليه صفة خلقية لم تكن موجودة في أبويه، ولكنها موجودة في جد من أجداده.

وفي سنة 1939م أجرى (شوبرا) دراسة تحليلية على متعاطي الحشيش في الهند، فاستخلص أن نسبة كبيرة منهم يتسمون بالغباوة، وأن هؤلاء الأغبياء لا يستطيعون مواجهة ضغط الحياة فيلجأون إلى تعاطي الحشيش ظناً منهم أن ذلك يخلصهم من الإحساس بالكآبة نتيجة إخفاقهم في حل المشاكل التي تعترضهم وتتفق نتائج شوبرا مع ما ذهب إليه فقهاء علم الإجرام من أن الضعف العقلي يؤثر على التكوين النفسي للشخص ويجعله أكثر استجابة للمتغيرات الخارجية و التأثير بها، وبالتالي أكثر استعداداً للقيام بأي عمل إجرامي يحقق له حاجاته.

ومما يزيد الأمر سوءاً ازدياد نسبة الأحداث الذين يتعرضون لهذه المواد في سن مبكرة، كما يعني زيادة سنوات التعرض لها زيادة المشاكل الناتجة عنها كارتفاع النسبة من أسرة المصححات والمستشفيات العامة التي يشغلها المدمنون عدا المستشفيات الخاصة بالأمراض النفسية حتى كادت تصبح مشاكل الإدمان المستهلك الأكبر للموارد المخصصة للخدمات الصحية في كثير من البلدان وتوصي هيئة الصحة العالمية بإعطاء هذه المسائل أولوية خاصة من بين مشاكل الصحة العامة.

المضار الاقتصادية:

ومن المعلوم أن للمضار الاجتماعية انعكاساتها السيئة على الميدان الاقتصادي في المجتمع الذي يعاني من تلك المضار سواء أكانت بصفة مباشرة

(36) ناصر ثابت: المخدرات وظاهرة استنشاق الغازات: 110 - 116 (ط: الكويت 1984).

أم غير مباشرة، بحيث لا يكاد ينفصل أحد الميدانين الهامين الاجتماعي والاقتصادي عن الآخر في الشعوب، لما يجمع بينهما من روابط عضوية أو روابط النتائج بالمقدمات والأسباب بالمسيبات.

فتأثير سلوك الفرد والجماعة على صحة المجتمعات وسعادتها، وحياتها ونمائها يبدو للدارسين في وضوح وجلاء من خلال النظم الاجتماعية.

أما على الصعيد الاقتصادي فإن دراسة التكاليف المرتبطة بتناول هذه المواد المخدرة السامة تظهر أرقاماً مذهلة تقدر على أساس اعتبار هذه العناصر:

- كنقص الكفاءة في العمل ونقص الإنتاج.

- وفقد العناصر البشرية القادرة على النهوض بالأعباء المؤهلة لتقديم الخدمات للمجتمع على اختلافها، وخاصة في البلدان النامية التي تنفق مواردها على تكوينها وإعدادها، ثم تفقددهم في الوقت الذي تكون فيه الحاجة إليهم شديدة.

- كل ذلك بالإضافة إلى الطاقات البشرية المشلولة عاجزة عن العمل والإنتاج نتيجة إدمانها، وهذا لا يشمل التكاليف الناتجة عن إنتاج المواد المخدرة وتصنيعها وتسويقها وتوزيعها وإهدار الأرض الخصبة في زراعتها، وكانت زراعة الأغذية أحق بها وأجلر.

- وتقدر التكاليف الناشئة عن سوء استعمال المخدرات والعقاقير في الولايات المتحدة الأمريكية بخمسين بليون دولار سنوياً، كما يقدر ما يدفعه المتعاطون للمخدرات ثمناً لها في كندا بعشرة بلايين دولار سنوياً⁽³⁷⁾.

- ثم إن المجرمين عناصر فساد في التنمية الاقتصادية والنهوض الاجتماعي وارتباط الجرائم بالمخدرات لا يحتاج إلى بيان أو دليل بعد أن أثبتته الدراسات بالأرقام، والطريق بين الترويج والتخريب والإدمان مليئة بالضحايا والخسائر المادية.

(37) د. عصام الدين الشريني: دراسة عن الكحول والمخدرات: 18 - 20.

ثم إن ما تملكه عصابات المخدرات اليوم من إمكانات ضخمة وخبرة عجيبة وتقنيات حديثة متطورة في أساليب العمل واستخدام أشخاص ذوي كفاءة عالية في مجالات الكيمياء والتهرب والتجارة والاستثمار والزراعة والتصنيع ونفوذ يتناول في بعض البلدان إلى التأثير في القوى السياسية ومواقع السلطة وما يقابل ذلك كله من إعداد الحكومات لمكافحة هذه العصابات المنظمة من عناصر بشرية تنفق على تدريبها أموالاً طائلة وموارد مالية ضخمة في تسليح أعوان الأمن المدربين في هذا الميدان وتفريقهم في طول البلاد وعرضها لمراقبة الموانئ والحدود وكل ما هو مظنة لأوكارهم، ومتابعة هؤلاء المجرمين الخطرين للقبض عليهم.. وما يتعرض له كل واحد منهم إلى مفاجآت خطيرة قد تودي بحياته، بحيث لو بذلت هذه الأوقات والأموال والجهود والطاقت في مشاريع التنمية الشاملة التي تعود على الأمة بالتقدم وتحقيق الرفاهية والازدهار لكان لهذه البلدان شأن في الرقي.

والانكى من ذلك أن تعتمد بعض أجهزة المخابرات العالمية إلى تصيد بعض الأفراد اللامعين لإيقاعهم في برائن المخدرات خارج بلادهم، حتى تسيطر عليهم وتضطرهم لخدماتها في بلادهم، واستغلال خبراتهم العلمية والفنية في شتى المجالات، وهي طريقة أخرى من طرق تهريب الأدمغة وأهل الاختصاص.

وتشير تقارير المكتب العربي لمكافحة المخدرات إلى تصاعد الكميات المضبوطة من المخدرات والحبوب في لبنان ومصر والمغرب وإلى ظهور زراعات متفرقة للحشيش والأفيون في بعض الأقطار العربية.

والخسائر الاقتصادية الناجمة عن نفقات الأجهزة المتعددة في كل بلد من بلداننا العاملة في مجالات الوقاية والعلاج والمكافحة والصحة والأمن والإعلام ورعاية الشباب ضد هذا الداء الفتاك الذي يزداد استعماله وتتفاقم خطورته رغم هذه الجهود الجبارة، لا تكاد تحصى بالأرقام.

ولكن ما دام أمر الإدمان في تفاقم رغم أن كثيراً من الدول تستخدم أحدث الأجهزة في المراقبة والمقاومة، وأنجع الأساليب العلمية فإن المهربين

هم بدورهم يفتنون ويستعملون من التقنيات والحيل ما لا يخطر على بال، وهذه الحقيقة تدفعنا إلى البحث عن الحلقة المفقودة في جهودنا وفقدانها يقف دون النجاح المنشود.

وإذا كان ديننا شنع بالخمر فكيف بالمخدرات التي هي أعظم خطراً على المجتمع صحياً وخلقياً واقتصادياً. . قال: ﷺ في حديث أخرجه أبو داود وابن ماجه: (لعن الله الخمر وشاربها وساقياها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه). .

إن الخسائر التي تسببها المخدرات من قلة في الإنتاج وكسل وتقاعس عن العمل وأمراض بدنية ونفسية وما يلزم ذلك من تكاليف العلاج والتأهيل، ثم ما يلزم من تكاليف المراقبة وحراسة الحدود والثغرات التي يمكن أن يتسرب منها المهربون، ثم ما يلزم من تكاليف ملاحقتهم ومقاومتهم، إنا لما جمعنا هذه التكاليف كلها لبلغت أرقاماً خيالية.

وقد خصصت الإدارة الأمريكية مليارين من الدولارات لمكافحة المخدرات. . كما قدمت كولومبيا حوالي 65 مليون دولار كمساعدة عسكرية بهدف القضاء على المؤسسات العسكرية التابعة لتجار المخدرات بالإضافة إلى 19 مليون دولار لمعدات حماية قضاتها من رصاص فرق الموت التابعة لعصابات تجار المخدرات وقدمت تركيا مساعدات كبيرة بلغت ملايين الدولارات كي تبعد الزراعات غير المشروعة له، فلا يتسرب الأفيون إلى عصابات التهريب.

والحق أن أضرار المخدرات تتجاوز الجانب الاقتصادي إلى الأضرار الشاملة لكل مقومات الحياة.

ولم تزل السوق الأمريكية أكبر سوق استهلاك للمخدرات في العالم، وتأتي من بعدها السوق الإسبانية باعتبارها على مقربة من سوق الاستهلاك الأوربية.

وقد تمكنت الشرطة الإسبانية من ملاحمة كبار تجار المخدرات في ضواحي مدريد وصادرت أكثر من 200 كيلو غرام من الكوكايين تقدر قيمتها

بأكثر من ثمانية ملايين دولار.

وفي ألمانيا تبلغ عائدات سوق المخدرات نحو 300 مليار دولار سنوياً مما جعل اقتصادها يعاني أضراراً جسيمة من آثار تجارة المخدرات غير المشروعة رغم ارتفاع مستوى المعيشة فيها وما عرفت به من ازدهار اقتصادي في العالم.

وقد تحدث مدير الهيئة الباكستانية لمراقبة المخدرات في ندوة المخابرات الدولية التي انعقدت في أبو ظبي من 11 إلى 21 مارس سنة 1990 فقال: لا شك أن استهلاك هذه الكمية الضخمة في دولة فقيرة نامية يشكل خسائر فادحة وأزمة اقتصادية خانقة تلحق باقتصادها الوطني خسائر مادية لا تقدر، فضلاً عن الخسائر الأخرى الجانبية التي تقتضي مواجهتها نفقات تنعكس آثارها السلبية على المقومات الاقتصادية وعلى القوى الحية الفعالة التي تسهم في تنفيذ الخطة الاقتصادية للدولة وهكذا يتجلى أن المخدرات معول من معارول الهدم الاقتصادي في الدول⁽³⁸⁾.

من عوامل انتشار المخدرات:

أثبتت الدراسات العلمية عن المخدرات أن ارتفاع مستوى العيش، وتحسن الحالة الاقتصادية للمجتمع لا يخفض من حجم جرائم المخدرات خلافاً لما هو متعارف من أن سوء الحالة الاقتصادية يزيد في الجرائم والعكس بالعكس. فالمخدرات منتشرة في الدول المتقدمة الغنية والدول النامية الفقيرة والولايات المتحدة على سبيل المثال من أكثر دول العالم غنى ولكنها تعاني أكثر من غيرها تفشي المخدرات بين أبنائها، مما دفعها إلى تقديم العون للدول الفقيرة المنتجة للمخدرات حتى تحكم تلك الدول سيطرتها على عملية إنتاج المخدرات والاتجار فيها للتقليل من حجمها، فلا تأخذ طريقها إليها وفي الماضي كانت نتائج البحوث التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية تشير

(38) الإحصائيات والأرقام مأخوذة من دراسات ميدانية قام بها الصحفي (وجيه أبو ذكري) في أمريكا الشمالية وبعض دول أوروبا مع أجهزة مكافحة المخدرات (بارونات المخدرات) (ط: 1990).

إلى أن المخدرات تنتشر في المناطق الفقيرة جداً ذات المستوى الاقتصادي والاجتماعي المنخفض.

أما اليوم فقد تغير الوضع في كثير من أقطار العالم، إذا أثبتت البحوث انتشار تعاطي المخدرات بين طبقة الأغنياء أيضاً ولا تكفي عينة البحث التي اختيرت من بين المترددين على العيادة الخارجية الحكومية للعلاج المجاني وهم من الفقراء عادة، ما دام عدد لا يستهان به من الأغنياء يلتجؤون إلى المصحات الخاصة وإنما الاختلاف في نوع المخدر وجودة مادته، وتعليل ذلك أن الرخاء المفاجيء والأرباح الطائلة والحظوظ التي تؤدي إلى الغنى ووفرة المال قد تؤدي بدورها إلى الإقبال على تعاطي المخدرات، كما أن هذه الثروات تصبح هدفاً لمهربي المخدرات والمتجرين فيها الذين يحاولون فتح سوق جديدة لها في الدول الغنية حيث تكثر الأيدي العاملة الأجنبية.

وقد عرفت دول الخليج تعاطي المخدرات على أيدي العمال الذين هاجروا إليها، كما أن الكساد المفاجيء يؤدي إلى البطالة والتفكك الأسري، ويعني ذلك إحباط الأمل والشعور بالفشل وخصوصاً بين الشباب الذين يواجهون صعوبات جمّة في البحث عن عمل، ومن وجد منهم شغلاً لا يحصل منه إلا على عائد قليل لا يواجه به التصاعد المستمر في الأسعار وفي الوقت الذي تكون النتيجة فيه عائداً قليلاً وإحباطاً لدى الأغلبية، وعائداً ضحماً لدى أقلية غير مهياة أصلاً لإنفاقه ومن ثم تجد نفسها مندفعة لاستخدامه في تعاطي المخدرات وهتك الأعراض وإفساد الذمم ويتفاقم الخطب حين ينتشر في البلدان التي تروج فيها المخدرات ويسودها جو من التسامح تجاه الذين يتعاطونها ويعني ذلك أن القيم السائدة فيها لا تدين هذا السلوك، بل تعتبره عملاً غير مستهجن أخلاقياً ويظهر أثر هذا التسامح في التخلي عن إعانة السلطة على ضبط جرائم تعاطي المخدرات وملاحقة مهربيها والمتاجرين فيها⁽³⁹⁾.

(39) محمد فتحي عيد: جريمة تعاطي المخدرات في القانون المقارن: 2/ 203.

وقد ظهر من نتائج بحث ظاهرة تعاطي الأفيون في مدينة القاهرة وخاصة الحشيش أن هناك معتقدات لم تزل راسخة في أذهان الكثيرين من المصريين أن تعاطي المواد المخدرة لا يتنافى مع أحكام الدين⁽⁴⁰⁾ وهذا ما يحصل في اليمن بتعاطي القات. لذلك فإن التوعية الدينية بتحريم الشرائع السماوية للمخدرات سوف يكون لها أثر في التقليل من حجم هذه الظاهرة على الأقل. . . وسنعود إلى الحديث عن تحريم الشريعة الإسلامية للمخدرات مع اختلاف التأثير في التخدير.

ومن أسوأ العادات التي كانت منتشرة في مصر جلسات تعاطي الحشيش الجماعية أثناء الاستماع للفرقة الراحلة أم كلثوم في حفلها الشهري، ومن العادات المنتشرة في القرى الكائنة بالمناطق الجبلية جنوب قسنطينة بالجزائر قيام النسوة المتزوجات في اليوم السابع والشعرين من شهر رمضان المعظم بإعداد فطائر لأزواجهن مخلوطة بالحشيش⁽⁴¹⁾ ومن عوامل البيئة الخارجية المؤثرة: بيئة العمل فالنشاط المعني للفرد والبيئة التي يزاوّل فيها نشاطه لها تأثير في الفرد على تعاطي المخدرات بالاعتداء أو الانسجام أو التقليد الأعمى فالفرد ميال بطبعه إلى الانضمام لغيره ممن يشبهه في المزاج والعادات بقصد قضاء وقت الفراغ، وتلعب الصحبة هنا دوراً هاماً. . . وكذلك بيئة الأصدقاء والرفاق والزملاء.

والغريب أن كثيراً من المسلمين ذكروا بداية تعاطيهم للحشيش وكانت في صحبة أصدقاء من العمال المتسولين باسم الدين (الدرائش) أو بدافع من حب الاطلاع بعد أن زين لهم المتعاطون له تناوله، وأخذوهم معهم إلى عالم القصص والأساطير والخيال.

ولا ننسى ما تلعبه العوامل السياسية من دور في تعاطي المخدرات فإذا كان الشعب مسلوب الإرادة بسبب الاستعمار أو الاضطهاد، وما يتبع ذلك من تخلف وفساد في النظم الاقتصادية والعلاقات الإنسانية والاجتماعية بوجه عام

(40) سعد المغربي: ظاهرة تعاطي المخدرات: 114 (ط: القاهرة 1962).

(41) سعد المغربي: تعاطي المخدرات: أسبابه ودوافعه: 92 (ط: القاهرة 1971).

كالصين قبل التحرير، وكذلك الهند وجنوب أفريقيا والدول العربية التي عانت من فساد بعض الأنظمة السياسية ما عانت.

وقد كانت المخدرات وما زالت من أعظم أسلحة الأطراف المتحاربة استخدمها الفيتناميون في إضعاف قوة الجنود الأمريكيين في حرب فيتنام، كما استخدمها الانجليز من قبل لإحكام قبضتهم على الصين⁽⁴²⁾.

فالهوة بين الحاكم والمحكوم إذا ضاقت استتب الأمن والنظام وقل حجم جريمة تعاطي المخدرات، وإذا زادت الهوة اتساعاً بينهما تفاقم حجم تلك الجريمة.

أما الأسرة فتشكل الخلية الأساسية للمجتمع فيها ينشأ الطفل ويتكون، ويكتسب اتجاهاته ومواقفه إزاء نفسه والآخرين فهي التي تتيح للطفل فرص النمو وتوفر له الحماية والأمن، وتكفل الغذاء الحسي والوجداني، فإذا فقدت عنصراً هاماً من عناصر اكتمالها أصبحت عاملاً من عوامل ارتكاب الجرائم فهناك أفراد نشأوا في أسر يائسة ممزقة محرومة من التغذية الكافية والسكن الصحي بالإضافة إلى ما قد يتتابها من تفكك أسري وتأزم الخلافات بين الأبوين إلى درجة الطلاق، ثم تزوج الأب بزوجة أخرى وجهلها بطرق التربية السليمة إما بالإهمال المطلق للطفل أو بالقسوة البالغة نحوه مما يدفعه إلى الارتعاش في أحضان قرناء السوء الذين يدفعونه إلى تناول المخدرات وإلى شتى أنواع السلوك الإجرامي.

إن فشل رب الأسرة في توفير الحد الأدنى من مستوى العيش اللائق قد يحمله على الهروب بالمخدرات من الواقع الأليم الذي يعيش فيه إلى عالم يغيب فيه عن كل ما يقض مضجعه وينغص عليه عيشه، لا سيما إذا توفرت المخدرات وسهل الحصول عليها، وقد رأينا في كثير من بلدان العالم أن الجهود المبذولة للتأثير على عرض المخدرات تفوق الجهود المبذولة للتأثير

(42) محمد فتحي عيد: جريمة تعاطي المخدرات: 216/2 (ط: المركز العربي للدراسات الأمنية

على الطلب والتي تتمثل في التوعية والوقاية والعلاج والتأهيل وضبط الجريمة وتسليط العقوبة على مرتكبيها.

ولا يخفى أن مدى اتساع التجارة ونشاطها يكون بحسب العرض والطلب فإذا انتهى الطلب كسدت التجارة وباءت بالخسران أيأ كانت أساليب العرض المغرية، ولكن الطلب لا ينقضي ما دام المتعاطي يسخف بالعقوبة التي تسلط عليه نظراً لتسامح أجهزة المكافحة حياله بدعوى أن حالته الصحية تدعو إلى الشفقة والعلاج من الإدمان - ولم يحدث في مصر على سبيل المثال أن حكمت على المتعاطي بعقوبة السجن إلا نادراً⁽⁴³⁾ ولقد سألت أحد رؤساء محكمة الجنايات عن عقوبة المتعاطي للمخدرات، فأجابني بأن أقصى عقوبة حكم بها في هذه القضية هي الحبس الذي لا تزيد مدته على ستة أشهر مع غرامة . . ويرى أن العقوبة إن زادت عن هذا الحد أصبحت لا تتناسب في رأيه مع درجة الإثم.

وهناك ملاحظات تستخلص من البحوث يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار وهي أن تناول المخدرات يزداد مع انخفاض مستوى التعليم، ويقل مع ارتفاع مستواه ذلك أن التعليم تربية، فإذا أفلح في تهذيب النفس حد من التصرفات الإجرامية ومما يشجع على تعاطي المخدرات إعطاء المثل السيء من رب الأسرة وأحد أفرادها وقد ثبت من نتائج استطلاعي لظاهرة تعاطي الحشيش أن 58 في المائة من المتعاطين له أقروا بوجود شخص في أسرهم يتعاطاه، وإن هذا الشخص قد يكون الأب أحياناً والأخ أحياناً وأحد الأقارب أحياناً أخرى.

ومن الوهم ما يتصوره المتعاطي وهو أنه يجد راحة ويستطيع أن يتحمل مشاكل الحياة تحت تأثير مثل هذه المخدرات وهو خطأ شنيع أكد الواقع خلافه، وذلك بما يحدثه الإدمان من كآبة وما يحدثه من جو قائم في عالم النفس، كما بين ذلك الأخصائيون من الأطباء ودليلهم على ذلك أنه لو انتهت مشاكلهم هل يزول ذلك الارتباط الوهمي بين متاعبهم قبل تعاطي المخدرات

(43) المصدر السابق: 233.

وراحتهم بعد تناوله لها، فإن الخلايا والأنسجة بالجسم قد تعودت على ذلك فلن تستطيع التخلص منه فلا يتوقف تعاطيه لها بمجرد انتهاء مشاكله وهمومه لأن الإدمان يحتاج إلى علاج صحي طويل، ومن ناحية أخرى فإن الإدمان أصبح سلوكاً منحرفاً لعدم مسايرة المعايير الاجتماعية من قبل المدمن الذي صار مريضاً نفسياً يحتاج إلى علاج نفسي أيضاً يهدف إلى استعادة تكامله وانسجامة مع الجماعة وتوضح بعض النتائج أن الأفراد الذين يرفضون معايير الجماعة الكبرى كثيراً ما يحاولون تكوين جماعات صغيرة يشترك أفرادها جميعاً في الانحراف وحينما تكون هذه الجماعات ويحقق الفرد فيها إشباعاً لحاجاته الاجتماعية الفطرية فيه يصير من العسير أن يستعيد تكامله مع المجتمع الكبير، وهناك عامل فردي هام وعام لا ينبغي تناسيه من تحليل أسباب تعاطي المخدرات وهو ضعف الشخصية فالشخصية المتزنة المتمتع بالصحة النفسية إذا تكاملت جوانبها وانتظمت في كيان نفسي متضامن لا تنهكه الصراعات التي قد تدب داخل هذا الكيان تكون محصنة من الانحرافات أياً كان نوعها.

أما إذا تعرضت الشخصية لاختلال وعدم اتئلاف بين جميع مكوناتها وتعرضت لصراعات موصولة وإحباطات متعددة أدى ذلك إلى سوء توافقها الشخصي والاجتماعي وبدت عليها مظاهر الاضطراب، ومن ثم يظهر عدم تكامل الشخصية واضطرابها في صورة انحرافات سلوكية، أو صورة مرض نفسي أو مرض عقلي واضطراب الشخصية ليس بظاهرة بسيطة فإنه يرجع إلى عوامل متعددة متشابكة ومعقدة، تدخل فيها عوامل كامنة وراء تلك الاضطرابات كالمكونات الجسمية والمكونات النفسية والعقلية، والبيئة والنظام الاجتماعي العام ونحو ذلك مما يؤدي إلى فقدان الثقة في الذات وفي المجتمع وإلى التشاؤم في الحياة والهرب من مواجهة الناس.

ومن أنجع وسائل العلاج لهؤلاء أن نبعدهم عن العوامل السلبية العالقة بهم بتعويضها بالتثقيف والتعليم والتكليف بالمهام الاجتماعية السهلة والاعتناء بوقت الفراغ ودعم الثقة بالنفس، وتوجيه طاقاتهم إلى هدف واقعي يطلبون تحقيقه وعندئذ يجدون أنفسهم.

فتحقيق الذات يقضي على كثير من الانحرافات وللأسرة دور أساسي في ذلك، إذ أن أغلب حالات الاجرام ومرضى العيادات السيكولوجية خرجوا من بيوت محطمة خلت من الود والعطف والمحبة أو بيوت فرقها الموت، أو غيرها كتعدد الزوجات أو بيوت فشل أربابها في الاحتفاظ بالاعتدال والتوازن بين الحرية والكبت أو بيوت يسودها التزمت ويملاً جوانبها الخوف والخلافات والانفعالات الحادة والقسوة والشدة وسوء المعاملة كما أن للمجتمع تأثيراً على سلوك الفرد ومن قال: إن بداية الخيط في كل خطيئة في كل جريمة تكمن في هذا المجتمع لا يجانب الصواب، ذلك أن الشر يسري في أفراد هذا المجتمع كما تسري النار في الهشيم.

فعدوى المخدرات وسائر الرذائل سريعة الانتقال في مجتمع لا يجد الصغار فيه مكاناً للتوجيه والتوعية والتكوين والتبصير بالعواقب، وكان ممثلاً بالتناقض، وبارذواجية الشخصية وتباين التصور الذاتي لأفراد المجتمع وفئاته لما ينبغي أن يكون عليه، والصراع القائم فيه بين القديم والحديث وبين الشباب والشيوخ وبين المثقفين أنفسهم لاختلاف نوع الثقافة ومصادرها ومدى تأثير أصناف من أبناء المجتمع بالتيارات الفكرية المعاصرة. ومن هنا يصح القول بأن المعايير السائدة وهي تختلف من مجتمع لآخر مسؤولة إلى حد كبير عن إدمان المخدرات وعن نسبة المدمنين، وعن الجرائم التي تحدث فيه عموماً.

فالمجتمعات في مختلف الأقطار الإسلامية ليست سواء طالما بقي الإسلام في بعضها معزولاً بأحكامه وتعاليمه وآدابه وثقافته التي عوضتها أو عوضت الكثير منها القوانين الموضوعية، والتعاليم والآداب التي فرضتها التقاليد والثقافة الأجنبية الغازية والتعدد في الأدوار الاجتماعية الناجم عن تنوع الثقافات الفرعية وتعدد لها لدى الفئات والأفراد والأسر والمجموعات يعتبر عند علماء الاجتماع عاملاً أساسياً في تحديد صور الانحراف، ونظرة المجتمع إلى كل صورة من صورها، ودور الفرد في المجتمع يحدد سلوكه وتصرفاته فليس تحريم الخمر في بلد ما، كفتح سوقها في ذلك البلد للاستهلاك والإنتاج

والإتجار، فالضغط الاجتماعي في البلد الأول يستفزع شرب الخمر فيخشى كل فرد فيه ردود فعل المجتمع، ولكنه في البلد الثاني لا يجد ذلك الضغط ولا تشديد التكرير عليه، فيقدم على تناوله في ظروف أشبه بالظروف الطبيعية لأن مجتمعه أصبح لديه ذلك مألوفاً وعادياً كأنه بلد غير مسلم.

فللقبوض الاجتماعي تأثير كبير على سلوك الأفراد وليست المجتمعات البدائية كالمجتمعات المتحضرة ولا الإسلامية كغيرها.

ومن أسباب تعاطي المخدرات إحساس المهاجرين إلى البلاد الأجنبية التي تتحلل مجتمعاتها من قيود نحن نلتزم بها كشرب الخمر والفسوق والاختلاط والزنا، بالغرابة والانعزالية والانهمامية أمام ما يعانونه من سوء معاملة وتمييز عنصري وضعف شخصية بالإضافة إلى الجزاءات الجنائية الهينة للمدمنين في كثير من تلك البلدان التي تعتبر تعاطي المخدرات ليس فعلاً اختيارياً محضاً ولكن يرتبط بعوامل أخرى نفسية أو بيئية أو اجتماعية، تكاد تجعل المدمنين من ضحاياها فتلتبس المحاكم أسباب البراءة والتخفيف عن المتهمين كما أن منح مأموري الشرطة العدلية سلطات واسعة في دخول المنازل وتفتيشها لضبط جريمة التعاطي انتهاك للحريات لم يعد مقبولاً في عصر حقوق الإنسان والجزاءات الجنائية التي يقترحها أمثال هؤلاء المتسامحين يقوم على أساس مبدأ التفريد، وهو دراسة كل حالة من أحوال المدمنين بصفة منفردة ليدخل في ذلك اعتبار حالته وظروفه الخاصة والعامة والجزاء المقترح لبعض هذه الفئات هو إيداع المدمن في مصحة علاج إلى أن يشفى من إدمانه.

ولعل من أكبر عقوبات متعاطي المخدرات بعد صدور تشريع 1970 هي الحبس من شهرين إلى سنة، والغرامة من خمسمائة إلى خمسين ألف فرنك، أو بإحدى العقوبتين، في حين طالب بعض رجال القانون من الفرنسيين قصر العقاب على حالات التعاطي العلني والجماعي ولكن المجتمع الفرنسي الذي يعاني تعاطي الكثير من شبابه المخدرات لم يستجب لذلك خوفاً على شبابهم أن يصبحوا عبيداً للمخدر الذي يدمنون عليه، وما يترتب على ذلك من فساد وتجاوز للحدود.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن لجنة مؤلفة من علماء في القانون والطب والاجتماع قامت بدراسة هذه القضية في فرنسا وأوضحت في التقرير الذي رفعته لرئيس الجمهورية في يناير 1978 أن تعاطي الحشيش لا ينبغي أن يعامل في العقوبة بشدة وأوصت اللجنة النيابة بعدم إقامة الدعوى العمومية على المتعاطين للحشيش أو لعقاقير أخرى كلما أمكن إخضاعهم لبرامج العلاج والتأهيل.

وهل تؤدي مثل هذه السياسة التأديبية على جريمة تعاطي المخدرات إلا إلى تصاعد معدلها؟.

ومن هذا العرض السريع الموجز لعوامل انتشار المخدرات في مختلف أنحاء العالم يمكن تصنيف تلك العوامل إلى ثلاث مدارس.

- المدرسة الاجتماعية، وهي المدرسة التي نشأت في ظل علم الاجتماع الذي يقوم أساساً على ما للعوامل الاجتماعية من تأثير على الفرد، مثل التفكير الاجتماعي، وما تفرع عنها من نظريات أهمها نظرية التجمع التفاضلي ونظرية صراع الثقافات والحضارات والعوامل البيئية والجغرافية والاقتصادية.

- مدرسة الإجرام الفردي، التي تخلص إلى أن أسبابه تكمن كلها في التكوين العقلي والفيولوجي، وتتركز هذه المدرسة على دراسة شخصية المجرم من جميع جوانبها العضوية والنفسية والاجتماعية، وترى أن المجرم يتصرف بما يتفق مع الذات الدنيا بعد أن انعدمت (الأنا العليا).

- المدرسة التكاملية التي ترى أن التفسير الصحيح للسلوك الاجرامي يتطلب أن يتم التكامل بين المدرسة الاجتماعية والمدرسة الفردية، فظاهرة الاجرام هي ظاهرة في حياة الجماعة وحياة الفرد وبحثها يشمل الجوانب الاجتماعية والفردية معاً.

ولعل هذا الاتجاه أقرب الاتجاهات الفكرية إلى الحقيقة إذ أن المنهج فيه تناسلي في تفسير السلوك الاجرامي وجريمة تعاطي المخدرات شأنها شأن أية جريمة أخرى تعتبر خليطاً من عوامل فردية وبيئية، ولا بد من دراستها معاً في البحث عن تلك العوامل المؤثرة.

وينظر علماء النفس إلى التكوين النفسي بوصفه العامل المؤثر في تناول المخدرات، ويقررون أن هنالك دوافع سواء شعر بها الشخص أم لم يشعر هي التي تدفعه.

والحقيقة أنه لا يمكن الأخذ بهذا الرأي على إطلاقه، إذ التكوين النفسي ليس هو السبب الوحيد، فإن عدة عوامل أخرى تتداخل لدفع الشخص إلى تعاطي المخدرات.

ومنها أسباب خارجية تتعلق بأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية التي تولد الهم والغم وتقود إلى هذه الجريمة هروباً من الواقع الأليم الذي يعيش فيه المدمن إلى واقع بديل ينسى فيه همومه ومشاكله ولو إلى حين، ومن الأسباب أيضاً السعي وراء المرح والمتعة النفسية المزعومة بإدخال السرور والابتهاج على النفس تخلصاً من أعباء الحياة وأحزانها.

كما تدل على ذلك بعض الدراسات وإلا فبم يفسر تعاطي بعض الأغنياء ورجال الأعمال للمخدرات⁽⁴⁴⁾؟

سبل الوقاية :

للوقاية من تعاطي المخدرات وترويجها بالتهريب والاتجار وسائل متنوعة ينبغي تضاعفها جميعاً لتحصل النتيجة المأمولة وهي مادية أمنية، وزجرية ردعية، وأدبية تربوية.

- وتتمثل الوسيلة الأولى في تدريب فريق من حفظة الأمن على طرق المراقبة والمقاومة والملاحقة ومعرفة المظان التي يتوقع أن تكون أوكاراً للجريمة والمصادر الآتية منها، ومسارب دخول هذه الآفة الفتاكة جواً وبراً وبحراً. فمعرفة الموانئ الجوية التي يكثُر دخول المخدرات عن طريقها تجعل الشرطة وأعوان الجمارك في يقظة وحزم بالمرصاد فهي تراقب جيداً الطائرات القادمة من تلك الأماكن مع الانتباه إلى أن المهربين قد يغيرون خط سيرهم

(44) محمد فتحي عيد: جريمة تعاطي المخدرات : 194 - 195.

إلى بلد لا تشتبه السلطات في ورود المخدرات منها فلا تغفل عن المراقبة والتفتيش جاعلة نصب عينيها هذه الحقيقة وهي، أن تجارة المخدرات تهدد كيان الشعوب وتستنفد ثروة البلاد وتقضي على طاقات شبابها وطموحاتهم العلمية وتنتشر الفوضى في المجتمع.

ومن مميزات تهريب المخدرات عبر الموانئ الجوية: سرعة النقل وعدم تعرضها للتلف واستخدام الجيوب السرية في الحقائب وبالأخص وبالحقائب العاملين في الجهات الدبلوماسية التي لا تتعرض عادة لأي تفتيش نظراً لطبيعة عملهم واستعمال بعض المهربين الأطفال ببعض عمليات التهريب، لأن ذلك لا يعرضهم لكشف هويتهم ولا للعقاب القانوني.

وكذلك وسائل التكنولوجيا المعدة عن المخدرات داخل الحقائب تقدمت اليوم، و تلقى أن توضع الحقيقة أمام جهاز خاص فيظهر كل ما فيها على شاشة تليفزيونية وهذا من شأنه أن يقلل من فرص التهريب عبر الموانئ الجوية، ولا سيما استعمال الكلاب المدربة على شم أنواع من المخدرات لشم الحقائب.

أما التهريب برأ عبر الحدود فهو أيسر لدى المهربين نسبياً لأنهم قد يبتعدون عن الحدود البرية حيث المراقبة والتفتيش ويخترقون الجبال أو الصحراء أو الغابات حيث تنعدم المجتمعات وتشعب المسالك وتوسع ويسهل هروب المهربين أو التجار أو يتفادون العمليات التي تتم عن طريق الموانئ الجوية والبحرية.

- وأما التهريب بحراً ففيه عدة عوامل تساعد المهربين كالتضاريس الجبلية على البحر الأحمر مثلاً فإنها تكون مخبأ لإخفاء المخدرات عندما يشاهدون وجود نشاط ملحوظ من قبل السلطة.

فالخبرات الجيدة التي يكتسبها رجال من المختصين في مكافحة المخدرات بالتعليم والممارسة ومواكبة التطور السريع للحيل الشيطانية المتجددة التي يتفنن فيها التجار والمهربون والوسطاء كل ذلك يدخل في

عوامل الوقاية من انتشارها، فمعرفة مصدر الداء ومكانه تفتح الطرق الموصلة إلى التوقي منه ومكافحته والقضاء عليه من منبعه قبل أن يستفحل خطره ويعم ضرره.

ومن ذلك مثلاً:

مراقبة المزارع التي تزرع المخدرات تحت مظلة الصناعة الدوائية الأوروبية فتوسع من الكمية المطلوبة ومن المساحة المزروعة مما أدى انتشار الأفيون بشكل رهيب وقد ذلت بعض الأدوية المحتوية على الأفيون والتي تباع دون وصفة طبية في جميع الصيدليات البريطانية حتى بداية السبعينات وقد وضع القانون المصري رقم 183 لسنة 1960 أكثر من 35 مستحضراً دوائياً محتوياً على الأفيون تحت المراقبة⁽⁴⁵⁾ وقد اتضح في بعض المؤتمرات الطبية أن هذه القائمة الطبية الطويلة من الأدوية التي لا تخلو من المخدرات يمكن اختصارها بحذف أدوية لا حاجة إليها.

وقد تبين للأطباء أنهم قاموا - عن غير قصد - بتسميم مئات الآلاف من البشر وجعلوهم مدمنين على الهيرويين ولا سيما الأطباء البريطانيون بعد سنة 1968 أدركوا هذه الحقيقة المرة وغيروا رأيهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاستخدام الرئيسي للأدوية المخدرة لم يكن مقصوداً على إجراء العمليات الجراحية أو علاج بعض الأمراض مثل الصداع، بل تجاوزه إلى نطاق أوسع شمل ملايين الأشخاص الأسوياء الأصحاء الذين يشتكون من القلق والأرق والاكتئاب، حين قامت شركات كبرى لصناعة أدوية يسيطر عليها اليهود إلى حد كبير باكتشاف مواد جديدة مسببة للإدمان ونشرته على نطاق واسع، إذ أن شركات الأدوية تعتبر أكثر الشركات ربحاً بعد شركات السلاح وتبلغ أرباحها السنوية عشرات الآلاف من ملايين الدولارات ولم تدعن إلا بعد أن وجدت عشرات العقاقير البديلة التي لا تسبب ضرراً بشهادة الأطباء المختصين أنفسهم.

(45) للمخدرات الخطر الدائم: محمد علي البار: 306 - 308 (ط: دار القلم دمشق 1988).

ومن المخدرات التي تزرع في المزارع:
الخشخاش الذي يستخرج منه الأفيون في شرق آسيا وفي لبنان.
والكوكا في أمريكا اللاتينية: كولومبيا والبيرو، والمكسيك.
والحشيش في المغرب والسودان وتركيا ولبنان، ومن المعلوم أن مصانع
تحويل الأفيون الخام إلى هيروين قد انتشرت في تركيا ولبنان.
والحد من هذه المزروعات الخطيرة على بني الإنسان، وحجرتها لا
يتأتى إلا عن طريق دولي كمنظمة الأمم المتحدة التي تملك حق المراقبة.
فمعرفة هذه الحقائق تبعث على التفكير في الوسائل الكفيلة بالوقاية من
آفة الصحة والحضارة وتقطع الطريق على المهرب والتاجر والمروج، فلا تترك
لهم المجال للتجارة في المخدرات، وإذا حصل شيء من ذلك فليس بهذه
الكثرة والانتشار.

فلا بد إذن من وقفة عالمية حازمة بين الدول لإيقاف هذا التيار الماحق
بمختلف الطرق، ولو كان ذلك عن طريق القوة، إذ أن مكاسب زراعة
المخدرات خيالية وليس من السهل أن يتخلى هؤلاء عن زراعتها ويستبدلوها
بزراعة الحبوب أو الفواكه ذات المردود الاقتصادي الضئيل بالمقارنة مع مردود
الحشيش أو الأفيون أو الكوكايين.

ولا وقاية عند انتشار هذه الأوبئة وإنما الوقاية في منع زراعتها أو
الاقتصار على زراعة القدر المطلوب طبيياً وما يزال المزيد من صناعات الأدوية
يطغى باسم العلاج والشفاء، وكثير من الأطباء ينعون في الأحاييل والمغالطات
التي تصنعها هذه الشركات العملاقة بثروتها الطائلة، ويمن يقف من ورائها
يدعمها ويشد أزرها، ثم يكتشفون أن فائدة هذه العقاقير محدود، وأن
مخاطرها جسيمة، وأنهم قاموا بتسبب الإدمان لعشرات الملايين من البشر⁽⁴⁶⁾.

ومن هنا التماثل في النتيجة والهدف بين بعض شركات الأدوية وشركات

(46) المخدرات: محمد علي البار: 310 (ط: دار القلم دمشق).

السلاح فكلاهما يسعى إلى الربح الوفير ويصنع وسائل التدمير، فمراقبة هذه الشركات والمزارع من أهم وسائل الوقاية غير المباشرة من آفات المخدرات.. كما تشمل هذه الوسائل كل الطرق الإعلامية طارفاً وتليدها.

وقد أصبحت اليوم بعض الأفلام السينمائية والأشرطة التلفزيونية كذئب هائج تفترس مكارم الأخلاق وتدعو عن طريق الإيحاء والإغراء إلى الغواية وتحجب الأهواء وتزين الفواحش وتخدر الطاقات الحية بلون آخر من المخدرات، لأن كثيراً من النجوم والكواكب في الفن يعانون من الإدمان في واقع اليم يزري بكرامة الإنسان الذي زينه بالاستقامة والإيمان وميزه بالفضيلة والإحسان. وفي بلدان العالم الثالث بما فيه العالم الإسلامي تقوم الأجهزة الإعلامية الأخرى ببيع آلاف الأفلام والمسلسلات الهابطة لعرضها على الشعوب الفقيرة مادياً وعلمياً لتخديرها فتدفع لهم مئات الملايين من الدولارات لتبتاع منهم أشرطة الغناء المائع والرقص الخليع والموسيقى الصاخبة في الوقت الذي يدعو فيه الساسة إلى حياة التقشف وربط الأحزمة والإقبال على التكنولوجيا الحديثة والتطور العلمي التقني وجامعاتهم خالية من أجهزة المخابر التعليمية ووسائل البحث العلمي.

وفي الفترة الأخيرة انغمس الكثيرون من نجوم الفن في بؤرة المخدرات، فأين الفن الرفيع الذي يسمو بالإنسان، ويعلي منزلته في الكون ويفرس فيه بذور الخير والحق والجمال من هذا الغشاء الذي ينزل بمستواه إلى حضيض الحيوانية والرذيلة؟.

كتبت صحيفة أخبار اليوم في 15/10/1985 صفحة 5 - تحت عنوان (مسلسلات يكتبها الفنانون بأنوفهم إن نجمة معروفة في عالم فن الغناء تشم الهيرويين قبل أن تغني في حفل عام).. وتبدأ الصحيفة بالنغمة المعروفة (كل إنسان حر يعيش بالطريقة التي تعجبه، ويموت بالطريقة التي تعجبه، وهو مفهوم خاطئ، يرفضه الإسلام، فالإنسان في الإسلام ليس حراً يعيش كيف يشاء ويموت كيف يشاء، بل ينبغي أن يكون عبداً لله يعيش كما أمره الله ويموت كما أمره الله: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين⁽⁴⁷⁾.

ويستطرد كاتب المقال في تلك الصحيفة المعروفة فيقول: إن الشخصيات العامة هي التي يجب أن تقيد سلوكها أكثر من سائر الناس ويأتي رجال الفن الذين نالوا شهرة على أوسع نطاق في مقدمة هؤلاء الذين يعرفهم العامة والخاصة، فإن التمسوا لأنفسهم عذراً وقالوا نحن بشر، قلنا لهم: لكنكم نجوم وخطورتكم أنكم نجوم، يعتبركم الشباب المعجب بفنكم مثلاً وقدوة فيقلدكم عن غير وعي ويتوهم أن مثل هذه الأعمال المشينة ترتبط بالعبقريّة وقائمة الشامامين في الأوساط الفنية اللامعة طويلاً للأسف الشديد⁽⁴⁸⁾.

أما الوسائل الوقائية المباشرة فكثيرة متنوعة ويأتي في مقدمتها:

الوازع الديني:

وهذا العامل من أعظم العوامل تأثيراً على السلوك وعلى احترام التعاليم الإسلامية، ونشدان الفضيلة، واجتناب ما نهانا عنه ديننا الحنيف، ولكن هذا العامل المؤثر أخذ في الضمور والتضاؤل في نفوس شبابنا، ونتيجة جهله بحقيقة الدين أو فراغ قلبه من الإيمان أو ابتعاده عن التدين كي لا يوصف بالتخلف والرجعية والأصولية التي قرنّها أعداء الإسلام بالإرهاب والعنف والتدمير أو تهمة قلب نظام الحكم.

وحرصت بعض الدول على إبعاد الشباب المسلم عن حظيرة الإسلام والتمسك به وسمت ذلك حرية وتقدمية، وللغزو الثقافي الأجنبي دور فعال في تحويل وجهة الشباب نحو وجهة غريبة أو شككت أن تقضي على هويتهم الإسلامية لا سيما الشباب الذي سافر إلى الغرب وإلى مناطق مختلفة من العالم واختلط بجنسيات متباينة وتأثر بعادات وثقافات وأخلاق منافية لروح الإسلام، وقد شاركت وسائل الإعلام الأجنبي وحتى الإعلام لدى بعض

(47) سورة الأنعام، الآية: 162 - 163.

(48) انظر: المخدرات: الخطر الداهم (314).

الأقطار التي تنتمي إلى الإسلام جغرافياً ووراثياً، في إفساد الأخلاق ونشر الرذيلة وانتشار المخدرات واستهواء الجنس والكأس والملاهي.

وقد أدت المشاكل الاجتماعية المتفاقمة إلى الصراع الداخلي بين الأحزاب التي لا تجمعها كلمة التوحيد والحق، فمزقت الأمة شر ممزق، ودفعت بجل شبابنا إلى شر ملاذ، وهو الالتجاء إلى كأس تتلوها كؤوس، أو إلى شمة تتلوها شمات أو إلى قرص أو حقنة تتلوها أقراص وحقنات، بحثاً عن وسيلة للتخلص من الواقع الأليم أو الحقيقة المرة بالنسيان وهم بذلك كباسط كفيه إلى الماء ليبغ فاه وما هو ببالغه أو كظمان رأى سراباً فحسبه ماء فلما جاءه لم يجده شيئاً ولم يزد الضياع والحيرة إلا قلقاً وشروداً وتمرداً على المبادئ الأخلاقية والقيم الإسلامية وعلى المجتمع الذي يعيش فيه حتى وقع في حمأة الرذيلة وغرق في مستنقع الشهوات وانغمس في رجس الخمر والمخدرات حيث لم يكن هناك عاصم من الإيمان بالله وخوفه وتقاه ومحبه وطاعته والاهتداء بهديه والتسليم بأمره.

ثم لما نسوا الله وكلهم إلى أنفسهم فاجتالهم الشياطين وتحكمت فيهم أهواؤهم، فعاثوا في الأرض فساداً وارتكبوا الجرائم الجنسية الرهيبة من الاعتداء على المحارم مثل الأم والبنات والأخت، وقد غاب رشدهم ووعيهم بمفعول الخمر أو المخدر فأحلوا وتحللوا ونسوا الله فأنساهم أنفسهم.

إن عودة الوعي إلى المدارك والرشاد إلى العقول والإيمان إلى القلوب والحياة إلى الضمائر والنور إلى البصائر لن يكون ذلك كله بغير الدين الذي له من بالغ التأثير وعظيم السلطان ما ليس لغيره فهو الذي يوجه النفس إلى الله ويعطي للحياة معنى واضحاً ثابتاً.

ولا توجد الإرادة بغير دوافع، والدوافع متعلقة بالعقيدة فلا يرغب المؤمن في عمل ما ويقدم عليه بإصرار إلا إذا آمن بجدواه ونفعه، لذلك نفى النبي ﷺ الإيمان عن الإنسان المسلم حين يتلبس بشرب الخمر أو بالزنى أو بالسرقة. . . ولم يزل علماء الاجتماع يعدون من أسباب نهوض المجتمعات وانحلالها حال الدين والعقيدة.

وقد شهد القرآن الكريم بذلك ونبه إليه على لسان سليمان في قصته مع بلقيس ﴿وَأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ وصددها ما كانت تعيد من دون الله⁽⁴⁹⁾ فقد كانت عبادتها للشمس مما صدها عن حصول الرشد والعلم النافع، إذ هي بذلك الاعتقاد الوثني الباطل منصرفة عن الرشد الفكري واستكمال العلم والحضارة الصحيحة، لأن أعمال الناس وتصرفاتهم في الحياة تنكف بحسب ما يصدر عن معتقداتهم من تصورات وأفكار وسلوك.

وقد ظهرت آثار العقيدة الإسلامية الراسخة في المشاعر والتصورات ظهورها في الأفكار والتصرفات⁽⁵⁰⁾.

وقل أن يذكر الإيمان في القرآن غير مقترن بصالح الأعمال لأنه من علاماته ولوازمه، وبصلاح العقيدة تصلح الأخلاق ويستقيم النظر للحياة. . وعقيدة الإسلام قوة عظيمة تحرك السلوك وتوجهه ويستمد منها الإنسان في شتى ظروف الحياة ما تتخاذه دون النزوات والأهواء، وما يكون له عوناً على البت في ما يعرض له من قضايا يخشاها الصراع النفسي بين الدوافع والجواذب⁽⁵¹⁾ فالتحرر من قيود الدين مصدر القيم العليا والمثل الرفيعة هو عبودية النفس لنزواتها وأهوائها، وهو عنوان على انحرافها عن مصدر النور والهداية، إذ الدين الإسلامي الحنيف فريد من نوعه، إذ حفظ للإنسان منزلة سامية في الأرض والسماء إذا هو عرف حقيقة وجوده واحتفظ بهذا المستوى الرفيع لمتزلته في الكون.

وإذا كان العلم قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة ليستخدمها ويسخرها، فإن الإسلام يدعوه إلى الأخذ بأسباب التقدم والتبحر في العلوم دون أن يحبس نفسه في بوتقة المادة أو يصرفه عن التأمل في الجانب المقابل لكيانه الإنساني الباطني وهو الجانب الروحاني فيه، ولم يقطع صلته بالسماء ولا بوجوده، ولم يدعه غريباً في هذا الكون بل أودع فيه ما يمكنه من فرض

(49) سورة النمل، الآية: 42.

(50) التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن: للقدمة (ط: تونس 1982).

(51) أحمد عزت راجح: أصول علم النفس: 140 - 141 (ط: الاسكندرية 1957).

سلطانه عليه، فلا خوف من مجهول ولا يأس ولا تشاؤم، وهو الذي حمى المسلم من فكرة العدم المدمرة لإرادة الحياة ومنحه التأمل ليدرك أن كفاحه في رحلته الدنيوية ليس عبثاً ينتهي بالموت وضجعة القبر.

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾⁽⁵²⁾.

فالإيمان بالله شهادة قائمة للإنسان على أنه ذو عقل حصيف يميز الخير عن الشر والنفع عن الضرر والحق عن الباطل، فهو بهذا العقل عرف الله، ثم عرف الأعمال الصالحة فسمى إليها والأعمال الباطلة الضارة ففر منها.

والحقيقة التي يؤيدها القرآن أن معايير القيم والأخلاق مرتبطة بميزان الله وعلى قدر الإيمان بهذه الحقيقة تكون الاستقامة.

أما من لم يفتح له عقله طريقاً إلى الله فقد عمي عن الحقيقة الكبرى وضل الطريق إليها. فكيف يمكن أن يهتدي إلى حق بعد هذا؟. وكيف يتسنى له أن يفعل الخير بعد أن حاد عن طريق الوجهة إليه⁽⁵³⁾؟

وقد عجز نبي الله لوط عليه السلام عن اجتثاث ما تمكن في نفوس قومه من منكر لأن منشأ عقدة الكفر.

ويفيد التحليل النفسي للعادات السيئة أنها تبطل وتزول بمجرد اقتلاع العقدة، مثلما يزول مفعول الكهرباء بانقطاع التيار.

لذلك أقام القرآن منهجه التربوي على العقيدة فجعل منها منطلقاً لكل إصلاح وتهذيب وتسديد وتوجيه، إذ لا شيء يملك قدرة التأثير على الإنسان تأثير الإيمان من داخله، فكل قوة تتلاشى أمام قوته.

وقد أثبت علم النفس أن الذين يقدمون على الانتحار لا يؤمنون بالله، أو تضاعل الإيمان في قلوبهم بتأثير اليأس من رحمة الله التي وسعت كل شيء ولا تضيق بأحد من عباده.

فهل تقوم الأجهزة الإعلامية في مختلف الأقطار الإسلامية بدعم العقيدة

(52) سورة المؤمنون، الآية: 115.

(53) عبد الكريم الخطيب: التعريف بالإسلام: 230 (ط: القاهرة 1965).

وترسيخ الإيمان وإصلاح القلوب، وتهذيب النفوس، بمنهج جذاب يتجاوب معه الشباب، فيهديهم إلى صراط الله القويم، ويقيهم شر المغريات القاتلة والجواذب المدمرة، وضغوط المشاكل، وتأثير قرناء السوء بالقدوة والإيحاء والتشجيع والتزيين؟.

سئل النبي ﷺ - عن علامة الإيمان فقال: (إذا ساءتلك سيئتك وسرتك حسنتك فأنت مؤمن) (54).

فأين هؤلاء من أولئك الذين يتبعجون بمعاصيهم، ويتناولون المسكرات والمخدرات ولا يبالون، ويفعلون الفواحش وسائر المنكرات ولا يندمون ويقدمون على ما يقدمون بحثاً عن ربح عاجل أو لذة عابرة، أو تهويمات سابحة؟.

إن الفراغ الروحي لا يملؤه إلا هوى النفس الأمارة بالسوء ولا يسد ذلك الفراغ الروحي والخواء النفسي غير الدين والدين عند الله الإسلام.

ولن تستطيع أجهزة الاعلام الإسلامية أن تستقطب اهتمام الشباب المسلم إلا بالإنتاج الراقي البديع الذي تتوافر فيه المقومات العلمية والفنية، والقدرة على الإبداع في أسلوب العرض شكلاً ومضموناً، حتى يكون هو البديل عما يحب الشباب أن يقرأه أو يشاهده أو يسمعه من ضروب المعرفة والثقافة والتسلية في مختلف وسائل الإعلام والاتصال الأجنبية.

ومن أهم الوسائل الواقية للشباب من الانحرافات والمغامرات والمخدرات أن يجد ما يملأ فراغه من ألوان الهوايات المشروعة في النوادي العلمية والأدبية والثقافية والرياضية ونحوها من المؤسسات الشبابية التي تعني بالشباب، وتنظم له الرحلات السياحية والثقافية والمسكرات العلمية حتى لا يتخطفه إخوان الشياطين ممن ألقوا عن كواهلهم كل المسؤوليات والتبعات، وراحوا يبحثون عما يشبع غرائزهم وعما يقتل الوقت من اللذات والمتع الحسية التي تنحدر بالإنسان إلى أسفل الدركات، وتنزل به في هاوية الرذيلة.

(54) رواه الدليمي في مسند الفردوس.

ونحن في العالم العربي والعالم الإسلامي عامة ينقصنا في المناهج التربوية ما يغذي ملكة الموهبة لاكتشاف نوع الهوية التي تستأثر بميل الشباب وتأخذ بلبه وفكره ووجدانه وتوفير مختلف الهوايات من الفنون والآداب والعلوم والصناعات اليدوية والآلية، والأجهزة الإلكترونية ليتدرب على استخدامها، ويتنفع بها في الحال والمآل.. كما نرى ذلك في شباب أكثر البلاد المصنعة المتقدمة، والمثل الإسلامي يقول: إن لم تشغل نفسك بالحق اشتغلت بالباطل وإن لم تستخدم طاقاتك فيما ينفع، انصرفت إلى ما يضر، لأن الطبيعة تأبى الفراغ والحياة ترفض الركود.

وعلى العالم الثالث عموماً والعالم الإسلامي خصوصاً أن يكتشف من برامج توعية الأسرة ليعرف كل فرد من أفرادها ماله من حقوق وما عليه من واجبات تقابلها، حتى يتكون فيها نثرء خال من العقد النفسية والمركبات، فإن لم تفلح كل هذه الوسائل، فقد يفلح الخوف من طائلة القانون وما قرر من عقوبات صارمة قد تصل إلى عقوبة الإعدام أو السجن المؤبد بالنسبة للزراع والتاجر والمهرب والمروج.

ويدخل ذلك في باب سد الذرائع ودرء المفاسد.

فمن تحدثه نفسه بارتكاب ما تعاقب عليه الشريعة والقانون فإنه لا يستطيع أن يتمكن من ذلك لفقدانه في السوق السوداء فكان - كما قال - من العصمة ألا تجد وإذا كانت التوعية أهم عوامل الوقاية مما تأكد ضرره وتحقق خطره وثبت تحريمه، فإن على العالم الإسلامي تقع مسؤولية التوعية المستمرة بما للمخدرات من ضرر في دين متناولها وعقله وخلقه ومزاجه ومن إفسادها للعقول أنها جعلت خلقاً كثيراً مجانين وهي تورث الدناءة والمهانة وتجعل متعاطيها ديوثاً فاقد المروءة والغيرة، وفيها من المفاسد ما ليس في الخمر فهي بالتحريم أولى - كما قال ابن تيمية - وقد أجمع المسلمون على أنها محرمة ومن استحلها وزعم أنها حلال يستتاب، فإن تاب وإلا قتل مرتداً لإنكاره ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

وذكر ابن القيم في كتابه (زاد المعاد): أن الخمر يدخل فيها كل مسكر

مائعاً كان أو جامداً عصيراً أو مطبوخاً يدخل فيها لقمة الفسق والفجور، ويعني بها الحشيش لأن هذا كله خمر بنص رسول الله ﷺ الصحيح الصريح الذي لا مطعن في سنده، ولا إجمال في متنه، إذ صح عنه قوله ﷺ: (كل مسكر خمر) صح عن أصحابه الذين هم أعلم الأمة بخطابه ومراده أن الخمر ما خامر العقل.

ولو لم يتناول لفظه ﷺ (كل مسكر) لكان تحريمه بالقياس الصحيح الذي استوى فيه الأصل والفرع من كل وجه واشتركت فيه علة التحريم حاكماً وحده بالتسوية بين أنواع المسكرات، فالتفريق بين نوع ونوع تفريق بين متماثلين من جميع الوجوه.

وإذا كان من يقول بحل الحشيش زنديقاً مبتدعاً عند علماء الحنفية.. فكيف القول في المخدرات الأخرى التي هي أشد ضرراً بالأمة أفراداً وجماعات؟.

إن الشريعة الإسلامية بنيت على جلب المصالح الخاصة أو الراجحة، وعلى درء المفاسد والمضار وكذلك، فكيف تغضي عن تناول المخدرات وهي أشد فتكاً بالعقل والخلق والجسم والمال كما أثبتت ذلك تقارير الأطباء والدراسات الطبية العلمية.

وبقدر تفاقم عدد متعاطي المخدرات في مجتمع ما يكون تضاؤل إنتاجه وبطء تنميته وابتعاده عن حلبة السباق نحو الحضارة والرقى.. فكيف لا تجرم الشريعة هؤلاء المعتدين على المجتمع، بحد الخمر ونتائج انحرافهم بتعاطي المخدرات أشد خطراً من نتائج انحرافهم بشرب الخمر على أنفسهم وعلى المجتمع كله؟.

إن من غريب المفارقات، ومن أعجب الفلسفات في بعض القوانين الوضعية عدم مؤاخذه المدمنين وإسقاط العقوبة عنهم بدعوى أو بأخرى، في حين أن أشد العقوبات في تلك القوانين تسلط على من كان دون ذلك إجراماً، في حين أن التحريم والتجريم في مثل هذه القضايا غير منفصلين لاقتران التحريم بحد جرائم المخدرات.

والإلتجاه الغالب في الفقه الجنائي الإسلامي أنه يدخل في جرائم الحدود جريمة شرب الخمر وإن اختلفوا في تحديد مقدار الحد، واعتبرها بعضهم من جرائم التعزير باعتبار أن الحدود عقوبات مقدرة، والتقدير هو العنصر الأساسي الذي يميزها عن غيرها، وهذا التقدير غير متحقق بالنسبة لجريمة السكر والمخدرات محرمة كالخمر لدخولها في مدلول لفظه، أو محرمة بقياس استوى فيه الأصل والفرع من كل الوجوه وأياً كان وجه التحريم أو نوع العقوبة فإن سوء التقدير القول بالعفو عن المدمنين ولو وجدوا في حالة تلبس واعترفوا بدعوى أن حالتهم البدنية والنفسية تبعث على الإشفاق عليهم، وعلاجهم لإنقاذ حياتهم مما تردوا فيه، ويبدو لأول وهلة أن هذا العطف الإنساني أقرب إلى الرفق والرحمة، ولكن خطره يكمن في إزالة عنصر كبير من عناصر الرقابة والتوقي من عواقب الجريمة وآلام العقوبة.

والشريعة الإسلامية لا تنفذ عقوبة من يستحق العقاب من المنحرفين والمجرمين إذا كانوا مرضى حتى يعالجوا أو يشفوا بل إنها ترجى إقامة الحد على من استوجبه في شدة الحر والقر حتى يعتدل الطقس.

فكيف بالمرضى الهزيل من تعاطي المخدرات؟.. فالعلاج أولاً ثم العقوبة للردع والزجر بعد المعافاة التامة.

وصدق الشاعر إذ يقول:

فَقَسَا لِيْزِدْجُرُوا وَمَنْ يَكُ رَاحِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يُرَحِّمُ
ولقد تأكدت اليوم ضرورة العمل المشترك لمواجهة خطر مشترك يهدد أمن المجتمعات الإنسانية، باعتبار أن نتائجه واحدة وإن اختلفت أشكاله وصوره، وذلك للتداول في أفضل الوسائل لحماية نفسها كالمخدرات والإرهاب.

ومن هنا ندرك أهمية الحماية من تعاطي المخدرات عن طريق التخويف بالعقوبة والزجر بها، ولكن التفاوت بين عقوبة تجار المخدرات ومروجيها وبين معاقبة متعاطيها مما تقتضيه العدالة في الأحكام، فإن الضحية لنهم أولئك المجرمين الذين يحصلون على ثروة طائلة بطريقة غير مشروعة على حساب

المغرورين وعلى حساب سلامة الأمة مما يحصنها ويحفظها من الآفات والأوباء الفتاكة والضحية هو متعاطي المخدرات أياً كانت العوامل الداخلية والخارجية التي دفعته إلى هذه الجريمة وحملته على ارتكابها، لأنه يشتري المرض بماله الذي ينعم به عصابات التهريب والاتجار وتلك العصابات التي يجب القضاء عليها بالموت لشناعة جريمتهم وفداحتها وانعكاساتها على الصحة والأمن والمال والحياة الاقتصادية والاجتماعية بصفة عامة.

ولكن ينبغي أن نأخذ في اعتبارنا أن العرض مرتبط بالطلب، فتناول المخدر وشراؤه بأي ثمن هو تشجيع لهذه العصابات على المضي في إجرامها قدماً يدر عليها دخلاً خيالياً غير محدود لن يستطيع أحد أن يحصل عليه بتلك الوفرة والسرعة من عمل مشروع، ومن أجل ذلك أيضاً يعاقب المتناول لفتحه باب العرض للتجار والمروجين، وإن كانت عقوبتهم أشد وقد تصل إلى الإعدام وهي لا تدخل في عقوبات الحدود، بل في عقوبات التعزير التي تشمل في المملكة العربية السعودية بالنسبة للمهربين السجن لمدة خمسة عشر عاماً وغرامة مالية قدرها عشرون ألف ريال سعودي مع مصادرة المواد المخدرة وهي: الأفيون الخام، والأفيون الطبيعي، والأفيون المستحضر والمورفين والكوديين وجميع أملاح هذه الجواهر ومشتقاتها، أشباه القلويات الأخرى.

وعقوبة تعاطي المخدرات السجن لمدة سنتين والتعزير حسب نظر الحاكم الشرعي والإبعاد عن البلاد إن كان أجنبياً، ويتكون قانون منع الاتجار بالمواد المخدرة واستعمالها من اثنتين وثلاثين مادة، وقد بين هذا القانون المواد المخدرة وجعل الباب مفتوحاً لكل مادة تظهر في المستقبل ويظهر ضررها بما تؤدي إليه من تخدير.

وقد شدد مجلس الشورى في العقوبات وأقره على ذلك مجلس الوزراء⁽⁵⁵⁾ وأفتت هيئة كبار العلماء بالمملكة بتطبيق عقوبة الإعدام على

(55) القرار رقم: 11 بتاريخ 1374/2/1.

المهرب والمروج على أساس أن هذه الجريمة لا تخرج عن كونها قتلاً جماعياً بطيئاً بواسطة السم فعقوبة متعاطي المخدرات التي أقرتها البلاد العربية وأكثر البلاد الغربية لا تمنع من معالجة مدمني المخدرات وإعادة تأهيلهم للحياة الاجتماعية.

ففي الإمارات العربية المتحدة مثلاً تنص المادة الخامسة عشرة من قانون العقاقير الخطرة الصادر في 1971/7/11 على عقاب متعاطي المخدرات بالحبس مدة لا تزيد على خمس سنوات، وبغرامة لا تزيد على مائة ألف درهم أو بإحدى هاتين العقوبتين⁽⁵⁶⁾.

ومن التشريعات التي لا تجرم متعاطي المخدرات القانون البلجيكي الصادر في 1921/1/24، فلا يعاقب على التعاطي إلا إذا كان جماعياً.. وكذلك القانون الإيطالي الصادر في 1923/11/9 والقانون اليوغسلافي المعدل في 1973/2/16.. والقانون السويسري الذي استثنى من المخدرات عقاقير الهلوسة⁽⁵⁷⁾.

ولا شك أن التشريعات التي لا تجرم متعاطي المخدرات لا تخدم التعاون الدولي للقضاء على المخدرات، ولا مبدأ الوقاية منها، في حين أن التشريعات التي تجرم التعاطي هي أكثر التشريعات قدرة على تحقيق دور القانون الجنائي في هذه القضية كأداة للحد من استفحال خطر المخدرات.

فقد تجاوزت سياسة التسامح والإغضاء عن المتعاطين بعد أن أصبحت فعلاً المخدرات هي الطاقة الكبرى في معظم أقطار العالم للجرائم المتنوعة فلا بد إذن أن تقرر كل دول العالم أن تجريم تعاطي المخدرات ضرورة لحماية مصالح جديرة أن ييسط عليها القانون الجنائي سلطانه، حتى تسيطر على هذه الظاهرة الشنيعة التي تستهلك طاقات الإنسان، وتدمر الكثير من موارده وتقضي على قيمه الأخلاقية والروحانية.

(56) محمد فتحي عيد: جريمة تعاطي المخدرات في القانون المقارن: (ط: الرياض 1988م).

(57) المصدر السابق.

- ومن سبل الوقاية الناجعة تنظيم حملات إعلامية من حين لآخر بين الجمهور من خلال الوقائع بالصورة والصوت مدى أخطار المخدرات على صحة الأفراد والشعوب، على غرار ما قامت به الإمارات العربية المتحدة في أواخر سنة 1992 وبالصخصوص الحملة التي نظمها التلفزيون الإماراتي.

فالتحرك وفق خطة عملية مدروسة تستهدف كافة الجماهير وفئة الشباب بصورة خاصة لتوضيح أخطار المخدرات هو من أنجح وسائل الوقاية منها.

ولعل من أهم مجالات التوعية في العالم الإسلامي الدور الرائد الذي يقوم به أئمتنا الخطباء في المساجد، كما أن الاستمرار في رفع كفاءة مستوى الإدارة العامة لمكافحة المخدرات من خلال تدريب متخصص كالذي يقوم به المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض، وتعزيز مكافحتها بالإمكانات البشرية وتحديثها وتزويدها بكل المعدات المتطورة التي تساعدها على نشاطها إذا أردنا أن نطبق عملياً المبدأ القائل (الوقاية خير من العلاج) فعلياً أن نستعمل جميع وسائل الوقاية المباشرة وغير المباشرة وأن نبتكر وسائل أخرى جديدة وأن نطور مناهج التوعية وأن نصدر النشرات والملصقات وأن نستبعد عن إعلامنا برامج الجنس والعنف والجريمة والانحراف، فإن رؤية المعاصي باستمرار مما يجعل أمرها في النفس هيناً.

سبل العلاج:

لا يقتصر علاج الإدمان على الناحية الفسيولوجية والنفسية للمدمن فحسب بل يشمل جوانب أخرى خارجة عن علاج المستشفيات والمصحات، وهو العلاج بالاقلاع نتيجة الاقتناع، أو الخوف من أن تبصره عين الرقابة الساهرة أو تناله يد العدالة الزاجرة، أو خشية الله وافتاء سخطه وأليم عقابه. ومن هنا ندرك تداخل وسائل الوقاية والعلاج والتقاءهما في كثير من النقاط والأهداف.

طريقة الاقتناع:

إن هذه الطرق المتنوعة لمعالجة تناول المخدرات والتي ترتبط بباطن

الإنسان وتؤثر عليه من داخله لا يلزم أن تكون بديلاً للعلاج الصحي بحيث يمكن الاستغناء عنه بها، ولكنها من العوامل المساعدة على علاج المدمنين والتأثير عليهم فتحيي ضمائرهم وتصلح سريرتهم وتقوم سيرتهم، وتعلمهم ما كانوا يجهلون وتنهبهم إلى ما هم عنه غافلون، وتذكرهم بما نسوا.

فقناعة المدمن على تعاطي المخدرات بضررها الشديد من أهم العوامل المساعدة على علاجه، فلا بد إذن أن يعرف المبررات الثلاثة لتجريم تعاطيها وهي: الإضرار بالنفس، وقد رأى الأضرار الجسيمة التي تلحقه قبل تناولها المتأخر عن موعده من صداع واضطراب ورعشة وتشنج قد يؤدي إلى الوفاة، وبعد تناولها من خروج عن حاله العادي إلى حالة سيئة تثير الضحك والشفقة عليه في وقت واحد، فيرى ويسمع ما يراه الأسوياء ويسمعونه.

والإضرار بالغير حين يفقد القدرة على رعاية أسرته والإنفاق عليها لعزوفه عن العمل والإنتاج، أو لأنه ينفق عائد إنتاجه على المخدرات التي تستهلك مالاً وفيراً وتقني الثروة لارتفاع أسعارها.

والإضرار بالمجتمع نتيجة المضاعفات الصحية التي تتطلب رعاية من جانب المجتمع لعضو أصبح فيه كالمشلول مع ما تنفقه الدولة على أجهزة المكافحة وعلاج المدمنين وإعادة تأهيلهم للحياة الاجتماعية العادية، فالمشكلة صحية واقتصادية واجتماعية، وجريمتها يعم ضررها المجتمع الدولي بصفة عامة.

ومن ناحية تعاطي المخدرات دينياً فإن الشريعة الإسلامية تحرمه تحريماً قطعياً ولكن فئة من عامة المسلمين تعتقد أن الشريعة لا تحرم تعاطيها وحجبتهم في ذلك أنه لم يرد في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الأئمة المتقدمين ما يفيد التحليل أو التحريم، والأصل في الأشياء الإباحة. ومنشأ هذا الاعتقاد الباطل الجهل بحقيقة الشريعة وعدم الوقوف على أصولها وقواعدها وكمالياتها⁽⁵⁸⁾ فالأئمة الأول لم يتعرضوا لحل المخدرات أو حرمها لأن خطرهما

(58) محمد فتحي عبد: جريمة تعاطي المخدرات 1/362.

لم يظهر إلا بعد شيوع تعاطيها في القرن السادس الهجري مع هجوم التار على بغداد. ثم لما تبين أن أثرها أشد من الخمر قرروا بالإجماع تحريمها وأصبح الآراء وأوثقها أنه ليس هناك فاصل بين التحريم والتجريم في الشريعة، إذ تعني الجريمة فيها عصيان الله فيما أمر أو نهى سواء كانت عقوبة هذا العصيان دنيوية أم أخروية⁽⁵⁹⁾ ولا منجاة من عقاب الله إلا بالتوبة.

وقد بينت دراسة حديثة للجنة المخدرات في دورتها الثامنة والعشرين التي عقدت في مقر هيئة الأمم المتحدة بجنيف في فبراير (شباط) 1979، أن تعاطي المخدرات ينتهك مصلحة المجتمع الدولي في الحفاظ على الحضارة الإنسانية وتوفير الرفاهية للبشر ويكلف العالم عشرات المليارات من الدولارات سنوياً وأن تصريف مستحضرات الأفيون وخاصة الهرويين هو من أسوأ ما ينزل بالمجتمعات الوطنية والدولية.

ثم إن تعاطي المخدرات يستهلك الطاقات ويضيع الأوقات ويدمر الكثير من الموارد البشرية وغيرها، ويقضي على القيم الإسلامية والأخلاقية التي تعتبر حافزاً للإنسانية على مواصلة التقدم.

ولكن المعضلة في علاج الإدمان على المخدرات عن طريق الموعظة الدينية التي تذكر بسوء عاقبة من يتعاطى المخدرات وتعاطيها من أعظم الكبائر في شريعتنا السمحة تتمثل في اعتقاد من يتناولون الحشيش بانتظام أنه من الوجهة الدينية غير محرم، كما تبين ذلك من نتائج البحث الذي أجراه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة، وفي غيرها من أمصار العالم الإسلامي فكيف تنفع الموعظة من يعتقد بالحلية؟ فالتوبة بالإنابة والاستغفار والإقلاع إنما تكون لمن يعتقد أنه أذنب وارتكب معصية هي من الكبائر عند الله.

ومن هنا وجب المزيد من التوعية والتعريف بآراء العلماء وفتاواهم وكلهم قد أجمعوا على تحريمه وتحريم زرعه وبيعه وترويجه والاتجار فيه، لأن الشريعة الإسلامية إذا حرمت شيئاً حرمت فعل الوسائل المفضية إليه..

(59) انظر النظرية العامة للجريمة: محمد أحمد خليفة: 80.

ومن هنا تكون كل الوسائل المؤدية إلى ترويج المخدرات وتهريبها محرمة عملاً بالقاعدة الأصولية القائلة: كل ما يؤدي إلى الحرام حرام.

وإذا كان الخمر كما فسره عمر بن الخطاب: ما خامر العقل فالمخدرات بكافة أنواعها داخلة فيه كالخمر.

قال ﷺ في حديث رواه ابن عباس - وأخرجه أبو داود - في سننه في كتابه الأشربة: «لعن الله الخمر وشاربها وساقياها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه».. فيشمل هذا الحديث المخدرات كذلك.

فالجلوس مع المتعاطين إثم كبير لأنه مشاركة فيما يرتكبون، ولا سيما أولئك الذين يستبيحون ما حرم الله فمن كان له تأثير ديني أو سلطة حكم فليعمل بكل وسائله على إزالة هذه المخدرات والقضاء على أوكارها وتجارها، وذلك بتكليف من الله في النهي عن المنكر وتغييره وأي منكر أسوأ مما بان ضرره وسوء أثره وكانت عاقبة أمره خسراناً للإنسان والمال وللأعراض وللأخلاق وللمجتمع؟.

فالتستر على الجريمة إثم وجريمة في حق الأمة وإشاعة الفحشاء فيها، وقد قال النبي ﷺ في حديث أخرجه مسلم: «إن القوم إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عثمهم الله بعقاب».. ويدخل ذلك في وسائل العلاج بالإقناع والتوعية والمقاومة وغيرها.

قال العلقمي في شرح الجامع: «يروى أن رجلاً من المعجم قدم القاهرة وطلب دليلاً على تحريم الحشيشة، وعقد لذلك مجلساً حضره العلماء، فاستدل الحافظ زين الدين العراقي بحديث أم سلمة: نهى رسول الله ﷺ - عن كل مسكر ومفتر وقد نبه السيوطي - على صحة هذا الحديث، واحتج به ابن حجر على حرمة المفتر، وهو كل ما أدخل فتوراً على نشاط الجسم وطاقاته، ولو لم يكن شرباً ولا مسكراً»⁽⁶⁰⁾.

(60) انظر فتوى الإمام الأكبر شيخ الأزهر في كتاب: الدين والعلم في مواجهة المخدرات لنخبة من العلماء رسالة الإمام عدد 19: صفحة 279 (ط: القاهرة 1989).

واتخذ المؤتمر الإسلامي السادس عشر لوزراء خارجية الدول الإسلامية الذي انعقد بفاس في الفترة من 1 - 6 يناير 1986 قراراً حث فيه الدول الأعضاء على اتخاذ إجراءات فعالة لمكافحة الأوجه المتعددة الأبعاد لمشكلة المخدرات كما حثها على توفير المرافق اللازمة لعلاج المدمنين وإعادة تأهيلهم⁽⁶¹⁾.

فالعلاج الطبي من إدمان المتعاطي للمخدرات أمر حتمي، لأن الإدمان على بعض المخدرات الخطيرة مرض كسائر الأمراض التي يحتاج علاجها إلى طبيب مختص ورقاد في المستشفى تحت مراقبة لعدة أسابيع أو شهور، وقد يكون المريض بالإدمان فقيراً لا يقدر على تسديد المبالغ المالية الطائلة للعلاج، فعلى مؤسسات الضمان الاجتماعي وعلى الدولة أن تتدخل بالمساعدة والمعونة لإنقاذه من خطر يهدد حياته وحياة المجتمع فكيف يطلب رجال القانون في بعض البلاد الغربية بإلغاء تجريم التعاطي لكونه يعد اعتداء على حرية الإنسان وحقوقه؟ ولم يدخل في اعتبارهم الحفاظ على كيان الأسرة وسلامة الأمن العام والصحة العامة وعدم إهدار طاقات الإنسان، ونشاطه الحيوي ودعم الاقتصاد وتحقيق التنمية؟

ولذلك قضت بعض القوانين بإعدام تجار المخدرات ومروجيها واعتبروا قضيتها من اختصاصات محاكم أمن الدولة العليا لأن الدولة تواجه معهم حرباً ضارية لا هوادة فيها لأنهم يقتلون الشعب بالسموم التي يتطلب علاجها وقتاً طويلاً ومالاً وفيراً.

يقول الدكتور فؤاد شلبي: (إن علاج المريض من حالة الإدمان يحتاج إلى مدة طويلة لا بد أن يقضيها تحت إشراف أطباء في عيادات خاصة ومصحات متخصصة، وذلك عن تناول أدوية بديلة يكون لها تأثير المواد المخدرة، ثم التخلص منها تدريجياً بجرعات تتناقص يوماً بعد يوم إلى جانب العلاج النفسي الذي يخلص المدمن من مشاكله التي أدت به إلى الإدمان ونقي المجتمع شر الانحلال).

(61) الدين والعلم في مواجهة المخدرات: 164 (ط: القاهرة 1989).

وقال أحد أطباء الأمراض النفسية إن الإنسان الذي يتعود على تعاطي المخدرات ثلاث مرات متواصلة يتحول إلى مدمن وبذلك يكون قد وضع نفسه تحت رحمة تجار السموم الذين يستنزفون كل ما عنده من مال.

وللصين تجربة ناجحة في مواجهة الإدمان للمخدرات وخاصة الأفيون من قبل الأطباء الخبراء بوخز الإبر وغرسها في مواطن من الجسم يعرفها الخبراء وجربت الطريقة في أمريكا وبلاد عديدة أخرى فنجحت، كما أجريت في مصر على بعض حالات الإدمان وكذلك لمكافحة عادة التدخين وكل نتائجها مشجعة⁽⁶²⁾ إن العلاج الطبي وحده لا يكفي وإن تحقق به الشفاء الكامل من مرض الإدمان لأن من المرضى من يعاوده الحنين إلى تناول المخدرات فيعود، ما لم يكن له زاجر من الخارج، كمضاعفة العقاب بالعدد والتكرار وزاجر من الداخل كالخوف من عودة المرض، وأعظم وأزع يصرف النفس عن المعصية بعد التوبة إلى الله منها هو الدين الذي يجعل في النفس رقيباً حاضراً تراه عين البصيرة وتحس وجوده.

إن الفراغ الروحي لا يملؤه بالحق غير الإيمان الصادق الذي يحقق المعجزات ويصنع الرجال الأشداء الأبطال وينجز ما يعجز عن إنجازه.

وغرس بذور الإيمان في النفوس هو الذي يهذبها ويعلمها الصبر على ما تكره وعلى ما تحب، وهو الذي يحميها من الجوانب المغرية، والدوافع الموبقة ويجلي عنها غشاوة الجهل وظلمات سوء، ويجنبها غواية الشيطان.

وقوة الإيمان تكمن في قوة تأثيره وقدرته الفائقة على الشفاء من جميع الأسقام والعلل والمحن والفتن وإخراج المؤمن من ضائقة الحياة والتشاؤم إلى سعة الأمل والتفاؤل فيطرد عنه الكآبة والقلق واليأس، إن إدمان الخمر الذي كان عليه العرب في الجاهلية لم يعالجه غير الإيمان الذي به كانت الاستجابة الفورية لأمر الله ورسوله عندما نزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(62) المصدر السابق: 150 - 155.

إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه⁽⁶³⁾
قال عمر عند سماعه الآية ﴿فهل أنتم متهون؟﴾: انتهينا ربنا، انتهينا ربنا وقال
أنس: حرمت الخمر ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها، وما حرم
عليهم شيء أشد من الخمر.

وقال: بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة، وأبي عبيدة بن الجراح،
وأبي دجانة، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، حتى مالت رؤوسهم،
فسمعت منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت.. قال: فما دخل علينا داخل
ولا خرج منا خارج، حتى أرقنا الشراب وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا
واغتسل بعضنا وأصبنا طيب أم سلمة، ثم خرجنا إلى المسجد، فإذا برسول
الله ﷺ وسلم يقرأ: ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر..﴾ إلى قوله: ﴿فهل أنتم
متهون؟﴾⁽⁶⁴⁾.

وهكذا كانت الاستجابة بفضل الإيمان قوية وسريعة وانتهى المسلمون
من شرب الخمر وتخلص المجتمع الإسلامي من ريقة هذه الآفة، بعد أن
كانت معبودة من عرب الجاهلية.

فأي علاج أبلغ أثرأ من الإيمان الذي قلب الموازين والقيم، فانقلبت
المفاهيم والمثل وها هي معجزة الإسلام تتكرر في أمريكا التي فشلت منذ سنة
1936 أن تمنع الخمر أن تحول نزلاء السجون ومدمنو حي (هارلم) السود،
حين دخلوا في الإسلام وأثار الله قلوبهم بالإيمان إلى رجال أبرار ونساء أطهار
وقد فشلت كل مشاريع الإصلاح لإنقاذهم من برائن الإجرام والإدمان والقضاء
على أوكار البغاء والمخدرات.

الرعاية الاجتماعية في الإسلام

الدكتور عمر التومي الشيباني
جامعة الفكاك

- 1 -

1 - مفهوم الرعاية الاجتماعية قديماً وحديثاً:

الرعاية الاجتماعية - كغيرها من المصطلحات الكثيرة التي نستخدمها اليوم في كثير من مجالات حياتنا الحاضرة، التي من بينها مجالات الضمان والرعاية والتربية والتنشئة والتنمية - هي وإن كانت حديثة التسمية وحديثة الاستعمال بهذا الاسم، فإنها قديمة المضمون والمحتوى، حيث إننا نجد ما يدخل في المفهوم الحديث للرعاية الاجتماعية من خدمات ومناشط وسياسات كانت تلقى اهتماماً حتى في المجتمعات القديمة، مثل المجتمع المصري القديم والمجتمع اليوناني القديم، والمجتمع الروماني القديم، وغيرها من المجتمعات القديمة التي تجد في تاريخها كثيراً من الشواهد التي تدلنا على أنها كانت تهتم بالرعاية الاجتماعية لأبنائها أفراداً وفئات مثل، فئة الأطفال، وفئة

الأحداث والشباب، وفئة المعاقين، وفئة العجزة وكبار السن، وفئة الأرامل، وما إلى ذلك من فئات المجتمع التي تحتاج إلى رعاية المجتمع لها، وإلى تقديم عون ودعم وحمايته لها. كانت بذور هذه الرعاية الاجتماعية موجودة بشكل أو آخر، ودرجات مختلفة في الشمول واتساع المدى - في تلك المجتمعات، حتى قبل أن تتعرض لتأثير الأديان السماوية التي جاء بها الوحي الإلهي، وبشر بها رسل الله إلى خلقه، والتي تبلورت في مرحلة متأخرة من تاريخ البشرية في الموسوية أو اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

وقد ساعد دخول الأديان السماوية إلى تلك المجتمعات وانتشار تأثير تعاليمها فيها على تدعيم روح الرعاية والخدمة الاجتماعية، وتوسيع آفاقها ومجالاتها، وربط مقاصدها ومناشطها بمراد الله وتعاليمه ووصاياه وتوجيهاته، وجعل المصدر الأساس للإلزام بما يتطلبه القيام بالتزامات هذه الرعاية هو الدين، وذلك كما يتضح لنا بالنسبة للإسلام، الذي يهمن في المقام الأول أن نتحدث عن «الرعاية الاجتماعية» في إطاره.

ولكن على الرغم من أن الرعاية الاجتماعية أصولاً وجذوراً وممارسات كانت موجودة في المجتمعات القديمة، ثم جاءت الأديان السماوية فدعمت فكرة وروح ومقاصد الرعاية الاجتماعية وبعض مناشطها وخدماتها، فإن مصطلح «الرعاية الاجتماعية» يُعد حديث النشأة والاستعمال نسبياً. وهناك من الباحثين من يحدد لظهور مصطلح «الرعاية الاجتماعية» أواخر القرن التاسع عشر في أعقاب حركة الإصلاح الاجتماعي، التي انتشرت في الدول الصناعية في أعقاب الثورة الصناعية، وما نتج عنها من مشكلات الفقر والجوع والتفكك الأسري والبطالة، وما إلى ذلك. وعلى الرغم من أن العناية بها قد اقتضت في بداية الأمر على الجهود الحكومية والأهلية الرامية إلى مساعدة الفقراء والمعوزين والأرامل والعاطلين عن العمل، والمنطلقة أساساً من مفاهيم ومقاصد خلقية مجردة كفعل الخير - مثلاً - فإنها لم تلبث أن اتسع مفهومها، لتشمل كافة الجهود والخدمات التي تبذلها وتقدمها مؤسسات الرعاية والتربية وأجهزة الخدمات العامة، والهيئات والمؤسسات الاجتماعية بعامة، لتهيئة

أنسب الظروف والأوضاع لتحقيق النمو الاجتماعي السليم للإنسان الذي تستهدفه هذه الرعاية، وتحقيق رفاهيته ومساعدته على اكتساب الصفات والاتجاهات والعادات الاجتماعية السليمة، التي تجعل منه فرداً صالحاً في مجتمعه، متكيفاً مع مجتمعه، وقادراً على الإسهام في بنائه وفي زيادة إنتاجه وتقدمه، وعلى بناء علاقات اجتماعية ناجحة فيه، وعلى القيام بالمسؤوليات والواجبات والأدوار الاجتماعية المتوقعة منه.

والجهود التي تبذل في سبيل الرعاية الاجتماعية والخدمات والمساعدات المختلفة التي تقدم في إطارها إلى المستحقين لها ثلاثة أبعاد أو جوانب، هي: الجانب الوقائي، والجانب العلاجي، والجانب الإنشائي أو الإنمائي.

أ - يستهدف الجانب الوقائي من الرعاية الاجتماعية وقاية وحماية من تشملهم وتستهدفهم هذه الرعاية، من أسرة وطفولة وشباب ومعاقين ومحرومين وعجزة وكبار سن، وفقراء وغيرهم من الفئات - من كافة الأمراض والأدواء والانحرافات الاجتماعية، من خلال الجهود والبرامج والمناشط الاجتماعية الوقائية المختلفة التي يمكن أن تشمل جهوداً وبرامج ومناشط وخدمات تعليمية وتثقيفية وتوجيهية وإرشادية وترفيهية وإعلامية.

ب - ويستهدف الجانب العلاجي من الرعاية الاجتماعية مواجهة وعلاج مشكلات من تشملهم وتستهدفهم هذه الرعاية، وإرجاعهم إلى التكيف الاجتماعي السليم، وإلى حظيرة المجتمع بعد الانحراف عنه. ومن المشكلات الاجتماعية التي يمكن أن تتعرض لها العناصر والفئات التي تشملها الرعاية الاجتماعية، من أسرة وطفولة وشباب وعجزة وشيوخ ومحرومين وفقراء وغيرهم - مشكلات التفكك الأسري، وإهمال النشء، وانحرافات الأطفال والأحداث، وضعف العلاقات الاجتماعية في المجتمع، وضعف روح التكافل والتضامن والتعاون والتعاطف والتراحم بين أفراد وجماعاته، وضعف سلطة ورقابة المجتمع على أفراد وجماعاته.

ج - ويستهدف الجانب الإنشائي أو الإنمائي من الرعاية الاجتماعية مساعدة من تشملهم وتستهدفهم الرعاية الاجتماعية على النمو الاجتماعي
مجلة كلية الدعوة الإسلامية (المعد الحادي عشر) 491

السليم، وعلى تنمية معارفهم ومفاهيمهم الاجتماعية السليمة، وعلى زيادة وعيهم بمشكلات مجتمعهم، وعلى تشرب قيم واتجاهات وعادات مجتمعهم السليمة، وعلى بناء علاقات اجتماعية ناجحة مع غيرهم وداخل مجتمعهم، وعلى التكيف مع الحياة في مجتمعهم، وإعداد أنفسهم لمتطلبات وواجبات ومسؤوليات الحياة الاجتماعية الناجحة. والأبعاد أو الجوانب الثلاثة السالفة الذكر، كما تبين أنواع وأقسام الرعاية الاجتماعية في مفهومها الواسع الحديث، فإنها تبين أيضاً طبيعة وأنواع أهداف هذه الرعاية التي هي في حقيقة أمرها أهداف ذات طبيعة وقائية، وأخرى أهداف ذات طبيعة علاجية، وثالثة أهداف ذات طبيعة إنشائية أو إنمائية.

وتتعدد مجالات الرعاية الاجتماعية بتعدد العناصر والفئات التي تشملها هذه الرعاية. فإذا كانت هذه العناصر والفئات تشمل فيما تشمل: الأسرة، وفئة الأطفال، وفئة الأحداث والشباب وفئة المعاقين، والأيتام واللقطاء وغيرهم من المحرومين، وفئة كبار السن، وفئة الفقراء، وفئة من يتعرضون للكوارث والطوارئ، وما إلى ذلك من العناصر والفئات التي يمكن أن تشملها الرعاية الاجتماعية. فإن مجالات الرعاية الاجتماعية يمكن أن تشمل فيما تشمل: رعاية الأسرة، ورعاية الطفولة، ورعاية الشباب، ورعاية الأحداث المنحرفين، ورعاية المعاقين، ورعاية الأطفال المحرومين من الأسرة المملوكة للأهلية والصلاحية للرعاية والتربية، ورعاية الشيخوخة، والرعاية في حالات الكوارث والطوارئ، وما إلى ذلك.⁽¹⁾

وإذا كانت الرعاية الشاملة لهذه العناصر والفئات تتطلب رعايتها صحياً

(1) ينظر كل:

(أ) د. عبد الفتاح عثمان عبد الصمد، نموذج عربي للرعاية اللاحقة للأحداث في الوطن

العربي، في:

مختصر الدراسات الأمنية للمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب. (الجزء الأول)، الرياض: المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، 1986، ص 308-309.

(ب) د. رضا المرغني، دور رعاية الشباب في وقاية النشء والشبيبة من الانحراف، في نفس المرجع السابق، ص 336.

وتربوياً وثقافياً وروحياً واقتصادياً وسياسياً، فإن رعايتها الاجتماعية تركز على الجانب الاجتماعي ولكن تركيز الرعاية الاجتماعية على الجانب الاجتماعي لا يمنع من اهتمام هذه الرعاية بالجوانب الصحية والطبية والتعليمية والتربوية والثقافية والروحية والاقتصادية والسياسية أيضاً، إذا كان نجاح الرعاية الاجتماعية يتوقف على الاهتمام بهذه الجوانب. فالأنواع والجوانب المختلفة للرعاية مترابطة ومتداخلة فيما بينها، وكثيراً ما يكون بينها توقف واعتماد متبادل.

2 - علاقة مفهوم الرعاية الاجتماعية بمفاهيم أخرى تستخدم في مجال هذه الرعاية:

ويرتبط مفهوم الرعاية الاجتماعية بمفاهيم عديدة أخرى، وتكون علاقته معها إما من قبيل الترادف أو من قبيل علاقة العام بالخاص أو من قبيل علاقة الخاص بالعام.

ومن هذه المصطلحات والمفاهيم ذات العلاقة بمصطلح ومفاهيم الرعاية الاجتماعية المصطلحات والمفاهيم التالية: الرفاهية الاجتماعية، والتربية الاجتماعية، والتنشئة الاجتماعية، والنمو الاجتماعي، والتأمين الاجتماعي، والضمان الاجتماعي، والتكافل الاجتماعي، وما إلى ذلك.

أ - فعلاقة «الرعاية الاجتماعية» «بالرفاهية الاجتماعية» هي علاقة ترادف في معناهما، حسب ما ذهب إليه وأخذ به الدكتور عبد الفتاح عثمان عبد الصمد، الذي سبقت الإشارة إلى ملخص دراسته المكتبة، التي أشار فيها إلى ما آل إليه مفهوم «الرعاية الاجتماعية» من اتساع في المعنى، في العصر الحديث، حيث أصبح يشمل كافة الجهود التي تستهدف رفاهية الإنسان الوقائية والعلاجية والإنمائية، وقرر فيها أنَّ مصطلح «الرعاية الاجتماعية» مرادف لمصطلح «الرفاهية الاجتماعية» في معناه العام، سواء من الناحية النظرية أو من ناحية التطبيق⁽²⁾.

(2) عبد الفتاح عثمان عبد الصمد، مرجع سابق، ص 308.

ب - وعلاقة «الرعاية الاجتماعية» بمفاهيم التربية الاجتماعية والتنشئة الاجتماعية، والنمو الاجتماعي، والأمن الاجتماعي أو التأمين الاجتماعي هي من قبيل علاقة العام بالخاص، حيث إن مفهوم «الرعاية الاجتماعية» أوسع في معناه من هذه المفاهيم التي ذكرناها. مع العلم بأن هذه المفاهيم الأخيرة لها المعاني التالية:

1 - فبالنسبة لمفهوم «التربية الاجتماعية» فإنه يعني في أبسط معانيه، جميع الجهود التي تبذل بصورة مقصودة أو غير مقصودة من قبل المحيطين بالفرد، ومن الفرد نفسه، لإحداث التغير المرغوب فيه في السلوك الاجتماعي لهذا الفرد ولتنضيج استعداداته وتنمية معارفه ومهاراته واتجاهاته وقيمه وعاداته الاجتماعية في الاتجاه الذي يرغب فيه المجتمع. والتربية الاجتماعية - في نظرنا - أوسع معنى وأشمل مدلولاً من التنشئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعي والنمو الاجتماعي والتكيف الاجتماعي.

2 - وبالنسبة لمفهوم «التنشئة الاجتماعية» أو «التطبيع الاجتماعي» فإنه يعني كافة الجهود التي تبذل من أجل إكساب الفرد معتقدات وقيم وعادات وتقاليد مجتمعه، وتعليمه الأدوار الاجتماعية المتوقعة منه اجتماعياً التي تتلاءم مع جنسه وسنه ووضع أسرته الاجتماعي والثقافي، وطبعه بطابع مجتمعه وطابع الثقافة القائمة فيه، لتيسير الحياة عليه في مجتمعه وتيسير تفاعله مع بقية أفراد المجتمع وجماعاته.

ويعرف الدكتور سعد جلال التنشئة الاجتماعية بأنها: تشكيل الفرد عن طريق ثقافته حتى يتمكن من الحياة في هذه الثقافة. . . فتعلم الفتاة - مثلاً - الطهي وحياسة الملابس والعناية بالأطفال لتعدها لدورها أمّاً وربة منزل، في حين يعلم الولد الذكر كيف يحرق الأرض ويرويهما ويزرع الزرع، أو يعلم أي حرفة أخرى يكتسب منها ليعول الأسرة، ويقوم بدوره كغيره من الرجال في ثقافته⁽³⁾.

(3) ينظر: د. سعد جلال، المرجع في علم النفس. القاهرة: دار المعارف بمصر، 1981، ص 128-129.

3 - وبالنسبة لمفهوم «النمو الاجتماعي»، فإن من معانيه في مرحلة الطفولة الأولى: «اكتساب الطفل للسلوك الاجتماعي الذي يساعده على التفاعل مع أفراد ثقافته. ويُعدُّ هذا السلوك حصيلة لعملية التنشئة الاجتماعية... كما يتوقف على النضج...»⁽⁴⁾.

4 - وبالنسبة لمفهوم التأمين الاجتماعي يقوم تطبيقه أساساً على تقديم مزايا للمؤمن عليهم من حالات يحددها نظام التأمين نظير اشتراكات وأقساط تدفع مقدماً وبصفة دورية...». ومما يستهدفه التأمين الاجتماعي: حماية الفئات العاملة، والتأمين ضد بعض المخاطر، وحماية العاملين في مجالات الصناعة والتجارة، وتأمين الشيخوخة، وتقديم المساعدات أو المزايا للمحتاجين إليها أو المستحقين لها، والوقاية من بعض المخاطر التي يتكفل بها نظام التأمين مثل المرض والعجز، وما إلى ذلك⁽⁵⁾.

ج - وعلاقة الرعاية الاجتماعية لمفاهيم التنمية الاجتماعية، والضمان الاجتماعي، والتكافل الاجتماعي هي من قبل علاقة الخاص بالعام، حيث إن هذه المفاهيم الأخيرة هي أوسع في معناها من معنى الرعاية الاجتماعية، هذا، مع العلم بأن المفاهيم الأخيرة لها المعاني التالية:

1 - فبالنسبة لمفهوم «التنمية الاجتماعية»، فإنه من بين معانيها: أنها: «عملية إحداث التغير والتحول الاجتماعيين، التي تترك بصماتها على حياة الأفراد والجماعات». ومن التفسيرات البسيطة التي ذكرت أيضاً للتنمية الاجتماعية هو أنها: «عمليات تغيّر اجتماعي تلحق بالبناء الاجتماعي ووظائفه، وتسعى إلى إقامة بناء اجتماعي جديد يمكن عن طريقه إشباع الحاجات الاجتماعية للأفراد».

وهذا التفسير الأخير للتنمية الاجتماعية يشير إلى أن هذه التنمية ليست

(4) ينظر: نفس المرجع السابق، ص 190-201.

(5) الهيئة العامة للضمان الاجتماعي الجماهيرية، مجموعة تشريعات الضمان الاجتماعي. طرابلس، الجماهيرية: الهيئة العامة للضمان الاجتماعي، 1978، ص 6.

تقديم الخدمات فحسب، بل تشتمل - بالإضافة إلى ذلك - عنصرين أساسيين آخرين:

أحدهما: تغيير الأوضاع الاجتماعية القديمة التي لم تعد تسير روح العصر.

والآخر: إقامة بناء اجتماعي جديد تنبثق عنه علاقات اجتماعية جديدة وقيم مستحدثة، ويسمح للأفراد بأكبر قدر ممكن من إشباع مطالبهم وحاجاتهم⁽⁶⁾.

2- وبالنسبة لمفهوم «الضمان الاجتماعي»، فإنه يُعدّ أوسع مدلولاً من مدلولات: الأمن الاجتماعي، والتأمين الاجتماعي، والمساعدات الاجتماعية، فهو يشمل ذلك كله، «ويقصد به جميع النظم التي تقدم بمقتضاها خدمات أو مساعدات أو مزايا للمحتاجين إليها أو المستحقين لها، في الحالات الموجبة لتقديمها، سواء كان تقديم هذه الخدمات أو المساعدات أو المزايا عن طريق التأمين الاجتماعي أم تنظيم المساعدات الاجتماعية أم عن أي طريق آخر. وميزة الشمول في الضمان الاجتماعي تجعل الحماية التي يكفلها تنسحب على كافة من يحتاجون إليها من جميع الفئات، هم ومن يعملونهم، وتضمن لهم مستوى للمعيشة مقبولاً اجتماعياً يكفي لسد الحاجات الضرورية، كما تشمل حمايتهم ضد جميع المخاطر⁽⁷⁾... ومصدر هذه المخاطر أو الأخطار الاجتماعية - عادة هو الوسط الاجتماعي (كالمخاطر الإدارية والنقدية والدولية) والخطر الناجم من تخفيض أجر العمل⁽⁸⁾.

«ويهدف الضمان الاجتماعي - بصفة عامة - إلى ضمان حد أدنى لدخل

(6) ينظر كتابنا: الثروة وتنمية المجتمع العربي، ليبيا وتونس: الدار العربية للكتاب، 1985، ص 63.

(7) مجموعة تشريعات الضمان الاجتماعي بالجمهورية، مرجع سابق ص 76.

(8) ينظر: د. الكوني أعبوده، «مدخل إلى فكرة الضمان الاجتماعي وقانون الضمان الليبي»، مجلة العلوم القانونية. (تصدر بالجمهورية)، السنة الثانية، العدد الثالث والرابع، يونيو 1988، ص 54.

الفرد يتقي به الفاقة، وإلى تغطيته عند الحاجة، وحمايته من مخاطر الحياة ورعايته، وذلك بتأمين دخله الناشئ عن العمل في حالات توقف الكسب بسبب الشيخوخة أو العجز، أو المرض، أو الإصابة، أو البطالة، أو وفاة العائل بالنسبة لأفراد الأسرة الذين كان يعولهم، وتأمين قدرته على العمل بطرق الوقاية من الأمراض والحوادث، وتقديم الخدمات الطبية والتأهيلية في حالات المرض، والعجز، وإصابات العمل، وأمراض المهنة، ومقابلة المسؤوليات المتزايدة نتيجة زيادة حجم الأسرة، وذلك بتقديم الإعانات العائلية»⁽⁹⁾.

والضمان الاجتماعي بهذا المعنى الواسع الذي أخذ يتجه إليه في العصر الحاضر يشمل - كما قدمنا - جميع النظم التي تقدم بمقتضاها خدمات أو مساعدات أو مزايا للمحتاجين إليها أو المستحقين لها. كما يشمل جميع أنواع الرعاية الضمانية، بما في ذلك الرعاية الاجتماعية، والرعاية الصحية، والرعاية الثقافية، والرعاية الاقتصادية.

وفي الضمان الاجتماعي بذلك المعنى الواسع لتلبية لحقوق الإنسان الدولية والقومية والوطنية، وتأكيد لكرامة الإنسان وحقه في الحياة الكريمة العادلة وسد لحاجاته الاجتماعية والاقتصادية الأساسية.

والضمان الاجتماعي، وإن لم يعرف بهذا الاسم في النصوص الإسلامية وفي التراث الإسلامي والفكر الإسلامي، فإنه عرف بمدلوله ومحتواه، وربما عرف بشكل أوسع مما هو مطبق في كثير من بلدان العالم المتقدم الحديث، وهو يتمشى في فلسفته وأهدافه مع روح ومبادئ ومقاصد وأحكام الشريعة الإسلامية التي تدعو إلى تحقيق العدل والمساواة والإخاء والتعاون والتضامن والتآزر والتراحم والتوادد والتعاطف بين المسلمين. والمصطلح الذي يقابل مصطلح الضمان الاجتماعي في العصر الحديث - في التراث الإسلامي هو مصطلح «التكافل الاجتماعي»، الذي يحوي في مدلوله ما يحتويه مفهوم

(9) مجموعة تشريعات الضمان الاجتماعي بالجمهورية، مرجع سابق، نفس الصفحات السابقة.

«الضمان الاجتماعي» ويزيد عليه، كما يتضح مما سنذكره في الفقرة التالية.

3 - التكافل الاجتماعي كمظلة شاملة لجميع أنواع الرعاية والخدمات الاجتماعية في الإسلام: إن مصطلح التكافل الاجتماعي في الفكر الاجتماعي الإسلامي يشمل في مدلوله ما تعنيه جميع المفاهيم السالفة الذكر، من رعاية اجتماعية، وأمن اجتماعي، وتأمين اجتماعي، وضمان اجتماعي، وما إلى ذلك.

ومن التعريفات أو التفسيرات الحديثة التي أعطيت للتكافل الاجتماعي في الإسلام، هو ما فسره به الدكتور محمد فوزي فيض الله في إحدى مقالاته الإسلامية من أنه: «تنظيم مالي ديني، يقوم على فكرة التعاون بين الدولة وبين الكاسبين، أفراداً وجماعات، لسد حاجات الفقراء، وحفظ كرامة المحرومين، وتهيئة سبيل العيش الكريم لهم، من غير استغلال أو تجاوز»⁽¹⁰⁾.

وما قد يؤخذ على هذا التعريف أو التفسير للتكافل الاجتماعي هو أنه ركز على البعد المالي الاقتصادي، مع أن «التكافل الاجتماعي» في الإسلام أشمل من أن يكون مقتصرأ على تنظيم مالي اقتصادي، فهو بجانب كونه نظاماً مالياً اقتصادياً هو أيضاً نظام اجتماعي وتربوي وثقافي. نعم إن كثيراً من الخدمات والمساعدات المالية والعينية والمزايا التي تقدم إلى المحتاجين إليها، والمستحقين لها من خلال نظام «التكافل الاجتماعي»، تحتاج إلى تمويل ودعم مالي، ولها مقصد استثماري اقتصادي بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولكن يجب ألا ننسى أن هناك خدمات تكافلية يقوم بها أفراد ولها طبيعة تربوية وتعليمية أو ثقافية أو تناصحية تدخل في نطاق التناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومهما يكن من أمر، فإن نظام أو منهج التكافل الاجتماعي في الإسلام ينطلق من مبادئ التعاون والتضامن، والتآخي والتآزر، والتراحم والتوادد

(10) د. محمد فوزي فيض الله، «منهج الإسلام في التكامل الاجتماعي»، مجلة الوعي الإسلامي، السنة العاشرة، العدد 114، يونيو 1974، ص52.

والتعاطف، والتناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورعاية المصالح، وجلب المنافع، ودرء المفاسد أو المضار، التي يدعو إليها الإسلام، وترتكز عليها الشريعة الإسلامية.

ويستهدف نظام «التكافل الاجتماعي» في الإسلام صون كرامة الإنسان، وتلبية احتياجاته الضرورية، وصيانة حقوقه الأساسية، بما في ذلك حقه في الضمان الاجتماعي، وحقه في الرعاية الاجتماعية المناسبة لسنه ولظروفه الصحية والاجتماعية والاقتصادية، والتخفيف من وطأة المرض والشيخوخة، وقطع دابر الفقر والعوز والجريمة والانحراف، وإحباط أساليب التجاوز والاستغلال والظلم الاجتماعي في المجتمع الإسلامي، وزيادة تماسك المجتمع الإسلامي، وتقوية أواصر التعاون والتضامن والأخوة والتوادر والتعاطف والتراحم بين أفرادهِ وجماعاتهِ.

وقد وزع الإسلام المسؤولية التكافلية في المجتمع الإسلامي على جميع عناصر هذا المجتمع، ابتداء من الفرد ومروراً بالجماعات التي يتكون منها المجتمع، وانتهاء بالدولة.

أ - فبالنسبة للمسؤولية التكافلية على مستوى الفرد، فإن الإسلام يَعدُّ كل مسلم مسؤولاً مسؤولية تكافلية خاصة، عن نفسه وعما استرعاه الله، ومسؤولاً مسؤولية تكافلية عامة عن المجتمع الإسلامي بأكمله، وعن الأمة الإسلامية بأسرها.

1 - ومن مظاهر التكافل بين الفرد وذاته حرصه على العمل وإتقانه له ما دام قادراً عليه، ليصون كرامته وعزته ويصون نفسه من ذل السؤال. فقد أمر الله الإنسان بالعمل وجعله ضرباً من العبادة، وربما جعل من العبادة القوة على التدبير والمعاش، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾⁽¹¹⁾. وقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾⁽¹²⁾. وأثنى

(11) سورة الجمعة، الآية: 10.

(12) سورة البقرة، الآية: 20.

جل شأنه على الجائنين في الأرض طلباً للرزق، كما أثنى على المجاهدين بأنفسهم في سبيل الله، فقال: ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾⁽¹³⁾.

وقد عدَّ النبي ﷺ اللقمة الممزوجة بكبد اليمين وعرق الجبين أفضل وأهنأ من التي تأتي إحساناً أو على موائد الآخرين، وذلك عنه قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»⁽¹⁴⁾. وقال ﷺ في الحث على إتقان العمل: «إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن»⁽¹⁵⁾.

ومن مظاهر التكافل بين الفرد وذاته أيضاً: أن ينهى الإنسان نفسه عن شهواتها، وأن يزكّيها ويطهرها، وأن يسلك بها طريق الصلاح والنجاة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾⁽¹⁶⁾.

2 - ومن مظاهر التكافل الاجتماعي بين الفرد وبين من استرعاه الله من أفراد أسرته، إنفاقه على أولاده وأبيه، وعلى من تلزمه نفقته من ذوي قرياه الآخرين، وبرهم والإحسان إليهم، ورعايتهم، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا...﴾⁽¹⁷⁾.

وقوله: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾⁽¹⁸⁾.

وقوله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، وبذي القربى...﴾⁽¹⁹⁾.

(13) سورة المزمل، الآية: 20.

(14) رواه البخاري وأحمد بن حنبل في مسنده.

(15) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد بن حنبل في مسنده.

(16) سورة النازعات، الآية: 41-37.

(17) سورة التحريم، الآية: 6.

(18) سورة الإسراء، الآية: 23.

(19) سورة النساء، الآية: 36.

وقوله تعالى: ﴿فَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ...﴾ (20).

ولقوله ﷺ: «الزمو أولادكم وأحسنوا أدبهم» (21).

وقوله ﷺ: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحاسبها كانت له صدقة» (22).

وقوله ﷺ: «من بر والديه طويى له، زاد الله عز وجل في عمره» (23).

وقوله ﷺ: «بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك فأدناك» (24).

وقوله ﷺ: «من أب أن يبسط له في رزقه، وإن يُنْسَأ له في أثره، فليصل رحمه» (25).

3 - ومن مظاهر التكافل بين الفرد وبين أفراد مجتمعه الإسلامي وأمته الإسلامية بعامة، وبينه وبين جماعة المسلمين، قيامه بواجب الرعاية نحوهم والتعاون معهم على الخير، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ومعاضدتهم وشد أزهرهم، والسعي في سبيل سد حاجاتهم وحل مشكلاتهم، وتفريج كربهم وتقديم العون لهم، ومعاملاتهم بروح الحب والإخاء والمودة والرحمة، امتثالاً لأوامر دينه الإسلامي وتنفيذاً لوصاياه التي أكدتها آيات القرآن الكريم وآثار السنة النبوية المطهرة، التي من بينها:

قوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (26).

وقوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله

(20) سورة الروم، الآية: 38.

(21) رواه ابن ماجه.

(22) أخرجه الحفصة إلا أبا داود.

(23) رواه البخاري في الأدب المفرد.

(24) رواه الترمذي.

(25) رواه البخاري في الأدب المفرد.

(26) سورة المائدة، الآية: 2.

ورسوله، أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم»⁽²⁷⁾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾⁽²⁸⁾.

وقوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»⁽²⁹⁾.

وقوله ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»⁽³⁰⁾.

وقوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»⁽³¹⁾.

وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»⁽³²⁾.

وقوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فَرَجَ الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»⁽³³⁾.

وقوله ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله»⁽³⁴⁾.

وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»⁽³⁵⁾.

«من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»⁽³⁶⁾.

(27) سورة التوبة، الآية: 71.

(28) سورة الحجرات، الآية: 10.

(29) متفق عليه.

(30) رواه مسلم.

(31) رواه مسلم.

(32) رواه البخاري والترمذي وأحمد.

(33) متفق عليه.

(34) رواه البزار والطبراني.

(35) متفق عليه.

(36) رواه مسلم.

وقوله ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»⁽³⁷⁾.

وقوله ﷺ: «وليس المؤمن بالذي يشيع وجاره جائع بجنبه»⁽³⁸⁾.

ب - والمسؤولية التكافلية في الإسلام، كما تقع على الفرد تجاه نفسه، وتجاه أولاده وأبويه وأفراد أسرته، وأقربائه وذوي رحمه، وتجاه أفراد وجماعات مجتمعه الإسلامي وأمته الإسلامية، فإنها تقع أيضاً على الجماعة والمجتمع والأمة والدولة، تجاه أفراد الأمة وجماعاتها. «فالإسلام يريد الجماعة المسلمة هيئة متماسكة، وأسرة واحدة، يحنو قلوبها على ضعيفها، ويرحم كبيرها صغيرها، ويكفي غنيها فقيرها». وفي هذا ورد في الصحيح: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»⁽³⁹⁾.

وقد أوجب على كل أهل حي أو قرية أن يتكافلوا فيما بينهم. وفي هذا يقول ﷺ: «أيما أهل عرض أمسوا وفيهم جائع فقد برئت ذمة الله»⁽⁴⁰⁾.

ومن أجل صيانة حق الفقير في إشباع حاجاته الضرورية إن لم يقدّم بإشباعها بيت المال والزكاة، فقد «فرض على الأغنياء من أهل كل بلد - كما يقول ابن حزم - أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكاة بهم ولا في سائر أموال المسلمين». بل إنه قرر تضمين البلد الذي يموت أحد أفراد جوعاً، فيؤدي أهله جميعاً ديته متضامين، كأنهم شركاء في موته⁽⁴¹⁾.

وكذلك إذا مات شخص من «الزحام ولم يعرف المتسبب في موته، فإن أهل البلد يعتبرون مسؤولين مسؤولية مباشرة وجماعية عن موته ويلزمون

(37) رواه أبو داود والترمذي.

(38) رواه السيوطي في الجامع الصغير الجزء الثاني.

(39) متفق عليه.

(40) رواه أحمد بألفظ آخر هو (أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع...).

(41) كما نقله د. محمد فوزي فيض الله «منهج الإسلام في التكافل الاجتماعي» مجلة الوعي الإسلامي السنة العاشرة العدد 115 يوليو 1974 ص52.

بديته . وإذا أثبت أهل البلد عدم علمهم أو عدم تسببهم في موته ، ولم يعرف المتسبب ، فإن ديته تدفع من بيت المال . وهذا أروع ما يمكن أن يتصوره العقل عن التكافل الاجتماعي بين الفرد والجماعة والدولة⁽⁴²⁾ .

جـ - وبالنسبة لمسؤولية الدولة تجاه إرساء قواعد التكافل الاجتماعي في أرجائها ، فإن التراث الإسلامي مليء بالنصوص المؤكدة لهذه المسؤولية والمدعمة لها ، والموضحة لواجبات الدولة نحو بث الأمن في ربوعها ، وحفظ حدودها وإقامة العدل والمساواة ، ونشر التعليم والثقافة ، وتوفير مستوى معيشي لائق لأفراد المجتمع والأمة ، وتحقيق الرعاية الشاملة لجميع أفراد المجتمع والأمة .

يقول ﷺ عن الحاكم الذي لا يسهر على مصالح الناس ذوي الحاجة : «من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة»⁽⁴³⁾ .

وطمأن عليه الصلاة والسلام من يخشى إن ترك ذرية ضعافاً عند وفاته فقال : «من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك كلاً فإلى الله ورسوله»⁽⁴⁴⁾ .

وكفل ﷺ من لا معيل له : «فالسultan ولي من لا ولي له»⁽⁴⁵⁾ .

وقد فسرنا هذه الأحاديث وغيرها مما في نصها على أنها إرساء لمحجر الأساس لصرح التأمين الاجتماعي في الإسلام .

وها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلن في إحدى خطبه : «إني حريص على ألا أدع حاجة إلا سدتها ما اتسع بعضنا لبعض» .

(42) إحسان الكيالي «الضمانات الفردية في الشريعة الإسلامية» في السياسة الجنائية في التشريع الإسلامي (العدد الرابع من سلسلة الدفاع الاجتماعي) للنظمة العربية للدفاع الاجتماعي الرباط 1982 ص 289 .

(43) رواه أبو داود والترمذي .

(44) رواه أحمد وابن ماجه وأبو داود .

(45) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي .

ومما جاء في خطبة عمر في الولاية: «ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يُهتدى بكم، فأجروا على المسلمين حقوقهم، ولا تضربوهم فتذلوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قلوبهم ضعيفهم، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم، ولا تجهلوا عليهم...».

وقد قال الخليفة التقي الورع عمر بن عبد العزيز: «وما أحد منكم تبغني حاجته إلا حرصت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه».

وفي إحدى الرسائل التي كان يكتب بها طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله بن طاهر جاء فيها قوله:

«وتعاهد ذوي البأساء وأيتامهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال... وأجر للأضرء من بيت المال، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم وقواماً يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم، ما لم يود ذلك إلى إسراف في بيت المال».

وقد اختلف الفقهاء في الحاجات التي على الدولة سدادها وتعهداها. فذهب الشافعي إلى منع زيادة المحتاج على كفايته، وإن اتسع المال، لأن أموال بيت المال لا توضع إلا في الحقوق اللازمة، وجوز أبو حنيفة زيادته على الكفاية إذا اتسع المال لها.

«وتباين الرأيين يدل على أن الحصول على جواب محدد قاطع غير ممكن، لأن ظروف الدولة الإسلامية هي التي تقرر أي الرأيين أو الآراء يتبع. فالغذاء والكساء والطبابة والتعليم هي الحاجات الأساسية للفرد. بيد أنه لا يستبعد أن لا تكفي الموارد على الرغم مما لدى الدولة من رغبة شديدة للوفاء بها. لذلك يتوجب عليها أن توضع برنامجاً بالأفضليات التي تتيحها مواردها بالنسبة للأفراد المعوزين وحاجاتهم».

أهداف الرعاية الاجتماعية في الإسلام:

مقدمة:

لعله اتضح لنا من المحاضرة السابقة أن «الرعاية الاجتماعية» وإن لم توجد بلفظها في التراث الإسلامي، فإنها وجدت فيه بروحها وفلسفتها ومقاصدها وأهدافها ومحتوياتها ومكوناتها، بل إن ما وجد في التراث الإسلامي والفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية كان أوسع مدى وأشمل بكثير مما تحتويه الرعاية الاجتماعية في أكثر البلدان تقدماً في مجال الرعاية الاجتماعية في العصر الحديث. ولعله اتضح لنا من المحاضرة السابقة أيضاً أن الرعاية الاجتماعية بمفهومها الحديث هي جزء من نظام أو منهج التكافل الاجتماعي في مفهومه الإسلامي الواسع الذي يشمل جميع أنواع الرعاية والضمانات التي تدخل في مفهوم نظام الضمان الاجتماعي ونظام التأمين الاجتماعي الحديثين.

ومناطق النظم في المجتمع الإسلامي، سواء أكانت للاقتصاد أم للتعليم أم للتكافل الاجتماعي أم للرعاية الاجتماعية أم لغير ذلك من جوانب الحياة ومناشطها هو تحقيق المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية في آن واحد، والتوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، في حالة التعارض بين المصلحتين، إذا ما كان هذا التوفيق ممكناً، وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة في حالة عدم إمكان التوفيق⁽⁴⁶⁾.

والمصالح الاجتماعية التي تستهدفها تعاليم الإسلام وأوامره ونواهيه ووصاياه في جميع جوانب الحياة لها ثلاثة مستويات، هي: الضروريات، والحاجيات، والتكميليات أو كما تسمى أحياناً بالتحسينات.

1 - فبالنسبة للضروريات فإنها تشمل جميع الأفعال والأشياء التي تتوقف

(46) ينظر: د. محمد شوقي النجري، «الجمع بين المصلحة الخاصة والعامة»، مجلة الوعي الإسلامي السنة الثانية عشرة العدد (133)، يناير 1976، ص 63-54.

عليها صيانة الأركان الخمسة للحياة الفردية والاجتماعية الصالحة في نظر الإسلام. وهذه الأركان الخمسة هي: الدين، والنفوس، والعقل، والنسل، والمال. وصيانة هذه الأركان الخمسة من أول مقاصد الشريعة الإسلامية.

2 - وبالنسبة للحاجيات فإنها تشمل الأفعال والأشياء التي لا تتوقف عليها صيانة تلك الأركان الخمسة، ولكنها تتطلبها الحاجة لأجل التوسعة ورفع الحرج. ومن الأمثلة على هذه الفئة من المصالح التمتع بالطيبات التي يمكن أن يستغني عنها الإنسان، ولكن بشيء من المشقة. كما تشمل هذه الحاجيات أيضاً الأعمال والأشياء التي لا تتوقف عليها صيانة الأركان الخمسة، لكنها تساعد وتسهل سبل المحافظة على هذه الأركان الخمسة، وذلك مثل حفظ الصحة والفعاليات المتصلة بها وتشجيع التربية البدنية لتقوية الجسم، وتشجيع التربية العامة والتعليم. وفي هذا تطبيق مباشر للقاعدة الفقهية القائلة «بأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

3 - وبالنسبة للتكميليات أو التحسينات فإنها تشمل الأعمال والأشياء التي تتجاوز حدود الحاجيات ولا تتخرج الحياة ولا تصعب بتركها، ولكن مراعاتها مما يسهل الحياة أو يحسنها أو يجملها، وذلك مثل الأوامر المتصلة بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات وبالاعتدال وعدم الإفراط أو التفريط في كل شيء. وإذا ما تجاوز الإنسان حدود التكميليات فإنه يدخل في منطقة الإسراف والترف اللذين ينهى عنهما الإسلام ويرى أنهما مفسدة للفرد والمجتمع.

وللمصلحة علاقة وثيقة بالمصلحة، وهي تُعدُّ من الحوافز التي تحفز الإنسان على النشاط والكد والسعي في الحياة، ولكن ليس بشرط أن تتطابق مع المصلحة الحقيقية، بل يعتمد هذا التطابق على اختيار طوعي للإنسان. لذا فإن من واجبه الديني أن يحسن اختياره ويجعل ما يسعى إليه من منافع تتطابق مع مصالحه الحقيقية، ولذلك يحقق مقاصد أوامر الدين ونواهيه، التي هي هداية تزيد من منفعة الفرد وتؤمن مصالحة الحقيقية في هذه الحياة.

والمنافع والمصالح التي يسعى إلى تحقيقها الفرد المسلم لا تقف عند المنافع والمصالح الدنيوية، بل تتعداها إلى المنافع والمصالح الأخروية، بل إن

ثواب الآخرة هو الهدف النهائي للمسلم . وعلينا أن ندرك أنه من الأهداف أو المقاصد الرئيسة للإسلام ولتعاليمه وتوجيهاته «أن يساعد الإنسان على مجابهة حقيقة كبرى، هي أن هناك حياة وثواباً بعد الموت . وهذا الثواب أعظم بكثير من أي خير يمكن أن يناله الإنسان في هذه الحياة، كما أن عقاب الآخرة أشد بكثير من أي شقاء يمكن أن ينزل بالإنسان في هذه الحياة»⁽⁴⁷⁾ .

من الأهداف العامة للرعاية الاجتماعية للإسلام:

ونحن إذا ما رجعنا إلى الموضوع الرئيس في هذه المحاضرة، وهو «أهداف الرعاية الاجتماعية للإسلام»، فلننا نجد أن هذه الأهداف لا تخرج عن مقاصد الشريعة وغاياتها، فهي جزء لا يتجزأ من مقاصد الشريعة وغاياتها، وتعكس التغيرات المرغوبة التي يدعو ويوجه إليها ويستهدفها، في كل ما جاء به من عقائد وقيم وتعاليم ومن أوامر ونواه، وفي كل ما دعا إليه وحث عليه ورغب فيه من أعمال وأفعال ومناشط وخدمات، بما في ذلك أعمال ومناشط وخدمات التكافل الاجتماعي والرعاية الاجتماعية، التي تتمشي مع الفطرة الإنسانية السليمة وتلبي حاجات الإنسان وطموحاته المشروعة .

وبالنسبة للرعاية الاجتماعية بالذات، فإن من الأهداف العامة الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن تسعى إلى تحقيقها في مجتمع إسلامي يدين بالإسلام ويطبق تعاليمه في حياته العامة، الأهداف التالية:

1 - صيانة كرامة الأفراد الذين تتجه إليهم الرعاية الاجتماعية بخدماتها ومساعداتها، ورفع معنوياتهم وزيادة رضائهم عن أنفسهم وعن المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه، وزيادة تكيفهم النفسي والاجتماعي، وتقوية ثقتهم بأنفسهم وبالمجتمع الذي يعيشون فيه، وتقوية ولائهم لوطنهم وأمتهم الإسلامية، وتقوية ارتباطهم بمجتمعهم وأمتهم، وزيادة تحصيلهم وإنجازهم وإنتاجيتهم، وتحسين مستوى معيشتهم، وإدماجهم في حياة مجتمعهم وفي

(47) ينظر: د. محمد أنس الزرقاء «صياغة لدالة المصلحة الاجتماعية»، مجلة المسلم المعاصر. العدد السادس عشرة (أكتوبر - ديسمبر 1978)، ص 95.69.

ثقافته، وتشربهم لقيمه وعاداته وتقاليده المرغوبة، وتمكينهم من تنمية استعداداتهم وميولهم، وقدراتهم ومهارتهم، واتجاهاتهم الاجتماعية المرغوبة، والاستفادة منها في حياتهم، ومن تحقيق كفاياتهم الاجتماعية، ومن الاعتماد على أنفسهم - بقدر الإمكان - في كسب عيشهم ومن تنمية إرادة التغيير لديهم لغير المرضي من سلوكهم، حيث إن تغيير ما بالنفوس وإصلاح أحوالها هو نقطة البداية في تغيير المجتمع، وتحقيق الإصلاح الاجتماعي العام الشامل. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾ (48).

2 - تنمية الوازع الديني والخلقي في نفوس من تشملهم الرعاية الاجتماعية بفئاتهم المختلفة، وغرس فضائل الأخلاق فيهم من صدق وأمانة، وإخلاص ووفاء، وشكر للنعمة، واستقامة، وعفة ونزاهة، وعدل، وسخاء، ونجدة، وإغاثة، ومروءة، وشهامة، وتسامح، ورحمة، وعزة نفس، وشجاعة، وحب للخير وفعل له ودعوة إليه، وحسن معاملة، وما إلى ذلك من فضائل الأخلاق، التي ينبغي للرعاية الاجتماعية في جانبها التربوي والإرشادي والتوجيهي أن تغرسها في نفوس من تتجه إليها، وتكامل بينها وتجعل منها عادات متأصلة في سلوكهم، فتضمن بذلك استمرارهم في ممارستها في حياتهم الخاصة والعامة، وفي علاقاتهم مع ربهم ومع أنفسهم ومع غيرهم، وأن تتعهد تنمية ورعاية هذه الفضائل لضمان تأصيلها واستمرارها (49). ووقايتهم من انحراف العقيدة وسوء الأخلاق ومن منكرات الأعمال والأهواء والأدواء، ومن مختلف الجرائم وانحرافات السلوك، ومن حملات الغزو الثقافي والفكري، ومن الدعوات والأفكار الإلحادية، ومن التشويه المتعمد للإسلام.

3 - حماية حقوق من تشملهم الرعاية الاجتماعية من أطفال، وشباب،

(48) سورة الرعد، الآية 11.

(49) ينظر: د. وهبة الزحيلي، «الارتباط بين الخلق والدين». مجلة الوعي الإسلامي. السنة الحادية عشرة، العدد (121)، يناير 1975، ص 2520.

وجانحين وجانحات، ومُتهمين ومُسجونين، ومعاقين، ومُحرومين، وفقراء، وعجزة، وكبار سن، وغيرهم من الفئات؛ وحماية حرياتهم الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتلبية حاجاتهم الأساسية، التي لا تتحقق كفايتهم الاجتماعية بدون تلبية وإشباعها، وذلك مثل حاجتهم إلى الرعاية الصحية الشاملة المتكاملة، وحاجتهم إلى التغذية السليمة المتكاملة في عناصرها ومكوناتها، وحاجتهم إلى الحب، والتقدير، والنجاح، والانتماء، والشعور بالكرامة والعزة والقيمة والأهمية في الوسط الذي يتفاعلون معه، والمجتمع الذي يعيشون فيه، والحاجة إلى تحقيق ذواتهم وتأكيد إيجابيتهم وأدوارهم في الحياة.

ومن الحقوق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والروحية التي يجب أن يتمتع بها الفرد المسلم، والتي ينبغي لجهود وخدمات الرعاية الاجتماعية أن تسهم في حمايتها وصيانتها: حقه في الانتماء إلى أسرة، وفي العيش في بيئة عائلية طبيعية، وحقه في فرص تعليمية متكافئة، وحقه في تنشئة سليمة، وحقه في الإعداد لحياة اقتصادية منتجة، وحقه في الحرية الشخصية والاجتماعية الملزمة، وحقه في التعبير عن رأيه وفكره بحرية، وحقه في حفظ كرامته وتأكيد ذاته ونيل احترامه وتقديره، وحقه في المعاملة العادلة، إلى غير ذلك من الحقوق التي ضمنها الإسلام للفرد المسلم، قبل أن تُقرّ بها إليه الإعلانات والمواثيق والعهود والقواعد والاتفاقات الدولية⁽⁵⁰⁾.

4 - تحسين البيئة الإنسانية والاجتماعية للأفراد والجماعات في المجتمع الإسلامي، بتحسين الظروف المعيشية والغذائية والصحية والسكنية فيه، وتحقيق العدل والمساواة وتكافؤ الفرص بين أفراد المجتمع وجماعاته،

(50) ينظر كل من:

(أ) محمد الكتاني، «حقوق الطفل في الإسلام» بحث قدم في: ندوة الخبراء العرب والأفارقة حول الطفولة والمراهقة، عقدت في طنجة (22-19 مارس، 1979)، ص 239.

(ب) د. طه جابر العلواني، «حقوق المتهم في مرحلة التحقيق». قدم ضمن أبحاث الندوة العلمية التي نظمها المركز العربي للدراسات الأمنية في عام 1986، وقائع الندوة، ص 50-15 (الجزء الأول).

ويمحاربة الظلم والقهر والجور والتجبر والفساد، وتحقيق التوازن الاجتماعي والاقتصادي بين أفراد المجتمع، بما يضمن مكافحة الفقر وعدالة التوزيع، والتقارب بين فئات المجتمع، وتحقيق التوازن بين القوة الروحية المتمثلة في قوة العقيدة والإيمان والوازع الديني والخلقي، وبين القوة المادية المتمثلة في التقدم العلمي والتقني وزيادة الإنتاج وقوة الاقتصاد والقوة العسكرية، وبالتقليل من الصراع بين فئات المجتمع، وبالتوفيق بين مصالح الفرد ومصالح المجتمع، وباتباع سياسة الوسط والاعتدال والملاءمة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾⁽⁵¹⁾، ولقوله ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»⁽⁵²⁾. والوسطية هنا تعني الاعتدال والملاءمة، وليست وسطية حسابية مطلقة. فهي وسطية اجتماعية نسبية. والاعتدال الذي يمثل سمة من سمات الإسلام البارزة وأسلوبه في كافة نواحي الحياة - لا يمكن أن يوضع في قالب جامد أو صيغة محددة، ولكنه أمر اعتباري يختلف باختلاف الزمان والمكان.

5 - تنمية روح التعاون والتكاتف والتوادر والتراحم والتآخي والتضامن والتكافل بين أفراد وجماعات المجتمع، وتحقيق التوافق والتقارب والانسجام والترابط والتكامل رأسياً بين الأجيال المتلاحقة. بين جيل الكبار وجيل الصغار، وبين أفراد المجتمع وفئاته المختلفة، بدلاً من الصراع والتناحر بينها، بحيث يغدون متعاونين على البر والتقوى، وعلى فعل الخير وتدعيمه والدعوة إليه، وعلى نبذ الشر وتقويضه ومحاربه ومعارضته والتنفير منه، محاولين جهمهم أن يكونوا «مفاتيح للخير مغاليق للشر»⁽⁵³⁾ مترابطين متحابين متآخين في الله، متحدّين منسجمين بعضهم مع بعض، باذلين جهمهم ومالهم في سبيل الخير العام والمصلحة العامة، ومستجيبين في كل ذلك لأوامر ربه وتوجيهات نبيه ﷺ.

(51) سورة البقرة، الآية: 143.

(52) رواه أحمد والنسائي.

(53) رواه ابن ماجه بالصيغة التالية (فظوى لمجد جملة الله مفتاحاً للخير ومغلاقاً للشر).

6 - تحقيق التنمية الاجتماعية المتكاملة، وإقامة مجتمع إنساني قائم على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعلى العدل والمساواة والتسامح والسلام العادل، وتنمية الشخصية المسلمة المتكاملة في نموها، المحبة للخير والمتعاونة على فعله، والمتألّفة مع الناس والمقدرة لمصالحهم، والمقدرة للمسؤولية، والقادرة على تحملها.

7 - حماية المجتمع الإسلامي من التفكك والتقاطع والتدابير والصراع بين الأجيال، والتوتر في العلاقات بين الناس، ومن الظلم الاجتماعي والاقتصادي وسوء توزيع الدخل والثروات، والبطالة بنوعيهما السافر والمقنع، ومن الجريمة وانحراف الأحداث وانتهاك الحرمات، ومن المنكرات والمفاسد الخلقية والاجتماعية والأخطار المؤكدة والمحتملة التي تضر بمصالح الناس وتهدد ضروريات الحياة، من دين، ونفس، وعقل، ونسل، ومال، وتهدد أمنهم وحرّياتهم. فالرعاية الاجتماعية في الإسلام كغيرها من نظم المجتمع الإسلامي القائمة على مبادئ الدين وتعاليمه، تقوم على درء المفاسد والمضار والأخطار، وسد الذرائع ومحاربة البدع الضارة وعلى جلب المصالح الخاصة والعامة في الدنيا والآخرة، وعلى حفظ كل ضروري للناس في حياتهم.

هذه هي أهم الأهداف العامة للرعاية الاجتماعية في الإسلام. وفي إطار هذه الأهداف العامة القليلة في عددها، لهذه الرعاية أهدافها الخاصة والجزئية العديدة. كذلك لكل فرع أو قسم من أقسامها، ولكل برنامج من برامجها، ولكل خدمة من خدماتها، ولكل نشاط من نشاطاتها، أهدافه العامة والخاصة، التي لا تخرج عن الإطار العام للأهداف العامة لهذه الرعاية التي أشرنا إليها إلى أهمها. وسيأتي لنا بيان بعض أهداف فروع أو مجالات الرعاية الاجتماعية، التي ستحدث عنها في المحاضرة القادمة.

- 3 -

مجالات الرعاية الاجتماعية في الإسلام:

والرعاية الاجتماعية في المجتمع الإسلامي التي وصفناها في محاضرتنا الأولى أنها جزء لا يتجزأ من نظام التكافل الاجتماعي الإسلامي في مفهومه

الواسع، لها أقسامها أو ميادينها أو مجالاتها المتعددة، التي تتعدد بتعدد الفئات التي تشملها هذه الرعاية. ومن الفئات العديدة التي يمكن أن تشملها الرعاية الاجتماعية بأبعادها الثلاثة (البعد الوقائي، والبعد العلاجي، والبعد الإنمائي) فئة الأطفال، وفئة المراهقين والشباب من الجنسين، وفئة الأحداث المنحرفين، وفئة المعاقين، وفئة العاجزين عن العمل، وفئة الشيوخ وكبار السن، وفئة الفقراء ومحدودي الدخل والعاطلين عن العمل، وفئة المتهمين، وفئة المساجين، وفئة الذين تعرضوا لكوارث وأحوال طارئة، وذلك بالإضافة إلى الأسرة التي تُعدُّ الوسط الأول الذي ينشأ فيه الطفل والجماعة الأولى التي يتفاعل معها ويتأثر بها إيجاباً أو سلباً، وذلك حسب نوعية أفرادها ونوعية الحياة والعلاقات السائدة فيها، وأساليب التنشئة والتربية والرعاية المتبعة فيها. ويستمر تأثير الفرد بأسرته حتى بعد أن يتجاوز مرحلة الطفولة والمراهقة والبلوغ. فهذه الأسرة - كما هي إحدى مؤسسات الرعاية والتربية للفرد وأداة من أدواتهما، فإنها هي نفسها ينبغي أن تكون موضع رعاية وتوجيه، لتكون قادرة على أداء دورها الرعائي لأفرادها. وعلى هذا الأساس، فإننا نُعدُّ الأسرة إحدى الجهات أو الجماعات التي ينبغي أن تشملها الرعاية الاجتماعية في الإسلام، التي سنتحدث عنها في هذه المحاضرة، مع العلم بأن ما سنتحدث عنه من مجالات الرعاية الاجتماعية لا يشمل جميع المجالات الممكنة لهذه الرعاية في الحضارة الإسلامية، التي كانت تمارس بالفعل في هذه الحضارة، بل يقتصر حديثنا عن أمثلة لبعض هذه المجالات فقط. وسيكون الحديث عن هذا البعض موجزاً.

1 - رعاية الأسرة في الإسلام:

لقد جاءت آيات القرآن الكريم وآثار السنة النبوية المطهرة مؤكدة لأهمية الأسرة بوصفها الوحدة الأساسية للمجتمع، والوسط الأول الذي ينشأ فيه الطفل ويتفاعل معه، ويبني مع أفراد علاقات مباشرة، ويتلقى فيه أساس تنشئته وتربيته الأولى، ويبدأ فيه تأسيس الخطوط الأولى لشخصيته. ومن هذه الآيات والأحاديث النبوية المطهرة المؤكدة لأهمية الأسرة والداعية إلى الزواج:

قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾⁽⁵⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾⁽⁵⁵⁾.

وقوله تعالى: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفلة﴾⁽⁵⁶⁾.

وقوله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج»⁽⁵⁷⁾.

وقوله ﷺ: «تزوجوا ولا تطلقوا، فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن»⁽⁵⁸⁾.

وقد عرفت الأسرة عدة تعريفات، لعل أقرب هذه التعريفات إلى مفهوم الأسرة في الإسلام تعريفها بأنها: «مجموعة من الأفراد ارتبطوا برباط إلهي هو رباط الزوجية أو الدم أو القرابة، ليحققوا بهذا الرباط غايات أرادها الله منه، وهم يعيشون تحت سقف واحد غالباً، وتجمع بينهم مصالح مشتركة»⁽⁵⁹⁾.

فقد جعل الإسلام الزواج هو الوسيلة الوحيدة لتكوين الأسرة المسلمة الثابتة المستقرة، فيه تتكون الأسرة ومته تنمو. ولهذا يأخذ الزواج العناية نفسها التي تأخذها الأسرة إن لم تكن أكبر.

فبالزواج يستمر بقاء النسل الإنساني ويتكاثر ويتسلسل، وبه يسلم

(54) سورة الروم، الآية: 21.

(55) سورة الأعراف، الآية: 189.

(56) سورة النحل، الآية: 72.

(57) رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه وأحمد والدارمي.

(58) رواه الخطيب في تاريخه من حديث علي.

(59) ينظر د. محمد بن عبد الله عرفة، الأسرة المسلمة والوقاية من الانحراف، من: معالجة الشريعة الإسلامية لمشاكل انحراف الأحداث (من أبحاث الندوة العلمية السابعة) الرياض، للركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب 1987 ص 6261.

المجتمع من التحلل الخلقي والتفكك الاجتماعي، وبه يتحقق السكن النفسي وتحصل المودة والرحمة بين الزوجين وبقيّة أفراد الأسرة، وبه تتأجج في نفس الأبوين عاطفة الأبوة والرحمة، وتفيض من قلوبهما ينابيع الأحاسيس والمشاعر النبيلة، فيندفعان في رعاية الأبناء والسهر على مصالحهم.

حتى إذا أنعم الله على الزوجين بولد أو أولاد، أصبح هذا الولد وهؤلاء الأولاد يكوّنون ركناً أساسياً ثالثاً في كيان الأسرة، يضاف إلى ركن الأب والأم. وإضافة الولد أو الأولاد إلى الأب والأم لا يخرج الأسرة عن مفهوم الأسرة الزوجية التي تمثل المفهوم الضيق للأسرة. ويقابل الأسرة الأحادية أو الزوجية: الأسرة الممتدة أو المركبة التي تحتوي عادة على ثلاثة أجيال هم: الأجداد، والأبناء والأحفاد الذين يجمعهم بيت واحد، ويجلسون على مائدة واحدة أو يعملون أعمالاً متكاملة. وقد عرفت الثقافة الإسلامية الأسرة الممتدة أو المركبة، كما عرفت الأسرة الأحادية أو الزوجية. ويمكن أن تتسع الأسرة الممتدة أو المركبة لتشمل ليس فقط الزوجين، والأجداد والأحفاد، بل تشمل أيضاً غيرهم من ذوي القربى مثل الإخوة والأخوات، والأعمام وأبناء العمومة. وقد قسم المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة الأسرة إلى ثلاثة أقسام يتمثل القسم الأول منها في ركني الأسرة الأساسيين، وهما الزوجان. ويتمثل القسم الثاني منها في الأولاد. ويتمثل القسم الثالث منها في ذوي القربى⁽⁶⁰⁾.

ويؤكد الإسلام الدور البارز للأسرة في حفظ النوع من الفناء، وتخليد ذكر الإنسان بالتوالد والتناسل، وفي توفير الحب والعطف والحنان والدفء، والتشجيع والتقدير، والقُدوة الحسنة، والإحساس بالأمن لأطفالها ولأفرادها بعامّة، وفي تنشئة أطفالها التنشئة الصالحة، وفي تربيتهم جسمياً وعقلياً ووجدانياً ودينياً وخلقياً، وفي تلبية حاجاتهم الجسمية والنفسية والاجتماعية، وفي رعايتهم صحياً ونفسياً واجتماعياً وروحياً، وفي وقايتهم من مختلف الأمراض والانحرافات ومساعدتهم في مواجهة وعلاج مشكلاتهم، وفي تنمية

(60) ينظر محمد أبو زهرة في المؤتمر الرابع لخبراء الشؤون الاجتماعية ص 5853.

معارفهم ومهاراتهم واتجاهاتهم وعاداتهم التي تعدهم لحياة ناجحة منتجة .
والنصوص الدينية التي تستمد منها الأسرة المسلمة التوجيه بخصوص واجباتها ومسؤولياتها تجاه تلبية حاجيات أفرادها ، وصيانة حقوقهم وحمايتهم من أي انحراف وبخصوص الدور والأدوار المتوقعة منها في تنشئتهم وتربيتهم ورعايتهم وقائياً وعلاجياً وإنشائياً كثيرة متعددة ، لا يتسع المقام لذكرها ، فضلاً عن شرحها وتحليلها . ومن بين هذه النصوص - على سبيل المثال - :

قوله تعالى : ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ (61) .

وقوله تعالى : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ (62) .

وقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً .﴾ (63) .

وقوله ﷺ : «كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن زعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته» (64) .

وقوله ﷺ : «إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته» (65) .

وقوله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (66) .

وقوله ﷺ : «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر» (67) .

(61) سورة النحل ، الآية : 72 .

(62) سورة النساء ، الآية : 1 .

(63) سورة التحريم ، الآية : 6 .

(64) سبق تخريجه .

(65) أخرجه ابن حبان في صحيحه .

(66) أخرجه الطبراني والبيهقي .

وقوله ﷺ: «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم»⁽⁶⁸⁾.

وقوله ﷺ: «ما نحل والد ولداً نحلأ أعظم من أدب حسن»⁽⁶⁹⁾.

وقوله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»⁽⁷⁰⁾.

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، التي تضع الأساس لدور الأسرة تجاه أفرادها، بعامة وأطفالها بخاصة، وتبين مسؤولياتها وواجباتها نحوهم.

ولتستطيع الأسرة المسلمة القيام بالدور الهام والخطر المتوقع والمطلوب منها دينياً واجتماعياً في تنشئة وتربية ورعاية أطفالها وقائياً وعلاجياً وإنشائياً وفي مساعدتهم على تحقيق نموهم الشامل المتكامل، وفي توفير الجو النفسي والروحي والاجتماعي الملائم للجميع، فإنها هي نفسها تحتاج إلى الرعاية السليمة التي تعدها للقيام بأدوارها وواجباتها ومسؤولياتها تجاه أطفالها وأفرادها.

ورعاية الأسرة المسلمة بما يدعم مركزها ويعدها للدور المتوقع والمطلوب منها يكون باتباع الآتي معها:

أ - إقامة الحياة الزوجية والأسرية على أسس متينة باختيار الزوجة الصالحة المأمونة في دينها وخلقها وسلوكها، والمأمونة في تنشئة وتربية أولادها على الخير والفضيلة وفي رعايتهم الرعاية الشاملة، والراضية بالزواج والراغبة فيه، استجابة لتوجيهات الدين وتعاليمه السامية، التي توجه الراغب في الزواج إلى اختيار الشريك الصالح سواء كان زوجاً أو زوجة. وقد جاءت هذه التوجيهات في الأحاديث النبوية الشريفة الكثيرة، التي وردت في موضوع اختيار الشريك الصالح للزواج. فمن ذلك:

وقوله ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن

(67) رواه أبو داود والحاكم.

(68) رواه ابن ماجه.

(69) رواه الترمذي.

(70) رواه أبو داود والنسائي والحاكم.

فتنة في الأرض وفساد كبير»⁽⁷¹⁾.

وقوله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»⁽⁷²⁾.

وقوله ﷺ: «لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين»⁽⁷³⁾.

وقوله ﷺ: «تخيروا لنطفكم، فإن العرق دساس»⁽⁷⁴⁾.

وقوله ﷺ: «ياكم وخضراء الدمن، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسنة في المئيت السوء»⁽⁷⁵⁾.

وقوله ﷺ: «لا تنكح الثيب حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن، وإذنها السكوت»⁽⁷⁶⁾.

وقوله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فقد ر أن ينظر منها بعض ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»⁽⁷⁷⁾.

ب - وإقامة الحياة الأسرية على التعاون والشورى بين أفرادها وعلى الحب والتقدير والاحترام المتبادل، والمعاملة الطيبة، وحسن المعاشرة، وعدم إلحاق الضرر بأي فرد من أفرادها، وإصلاح ذات البين بين أطرافها، استجابة لتوجيهات الدين التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في مثل: قوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى...﴾⁽⁷⁸⁾.

⁽⁷¹⁾ رواه الترمذي.

⁽⁷²⁾ متفق عليه.

⁽⁷³⁾ رواه ابن ماجه وابن حبان.

⁽⁷⁴⁾ رواه ابن ماجه والديلمي.

⁽⁷⁵⁾ رواه الدارقطني وابن عدي.

⁽⁷⁶⁾ رواه مسلم.

⁽⁷⁷⁾ رواه أبو داود.

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ...﴾ (79).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ آيَاتُهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (80).

وقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ (81).

وقوله ﷺ: «تزوجوا ولا تطلقوا، فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن» (82).

وقوله ﷺ: «لا أحب الذواقين من الرجال والذواقات من النساء» (83).

وقوله ﷺ: «ولا ضرر ولا ضرار» (84).

وقوله ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر» (85).

وقوله ﷺ: «خيركم خيركم للنساء، وخيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (86).

وقوله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة، قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة» (87).

وقوله ﷺ: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين، فقال خيراً أو نما

(78) سورة المائدة، الآية: 2.

(79) سورة الشورى، الآية: 38.

(80) سورة الروم، الآية: 21.

(81) سورة النساء، الآية: 19.

(82) سبق تخريجه.

(83) رواه الطبراني والدارقطني.

(84) رواه ابن ماجه والدارقطني.

(85) رواه مسلم.

(86) رواه ابن ماجه وأبو داود.

(87) رواه أبو داود والترمذي وحسنه.

جـ - ومن سبل رعاية الأسرة المسلمة وتدعيم مركزها وجعلها قادرة على تأدية دورها على الوجه الأكمل، وعلى القيام بمسؤولياتها ووظائفها وواجباتها نحو تنشئة وتربية ورعاية أطفالها في هذا العصر المليء بالتغيرات والتطورات الثقافية والاجتماعية، بما لا يخرج عن قيم الإسلام ومبادئه وتعاليمه: مساعدتها على الحصول على المسكن اللائق، وتحسين أوضاعها المادية، وتمكينها من الحصول على الدخل الذي يفي بضروريات واحتياجات حياتها، وتقديم المساعدات المالية والعينية إلى الأسر الفقيرة والكبيرة في حجمها، وتعميم مجانية الخدمات الصحية ومجانبة التعليم وإلزاميته، على الأقل في مرحلته الأساسية، والتوسع في شبكة دور الحضانه ورياض الأطفال، التي تتولى تربية الطفل فيما قبل المدرسة الابتدائية، وحماية الأسرة بتشريعات وسياسات ملائمة، تعزز رفاهيتها، وتوضح وتحمي حقوق أفرادها وتبين مسؤولياتها وواجباتها تجاه أفرادها، ومراجعة مناهج الدراسة للبنات، لتضمنها ما يساعد على إعداد البنت لحياة أسرية ناجحة زوجة وأماً وشريكاً كاملاً في حياة الأسرة، والاهتمام بتربيتها وتوعيتها وتوجيهها لاحقاً بعد الزواج، إلى أسلم الطرائق والسبل لتنشئة الأطفال وتربيتهم ورعايتهم في إطارها، ولبناء علاقات زوجية ناجحة، ولتوفير مناخ نفسي واجتماعي ملائم، يساعد على تلبية حاجات أفرادها، وعلى تحقيق تكيفهم النفسي والاجتماعي، وللحفاظ على التوازن بين حجمها والموارد المتاحة لها، وتدريب العاملين والعاملات في مجال رعاية الأسرة ورعاية الطفولة والأمومة، وتشجيع البحوث والدراسات ذوات العلاقة بمشكلات الأسرة المسلمة، وأسباب ضعف وتفكك بعض الأسر، وأسباب ارتفاع معدلات الطلاق في بعض المناطق، مع تنفير الإسلام منه والنهي عنه، إلا في الضرورة القصوى وبالشروط التي حددتها الشريعة الإسلامية، وتشجيع إنشاء جمعيات رعاية وتربية الأسرة، وجمعيات تربية الآباء التي أصبح لها وجود فاعل في كثير من البلدان، وأصبح لها

منشوراتها واجتماعاتها الدورية على المستوى المحلي والإقليمي والمستوى الدولي وأصبح لها اتصالاتها على المستوى الدولي، والاهتمام بصورة خاصة بالأسرة في المناطق الريفية والصحراوية، وربط رعاية الأسرة في هذه المناطق بالتنمية الشاملة لها، إلى غير ذلك من سبل رعاية الأسرة المسلمة في العصر الحديث التي وإن لم يوجد ما يؤيدها صراحة من نصوص الدين والفكر الإسلامي، فإنها تتمشى مع مبادئ وقواعد ومقاصد الشريعة العامة، وفيها تأكيد وتحقيق لمصلحة الأسرة المسلمة. ومن ثم فإنه ليس هناك ما يمنع من اللجوء إليها واستخدامها في إطار قيم الإسلام وتعاليمه.

2 - رعاية الطفل في الإسلام:

- لقد عني الإسلام برعاية الطفل حتى قبل أن يتم الزواج من أمه وهو لا يزال في عالم الغيب، وجعل من حق الطفل أن يكون له أب صالح وأم صالحة، ليس فقط من الناحية الدينية والخلقية، ولكن من الناحية الجسمية والعقلية والمزاجية، ولا شك في أن تأكيد هذا الحق، وضمان الحصول عليه من أول أسباب وعوامل وقاية الفرد من الانحراف الخلقي والديني والاجتماعي، ومن الأمراض الجسمية والنفسية، ومن التخلف العقلي. ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي تحت على اختيار الزوج والزوجة الصالحين القويين جسماً وعقلاً ونفسية ودينياً وخلقاً، وتحذر من الزواج من غير الصالح والصالحة ورائة جسماً وعقلاً ودينياً وخلقاً:

قوله ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»⁽⁸⁹⁾.

وقوله ﷺ: «تخيروا لنطفكم، فانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم»⁽⁹⁰⁾.

وقوله ﷺ: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»⁽⁹¹⁾.

(89) رواء الترمذي.

(90) رواء البخاري وابن ماجه وأحمد.

(91) رواء ابن ماجه وغيره.

وقوله ﷺ: «ياكم وخضرء الدمن، قالوا: وما خضرء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المئتب السوء»⁽⁹²⁾.

وقوله ﷺ: «اغربوا لا تضربوا»⁽⁹³⁾. والضاربي هو نحيف الجسم والذكاء.

وقوله ﷺ في الموضوع نفسه: «لا تنكحوا القرابة فإن الولد يخلق ضارياً»⁽⁹⁴⁾.

- حتى إذا ما تمّ الزواج وحدث الحمل، فإن العناية بالجنين تصبح واجبة. ومن الحقوق التي رتبها الشريعة الإسلامية للجنين، على أنه أن تعتني بغذائها وصحتها من أجل نفسها ومن أجل جنينها، وأن تأخذ المقويات اللازمة التي ينصح بها الطبيب وألا تتناول أية عقاقير وألا تزاوّل أي نشاط من شأنه أن يضر بالجنين، أو يؤدي بقصد أو عن غير قصد إلى إلحاق الضرر به أو إسقاطه، ولو كان هذا النشاط أو الفعل يرتبط بأداء شعائر الدين وفروضه، وذلك كالصوم والحج. إذ يمكن للأم الحامل شرعاً أن تؤجل الصوم - مثلاً - إذا خافت الضرر على جنينها أو على صحتها.

- وبميلاد الطفل تبدأ مرحلة جديدة في رعايته، يجب أن يشارك في هذه الرعاية أمه وأبوه وإخوته وجميع أفراد أسرته، ومؤسسات المجتمع الحكومية والأهلية. وفي هذه المرحلة تظهر للطفل حقوق جديدة، تتعلق برعايته الصحية وتنشئته الاجتماعية وتربيته الدينية والخلقية.

وبعد أن يأتي المولود إلى الدنيا، فإن أول شيء يوجه الإسلام إلى فعله مع الطفل هو تحصينه من همزات الشياطين بالأذان في أذن المولود اليمنى

(92) رواه ابن ماجه والديلمي.

(93) لم أقف له على أصل إلا ما سيأتي من قول عمر.

(94) قال ابن الصلاح لم أجد له أصلاً معتمداً، قلنا إنما يعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب:

قد أضويتم فانكحوا في النوايح، رواه إبراهيم الجزبي في غريب الحديث وقال معناه: تزوجوا

الغرائب. قال، ويقال: اغربوا ولا تضربوا.

راجع تخريج أحاديث إحياء علوم الدين 41/2.

والإقامة في أذنه اليسرى عند ولادته أو في اليوم السابع .

والحكمة في الأذان والإقامة هي أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلمات النداء العلوي المتضمنة لكبرياء الله وعظمته . والشهادة التي هي أول ما يدخل بها الإنسان في الإسلام، فكان ذلك الأذان كالتلقين له لشعار الإسلام عند دخوله إلى الدنيا، كما يلحن كلمة التوحيد عند خروجه منها .

- وبعد ميلاد الطفل تبدأ مرحلة الرضاعة، ومن حق الطفل أن يحصل على المرضعة الجيدة في صحتها وفي مزاجها، الهادئة في أعصابها الخالية من الاضطرابات الانفعالية والأمراض الجسمية والهيئية، لأن الطفل يتأثر إلى حد كبير بأخلاق من ترضعه وبخصائصها الجسمية والعقلية والمزاجية والانفعالية . وقد بين الرسول ﷺ أهمية الرضاعة، وأن الطفل يرث عن طريق اللبن صفات وخصائص مرضعته، وذلك عندما قال : « لا تسترضعوا الورهاء ⁽⁹⁵⁾ (الحمقاء) » وفي رواية أخرى : « لا تسترضعوا الحمقاء فإن اللبن يورث » . وخير من يرضع الطفل هي أمه إن كانت قادرة على ذلك، وكانت تتوافر فيها الصفات السالفة الذكر، وخير أنواع الرضاعة الطبيعية؛ لأنها أكثر فائدة من الناحية الصحية، ولها تأثيرها الإيجابي في أخلاق الطفل وفي نموه الوجداني والعاطفي . ومن حق الطفل أن ينال حقه كاملاً من الرضاعة، وحتى عندما يحين فطامه ينبغي أن يتم هذا الفطام بالتدرج، لما في الفطام الفجائي من إضرار بنفسية الطفل . ومن حق الأم المرضعة حق النفقة والأجر والكسوة بالمعروف، سواء أكانت في عصمة أبيه أم منفصلة عنه بالطلاق .

يقول تعالى : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ ⁽⁹⁶⁾ ويقول جل شأنه أيضاً : ﴿... وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن حملهن، فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن، واتتمروا بينكم بمعروف، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى . لينفق ذو سعة من سعته، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما

(95) لم أتف على تحريجه بلفظه .

(96) سورة البقرة، الآية : 233 .

آناه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاهما سيجعل الله بعد عسر يسراً⁽⁹⁷⁾.

- ومن حق الابن على أبيه في المرحلة الأولى من حياته أن يختار له ما يستحب من الأسماء، حيث إن الاسم الحسن له تأثير إيجابي في شخصية الإنسان وفي سلوكه وأخلاقه وآماله وطموحاته؛ إذ له على صاحبه آثار نفسية طيبة وإحياءات تربوية بناءة، يوقظ في نفسه ووجدانه المعاني السامية والمشاعر النبيلة واحترام الذات، ويجنبه الاستهزاء والسخرية به. ولهذا كان الرسول الكريم ﷺ يعلم أصحابه أهمية ونوعية التسمية الحسنة، ويبين لهم أنها من حقوق الطفل على والده ومن أساليب تربية الطفل ورعايته. ومن توجيهات النبي ﷺ في هذا الخصوص:

قوله ﷺ: «من حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه»⁽⁹⁸⁾.
وقوله ﷺ: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم، فأحسنوا أسماءكم»⁽⁹⁹⁾.

وقوله ﷺ: «تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة»⁽¹⁰⁰⁾.

- ويفطام الطفل وتدرجه في مراحل النمو اللاحقة تزيد حقوقه وتتسع آفاق تربيته ورعايته، لتشمل تربيته ورعايته الصحية والجسمية وتربيته الدينية والخلقية وتربيته وتنشئته الاجتماعية وتربيته العقلية.

ومن حقوق الطفل في فترة ما بعد الفطام حق في أن يعيش في أسرة طبيعية يتمتع بحبها وحنانها ودقتها وحسن علاقاتها، وحقه في حضانه واعية راشدة مؤتمنة في دينها وأخلاقها، وقادرة على تربية وتوجيه وتنشئة الأطفال التنشئة السليمة، وحقه في الحصول على التنشئة الاجتماعية السليمة، التي تساعد على تشرب معتقدات وقيم وعادات وتقاليد مجتمعه المرغوبة، وعلى

(97) سورة الطلاق، الآية: 76.

(98) رواه النووي في مستدرک الوسائل وابن النجار عن أبي هريرة.

(99) رواه أبو داود.

(100) رواه أبو داود والنسائي.

معرفة وتقبل الدور والأدوار المتوقعة منه في مجتمعه، وحقه في أن يجد فيمن حوله من يستطيع أن يفرس في عقله وقلبه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ببساطة، وأن يملأ قلبه بحب الله وحب رسوله، ويجعله يتشرب الفضائل الإسلامية، وما رسمه الإسلام من قواعد وآداب للسلوك والمعاملة، وحقه في الانتفاع بما يوجد في مجتمعه من دور للحضانة ورياض للأطفال، وكتاتيب لتعليم القرآن الكريم، ومؤسسات للترويح والترفيه المفيد والبريء، وحقه في الوقاية من الأمراض الجسمية والاضطرابات النفسية، ومن أضرار التلوث الغذائي والتلوث البيئي، إلى غير ذلك من الحقوق التي يجب أن يتمتع بها الطفل في طفولته المبكرة.

- وهذه الحقوق وما يكمن وراءها، وما تمثله من حاجات تفرض على من يحيط بالطفل ويرتبط بتربيته وتنشئته ورعايته في وسطه الأسري ووسطه المدرسي ووسطه الثالث من أبوين وإخوة وأقارب، وحاضنات ومربيات ومشرفات دور حضانة، ورياض أطفال ونواد للأطفال وغيرهم، تفرض عليهم واجبات وترتب عليهم التزامات، وذلك على أساس أن كل حق يكمن وراءه واجب شرعي أو قانوني أو أدبي نحو الذات، أو جهة أخرى لها الأهلية والقدرة على صيانة الحق، وتوفير ما يقتضيه من فعل أو منفعة مالية أو عينية.

وإذا كانت رعاية الطفل في هذه المرحلة يقع جلبها على أسرته التي تُعدُّ الوسط الأول، الذي يتفاعل معه ويتلقى فيه أسس تربيته الأولى وأسس تنشئته الاجتماعية، فإن هناك مؤسسات وجماعات أخرى وأفراداً آخرين خارج نطاق الأسرة، عليهم واجب الإسهام أيضاً في رعاية الطفل في المجتمع الإسلامي هي من المسؤوليات التكافلية والتضامنية العامة. وإذا كنا لا نستطيع أن نشير إلى مسؤوليات جميع الجهات والأطراف في هذه الرعاية، فلا أقل من أن نشير إلى بعض مسؤوليات جهة منها، وهي الأسرة التي يقع عليها قبل غيرها تنشئة أطفالها، منذ نعومة أظفارهم، على العقيدة الصحيحة والدين القويم، والخلق السليم، والسلوك الاجتماعي المرغوب والمتوقع منهم في مجتمع إسلامي، وأخذهم بالممارسة العملية والتطبيق العملي المستمر لما تعلموه وتشربوه من

معتقدات وقيم وتعاليم دينية، وقواعد خلقية، في أرض الواقع في الحدود التي تسمح بها سنهم ومستوى نضجهم، وضرب المثل الطيب والقُدوة الحسنة من نفسها فيما تدعو وتوجه وترشد إليه وتبشر به، ليكون لنصائحها وتوجيهاتها، وإرشاداتها قيمة وفائدة. ومما ينسب إلى الإمام علي كرم الله وجهه في تأييد هذا المبدأ قوله: «ميدانكم الأول أنفسكم، فإذا انتصرتم عليها كنتم على غيرها أقدر، وإن خذلتكم فيها كنتم عن غيرها أعجز، فجربوا معها الكفاح أولاً».

وخير الأساليب التي يمكن أن تلجأ إليها الأسرة المسلمة في تنمية اتجاهات أولادها الخلقية وعاداتهم السلوكية هو أن تهيب لهم الفرص والمواقف العملية التي يمكنهم أن يطبقوا فيها ما تدعوهم إليه من شعارات دينية، وفضائل خلقية وعادات وتقاليد اجتماعية، وأن تسند إليهم المسؤوليات المناسبة لسنهم ومستوى نضجهم الجسمي والعقلي والاجتماعي، وأن تترك لهم حرية الاختيار في مناشطهم وتصرفاتهم ليتسنى الحكم عليها، وأن تدعم الاستجابات السلوكية المرغوبة لديهم لتساعد على تثبيتها، وأن تسلك في معاملتهم سبيل الوسط، فلا تبالغ في تدليلهم ولا تلجأ إلى القسوة عليهم وإذلالهم وتحقيرهم، لأن كلاً من التدليل والقسوة ضار بشخصياتهم، وأن تشعرهم على الدوام بسلطانها الأبوية، ورقابتها الواعية الحكيمة، ويتشجعوا لهم وبرهم والإحسان إليهم والتوسيع عليهم والعدل بينهم، إلى غير ذلك من الأساليب الجيدة، التي يمكن للأسرة المسلمة أن تلجأ إليها وتستخدمها في رعاية أطفالها اجتماعياً، والتي لها جميعاً ما يؤيدها ويدعمها من نصوص الدين ونصوص التراث والفكر الإسلامي. فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ...﴾⁽¹⁰¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا، لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً، نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾⁽¹⁰²⁾.

(101) سورة التحريم، الآية: 6.

(102) سورة طه، الآية: 132.

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾... إلى قوله تعالى: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾⁽¹⁰³⁾.

وقوله تعالى في تأكيد النزعة الدينية في النفس البشرية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾⁽¹⁰⁴⁾.

وقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»⁽¹⁰⁵⁾.

وقوله ﷺ في حديث قدسي: «يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»⁽¹⁰⁶⁾.

وقوله ﷺ: «افتحوا على صبيانكم أول كلمة بلا إله إلا الله»⁽¹⁰⁷⁾.

وقوله ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»⁽¹⁰⁸⁾.

وقوله ﷺ: «لا يكون لأحد ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، فيحسن إليهن، إلا دخل الجنة»⁽¹⁰⁹⁾.

وقوله ﷺ: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم»⁽¹¹⁰⁾.

(103) سورة النساء، الآية: 11.

(104) سورة الأعراف، الآية: 172.

(105) رواه البخاري.

(106) رواه مسلم.

(107) رواه الحاكم.

(108) رواه الحاكم.

(109) رواه البخاري.

(110) رواه ابن ماجه.

وقوله ﷺ: «ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن»⁽¹¹¹⁾.
 وقوله ﷺ: «أحبوا الصبيان وارحموهم»⁽¹¹²⁾. وقوله: «من لا يرحم لا يرحم»⁽¹¹³⁾.
 وقوله ﷺ: «عليك بالرفق، فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»⁽¹¹⁴⁾.
 وقوله ﷺ: «اعدلوا بين أولادكم في العطايا كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر»⁽¹¹⁵⁾.

ومما يرويه البخاري ومسلم وغيرهما من علماء كتب السنة عن النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي أنه قال: «أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة. «لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ»، فأتى أبي رسول الله ﷺ، وقال: «يا رسول الله إني أعطيت ابني هذا من عمرة بنت رواحة عطية، وطلبت مني أن أشهدك عليها»، فقال ﷺ: «هل لك أولاد غيره؟» (وفي رواية): «هل له إخوة؟»، فقال بشير: «نعم»، فقال ﷺ: «هل أعطيت أولادك مثل هذا؟». قال: «لا»، فقال عليه السلام: «فانقوا واعدلوا بين أولادكم، أرجع العطية». فرجع النعمان فرد عطيته.

وفي رواية مسلم لهذا الحديث: قال ﷺ: «أشهد على هذا غيري فإني لا أشهد».

وفي رواية جابر له، قال ﷺ: «فليس يصح هذا، وإني لا أشهد إلا على حق».

وفي رواية أحمد بن حنبل له، قال ﷺ: «لا تشهدني على جور، وإن

(111) رواه الترمذي.

(112) قال الحافظ السيوطي هذا لا يعرف. بلفظ (أحبوا البنين فإن البنات يحببن في أنفسهن أو بأنفسهن).

(113) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد.

(114) رواه البخاري في الأدب المفرد.

(115) رواه مسلم.

لبنك عليك من الحق أن تعدل بينهم».

وفي رواية مسلم عن الشعبي له التي أوردناها في بداية الحديث عن موضوع العدل بين الأولاد قال عليه السلام: «اعدلوا بين أولادكم في العطايا كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر».

ويفيد هذا الحديث النبوي الشريف برواياته المختلفة أن مثل هذا التفضيل بين الأولاد جور بعيد عن العدل الذي أمر الله به المؤمنين، ومن شأنه أن يفضي إلى العقوق وتباغض الأولاد وتقاتلهم. ولهذا فإن التسوية بين الأولاد واجبة، وإن التفاضل بينهم يغير سبب شرعي حرام، كما يقول الحافظ ابن حجر. أما إذا كان للتفضيل سبب شرعي، فإنه ليس هناك ما يمنع من ذلك. ومن الأسباب المقبولة شرعاً لهذا التفضيل: أن يكون أحد الأولاد مريضاً مرضاً مزمناً، لأن إخوته في هذه الحالة لا يغضبهم ذلك التفضيل، إذ الإخوة الصحيحة تتطلب منهم أن ينفقوا على أخ لهم في مثل هذه الحالة، حتى من عند أنفسهم. وكذلك يجوز التفاضل إذا كان أحد الإخوة صغيراً يحتاج إلى تعليم وزواج في المستقبل، وكان إخوته الكبار قد نالوا حظهم من ذلك. فهنا يحسن أن يتساوى بهم أخوهم الصغير⁽¹¹⁶⁾.

هذه بعض النصوص الدينية التي يستمد فيها أب الطفل أو ولي أمره أسس توجيه جهوده الرعائية في المجال الاجتماعي التي تؤكد أن لرعاية الطفل الاجتماعية أساساً قوياً في تعاليم الإسلام وتوجيهاته. وفي الحقيقة إن الإسلام لا يؤيد فقط الرعاية الاجتماعية للطفل موضوع محاضراتنا، بل يؤيد أيضاً رعاية الطفل الصحية الجسمية والعقلية والنفسية، التي لم نتعرض لها إلا عرضاً، ويوجد في نصوص الدين الإسلامي، ونصوص التراث والفكر الإسلامي آلاف النصوص، التي تؤيد وتدعم هذه الجوانب الأخرى من رعاية الطفل، ولكن لا تدخل الإشارة إليها ضمن أهداف هذه المحاضرة.

(116) ينظر عبد الجليل عيسى «التمييز بين الأولاد في العطية» مجلة الوعي الإسلامي السنة الثانية عشرة العدد 136 أبريل 1976 ص 3428.

وجهود الأسرة في رعاية الطفل اجتماعياً لا بد أن تدعمها جهود كثيرة أخرى من واجب المؤسسات الحكومية والأهلية أن تبذلها في سبيل الرعاية الاجتماعية للطفولة في المجتمع الإسلامي. ومن هذه المؤسسات دور الحضانه ورياض الأطفال، والمدارس الابتدائية، ودور رعاية الطفولة، ونوادي ومكتبات وحدائق الأطفال، وغيرها من المؤسسات التعليمية والاجتماعية، التي يفترض فيها أن تكون لها خططها وبرامجها الخاصة لرعاية الأطفال اجتماعياً. وليس هناك في الإسلام ما يمنع من إنشاء النوادي والمكتبات والحدائق الخاصة بالأطفال، ولا من إنشاء جمعيات رعاية الطفولة، ومراكز بحوث رعاية الطفولة والأمومة، ومراكز التوثيق، ومصارف المعلومات، وصناديق التمويل لمشروعات وبرامج رعاية الطفولة، طالما أن إنشاء مثل هذه الأمور فيه مصلحة للطفولة الإسلامية ويسير العمل فيها وفق مبادئ وقيم الإسلام.

3 - رعاية الأطفال المحرومين والمهملين والمعوقين :

لقد ناقشنا في المجال السابق رعاية الطفل العادي اجتماعياً من منظور إسلامي، وما نحن في هذه المحاضرة سنحاول إلقاء الضوء على مجال آخر من مجالات الرعاية الاجتماعية في الإسلام، هو مجال رعاية الأطفال المحرومين من الوالد أو من الأب، والمهملين اجتماعياً، والمعوقين، وغيرهم من الأطفال ضعيفي الجانب، الذين يحتاجون إلى رعاية اجتماعية قد تختلف في طبيعتها وفي أساليبها ووسائلها عن الرعاية الاجتماعية، التي تقدم إلى الأطفال الأسوياء العاديين، الذين يعيشون بين أسرهم ويتمتعون بعطف وحنان ورعاية أسرهم العادية. وتشمل فئة الأطفال المحرومين وضعيفي الحال والجانب: الأطفال اللقطاء، والأطفال الأيتام، والأطفال المعوقين، والأطفال المهملين اجتماعياً، والأطفال المشردين وأطفال العمال المهاجرين في بلدان غير إسلامية، ولم يوفر لهم مجتمع إسلامي يتفاعلون معه، وأطفال اللاجئين الفارين من الظلم أو الاضطهاد السياسي أو العنصري، ومن مآسي وويلات الحروب، وأطفال القاطنين بمناطق الصراع المسلح، إلى غير ذلك من الفئات

الفرعية التي تدخل تحت فئة الأطفال المحرومين وضعيفي الحال والجانب. ونظراً لكثرة هذه الفئات الفرعية، فإننا سنكتفي في هذه المحاضرة بالحديث عن الفئات الفرعية الثلاث الأولى منها:

أ - الرعاية الاجتماعية للأطفال اللقطاء: فاللقيط - كما يعرفه الفقهاء - هو ذلك الطفل الذي لا يعرف نسبه ولا رقه، نبذ في شارع أو غيره، أو ضل الطريق ما بين ولادته إلى سن التمييز. ويُعدُّ التقاطه والإنفاق عليه فرض كفاية على جميع المسلمين، فإن قام به البعض سقط عن الباقيين، وإن لم يقم به البعض أثم الجميع. ومن أدلة هذا الوجوب قوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾⁽¹¹⁷⁾

ويحكم بإسلام اللقيط وحرية، لأنها الأصل في آدميين. فالله جل شأنه خلق آدم وذريته أحراراً، والأصل في الحياة الحرية وعدم الرق. ومما يروى عن موقف السلف تجاه اللقيط ما رواه سنين أبو جميلة حيث قال: «وجدت ملقوياً فأتيت به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عريفي: يا أمير المؤمنين: إنه رجل صالح. فقال عمر: أكذلك هو؟ قال: نعم. فقال: اذهب به، وهو حر، ولك ولاؤه وعلينا نفقته، وفي رواية: «وعلينا إرضاعه». وينفق على الطفل مما معه إن كان، فإن لم يكن فمن بيت المال، فإن تعذر اقترض على بيت المال⁽¹¹⁸⁾.

وليس في الإسلام ما يمنع من اللجوء إلى الأساليب الحديثة في رعاية الأطفال اللقطاء، والأيتام الفاقدين للوالدين بإنشاء دور الحضانة، ومراكز الرعاية الخاصة بهم، والبحث عن استضافات واستقبالات لهم من طرف عائلات مأمونة في دينها وخلقها ووضعها الاقتصادي، لتتولى رعايتهم وكفالتهم وتربيتهم في جو عائلي طبيعي، يساعد على نمو شخصياتهم نمواً

(117) سورة المائدة، الآية: 2.

(118) ينظر د. أحمد محمد العسال «التكافل الاجتماعي في الإسلام ودوره في الوقاية من انحراف الأحداث» في معالجة الشريعة الإسلامية لمشاكل انحراف الأحداث الرياض: المركز العربي للدراسات الأمنية، 1986 ص 27.

طبيعياً، ولكن دون التمتع بالنسب أو الإرث، لأن الإسلام لا يعترف بالتبني. فإن لم توجد مثل هذه الأسر المأمونة تبقى الدولة هي المسؤولة عنهم.

ب - الرعاية الاجتماعية للطفل اليتيم: والفئة الثانية من الأطفال المحرومين الضعفاء الذين اهتم الإسلام برعايتهم هم فئة الأطفال الأيتام. فقد وضعت الشريعة الإسلامية ضمانات عديدة لرعاية الأيتام، فأوجبت على بيت المال إعالتهم وحمايتهم وتربيتهم والإحسان إليهم والإنفاق عليهم من الزكاة والغنime والفيء والصدقات. ومن النصوص الدنيعة المدعمة لرجوب رعايتهم والإحسان والعطف عليهم، وصيانة أموالهم وعدم أكلها بغير حق وتسليمها لهم متى بلغوا سن الرشد⁽¹¹⁹⁾.

فمن هذه النصوص:

قوله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً والوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين﴾⁽¹²⁰⁾.

وقوله تعالى: ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى، وجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر...﴾⁽¹²¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين﴾⁽¹²²⁾.

وقوله تعالى: ﴿ويسألونك عن اليتامى، قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾⁽¹²³⁾.

وقوله تعالى: ﴿وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً، وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية

(119) ينظر في الفقرة ب إحسان الكيالي الضمانات الفردية في الشريعة الإسلامية ص289.288.

(120) سورة النساء، الآية: 36.

(121) سورة الضحى، الآية 9.6.

(122) سورة الماعون، الآية 3.1.

(123) سورة البقرة، الآية: 220.

ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً⁽¹²⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حويّاً كبيراً﴾⁽¹²⁵⁾.

وقوله تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح، فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم، ولا تأكلوها إسرافاً ويداراً أن يكرهوا، ومن كان غنياً فليستعفف، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً﴾⁽¹²⁶⁾.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾⁽¹²⁷⁾.

وقوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين». وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى⁽¹²⁸⁾.

وقوله ﷺ: «من وضع يده على رأس يتيم رحمة كتب الله له بكل شعرة مرت عليها يده حسنة»⁽¹²⁹⁾.

ويروى أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: «إن عندي يتيماً عنده مال وليس لي مال، أأكل من ماله؟ قال: كل بالمعروف غير مسرف»⁽¹³⁰⁾.

وإذا كانت المجتمعات الحديثة تلجأ في رعايتها للأيتام إلى إنشاء دور الحضانه، ودور الرعاية، ومراكز التدريب الخاصة بالأيتام، لرعايتهم وتربيتهم وإعدادهم لحياة منتجة سليمة، فإنه ليس هناك في الإسلام ما يمنع من إنشاء مثل هذه المؤسسات، بل إن إنشاءها يتمشى مع مقاصده.

(124) سورة النساء، الآية 8 - 9.

(125) سورة النساء، الآية: 2.

(126) سورة النساء، الآية: 6.

(127) سورة النساء، الآية: 10.

(128) رواه الترمذي.

(129) رواه أحمد وابن حبان.

(130) رواه أبو داود والنسائي.

جـ - الرعاية الاجتماعية للطفل المعاق : والفئة الفرعية الثالثة من فئات الأطفال المحرومين وضعاف الجانب، هي فئة الأطفال المعاقين على اختلاف نوع إعاقاتهم، فقد تكون حاسية تتعلق بفقدان كلي أو جزئي لحاسة من الحواس، وقد تكون لغوية تتعلق بما يعانيه الطفل من صعوبة وتخلف وعيوب في النطق والكلام، وقد تكون عقلية ترتبط بضعف الطفل في إمكانياته وقدراته وعملياته العقلية، وقد تكون نفسية ترتبط بسوء تكيف الطفل نفسياً، وقد تكون اجتماعية ترجع إلى سوء تكيف الطفل اجتماعياً، وفشله في تحقيق تكيفه الاجتماعي، وقد تكون عضلية حركية، وقد تكون صحية تتعلق باضطراب جهاز أو أكثر من أجهزة الطفل الجسمية، كالجهاز التنفسي أو الجهاز البولي، أو الجهاز العصبي، أو الجهاز الجلدي، أو الجهاز العظمي.

كل هؤلاء المعاقين تجب رعايتهم بما يتناسب مع نوع إعاقاتهم، ومع الموق الذي يعانون منه ويقعون تحت وطأته، وبما يحقق لهم كرامتهم وأهليتهم واعتبارهم في مجتمعهم، ويضمن لهم تكافؤ الفرص مع غيرهم من الأطفال العاديين، ويتيح لهم فرص الإسهام في بناء مجتمعهم أسوة بغيرهم، كل قدر طاقته وحسب إمكانياته، وبما يشبع حاجاتهم ومطالب نموهم والإعداد لحياتهم المقبلة. وإذا كانت الحاجات التي يحملها الطفل المعاق في بداية عهده بالإعاقة تشبه وتساير الحاجات التي يحملها الطفل غير المعاق، فإن نمو المعاق في شروط وظروف اجتماعية معينة يكون لها تأثيرها الخاص عليه، وتدعو إلى ظهور حاجات معينة تكون أقوى عنده من حاجات غير المعاق. ومن هذه الحاجات التي تنمو مع المعاق حاجته إلى الطمأنينة، وحاجته إلى تقدير الذات وتقدير الآخرين له وجهه له، وحاجته إلى التكيف مع إعاقته، وما إلى ذلك⁽¹³¹⁾.

وعلى الرغم من أن كل معاق له ظروفه واحتياجاته الخاصة به التي يفرضها نوع إعاقته، فإن هناك بعض الأساليب المرغوبة في التعامل مع

(131) ينظر: عبد المجيد عبد الرحيم ولعفي بركات أحمد، سيكولوجية الطفل الموق وتربيته. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1966، ص158.

المعاقين تكاد تكون عامة. من بينها:

مساعدة المعاق على تحقيق التوافق مع نفسه، ومع إعاقته ومع المجتمع الذي يعيش فيه، ومع الوسط الذي يتفاعل معه، ورفع معنويته وإثارة دافعيته للعب والنشاط والتعلم والتدريب، وبعث الثقة لديه في نفسه، وفي الأشخاص الآخرين المحيطين به، ومساعدته على الاعتماد على نفسه في حدود إمكانياته وقدراته، وتكليفه ببعض المسؤوليات والأعمال التي تتمشى مع إمكانياته، ويستطيع فيها الاعتماد على نفسه وتأكيد ذاته، وتجنبه المواقف التي تثير فيه مشاعر الإخفاق والنقص، وعدم تكليفه بما لا يستطيع القيام به لقصوره الطبيعي، وعدم مقارنته بغيره من الأطفال الأسوياء، وعدم تدليله والمبالغة في العطف والإشفاق عليه من القيام بأي عمل مما يزيد من مشاعر الضعف والنقص لديه، فلا يمكنه الاعتماد على نفسه في أداء أي عمل، وعدم عزله عزلاً كاملاً عن الأطفال العاديين الأسوياء، أو تذكيره بإعاقته أو تسميته بالمعاق أو الشاذ، وإتاحة الفرص الكافية له للتعبير عن نفسه وعن رغباته ومشاعره المكبوتة، عن طريق اللعب الحر، والنشاط المنظم وغيرها من سبل التعبير عن النفس، ومساعدته على اكتساب الخصائص والصفات الشخصية والسلوكية، التي تزيد من تقبل الآخرين له، وتساعد على الاندماج الاجتماعي المرغوب، وتدريبه مهنيّاً وتأهيله أو إعادة تأهيله مهنيّاً ونفسياً واجتماعياً لحياة منتجة ناجحة، وتعريفه بحقوقه وتدريبه للانتفاع والتمتع بها وتعريفه في الوقت نفسه بالواجبات التي عليه أن يقوم بها في مقابل تمتعه بحقوقه المعقولة والمشروعة، وإعفاء خدماته وأدواته التعويضية، وأجهزة علاجه وتدريبه وتأهيله من الضرائب والرسوم الجمركية، وإعداد وتدريب الإخصائيين والفنيين المتخصصين في علاج وتدريب وتأهيل وخدمة وتربية الطفل المعاق، وإنشاء مراكز التدريب والتأهيل والتعليم وتقديم مختلف الخدمات للطفل المعاق، وما إلى ذلك.

وكل هذه الأساليب والوسائل الحديثة التي تتبع وتستخدم في معاملة ورعاية الطفل المعاق، تتمشى مع روح الإسلام ومبادئه السمحة ومقاصده

العامة، التي تقوم على تأكيد كرامة الإنسان أيّاً كان جنسه أو لونه أو سنه أو وضعه الاجتماعي والاقتصادي، وإناطة تكريمه وتفضيله على بقية المخلوقات بمدى إيمانه بربه وتقوى الله وخشيته، وعدم جواز الاستهزاء والسخرية من أي إنسان سواء كان معاقاً أم سليماً، ورفع الحرج عن المعاق فيما لا يقدر، وعدم تكليف أي إنسان إلا بما يستطيع وتوسع له قدرته، وحسبان العمى الحقيقي أنه عمى القلب والبصيرة لا عمى البصر، وضرورة احترام المعاق، وعدم تجاهله وعدم تعييره بإعاقته، وعدم احتقار أي عمل من أعمال الخير والبر والمعروف، ولو كان هذا العمل ملاقة أخيك بوجه طلق، وجعل رعاية المعاق من الواجبات الكفائية العامة، التي إذا لم يقم بها الولي القريب للمعاق قام بها ولي الأمر العام، على أساس أن «السلطان ولي من لا ولي له» في الإسلام، والتي إذا لم تقم بها جهة ما أثم الجميع بتركها، إلى غير ذلك من المبادئ العامة التي أكدها الإسلام، وحث على تطبيقها في معاملة المعاقين وغيرهم من ضعاف الحال والجانب.

ومن النصوص والشواهد المدعمة لهذه المبادئ من الكتاب والسنة:

قوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾⁽¹³²⁾.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾⁽¹³³⁾.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾⁽¹³⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج، ولا

(132) سورة الإسراء، الآية: 70.

(133) سورة الحجرات، الآية: 13.

(134) سورة الحجرات، الآية: 11.

على المريض حرج» (135).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (136).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (137).

وقوله ﷺ: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى» (138).

قال ﷺ: «لَيْسَ الْأَعْمَى مِنْ عَمِيٍّ بِصَرٍّ، وَلَكِنْ الْأَعْمَى مِنْ عَمِيَّتِ بِصِيرَتِهِ» (139).

وقوله ﷺ: «تَرَكَ السَّلَامَ عَلَى الضَّرِيرِ خِيَانَةً» (140).

وقوله ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِرُجْهِ طَلْقٍ» (141).

وقوله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» (142).

وقوله ﷺ: «مَنْ وَلَاهُ اللَّهُ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَتِهِمْ وَفَقَرَهُمْ احْتَجَبَ اللَّهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَتِهِ وَفَقَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (143).

وقوله ﷺ: «مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلِوَرَثَتِهِ، وَمَنْ تَرَكَ كَلأً فَلِإِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ» (144).

(135) سورة النور، الآية: 61.

(136) سورة البقرة، الآية: 285.

(137) سورة الحج، الآية: 46.

(138) رواه أحمد بن حنبل في مسنده.

(139) رواه الترمذي.

(140) رواه الديلمي في الفردوس.

(141) رواه الترمذي بعبارة قريبة منها.

(142) متفق عليه.

(143) رواه الحاكم وأبو داود والترمذي.

(144) رواه أحمد وأبو داود.

وقوله ﷺ: «السلطان ولي من لا ولي له»⁽¹⁴⁵⁾.

وانطلاقاً من هذه النصوص الدينية وغيرها وتنفيذاً لما تضمنته من أوامر وتوجيهات، فقد عني الخلفاء والحكام المسلمون برعاية المرضى والمعاقين. وتظهر هذه العناية واضحة في سياسة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم من خلفاء بني أمية وبني العباس، وسلاطين العصر المملوكي في مصر، وفي مقدمتهم السلطان قلاوون.

وقد بلغ من اهتمام عمر بن عبد العزيز في هذا المجال من مجالات الرعاية الاجتماعية أنه حث على إحصاء المعوقين، وخصص مرافقاً لكل كفيف، وخادماً لكل مقعد لا يقوى على القيام. [ومما يروى في تاريخ قلاوون أنه] كان شديد الاهتمام بالبيمارستان الذي أنشأه في القاهرة، والذي ما زالت بقاياه موجودة إلى الآن تحمل اسم «مستشفى قلاوون». كان المريض يلقي رعاية اجتماعية مدة وجوده بهذا المستشفى تحت إشراف قلاوون نفسه. وكان عند تقرير خروجه بعد علاجه يعطى بضع قطع من الذهب حتى لا يضطر للعمل وهو في فترة النقاهة⁽¹⁴⁶⁾.

4 - رعاية الشيخوخة في الإسلام:

ومن مجالات الرعاية الاجتماعية التي اهتم الإسلام بتدعيمها وإرساء قواعدها رعاية الشيخوخة التي تشمل من بلغوا سن الشيخوخة من الآباء والأقارب وغيرهم. فهذا المجال أو النوع من الرعاية الاجتماعية اهتمت به نظم الضمان الاجتماعي الحديثة وسنت لتنظيمه وتحديد سن المستحقين لخدماته القوانين واللوائح، وعذت رعاية هذه الفئة من المواطنين واجباً وطنياً واجتماعياً عاماً، يسهم في تحمله والقيام به كل من أسرة المسن وأقربائه، ومؤسسات الضمان الاجتماعي والخدمة الاجتماعية في الدولة، سواء أكانت

(145) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

(146) د. محمد عبد النعم نور، الخدمة الاجتماعية الطبية والتأهيل. القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، 1973، ص 10.

حكومية أم أهلية، تأكيداً لمبدأ التراحم والتعاطف والتكافل في المجتمع، ونحويل فكرة الصراع بين الأجيال إلى تراحم وتواصل بينها. وبالنسبة لكبار السن الذين سبق لهم العمل في مؤسسات الدولة، وسبق لهم الاشتراك في نظام الضمان الاجتماعي، فإن قوانين الضمان الاجتماعي الحديثة وقوانين التقاعد، تضمن لهم قدراً من الرعاية الاجتماعية والاقتصادية والصحية، عملاً بمبدأ مسؤولية المجتمع عن رعاية وكفالة الحاجات الأساسية في المعاش، لكل من عجز عن الكسب، وكل من بلغ سن الشيخوخة، التي تحدد عادة بالنسبة للرجال العاملين في أعمال ووظائف عادية بخمس وستين سنة، وبالنسبة للنساء وبالنسبة للرجال العاملين في صناعات وأعمال مضرّة بالصحة ستين سنة.

ونتيجة للتغير الكبير الذي طرأ على تكوين الأسرة، وعلى دورها في رعاية المسنين من أفرادها وأقاربها، بسبب اتساع رقعة التحضر، واتساع حركة التصنيع، وزيادة معدلات الهجرة من المناطق الريفية إلى المناطق، واكتظاظ المناطق الحضرية بالسكان، ونقص المساكن في المناطق الحضرية، وتناقص عدد الأسر الممتدة أو الموسعة، وضعف العلاقات الأسرية، وتناقص تأثير القرابة، واستقلالية الأسر الزوجية أو النووية، فقد ضعف الاعتماد على الأسرة وحدها في رعاية المسنين، وأصبح الاعتماد شبه كلي على مؤسسات الدولة لرعاية المسنين، وبخاصة المؤسسات الضمانية. وقد تسرّب هذا الضعف في كيان الأسرة وفي دورها في رعاية المسنين من أفرادها وأقربائها، إلى المجتمعات الإسلامية نفسها، التي كانت معروفة بتماسكها الأسري وبقيمها وتقاليدها، المرغبة في رعاية المسنين فيها في كنف أسرهم وبين أقربائهم وذويهم، لأن هذه المجتمعات الإسلامية قد أصابها من التغير والتطور ما أصاب المجتمعات الحديثة، ولحق بها من آفات التصنيع والتحضر وضعف العلاقات الأسرية والاجتماعية، ما لحق بالمجتمعات الحديثة غير الإسلامية.

والرعاية الاجتماعية الحديثة للمسنين تشمل فيما تشمل ما يقدم إلى المسن من منافع نقدية، تتمثل في المعاشات الضمانية، وعلاوة العائلة،

والمناافع القصيرة الأمد، والمنح المقطوعة، التي تكفلها نصوص قانون الضمان الاجتماعي المطبق في البلد، واللوائح الصادرة بمقتضاه للمضمومين المشتركين في حالات الشيخوخة وغيرها، أو الإعانة الضمانية إذا لم يتوافر فيه شرط استحقاق معاش الشيخوخة. كما تشمل أيضاً تقديم المساعدات المالية والعينية إلى من يتولى رعايته من أقربائه، وتقديم الخدمات الصحية المجانية له، وتقديم الخدمات الإيوائية له من أحد مراكز أو دور رعاية الشيخوخة والمعجزة، وتوفير الحدائق والمكتبات ووسائل الترفيه، وشغل أوقات الفراغ بمناشط مفيدة، وإعفاءه من أجور المواصلات أو تخفيضها له على الأقل، إلى غير ذلك من المنافع والخدمات التي تقدمها المجتمعات الحديثة إلى فئة المسنين فيها.

ومن المبادئ التي تراعى في رعاية من بلغوا سن الشيخوخة في المجتمعات الحديثة ضرورة التأكيد على رعايتهم الشاملة المتكاملة، والأخذ بالنظرة التكاملية فيما يتعلق بشخصياتهم، ومواجهة وعلاج مشكلاتهم، وربط رعايتهم الصحية وعلاج مشكلاتهم الجسمية برعايتهم النفسية والاجتماعية، والحرص الدائم على رفع معنوياتهم، والتقليل من مخاوفهم المستقبلية على صحتهم وذواتهم ومن توترهم وقلقهم وقنوطهم، وتأكيد الاعتراف بقيمتهم ونفعهم لمجتمعهم وفضلهم وبما أسدوه من خدمات لمجتمعهم في فترة شببتهم وكهولتهم، وتقوية إحساسهم بالحياة وبعجودى النشاط الذي يقومون به، وتهيئة فرص الترفيه البريء لهم، وإشراكهم في التخطيط لرعايتهم وحياتهم ونشاطهم، ومواجهة وعلاج مشكلاتهم، إلى غير ذلك من مبادئ وسبل رعاية الشيخوخة في العصر الحديث.

وموقف الإسلام من هذه الرعاية موقف المؤيد، لأن كل ما فيه خير الإنسان ورفاهيته ومصلحته لا يجد في الإسلام إلا التأييد والتدعيم. ويضيف الإسلام إلى المبادئ الحديثة في رعاية الشيخوخة التأكيد على دور الأسرة والأقرباء وأولي الرحم في رعاية الشيخوخة. فكبير السن هو أب وأم وجد وأخ وعم وابن عم. وأولى الناس برعاية هؤلاء هم أقرباؤهم، بقطع النظر عما

إذا كانت علاقة القرابة التي تربط بين المسن وبين من يتولى رعايته من أقاربه علاقة دموية محضة، تعتمد على وحدة النسب (القبيلة، العشيرة، الفخذ، وما إلى ذلك) أو كانت علاقة تعاقدية محضة مثل علاقة المصاهرة في حالات الزواج من الأغراب، أو اندمجت فيها القرابة الدموية مع قرابة المصاهرة، كما هي الحال في حالات الزواج بين الأقارب.

والنصوص الدينية الموجبة لنفقة الوالدين على أولادهما. أكثر من أن تذكر في هذه العجالة. فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى﴾ (147).

وقوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا تقل لهما: أف، ولا تنهرهما، وقل لهما قولاً كريماً، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ (148).

وقوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه، حملته أمه وهنا على وهن، وفصاله في عامين، أن اشكر لي ولوالديك، إليّ المصير﴾ (149).

وقوله تعالى: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ (150).

وقوله تعالى: ﴿وأت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل، ولا تبذر تبذيراً﴾ (151).

وقوله ﷺ: «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه،

(147) سورة النساء، الآية: 36.

(148) سورة الإسراء، الآية: 24-23.

(149) سورة لقمان، الآية: 13.

(150) سورة الأنفال، الآية: 75.

(151) سورة الإسراء، الآية: 26.

فكلوا من كسب أولادكم إذا احتجتم إليه بالمعروف»⁽¹⁵²⁾.

وما روي عن جابر بن عبد الله من أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، ومعه أبوه، فقال: إن لي مالا، وإن لي أبا، وله مال، وإن أبي يريد أن يأخذ مالي، فقال النبي ﷺ: «أنت ومالك لأبيك».

وما روي أيضاً من «أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك».

كذلك ما روي من أن رجلاً استأذن النبي ﷺ لنجهاد، فقال له: «أحي والدك»، قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»⁽¹⁵³⁾.

5 - رعاية المتهمين والمساجين في الإسلام:

ومن مجالات الرعاية الاجتماعية في الإسلام أيضاً رعاية فتني المتهمين والمساجين، حيث إن كليهما ضعيف يحتاج إلى من يقف بجانبه ويساعده في ورطته، ويرعاه في شخصه وفي أهله وأولاده ويصون له حقوقه التي ضمنتها له الشريعة الإسلامية.

أ - ومن الحقوق التي ضمنتها الشريعة الإسلامية للمتهم حقه في أن يعذ بريئاً حتى تثبت إدانته، وفي أن يدق ويتحرى في نسبة التهمة إليه، وأن يحتاط تمام الاحتياط في قبولها بالنسبة إليه، حيث إن الأصل في الشريعة الإسلامية براءة المتهم حتى تثبت إدانته، ودرء الحدود بالشبهات، لقوله ﷺ: «ادروا الحدود بالشبهات»⁽¹⁵⁴⁾، ولقوله ﷺ أيضاً: «إن الإمام أن يخطيء في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة»⁽¹⁵⁵⁾. وقد عرفت الشريعة الإسلامية قاعدة: «لا جريمة ولا عقوبة إلا بقانون» قبل أن تعرفها القوانين الوضعية الحديثة. ومن القواعد الشرعية المرتبطة بقاعدة «البراءة الأصلية» والمدعمة لها: قاعدة

(152) رواه الترمذي والحاكم.

(153) رواه مسلم.

(154) رواه الترمذي.

(155) رواه الترمذي.

«اليقين لا يزول بالشك»، وقاعدة «الضرر يزال».

ومن حقوق المتهم التي تجب حمايتها ورعايتها أيضاً حقه في المعاملة العادلة اللاتقة بالكرامة الإنسانية، وحقه في الدفاع عن نفسه، أي دفع الاتهام عن نفسه إما بإثبات فساد دليل الاتهام، أو بإقامة الدليل على نقيضه. وتمكين المتهم من ممارسة هذا الحق أمر مهم جداً، لأنه إذا لم يسمح له بممارسته يتحول الاتهام إلى إدانة، وهذا ظلم لا تقبله الشريعة الإسلامية. فقد قال ﷺ لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه حين ولاء اليمن: «يا علي: إن الناس سيتقاضون إليك، فإذا أتاك الخصمان فلا تقضين لأحدهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه حري أن يتبين لك القضاء وتعلم لمن الحق»⁽¹⁵⁶⁾. وروي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه قال لأحد قضاته: «إذا أتاك الخصم وقد فقت عينه فلا تحكم له حتى يأتي خصمه، فلعله قد فقت عينه جميعاً».

ومن حقوق المتهم أيضاً حقه في الكلام أو الصمت. ولا يجوز إكراه المتهم لحمله على الاعتراف أو الإقرار، لأنه إذا أكره على الإقرار ترجح جانب الكذب في أخباره على الصدق بدلالة الإكراه، ويغلب على الظن - آنذاك - أنه قصد بإقراره دفع ضرر أكبر، وهو ضرر الإكراه. ولذلك ذهب جمهور الفقهاء إلى أن من أكره على الإقرار بحق أو جناية فأقراره باطل، ولا يترتب عليه شيء، لقوله تعالى: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾⁽¹⁵⁷⁾، فجعل سبحانه الإكراه مسقطاً لإثم الكفر وعقوبته، فيكون مسقطاً لما عدها من باب أولى. ولقوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»⁽¹⁵⁸⁾.

وعن عمر رضي الله عنه قال: «ليس الرجل أميناً على نفسه إذا أجمعه أو

(156) رواه أبو داود والترمذي بسند وحسن.

(157) سورة النمل، الآية: 106.

(158) رواه الطبراني عن ثوبان.

أوثقته أو ضربته»⁽¹⁵⁹⁾. وعن شريح أنه قال: «القيد كره، والوعيد كره، والسجن كره، والضرب كره».

ومن حق المتهم في مرحلة التحقيق معه التحقق من دوافع وأحوال جهود الإثبات ضده، بحيث لا يكون من بينهم خصيم وذو فائدة في إصاق التهمة بالمتهم ولا ظنين، أي متهم في دينه. فقد بعث رسول الله ﷺ منادياً في السوق: «أنه لا يجوز شهادة خصيم ولا ظنين»⁽¹⁶⁰⁾.

كما أنه من حقه أيضاً ألا يؤخذ بجريرة غيره، لأن المرء في الإسلام لا يسأل إلا عن عمله، ولا يؤخذ بناء على ما اقترفه غيره، لقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾⁽¹⁶¹⁾ ومن حقه كذلك مراعاة الظروف النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية المحيطة به. كحالة الإخفاق والإحباط والقنوط واليأس والظلم الاجتماعي والاقتصادي والبطالة عن العمل، فقد تكون من الأسباب التي تدفع المرء إلى الانحراف وارتكاب الجريمة.

ومن حق المتهم في مرحلة المحاكمة أن يجد المحاكمة العادلة على يدي قاض أو قضاة مؤتمنين في دينهم وأمانتهم وموضوعيتهم وعدالتهم وعلمهم، والمامهم الشامل بظروف القضية وملابساتها.

ب. حتى إذا ما تم الحكم بالسجن على الشخص، وأصبح في عداد المسجونين، فإن الحكم عليه بالسجن لا يسقط جميع حقوقه، بل يبقى له كثير من الحقوق الإنسانية المشروعة التي ترتب واجبات على غيره نحو رعايتها وحمايتها. ومن شأن السجن أن يجعل الشخص من الفئات الضعيفة الجانِب، التي تستحق الرعاية الاجتماعية من الأفراد والجماعات والهيئات الحكومية والأهلية.

وتكون رعاية السجين بالإئناق على أهله وأولاده ورعايتها في أثناء وجوده في السجن، وتعليمه وتدريبه وتثقيفه وتوعيته دينياً وثقافياً واجتماعياً،

(159) رواه النسائي.

(160) رواه الترمذي بصيغة تختلف قليلاً.

(161) سورة الأنعام، الآية: 164.

وبتقويمه وإصلاح حاله، والرجوع به إلى جادة الحق والخير والاستقامة، والتوبة والتندم على ما فات، والاستقرار النفسي، والتكيف مع نفسه، والاستعداد للتكيف مع مجتمعه الخارجي، عندما يحين وقت الخروج إليه، وبتهيئته للخروج إلى المجتمع بعد انقضاء مدة السجن المحكوم بها عليه بنفس راضية آمنة مطمئنة للمستقبل، ولمساعدته بعد الخروج بالفعل من السجن على التكيف مع المجتمع، والاندماج فيه بنفس واثقة مؤمنة، وعلى الرجوع إلى سابق عمله، أو على الحصول على عمل آخر مناسب، حتى يضمن عدم عودته ثانية إلى ارتكاب الجريمة وبالتالي إلى السجن.

ومن حقوق السجين التي تجب رعايتها لضمان صلاحه واستفادته من تجربة السجن حقه في رعاية أهله وأولاده، وحقه في الزيارة والمراسلة، وحقه في التظلم وتقديم الشكاوى، وحقه في أداء الشعائر الدينية، وحقه في التعليم والتدريب والتوعية والتثقيف، وحقه في الغذاء الصحي، وفي الكساء، وفي الرعاية الطبية المناسبة، وما إلى ذلك من الحقوق. وقد عني الإسلام برعاية المساجين وحماية حقوقهم. ومن النصوص الدينية التي تستند إليها هذه الرعاية ما روي من «أن رسول الله ﷺ أودع سجيناً عند رجل وأمره أن يرعاه ويكرمه، وكان يكثر المرور على الرجل يسأله عن السجين». وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه «يزور السجن فجأة، ليتفقد أحوال السجناء ويطلع على شكاواهم»...

- 4 -

أساليب الرعاية الاجتماعية في الإسلام:

ولتستطيع الرعاية الاجتماعية، في مجالاتها المختلفة، تحقيق الأهداف والغايات المرسومة لها، لا بد أن تتبع وتستخدم الأساليب والوسائل المناسبة للهدف أو الغاية المرسومة أو المبتغاة منها، ولنوع الرعاية ولسن وظروف وفئة من تقدم إليهم هذه الرعاية. فأساليب ووسائل الرعاية الاجتماعية للأطفال الأسوياء العاديين الذين يعيشون بين والديهم وأسرهم وذويهم - مثلاً - تختلف عن أساليب ووسائل الرعاية الاجتماعية للأطفال المحرومين، من الأيتام

ومجهولي الأبوين، والذين تحول ظروفهم الأسرية دون توفير المأوى المناسب لهم، في ظل الرعاية الأسرية الطبيعية، والرعاية الاجتماعية للمسنين من الجتسنين، أو الأحداث المنحرفين، أو المساجين والمتهمين، أو غيرهم من فئات المخدمين والمرعيين اجتماعياً. ولكن على الرغم من اختلاف أساليب ووسائل الرعاية الاجتماعية حسب الاعتبارات التي أشرنا إليها، هناك قدر عام مشترك منها بين مختلف مجالات الرعاية الاجتماعية هو ما يهمننا الحديث عنه بإيجاز من وجهة نظر حديثة وإسلامية في آن واحد، مع التركيز على الأساليب والوسائل الوقائية في هذه الرعاية. ومن هذا القدر المشترك أو شبه المشترك يمكن الإشارة إلى ما يلي:

1- توفير القدر الضروري من الغذاء الصحي والإسكان الصحي والبيئة الصحية عموماً، ومن الخدمات والتدابير الصحية والطبية الوقائية والعلاجية والإنمائية، بالنسبة للفئات المستهدفة من خدمات الرعاية الاجتماعية بخاصة، ولأفراد المجتمع بعامه.

وينبغي أن تشمل هذه الخدمات والتدابير الصحية والطبية: تيسير الحصول على الحد الأدنى الضروري من التغذية الصحية المتكاملة في عناصرها الغذائية، وعلى الماء النقي الصالح للشرب، ومراقبة المواد الغذائية للتأكد من سلامتها وتوافر المواصفات الصحية فيها، وتوفير المسكن الصحي لكل مواطن، وتوفير الوسائل الكافية للمصرف الصحي وللتخلص من النفايات والقمامة، وإزالة المياه الراكدة الآسنة، وتنظيف الطرقات والأحياء السكنية، وتوفير الخدمات الصحية والطبية المتكاملة، والتوزيع المتكافئ بين السكان ومناطق البلد للمستشفيات والمستوصفات والمصحات والعيادات الصحية والطبية وغيرها من المؤسسات الصحية، وتعميم حملات التلقيح الوقائي والحماية من أخطاء الإصابة ببعض الأمراض الوبائية وغير الوبائية، ونشر الوعي الغذائي والصحي بين الأسر وبين أفراد المجتمع عموماً، وتشجيع الأمهات على إرضاع أطفالهن رضاعة طبيعية لما في ذلك من فوائد أكدها الطب الحديث والقديم على حد سواء، إلى غير ذلك من الخدمات والتدابير

الصحية والطبية التي ينبغي للمجتمع القادر أن يوفرها لأفراده على اختلاف فئاتهم. وفي توفير هذه الخدمات والتدابير لأفراد المجتمع ليس فقط رعاية صحية وطبية لهم، بل فيها رعاية نفسية واجتماعية وروحية وجمالية لهم أيضاً، لأنها تمس كافة جوانب شخصياتهم.

والإسلام يقف من جميع الخدمات والتدابير الصحية والطبية المحققة لقوة وصحة وحسن هيئة الفرد، والتمشية في تطبيقها وتنفيذها مع مبادئه وقيمه، موقف المؤيد والمدعم. ومن النصوص الداعية إلى الأخذ بأسباب القوة والصحة ونظافة البدن والثوب والمكان وإلى حسن الهيئة وجمال المنظر: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْلُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...﴾ (162).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (163).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِزُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾ (164).

وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (165).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ، تُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (166).

وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ...﴾ (167).

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَعْيُنُهُمْ أَغْمِضْتُ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (168).

وقوله ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضَارَرَ» (169).

(162) سورة البقرة، الآية: 195.

(163) سورة النساء، الآية: 29.

(164) سورة الأنفال، الآية: 60.

(165) سورة الأعراف، الآية: 31.

(166) سورة المؤمنون، الآية: 20 - 21.

(167) سورة الأنفال، الآية: 11.

(168) سورة المدثر، الآية: 4 - 5.

(169) رواه أحمد وابن ماجه.

وقوله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»⁽¹⁷⁰⁾.

وقوله ﷺ: «عليكم من الأعمال ما تطيقون»⁽¹⁷¹⁾.

وقوله ﷺ: «ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد»⁽¹⁷²⁾.

وقوله ﷺ: «إن لبدنك عليك حقاً»⁽¹⁷³⁾.

وقوله ﷺ: لعبد الله بن عمرو بن العاص: «فإن لزوجك عليك حقاً، ولزوارك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً»⁽¹⁷⁴⁾.

وقوله ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»⁽¹⁷⁵⁾.

وقوله ﷺ: «إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة، ومفسدة للجسم، ومؤدية للسقم، وعليكم القصد في قوتكم فهو أبعد من السرف، وأصح للبدن، وأقوى على العبادة»⁽¹⁷⁶⁾.

وقوله ﷺ: «أخشى ما خشيت على أمتي كبر البطن ومداومة النوم والكسل»⁽¹⁷⁷⁾.

وقوله ﷺ: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع»⁽¹⁷⁸⁾.

وقوله ﷺ: «إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء ولا تتداوا بحرام»⁽¹⁷⁹⁾.

(170) رواه أحمد وابن ماجه.

(171) رواه البخاري.

(172) رواه البخاري.

(173) رواه البخاري ومسلم والنسائي.

(174) رواه مسلم.

(175) رواه الترمذي.

(176) رواه البخاري والترمذي والنسائي.

(177) رواه السيوطي في الجامع الصغير.

(178) رواه أحمد وابن ماجه.

(179) رواه أبو داود.

وقوله ﷺ: «تداووا، فإن الذي خلق الداء خلق الدواء»⁽¹⁸⁰⁾.

وقوله ﷺ: «إن الإسلام نظيف فتنظفوا فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف»⁽¹⁸¹⁾.

وقوله ﷺ: «حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً يغسل فيه رأسه وجسده»⁽¹⁸²⁾.

وقوله ﷺ: «تنظفوا فإن الإسلام نظيف»⁽¹⁸³⁾.

وقوله ﷺ: «النظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجنة»⁽¹⁸⁴⁾.

وقوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»⁽¹⁸⁵⁾ (رواه مسلم)، وقوله ﷺ في رواية للترمذي بإسناد حسن: «الطهور نصف الإيمان»⁽¹⁸⁶⁾.

وقوله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى نعمته على عبده، ويغض البؤس والتبؤس»⁽¹⁸⁷⁾.

وقوله ﷺ: «من كان له شعر فليكرمه»⁽¹⁸⁸⁾. والمراد بإكرام الشعر تعهده بالنظافة والقص والتهذيب، ليكون صاحبه حسن الهيئة جميل المنظر.

وقوله ﷺ: «من عرض عليه طيب فلا يردّه، فإنه طيب الريح خفيف المحمل»⁽¹⁸⁹⁾.

(180) رواه أحمد.

(181) رواه السيوطي في الجامع الصغير.

(182) رواه البخاري.

(183) رواه ابن حبان.

(184) رواه ابن حبان.

(185) رواه مسلم.

(186) رواه الترمذي بإسناد حسن.

(187) رواه مسلم وأحمد وابن ماجه.

(188) رواه أبو داود.

(189) رواه أبو داود.

وقوله ﷺ: «عليكم بالرمي فإنه خير لعبكم»⁽¹⁹⁰⁾.

وقوله ﷺ: «الهوا والعبوا، فإني أكره أن يرى في دينكم غلظة»⁽¹⁹¹⁾.⁽¹⁹²⁾

2 - تأكيد روح العدالة الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع، وتوزيع ثروات المجتمع والدخل القومي بقسط وعدالة، بحيث ينال الأفراد والأسر ما يمكنهم من تحمل نفقات رعاية وتربية أطفالهم وذويهم، ومن القيام بمسؤولياتهم في تدعيم الرعاية الاجتماعية والرخاء الاجتماعي في مجتمعهم. «وقد كشف عدد ملحوظ من الدراسات عن أن هناك ارتباطاً إيجابياً بين المستوى الاجتماعي والاقتصادي للأسرة، وبين المستوى الفكري للأطفال. فكلما ارتفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي للعائلة زاد في العادة النمو الذهني للأطفال...». ومن هذه الدراسات الدراسة التي أجرتها الهيئة العليا لتأهيل المتخلفين عقلياً في القاهرة في سنة 1968 على عينة تبلغ (7000) طفل، من المدارس الابتدائية، من الأحياء المتخلفة للقاهرة، لتقييم مدى انتشار التخلف الذهني في هذه الأحياء. وقد أسفرت نتائج هذه الدراسة عن «أن النسبة المئوية للمتخلفين عقلياً لم تزيد عن (3%) بين أطفال الأحياء المقنطرة في حين وصلت هذه النسبة إلى (7,1%) بين أطفال الأحياء الفقيرة...»⁽¹⁹³⁾.

وأسلوب تدعيم الرعاية الاجتماعية في المجتمع، وتدعيم روح التعاون، والتراحم والتعاطف، والتكاتف والتضامن والتكافل في ربوعه، عن طريق نشر

(190) رواء البزار والطبراني.

(191) رواء مسلم.

(192) ينظر كتابنا: من أسس التربية الإسلامية. طرابلس، الجامعية، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان 1979 ص 194، 188، 516514.

وينظر د. عمود أبو سمرة «التربية الجسمية في القرآن والسنة» في: الفكر التربوي العربي الإسلامي الأصول والمبادئ. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1987 ص 563، 533.

(193) د. عثمان لبب فراج، «الطفل الصغير وأسرته وعلاقتها بالبيئة»، بحث قدم في ندوة الخبراء العرب والأفارقة التي عقدت في مدينة طنجة المغربية حول الطفولة والمراهقة (1987 ص 44، 43).

العدالة الاجتماعية والاقتصادية، والتوزيع العادل للدخول والثروات، وتأكيد الحرية الشخصية والاجتماعية في نطاقها الأخلاقي، الاجتماعي، هو من صلب تعاليم ومقاصد الإسلام وموضع حث في كثير من نصوصه وقواعد شريعته السمحة التي من بينها قاعدة «أينما وجدت مصلحة فثم شرع الله»، «وكل ما حقق العدل بين الناس هو من شرع الله»، وقاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»، وقاعدة «تقديم المصلحة العامة على المصلحة الفردية عند التعارض»، وقاعدة «لا ضرر ولا ضرار»، وقاعدة «ارتكاب أخف الضررين واجب»، وقاعدة «تحمل الضرر الخاص لأجل دفع الضرر العام»، وقاعدة «السلطان ولي من لا ولي له».

3- التأكيد على أساليب الوقاية في مواجهة جميع المشكلات التي تواجه الفرد، سواء أكانت هذه المشكلات صحية أم نفسية أم اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية أم ثقافية أم دينية أم خلقية، وذلك على أساس أن «الوقاية خير من العلاج». ومن أساليب الوقاية في مجال الرعاية الصحية الاهتمام بالتغذية الصحية والرياضة البدنية والتوعية الغذائية والصحية. ومن أساليب الوقاية في مجال الرعاية النفسية تقوية روح الإيمان في النفوس، وروح الصبر والتعود على الصلاة والصوم وغيرها من الشعائر الدينية، والمساعدة في إشباع الحاجات النفسية والاجتماعية، الأساسية، وما إلى ذلك؟. ومن أساليب ووسائل الوقاية في مجال الرعاية الاجتماعية، المساعدة في إشباع الحاجات الاجتماعية للأفراد المستهدفين لخدمات هذه الرعاية، ومساعدتهم على الاندماج في حياة مجتمعهم، وعلى بناء علاقات اجتماعية وتكوين صداقات ناجحة فيه، ومنع الجريمة والقضاء على أسبابها قبل وقوعها، وسد الذرائع والابتعاد عن الشبهات، واستخدام أسلوب المتابعة والرقابة الاجتماعية، وسن التشريعات والقوانين التي تنقل القواعد الدينية والخلقية إلى نطاق الإلزام القانوني، تطبيقاً للقاعدة الشرعية التي تقول: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، لكن بشرط أن يقنن هذا النقل على المستوى الدستوري بوضع ضوابط وحدود واضحة، لا يخرج عنها المشرع الوضعي، حين يرى نقل قاعدة أخلاقية إلى نطاق الإلزام القانوني، وأن يكون لهذه الضوابط والحدود

قوة الدستور، بحيث تصبح القوانين التي تصدر خلافاً لها غير دستورية.

ومن أمثلة هذه الضوابط أن يتحاشى بقدر الإمكان أسلوب الإجبار بطريق فرض عقوبة جزائية، وأن يستعاض عن ذلك بأساليب أخرى كالتشجيع بطريق المكافآت والمنح...

ومن أمثلة هذه الضوابط أيضاً مراعاة الدوام والتأقيت، فإذا كان النقل قد تم لضرورة وقتية، فيجب أن يزول بزوالها، ويعود الواجب أخلاقياً دينياً صرفاً كما كان من قبل.

ومن أمثلة هذه الضوابط أيضاً ضرورة الموازنة بين أسلوب «النقل» وغيره من الأساليب. كما أثير في مسألتي الطلاق وتعدد الزوجات أن توعية الرجل بالشروط الدينية في هاتين المسألتين قد تغني عن نقل الإشراف إلى القاضي.

ومن أمثلة هذه الضوابط كذلك مراعاة عدم استغراق جميع حالات المسألة. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مثلاً - واجب على الأفراد وعلى الدولة أيضاً. وقيام المحتسب بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس سوى إقامة مؤسسة حكومية لمباشرة الواجب الذي على عاتق الحكومة، ولا يعني ذلك الأفراد من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصورة فردية، وكذلك قيام أهل الحل والعقد بواجب الشورى والنصيحة للحاكم، لا يعني الأفراد من واجبهم في هذا الصدد.

وإذا ما رُوي تقنين تغيير المنكر باليد اتباعاً لقوله ﷺ «من رأى منكماً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»⁽¹⁹⁴⁾ - خوفاً من إساءة استخدام هذا الواجب - فإن هناك عدة اعتبارات تفرض نفسها كضوابط لهذا الأمر: منها تحديد الخط الفاصل بين ممارسة هذا الواجب، وبين التدخل في حياة الآخرين الخاصة وحرياتهم الشخصية. ومنها تحديد الشروط اللازم توافرها في الفعل، كي يُعدَّ منكراً يجب تغييره، وتحديد

(194) متفق عليه.

المدى الذي يقف عنده من يغير المنكر، فإذا تعداه أصبح تجاوزاً خاضعاً للمساءلة.

ومن هذه الضوابط يصبح من يغير المنكر باليد مسؤولاً إذا ما خالف هذه الضوابط⁽¹⁹⁵⁾.

4 - توجيه وإرشاد الأسر وأفراد المجتمع وجماعته إلى ما فيه خيرهم. وصلاحتهم وصلاح دينهم وصلاح مجتمعهم، وتوعيتهم بأهداف رعايتهم وتربيتهم الاجتماعية، وتثقيفهم، وتوسيع مداركهم، وتزويدهم بالمعلومات الصحيحة، التي تساعد على تكوين المفاهيم والأفكار السليمة، وعلى تصحيح ما لديهم من مفاهيم وأفكار خاطئة، كانت في الماضي سبباً في انحراف سلوكهم وخطأ تصرفاتهم وتساعد على تعديل سلوكهم، وتصحيح مسار حياتهم، وتحقيق تكيفهم وتوازنهم النفسي والاجتماعي، وإعادة تأهيلهم النفسي والاجتماعي وإعادتهم إلى جادة الحق والصواب وإلى حظيرة مجتمعهم.

وأساس أسلوب التوجيه والإرشاد والنصح في المجتمع الإسلامي هو ما يأمر به الدين الإسلامي، من تعاون وتضامن، وتكافل وتناسح، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وموعظة حسنة، ودعوة إلى الله في بساطة ولطف ورفق ويسر وصبر وحلم وأناة وإصلاح بين الناس.

والنصوص الدينية من الكتاب والسنة التي يستند إليها أسلوب التوجيه والإرشاد والوعظ والنصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين، والدعوة إلى الله، أكثر من أن تسع لذكرها هذه الفقرة الموجزة من هذه المحاضرة. ومن هذه النصوص - على سبيل المثال - نذكر:

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾⁽¹⁹⁶⁾.

(195) ينظر د. جمال الدين عطية «بين القانون والأخلاق» مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن (أكتوبر -

ديسمبر 1976) ص 105.

(196) سورة آل عمران، الآية: 104.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾⁽¹⁹⁷⁾.

وقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ، إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾⁽¹⁹⁸⁾.

وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾⁽¹⁹⁹⁾.

وقوله تعالى: ﴿كَنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾⁽²⁰⁰⁾.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾⁽²⁰¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾⁽²⁰²⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾⁽²⁰³⁾.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾⁽²⁰⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾⁽²⁰⁵⁾.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾⁽²⁰⁶⁾.

(197) سورة التوبة، الآية: 72.

(198) سورة النساء، الآية: 114.

(199) سورة الأعراف، الآية: 199.

(200) سورة آل عمران، الآية: 110.

(201) سورة آل عمران، الآية: 114.

(202) سورة النحل، الآية: 125.

(203) سورة فصلت، الآية: 35.34.

(204) سورة البقرة، الآية: 185.

(205) سورة آل عمران، الآية: 159.

(206) سورة النساء، الآية: 28.

وقوله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج...﴾⁽²⁰⁷⁾.

وقوله تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر، إن ذلك لمن عزم الأمور﴾⁽²⁰⁸⁾.

وقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾⁽²⁰⁹⁾.

وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾⁽²¹⁰⁾.

وقوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»⁽²¹¹⁾.

وقوله ﷺ: «لأن يهدي الله على يدك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»⁽²¹²⁾.

وقوله ﷺ: «عند الله خزائن الخير والشر، مفاتيحها الرجال، فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير، مغلقاً للشر، وويل لعبد جعله مفتاحاً للشر مغلقاً للخير»⁽²¹³⁾.

وقوله ﷺ: «خير أمتي من دعا إلى الله وحجب عباده إليه»⁽²¹⁴⁾.

وقوله ﷺ: «لا ينبغي للرجل أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حتى يكون فيه خصال ثلاث: رفيق فيما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل فيما ينهى»⁽²¹⁵⁾.

(207) سورة الحج، الآية: 76.

(208) سورة الشورى، الآية: 40.

(209) سورة الأنفال، الآية: 1.

(210) سورة الحجرات، الآية: 10.

(211) رواه مسلم.

(212) رواه الطبراني.

(213) رواه الطبراني.

(214) رواه البخاري.

(215) رواه الديلمي.

وقوله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»⁽²¹⁶⁾ (متفق عليه).
وفي رواية: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على
العنف وما لا يعطي على سواء»⁽²¹⁷⁾.

وقوله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا
شانه»⁽²¹⁸⁾.

وقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»⁽²¹⁹⁾ (متفق عليه).

وقوله ﷺ: «إن الله يحب في الناس خصلتين، هما: الحلم،
والإنابة»⁽²²⁰⁾.

وقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه بما استطعتم، وإذا نهيتكم عن
شيء فاجتنبوه»⁽²²¹⁾.

وما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين
أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، وكان أبعد الناس منه، وما انتقم
رسول الله لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى»⁽²²²⁾.

وقوله ﷺ: «أتلدرون على من حرمت النار؟ قالوا: الله ورسوله أعلم،
قال: على اللين السهل القريب»⁽²²³⁾.

5- وتوفير القدوة الحسنة التي تضرب المثل الطيب في عقيدتها وتمسكها
بدينها، وفي أخلاقها وجميع تصرفاتها ومظاهر سلوكها، فتؤثر بسلوكها قبل
تأثيرها بقولها، ويسبق عملها قولها، ويكون لقولها معنى ومصداقية، لأنها تطبق

(216) متفق عليه.

(217) رواه مسلم.

(218) رواه مسلم.

(219) متفق عليه.

(220) رواه مسلم.

(221) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه.

(222) متفق عليه.

(223) أخرجه الترمذي وحسنه.

في نفسها ما تنوي الدعوة إليه والأمر به قبل أن تدعو إليه وتأمّر به .

فالقُدوة الحسنة هي حق لمن تجري رعايتهم اجتماعياً من الأطفال والشباب وغيرهم، وغاية من غايات هذه الرعاية، ووسيلة من وسائلها، في جميع الأوساط التي تتفاعل معها وفيها، من تجري رعايتهم وتربيتهم وتوجيههم، سواء أكان هذا الوسط هو الوسط الأول وهو وسط الأسرة، أم الوسط الثاني وهو وسط الدراسة أو العمل، أم الوسط الثالث، وهو الوسط ذو العلاقة بأوقات الفراغ .

فأول حق لمن تشملهم الرعاية الاجتماعية، أن يجدوا في والديهم وأولياء أمورهم، وأقربائهم، ومربيهم، وموجهيهم، والمشرفين على تربيتهم ورعايتهم، الأنموذج الطيب الذي عليهم أن يحتذوا به، والقُدوة الحسنة التي يمكن أن يقتدوا بها، والصورة الحية للأخلاق الفاضلة، والعقيدة السليمة القوية الراسخة، والسلوك القويم الذي يتخذونه مثلاً أعلى يسرون على هداة .

والقُدوة الحسنة هي من أنجح الأساليب والوسائل في التربية والرعاية، وهي عامل أساسي وهام في صلاح النشء أو فسادهم . وخير قُدوة يقتدي بها المسلم في حياته وسلوكه هي شخصية الرسول الكريم، التي يقول عنها رب العزة: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»⁽²²⁴⁾ . فقد كان ﷺ بشخصيته وشمائله وأخلاقه وسلوكه، وتعامله مع الناس، ترجمة عملية بشرية حيّة لحقائق القرآن وتعاليمه وآدابه وتشريعاته . وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها تصف رسول الله ﷺ «كان خلقه القرآن»⁽²²⁵⁾ .

ويصور أهمية القُدوة الحسنة ما أورده أبو داود عن عبد الله بن عامر رضي الله عنه، قال: «دعني أُمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: يا عبد الله تعالَ حتى أعطيك . فقال لها عليه الصلاة والسلام: ما أردت أن تعطيه؟ قالت: أردت أن أعطيه تمراً . فقال: أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت

(224) سورة الأحزاب، الآية: 27.

(225) رواه مسلم .

عليك كذبة»⁽²²⁶⁾ - وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من قال لصبي: تعال هاك أي خذ، ثم لم يعطه فهي كذبة»⁽²²⁷⁾.

ومن استنكار القرآن الكريم لهذا النمط من السلوك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾⁽²²⁸⁾.

ويحذر القرآن الكريم في موضع آخر منه من يدعو الآخرين إلى الخير ولكنه لا يلتزم به، فيقول: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ، وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾⁽²²⁹⁾.

ومما يرويه الجاحظ في هذا الصدد: أن عقبة بن أبي سفيان لما دفع ولده إلى المؤدب قال له: «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بني إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك. فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح ما استقبحت، وعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدياء»⁽²³⁰⁾.

والإسلام كما يحث على القدوة الحسنة، فإنه يحث أيضاً على الرفقة الصالحة، والقرين الصالح، وينفر ويحذر من الرفقة السيئة، ومن خلطاء ورفقاء وقرناء السوء، ومن النصوص الإسلامية المعبرة عن هذا المعنى:

قوله تعالى في بيان أن عاقبة اتخاذ الخليل السيئ الندامة: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ، يَقُولُ: يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَا وَيْلَتَى، لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَلُولاً﴾⁽²³¹⁾.

(226) رواه أحمد بن حنبل وأبو داود.

(227) رواه أحمد وغيره.

(228) سورة الصف، الآية: 3.

(229) سورة البقرة، الآية: 44.

(230) كما نقله د. حمد الصليحي «حقوق الإنسان في الإسلام والوقاية من انحراف الأحداث» في معالجة الشريعة الإسلامية لمشاكل انحراف الأحداث، مرجع سابق ص 4241.

(231) سورة الفرقان، الآية: 28، 27.

وقوله ﷺ في بيان أن الإنسان يتأثر بقرينه إن خير خيراً فخير وإن شراً فشر: «مثل المجلس الصالح والمجلس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تشتم منه ريحاً خبيثة»⁽²³²⁾.

وقوله ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»⁽²³³⁾.

5 - توفير ما تحتاجه دور الحضانة الإيوائية، ورياض الأطفال الإيوائية، المعدة للأطفال الأيتام والأطفال الصغار المحرومين، الذين لا تتوافر لهم الرعاية السليمة في أسرة طبيعية أو مجتمع طبيعي، ودور رعاية الأحداث من الجنسين، ودور رعاية العجزة والمعاقين، ودور رعاية الشيخوخة، وغيرها من مؤسسات الرعاية الاجتماعية من كوادر بشرية، على اختلاف مستويات إعدادهم وتدريبهم وتخصصاتهم، ليقوموا بالمساعدة فيما تقدمه مؤسسات الرعاية الاجتماعية من خدمات تعليمية وتربوية، وتدريبية وتأهيلية، ووقائية وعلاجية، وإنمائية، وتوجيهية وإرشادية، وثقافية وتوعوية ووعظية وترفيهية وترويحية وفي غير ذلك من الخدمات والمناشط التي تقدمها مؤسسات الرعاية الاجتماعية؛ والتي تحتاج أول ما تحتاج إلى اختصاصيين وفنيين ومعلمين ومربين وموجهين، وغيرهم من فئات الكوادر البشرية القادرة على المساعدة في تقديم هذه الخدمات والمناشط، وعلى الإسهام في نجاحها وزيادة فاعليتها.

كذلك تزويد مؤسسات الرعاية الاجتماعية بما تحتاجه في تأدية وظائفها ومهامها، وتحقيق الأهداف والغايات المرسومة لها، من مرافق كافية، وأجهزة ومعدات، وأدوات ومواد وخامات، ووسائل تعليمية، وأدوية تُعَدُّ ضرورية لأعمال التنشئة، والتربية والتعليم والتدريب والتأهيل، والتنشيط والثقافة والترفيه والترفيه والترفيه والترفيه، والأعمال التابعة والرعاية اللاحقة

(232) رواه البخاري.

(233) رواه الحاكم في المستدرک.

لمن يخرجون من دور الرعاية الاجتماعية بعد أن تتحسن ظروفهم، بحيث تسمح لهم بالخروج من هذه الدور.

ومن سبل تدعيم خدمات الرعاية الاجتماعية وتدعيم المؤسسات التي تقدم من خلالها هذه الخدمات، سن القوانين والنظم والتشريعات، التي تنظم تأدية هذه الخدمات وتحدد أهدافها وشروط الحصول عليها، ونظم تقييمها ومتابعتها، والتنسيق بين مختلف الجهود التي تبذل فيها وبين مختلف المؤسسات العاملة في مجالها.

ومن سبل تدعيم خدمات هذه الرعاية أيضاً، بل من أهم سبلها توفير الأموال اللازمة للمصرف على هذه الخدمات، وتوفير ما يتطلبه نجاح هذه الخدمات من إمكانيات بشرية ومادية.

وإذا كانت لا توجد نصوص إسلامية تدعم بصورة مباشرة سبل الرعاية الاجتماعية التي تمت الإشارة إليها في هذه الفقرة، فإن هذه السبل تتمشى مع عشرات المبادئ والقواعد الإسلامية والشرعية العامة، التي تؤكد حرص الإسلام على تحقيق المصلحة الفردية والمصلحة العامة، وعلى تحقيق التعاون على فعل الخير، وقضاء حوائج الناس، وسد احتياجاتهم، وإقالة عثراتهم، وتحقيق النفع لهم، وعلى جعل إصلاح النفوس أساساً للإصلاح العام، وعلى حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وعلى حماية الحقوق الطبيعية المشروعة للإنسان، وعلى تأكيد كرامة الإنسان وعزته وأمنه، وحمايته من المفساد والانحرافات والمخاطر.

٥ -

مصادر تمويل الرعاية الاجتماعية في الإسلام:

لقد أشرنا في آخر المحاضرة السابقة إلى أن من المتطلبات الرئيسة لنجاح الرعاية الاجتماعية توفير الأموال الكافية، للمصرف على دورها ومؤسساتها، وعلى ما تقدمه هذه الدور والمؤسسات إلى نزلائها من منافع نقدية وعينية، ومن خدمات صحية، وتعليمية وتدريبية وتأهيلية، وتنشيطية

وتثقيفية وتوعوية وترويجية وترفيهية، وعلى ما تحتاجه هذه الدور والمؤسسات من توسعات وإضافات وتحسينات وصيانة، وعناية دائمة وتأثيث، وتجهيز، وتزويد مستمر بالمواد الغذائية، ومواد وأدوات ووسائل التعليم والتدريب والتأهيل والترفيه والتيسير والصيانة، والتنظيف والتطهير، والعناية بالمظاهر الجمالية في جدرانها وأفنيتها وحدائقها، وعلى ما تحتاجه من كوادر بشرية متنوعة في مستويات إعدادها وتدريبها وتأهيلها وخبراتها، ومهامها للقيام بما يتطلبه عملها من أعمال تخطيطية وتعليمية وتدريبية وتأهيلية وترفيهية وتوجيهية وإرشادية وإدارية وإشرافية ورقابية وتقييمية، وما إلى ذلك من الأعمال والمناشط.

ويعتمد تمويل دور ومؤسسات ومشروعات وبرامج الرعاية الاجتماعية في الدول الإسلامية الحديثة، وبخاصة الدول النفطية الغنية منها، على ما تخصصه الدولة ممثلة في وزارة المالية أو الخزانة بها، من أموال بناء على وزارة الشؤون الاجتماعية أو الضمان الاجتماعي، التي تشرف مباشرة على شؤون هذه الرعاية. مع الاستعانة جزئياً بما يقدم إلى هذه الرعاية من تبرعات غير مشروطة، وبما تحدده مؤسساتها من اشتراكات، في مقابل الانتفاع بخدماتها، وبما تحصل عليه من دخولات أخرى نتيجة لتأجير بعض مرافقها أو لبيع بعض ما تنتجه ورشها. وبغير ذلك من المصادر الإضافية التي تمثل عادة قدراً بسيطاً بالنسبة إلى ما تخصصه الدولة سنوياً في الميزانية العامة الإدارية لهذه الرعاية.

وتمويل الرعاية الاجتماعية بهذه الطريقة، التي تعتمد على الدولة اعتماداً كلياً مسألة اجتهادية، ولا يمنع الإسلام من اللجوء إليها، إذا رأى الناس أن مصلحتهم في ذلك، وإذا ما رأوا أن هذه الطريقة أقرب إلى تحقيق العدالة والمساواة ومبدأ تكافؤ الفرص بينهم. ولكن إذا ما رجعنا إلى الوراء، ونصفحنا نصوص ديننا وفكرنا الاجتماعي وممارسات أسلافنا في هذا المجال، فإننا نجد لتمويل خدمات ومشروعات وبرامج الرعاية الاجتماعية، مصادر متعددة ومتنوعة لا يعدو ما تخصصه الدولة أو بيت المال لها من أموال وإمكانات أن يكون أحد هذه المصادر فقط.

ومن مصادر تمويل الرعاية الاجتماعية في نصوص الدين الإسلامي والفكر الإسلامي، وفي التراث الإسلامي، تمكن الإشارة الموجزة إلى المصادر التالية:

1 - ما يملكه المرعيون اجتماعياً من أموال وممتلكات خاصة بهم. فقد يكون الطفل اليتيم أو المعاق أو الشخص العاجز أو المسن، الذي تشملته خدمات الرعاية الاجتماعية، له من الأموال والممتلكات الخاصة به، والآلة له من الإرث أو من وفوراته السابقة، أو الحاصل عليها من تقاعده، أو من المكافأة المقطوعة التي صرفت له، ما يكفي للصرف المعروف على خدمات رعايته الاجتماعية. وفي هذه الحالة يجوز للحاكم أن يأخذ بالمعروف من الأموال الخاصة، للصرف منها على رعاية أصحابها.

2 - إنفاق الموسرين على أقربائهم المعسرین العاجزين عن الكسب، والذين ليس لهم مال ولا دخل يكفي للصرف على رعايتهم وسد احتياجاتهم. فقد أوجب الإسلام - في إطار التكافل الاجتماعي - على الأغنياء أن ينفقوا على أقربائهم من الفقراء والمحتاجين والعاجزين عن الكسب. فنظام النفقة في الإسلام يقضي بإيجاد التوازن المالي والاجتماعي بين أفراد الأسرة الواحدة، ويوجب على الفرد الموسر من الأسرة أن ينفق على أقربائه من الأفراد المعسرین. إذ لا يجوز أن يكون أحد أفراد الأسرة متخماً بالمال، في حين أن فرداً أو أفراداً آخرين فيها فاقدون للرعاية وعرضة للجوع والمرض والفاقة. «وقد حددت الشريعة الإسلامية الشروط والحالات والإجراءات، التي تستحق فيها نفقة الأقارب. فاشتترط أول ما اشتترط أن تكون هنالك قرابة بين الموسر والمعسر، وحددت درجات هذه القرابة بدقة متناهية، ابتداء من الأبوين والأولاد والأشقاء والإخوة، ثم بقية الأقارب. ثم اشتترط أن يكون هنالك فرد موسر وقريب له معسر، حتى تستحق له النفقة. وعرفت الموسر، ومدى قدرته على دفع النفقة، ونوع ومقدار هذه النفقة، وما إذا كانت نفقة يسار أو نفقة إعسار. كما عرفت المعسر بأنه الشخص الفقير العاجز عن العمل والكسب، والذي ليس لديه مورد يكفي لسد احتياجاته اليومية من مأكلاً

وملبس وغيره⁽²³⁴⁾.

وإنفاق القريب على قريبه المعسر يستند إلى كثير من النصوص الدينية التي تحث على التكافل والتعاون على البر وفعل الخير، وعلى الإنفاق في أوجه الخير، وذلك بالإضافة إلى النصوص الدينية ذوات العلاقة المباشرة بالدعوة إلى رعاية الأبوين وذوي القربى، من أفراد الأسرة بمعناها الواسع والضيق على حد سواء. وقد سبقت الإشارة إلى معظم هذه النصوص، وذلك من أمثال:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.⁽²³⁵⁾

قال علي رضي الله عنه في تفسيره هذه الآية: «علموهم وأدبوهم».

وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾.⁽²³⁶⁾

وقوله تعالى: ﴿وَأَتْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾.⁽²³⁷⁾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.⁽²³⁸⁾

3- ما يتصدق به الموسرون من المسلمين في إطار الزكاة الواجبة الأداء، أو في إطار الصدقات التطوعية العامة، وما يتبرعون به بشكل فردي أو جماعي، في سبيل تدعيم مشروعات وبرامج ومؤسسات الرعاية الاجتماعية، وكفالة أهل الحاجة إلى هذه الرعاية من أفراد المجتمع الإسلامي. والنصوص الدينية التي تحرض على تأدية الزكاة وتبين مصارفها، أو أصحاب الحقوق فيها، والتي تحث على إنفاق المال في أعمال البر والخير وسد حاجات المحتاجين، وترغب فيه وتبين حسن الجزاء الدنيوي والأخروي عليه، أكثر من

(234) إحسان الكيالي «الضمانات الفردية في الشريعة الإسلامية» مرجع سابق ص 281-282.

(235) سورة التحريم، الآية: 6.

(236) سورة النساء، الآية: 36.

(237) سورة الإسراء، الآية: 26.

(238) سورة النساء، الآية: 8.

أن يتسع المقام لذكرها جميعها، وعلى سبيل المثال يمكن أن نذكر منها:
قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (239).

وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...﴾ (240).
وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ، وَالْمَسْكِينِ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ، وَفِي الرِّقَابِ، وَالْغَارِمِينَ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (241).

وقوله تعالى: ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (242).

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (243).

وقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (244).

وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» (245).

وقوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (246).

وقوله ﷺ: «وما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم» (247).

وقوله ﷺ: «إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي

(239) سورة المزمل، الآية: 18.

(240) سورة التوبة، الآية: 103.

(241) سورة التوبة، الآية: 60.

(242) سورة الحديد، الآية: 7.

(243) سورة النور، الآية: 33.

(244) سورة آل عمران، الآية: 92.

(245) رواه البخاري والترمذي والنسائي وأحمد.

(246) متفق عليه.

(247) رواه البزار والطبراني عن أنس.

يسع فقراءهم» (248).

وقوله ﷺ: «إن في أموالكم حقاً سوى الزكاة» (249).

4 - الأوقاف الإسلامية التي يوقفها المسلمون على بعض المؤسسات التعليمية والاجتماعية والصحية للصرف من ريعها، على ما تقدمه هذه المؤسسات من خدمات إلى طالبيها من طلبة العلم والفقراء والمرضى والعجزة والمعاقين، وغيرهم من ذوي الحاجة إلى الرعاية الثقافية والاجتماعية والصحية الاقتصادية.

والوقف الإسلامي يمثل صورة من أهم صور التكافل الاجتماعي بين أجيال المسلمين، وهو من الصدقات الجارية التي نشأ أمرها في المجتمع الإسلامي منذ العهود الأولى لهذا المجتمع، وذلك استجابة لتوجيهات الإسلام في هذه النصوص التي يأتي في مقدمتها قوله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (250).

فكان المسلم - قديماً - يوقف بستاناً أو عقاراً من ملكه لينفق من ريعه على الفقراء والمساكين، أبدأ ودون انقطاع ما دام الوقف وما دام هناك فقراء ومساكين.

وقد تفنن المسلمون الأولون في تخصيص أوقافهم، وفي توجيهها إلى نوع من أنواع البر أو الإحسان دون آخر، فبلغت حدّاً من التعدد والتنوع لا يخطر على بال أحد. فبالإضافة إلى أوقاف المساجد، التي كان ينفق عليها منها، والأوقاف المخصصة للمؤسسات التعليمية والصحية ودور الرعاية الاجتماعية، للصرف من ريعها على طلبة العلم والمرضى والمحرومين والعجزة والمعاقين، هناك أوقاف أخرى لا تخطر على بال، وذلك مثل: أوقاف الطرق، التي يصرف من ريعها على رصف الطرق وتعديلها وصيانتها،

(248) رواه الطبراني.

(249) رواه الدارمي.

(250) رواه البخاري.

وأوقاف الأواني، التي يصرف من ريعها على إصلاح الأواني التي كسرت أو شراء بديل لما كسر منها، وأوقاف رعاية العديد من الحيوانات، وبخاصة الخيل التي تعبت في الجهاد وأسنت، وما إلى ذلك من أنواع الأوقاف التي تبدو اليوم غريبة في أغراضها، ولكن هذه الأغراض لم تخرج عن فعل الخير الذي يأمر به الإسلام.

والذي يهمنا أن كثيراً من الأوقاف الإسلامية القديمة كانت مخصصة للصرف على ألوان من الرعاية الاجتماعية في مفهومها الحديث الواسع، وذلك مثل رعاية الأيتام والمسنين والمكفوفين والعجزة والمقعدين، والمرضى والأيامى، والنساء الغربيات اللاتي لا أهالي لهن، والمسجونين، وغيرهم من الفئات الضعيفة الجانب التي في حاجة إلى رعاية وحماية⁽²⁵¹⁾.

5 - ما تخصصه الدولة (بيت المال) من أموال وعوائد للصرف على أغراض الرعاية الاجتماعية، حيث إن الشريعة الإسلامية ألزمت الدولة بتحمل نفقة المعسر في حالة عدم وجود قريب موسر له، تجب عليه نفقته ويتولى رعايته والإنفاق عليه، ويتحمل نفقة ورعاية الفقراء العاجزين عن العمل، والمسنين والعجزة والمعاقين غير القادرين على العمل أيضاً، ورعاية الأطفال المحرومين من اللقطاء والأيتام، الذين لا عائل ولا أموال لهم، وذلك على أساس القاعدة الشرعية التي سبقت الإشارة إليها في محاضرة سابقة «السلطان ولي من لا ولي له».

ولقوله ﷺ: «أنا أولى بكل مسلم من نفسه، فمن ترك مالا فلورثته، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ»⁽²⁵²⁾.

ومما يرويه أبو عبيد في كتابه: (الأموال) قصة لها دلالة فيما نحن بصدد الحديث عنه. تقول القصة: «بينما عمر في نصف النهار قائل في ظل شجرة، وإذا أعرابية، فتوسمت الناس فجاءت، فقالت: إني امرأة مسكينة، ولي بنون،

(251) ينظر منذر شعار «الأوقاف الإسلامية القديمة: إنسانية ورحمة وتكافل اجتماعي» مجلة الوعي الإسلامي السنة الثانية عشرة، العدد 137 مايو 1976 ص 51-46.

(252) رواه ابن ماجه.

وإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كان بعث محمد بن مسلمة ساعياً، تعني جابياً وموزعاً للصدقة، فلم يعطنا، فلعلك - يرحمك الله - أن تشفع لنا إليه؟ قال، . فصاح بـ «يرفأة» - خادمه - أن ادع لي محمد بن مسلمة، فقالت: إنه أنجح لحاجتي أن تقوم معي إليه. فقال: إنه سيفعل - إن شاء الله - فجاءه يرفأة، فقال: أجب. فقال: السلام عليكم يا أمير المؤمنين. فاستحيت المرأة. فقال عمر: والله ما ألو أن أختار خياركم. كيف أنت قائل إذ سألك الله عز وجل عن هذه؟ فدمعت عينا محمد. ثم قال عمر: إن الله بعث إلينا نبيه ﷺ فصدقناه واتبعناه، فعمل بما أمره الله به، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين حتى قبضه الله على ذلك ثم استخلف الله أبا بكر فعمل بسنته حتى قبضه الله، ثم استخلفتها فلم آل أن أختار خياركم. إن بعثتك، فأد إليها صدقة العام، وعام أول. وما أدري لعلني لا أبعثك. ثم دعا إليها بجمل، فأعطاهما دقيقتاً وزيتاً، وقال: خذي هذا حتى تلحقينا بخير، فإننا نريدها. فأته بخير، فدعا لها بجملين آخرين. وقال: خذي هذا فإن فيه بلاغاً، حتى يأتيكم محمد بن مسلمة، فقد أمرته أن يعطيك حقل للعام وعام أول...» (253).

وموارد بيت المال في العهود الإسلامية القديمة تشبه، إلى حد كبير، موارد الدولة الحديثة، وما يمثلها من وزارة مالية أو خزانة، وهي متعددة متنوعة تشمل فيما تشمل، ما يأتي عن طريق الزكاة المفروضة، والصدقات التطوعية، والخراج، وعشور غير المسلمين، الذين يعمرون ببضائعهم وتجارتهم على ثغور المسلمين والموانئ الإسلامية، فيؤخذ منهم العشر نقداً أو عيناً. وتشبه العشور الضرائب الجمركية الحديثة. وليس على المسلمين عشور إنما العشور على غير المسلمين من اليهود والنصارى غير الذميين. وعشور المسلمين لا تخرج عن زكاة التجارة وعشور أهل الذمة لا تخرج عن الضرائب المتفق عليها معهم.

ومن موارد بيت المال أيضاً ما يأتي من ريع الأوقاف الخيرية ومن

(253) كما نقله: د. يوسف القرضاوي، «دور الزكاة في علاج المشكلات الاقتصادية» (4) مجلة منار الإسلام، العدد الحادي عشر، نوفمبر 1976، ص75.68.

استثمار أموال هذه الأوقاف بالطرق المشروعة، ومن هذه الموارد أيضاً ما تفرضه الدولة من ضرائب مختلفة لتحقيق مصالح عامة للمجتمع، حيث إنه من حق الدولة أن تقوم بذلك استناداً إلى القاعدة الشرعية التي تقول: إنه يجوز التضحية بالمنفعة الأصغر في سبيل المنفعة الأكبر، ويجوز درء الضرر الأكبر بالضرر الأصغر.

وإذا كان من حق الدولة المسلمة أن تفرض الضرائب العادلة، فإنه من واجبها أن ترعى ذوي الحاجة من مواطنيها. ولا تنتظر الضعفاء وذوي الحاجة حتى يتقدموا إليها بطلبات للمساعدة الاجتماعية، بل عليها هي أن تطلبهم وتبحث عنهم لتسد حاجتهم، وإن لم يسألوا أو يطلبوا.

6 - وليس هناك في الإسلام ما يمنع من إنشاء صندوق خاص لتمويل مؤسسات ومشروعات وبرامج الرعاية الاجتماعية، أو صندوق خاص برعاية الطفولة، أو برعاية الشيخوخة، على مستوى الدولة الإسلامية الواحدة، أو على مستوى العالم الإسلامي العام، على غرار «صندوق التضامن الإسلامي» الذي وافق على إنشائه مؤتمر القمة الإسلامي الثاني، الذي انعقد في مدينة لاهور الباكستانية، فيما بين (22 و 24 فبراير 1974 م)، ثم تم التصديق على نظامه الأساسي من قبل مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي الخاص، الذي انعقد بمدينة «كوالالمبور» بمليزيا، فيما بين (21 و 25 يونيو 1974 م. وعلى غرار «صندوق تمويل الدعوة الإسلامية» الذي أوصت به الدورة الثالثة للدعوة الإسلامية العالمية في موسم الحج لعام 1394 هـ الموافق 18 ديسمبر 1974 م.

ومن المصادر الممكنة لتمويل مثل هذا الصندوق للرعاية الاجتماعية ما تسهم به الدولة من دعم مالي، ومساعدات عينية، وما تخصصه له المصارف والشركات الإسلامية؛ من نسبة من دخلها وأرباحها المشروعة، وما تبرع به المنظمات والمؤسسات الدولية والإسلامية، مثل منظمة اليونسكو، ومنظمة اليونسيف، والاتحاد الدولي لرعاية الطفولة، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والمنظمة العربية للدفاع الاجتماعي، والمنظمات التابعة لمؤتمر العالم الإسلامي.



الأستاذ عبد السلام الجفندي
كلية الدعوة الإسلامية

مقدمة :

في ظل العقيدة الإسلامية السمحة نشأ فكر تربوي اتسع وتنوع مع انطلاقتها فأغنت الفكر الإنساني في سائر مجالاته وقامت على أساسه حياة المجتمعات الإسلامية. فالتربية عملية اجتماعية تنبثق من المجتمع، وتنمو في أحضانه، وتعبر عن مثله وتبرز خصائصه وتؤكد ذاتيته وتنطلق به إلى آفاق أرحب في سلم التكامل البشري.

وتقوم التربية الإسلامية على أساس أن العبادة الصحيحة لله هي وسيلة التزكية للنفس الإنسانية التي يشير إليها القرآن الكريم: «ونفس وماسواها فآلهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها»⁽¹⁾ وهي

(1) سورة الشمس، الآيات: 7 - 10.

كذلك وسيلة التربية، ذلك أن الهدف الأخير للتربية الإسلامية هو تزكية النفس. ومن ثم كانت وسيلة التزكية هي ذاتها وسيلة التربية.

والأسرة المسلمة ملزمة بتربية أبنائها من ذكور وإناث وفق أصول التربية الإسلامية الحقة، وتنطلق مسؤولية الوالدين في تربية أبنائهم من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾⁽²⁾ ومن قوله ﷺ: «أَلَا كَلِّكُمْ رَاعٍ، وَكَلِّكُمْ مَسْؤُولٍ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكَلِّكُمْ رَاعٍ وَكَلِّكُمْ مَسْؤُولٍ عَنْ رَعِيَّتِهِ»⁽³⁾ وتتناول التربية الإسلامية للأطفال جوانب متعددة منها، التربية الجسمية، والتربية الإيمانية والتربية الخلقية، والتربية العقلية، والتربية النفسية، والتربية الاجتماعية، وحتى تتمكن الأسرة والمدرسة من تنمية جميع هذه الجوانب في شخصية الطفل المسلم، فإن ذلك يتطلب معرفة أساليب التربية الإسلامية للأطفال.

ونستعرض فيما يلي بشيء من التفصيل أساليب التربية الإسلامية للأطفال مع التركيز على ما تضمنه القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة في هذا الخصوص، ولعل من أهم الأساليب المؤثرة في تكوين الأطفال وإعدادهم وفقاً لمبادئ وأهداف التربية الإسلامية الصحيحة ما يلي: -

1 - أسلوب التربية بالقدوة الصالحة:

تعتبر القدوة في التربية من أهم العوامل المؤثرة في تربية الأطفال، لا سيما في مرحلة الطفولة. ويتوقف ما يكتسبه الطفل من عادات وسلوك وقيم مرغوب فيها أو غير مرغوب فيها على نوع القدوة التي يتعرض لها. فالطفل يتأثر بالقدوة الماثلة أمامه، ويعتبرها نموذجاً للكمال أو النجاح أو الشهرة،

(2) سورة التحريم، الآية: 6.

(3) صحيح متفق عليه، انظر: الفراء البهوي، مصابيح السنة - (تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشي وآخرون) - المجلد الثالث - الطبعة الأولى - بيروت - دار المعرفة، 1987 م ص 12 حديث رقم 2776.

وذلك عن طريق التقليد والمحاكاة والاتجاه والاستهواء. فالمربي - سواء أكان أباً أم معلماً - هو المثل الأعلى في نظر الطفل. . . يقلد سلوكه ويحاكيه في أخلاقه من حيث يشعر أو لا يشعر. . . بل تنطبع في نفسه وإحساسه صورته القولية والفعلية والحسية والمعنوية. فإن كان المربي صادقاً أميناً خلوفاً كريماً شجاعاً عفيفاً. . . نشأ الولد على الصدق والأمانة والأخلاق الكريمة، واتصف بالشجاعة والعفة، وإن كان المربي خلاف ذلك تشرب الولد نفس الصفات⁽⁴⁾. وهذا يؤكد أهمية القدوة الصالحة في تحديد سلوك الإنسان والعادات التي يكتسبها. وتلعب الأسرة المسلمة دوراً كبيراً في تنشئة الطفل المسلم على المعايير والقيم الأخلاقية الإسلامية، بحيث يكتسب الطفل المسلم الشخصية الإسلامية الصحيحة المتكاملة والمتوازنة.

وتؤكد التربية الإسلامية على أهمية أسلوب القدوة الصالحة في تنشئة الأجيال الإسلامية التنشئة التربوية السليمة، فكان الرسول محمد عليه الصلاة والسلام بكماله في الخلق والشخصية وشمول عظمته، الصورة الكاملة للمنهج الإسلامي في التربية، لكل أتباعه الذين عاصروه أو الذين يأتون من بعده وللبنية في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي هذا المجال تضمنت الكثير من الآيات القرآنية موضوع الرسول والقدوة الصالحة. قال الله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾⁽⁵⁾.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإفائه وسراجاً منيراً﴾⁽⁶⁾.

وقوله تعالى: ﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾⁽⁷⁾.

(4) عبد الله علوان: تربية الأولاد في الإسلام، الجزء الثاني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ص 633.

(5) سورة الأحزاب، الآية: 21.

(6) سورة الأحزاب، الآية: 45، 46.

(7) سورة القلم، الآية: 4.

وقد مثلت السيدة عائشة رضي الله عنها، عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»⁽⁸⁾.

وحقاً كان رسول الله ﷺ بشخصيته وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس، ترجمة عملية بشرية حية لحقائق القرآن وتعاليمه وآدابه وتشريعاته، ولما فيه من أسس تربوية إسلامية وأساليب تربوية قرآنية⁽⁹⁾.

كما أبرزت السنة النبوية في مواطن عديدة أهمية (القدوة) وفعالية تأثيرها في التربية.

- عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»⁽¹⁰⁾.

نرى أن هذا الحديث الشريف يتضمن مبادئ تربوية في الحث على أهمية القدوة الصالحة في بناء شخصية الإنسان وسلوكه. وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام قدوة طيبة في حياته الأبوية وفي حسن معاملته للصغار ولأصحابه ولجيرانه، وكان يسعى في قضاء حوائج المسلمين، وكان أوفى الناس بوعده، وأشدّهم اتِّمّاناً على الودائع، وأكثرهم ورعاً وحذراً من أكل مال الصدقة، أو الاقتراب مما استرعاه الله من المسلمين.

وفي جانب الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق، وصف القرآن محمداً ﷺ: ﴿عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾⁽¹¹⁾. فهو رؤوف ورحيم وشفيق، ومن شفقته على الأمة تخفيفه وتسهيله عليهم وكرامته أشياء مخافة أن تفرض عليهم كقوله: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم

(8) إسحاق أحمد فرحان، التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، الطبعة الثالثة، دار الفرقان، الأردن 1991 م ص 67.

(9) عبد الرحمن التحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، الطبعة الثانية، دمشق، 1983 م ص 255.

(10) رواه مسلم: ج 8 ص 37 - 38.

(11) سورة التوبة، الآية: 128.

بالسواك عند كل صلاة⁽¹²⁾.

وقد كان ﷺ حسن الهدي رفيقاً بالناس والأشياء والحيوان، والآثار في ذلك كثيرة وافرة ومن هذا مراعاته للتوسط والاعتدال في سلوكه وتعامله، في قوله وفعله، في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، ومات وهو على ذلك، ولأنه قدوة فقد تبعه في تلك الوسطية أصحابه، فقصوا أثره إلى حد بعيد خاصة الخلفاء الراشدون⁽¹³⁾.

ومن رحمته ﷺ بالأطفال «روى النسائي والحاكم: بينما كان رسول الله ﷺ يصلي بالناس إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد، فأطال السجود بالناس، حتى ظنوا أنه قد حدث أمر. فلما قضى صلاته قالوا: لقد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر: فقال إن ابني قد ارتحلني - أي جعلني كالراحلة فركب على ظهري - فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»⁽¹⁴⁾.

والذي نخلص إليه بعد ما تقدم أن القدوة - في نظر الإسلام هي من أعظم الوسائل التربوية تأثيراً. فالطفل حين يجد من أبويه ومربييه القدوة الصالحة في كل شيء فإنه يتشرب مبادئ الخير ويتطبع على أخلاق الإسلام.

والتلميذ في المدرسة لا بد له من قدوة يراها في كل معلم من معلميه ليقتنع حقاً بما يتعلمه. ويرى فعلاً أن ما يطلب منه من السلوك المثالي أمر واقعي ممكن التطبيق، وأن السعادة الحقيقية لا تكون إلا في تطبيقه. والمعلم عند الغزالي من أهم العوامل في تحقيق تربية النشء، لما له من عظيم الأثر في نفسية التلميذ، ومدى تحصيله، وبناء شخصيته وسلامته مسلكه وذلك بحكم القدوة والعلم⁽¹⁵⁾.

(12) رواء مسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة، حديث صحيح الجامع الصغير ج 2، ص 132.

(13) حسن خالد، مجتمع المدينة قبل الهجرة ويعداها - بيروت دار النهضة العربية 1986 م ص 177.

(14) عبد الله علوان تربية الأولاد في الإسلام، مرجع سابق ص 657.

(15) عارف مفضي البرجس، التوجيه الإسلامي للنشء، في فلسفة الغزالي، الطبعة الثانية، دار الأندلس بيروت لبنان 1983 م ص 101 - 105.

فليعلم الآباء والأمهات والمربون جميعاً أن التربية بالقدوة الصالحة هي الأساس في تكوين اعوجاج الولد، بل هي الأساس في تربيته على الفضائل والمكرّمات والآداب الاجتماعية.

وكان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة التي تجسد دعوتها القولية بتطبيقاتها العملية، فنجح في جذب النفوس وإقناع العقول. مما جعل قلوب المؤمنين الصادقين تلتف حوله مقتدين بخلقه الكامل حتى استحقوا أن يكونوا الأمناء على رسالته الخاتمة بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، وأن يكونوا واسطة لنقل التراث الروحي والخلقي الذي تلقوه في مدرسة النبوة من جيل إلى جيل، لما فيه صلاح البشرية وهداها في دنياها وأخرها⁽¹⁶⁾.

وصدق الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهم اهتدوا﴾⁽¹⁷⁾.

2 - التربية بالعادة :

العادة من الأساليب التربوية المؤثرة في التربية الإسلامية لأنها تتعلق بنفطرة الطفل وتكوينه، ومن هنا كان للتعويد والتلقين والتأديب دور في نشأة الطفل، وترعرعه على التوحيد الخالص، والدين القيم، والإيمان بالله، والاتصاف بمكارم الأخلاق والفضائل النفسية والآداب الشرعية الحنيئة. ولتحقيق ذلك ينبغي توفر عاملين أساسيين هما:⁽¹⁸⁾

أ - عامل التربية الإسلامية الفاضلة :

وقد أكد رسول الله ﷺ على أهمية هذا العامل في التربية في أحاديث كثيرة منها:

قوله ﷺ: «لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع» (رواه الترمذي).

(16) عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس الدين الإسلامي في السنة النبوية، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس ص 205.

(17) سورة الأنعام، الآية: 90.

(18) عبد الله علوان، تربية الأولاد في الإسلام، الجزء الثاني، مرجع سابق ص 665 - 670.

وقوله: «ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن» (رواه الترمذي).
 وقوله: «علموا أولادكم وأهليكم الخير وأدبوه» (رواه عبد الرزاق وسعيد بن منصور).
 وقوله: «أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم وحب آل بيته، وتلاوة القرآن..» (رواه الطبراني).
 ب - عامل البيئة الصالحة:

وتتمثل بالدرجة الأولى في الأسرة، وهي الوعاء الاجتماعي الذي يستقبل الطفل ويتفاعل الطفل معها، ويشعر بالانتماء إليها، وبذلك يكسب الطفل أول عضوية له في جماعة، ويتعلم منها كيف يتعامل مع الآخرين في سعيه لإشباع حاجاته وتحقيق مصالحه من خلال تفاعله مع أعضائها.
 وقد أرسى الإسلام الدعائم السليمة الصحيحة لتكوين الأسرة باعتبارها الوعاء الاجتماعي للطفل، بحيث ينشأ الطفل نشأة سوية متماسكة بالقيم الإسلامية. وفي هذا وردت النصوص القرآنية الكثيرة التي تعكس روح الإسلام وأهدافه في بناء الأسرة على أسس من المودة والرحمة. يقول الله تعالى:
 ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾⁽¹⁹⁾.

كما تقوم الأسرة على مبدأ المساواة: يقول الله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾⁽²⁰⁾، ولكل من الرجل والمرأة وظيفة في الأسرة، كما أن الأسرة تقوم على مبدأ المعاشرة بالمعروف: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾⁽²¹⁾.

إن مسؤولية الأسرة باعتبارها البيئة الأولى التي يتربى فيها الطفل مسؤولية كاملة، فهي التي تتعهد الطفل بالعناية والرعاية وتشبع حاجاته المتعددة التي

(19) سورة الروم، الآية: 21.

(20) سورة البقرة، الآية: 228.

(21) سورة النساء، الآية: 19.

تعتبر الأساس في تنمية القيم لديه .

وتشير السنة النبوية المطهرة إلى ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها»⁽²²⁾. وبذلك اعتبر الإسلام الأسرة مسؤولة عن فطرة الطفل، واعتبر كل انحراف يصيبها مصدره الأول الأبوان، أو من يقوم مقامهما من المربين .

ونظراً لأن الطفل بفطرته له قابلية في التلقين والتعويد، وجب على المربين آباء وأمهات ومعلمين . . أن يركزوا على تلقين الطفل الخير وتعويده إياه منذ نعومة أظفاره، ويتصح باتباع أسلوب التدرج مع الطفل من المحسوس إلى المعقول . . ومن الجزئي إلى الكلي . . ومن البسيط إلى المركب لأن ذلك يساعد الطفل على الإدراك والتعلم بطريقة مقنعة .

وفي هذا الجانب أمر الرسول عليه الصلاة والسلام المربين بأن يلقنوا أولادهم ركن الصلاة وهم في سن السابعة لما روى الحاكم وأبو داود عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «مرو أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع» فهذه هي الناحية النظرية، أما الجانب العملي فهو أن يقوم المربي بتعليم الطفل أحكام الصلاة وعدد ركعاتها، وكيفية طريقة صحيحة مع جماعة حتى يكتسب هذا السلوك ويتعود عليه . وبذلك يكتسب الطفل المسلم الشخصية الإسلامية الصحيحة التي قوامها التكامل والتوازن⁽²³⁾. إن فلسفة التربية الإسلامية تؤكد على الناحية العملية بهدف العمل على تغيير سلوك الفرد وتنميته نحو الأفضل عن طريق العلم والمعرفة التي يكتسبها وعن طريق الممارسة العملية للواجبات والأخلاق الإسلامية، وارتباط ذلك بالخشية

(22) رواه البخاري في صحيحه ج 1، ص 162 المطبعة الثمانية المصرية، 1932 م .

(23) عبد الله علوان، تربية الأولاد في الإسلام، مرجع سابق ص 679 - 680 .

من الله والخشية هي عملية سلوكية، قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾⁽²⁴⁾.

3 - التربية بالموعظة والنصح:

للموعظة والنصيحة أثر كبير في تربية الأبناء وصلاحهم، وتقويمها وهذا الأسلوب يسمو به المجتمع ويتعد عن المنكرات وعن الفحشاء وترسخ القيم الإنسانية مثل الأمر بالمعروف والعدل والصلاح والبر والإحسان وقد جمعت هذه المعاني في قوله تعالى:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾⁽²⁵⁾.

فالوعظ هو النصيح والتذكير بالخير والحق مما يعمل على إيقاظ العواطف والتفكير السليم، فالمجتمع الصالح هو الذي يعمل على حسن تربية أبنائه باتباع أسلوب الموعظة والنصح.

وأسلوب القرآن الكريم متنوع في إلقاء الموعظة والإرشاد والنصيحة، فالموعظة المخلصة والنصيحة المؤثرة إذا وجدا نفساً صافية وقلماً متفتحاً فإنهما أسرع للاستجابة، وأبلغ في التأثير. . وقد وردت في القرآن الكريم إشارات كثيرة على ذلك منها:

في قوله تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾⁽²⁶⁾.

وقوله تعالى: ﴿وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾⁽²⁷⁾.

وقوله تعالى: ﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾⁽²⁸⁾.

فلا شك أن الطفل يتأثر بالموعظة بشكل بالغ ويقبل التذكرة وخصوصاً

(24) سورة فاطر، الآية: 28.

(25) سورة النحل، الآية: 90.

(26) سورة الذاريات، الآية: 55.

(27) سورة عبس، الآية: 2 - 3.

(28) سورة الطلاق، الآية: 2.

عندما تكون صادرة من الأب أو الأم أو المعلم وهم الذين يمثلون القدوة بالنسبة للطفل ويتأثر بهم بالغ التأثير يحاكيهم في القول والعمل .

وكان للرسول عليه الصلاة والسلام توجيهاته في بث النصيحة وإلقاء الموظة والدعوة إلى الله .

- روى مسلم عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «الدين النصيحة» قلنا لمن قال : «الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» .

- روى مسلم عن ابن مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» ، وكان رسول الله ﷺ يعطي لأصحابه النموذج الحي في أسلوب التعليم والتربية والتكوين .

- روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ توضعاً أمام مجمع من الناس ثم قال : «من توضعاً نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين ، لا يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه»⁽²⁹⁾ .

4 - التربية بالممارسة العملية :

يعتبر هذا الأسلوب من أهم الأساليب التي تهتم بها التربية الإسلامية ، فمن البديهي أن تعليم الطفل بالأسلوب العملي التطبيقي ، يكون له أوقع الأثر في النفس وأدعى إلى إثبات العلم واستقراره في قلبه وذاكرته وهذه حقيقة من حقائق التربية وعلم النفس . فالممارسة العملية هي الطريقة المباشرة في التعلم والخبرة . وبهذه الطريقة يكتسب الطفل المعارف والمهارات والخبرات التي يحتاجها فيعمل على ضبطها وتعديلها بناء على تجاربه وممارساته الذاتية .

وقد اتبع الرسول ﷺ أسلوب التربية العملية في التعليم والتدريب ، وربط التوجيه بالأحداث والوقائع الجارية في حياة الناس ، وقد ركز القرآن الكريم والسنة النبوية على التربية العملية التي تتحول فيها الكلمة إلى عمل بناء ، أو

(29) عبد الله علوان ، تربية الأولاد في الإسلام ، الجزء الثاني مرجع سابق 701 - 719 .

خلق فاضل، أو إلى تعديل في السلوك بما يحقق وجود الإنسان كما تصوره الإسلام⁽³⁰⁾ ولنا في قول الرسول الكريم وفعله، المنهج العملي، الذي يحث المسلمين على الممارسة والتطبيق العملي للعبادات من صلاة وزكاة، وصيام وحج، فالعبادات والعقائد والمعاملات والتهذيب عمادها السلوك وما لم تكن سلوكاً وعملاً في حياة المسلم، فلن يتحقق الهدف الروحي من القيام بها⁽³¹⁾.

لذا فإن أداء الإنسان للعبادات والفرائض «كالصلاة» «والصوم» «والزكاة»، «والحج» وغيرها لها «تأثير حي ومتواصل ومرتبطة بحياة المسلم إما ارتباطاً يومياً «كالصلاة» وإما ارتباطاً سنوياً «كالصوم» و «الزكاة» وإما ظرفياً تمليه الضرورة في حماية الوطن، والحفاظ على الدين ونشره «كالجهاد» وإما ارتباطاً مكماً لأركان الإسلام «الحج» بأدائه مرة واحدة في العمر على الأقل⁽³²⁾، وهنا تتجلى التربية الحقيقية التي تحاول أن تجعل من العلم سلوكاً حقيقياً، ومن الأفكار مواقف. إن القيام بالعبادات والفرائض يعد من الوسائل التربوية المستمرة والفعالة في ارتباط الإنسان بربه وطاعته فيما أمر.

«وقد جاء في صحيح البخاري باب بعنوان⁽³³⁾: (من قال أن الإيمان هو العمل) لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾⁽³⁴⁾ وقال عدة من أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فَوَرِثَكُنَّهَا أَهْلُ الْأَيْمَانِ كَمَا كَانَ آبَاؤُهَا﴾⁽³⁵⁾. عن قول لا إله إلا الله، وقال: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ نَصْرٌ مِنْ اللَّهِ حَتَّى تَخْرُجُوا مِنَ الْبَيْتِ﴾⁽³⁶⁾.

(30) عبد الغني عبود، في التربية الإسلامية، الطبعة الأولى، القاهرة دار الفكر العربي 1977 م ص 157.

(31) محمد أحمد جاد صبح، التربية الإسلامية، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة، د. ت ص 124.

(32) عبد الحميد الصيد الزنتاني مرجع سابق ص 215.

(33) علي خليل مصطفى أبو العينين، القيم الإسلامية والتربية، الطبعة الأولى، مكتبة إبراهيم الحلبي، المدينة المنورة، 1988 م ص 143.

(34) سورة الزخرف، الآية: 72.

(35) سورة الحجر، الآية: 92 - 93.

(36) سورة الصافات، الآية: 61.

ومن التعليم بالممارسة: تعلم الصحابة وضوء الرسول ﷺ، وتصحيح الرسول لهم أو تصحيح بعضهم لبعض، وقد نقلت إلينا كتب الحديث جانباً من هذه الأساليب التربوية، منها على سبيل المثال عن عثمان بن عفان: أنه دعا بماء فتوضأ، ثم ضحك فقال لأصحابه ألا تسألوني ما أضحكني؟ فقالوا: ما أضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ كما توضأت ثم ضحك فقال: «ألا تسألوني ما أضحكني؟ فقالوا ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: إن العبد إذا دعا بوضوء فغسل وجهه، حط الله عنه كل خطيئة أصابها بوجهه، فإذا غسل ذراعيه كان كذلك وإذا طهر قدميه كان كذلك» (رواه أحمد بإسناد جيد) وأبو يعلى ورواه البزار بإسناد صحيح وزاد فيه فإذا مسح رأسه كان كذلك» (37).

والرسول عليه الصلاة والسلام يعلم أصحابه بطريقة الممارسة العملية والتجربة الذاتية حتى يصلوا إلى الفهم والإدراك الكامل.

- عن أبي هريرة أن النبي ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ: فرد النبي ﷺ، فقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل». فصلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال «ارجع فصل فإنك لم تصل» ثلاثاً، فقال والذي بعثك بالحق فما أحسن غيره فعلمني، قال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راکعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها» (38).

ومن هنا كانت عنايته ﷺ بالتربية العملية، لأنها أكثر فعالية في تطبيق القيم ورعايتها، كما أنه ﷺ استخدم الوقائع والأحداث الجارية ليعلم الناس القيم وكيفية أداء العبادات وهو في هذا يطبق أسلوب القرآن الكريم. وفي هذا عبرة للمربي، وأن عليه أن يتوضأ، مثلاً أمام طلابه وضوءاً سابغاً وهم ينظرون إليه (وقد طالبهم مسبقاً بالانتباه ليرى أيهم سيكون أشد تقليداً لوضوئه) ثم

(37) الترغيب والترهيب لمبد العظيم المنذري ج 1 ص 77 ط دار إحياء الكتب العربية المصرية.

(38) البخاري، ج 1 ص 200 - 201.

طلب منهم أن يتوضؤوا مثل وضوئه، وفي هذا اقتداء بأسلوب من أساليب التربية الإسلامية كما وجه إليه الرسول عليه الصلاة والسلام⁽³⁹⁾.

5 - أسلوب الترغيب والترهيب:

يعتبر أسلوب الترغيب والترهيب من أهم الأساليب التربوية، لكونه يتمشى مع طبيعة النفس البشرية وما فطر الله عليه الإنسان من الرغبة في اللذة والنعيم والرفاهية وحسن البقاء، والرهبة من الألم والشقاء وسوء المصير.

فالترغيب هو وعد يصحبه تحبيب وإغراء وإثابة مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن عمل سيئ، والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما ينهى الله عنه.

وتجب مراعاة الحكمة والاعتدال في استخدام هذا الأسلوب في تربية الأطفال⁽⁴⁰⁾.

- معيزات الترغيب والترهيب القرآني والنبوي:

يتميز الترغيب والترهيب في التربية الإسلامية بما يلي:

1 - اعتماده على الإقناع والبرهان، وهذا معناه تربوياً أن نبدأ بغرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في نفوس الناشئين ليتسنى لنا أن نرغبهم في الجنة أو نرهبهم من عذاب الله وبذلك يكون الترغيب والترهيب ثمرة عملية سلوكية.

2 - أن يكون مصحوباً بتصوير فني رائع لنعيم الجنة أو لعذاب النار، بأسلوب واضح يفهمه الناس. لذلك يجب على المربي أن يوضح للأطفال السلوك المرغوب والمطلوب منهم اتباعه حتى يتأثروا بالإثابة، والسلوك السيئ المنحرف ويحذروهم من العذاب الناتج عن القيام به.

3 - اعتماده على إثارة الانفعالات وتربية العواطف الربانية وهذه التربية الوجدانية مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية.

(39) عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، مرجع سابق ص 266 - 267.

(40) أبو لبابة حسين، التربية في السنة النبوية، الطبعة الثالثة، دار اللواء الرياض، 1983 م ص 61 - 65.

ومن الآيات القرآنية التي تشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾⁽⁴¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾⁽⁴²⁾.

وقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾⁽⁴³⁾.

وقوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾⁽⁴⁴⁾.

ومن الأمثلة على الترهيب تحذير الله عز وجل فاعل السيئات من عذاب النار.

قال تعالى: ﴿ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾⁽⁴⁵⁾.

وقوله تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾⁽⁴⁶⁾.

وهكذا يصبح الجزاء من جنس العمل وهو مبدأ منطقي لا يستطيع أحد أن يجادل فيه، فالإنسان يتحكم في سلوكه ويعدل فيه بمقدار معرفته بالنتائج الضارة أو النافعة والسارة أو المؤلمة التي تترتب على عمله وسلوكه. ويقرر علماء النفس أن أسلوب الترغيب أفضل من أسلوب الوعيد والترهيب لأن الأسلوب الأول إيجابي وأثره باق لأنه يعتمد على استثارة الرغبة الداخلية للإنسان في حين أن الأسلوب الثاني سلبي وأثره مؤقت لأنه يعتمد على

(41) سورة الرحمن، الآية: 46.

(42) سورة الأعراف، الآية: 55 - 56.

(43) سورة الأنعام، الآية: 160.

(44) سورة الرحمن، الآية: 60.

(45) سورة النمل، الآية: 90.

(46) سورة الزلزلة، الآية: 6، 7، 8.

الخوف فالثواب أقوى وأبقى أثراً من العقاب في عملية التعلم، وأن المدح أقوى أثراً من الذم بوجه عام. ومما توصلت إليه بعض تجارب علم النفس أن أثر الجزاء - ثواباً كان أم عقاباً - يجب أن يعقب السلوك مباشرة وخاصة مع الأطفال⁽⁴⁷⁾.

وقد تضمنت السنة النبوية بعض الأمثلة على أسلوب الترغيب والترهيب فمن جانب الترغيب قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله. إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابا في الله، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه»⁽⁴⁸⁾ وفي جانب الترهيب نرى قول الرسول عليه الصلاة والسلام عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، المنان الذي لا يعطي شيئاً إلا مئة، والمنفق سلعتة بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره»⁽⁴⁹⁾.

ولضمان حسن الاستفادة من التطبيقات التربوية لهذا الأسلوب يجب على المربين الاعتدال والتوازن ومعرفة أثر الترغيب والترهيب في السلوك، والأثر الذي يحدثه في شخصية الإنسان مع مراعاة الفروق الفردية بين الأفراد في توقيع العقاب، فالعقاب الذي يجدي مع المرأة قد لا يجدي مع الرجل، والذي يجدي مع الطفل قد لا يجدي مع الكبير وكذلك الحال بالنسبة للثواب. ولذا فإن من الواجب على المعلم عند استخدام الثواب أن يمكن التلميذ من أن يعرف ما في الاستجابات السلوكية التي يُثاب عليها والاستجابات السلوكية التي يعاقب عليها.

(47) أحمد عزت راجح، أصول علم النفس ص 269 - 270.

(48) البخاري ج 8 ص 203.

(49) رواء مسلم ج 1 ص 36.

6 - التربية بالقصص القرآني والنبوي:

- أهمية القصة من الناحية التربوية: -

للقصة في التربية الإسلامية وظيفة تربوية لا غنى للمربين عنها. فهي حقاً أكبر الوسائل التربوية فعالية في تنمية القيم، وقد استخدمها الرسول ﷺ، وحرص على أن يضمنها الكثير من القيم الإسلامية. وتأتي فعالية القصة في أنها «مزيج من الحوار والأحداث والترتيب الزمني مع وصف للأمكنة والأشخاص والحالات الاجتماعية والطبيعية التي تمر بشخصيات القصة»⁽⁵⁰⁾.

وللقصة القرآنية والنبوية ميزات جعلت لها أثراً نفسية وتربوية بليغة. . على مر الزمن. فالقصة كأسلوب تربوي تعليمي قادرة على تأكيد الاتجاهات المرغوبة وترسيخ القيم، وذلك عن طريق استثارة عواطف الإنسان لنماذج السلوك والقيم التي تقدمها القصة والمواقف التي تصورها. فهي بذلك تثير الحرارة العاطفية والحيوية في النفس. وتدفع الإنسان إلى تغيير سلوكه وتجديد عزمته بحسب مقتضى القصة وتوجيهها وخاتمتها والعبرة منها.

وقد كانت القصة في القرآن وسيلة من وسائل التربية وتنمية القيم الإسلامية يقول الله تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾⁽⁵¹⁾.

ويقول تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾⁽⁵²⁾.

﴿تلك القرى نقصص عليك من أنبائها﴾⁽⁵³⁾.

(50) حسن إبراهيم عبد المال «أصول تربية الطفل في الإسلام» رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية التربية - طنطا 1980 م، ص 592.

(51) سورة يوسف، الآية: 2، 3.

(52) سورة غافر، الآية: 78.

(53) سورة الأعراف، الآية: 101.

﴿فأقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾⁽⁵⁴⁾.

فالقصة القرآنية تتفق مع الطبيعة البشرية للإنسان، لأنها إنما جاءت علاجاً لواقع البشر وتصحيح مواقفه وأخطائه والوصول به إلى الكمال الخلقي والاجتماعي وتربية العواطف الربانية فيه، عن طريق إثارة الانفعالات كالخوف والترقب، وكالرضا والارتياح والحب. ومن أغراض القصص القرآني بيان أن الدين كله من عند الله، وإثبات الوحي والرسالة المحمدية. وأن الله ينصر رسله والذين آمنوا ويرحمهم وينجيهم من المآزق والكروب، من عهد آدم ونوح إلى عهد محمد ﷺ وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة والله الواحد لا إله إلا هو رب العالمين.

والرسول ﷺ استخدم القصة، وترسم طريقة القرآن في توظيف القصة من أجل نشر الوعي الإسلامي وتعميق مبادئ الإسلام وقيمه في نفوس المسلمين، وكان صحابة رسول الله ﷺ يتبعون هذا الأسلوب التربوي. وقد عرض الدكتور علي خليل مصطفى أبو العينين في كتابه القيم الإسلامية والتربية، أغراض القصة وشروطها من الناحية التربوية المؤثرة في التعلم وذلك على النحو الآتي:⁽⁵⁵⁾

1 - الغرض الأول، غرس القيم بكافة أنواعها:

حيث يعمل الأسلوب القصصي على غرس القيم مثل الثبات على العقيدة، والاستمسك بها. كما تتعرض القصة للعبادات وفضلها، والصدقة وفضلها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوبة والأمانة والصدق، وتعالج هذه القيم الإسلامية الصحيحة السلوك الفردي أو السلوك مع الجماعة وما يصون عليها وحدثها وأفعالها من قيم.

2 - الغرض الثاني، تأكيد العقيدة وتعميقها في وجدان الناس:

نظراً لأهمية بناء العقيدة الصحيحة للمسلم فرداً وجماعة، تهتم القصة بعرض قيم العقيدة، كصفات الله تعالى، وتؤكد على أهمية الثقة في الله

(54) سورة الأعراف، الآية: 176.

(55) انظر: علي خليل مصطفى أبو العينين، القيم الإسلامية والتربية، مرجع سابق، ص 148 - 150.

والكفاية به، والاعتماد الدائم عليه والاهتمام به، والإيمان بالملائكة، والرسول والكتب واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر خيره وشره، وحلوه ومره، وأن الإنسان مخلوق يتمتع بحريته وإرادته المختارة وقد أعطي عقلاً يميز به وهو أساس التكليف والمسؤولية.

3 - الغرض الثالث: حياة الرسول والقيم المتضمنة فيها:

الأسلوب النبوي القصصي مهم في التعليم، حيث تعرض القصة حياة الرسول ودلائل النبوة وبراكين الرسالة، وصفات النبي ﷺ، وأسلوبه في معاملة الناس، وكيف كان يعلم أصحابه الدين الإسلامي كل ذلك بأسلوب شيق له تأثير بالغ في النفوس.

وتحقق القصة أهدافها التربوية الجيدة للأطفال والشباب والشيخوخ، فلكل قصصه التي تناسبه، ولضمان استخدام القصة بطريقة فعالة لا بد من أن تتوفر فيها الشروط الآتية:

- 1 - الانسجام مع أهداف الإسلام ومبادئه وقيمه.
 - 2 - مراعاة خصائص النمو بكافة جوانبها النفسية واللغوية والحضارية والعملية.
 - 3 - اختيار الموضوعات المناسبة بحيث تعرض القصة جواهر الموضوع في الاتجاهات والقيم المطلوبة تحقيقها أو تعلمها أو ممارستها.
 - 4 - أن تراعى العناصر الفنية للقصة من حيث البنية العامة، والنسيج القصصي، والأسلوب المناسب، والحبكة والتشويق، ومراعاة الإطارين الزمني والمكاني، وطريقة العرض، وشخصية البطل والشخصيات الثانوية، ثم نوع القيم ومصدرها وطريقة عرضها⁽⁵⁶⁾.
- ومن الناحية التربوية فإن للقصة فائدة تربوية أكثر في مرحلة الطفولة مما يتطلب اهتماماً جيداً بهذا اللون من القصص وتضمينه في المناهج التربوية.

(56) رشدي طعيمة: تحليل المحتوى في العلوم الإنسانية، دار الفكر العربي القاهرة، بدون تاريخ،

تنويه

كنا قد أعددنا للنشر مقالاً تفضل بإرساله إلينا الأستاذ: محمد رضا الحسيني الجلالى بعنوان: نقد الحديث بين الاجتهاد والتقليد نظرة جديدة إلى أحاديث عقيدة المهدي المنتظر رداً على مقال كانت المجلة قد نشرته في عددها العاشر للأستاذ السائح حسين بعنوان تراثنا وموازين النقد، وذلك انطلاقاً من حرية الفكر التي تحرص المجلة على إرساء قواعدها انطلاقاً من الحرص على تراثنا وطرق البحث فيه، ولكننا قبل إرسال المجلة للطباعة بأيام فوجئنا بأن المقال قد نشر في مجلة تراثنا وهي نشرة فصلية تصدرها مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، العدد 3؛ 4؛ 32؛ 33 السنة الثامنة، رجب ذو الحجة.

وعلى هذا الأساس أصبح المقال منشوراً ولا تجوز إعادة نشره وفقاً لقواعد النشر بالمجلة، ونحن في أسرة التحرير ننبه الأستاذ الكريم إلى ضرورة الالتزام بقواعد النشر العلمية التي تحرص عليها مجلتنا إذا قرر التعامل مع المجلة مستقبلاً وإلا فإننا سوف لن نقبل مستقبلاً بحثاً إلا بعد التأكد منها

والسلام.

أسرة التحرير

A rectangular decorative border with intricate floral and vine patterns, featuring leaves and swirling motifs, framing the central text.

النصوص المنترجمة

على هامش ندوة عن الهويات الإسلامية في إفريقيا

الباحثة: أريانا بيكاروليس

(لندن مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية Soas أبريل 1991)

عن مجلة المعهد الإفريقي الإيطالي «أفريكا» 1991

ترجمة: الدكتور محمود علي السائب

في المقر الفخم لمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية في لندن، عقدت في الفترة من 18 إلى 20 إبريل 1991 ندوة عالمية حول موضوع «الهويات الإسلامية في إفريقيا». وهي ندوة شهدت تجمع علماء من جميع أنحاء العالم، وبخاصة من الولايات المتحدة الأميركية، تكفل بها «مركز دراسات ديانات العالم» التابع لجامعة هارفارد. وقد عرض في تلك الندوة على مدى ثلاثة أيام كثيفة العمل أربعة وثلاثون بحثاً تطرقت إلى مختلف المجالات التي تتمثل فيها الهوية الإسلامية في قارة إفريقية من: الصوفية الممثلة في بحث عن القادرية والسنوسية والتيجانية المعاد إصلاحها إلى الحركات الإصلاحية في إفريقيا الغربية، إلى كياسة حجج مؤيدي الصوفية وما يقارعها من كياسة حجج معارضيه في مالي ونيجيريا بخاصة، ومن منطلق إسلام جنوب إفريقيا إلى إسلام إفريقيا الشرقية حتى جديلة التشابك بين الهوية الإسلامية والعرقية في

شمال نيجيريا كما هي الحال في موريتانيا المعاصرة.

إن هذه الندوة بما برز فيها من الكثرة الكاثرة من الإشكالات، وما للمكانة العلمية الرفيعة للمشاركين فيها، وما لأهمية الكثير مما جرى فيها من تواصل علمي أثار مجادلات حية وحماسية، لتؤكد مرة أخرى دور دينامية الديانة الإسلامية وهيمنتها في إفريقيا جنوب الصحراء.

وجهت كثير من الجامعات الأوروبية والأميركية - انطلاقاً من العقد الثامن من هذا القرن اهتمامها نحو دراسة الإسلام الإفريقي⁽¹⁾ في مختلف أنواع مفهوماته من حيث العلوم السياسية وعلوم السلالات البشرية والعلوم التاريخية. ففي باريس، وفي إطار برامج جامعة باريس السابعة أنشأت دار علوم الإنسان Maison des Science de l'homme «برنامج إسلام المناطق الحارة» الذي كانت أولى ثماره إقامة مائدة مستديرة في ديسمبر سنة 1983 حول «الوكالات الدينية الإسلامية في إفريقيا الاستوائية» Les agents religieux islamiques en Afrique Tropical. وما نزال في باريس. ففي كنف مدرسة الدراسات العليا والعلوم الاجتماعية Ecol des Hautes Etudes en Science Sociales أنشئ مركز بحوث ودراسات بلدان إفريقيا الشرقية Centre De Recherchers et Etude sur les Pays de d'Afrique Orientale وما زلنا أيضاً مع إفريقيا الشرقية، التي أنشئ فيها مركز البحوث والدراسات عن بلدان إفريقيا الشرقية، في أكناف معهد بوردو للدراسات السياسية Istitut D'Etudes Politique Orientale (Crepao) الذي يترأس معهد دراسات إفريقيا السوداء الشهير (جامعة دي باو وبلدان آدور) Université de Pau et des Pays de l'Adour.

وفي الوقت ذاته تدشن جامعة شمال غرب إلينوي الأميركية American Northernwestern University في Illinois تحت إشراف الباحثين «إيفور ويلكس وجون هانويك Ivor Wilks & John Hunwck» في إطار برنامج الدراسات

(1) في الأسطر المنتهية بالهامش (34) أنواع تسميات الباحثة تعريفاً لأنواع ممارسة الإسلام لدى مختلف الأعراق والقبائل والمناطق وهي تعريف كل نوع منها بإسلام كذا وإسلام كذا.

الإفريقية وبحوث فروع المعارف عن «الإسلام والمجتمع في إفريقيا Islam and Society in Africa»، كما يقوم فريق كلية الفنون بجامعة «بيرغن Bergen» بالترويج منذ سنة 1984 وتحت إشراف كل من R.S.O Fahey و Knut Vikor بتنشيط سلسلة من البحوث الدقيقة عن أحمد بن إدريس ونظم الصوفية في السودان النيلي. وفي توكيو قرَّع معهد دراسة اللغات والثقافات الآسيوية والإفريقية نفسه منذ سنين طويلة لدراسة المأثورات الشفوية [لقبائل] الفولبي المسلمة في [إقليم] الأدماوا.

وأخيراً، يبدو أن قسم الدراسات الإسلامية بجامعة باثربوت (بألمانيا) يكثف من فاعليته حول بحوث «استيفان راخموث» Stefan Reichmuth عن إسلام أوروبا. إلا أنه انطلاقاً من سنة 1985 أخذ كل ذلك الاهتمام المزدهر بموضوع ظل مجهولاً آماداً طوالاً في التبلور في سلسلة من الندوات ذات الدوي العلمي المجلجل. ففي مارس من سنة 1985 أقيم في أدرار بإقليم توات بالجزائر «مهرجان عبد الكريم المغيلي» بمشاركة كبيرة من باحثين من الجزائر ومن مالي ومن النيجر ومن نيجيريا.

وفي سنة 1985 أيضاً أقيمت في باريس في «دار ثقافات العالم» بفضل جهود جمعية دراسات الآداب الإفريقية، حلقة وضعوا لها عنواناً ذا معنى [جد عميق] نصه: «الإسلام والآداب الإفريقية».

وأنجز في الساحل في سنة 1986 حدثان ذوا مستوى رفيع: الأول حوار ثقافي في باماكو في الفترة من 26 إلى 30 أغسطس حول تجميع وصيانة المخطوطات العربية والأعجمية في إفريقيا، اجتذب مشاركة لم تكن مؤملة، دافعها خصوصية الموضوع المطروح في اللقاء. والحدث الثاني كان افتتاح جامعة «ساي» الإسلامية في احتفال عظيم في أكتوبر من سنة 1986 [في موقع] على بعد يقرب من 60 كيلومتراً إلى الجنوب من نيامي، وكان إنشاؤها بقرار من الندوة الإسلامية بلاهور سنة 1974 بعد سنة من إنشاء جامعة «ساي» الإسلامية. كذلك نظَّم تحت رعاية منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة لقاء مهم حول «المصادر العربية للتاريخ الإفريقي» في سنة 1987 في

الرباط، وفي المقر الفخيم المقام في لندن لمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، يوجه دائماً انتباه عظيم بانتظام دقيق إلى نشاط الإسلام في إفريقيا، ويعود الفضل في ذلك التوجه أيضاً إلى حضور [علماء أصحاب] أسماء لامة مثل T.H. Norris, M.Hiskett & D.B. Cruise O'Brien, Louis Brenner. وقد نظمت تلك المدرسة في سبتمبر 1987 حلقة كان موضوعها التصوف في إفريقيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر «بمشاركة علماء مثل: J.L. Lavers من جامعة باثيرو Bayero وكانو وكذلك N. Levitzion من الجامعة العبرية بالقدس.

كان عام 1987 هو العام الذي رأت فيه النور مجلة غراء بعنوان «الإسلام والمجتمع في الجنوب من الصحراء» أصدرتها «دار علوم الإنسان Maison des Sciences de l'Homme وأدارها Jean -Louis و Triad Constant Hames من David Robinson و Chr Michigan من جامعة ولاية

وفي النهاية حان الألوان للإشارة إلى بعض المجلات التي غالباً ما تعني «بعلم الإسلام»⁽²⁾ الإفريقي التي تستكمل مربع هذا الفوران الدراسي المدهش وبحوثه، وهذه المجلات هي: Islamo-Cristiana, Roma Bulletin on Islam and Cristian Relation in Africa, Birmingham and Journal of Muslim Minority Affairs in Lahore.

ولننتقل الآن إلى استعراض مختصر جداً للأعمال «ندوة الهويات الإسلامية» مركزين اهتمامنا على تكوين نشاط الحركات الإصلاحية وعلى المجادلة بين مؤيدي التصوف والمعارضين له في كل من مالي ومن نيجيريا.

وقد انتشرت التيارات الإصلاحية في الشمال الإفريقي منذ بداية سني العقد السادس من القرن العشرين، وتكاد تلك التيارات تكون رداً على التحدي التقني والثقافي للعالم الغربي، كما كانت حركات مستلهمة من الثقافة العربية.

(2) - مصطلح غربي يريد بكلمة «علم» الإسلام نفس المعنى الذي يفهم من كلمة «علم» في أي من علمي علم الرياضيات أو علم النفس، لذلك يجب أن لا يفهم منها أنها تعني العلوم الإسلامية من فقه وتفسير وحديث وتوحيد وغيرها من علوم الدين (المترجم).

والبلاد العربية نفسها هي التي كانت تغذي وثبة [الإصلاحيين] بأساليب مختلفة بلغت حد مذهب بإعانات مالية سخية، ووضعهم [إعلامياً] نموذجاً يحتذى به⁽³⁾. فجدور ومكونات الإصلاح الإسلامي توّطدت في القرن التاسع عشر في عالم عربي يعاني قمة أزمة هوية سياسية، اجتماعية، متأثراً بعمق سواء بالوهابية أو بسلفية محمد عبده المصرية. أما الوهابية فهي حركة فكرية بلغت من الشهرة حداً يجعلنا نقتصر على ملاحظة قصيرة عنها ليس إلا. فالوهابيون أي حواريو محمد بن عبد الوهاب الواعظ الحنبلي [الذي ظهر في] منتصف القرن الثامن عشر، يهتمون - في حدة - من ينجلون المرابطين⁽⁴⁾ بالهرطقة، ويصفون التصوف نفسه بالعتة، ويعدّونه ابتداءً يستوجب الثلب. كما يثلبون الطرق نفسها بوصفهم إياها أسلوب خداع واستغلال للاعتقادات الشعبية. وعلى الإجمال فمن المستطاع التأكيد بأن المدرسة الفقهية الوهابية تلوم التصوف على صوغه لعقيدة مبتدعة تقتضي الالتزام بشرط لا بد منه، يتمثل في الشروع في ابتداء نظام صوفي [أسموه] «طريقة». ويزعم أتباع محمد بن عبد الوهاب أنفسهم أنهم هم المسلمون الحقيقيون ذوو العقيدة الصحيحة، بل يرفضون حتى تسميتهم وهابيين، مفضلين عليها تسمية «أهل السنة والكتاب» أي (أمة السنة والقرآن).

قضية العلمنة⁽⁵⁾ التي فجرتها الدعوة الوهابية عزّت بالندريج النظام

(3) من أجل معلومات ذات طابع عام يعمل على المقارنة بين الحركات الإصلاحية في إفريقيا الشرقية من بداية سني العقد السادس من هذا القرن لـ J.L. Triaud في «المجتمعات الإفريقية، العالم العربي والثقافة الإسلامية». Cerma - Inalco, Paris, 1979, PP. 195 - 212.

(4) تعود تسمية مرابطين إلى التعبير الفقهي «مرابط» وهو المجاهد الذي يربط في منافذ الخطر على ديار الإسلام ليصد العدو إذا هاجمها على غرة. ولما كان الكثير من المرابطين ينالون الشهادة فالمرابط مظنة البركة لتعريضه لنفسه للاستشهاد. ومع مضي الزمن أطلق سكان شمال إفريقيا تسمية مرابط على كل من ترجى بركته حياً أو ميتاً. وعن تجارهم مسلمو إفريقيا السوداء (الترجم).

(5) العلمية Laique مصطلح عرف في مصر في سنة 1940 وسبق أن دخلها مع غزاتها الفرنسيين سنة 1798 بعد شيوعه بينهم عقب ثورتهم ضد هيمنة الكنيسة، لتضمينه لمعنى اتخاذ الأساليب والطرق غير الدينية.

الاجتماعي الذي يركز عليه نفوذ الهيمنة الروحية [المشاخ] الطرق الصوفية إلى حد القول بأفول نجمهم تقريباً في أكثر من إقليم من أقاليم الأمة الإسلامية . ولم يكن الأمر في إفريقيا إلى الجنوب من الصحراء مماثلاً لما في تلك الأقاليم، بل إنه الجزء من القارة الذي تجلّت «الطريقة» فيه كمضمار لقضية إقناع الجماهير بالتحول إلى الإسلام⁽⁶⁾ حيث فرضت [الطريقة] كموضع جيد للتوسط بين الماضي والحاضر⁽⁷⁾ . وما من شك في أن الإسلام الصوفي تمكن من المواءمة بين خليط من العقائد الدينية الفلسفية المختلفة، التي تبدو غير قابلة للتوافق مع مركب غير متجانس، وبين العقيدة الدينية الماثورة من خلال عمل دؤوب لا يلقي بالأل للتعجب، معطياً الأفضلية للتكيف الطوعي للديانة الإسلامية مع المقتضيات المحلية . ويصدق هذا أيضاً على إفريقيا الشمالية بخاصة، ففيها إسلام «أخوة صوفية» مقولب في قالب إقليمي غني بالعديد من النماذج الثقافية، شديد الحساسية حيال الموقع الديني المحلي في حاجة لبقعة منطقية، مستمرة مع التركيبة المتعارف عليها، وفي النهاية لم يكن من النادر تورط الدعوة إلى الإسلام في الإشكالية العرقية . لذلك تبرز الطريقة في مناطق ساحلية رحيبة ابتداء من جنوب موريتانيا حتى بحيرة تشاد، كما هي الحال في إفريقيا الشرقية، إذ تصير «الطريقة» أشبه بقطب ذي جاذبية اجتماعية دينية استثنائية، مع دور واضح المعالم له أفضلية كاملة في عملية اعتناق الإسلام، تطيع الأنشطة الاجتماعية المعاصرة بطابعها الخاص فيما يقع من مناطق من الأراضي الأفريقية إلى الجنوب من الصحراء .

ونقص هذه السطور الشبيهة بكلام المقدمات إلى تفسير فورة، بل مأسوية مبارزة حاقدة يشنها الإصلاحيون على «الطرق» و«المرابطين» [المعروفين بالأولياء في معظم البلاد الإسلامية خارج بلاد المغرب وما جاورها من البلاد الإفريقية] .

(6) أحجمت عن استعمال كلمة «أسلمة» التي أخذت تشيع في كتابات الكتاب هذه الأيام حتى أعرف رأي جهابذة اللغة فيها .

(7) تلمح الباحثة إلى أن ما في الطرق الصوفية من تراتيل وتماوج بدني على أنغام الموسيقى وقرع الطبول ما يشيع ما ورثه الإفريقي عن أسلافه من حاجة إليها (للمترجم) .

وجهت ندوة المدرسة - في ثبات - اهتمامها نحو تلك المحاجة الشرسة التي لا نهاية لها، وقام Louis Brenner الذي سبق له أن كتب مقالاً قيماً تناول الصوفية المالية، عارضاً صورة عن الحركة الوهابية في مالي المعاصرة عَنَوْنَهُ بـ «بناء الهويات الإسلامية في مالي»⁽⁸⁾.

برزت الوهابية مثل فريق متميز خلال كامل السنين من 1940 إلى 1950 بفضل التبادل المكثف الفكري والتجاري بين [مركز الوهابية] والشرق الأوسط، واحتفظت في الوقت نفسه بميول لطيفة نحو انفتاح عالمي⁽⁹⁾. مع نفور شديد من الهيمنة الامنعمارية ومن الأسلوب التقليدي في تعليم القرآن، ومن الإسلام المحلي المختلط العقائد، المشبع «بالمرا بطة». واقترح الوهابيون تعليم العربية لكونها لغة حية، كما اقترحوا نمطاً تربوياً عصرياً. وفي مالي تأسست مبكراً هوية وهابية مصاحبة للهوية التجارية «جولا» إذ ما دام قد صار تاجراً فذاك يعني - في المفهوم المالي - أنه اتبع الوهابية⁽¹⁰⁾.

فالوهابيون السنيون - كما يسميهم Louis Brenner - ينقسمون إلى فئتين: التجار، وهم ذوو العيش الرخي، والعلماء ذوو العطاء الفكري، الذين تم تكوينهم في الخارج، وهم الفريق الذي قدر عليه رزقه.

تتمثل خصيصة الوهابية في حركة مكثفة للمؤازرة الاجتماعية سواء في المجال الصحي، أم في المجال المدرسي ذي الطابع العصري. ففي باماكو اليوم تشكل الوهابية فريق ضغط قوي، بعد أن كانت في الماضي حركة ذات نفس طويل، بفضل سياستها المعارضة للاستعمار والمناوئة للمسيحية. ولفت

(8) L.Brenner صوفية غرب إفريقيا. التراث الديني والاستقصاء الروحي لـ Cerno Bokar Saalif Taal, London, Hurst, 1984.

(9) L.; Kaba، الوهابية. الإصلاح الإسلامي والسياسات في غرب إفريقيا الفرنسي Evanston Northwestern University Press, 1974; J.L. Triaud، عبد الرحمن الإفريقي (1957/1098) طليعة ورائد الوهابية في مالي (برعاية) O.Carre P.Dumont في «الأصولية الإسلامية» Paris L'Harmattam 1986 PP. 162 -79.

(10) J.L.Amselle, (1945 -1985) Canadian Journal of African Studies. PP. 345 -57 1985, 9, 2.

برينير النظر بخاصة إلى الكيفية التي اتخذتها الهوية المالية الوطنية مجسدة أكثر فأكثر إذعانها للإسلام. وفي هذا النص قرينة على أن الدولة ضمنت لـ«جمعية مالي لوحده وتقدم الإسلام ل' Association Malienne pour l' Unite et le Progres de l' Islam Amupi كفالة بعد أن جعلت - من وجهة نظر دينية - من تلك الجمعية جهازاً موازياً للحزب الواحد المسمى بـ «الاتحاد الديمقراطي لشعب مالي» (Udpm). وبعد ذلك حلل المقرر سلسلة من نماذج ثلب متبادلة، بين الوهابيين والمسلمين التقليديين. وإنها وإن كانت نماذج أساسية في تركيبة الهوية المتبادلة فإنها تخفي مصالح سياسية واقتصادية محددة. فهل سيكون من الممكن القول بصيغة المفرد بهوية وهابية في الشمال الإفريقي؟.

إن الهوية الإسلامية - مثلها مثل أية هوية أخرى - تنشأ ويعاد إنشاؤها باطراد في المنازعات الاجتماعية السياسية؛ لذلك يجب القول بتعددية الهويات المستمرة التشكل بدلاً من التمسك بالقول بهوية واحدة، كما تدلل على ذلك حالة الوهابية المتعددة المظاهر، وتصل أحياناً إلى درجة الاختلاف فيما بينها. وهكذا فإن الوهابية في مالي كانت - وفق ما يراه Cristian Coulon - تعبيراً عن طبقة «بورقوازية»⁽¹¹⁾ صغرى، أما في نظر Jean-Loup Amselle فهي ديانة بورقوازية أقرب إلى الديانة البروتستانتية الفيرية^{(12)(*)}. وفي مواقع أخرى كفانا مثلاً نتجج الوهابية - حسب رأي Marvin Hiskett نحو طبقة الشبان العاطلين عن العمل المهمشة، لكنها تنتشر في مالي الشرقية، كما تشيع بدرجة مدهشة في الساحة الريفية والشعبية في «قاو»⁽¹³⁾.

(11) مشتقة من اللاتينية المتأخرة، أطلقت على طبقة من الفلاحين الذين هجروا الزراعة إلى الصناعة في بداية عصر النهضة، فلما أثروا وصاروا راسمالين ناوؤوا الحكام والنبلاء وزاحوهم. هناك بورقوازية وسطى وأخرى صغرى، فلما تكتلت تجمعات طبقاتها كونت بورقوازية كبرى كانت من النبلاء أنكى.

(*) نسبة إلى الفيلسوف فير.

(12) Ch. Coulon المسلمون والقوة في إفريقيا السوداء. Paris Karthala. 1983, P. 122; J.L. Amselle. تجار السافانا. تاريخ وتنظيم اجتماعي لد «كوروكو» (مالي). Paris, Anthropos, 1977 PP. 239 -60.

(13) Hiskett مجتمع «قريس» وأول المناوئين، أي «الرافضون»: حوار حول الديانة وعلم أصول =

عن نيجيريا، تبرز من خلال البحوث العديدة البالغة سبعة بحوث،

كانو بوصفها مدينة قائدة للإسلام النيجيري، كما تبدو سمعة القيادة التاريخية «لخلافة سوكونتو» [الإسلامية] كأنها دخلت في المحاق.

كانو مدينة ناشطة ثقافياً مثلما هي ناشطة تجارياً، غنية لأنها قائمة في قلب منطقة زراعية مزدهرة إقليمياً، تتمتع منذ العقد السابع من هذا القرن بنفوذ لا مثيل له في الإقليم الشمالي بأجمعه على سعيه، وهو الإقليم الشهير بإقليم الهاوسا.

حمل العالم الجيهد Causes مفهوماً ضمناً لبحثه المعنون «تنامي اعتناق الإسلام في مدينة كانو منذ سنة 1940 باوورو باركيندو Bawuro Barkindo من جامعة كانو، وهو مؤلف الكتاب الشهير «دراسات في تاريخ كانو» رسم منظراً شاملاً، واسعاً، تاريخياً، عاماً، لعملية إقناع الكانواي بالدخول في الإسلام، ابتداء من ساركي رومفا (1470) حتى الحالة المتفجرة الحالية لإسلام شعبي وعقلي متنامي العدوانية، معني بتنظيم وترويج أفكاره عبر الوسائل الإعلامية، ومن خلال حوار وتسييس⁽¹⁴⁾. والباحث، - وهو مؤلف لموضوعات متعددة حول حقيقة كانو -، بعد أن أشار إلى وضع الكانوا لمدينتهم في مرتبة تأتي مباشرة بعد مراتب المدن الإسلامية المقدسة الثلاث مكة والمدينة والقدس، مضى يتدرج في لفت الأنظار إلى دور قيادة الفكر الذي تقوم به كانو منذ القرن السابع عشر (الفترة التي تأكد فيها عقد أوائل حلقات العلم والآداب المعربة، وصارت كانو مركز دراسات دينية وفقهية، ومقصداً للعديد من العلماء المغاربة)، وفي الوقت ذاته أخذت سلطة أميرها - التي لم تكن موضع نقاش - في الضعف المتزايد نتيجة للمؤامرات والكوارث السياسية التي حاقت بالبلاد،

= الدين في غرب إفريقيا الإسلامي مع إشارة خاصة إلى تعبيراته بالهاوسية في African Language Studies XVII, 1980, PP. 99-140; R.W Niesen «طائفة أنصار السنة»: PP. 399-424. Africa 3, I.A.I.60 (مالي) «قاو» [مسلمي] صونقاي 1990

(14) B.Barkindo دراسات في تاريخ كانو. Ibadan, Heinemann 1983.

وللهجرة المكثفة حيث شهد مطلع القرن العشرين تدفق آلاف: من الكالاباري وأوروبو والإقبوا والبيني من الجنوب المسيحي على كانوا، فضلاً عن العديد من السوريين واللبنانيين.

تحول الأمير عبد الله باثيرو إلى «جماعة الفائدة» التي أسسها إبراهيم نياس شيخ تيجانية «كاو لاك» في السينيغال كان دلالة على بداية انتشار سريع للتيجانية المستصلحة في كانوا وفي جميع أنحاء نيجيريا الشمالية⁽¹⁵⁾.

نفتح هنا قوسين متقابلين للتيجانية المعاد إصلاحها، ولقدرتها الهائلة على الانتشار، وهو الموضوع نفسه الذي قدم عنه أحمد رفاعي محمد من جامعة باثيرو بحثاً عنوانه «التأثير النياسي في ساحة ملتقى نهر النيجر بنهر بينو النيجرية» والواقع أن طريقة إبراهيم نياس كان قد انداح انتشارها في جميع أرجاء إفريقيا الغربية وفي غانا والنيجر وغينيا وبوركينا فاسو والتوقو واتشاد والسودان. ولا بد أن انتشارها بين مسلمي اليوروبا والإيبو قد لوحظ، ما دام قد صار من الممكن اليوم التحدث عن طوائف نياسية مماثلة في كل من مدن أجيبي وإيفي وشاقامو وأفيكبو وأينوقو وأونيتشا وأنسوكا.

وجماعة الفائدة التيجانية أي طائفة البركة التيجانية هي حركة ذات طابع قومي لإفريقي بارز، تصبو إلى أن تعرف بأنها هي التي عنها حديث «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»⁽¹⁶⁾ بدليل أن إبراهيم نياس لقب نفسه بـ «غوث الزمان» أي منجد زمنه. وأن قواعد عقيدة النياسية هي فكرة الفائدة أو نقيع البركة الإلهية، والترية أي الاحتفال الظاهري [بالانضمام إلى الطريقة] الذي يجاهر به أمام جميع المؤمنين بها وليس أمام أحد من أفراد النخبة فقط كما يحدث في القادرية.

الطريقة التيجانية الإبراهيمية طريقة نشطة متفتحة على مراحل التمدين

(15) Oxford أبو النصر، التيجانية طائفة صوفية في عالم حديث؛ London University Press 1965؛ J. Padan ديانة وثقافة سياسية في كانوا 1973، Berkley، University of California Press، 1973.

1973.

(16) الألباني، صحيح الجامع الصغير ج 2 ص 599.

والتطور، تخرش عداوة الكانافا التقليديين للتغريب، وبلغ رفضها لتلك المعاداة قمته في السنوات الممتدة من سنة 1900 إلى 1920. وقد ابتدعت في ذلك الوقت نشاطاً صعباً [خلال الصراع بين الطرق الصوفية والإصلاحيين] - تمتد أحياناً بين القادرية الناصرية والتيجانية المستصلحة -، الأولى نظام صوفي كان مهيمناً [على الساحة] منذ أمد طويل، نفور من التعليم ذي الطابع الغربي، وبين التيجانية المستصلحة المحبذة للأصولية الخصبة، ولكلا النمطين التربويين ولمناصرة المدارس الإسلامية التي توفق بين ذينك المنهجين بنجاح.

الشرح العقدي نفسه [المفروق بين الطائفتين] يوجد على مستوى يغلب عليه الطابع السياسي، وذلك على صعيد التركيبة الحركية [فيباعد بين الفريقين] فريق حزب مؤتمر شعب الشمال (N.P.C) الذي يقوده واحد من سلالة عثمان بن فودي: وهو السرداونا أحمد بيلو مؤسس عثمانية سكوتو، وفريق اتحاد العناصر الشمالية التقدمية Northern Elements Progressive Union الراسخ الأقدام في محيط الشباب لا سيما في كانو الذي ينازع سرداونا سكوتو سلطته التقليدية السياسية والدينية على تلك المدينة⁽¹⁷⁾ مطالباً باستقلال إقليمي.

أما معضلة التغريب فستبقى لسنين طويلة منقوضة في ثنايا النسيج العمراني لكانو، إذ يتقابل فيها حيان: حي «بيرني Birni» القديم القائم في قلب المدينة القديمة، والحي الجديد وائيي Waje المأهول في معظمه من قبل مهاجري الجنوب، واستمر تقابلهما حتى أوائل سنوات العقد الثامن من القرن. وكان لكل من الحيين نمط حياة خاص به. فحي بيرني تحكمه الأخلاق الإسلامية الصارمة غير القابلة للنقاش، على حين يسمح وائيي بكل شيء [يحرمه حي بيرني] انطلاقاً من استيراد السلع الغربية المنشأ، إلى غول الخمر [الذي يفرط سكان حي وائيي] في احتشائه، كل ذلك يقوم دليلاً قوياً على [اتخاذ حي وائيي] خطوات تغريبية واضحة⁽¹⁸⁾.

(17) G. Nicolas الإستراتيجية العرقية والبناء الوطني في نيجيريا (برعاية) J. P. Chretien G. Prunier، الأعراق في التاريخ.

(18) يفرض التغريب على اللاهثين وراهه تقبل كل ما هو غربي من حضارة وثقافة وعادات جيدة ورونية. (الترجم).

حوالي سنة 1970 «بدأت ضغوط مقتضيات الحاجة إلى عمليات إصلاح ديني إسلامي» تحدث أثرها، إذ لم تكن التيارات الإسلامية تتمتع بتأييد عظيم بين المفكرين فقط، بل شاع تأييدها بين الكتب الشعبية أيضاً؛ وبدأ ذلك التأييد واضحاً بخاصة في تصرفات المنظمة الإصلاحية المتمثلة في جمعية الطلبة المسلمين - التي لا تكل ولا تمل - والتي أطلقت حركة جهاد مفرطة النشاط من عقالها ضد «المرابطة»، وضد الطرق الصوفية المماثلة للمرابطة في ظلاميتها⁽¹⁹⁾.

وجه كانوا اليوم هو وجه حاضرة كبيرة أصولية تعمُر فيها المساجد الجامعة⁽²⁰⁾ ولنا أن نذكر في أنه عُمِر خلال العشر سنوات الممتدة من 1980 حتى 1990 عدد من المساجد بلغ العشرة، وتزين ليالي رمضان الطويلة بتلاوة لا تتوقف لسور القرآن إلى جانب تدارس تفسيره. إنه تدبّر كثيف متصل بمشاركة قوية جالبة للحمور، وأول ما يلفت النظر هو إقبال جماعات كبيرة من الشباب والنساء على المشاركة في أداء الصلوات الخمس المفروضة يومياً. وفي الوقت نفسه تنتشر المدارس ذوات الطابع الإسلامي انتشار بقعة الزيت، على حين تتوالى منافسات عامة طابعها البارز ديني مؤسسة على ركائز من الدراية بكتاب المسلمين المقدس وهو القرآن.

مدينة كانوا اليوم صارت فريسة مشكلات عمرانية مفعجة لم يسبق لها مثيل، [تتمثل في] بطالة وفساد ذمة متناميين، واقتراف جرائم منظم، وضميم تنزله بها شرذمة ممن يعيشون على هامش حياة المجتمع، ومن غير المتكفيين معه. ويبدو الإسلام - في تقدير باركيندو - ما يزال الحل العملي الوحيد الممكن [للمشكلات كانوا]. ومع ذلك فإن التغريب قد صار أمراً واقعاً، كما أن لفصل بين نمط الحياة في حي بيرني ونمطها في حي وائي قد صار يتمي إلى الماضي. وما يطرحه باركيندو في خاتمة بحثه المفصل الطويل من فاجع

(19) تقصد الباحثة تصوير شدة ما يخلف عقول المؤمنين بالمرابطة وبالطرق الصوفية من ظلام (الترجم).

(20) إضافة إلى ما أنشئ من مساجد أوقات لا تقام فيها صلاة الجمعة. (الترجم).

السؤال ينصب على معرفة ذلك الشيء الذي ستجلبه هذه الخلطة المتشنجة المتفجرة من التغريب عند اتحادها مع إسلامية⁽²¹⁾ ذات جذور أصولية باقية على علاقتها، تزداد مع الزمن تجذراً، [وهي خلطة] مسيئة، وكما ينصب على معرفة أين سيحدث⁽²²⁾.

ويلفت باركيندو الانتباه إلى فترة زمنية عميقة المأساوية من تاريخ الكاناوا، إنها انتفاضة أتباع محمد مروة الملقب بماتتاتسين [وتعني] «ذلك الذي يقضي بالإدانة». تلك الانتفاضة التي كانت وحشية في التعبير عن نفسها، مثلما هي وحشية في قمعها. أدمت مدينة كانو طيلة أيام مريرة متناقلة امتدت اثني عشر يوماً من ديسمبر سنة 1980⁽²³⁾. لقد كانت الانتفاضة حركة معادية للغرباء (Wenophobia) متعارضة في صلبها مع أي شكل من أشكال التقدم والتغريب كانت عدواً «محلّفاً»⁽²⁴⁾ لأي تصالح مع الأوروبيين الميغضين، زرع رعباً حقيقياً في شوارع كانو، أخذاً جانباً من الرأي العام بغتة، وهو رعب ترتب عليه تحريم مطلق لأية صيغة من صيغ تسييس العقيدة الدينية طيلة كامل العقد الأخير من السنين⁽²⁴⁾.

يظن باوورو باركيندو بأن لتمرّد ماتتاتسين عروفاً تاريخية ترجع إلى ثورة مهدي السودان، ويعيد إلى الأذهان حادثاً محدداً في تاريخ نيجيريا الشمالية

(21) اشتقاق أوربي من لفظة إسلام، شاع في كتابات غير المسلمين من الكتاب يريدون به نوعاً من إسلام لم يخالطه الإصلاح الديني الذي تنادي به الوهابية ومن سار سيرها، سبقت الإشارة إليه في هامش سابق. (المترجم).

(22) p. Iubek، الإسلام والمختبر العلمي الحضري في شمال نيجيريا، 1987، London، Cambridge University Press.

(23) G. Nicolas، حروب مقدمة [جهاد] في كانو و I. 4. 1981، pp. 47 - 69؛ R. Hickey.

(24) A. Christelow، اضطرابات يان تاتزين في كانو، بحث في مظهرها العام، «علم للسلام» LXXV، 1985، pp. 69 - 84؛ M. Adeleye Oyo، ثورة ماتتاتسين في نيجيريا، في American Journal of Islam.

A. Christelow، قلاقل يان تاتسين في كانو «بحث في احتمال» في The Muslim World، LXXV، 1985، pp. 297 - 306.

حصل عند بداية التوسع الاستعماري في أرض الهاوسا، وذلك عندما اختار خليفة سكوتوا آتند أن يقاتل الكفار، ويعد أن هزم اختار الهجرة نحو الشرق، وهو اختيار كان له دويه الرمزي الكبير عند قبائل الفولاني والهاوسا، على حين كان لوزير «بخاري» رأي يناقض قرار [خليفته] وإن لم يتخذه إلا بعد صراع وجداني داخلي مرير جاهر به علناً معارضاً مقاومة مسلحة مستذهب سدى، بل قبل التعاون مع المستعمرين باسم «مبدأ المصلحة العامة» الشرعي⁽²⁵⁾.

إذن كان المتنبي⁽²⁶⁾ مائتاتسين على وجه من الوجوه تابعاً مقلداً لفاجعة [حرب خليفة سكوتو] التي مزقت مجتمع الهاوسا. كما أن خطبه ومواعظه كانت في الواقع ملتبهة، كما كانت موجهة ضد كل ما هو أوروبي، وضد الأغنياء الجدد الجناة بإفسادهم للمجتمع، وضد أولئك الذين تعاونوا مع الأوروبيين؛ كانت مواعظه نداء دفع بالزرافات الشعبية إلى جهاد أهوج ضد الغرب⁽²⁷⁾. وكان واضحاً أن حركة مائتاتسين تلقت مساندة شعبية قوية، ولولاها لكانت قد سحقت على الفور. [ولا يعزب عن البال] إن المكونات [النفسية] للثورة كانت غنية جداً بما وعاه القائمون عليها من عقيدتهم الدينية عن مصير الإنسان في الآخرة الذي يتناغم مباشرة مع انتظار المجدد الذي يأتي كل قرن من التاريخ الإسلامي [الهجري] ليظهر العادات وليعيد العقيدة الصحيحة وفق ما تمليه أشراف الساعة (علامات السو)⁽²⁸⁾ كما تبشر بها ترانيم جفر الهاوسا⁽²⁹⁾.

وفي النهاية يمكن أيضاً حمل ثورة مائتاتسين على أنها ردة فعل يائسة على الجدل المعمر حول تطبيق الشريعة. ذلك الجدل الذي شطر نيجيريا

(25) R. A. Adeleye، معضلة الوزير: مكان رسالة الوزير في تاريخ خلافة سكوتو في Journal of the Historical Society of Nigeria «XIV». 1968. 2.

(26) استعملت الباحثة لفظة «الني» فلم استسلفها (لترجم).

(27) P. M. Lubek احتجاج إسلامي على رأسمال شبه التصنيع:

أوضح يان تاتسين، في «Africa «J. A. I., 55, 4, 1985, pp. 369 - 89».

(28) وفق النطق الهاوسي.

(29) M. Giskett تاريخ التنزوات الإسلامية 1975 London S.O.A.S.

شطرين متعارضين خلال سنتي 1866 و1878 في أثناء زمن إعداد دستور الجمهورية الثانية.

وما زال ذلك الجدل يشكل خلال العقد الثامن من هذا القرن سبباً خطيراً لانفصال جنوب البلاد عن شمالها، كما شطر المسلمين أنفسهم شطرين. وفيما يتعلق بهذا الموضوع يرجع إلى تقرير ماثيو حسان كوكه Mathieu hassan kukah من أمانة كاثوليك نيجيريا عن دور المفكرين المسلمين حيال مسألة الشريعة؛ «وهو تخمين لإجابات المفكرين المسلمين النيجيريين عن الجدل حول الشريعة»⁽³⁰⁾.

وللتوصل إلى فهم أفضل لجو التوتر الفكري والديني الحاد في سنة 1981، الذي تعيش فيه خمائر الثورة المهدية، هناك عون يأتي من تقرير ذي أهمية كبيرة هو تقرير عن الحركة الإصلاحية المسماة «يان إزالة» [البدعة] لعثمان كاني عنوانه «الإسلام المصلح»⁽³¹⁾ بوصفه قاعدة لتوكيد الهوية [الإصلاحية] لحركة إزالة [البدعة] في كانو.

تشكل جماعة إزالة [البدعة] وإقامة السنة جانباً من خلطة حركات إصلاحية ذات استلهاً من جديد الحنبلية، التي ظهرت في نيجيريا عند نهاية سني العقد السابع من القرن، وحركة «إزالة» [البدعة] ذات الأتباع العديدين التي ذاعت في مدن: جوس وكادونا وكاتسينا وزاريا، في فترة زمنية لا تزيد عن عشر سنين، وانتشرت في نيجيريا الشمالية، واتداحت بخاصة في كانو والنيجر وفي منطقة «مارادي»، بل صارت حركة الإصلاح الأكثر شعبية في إفريقيا الشمالية.

ويعزى تكوين جماعة «الإزالة» بكل تأكيد إلى تأثير «جماعة التبليغ ذات

(30) J. Kenny الشريعة في نيجيريا. مسح تاريخي في Bulletin on Islam & Christian - Muslim Relation in Africa 4,1, 1986 pp. 1 - 21; C.N. Ubah = الجدول التاريخي لمسألة الشريعة = في نيجيريا في Journal of Institute of Muslim Minority Affairs, XI, 2, 1990, pp. 321 - 333.

(31) هكذا كتبه الباحثة (المترجم).

الأصل الهندي؛ والهدف المشترك والمتقاسم بين الحركتين، هو إعادة المسلمين القليلي الالتزام بأوامر الدين إلى طريق العقيدة الصحيحة، وبخاصة أولئك الذين يتساهلون في أمر الشرك، وهو الإنحراف التقليدي في الإسلام الإفريقي. إذ إن مبدأ «وحدانية الله» [أي عقيدة التوحيد] ثابت يقينا في صرامة مطلقة، والمصدران الوحيدان المسلم بهما هما القرآن والسنة. وما عدا ذلك فإن واجبي الفرد الأساسيين في كلا التنظيمين هما تعليم الأهالي، والمشاركة الفردية النشطة غير القابلة للتأجيل في سياسة بلده.

ومع ذلك فإن جماعة «الإيان إزالة» تفتقر تماماً عن الجماعة التوأم لها [أي جماعة التبليغ] ولذلك التمايز دواعٍ عرقية كيسة محضة.

وانتشار جماعة التبليغ أمر واقع أيضاً وبخاصة بين أفراد قبيلة اليوروبا، وبين المهاجرين من الهنود الباكستانيين. وعدا ذلك فتمتيز حركة الإزالة بأنصارية كثيفة حادة العصبية، وهي حدة كثيراً ما ولدت ظاهرة عدم «التحمل»، كما هي الحال في الكفاح المغالى فيه ضد أمري «المرابطة» والطرق الصوفية الموصومين بالظلامية وفساد اللمة. ويتخذ الكفاح ضد طوائف الطرق الصوفية - عن طيب خاطر القائمين به - شكل معارضة لاحتفالات المهرجانات الدينية التي تُعَدُّ عملاً مخجلاً وتكلفاً بالغ الإسراف، وتكفي إجمالة الفكر فيما يضرب مثلاً على ذلك الاحتفال بما يجري في مهرجان القادرية، الذي يقام على شرف عبد القادر الجيلاني، حيث يصطف آلاف الأشخاص في مواكب جياشة يدقون الطبول وينشدون المدائح القادرية لساعات طويلة جاثبين شوارع كانوا دون توقف. وتسخر جماعة «إزالة» البدع في صراعها مع الطوائف الصوفية وسائل الإعلام المتعاطفة معها، مثل هيئة كادونا للإذاعة الاتحادية المسموعة Federal Radio corporation - Kaduna والسلطة النيجيرية للإذاعة المرئية Nigerian Television Authority في كادونا أيضاً، إضافة إلى صحيفة Gaskia ta fi kwabo الناطقة بالهاوسية، وهي من أوسع الصحف نفوذاً ومن أكثرها إظهاراً لرهافة الحس حيال الإعلام، ولا سيما الإعلام الإصلاحي منه، وإعلام جماعة الإزالة وبخاصة.

كانت الهجمات على طوائف الطرق وعلى التصوف - بصفة عامة - تتجسم في حملة ثلب إعلامية، عمادها كتيبات ومنشورات ضد التيجانيين والتيجانية المستصلحة. وهناك اتهام بالتعصب الطائفي متبادل بين أتباع إبراهيم نياس ودعاة الإصلاح المساندين للقول بفساد أخلاق أتباع الطرق، وكانت الإهانات هي القاسم المشترك في تراجم مغرضة لحياة [المراد التشهير بهم]، وهي تباع في نيجيريا الشمالية بكميات هائلة. وهناك على الأخص عملان يجعلهما أتباع التيجانية. الأول هو: خلاصة عقيدة [ورد]⁽³²⁾ التيجانية المسمى «جواهر المعاني» والأدعية. والثاني يسمى «جواهر الكمال». ويشكل كلاهما الهدف المفضل لدى إعلام جماعة «الإزالة» التي لا تغفر للتيجانيين تقبل وجدان أي منهم فكرة وجود النخبة، ويقينهم الراسخ بأن الجنة هي حتماً دارهم في الآخرة.

ورداً على هجمات الإصلاحيين قامت مشيختا الطريقتين الرئيسيتين التيجانية والقادرية الناصرية بتكوين مؤسستين شبابيتين هما مؤسسة «فتيان الإسلام» ومؤسسة «جند الله».

ولاستكمال هذه الصورة المختصرة لحركة جديد الحنبلية لا يسعنا إلا استدعاء أحد خيول معركة «إزالة» أي الانتباه الموجه إلى تعليم الإناث وترقيتهن، وفي قمة ذلك الانتباه تأتي دورات تجويد القرآن والاهتمام بإعداد وعاظ جوالين «Masu Wa'azi»

والخطبة العامة إضافة إلى كونها الوعاء المفضل لاستراتيجية محكمة لاستحقاق مريدين جلد بالطريقة، فإنها تيسر فرصاً لحياة مصطنعة ليس من

(32) درج الكتاب الغربيون ومن بينهم صاحبة هذا البحث على استعمال مصطلحات يشقونها من مفردات إسلامية من بينها كلمة عقيدة التي كثيراً ما استعملوها في غير ما يستعملها المسلم. فها هي باحثتنا تستعملها في معنى «أخذ العهد والورد» وهو تعبير يفهم منه أصحاب الطرق الصوفية أن آخذهم يعاهد شيخ الطريقة على اتباع تعليماتها والالتزام بتكرير وردها يومياً، وماهيتها تسايح وأدعية متعددة تمتد بالثلاث، فضلاً عن الالتزام - إن كان قادراً - بقراءة حزب الطريقة جماعة في زاوية الطريقة مرة كل أسبوع على الأقل.

النادر أن يخالطها عنف شديد بين أشياء مختلف الفرق. وفي الأعم الأغلب تعثر شعائرها [طقوس]⁽³³⁾ الإصلاحيين على الدوام على موضع لها فيما يسمونه بـ «المجالس»، وهي أماكن غير رسمية لإقامة الشعائر الدينية مفضلة لدى خطباء جماعة «الإزالة». ويرجع الفضل في فضيلة التذكير في أداء كل صلاة بما يقارب الساعة عن الموعد المعتاد لأدائها إلى الإصلاحي المتمسك بأداء فريضة الصلاة في أوائل أوقاتها. (فصلاة الظهر - مثلاً - تقام عند الثالثة عشرة وليس عند الرابعة عشرة)؛ وهي عادة أطول الصلوات وتدوم حوالي العشرين دقيقة على خلاف عشر الدقائق المعتادة، وتؤدي الصلاة في جو استثنائي من الصرامة. ويكفي التفكير في ضرورة اصطفا المصلين في صفوف دقيقة الاستقامة.

وتكمن الأهمية الاجتماعية لجماعة «إزالة البدعة» ولأتباعها الشعبيين فيما تمتعت به الحركة من اعتراف رسمي بها في 1985. أما عالم الريف فلا يبدو - على أي حال - أنه حساس تجاه إعلام جماعة الإزالة، لذلك بقيت تلك الجماعة ظاهرة حضرية.

ويبدو جلياً أن شعبية النظريات الجذرية والعسكرية لجماعة الإزالة هي في جانبها الأعظم ثمرة للحالة الاجتماعية الاقتصادية المفعجة في المدن التجبرية الكبيرة، يبهظها تضخم مالي متسارع التزايد، وهجرة كثيفة من الريف إلى المدن يتعذر إيقافها؛ أي إن النزوح الريفي، والضغط السكاني الذي لا يمكن تحمله لا يتيحان مجالاً للتحدث عن الصعوبات المجهرية. إن البون لشاسع بين [زراية] بلاد الهاوسا التي تمكن معاينتها في الإقليم الشمالي و[حالة] الحكومة المركزية.

ولاستكمال لوحة الحركات الدينية في كانو المدينة رمز الإسلام النيجيري نتوقف لحظة عند حركة ذات تكوين مميز، إنها حركة الدعوة

(33) على الرغم من نفوري من استعمال مصطلحات دينية غير إسلامية فلم أجد في اللغة العربية لفظاً أقرب إلى أداء معنى المصطلح الذي استعملته الباحثة من لفظ شعائر، لذلك لم أستعمل لفظه «طقوس» التي توردها القواميس ترجمة للفظه الباحثة.

الموجهة لتقوم بدور من الدرجة الأولى في هذه السنوات الأخيرة.

فخلال سني العقد السابع ترسخت - كما سبق أن ذكرنا - في قلب جامعة كانو الإسلامية، أي جامعة باثيرو «جمعية الطلبة المسلمين»، وهي جمعية إصلاحية كانت قد نشأت في البيئة اليوروبية منذ سنة 1954 البعيدة. ومع أن الدعوة نشأت نتيجة لانقسام حدث في هيكل جمعية الطلبة المسلمين بكانو متأثرة بالثورة الإيرانية وما لها من دور مكهرب للأصولية الإسلامية، فقد كانت الدعوة مؤسسة إصلاحية قريبة من الأوضاع النظرية للشيخ قومي، لكنها كانت معارضة في الوقت نفسه للتطرف والعنف التقليديين اللذين تنسم بهما جماعة الإزالة.

وإضافة إلى ذلك، كانت الدعوة تظم إليها الشباب الجامعي (من ذوي الأعمار المتراوحة بين 18 و35 سنة) وتمثل الثمرة الأكثر تعقيداً لمنهج التربية الحديثة كما يطبق في المدارس الإسلامية.

وعدا «جمعية الدعوة» فقد انبثق عن أزمة جمعية الطلبة المسلمين حركة أخرى هي حركة الأمة، مكونة من فريق نشأ متعاطفاً مع إيران، وانقسم بدوره إلى فرق ثانوية مختلفة لكل منها مميزات الخاصة بها هي: (الحديثية والثقة الإسلامية النيجيرية واتحاد النساء المسلمات وجمعية نيجيريا).

وأخيراً كان لفريق ثالث أصل يمتد إلى جمعية الطلبة المسلمين، إنه «يان الشيعة» وهو جناح متطرف مجاهر بانتماذه للخميني ومتعاطف مع الأفغانين، وعدو لدود لأي تصالح مع السلطة. لا سيما الطلبة الجامعيون وطلبة المعاهد الثانوية العليا، على حين يتدنّى عدد أتباع هذه الحركة من الأهالي إلى الصفر تقريباً. واليان الشيعة هم المتكلفون الوحيدون لعبادات نشطة سننها كتابات مقدسة تؤدي في ذكرى المجلد الكبير لسنة 1800 الشيخ عثمان بن فودي.

ونستمر للغرض نفسه مع بحث عن نيجيريا الشمالية عنوانه «النساء والانتفاضة الاجتماعية: أزمة في القيادة الإسلامية في شمال نيجيريا» لشخصية ذات شأن كبير قد حضرت ندوة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، إنها (جين بويد) صاحبة كتاب ألفته مؤخراً أسمته «أخت الخليفة: نانا أسماء 1794 -

1865 معلمة وشاعرة وقائدة إسلامية⁽³⁴⁾ قصدت من وراء تأليفه افتتاح شريان بحوث جديد.

عاشت جين بويد في نيجيريا الشمالية تسعاً وعشرين سنة وسكنت كاتسينا وسكوتو حيث عملت ودرست تحت إشراف الوزير الحاج جنيد. وهي كاتبة اكتسبت شهرة كبيرة عند الهاوسا، وبخاصة بعد أن ترجمت من العربية إلى الهاوسية في سنة 1974 العمل الكبير لمحمد بيلو، وهو كتاب «إنفاق الميسور». وقد سبق لجين بويد أن انقطعت طيلة سنوات عديدة للدراسة الإسهامات الفكرية النسائية في أدب الجهاد، وهو إسهام يأبى ألا يؤبه له إذا استحضرننا في أذهاننا أن النساء المتحدرات من عثمان بن فودي كن المترجمات الوحيدات لما كتبه أساتذة حركات الإصلاح الديني⁽³⁵⁾. وكان اهتمامنا موجهاً بخاصة إلى «اليان تارو Yan Taru (الصالونات) الأدبية الأنثوية التي لها دور حاسم في تخليد الأدعية الملهمة⁽³⁶⁾ لعثمان بن فودي مؤسس خلافة سكوتو⁽³⁷⁾ وقد رأينا كيف أن ذكرى جهاد عثمان بن فودي لم تخذل قط منذ سنة 1804، لا في كائو ولا في نيجيريا الشمالية بأجمعها. فالعقيدة الصحيحة المنشودة من خلافة سكوتو بعزم لا يلين، تمثل اليوم عند الكثير من المسلمين المبدأ الذي يحبسون عليه حياتهم. وقد ذكرنا أيضاً الدور الحاسم للمهدية في التاريخ السياسي للسودان. ولنتساءل الآن عن المصادر العقديّة التي انبثقت منها هذه النظرية التي عمرت ما ينيف عن أربعة عشر قرناً،

(34) J. Boyd أخت الخليفة: نانا أسماء 1793 - 1865 معلمة وشاعرة وقائدة إسلامية London Frank Cass 1989.

(35) J. Boyd (برعاية) محمد بيلو «إنفاق الميسور» زاويا Northen Nigerian Publishing Company 1974.

(36) استعملت الباحثة لفظة عبادات فلم أستغفها (لترجم).

(37) J. Boyd D.M. Last دور المرأة كـ «وكيل ديني» في سكوتو in Canadian Journal of African Studies, 19, 2, 1985 pp. 289ss; J. Boyd Pastoralis of West African «Savanna» Manchester (برعاية) A.H.M.Kirk - Greene University press pp. 120 - 42.

المنتظرة - في توتر - انقلاباً ما والتي قلبت إفريقيا جنوب الصحراء بأجمعها [رأساً على عقب] عن طريق حملات جهاد عديدة انطلاقاً - على وجه التقريب - من القرن الثامن عشر .

كانت الرؤية السياسية لعثمان بن فودي مطابقة للفتاوى الفقهية لمحمد بن عبد الكريم المغيلي المفتي الشهير لتلمسان في أواخر القرن الخامس عشر⁽³⁸⁾ . ولكون المفتي المغيلي مناصراً للتطبيق الموسع لمبدأ الجهاد، فلم يعمل على تعضيد القول بضرورة الهجرة من أقاليم الكافرين فقط، بل نشر أيضاً نظرية الجهاد ضد المسلمين المناققين عديمي الأهلية، معلناً بذلك شرعية الثورة ضد الحاكم الباغي الجائر .

[كان المغيلي] خطيباً لا يتعب، ينتقل من مكان إلى آخر لا يستقر أبداً وواعظاً يلهب المشاعر، نشر نظرية أساسية أخرى، إنها نظرية المجدد الذي يظهر في الأرض لمقاتلة العلماء الفاسدة ذمهم، وليعيد العدل، محرماً الخيث ومرغباً في الطيب . هذا الاعتقاد عزز في زمانه عقيدة ظهور المهدي .

طرح شارلوت بلوم وهامفري فيشير - من هيئة التدريس بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية - للنقاش [أما الندوة] التفسير الحاضر لانقلاب الصونقاي الذي قاده الحاج محمد في سنة 1492 من خلال تدخلهما الجدلي حول المغيلي، [وهو تدخل] وضعاً له عنواناً معنى صيغته: «قوله ثلاث برتقالات، أو معضلة الأسكيا؛ الأسكيا المغيلي وتمبوكتو» .

الواقع أن كتابات التاريخ الرسمية مجمعة على أن الانقلاب كان ثورة إسلامية على أسرة حاكمة، وهي وإن كانت أسرة سنية شرعية، فإنها كانت محجمة [عن العمل بتعاليم] الإسلام، وفوق ذلك كانت ترشو العلماء . وعلى النقيض مما قيل في الندوة، نجد فيشير يقدم نظرية مؤداها أن الانقلاب قام لأسباب عرقية، مع ميله في الوقت ذاته نحو وجود حالة من التنافس

(38) A.A. Batran مساهمة في ترجمة حياة الشيخ محمد بن عبد الكريم بن محمد المنجلي التلمساني في

«Journal of African History» XIV, 3, 1973, pp. 381 - 94 .

المستوطن بين فقهاء⁽³⁹⁾ تمبكتو وفقهاء «فاو». وحدث بعد ذلك تنازع حول الدور المركزي الذي كان للمغربي بخاصة في عملية تحويل الصونفاي إلى الإسلام، الذي يعود الفضل فيه إلى إجاباته الشهيرة عن الأسئلة التي طرحها عليه الأسكيا محمد⁽⁴⁰⁾ بل على النقيض من ذلك، فقد مال فيشير إلى الاعتراف بتأثير أعظم في الإسكيا لعالم من علماء ذلك العصر هو السيوطي.

وما زلنا نتحدث عن البحوث المتعلقة بنيجيريا، البلد الذي هيمن هيمنة كبرى شاملة على الندوة طيلة أيام عملها الثلاثة، التي قدمت خلالها دراستان ذواتا أهمية بالغة عن يوربا الأقاليم الغربية، عرض استيفان رايمخوت - من جامعة بايروت - في أولاهما نتائج أبحاثه في «إيلورين» بنيجيريا في حقل التربية وعنوانها: «تطور التعليم الإسلامي في إيلورين» وتفاعله مع «أشكال التعليم الغربي» على حين قام باولو دي موريس فارياس من جامعة برمنغهام بتعريض الصلات بين الهوية الإسلامية والهوية اليوروبية للأضواء تحت عنوان «الهوية الإسلامية والهوية اليوروبية: تبادل علاقات».

إسلام اليوروبا! إسلام مخالف في نوعه لإسلام العقيدة الصحيحة، وللمهدية اللذين تضمنهما إسلام الفولاني والهاوسا، وعلى الرغم من أن اليوروبا كان قد تم إسلامهم منذ أكثر من قرنين، فقد حافظ على ثقافتهم التقليدية قاعدة أساسية للتعبير الديني. والواقع أن الجمعيات الدينية الإسلامية المتوالدة مستوحاة من مؤسسة «إيغب» القديمة التقليدية التي كانت لها مهام إعانة معلنة جسدت في مستويات ومستشفيات ومدارس، يتميز العاملون فيها بأزياء خاصة، ويلتزمون بتركيبة عرقية دقيقة، وما من شك في أنه

(39) فضلت استعمال تعبير فقهاء عن استعمال ما تترجم به القواميس التعبير الذي استعملته الباحثة وهو رجال الدين.

(40) M. Hiskett، تقليد إسلامي للإصلاح الديني وجد في السودان الغربي منذ القرن السادس عشر إلى الثامن عشر. في «نشرة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية»، - XXXV, 3, 1962 pp. 577 - J.O. Hunwick (a cura di) 96؛ الشريعة في صونفاي: إجابات المغربي عن أسئلة الأسكيا الحاج محمد 1985، London oxford University press.

كان من بين أهم الجمعيات التي انتشرت في مطلع القرن العشرين جمعيات: «إيبو للمسلم الودود [Ijebu Muslim Friendly Society]»، وأنصار الدين Ansar ud - Deen، والأديب المسلم، Muslim Literary، ونواثر الدين Nawair ud - Deen. وإسلام اليوروبا المتأثر في أعماقه منذ سنة 1840 بحضارة الـ «أويو»، وصل إلى أقصى مدى اتساعه فيما بين 1892 و1908 ودون الالتفات إلى مذبحة مسلمي الـ «أويو» في فترة سنتي 25 - 1825 كانت الديانة الإسلامية تتمتع بقدر من الهيبة في بلاطات الـ «أوبا Oba» [الملوك] وبالاعتراف بالدور الاجتماعي والديني للجماعة وتتمثل المصادقة على ذلك الاعتراف شعائرياً في مناسبات الأعياد الإسلامية كالعيد الكبير، ومنها تقديم الشخصيات المسلمة التي تحصل على مكانة مرموقة حديثاً إلى الملك رسمياً⁽⁴¹⁾.

تنتشر الأحمدية⁽⁴²⁾ في المحيط اليوربي انتشاراً واسعاً لا سيما في نيجيريا الشمالية، وهي منظمة دينية كان لها دور رئيس في خطوات تحديث اليوروبا قبل أن تحزّم الأحمدية أو أن يحظرها القانون في الأقاليم الشمالية⁽⁴³⁾.

وهناك مظهران لإسلام اليوروبا يبدوان مكتسبين بنوع من الأهمية: أولهما انعدام المنافسة. وثانيهما انعدام وجود ثأر لبعض أتباع الأحمدية من اليوروبا لدى البعض الآخر، كما أنهم لا يعرفون التشيع.

(41) T.G.O. Gbadamosi تنامي الإسلام بين اليوروبا 1908 - 1941 لندن p.J. Lngman, 1978; ryan إيمالي يوروبا، المشاركة في العادات الإسلامية: دراسة في تقوى الفقهاء Missola Scholars Press 1977.

(42) طريقة أنشأها في القرن الماضي هندي يدعى أحد ميرزا أصدر فتوى بتحريم الجهاد ضد الإنكليز، فكانوا له أنشأوا له جامعة في عليكره بالهند. دار جدل حول سلامة الطريقة ومعتقد مؤسسها. وحسم الأزهر الأمر بإصدار فتوى بزيغ الطريقة ومؤسسها، وتحريم التزاوج بين أتباعها وبين المسلمين، وتحريم ذبائحهم. وأصدرت حكومة باكستان قانوناً يحد الأحمدية كافرة بالإسلام. (المترجم).

(43) M.J.A. Kayode، الإسلام في بلاد اليوروبا دين وسياسة أطروحة دكتوراه، L. C'ean - Iep، . Bordeaux, Paris, 1989.

وعدا ذلك فإن إسلام اليوروبا لا يبدو أنه يعرف التعصب الطائفي ولا المحاجة المذهبية العنيفة مثل إسلام الهاوسا. ولم يحدث قط أن وجد أسلوب التناضح [تزاوج] بين عرقي اليوروبا والهاوسا. ومع ذلك فيجب ألا ننسى الدور التاريخي لمدينة «إيلورين» التي درسها استيفان راخموت.

تُعَدُّ المدينة المتمردة «إيلورين» مكة اليوروبا منذ أن تطورت فيها ثورة الـ «أفونيا» على السلطة العليا للـ «الافين» الـ «أويو» سنة 1797 إلى تمرد سياسي سرعان ما تحول إلى حركة جهاد ضد الكفار، يقودها الواعظ ابن صالح المشهور شعبياً باسم «عالم إيلورين». وقد صارت تلك المدينة إمارة مرتبطة رسمياً بسكوتو، كما صارت مهداً للإسلام في الأرض اليوربية.

ومن خلال تقرير هافكينز المعنون «الهوية الإسلامية كما يعبر عنها في الشعر الفولفولدي» نتحول إلى شمال الكاميرون، إلى مروه حيث يرتبط الـ «فيروبي» المسلمون بجيرانهم الـ «كيردي قويزيكا» لزمان طويل. وما بينهم من علاقات معقدة، ليس من النادر أن تكون عدوانية.

تفحص المؤلف - كما سبق أن فعل في كتابه «أناشيد إسلامية عند البيول» قصيدة كلاسية من الشعر (البوصوراو Busuraa'u) الفولفولدي، نظمها سنة 1789 محمد توكور رفيق عثمان بن فودي⁽⁴⁴⁾. ويُعَدُّ هذا النشيد في مروه مثلما هو في بقية الكامرون النص الديني الأكثر أهمية المكتوب باللغة الفولفولدية، فهذه القصيدة الطويلة في مدح الرسول محمد ﷺ يتكرر إنشادها بل وقد يتغنّى بها، وبذلك فالبوصوراو هي أقوى تأكيد على الدور الرئيسي الذي قام به محمد ﷺ في الحياة الدينية للبيول⁽⁴⁵⁾. وهي قصيدة ثرية بالتأملات الروحية تحض الإنسان على أن يحيا في خوف من الله، وفضلاً عن ذلك تقوي الهوية الإسلامية لبيول مروه المدينة الصغيرة التي تكرر فيها بروز توجهات مهدية في ماض قريب.

(44) Haafkens، «أناشيد إسلامية عند البيول» Leiden, Brill, 1983.

(45) عن عقيدة محمد، قورن بـ A. Schimmel وأن عمداً رسوله. تبجيل الرسول في التقوى الإسلامية. University of Carolina press Chapel Hill London 1985.

كان هافكينز أحد خطباء الندوة القلائل الذين عبروا بصراحة ودون ان تخامره أي شكوك، عن هوية إسلامية إفريقية ذات معنى وحيد، تتحقق - في رأيه - في ولاء مشترك للسنة وللرسول ﷺ. ومن أرض الأدماوا المطعمة بخمائر الثورة المهدية نتحول الآن إلى الأرض التي اختارت المهدية، إلى السودان، البلد الذي قطعت فيه المهدية والوطنية معاً مفازة طويلة، توحدتهما علاقة ليس من الممكن تعريفها إلا بأنها مما يرتب التزامات على طرفيها كليهما.

وفي تقرير عن الهيمنة الإسلامية على السودان تتمثل في: صوفية ومهدية وإسلامية Islamic Hegemonies in the Sudan: Sufism mahdism Islamism يصف ريكس أوفاهي Rex O'Fahey من جامعة بيرقين في إجمال من خلال نظرة تاريخية سريعة، الظروف التي مكنت المواعظ المعمرة لمحمد أحمد من الدنقلي [نسبة إلى دنقله] «المهدي المنتظر» من النجاح. فمن العلاقات المعقدة المتضامنة عبر القرون بين العطايا الإلهية والعرقية والإسلام في ممالك السودان النيلي منذ عهد «فوني» ودار فور «حتى تفجر النظم الجديدة التي استوحاها أحمد بن إدريس قبيل نهاية القرن الثامن عشر وهي: الخلوتية والختمية والإسلامية والرشيديّة والصالحية، وجميعها طرق مقتصر كل منها على عرقية صارمة. وكل شيء في القسم الشمالي من البلاد وبخاصة في الجزيرة وكردفان ودارفور يسهم في خلق شعور عميق بهوية إسلامية⁽⁴⁶⁾.

عدا ذلك بيّن «أوفاهي» - عن وعي - أخطاء النظام الاستعماري المصري لمناصرة سياسة مركزية وتصاديق غير معنيين بالخصائص الإقليمية.

وتوقف الخطيب عند مظهر للمهدية السودانية قلما ينتبه إليه، إنه مظهر «نفوذ العربي» لا سيما في المظاهر الثانوية السياسية للمهدية ذات التقاليد الإدريسية، كالقلق المستمر بسبب المصير يوم القيامة، والتيقن من الحياة في أسوأ ما يمكن من العوالم. والفضل في ذلك يعود إلى إمكان مقاسمة المريدين

(46) R.S. O'Fahey J.L. Spaulding، ممالك السودان، لندن Methuen, 1974

الدولة والجمع في دار فور، London, Hurst, 1980.

للمهدي لغة مشتركة وأن نجاحه في جهاده ضد استعمار متعدد سيكون مضموناً⁽⁴⁷⁾.

وأخيراً، يتوقف أوفاهي وقفة قصيرة عند الدينامية المعاصرة التي يراها تعترض طريق مختلف الفرق الإسلامية مثل الإخوان المسلمين المتحدرين من مصر الملتزمين منذ سنة 1946 بالكفاح ضد الشيوعية، ويعتزمون إعمال دستور إسلامي في شمال البلاد. وكذلك فرقة «إخوان الجمهورية» التي أخذت على نفسها عهداً بأن تواجه كامل مجموعة المشكلات الاجتماعية الاقتصادية العارضة.

خلال عمل الندوة أعطي إسلام إفريقيا الشرقية أيضاً الاهتمام الذي يستحقه عن جدارة، إذ وصف فرانسوا كوستانتين في تقريره المعنون «سلسلة قيادات الطوائف الإسلامية في إفريقيا الشرقية» الذي قدمه للندوة. وهو محاضر في جامعة «ال (بار) وبلاد الآدور»، ألف مؤخراً نصاً عنوانه «صوت الإسلام في إفريقيا الشرقية» حقق نجاحاً كبيراً في البيئات الأكاديمية. أما التاريخ الأضعف «ملهاة» للإسلام، وإن لم يكن أقل أهمية - بسبب إثارته الأقل [للمستمع]، فإن [دعاة] الإسلام لم يحققوا طيلة أكثر من قرن من الزمان إنجاز أي عمل يؤدي إلى زيادة أنصاره في دواخل البلاد، مقتصرين على إبقاء الدعوة إلى الإسلام في مجال التجارة الحضرية على طول الشواطئ الشرقية⁽⁴⁸⁾.

(47) البيلوغرافيا حول المهديّة السودانية شديدة السعة؛ ونقتصر هنا على الإشارة فيما يلي إلى بعض الموضوعات ذات التعلّق المميّز بتقرير أوفاهي: N. Grandin السيد عبد الرحمن المهدي - (1958) (1959) وميراث المهديّة في السودان الشرقي في J.P. Digard (برعاية) الطاهي والفلسفة. تبجيل «Maxime Rodinson» 7 باريس R.H. 26 - 217 pp, 1982, Maisonneuve et Larpse Dekmijian M.J. Wiszomirski القائد الموهوب في الإسلام: مهدي السودان، في «الدراسة المقارنة في المجتمع والتاريخ»، G. Prunier 193 - 214 pp, 1972, XIV, 2، حركة الأنصار في السودان منذ نهاية الحكومة المهديّة (1898 - 1987) في «الإسلام والمجتمعات في جنوب الصحراء» L. Kaptejs 61 - 1988, 4, 1985, pp. 390 - 99 & G.r. Warburg I.A.I. 55، «سودان النعيري» المصدر نفسه 13 - 400 pp.

(48) F. Constantin (برعاية) سلسلة مسارات الإسلام في إفريقيا الشرقية، Paris Karthala 1987.

والطرق الصوفية كالقادرية والشاذلية والمرغنية - وإن لم تعرف قدراً واضحاً من الانتشار في إفريقيا الشرقية فإنها كانت على قدر ضئيل من التأسيس، ولا سيما إذا ما قارنا تسييس تلك الطرق الثلاث بالمشاركة المكثفة للنظم الصوفية في الحياة السياسية في وسط غرب إفريقيا (وبخاصة في السنغال وفي نيجيريا). وما من بد من أن تشكل الطريقة نموذج توجه محكماً ومرجعاً للإجراءات الصعبة لهوية واستقلالية الجماهير السواحلية سواء في مواجهة الاستعمار أم في مواجهة التعريب⁽⁴⁹⁾. فمن القادرية العتيقة في باقامويو Bagamoyo في تانزانيا، إلى الأحمدية الحديثة ذات الأصل الباكستاني، الطريقة التي ترفع الرقي الاجتماعي والمؤسسات النسائية فوق كل مستوى، من إسلام «ياو» القديم العهد، الغني بأخلاط عقائد دينية وفلسفية متعددة تبدو غير متوافقة، إلى الاحتفالات الأوغاندية الباذخة بحلول المولد النبوي، الوسيلة الهائلة لتجديد أتباع من بين غير الجانحين، إلى المحاجة العنيفة بين [المريد] القادري و[المريد] الشاذلي في مالاوي، إلى الشيخ الأمين بن المزروعى العالم الإصلاحى في كينيا، حتى الطائفة الشيعية الإثني عشرية أو الزيدية أو الإسماعيلية في زنجبار، وفي مومباسا ودار السلام. فإسلام شرق إفريقيا الذي أهمله الدارسون زمناً طويلاً، يبدو اليوم حقلاً خصباً للبحوث. وأخيراً، لفت المحاضر الأنظار إلى المشاركة النشطة المدهشة للنساء في حياة النظم الصوفية في إفريقيا الشرقية، حتى وإن كان كونستانتين يقوم مشاركتهن كما هي مثبتة من مفهوم قرائن الجدال حولها التي تبقى دائماً موافقة للتقاليد، ولا بد من ذكر الأدوار القيادية التي قامت بها المرأة في حسينية «إيسولو Isiolo» في كينيا مثلاً، أو في «علوية جزيرة» لامو⁽⁵⁰⁾. وما زلنا مع الإسلام السواحلي، حيث

(49) A.H. Nimitz الإسلام والسياسة في شرق إفريقيا. النظام الصوفي في تانزانيا، Minneapolis, University Of Minnesota Press 1980

(50) A. Hjort، قرية السافانا، روابط ريفية وفرص حضرية في شمال كينيا Stockolm Stadiesin Social Anthropology, Stockolm. A.P. Caplan; 1979 اختيار وإجبار في مجتمع سواحلي، London, Oxford Un. Press, 1975; F. Le Guennec - Coppens محرر نساء لامو. تنوع ثقافي ودينية اجتماعية، نشر بحث في الحضارات 1983، Sant - Just La Pendue Chiroi.

توقف يوستو لاكونزا بالدا Justo La Cunza Balda من معهد روما البابوي للدراسات العربية عند: البيان المتعلق بـ «دور السواحيلي في إسلام شرق إفريقيا The role of Swahili in East African Islam حول التطور الأخير لإسلام سواحيلي حقيقي يتميز بالاستعمال التقليدي والديني للغة السواحيلية، وبمولد أدب شعبي إسلامي مزدهر بهذه اللغة⁽⁵¹⁾. وتقويم السواحيلي من وجهة نظر دينية وتربوية هو جزئياً إجابة على التأثير المتنامي لبعثات التبشير المسيحية، وهو من جانب آخر إجابة على مزيج العقائد الفاعل الذي تشمل عليه الأحمدية.

لقد تأكد فعلاً وجود آداب سواحيلية إسلامية شعبية حية، والأب الروحي لتلك الآداب هو الشيخ الفارسي الذي كان من بين أعماله ترجمة عظيمة الصحة للقرآن نشرها سنة 1967 حظيت بتقدير كبير وانتشار واسع⁽⁵²⁾.

الإسلام الذي يعبر عنه طوعية باللغة السواحيلية هو إسلام الدواخل وليس إسلام الساحل، وبالتحديد إسلام الفاشينزي، وهم سواحليو الدواخل. كما أنه هو المحصول التاريخي للتقمصات السياسية والاجتماعية الأكثر حداثة.

عند اختتام الندوة لأعمالها تبلورت تلك الأعمال كما لم يحدث قط من قبل، فجمدت مرونة إسلام يبدو بلباقة في الوقت ذاته «دين دولة» وأداة سلطة، وهو أيضاً دين شعبي، ملاذ وعلم يلجأ إليه من أفراد الطبقة المهمشة، المواطن القلق المحتج. لذلك يجب ألا يتحدث عن إسلام بصيغة المفرد وعن هوية إسلامية أحدية المعنى وحيدة الفحوى، بل يتحدث عنه بصيغة إسلام جمع، وعن تعددية هويات إسلامية مختلفة، ما دامت المفاهيم قد تعددت،

(51) F. Constantin، أمل سواحيلي وهوية سياسية. تعليق على خلود التكوين لواحد غير عرقي في J.P. Chretien G. Prunier (برعاية) عمل مذكور في ص 377 - 55.

(52) J. Lacunza Balda تحقيق في مفاهيم وأفكار وجدت في الكتابات الإسلامية باللغة السواحيلية، أطروحة دكتوراه نوقشت في مدرسة الدراسات الشرقية الإفريقية بلندن 1990، Knappert الشعر السواحيلي الإسلامي 1971، Suahili Islamic Poetry, Leiden Brill.

بل تبدو ازدواجية المشاعر كامنة في كنه الديانة الإسلامية نفسها⁽⁵³⁾. فإذا ما وجد حقيقة تيار أطهار أصولي عدو للدود لأية رغبة في تجديد يناقض التعاليم القرآنية، فسوجود معه في الوقت ذاته تيار آخر مواز له، وسيكون إصلاحياً سلمياً حساساً تجاه سرعة النمو الثقافي والاقتصادي والتقني للغرب. وإذا ما ظهر عدم تحمل تقليدي وتركيز عرقي في مواجهة أوروبا وقيمها الخلقية والدينية، فسيصاحبه بالمثل في الوقت ذاته ويلزمه دوماً نمط تقليدي لما جرى به العمل من مزيج خصيب من مختلف العقائد الخفية في مواجهة ديانات عرقية [وثنية] دليلاً على ازدهار الإسلام الإقليمي في أراضي ما تحت الصحراء الإفريقية الكبرى. وقد ترتب على تلك التعددية نتيجة أولية تولد عنها اتصال معرفي مؤسس على مجموعة ثنائية المتعارضات، كانت قد تحولت في وقت قصير إلى أشكال ثابتة من: «إسلام عربي [يحاذيه] إسلام إفريقي»، و«إسلام فقهاء [يحاذيه] إسلام شعبي» و«إسلام حضري [يحاذيه] إسلام ريفي» و«إسلام مركزي [يحاذيه] إسلام طرفي» و«إسلام سنّي [يحاذيه] إسلام شيعي» و«إسلام تعاوني [يحاذيه] إسلام قومي»⁽⁵⁴⁾. وفضلاً عن القيمة العملية لهذا الإنشطار فإن الذي يميّز الإسلام الإفريقي خلال سني العقد الثامن من القرن العشرين يبدو في ضوء البحوث المقدمة للندوة قدرة لا تصدق على تقمص ذاته وذات الإسلام الذي يحاذيه [لما بينهما من فروق]⁽⁵⁵⁾ [تبدوا] في لعبة جدلية لبقة تكون ضماناً للتوالد الذاتي الثابت غير القابل للتخيير، أو تكون متبلة⁽⁵⁶⁾،

(53) J.P. Charnay (برعاية) ازدواجية المشاعر في الثقافة العربية باريس 1967 Anthropol.

(54) N. Levizion H.J. Fisher (برعاية)، الإسلام الريفي والحضري في غرب إفريقيا، لندن Lynne Rienner Boulder, 1986.

(55) هذه الفروق التي حاولت الباحثة إبرازها في لباقة، هي فروق لا تمس جوهر عقيدة توحيد الباري جل وعلا، ولا تشكك في رسالة رسول الإسلام ﷺ. ولا أنكر وقد درستها يامعاً في كثير من البلاد الإفريقية أن عليها الكثير من المآخذ، وإن لم ترق بها إلى درجة تكفير من مارسها، وهي مأخذ مردها الجهل بالإسلام الصحيح. وترجع أيضاً إلى عهد قريب إلى قصور خطباء الجمعة والوعاظ.

(56) أرادت الباحثة بتعبير «متبلة» أنها مضمخة بمقائد أخرى بعضها حق وبعضها باطل، والآخر هو بقايا معتقدات وثنية موروثه عن الأسلاف عالقة بوجدان الإفريقي.

وفي الوقت نفسه تكون النظرية الأساسية شرطاً لا بد منه للمضي قدماً نحو قلب كل من النظام [الإلحادي على الله] معتنقه والنظام الديني الوثني العرقي[السائدين .

تعليق لا بد منه :

على الرغم من تجربة سابقة لي مع شدة تعقد أسلوب الباحثة الأستاذة دي كاروليس، واللغة العلمية الراقية ذات المفردات المهجورة التي تستخدمها عندما ترجمت لها دراسة دقيقة عن (العبد الموكل في التصرف المطلق في ما تحت يده من أموال سيده المسلم)، فقد عازمت على ترجمة هذه الدراسة القيمة والتعليق عليها مع علمي بما سيواجهني من صعوبة النفاذ إلى ما تريد أن تقوله الباحثة. فالصعوبة ليست في فهم ما تكتبه من ألفاظ، بل فيما يكمن في ألفاظها من معانٍ حساسة تدور حولها دون أن تفصح عنها، ويحق لها العذر فيما فعلت، فهي تكتب لبني جلدتها المسيحيين، وكثرتهم الكاثرة لا تعرف عن الإسلام شيئاً، كما أن مدلولات وإيحاءات الكلمات والمصطلحات الدينية الإسلامية فيها من الدقة والإحكام ما لا يوجد في غيرها، مما يضطر الباحثة إلى استخدام جملة كاملة لتقريب المعنى الإسلامي لمن لم يعتد دقة اللغة العربية وثرائها اللفظي، وكثيراً ما حالت سطحية ثقافتها الإسلامية المكتسبة وتربيتها الدينية غير الإسلامية دون الانتباه إلى ما يجوز استعماله إسلامياً من المفردات وما لا يجوز، الأمر الذي جعل الباحثة تتشبث بالفكرة التي سيطرت على مداركها في كتاباتها، ومحصلتها هي أن اختلاف هويات مسلمي إفريقيا يعود، على غير وعي، إلى امتزاج عباداتهم لإسلامهم ببعض الشعائر الوثنية مع تلميح خفي إلى عدم اعتراض هدايتهم إلى الإسلام إلى ذلك المزج، رغبة منهم في دخول أكبر عدد من الناس في الإسلام. ولم يخطر ببالها قط أن ما تراه هي شعائر وثنية لا يراها المسلم الإفريقي إلا عادات اجتماعية ورث محبتها والاستمتاع بها عن أسلافه، ولم يعتقد أنها قد ترقى إلى مرتبة العبادة، ومن ثم فلا ضرر منها لأن منطقة الإيمان في وجدان المسلم تبقى دائماً عامرة بإيمان صحيح لا يخامره شك حتى ولو قصر في التزاماته الإسلامية. فكثيراً ما

يتوب مدمن مغيبات العقل وبخاصة الخمر توبة نصوحا بعد عب من بحور
اللذة المحرمة دام طويلاً.

ومع إقرارنا بفضل الطرق الصوفية في نشر الإسلام بين وثني إفريقيا فإن
علم مؤسس ومشائخ تلك الطرق دفن مع من مات منهم، وخَلَفَ بعد بعضهم
خلف أجاز الله حركة نشر الإسلام من شرور جهلهم وتكاليفهم على الملذات،
حتى إن لبعضهم مائة محظية يضاجعون على أنهن ملك يمين، مع أنه لا يتوافر
في أي منهن شرط واحد من الشروط المجيزة للاسترقاق، ومنهن الملذات
والوثنيات. وكما أن أكبر همه جمع المال بطيب الوسيلة وخبيثها من قليل
حلاله وكثير حرامه، فيسيء إلى الإسلام والمسلمين وإلى الطرق الصوفية وإلى
التصوف، ويعطي الفرص لمن يتحينون انكشاف مقاتل المسلم ليجهزوا عليه،
متخذين من جهل بعض مشائخ الطرق أو من موت ضمايرهم سهاماً يصوبونها
نحونا لعدم خشيتهم من أي قصاص.

وكثيرة هي الكتابات عن انتشار الإسلام في القارات الخمس وفي إفريقيا
بخاصة التي يكتبها العلماء الغربيون ممن يحترمون الحقيقة العلمية، وأكثر منها
كتابات العلماء التجاريين، الذين يكتبون عن غرائب الأمور التي تلذ قراءتها
للقارئ السطحي. إلا أن هناك فئة ثالثة من الكتاب يضمنون كتبهم عن
المسلمين وعن الطرق الصوفية، وعن التصوف الكثير من الحقائق العلمية
التاريخية والسياسية، ولكن بعضهم ينساق وراء الاستشارة، ومن هؤلاء باحثة
كتبت بحثاً جيداً عن المريدي لم يخل من هنات لن تغيب عن فطنة القارئ. وسنذيل بها هذه الدراسة عن الهويات الإسلامية في إفريقيا التي نرى أن يحيط
بها الشباب المسلم الغيور على دينه وقومه.

جوزيف شاخ (١)

1902 - 1969

بقلم: برنارد لويس

ترجمة: الصديق بشير نصر

ولد جوزيف شاخ في راتيبور في الخامس عشر من مارس سنة 1902 م، وكانت تقع في صعيد سيلسيا، وهي الآن من أعمال بولندا. وفي تلك المدينة التحق بالثانوية الألمانية وفيها اكتسب اهتمامه الأول باللغات الشرقية.

وفي الفترة المخصصة للدراسات الدينية جاء الحاخامات اليهود لتعليم اللغة العبرية للأولاد اليهود، وعلى الرغم من أن شاخ الصغير لم يكن منهم فقد تهيأ لاستكمال واجباته الأخرى فقبل في هذه المجموعة حين تلقى دروسه الأولى في العبرية.

ودرس بعد ذلك اللغات القديمة ثم علوم اللغات الشرقية في جامعتي برسلو ولايبزج وفي عام 1925 تحصل على أول وظيفة له بجامعة فرايبورج.

(١) نقلاً من: (عجلة معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن/ المجلد 33 سنة 1970).

وبعد سنتين عيّن أستاذاً مساعداً، وفي سنة 1929 عين أستاذاً للغات الشرقية وعمره سبعة وعشرون عاماً ولم يكن ذلك معهوداً قبله.

وفي سنة 1932 دعي لشغل كرسي اللغات الشرقية بجامعة كونجسبرج. ولكن عمله الفعلي بهذا المنصب لم يدم طويلاً بسبب التغيرات السياسية في ألمانيا.

وعلى الرغم من أنه لم يتعرض للمضايقات العرقية والسياسات عزم على مغادرة ألمانيا عندما استولى النازيون على السلطة.

وفيما بين عام 1926 وعام 1933 كان قد تجول كثيراً في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وفي عام 1930 عُيّل أستاذاً زائراً فيما عرف وقتئذ بالجامعة المصرية بالقاهرة. وفي سنة 1934 أخذ إجازة من جامعة كونجسبرج ورجع إلى جامعة القاهرة أستاذاً حتى سنة 1939.

وبعد نشوب الحرب انتقل إلى إنجلترا حيث عمل مع هيئة الإذاعة البريطانية BBC ووزارة الإعلام الإنجليزية طوال سني الحرب. وفي سنة 1947 أصبح بشكل طبيعي أحد الرعايا الإنجليز.

وفي عام 1946 عُيّن في وظيفة تعليمية بجامعة أوكسفورد بدرجة محاضر، وفي سنة 1948 عين مساعد أستاذ في الدراسات الإسلامية.

وفي أثناء وجوده بأوكسفورد قام بعدد من الرحلات إلى الخارج، منها جولة علمية إلى الولايات المتحدة سنة 1948، ومهمة دراسية إلى نيجيريا سنة 1950، كما عمل أستاذاً زائراً بجامعة الجزائر سنة 1952، وقام بمهمة دراسية في الشرق الأدنى وشرق أفريقيا سنة 1953.

وفي سنة 1954 غادر إنجلترا إلى هولندا ليشغل كرسي اللغة العربية بجامعة لايدن التي عرفت لزمن طويل بشهرتها في هذا المجال بين الجامعات. ومع ذلك كانت إقامته في هولندا قصيرة. وفي العام الدراسي 1957 - 1958 ذهب أستاذاً زائراً إلى جامعة كولومبيا.

وفي سنة 1959 تحوّل هناك إلى أستاذ منتظم للغة العربية والدراسات

الإسلامية وظلّ هناك حتى تقاعد سنة 1969.

وقد قام برحلات علمية أخرى في شرق أفريقيا في سنة 1963 وفي سنة 1964. وكان عضواً بكونجهايم في سنة 1967. ومات في إنجلوود بنيوجرسي في أول أغسطس سنة 1969.

وكان الفقه الإسلامي هو المحقل الدراسي الأول الذي انصرف إليه شاخت بكل همته، وبقي واحداً من أهم اهتماماته الأساسية حتى قضى نحبه.

وعلى خلاف أكثر العلماء المشتغلين في هذا المجال، فإن نظرية شاخت لم تكن لاهوتية ولم تكن تشريعية، ولكنها كانت إلى حد ما تاريخية واجتماعية. أيّ إنه كان مهتماً بشرعية الإسلام المقدسة لا لكونها منهجاً مثالياً أو نظرياً، ولكن لكونها تولدت في البلاد الإسلامية وطبقت فيها.

وكان أول موضوع طرّقه موضوع الحيل الشرعية المقبولة والمردودة التي تجاز بها المعاملات التي لا تطولها الشريعة أو حتى التي تتناقض معها فتكون مقبولة باسم الشريعة من خلال تطبيق الوسائل الشرعية من أجل أغراض دينية زائدة.

وفي سنة 1923 وسنة 1924 نشر شاخت أشهر كتابين يتعلّقان بموضوع الحيل.

وفي سنة 1926 نشر في مجلة Der Islam (العدد رقم 15) مقالة بعنوان: Die arabische hijjal literatur.

وقد تطور هذا الموضوع بعد ذلك في كتاباته اللاحقة وأصبح شائعاً في جميع الأعمال الجادة التي كتبت بعده في تاريخ الفقه الإسلامي.

ولمّا كانت الحيل قد استغلّت بشكل واسع في الأمور التجارية، فقد ساهمت آراء شاخت مساهمة فعالة في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للإسلام.

وبعد إقامته الأولى في مصر قادته اهتماماته بالفقه الإسلامي إلى دراسة مشكلة مهمة غير معروفة بالفعل في الدراسة الغربية، وهي تطبيق الشريعة في

الدُّول الإسلامية الحديثة . وفي مقالته الرائدة (الشريعة والقانون في مصر الحديثة) المنشورة بمجلة Der Islam (العدد 20 سنة 1932) حلل بالتفصيل ظاهرة تحديث الشريعة الإسلامية في مقابل الأسس المنهجية والتاريخية معاً، وقد ظهرت لها ترجمة مختصرة بالفرنسية سنة 1949 لا تزال محل نقاش حتى اليوم . وبذلك استطاعت هذه الدراسات أن تبني أساس جميع الدراسات اللاحقة التي تعاملت مع هذا الموضوع المهم .

ومن الموضوعات التي كتبت فيها كتابه رائدة، موضوع التأثير الأجنبي في الفقه الإسلامي . وقد لَمَحَ إلى شيء من هذا في مقالاته الأولى، ثم بَحَثَهُ بالتفصيل في دراسته المنشورة بمجلة الفقه المقارن (3/32/1950) تحت عنوان: (العناصر الأجنبية في الفقه الإسلامي القديم) وقد أعيد نشرها في أعمال (الأكاديمية الدولية للفقه المقارن - روما 4/3/1955) مع بعض الإضافات عليها، ثم ضمها إلى بحثه (الفقه البيزنطي والفقه الإسلامي) المنشور في Convegno Volta (رقم 12، 1957، روما، 1972).

وقد ابتدأت الدراسات السوسيولوجية للفقه الإسلامي باصطلاحات أكثر عموماً ونظريةً ببحثه المنشور في مجلة Der Islam، العدد 22 سنة 1935 تحت عنوان: 'Zur Soziologischen Betrachtung des islamischen Rechts' ثم تابع في مقالات أخرى .

وفي تلك الغضون واصل شاخت دراساته حول أصول الفقه الإسلامي إبان القرون الأولى . وقد أظهر عددٌ من المقالات التي كتبها الاتجاه الذي سلكه في بحوثه، لا سيما مقالته عن: (إعادة تقويم الأحاديث النبوية) المنشورة في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة 1949، ثم تَوَجَّهَت أعماله تلك بنشر كتابه (أصول الفقه المحمّدي) بأكسفورد سنة 1950، وقد صدرت منه طبعات كثيرة متلاحقة كانت آخرها الطبعة الرابعة الصادرة في سنة 1967.

وفي هذا العمل يواصل شاخت عَمَلَ سلفيه العظيمين جولد تسيهر وسنوك هرخرונה فيضع جميع الآثار الحديثية والفقهية المبكرة في ميزان نقدي دقيق .

ويقع كتاب شاخت هذا من ناحية أساسية في بابين⁽¹⁾. الأول تقديم تفسير جديد لبحوث أجنسس جولدتسيهر. وقد أظهرت هذه البحوث الرائعة والعميقة عن الحديث، منذ الوهلة الأولى، أن هذه الأحاديث التي تدور حول النبي وأصحابه لم تعكس ظروف وملابسات الزمان الذي نسبت إليه، ولكن عكست ظروف الفترة الزمنية التي اخترع فيها، وأنها كانت تعبيراً عن الآراء السائدة في الدوائر المختلفة وتأييداً لها بعد وفاة النبي في القرنين الأولين ومتصف القرن الثالث.

وعلى الرغم من التعلق لعبقرية جولدتسيهر فقد أهملت في الغالب نتائج بحثه، وأتبع في دراسة الفقه والتاريخ الإسلامي المبكرين سبيلاً غير ذلك، كما لو أن وجهة النظر القديمة التي هدمها جولدتسيهر لا تزال قائمة. وقد جاء في عبارة لشاخت: «إنَّ العمل التخميني الاعتباري الذي يعرف أحياناً بالحدس التاريخي أخذ يحل محلَّ النقد التاريخي الصحيح». وبذلك أصبحت أصالة وصحة المقدار الهائل من المادة الحديثية مقبولة ضمناً وصراحة.

وباستثناء عمل مهجور قام به مرجوليوث، ونشره سنة 1914، فإنَّ شاخت يُعدُّ أوَّل من استأنف الدراسة النقدية للحديث، وعلى وجه الخصوص الإسناد. وتابعه في أكثر صوره اضطراباً، وفُسر مضامين هذا النقد بشواهد فقهية وكلامية وكذلك بشواهد تاريخية، وكثير منها كما بيَّن فقهية في أصلها وغرضها.

ولمواصله عمل جولدتسيهر شرع شاخت في استكمال ما حاوله جولدتسيهر بصعوبة لتشييد بنية جديدة بدلاً من تلك التي انهدمت.

ويفصح شاخت في دراساته للتراث الفقهي القديم، ولا سيما مناظرات الشافعي لأسلافه نوعين من الأخبار الزائفة، التي تشوُّه التاريخ المبكر للفقه الإسلامي، ثم طفق يبيِّن كيف فهم أخيراً التطور التاريخي الحقيقي للفقه الإسلامي في الجيل الذي عُرف بالتابعين، وكيف أتبع علماء الدين المتقدمون

(1) ويقع فعلياً في أربعة أبواب [الترجم].

وأتباعهم عند نهاية القرن الأولى للعصر الإسلامي أسلوباً أضفوا به شكلاً دينياً وأخلاقياً على مجموعة من السوابق الفقهية المتباينة، والقواعد والتطبيقات المختلفة، ثم تحويلها إلى مجموعة الفقه الإسلامي.

وقد هزت اكتشافاته معرفتنا بالتاريخ المبكر للفقه الإسلامي، والعقيدة الإسلامية، والأدب الإسلامي وكذلك المجتمع الإسلامي أيضاً.

وقد قام بإجراء دراسة مختصرة ولكنها شاملة تضمنت نتائج بحوثه في الفقه الإسلامي عند المتقدمين والمتأخرين على السواء، كانت في الأصل محاضرات ألقاها بجامعة الجزائر، وقد نشرت لها في باريس سنة 1953 ترجمة بالفرنسية تحت عنوان: (مدخل إلى تاريخ الفقه الإسلامي).

ثم ظهرت في طبعة إنجليزية مزيّدة ومنقّحة سنة 1964 باكسفورد تحت عنوان: (مدخل إلى الفقه الإسلامي)، وصدرت الطبعة الثانية منها سنة 1966.

وبصرف النظر عن الفقه الإسلامي، فإن لشاغت اهتمامات متعدّدة شملت جميع مجالات العلوم الإسلامية. ففضلاً عن دراسة المخطوطات العربية ونشرها فقد أعدّ مقالات تتعلق بموضوعات متباينة تبين الإسلام في شرق أفريقيا وغربها، ومنها مقالاته عن (تاريخ المنبر) و(أباضية وادي ميزاب) بشمال أفريقيا، بالإضافة إلى موضوعات عديدة أخرى في مجال العقيدة الإسلامية.

وكان آخر أعماله بالاشتراك مع ماكس مايرهوف طبع كتاب ابن النفيس مع مقدمة له وترجمة وتعليقات عليه.

كما استصدر له قريباً طبعة جديدة من كتاب (تراث الإسلام) الذي سبق نشره.

وفضلاً عن كونه أستاذاً وباحثاً كانت له مساهمة مهمة في التطور العام لموضوعه.

وقد شارك في تأسيس وتحرير مجلة (الدراسات الإسلامية) مع الأستاذ روبرت برو نشفيج بباريس، كما كان أيضاً أحد محرري دائرة المعارف

الإسلامية في طبعتها الجديدة التي بدأ صدورها في سنة 1954. وقد كسبت هذه الموسوعة في تطورها المطرد والمتناسق خلال السنوات الثلاث عشرة الأخيرة شيئاً كثيراً بفعل رئاسته وأستاذيته وإخلاصه وتفانيه.

وتحصل على درجة الدكتوراه الشرفية من جامعة الجزائر سن 1953، وانتخب عضواً بمجمع اللغة العربية بدمشق سنة 1954، وعضواً بالأكاديمية الهولندية الملكية سنة 1956.

وفي سنة 1969 منح جائزة جوجيو ليقي فيدا في الدراسات الإسلامية من جامعة كاليفورنيا. ومن مناقب هذا الرجل بزه بشيوخه، إذ اعتنى عناية بالغة بنشر مخطوط ناقص لأستاذه ج. برجشتراس بعنوان: Grundzüge des islamischen Rechtes، وطبع في لايبزج سنة 1935.

وقام بالاشتراك مع ج. هـ. بوسكويت بانتخاب أعمال سنوك هرخرونه وترجمتها وطبعها سنة 1957.

لقد كان ذا معرفة ممتازة، وولع بالدقائق الفيلولوجية، وفي الوقت نفسه اتسم عمله بالعمق والأصالة والخيال المنضبط، الذي يستطيع وحده رفع المعرفة من مستوى الاهتمام بالآثار الماضية إلى مستوى الإنجاز الخلاق المبدع.

وعلى الرغم من كونه فيلولوجياً من الطراز الكلاسيكي إلا أنه كان على صلة بالاتجاهات الحديثة للفكر الاجتماعي.

فدراساته في سوسولوجيا الفقه الإسلامي مثلاً تنبئ بصلة وثيقة بالمفاهيم والطرق الاجتماعية الحديثة، ويجب أن تصنف في عداد أشهر أعمالنا الحاضرة في مجال تطبيق مناهج علم الاجتماع على الإسلام.

وهو في حياته الخاصة، كما في حياته العلمية، كامل الاستقامة عنيد متصلّب.

ولأسباب أخلاقية غادر ألمانيا عندما تسلّم النازيون السلطة فيها، ولم يعد أبداً إلى مسقط رأسه، ولم يكتب - عندئذ - بلغته الأم. وقد طبق على

نفسه معايير صارمة وتوقعها كذلك من غيره .

وعلى الرّغم من أن للشر ضرورياً كثيرة من الغواية والشهوات تطرح نفسها أمام العالم، لا سيما تلك التي توحى له بمعرفة علم لا حظ له فيه، أو تعظم له من الأعمال ما يعلم أنه من توافه الأمور أو تدمه له، فإن شاخت لم يقع في حبالها، بل كان متواضعاً وحاسماً في الموضوعات العلمية معاً، صادقاً نزيهاً في كل الأمور، عاجزاً عن ممارسة أدنى مراتب الرياء الاجتماعي، التي تتطلبها الحياة الشخصية والأكاديمية. وربما كان هذا هو السبب في صعوبة التعامل معه، فقد يسيء المرء مرةً أو يستاء من حيث لا يقصد، وبرهان ذلك أولئك المحظوظون الذين تمتعوا بصداقته واحترامه. وهو إذا صادق مرةً كانت صداقته كاملة ودائمة.

ويكمن وراء هذا الوجه المتجهم إنسان في غاية اللطف والرقّة والدمائة والإخلاص. لقد ترك بموته فراغاً في الدراسات العربية والإسلامية لا يمكن أن يُسدَّ، ولعله لا يمكن ذلك أبداً. وسوف يندبه بحرقة أولئك الذين عرفوه بحق زميلاً وصديقاً وإنساناً.

يوسف شاخت حياته وآثاره(*)

بقلم: روبير برونشفيج
Robert Brunschvig

ترجمة: د. عبد الحكيم الأربد

لم أكن أعرف الأستاذ ي - شخت معرفة شخصية يوم أن تقدم إلي مصافحاً بمؤتمر المستشرقين المنعقد بباريس عام 1948 م. وما خطرت ببالي الصداقة المتينة التي ربطتني به منذئذ، لا ولا وحدة الرأي التي جمعتنا حول الدراسات الإسلامية والتي لم تنفصم عراها إلى أن وافته المنية مؤخراً، وما تصورت أنه سيكون علي أن أكتب متأثراً هذه اللمحة التأبينية عنه.

ولد يوسف شخت يوم 15 مارس 1902 براتيبور (بإقليم شليزيان الألماني) ودرس فقه اللغة اللاتيني والإغريقي وعلم اللاهوت واللغات الشرقية بجامعتي برسلاو ولايبزيغ، وحصل عام 1923 على درجة الدكتوراه من جامعة برسلاو، وانضوى منذ 1925 إلى هيئة التدريس بجامعة فيريورغ بإقليم برسغاو،

(*) نقرأ عن: Studia Islamic, XXXI, Voluminis memoriae j. Schacht.

التي أصبح بها أستاذ كرسي عام 1929. وفي عام 1932، انتقل بهذه الدرجة الوظيفية نفسها إلى جامعة كونيغسبرغ التي حصل منها بعد سنتين من العمل على إجازة تفرغ، ثم سافر لتدريس اللغات السامية بجامعة القاهرة، التي سبق له التدريس بها بصفته أستاذاً زائراً. بقي بها حتى عام 1939.

وتبين هذه الفترة الأولى، نهج بحوثه الرئيس وأهم خاصياتها. ولقد استطاع بفضل فترات إقامة متكررة بالشرق، وإجاداته اللغتين العربية والتركية، أن يكشف بدقة وسداد رأي عن مخطوطات قيمة كانت محفوظة بمصر وتركيا، وأبان من جوانب عديدة عن إثاره دراسة نصوص الفقه الإسلامي وقضاياها. فأخذ يشجع دراسات شخصية تفيض علماً وتأملًا، فضلاً عن تحقيقه ونشره مجموعة من المؤلفات القديمة غير المنشورة أو أجزاء منها. فاهتم في البداية بالكتابات عن «الحيل الفقهية» وعن «الفروق». وإليه يعود الفضل، منذ عام 1932، في تسليط الضوء بشكل ذكي على جهود تحديث الفقه بمصر.

ولقد كشفت تأملاته الاجتماعية حول الفقه الإسلامي، بعد ثلاث سنين من ذلك، عن ثقافة متينة وقدرة على التفكير والتعبير عظيمة. وفي الوقت ذاته، تناول الكتيب القيم الذي تركه الفقيه برغشتراسر (Bergstrasser) في الفقه الإسلامي بتركيز على المذهب الحنفي، فضببطه ونشره. كما أنه ساهم في تحرير دائرة المعارف الإسلامية بعدد من الفصول (التي أعيد نشر أغلبها في القاموس الألماني^(*)) وفي الموسوعة المختصرة [بالإنجليزية]^(**). وقد أظهر معرفة عميقة سواء في مجال علم الكلام أم بالتعاون مع صديقه مييرهوف (Meyerhof) المقيم بالقاهرة - أم في مجال المذهب الطبي، أم في مجال المذهب الفلسفي الطبي بالصور الوسيطة بالشرق.

ثم كانت الحرب العالمية الثانية - فالتحق ي. شخت بإنكلترا التي كان في أحلك الظروف، يسمع منها عبر الإذاعة البريطانية، صوت الحرية مخاطباً

(*) Handwörterbuch

(**) Shorter Encyclopaedia

مواطنيه الألمان إذ لم يكن قد تخلى بعد عن جنسيته الألمانية . وكان شخت يعقت النازية مع أنه ما كان له أن يخشاها بحكم أصوله . لكنه كان يعارض كل نبذ وكل اضطهاد . وتزوج امرأة إنكليزية مثقفة ما انفكت الرفيقة المتفهمة له والمتفانية التفاني الكامل في خدمته . وبعد الحرب حصل عام 1947 على الجنسية الإنكليزية التي لم يتخل عنها قط . وكان آنذاك قد شرع يدرس بجامعة أكسفورد .

وإعراباً منه عن رغبته في الاندماج ، ألزم نفسه سنتي 1948 و 1952 بالحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه على المكان عينه ، وهو أستاذ الكرسي السابق في جامعة أجنبية . غير أنه تخلى عن أكسفورد سنة 1954 ، ربما لأن تعيينه أستاذ كرسي بها كان يبدو ، رغم بادرته تلك ، بعيد الاحتمال .

شهدت تلك السنوات العشر التي تلت الحرب نضج شخصية شخت العلمية ، ومكنه عمله المتحمس في البداية من إتمام أهم أعماله المتمثلة في توضيح نشأة الفقه الإسلامي وتطوراته الأولى ، مستنداً في ذلك على أقدم الأدلة المتاحة .

وما من دارس للإسلام اليوم إلا ويدرك كيف أن ي . شخت انطلق من ملاحظات غولد زيهر (Goldziher) حول الحديث وتوصل بفضل تحليلاته الثاقبة العديدة إلى وضع نظام نقدي وتفسيري ، لم يلبث أن أثار اهتماماً واسعاً ، وحاز موافقة عريضة لدى أغلب العلماء الأكفاء النزهاء . ولا نستثني من ذلك غير بعض التفردات . فلقد جدد كتابه الأصول (*) (1950) والطبقات التالية) فرعاً من أهم فروع الدراسات الإسلامية . أما باللغة الفرنسية ، فإن كتابه النبذة (**) يواصل دراسة تاريخ الفقه الإسلامي حتى يومنا هذا ، في عرض واضح ميسر مقرون بدقة صائبة ، هذا إلى جانب تأكيده على العصور السالفة .

وفي السنوات التالية للحرب ظهرت له أيضاً بحوث عديدة حول نقاط

(*) Origins .

(**) Esquisse .

محددة مختلفة. كما أنه عاد إلى تأملاته الاجتماعية التي كانت بمنزلة منفذ يوحى بالعودة إلى مصادر علم الكلام الإسلامي ومشكلاته. وعلى إثر مهمة دراسية إلى نيجيريا البريطانية، نشر عدداً من البحوث المختصرة حول القضاء في الإسلام من خلال تطبيقه في غرب إفريقيا.

ولدى مروره ببوردو في طريقه إلى الجزائر سنة 1953 قبل عن طيب خاطر الاشتراك معي في تأسيس مجلة الدراسات الإسلامية^(*).

أما المرحلتان الأخيرتان من حياته، فقد ^أتتاهما أول الأمر أستاذ كرسي بمدينة ليد (1954-1959) ثم بجامعة كولمبيا بنيويورك. وفي المدينة الأولى اشترك في الحال في إدارة دائرة المعارف الإسلامية في طبعها الثانية. فأظهر حماساً وتفانياً مثالين حتى آخر أيام حياته للقيام بهذه المهمة الشاقة، نظراً للمفصول التي كتبها هو نفسه، والمراجعة الدقيقة لما كتبه الآخرون من موضوعات.

وفي الوقت ذاته، كان يوسف شخت، انطلاقةً من ليد أو من نيويورك على حد سواء يضطلع بأعمال شتى، ويقوم برحلات عديدة إلى إفريقيا الشمالية والشرقية وتركيا على وجه الخصوص. ولئن ارتضى أحياناً أن يكتب كتابة مفيدة وشبه مبسطة لغير المتخصصين، فإنه ظل يفضل العكوف على التبحر الخصب الأصيل، وظل الفقه الإسلامي في مختلف عصوره يتصدر أعماله، كما كان في الفترة السابقة من حياته. ويتجسد هذا الاتجاه في كتابه «المقدمة»^(**)، (1964) الذي سبق أن حاز طبعات عديدة، غير أن اهتماماته الواسعة، ومئاته منهجه الفريد، وغزارة علمه تأكدت من جديد في مجالات أخرى، وحسبنا شاهداً على ذلك عروضه النقدية الحصيفة العديدة، التي نشرت في مجلات متخصصة (والتي لم يسعنا، لسوء الحظ، حصرها في ثبوت مؤلفاته التالي).

(*) Studia Islamica

(**) An Introduction

كما التزم شخت، عن بعد، بالعمل الذي شرع فيه قديماً الفقيد ميرهوف فعالج مراراً موضوع الطبيب الفيلسوف ابن النفيس، ذلك الرائد المشرقي في اكتشاف الدورة الدموية، فأفضى ذلك إلى نشر كتاب عالم التوحيد العصامي^(*)، الذي حققه وترجمه وعلق عليه (1968)، ولم يصرف النظر مع ذلك عن علم الكلام كلما سنحت له الفرصة مثرياً مراجعنا في هذا المجال. وما هو ذا ينتهز فرصة رحلاته الإفريقية ليعود إلى منزعه من منازعه القديمة، فأكب متأملاً بعض العناصر المعمارية في المساجد، فتم تأمله الدقيق عن مقدرة فنية مذهلة. كما أن الأوضاع الحالية المعقدة التي كان عليها الإسلام في شرق إفريقيا طبق ما شاهده على المكان عينه، أمده بالمادة اللازمة لكتابة بحث قيم.

ولنضف إلى ذلك أن شخت لم يفقد قط الحماس في تفحص المخطوطات ووضع قوائم جرد لها. فكم مناسبة سارة خبأت له تونس والمغرب وإقليم الزاب، لحسن حظ القراء الذين استفادوا من تلك المخطوطات.

وفي غرة أغسطس 1969، وبينما كان شخت يتأهب لتغيير سكناه، استعداداً لتقاعده القريب، فجأه الموت، وكان منهمكاً في مراجعة الكتاب المشترك: تراث الإسلام^(**) وكانت ما تزال عنده بالخصوص كثير من الأمور القيمة التي كان يريد كتابتها. فكان ينوي، منذ أمد بعيد، كتابة بحث ضاف في بدايات التاريخ الرسمي عند العرب، وكان ينوي كذلك العودة إلى معالجة بعض جوانب تاريخ الفقه الإسلامي وتعميق دراستها.

ترك شخت أرملة وأصدقاء سيحفظون عنه ذكرى الرجل الحازم النزيه الذي كان؛ كما ترك معجبين به كثيرين من بين زملائه وقدماء طلابه، وإن الأمجاد التي حصل عليها في حياته لم تكن غير اعتراف بسيط بقدره الفريد. فكان قد نال دكتوراه شرفية من الجامعة الفرنسية بمدينة الجزائر (1953) وكان

(*) Theologus autodidactus ولعل المراد بذلك كتاب فاضل بن ناطق.

(**) Legacy of Islam.

عضو المجمع العربي بدمشق (1954) وعضو المجمع الملكي بهولندا (1956) وزمياً. بمؤسسة غوغنهايم (1967) ويحمل وسام ليفي دلا فيدا(*) الدولية (مايو 1969) . . وفوق هذه الأحداث سيقى عمله بصفته عالم إسلاميات خالداً بعده .

روبير برونشفيغ

(Robert Brunschvig)

أود أن أشكر بوجه خاص اللجنة المديرة لدائرة المعارف الإسلامية التي تفضلت استثنائياً بالمساعدة في نشر هذه «المتفرقات» في الجزئين (31 و 32) من مجلة الدراسات الإسلامية، إهداء إلى روح الفقيد يوسف شخت .

ر - ب

ترجمة د . عبد الحكيم الأريـد

منشورات يوسف شخت(**)

أولاً: بحوث ودراسات المخطوطات العربية

A - 1 - من المكتبات في استنبول وما حولها، Zeitschrift für Semitistik المجلد 5 (1927) ص ص . 288 - 294 والمجلد 7 (1930) ص ص . 121.120.

A - 2 - من المكتبات الشرقية (القسطنطينية والقاهرة) في Abhandlungen der Preussischen Akademie der Wissenschaften (فلسفة، تاريخ)، برلين 1928/8، ص ص . 1 - 75 1929/6، ص ص . 36.1، 1931/1 ص ص . 57.1.

A - 3 - بعض الأوراق حول الفروسية والفتوة في Der Islam (الإسلام)

(*) Levi Della Vida .

(**) أشرنا إلى كتاباته بالألمانية بحرف A، وبالإنكليزية بحرف E وبالفرنسية بحرف F (المترجم).

المجلد 19 (1931)، ص ص. 49 - 52.

A - 4. مصدران جديدان حول الفروسية في كراس طبع بمناسبة احتفال

ج - بابوب 1932، ص ص. 276 - 287.

F - المكتبات والمخطوطات الإباضية في c Revue Afri... (المجلة

الإفريقية) (1956) ص ص. 375 - 398.

F - حول بعض مخطوطات جامع القرويين بفاس في Etude

d'orientalisme... Lévi-Provençal (دراسات في الاستشراق)، ليفي بروفنسال -

باريس (1962) المجلد 1، ص ص. 271 - 284.

E - حول بعض مخطوطات مكتبات القيروان وتونس في Arabica

(عربية) المجلد 14 (1967) ص ص. 225 - 258.

E - حول بعض مخطوطات مكتبات المغرب، Hespéris-Tamuda،

(1968) ص ص. 5 - 55.

ثانياً: تحقيق النصوص الفقهية

- الخصاف، كتاب الحيل والمخارج، هانوفر 1923.

- أبو حاتم القزويني، كتاب الحيل في الفقه، هانوفر 1924.

- الطحاوي، كتاب أذكار الحقوق والرهون، هايدلبرغ 1926-1927.

A - حول كتابين عربيين في الفروق في Islamica (الإسلامية) المجلد

4/2 (1927)، ص ص. 505-537.

- الطحاوي، كتاب الشفعة، هايدلبرغ 1929 - 1930.

- الشيباني، كتاب المخارج في الحيل، لايبزيغ 1930 (ينظر Islamica،

المجلد 5، ص ص. 581-585 والمجلد 6، ص ص. 260 - 266.

- الطبري، اختلاف الفقهاء، ليدن 1933.

ثالثاً: القرآن والتوحيد الإسلامي

A - وثيقة لابن الراوندي - المجلد 29 من OLZ (1926) ص ص. 837 -

841.

636 _____ مجلة كلية الدعوة الإسلامية (العدد الحادي عشر)

A - تفسيران عثمانيان(*) قديمان للقرآن في OLZ ، المجلد 30 (1927)
747 - 752.

A - متابعة التفسيرين العثمانيين القديمين للقرآن في OLZ المجلد 31
(1928)، 812 - 815.

A - الإسلام (كتاب مطالعة في تاريخ الديانة، نشر (Paul Siebeck)
J.C.B. Mohr 16, Bertholet توينغن 1931.

A - حول تاريخ المعتقدات الإسلامية في Der Islam المجلد 31 (1933)
ص ص 286 - 291.

E - مصادر جديدة تخص تاريخ التوحيد الإسلامي - المجلد الأول من
STUDIA ISLMICA ص ص 23 - 42.

F - مصادر جديدة تخص تاريخ التوحيد الإسلامي المجلد الخامس من
Nouvelle Clío (1953) ص ص 411 - 426.

E - بحث قديم في المرجنة. كتاب العالم والمتعلم في Oriens (الشرق)
المجلد 17 (1964) ص ص 96 - 117.

رابعاً: الحديث والفقه الإسلامي

A - أدبيات الحيل العربية، مساهمة لاكتشاف واقع الشريعة الإسلامية في
Der Islam المجلد 15، (1926) ص ص 211، 223، تنمة ص 335.

A - من القانون البابلي إلى الشريعة الإسلامية في OLZ المجلد 30
(1927) ص ص 664، 669.

A - مهام البحث في الشريعة الإسلامية في OLZ المجلد 31 (1928) ص
ص 936 - 942.

E - الإسلام والشريعة الإسلامية: Encyclopaedia of the social
sciences، نيويورك 1932 ص ص 333، 349.

(*) نسبة إلى الدولة العثمانية.

A - الشريعة والقانون في مصر الحديثة، مساهمة في مسألة التحديث الإسلامي Der Islam 20 (1932) ص ص. 209 - 236.

A - حول أسلوب التفكير الاجتماعي في الشريعة الإسلامية في Ostersch Genoots في هولندا المؤتمر السابع. 1933 ص ص. 18 - 20.

A - الخطوط لبرغشتراسير حول الشريعة الإسلامية - صدر ببرلين - لايبزيغ 1935 - 145 صفحة.

A - حول النظرة الاجتماعية في الشريعة الإسلامية في Der Islam المجلد 22 (1935)، ص ص. 207 - 238.

F - التطور الحديث للفقه الإسلامي بمصر Mélanges Maspéro القاهرة (1940, 1935) المجلد الثالث، ص ص. 323 - 334.

F - إعادة تقييم للحديث (الشريف). Jras، 1949، ص ص. 143-154.

E - أصول الفقه الإسلامي، أكسفورد 1950، 350 صفحة (وطبعات تالية).

E - العناصر الدخيلة في الشريعة الإسلامية القديمة. J. Comp. leg. Int. Law المجلد 32 (1950) الجزء 3 - 4 ص ص. 9 - 16 (أعيد نشر البحث مع بعض الإضافات في مذكرات AC. int. de droit comparé روما 1955، المجلد في الجزء 4 ص ص 127 - 141).

E - الزنا بصفته مانعاً للزواج في الشريعة الإسلامية والقانون الكنسي: Arch. hist. droit on et Revue int. des Droits de l'Antiquité الثانية، الجزء الأول (1952) ص ص. 105 - 123؛ وبالمؤتمر الثاني والعشرين للاستشراق (1951، 1957، الجزء الثاني ص ص. 237 - 241).

F - الفقه الإسلامي: حل بعض المشاكل ذات الصلة بأصوله، المجلد 68 (1952): ص ص. 13-1 من Revue Algérienne... de législation.

F - تعليقات حول سوسيولوجيا الفقه الإسلامي، المجلد 96 (1952) من Revue Afr. ص ص. 311 - 329.

- F - حول رواية العقيدة في المدارس الفقهية في الإسلام، ALEO مدينة الجزائر، المجلد 10 (1952) ص ص. 401 - 419.
- F - ملخص تاريخ الفقه الإسلامي Trad. Arin، باريس 1953، 91 ص.
- E - المذاهب الأولى في الوقف Mél. Fuad Köprülü، استنبول 1953 ص ص. 443 - 452.
- E - في حياة الشافعي وشخصيته STUD Or... pederson، كوينهاغن 1953 ص ص. 318 - 326.
- E - جذور ما قبل الإسلام للفقه الإسلامي وتطوره المبكر، ومدارس الفقه وتطورات الفقه المتأخرة، خدوري ولياسني، Law in teh Middle East واشنطن 1955، الجزء الأول ص ص. 28 - 84.
- F - القانون في كتاب ج - إ - فون غرونباوم وآخرين: وحدة الحضارة الإسلامية وتنوعها، شيكاغو 1955، ص ص. 65 - 86.
- F - طبعتان مجهولتان للموطأ: Stud. orient... levi Della Vida روما 1956، الجزء الثاني ص ص. 477 - 492.
- F - القانون البيزنطي والفقه الإسلامي، ص ص. 197-218 من XII convegno Volta...، روما 1956.
- F - التقليد والسلفية والجمود في الشريعة الإسلامية في كتاب: التقليد والانحطاط الحضاري في تاريخ الإسلام تأليف روبرو نشفيغ، ج - إ - فون غرونباوم وآخرين ص ص. 141-161. (وقائع ندوة برودو، يونيو 1956) 1957.
- E - الشريعة الإسلامية في الدول المعاصرة، المجلد السابع من BICEMM (1958) ص ص. 61 - 79 وكذلك Amer. Journ. of comparative law. (1959) ص ص. 133 - 147.
- E - مشاكل التشريع الإسلامي الحديث، المجلد الثاني عشر من Studia Islamica (1960) ص ص. 99 - 129.
- E - الجوانب الاجتماعية للشريعة الإسلامية، جامعة بركلي 1963، منسوخ على الآلة الكاتبة 27 صفحة.
- مجلة كلية الدعوة الإسلامية (العدد الحادي عشر) 639

E - حول عبارة «السنة النبوية» في المتفرقات المهداة لـ هـ - ماسي، طهران 1963، ص ص. 361-365.

E - مشاكل التشريع الإسلامي الحديث، 'The modern Middle East' نشر R.H. Notte، 1963، ص ص. 172-200.

E - مقدمة في الفقه الإسلامي، أكسفورد 1964، 304 صفحات وطبعات تالية.

E - ملاحظات حول حياة السرخسي وأعماله: 900Ölüm yıldıönümü : Münasebetiyle Es-Serakhsi Armağanı، أنقرة 1965، 6 صفحات.

E - حول أبي مصعب ومختصره، المجلد 30، الجزء الأول من Al-Andalus، (1965) ص ص. 141، وكذلك حول أبي مصعب ومختصره، المجلد 30، الجزء الثاني من al-Andalus (1965) ص ص. 386.

E - التجديد والتقليد في أحد تواريخ الفقه الإسلامي [مقال منقح عن ن. ج كولسن عنوانه: تاريخ الفقه الإسلامي، نشر في Middle eastern Studies الجزء الأول (1965)، ص ص. 388-400.

E - الوضع الحالي للدراسات حول الفقه الإسلامي، وقائع مؤتمر الدراسات العربية والإسلامية الثالث مدينة رافيلوا (إيطاليا) 1966، ص ص. 621 - 622، Atti del III congresso di studi Arabi, Islamici.

خامساً: الهندسة المعمارية الدينية

A - مثذنة - نموذج قديم في مصر والأناضول، Ars Islamice، الجزء الخامس (1938) ص ص. 52-54.

F - حول انتشار أشكال الهندسة المعمارية الدينية الإسلامية عبر الصحراء (أعمال معهد البحوث الصحراوية)، مدينة الجزائر، المجلد 11 (1954) ص ص. 11 - 27.

E - طراز غير معروف من المنابر ودلالته التاريخية، Ars Orientalis المجلد الثاني (1957)، ص ص. 149 - 173.

640 _____ مجلة كلية الدعوة الإسلامية (العدد الحادي عشر)

F - ملاحظات مزابية، al-Andalus المجلد 22 (1957)، ص ص. 201.

E - ملاحظات إضافية حول المثلثة السلم Ars Orientalis المجلد 4 (1961) ص ص. 141-137.

E - المثلثة السلم، Ist Int. cong. of Turkish ars، أنقرة، 1959، بحوث (1961) ص 297.

سادساً: الفكر الطبي والفلسفي

E - (بالتعاون مع م. مييرهوف) الجدل الطبي الفلسفي بين ابن بطلان البغدادي وابن رضوان المصري. القاهرة (الجامعة المصرية، كلية الآداب) 1937.

F - (بالتعاون مع م. مييرهوف) جدل طبي فلسفي بالقاهرة سنة 441 هـ (1050 م) مع نبذة عن الدراسات الإغريقية في الإسلام: BIE المجلد 19 (1937) ص ص. 29 - 43.

E - (بالتعاون مع م. مييرهوف) الميمونيون... (مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية، ماي 1397 (1)) القاهرة 1939.

F - (والفقيه م. مييرهوف) ملاحظات حول نقل الفكر الإغريقي إلى العرب (تاريخ الطب، السنة الثانية، العدد 5، ماي 1942) ص ص. 11 - 19.

F - ابن النفيس وكتابه: عالم اللاهوت العصامي (*) Homenaje A Millas-Vallicrosa برشلونة، 1956، الجزء الثاني، ص ص. 325 - 345.

E - ابن النفيس، سرفيتوس وكولومبو al-Andalus المجلد 22 (1957) ص ص. 317 - 336.

E - (والفقيه م. مييرهوف) فاضل بن ناطق لابن النفيس، اكسفورد 1968، 83 ص، ص 53 للنص العربي.

(*) لعل المراد به كتابه فاضل بن ناطق الذي جمعه ابن النفيس على غرار حي بن يقظان (المترجم).

سابعاً: الإسلام في أفريقيا السوداء

- F - القضاء في شمال نيجيريا والفقہ الإسلامي Revue algér... de législation المجلد 67 (1951) الجزء الأول، ص ص. 37 - 43.
- F - إدارة القضاء الإسلامي في أفريقيا الغربية الفرنسية والبريطانية الندوة الاستعمارية المشتركة 1952، برودو (1954)، ص ص. 82 - 89.
- E - الإسلام في شمال نيجيريا studia Islamica المجلد 8 (1957)، ص ص. 123-146.
- E - ملاحظات عن الإسلام في شرق أفريقيا، studia Islamica المجلد 23 (1956) ص ص. 91 - 136.

ثامناً: مفترقات

- A - حول الأدبيات الوهابية في Zeitschrift für Semitistik (دورية حول السامية) الجزء، (1928) ص ص. 200 - 212.
- A - حول الهلينية في بغداد والقاهرة في القرن الحادي عشر في ZDMG المجلد 90 (1936) ص ص. 526 - 545.
- A - الرسائل المتبادلة بين القيصر والباب في 2/641 في الرواية العربية صدرت في Orientalia المجلد 5 (1936)، ص ص. 268-229.
- E - الطبعة العربية لخريطة الجمعية البريطانية: أوروبا والشرق الأوسط المجلد 104 من Geographical Journal (1944) ص ص. 199 - 202.
- E - حول كتاب المغازي لموسى بن عقبة. Acta Orientalia المجلد 21 (1953-50) ص ص. 288-300.
- القرآن = al-Andalus, cornard الجزء 16 (1951) ص. 489.
- F - استشهاد من إنجيل القديس يوحنا في سيرة ابن إسحاق al-Andalus المجلد 16 (1951) ص ص. 489 - 490.
- F - الإسلام كما ينظر إليه في بريطانيا، Critique فبراير 1953، ص ص. 142-155.
- 642 _____ مجلة كلية الدعوة الإسلامية (المجلد الحادي عشر)

F - (بالاشتراك مع ج - هـ - بوسكيه) الأعمال المختارة ل. ك. شنوك هورغرونية: Snouk Hurgronje مقدمة بالفرنسية والإنكليزية، (إي - ي - بريل) 1957.

E - الجذور الإسلامية لفكرة الأمة العربية، The Arabe Nation واشنطن (معهد الشرق الأوسط) 1960، ص ص. 15 - 24.

E - دائرة المعارف الإسلامية المجلد 2/14 من News letter ACLS (فبراير 1963)، ص ص. 8 - 10.

E - ضحايا المغول ببغداد في Der Islam المجلد 42 / 32 (1966) ص 259.

E - كتاب التاريخ لخليفة بن خياط المجلد 16 Arabica (1969) ص ص. 79 - 81.

تاسعاً: تأبين

A - أحمد باشا تيمور. رثاء ZDMG المجلد 8 (1930.84) ص ص. 258 - 255.

A - أعمال بيرغشتراسير حول الشريعة الإسلامية في OLZ المجلد 38 (1935) ص ص. 593 - 599.

A - كريستيان شنوك هورغرونية المجلد 24 من Der Islam (1937) ص ص. 192 - 195.

A - ماكس ميرهوف المجلد 9 من Osiris (1950) ص ص. 327.

عاشراً: مواد في قاموس الإسلام

A - ليدن 1941 وفي مختصر دائرة المعارف الإسلامية، ليدن 1953 (B) - قتل، خطأ، خيار، قياس، قصاص، لقطة، ميتة، مالك بن أنس، ميراث، محمد عبده، نكاح، رضاع، ربا، شريعة، تقليد، طلاق، أم الولد، أصول، وصية، وضوء، يتيم، زكاة، زنا؛ إضافة إلى باطل (بمختصر دائرة المعارف الإسلامية فقط).

حادّي عشر : مواد دائرة المعارف الإسلامية

أ - الطبعة الأولى : إضافة إلى المواد الصادرة في قاموس الإسلام وفي مختصر دائرة المعارف الإسلامية (عدا باطل) : (تتمة الفصل).

ب - الطبعة الثانية : العبادي، أبو حنيفة، أبو الليث السمرقندي، أبو شجاع، أبو السعود، أبو ثور، أبو يوسف يعقوب، أجر، أغالبة (الحياة الدينية)، عهد، أحكام، أهل الحديث، أحمد، أق حصارى، الأخضرى، التي برمك، أمان، أصحاب الرأي، الأشعري (أبو بردة)، عطاء بك (محمد)، أطفاسن، الأوزاعي، بئاني، بيع، بشر بن غياث المريسي (بالاشتراك مع أ - ن - نادر) دحلان، داوود بن علي بن خلف، جعفر بن مبشر (بالاشتراك مع أ - ن - نادر)، الجرجاني (إسماعيل بن الحسين)، الجويني، الفضالي، فقه، حد، خبغر، الحلي، حنيفة، هلال (في الشريعة)، حيل، إياحة، ابن أبي ليلى (محمد بن عبد الرحمن)، ابن عقيل، ابن عاصم، ابن بطلان، ابن حجر الهيثمي، ابن عيسى، ابن القاسم، ابن قاسم الغربي، ابن الكيسراني، ابن خلاد، ابن النفيس، ابن نجيم، ابن راهويه، ابن رضوان، ابن سريج، إيعجاب، اجتهد، اختلاف، عكرمة.

ثاني عشر : ملخصات عديدة لكتب في نشرات مختلفة خاصة

Der Islam و Orientalial و OLZ.

أُصُولُ الْفَقْرِ الْمُحَمَّدِيِّ لجوزيف شاخ في كتابات الغربيين

ترجمة: الصليق بشير بن نصر

● يقول عنه هلموت ريتز:

«هذا كتاب عظيم ومهم جداً ومثير للغاية. وهو نتاج لبحوث استغرقت سنوات طويلة ويُعدُّ بدراسة مسألة من إحدى المسائل الأكثر تعقيداً وغموضاً في تاريخ الفكر الإسلامي. ومن المعلوم حقاً أنَّ فهم النشأة التاريخية للفقه الإسلامي مقيد، إلى حدٍّ بعيد، بالحقيقة القائلة بأنَّ النظرية التقليدية لمصادر التشريع الإسلامي الأربعة قد نشأت نسبياً في وقت متأخر، وأنَّ الأحاديث النبوية غير الصحيحة التي تعرف بالسنة وتشكل أهم مصادر التشريع الإسلامي والمدونة في التراث الفقهي الإسلامي القديم هي موضع شك...»

وعلى العموم فإنَّ هذا الكتاب كتاب أصيل جداً، ومنهجي بمعنى الكلمة، وقد أضفى على معرفتنا بالتطور المبكر لأحد أهم فروع تاريخ الفكر

الإسلامي نوعاً من التحسين، فأمس بذلك قاعدة منهجية للقيام بتحقيقات علمية من هذا النحو».

المشرق - مجلة الجمعية الدولية للبحوث الشرقية

(مجلد 4، عدد 2، 1951)

● ويقول عنه السير هاملتون جيب:

«سيصبح هذا الكتاب أساساً لجميع الدراسات المستقبلية في الحضارة الإسلامية والفقه الإسلامي، ولو عند الغربيين على الأقل».

مجلة الفقه المقارن والتشريع الدولي

● ويقول عنه ألفرد جيوم: «خدمةً لمعرفتنا بتطور الفقه الإسلامي، وبنشأة الأحاديث واختلافها، التي توهم بأنها ستجلت ما قال النبي وما فعل، قام الدكتور شاخت بتأليف هذا الكتاب العلمي الرائع مساهمةً منه في ذلك»

مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية

BSOAS, 16, 1954

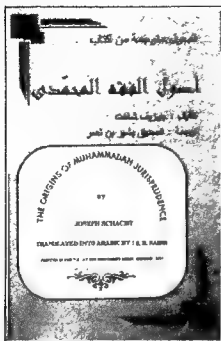
مقدمة المترجم

هذه ترجمة لبضعة فصول من كتاب (أصول الفقه المحمّدي)، أو قل إن أحبيت: أصول التشريع الإسلامي لمؤلفه جوزيف شاخت، وضعها بين يدي قراء العربية لعلها تقع على من يتعرض لها بالدراسة والنقد.

ولست مغالياً إذا قلت إن هذا الكتاب يُعدُّ بحق واحداً من أخطر مؤلفات المستشرقين، ولعله أهم ما صنف في مجاله حتى يوم الناس هذا بقلم غير مسلم.

وليس من قبيل المبالغة إذا قلت إن كل من كتب بعده من المستشرقين في هذا الحقل المعرفي هم عيالٌ عليه، وحسبك أنه لا تكاد توجد جامعة من جامعات الغرب لها اعتناء بالدراسات الإسلامية إلا ونجد هذا الكتاب مقررأ على طلابها.

والكتاب لا يزال سفرأ مغلقاً على قراء العربية، وأكثر ما كتب عنه في



لغتنا دراسات مبشرة أو إشارات عابرة لا
نقص عن جوهره، ولا تنبئ بمضمونه.

ونحن إذ نقدّم هذا الكتاب في
صورة فصول متتابعة، ندعو المشتغلين
بالفقه الإسلامي وأصوله إلى النظر فيه
نظرة الفاحص المتدبّر، الذي يسعى إلى
الكشف عن أكيّاته المحرّكة الظاهرة
والخفية، ومن ثم تناوّل النصّ ذاته تناوّلًا
منهجيًا يسبر غوره ويظهر أسراراه.

وفي الوقت نفسه نرجو من كلّ من
يرى في نفسه أهلية الردّ، أو يأنس في

نفسه القدرة على تعقب ما جاء فيه، أن يتعامل مع النصّ بشكل مباشر باحثاً
قبل الشروع في عمله عن طرائق بحثٍ مجديةٍ للتحليل، حتى يتجاوز بما
يكتب ما ألفه الناس من بعض الكتابات التي يغلب عليها الطابع الخطابي
الوعظي، وهو خطاب وجداني عاطفي لا يجدي نفعاً.

والكتاب مع ما فيه من جهد ظاهر يطفح بالمغالطات والأوهام التي
مرّدها الافتراضات الفاسدة والتخمينات المردودة، وما جاء من هذا الباب لا
يعلم قادحاً أو مستكراً.

ونرجو أن نكون بعملنا هذا قد قمنا بما يجب علينا تجاه ديننا وأمتنا.

الصديق بشير بن نصر

طرابلس في 12/5/1994

الفصل الأول

النظرية التقليدية للفقه الإسلامي

الوظيفة الإيجابية

تُرَدُّ النظرية التقليدية للفقه الإسلامي كما طوّرها الفقهاء المسلمون المنهج الفقهي برمته إلى مصادر أو أصول أربعة: القرآن، والسنة النبوية بوصفها السلوك المثالي للنبي وإجماع أهل السنة، ثم القياس⁽¹⁾.

وقد ابتكر الشافعي أسس هذه النظرية. ويركز القسم الأول من هذا الكتاب، الذي يهتم بتطور النظرية الفقهية على دراسة آثار الشافعي⁽²⁾. التي ترتبط، إلى أبعد الحدود، بمساهمته الملموسة التي لا تضاهى في الفقه الإسلامي، وهو الدور الذي قام به الشافعي في تكوين التفكير الفقهي المنهجي. وقد قاده إلى درجة عالية من الكفاءة والتفوق، الذي لم يبلغ من قبل ولم تكن مضاهاته أمراً ميسوراً، كما لم يتجاوزه أحد بعده أبداً.

ولذلك خُصَّص القسم الرابع من هذا الكتاب لدراسة منهجية التفكير الفقهي عند الشافعي وسلفه.

ويبدأ القسم الثاني من الاستنتاجات التي يمكن أن تستخلص من موقف الشافعي، من ثاني مصدر من مصادر التشريع، وهو سنة النبي كما وردت في الأحاديث. كما يهدف إلى إيجاد طريقة يمكن بواسطتها استخدام هذه الأحاديث الفقهية في متابعة تطور المذهب الفقهي خطوة بخطوة خلال الفترة التي ظلت غير مدوّنة إلى حد بعيد قبل الشافعي.

(1) أنظر سنوك هرخرونه، Verspr. Geschr.، 286/2 - 315: الفقه الإسلامي Le droit Musulman (1898).

مارجوليوت: Early Development ص 65. انظر كذلك: شاخ: مادة (أصول) في دائرة المعارف الإسلامية (4).

(2) عن الشافعي، انظر الدراسة التي وضعها برجستراسر في مجلة Islam، 14 ص 76 وما بعدها، وكذلك هفنينج في دائرة المعارف الإسلامية (4).

وسوف تمكننا النتائج المكتسبة من إدراك أن بداية التطبيق العملي للفقه الإسلامي قد تمت في الفترة المتأخرة من الدولة الأموية.

ومن ثم يحاول القسم الثالث من هذا الكتاب تتبع رواية المذهب الفقهي منذ بدايته حتى بدايات فترة التدوين.

وعلى الرغم من أن الشافعي وضع أسس النظرية التقليدية للفقه الإسلامي، إلا أنه لم يحسم الأمر لا في الإجماع ولا في القياس. وكان القياس آخر مصدر اعترف به من المصادر الأربعة، وقد واجه في زمن الشافعي مقاومة سلبية ورفضاً تاماً، وكان عليه أن يتغلب على كل ذلك. وقد درس جولدتسيهر تاريخ المسألة في أحد كتبه الأساسية مبيّناً في أسلوب تحليلي مساهمة الشافعي في النظرية الفقهية⁽³⁾.

وقد أوضح سنوك هرخرونه الدور المهم للإجماع بوصفه قاعدة نهائية للنظرية الفقهية والقانون الوضعي في شكلهما الأخير⁽⁴⁾ حيث يضمن توثيق القرآن وصحة تأويله، ويضمن الرواية الصحيحة للسنة والاستعمال الشرعي للقياس ونتائجه.

وباختصار، يستوعب الإجماع كل دقائق الفقه، والاختلافات المعترف بها للمدارس المختلفة، وما أقرّه الإجماع فهو صواب ولا يمكن رده بالرجوع إلى الأصول الأخرى. وهكذا هو المذهب التقليدي، إلا أننا سوف نجد أن الإجماع قد أدى دوراً أكثر اعتدالاً عند الشافعي. وإن من السهولة أن نرى أن ضمان تحقق الإجماع، كما هو في المذهب التقليدي، يصعب اتفاهه مع الاتجاه الحر والاختلاف الشديد في الآراء، كما سوف نرى في عصر الشافعي، وهو عصر إبداع الفقه الإسلامي. ولذلك سنهتم بمصدرين من مصادر التشريع وهما القرآن والسنة، كما فعل الشافعي وأسلافه ومعاصروه. ويمكن التسليم بأهمية العنصر القرآني في الفقه الإسلامي، وإن اضطربنا

(3) جولدتسيهر: الظاهرية ص 25 (حول الشافعي).

(4) انظر الموضع المشار إليه آنفاً من Verspr. Gesohr (2)، وأيضاً في مواضع متفرقة للمؤلف نفسه من كتابه (المحملية) Mohammedonism. 92 - 77

لتعديل هذا في الفترات المبكرة جداً⁽⁵⁾، غير أن السنة عند الشافعي تضاهي في منزلتها منزلة الإجماع عند المتأخرين.

إن إحدى النتائج الرئيسة للقسم الأول من هذا الكتاب جعله الشافعي المدافع الأول عن تعريف السنة بأنها السلوك المثالي للنبي، وهو في هذا يختلف مع سلفه الذين لا يرون ضرورة في ارتباطها بالنبي، ويكفي أن تمثل العرف التقليدي للأمة وإن كان مثالياً، وهم بذلك يجعلون العرف السائد في درجة مساوية للعمل المعتاد أو الأمر الذي عليه العمل بشكل عام.

ولذلك فإن الشافعي لا يرى الحجة إلا في أفعال النبي، وهو يعترف من حيث المبدأ بأحاديث النبي فقط على الرغم من أنه لا يزال ينحى منحى المذهب القديم في قبول أقوال الصحابة، وآراء التابعين وحتى المصادر المتأخرة بوصفها حججاً ثانوية.

وعلى العكس كان سلف الشافعي ومعاصروه يحتجون بأحاديث النبي كما يحتجون بأقوال الصحابة والتابعين، ويفسرونها في ضوء العرف السائد مع القول بجواز نسخها به.

وظل الاستناد إلى أقوال الصحابة والتابعين هو القاعدة السائدة في جيلين قبل الشافعي مع الإعراض عن الأحاديث النبوية، وبسبب هذا الإعراض اندفع الشافعي لتأسيس مذهبه. ومن ذلك نخلص إلى أن أقوال الصحابة والتابعين أقدم عهداً من أحاديث النبي.

وقد أشرنا في فقرات سابقة بشكل متكرر إلى أحاديث مروية عن النبي وإلى أقوال رويت عن غيره. وهي وإن كانت لا تتفق مع السنة إلا أنها تمنحها بعض الدعم، سواء أكانت السنة هي السلوك المثالي للنبي كما يعرفها الشافعي والفقهاء المتأخرون أم كانت ما تعارف عليه الجمهور وأكدته الفقهاء الأوائل حسب مفهومها القديم.

ويزد كل خبر مزعوم من أخبار النبي أو غيره في عبارات مقتضبة مسبوقة

(5) انظر ص 224 من كتابنا هذا.

بمسلسلة من الرواة تعرف بالإسناد يقصد به توثيق الخبر⁽⁶⁾. ولكي يتحقق الفرض من الإسناد يجب أن يكون متصلاً، وأن ينتهي برؤية أو سماع، ويجب أن يكون رجاله جميعهم عدولاً.

وينحصر نقد الأحاديث كما طبّقه العلماء المسلمون، غالباً وبشكل ثابت، في النقد الشكلي المحض للأسانيد. وفي القرن الثالث الهجري جُمِعت الأحاديث - لا سيما النبوية - التي تجاوزت هذا الضرب من الاختبار الصارم في عدد من المصنفات، اكتسب ستة منها بعد نفوذاً خاصاً، وكونت مع بعضها مجموعة متكاملة من الأحاديث النبوية لدى أهل السنة. وهي صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود، والترمذي وابن ماجه والنسائي.

وأما المصنفات الأخرى المشهورة التي سنعرض لها في إحدى المناسبات فهي: مسند أحمد بن حنبل، وسنن الدارمي، وسنن الدارقطني، وسنن البيهقي.

ويعكس الاهتمام البالغ بالأحاديث النبوية والإعراض عن أقوال الصحابة فضلاً عن أقوال التابعين وتابعي التابعين إصرارَ الشافعي المنهجي ونجاحه في تأكيد حجية الأحاديث النبوية دون غيرها. ومن المسلم به عموماً أن نقد الأحاديث كما طبّقه العلماء المسلمون ليس وافيّاً، ولكن مع ذلك أمكن بواسطتها نبذ الكثير من الأحاديث الموضوعة، وإن كتب السنة المعتمد بها تحتوي على عدد ضخم من الأحاديث التي لا يمكن تصحيحها بسهولة.

وقد أخفقت كل الجهود المبذولة بالجلس التاريخي لاستخلاص ما هو صحيح من هذا الكم المتناقص في ذاته.

ولم يكتف جولدتسيهر في أحد أشهر كتبه⁽⁷⁾ بالتعبير عن تحفظه

(6) يتتبع الإسناد من الراوي الأدنى ويتهي بالأعلى، مثل: «الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي...» وهذا الإسناد تختصره في كتابنا هذا على النحو التالي: الشافعي - مالك - نافع - ابن عمر - النبي.

(7) جولدتسيهر: دراسات محمدية 1/2 - 274: «تطور الحديث النبوي». وللحصول على بسطة عامة عن أطروحة راجع ص 5 من كتابه.

وشكوكه في الأحاديث الموجودة في جوامع السنة القديمة، بل بين بشكل إيجابي أن الغالبية العظمى من الأحاديث النبوية ما هي إلا وثائق، لا يعود عهدها إلى زمن النبي كما يزعم المسلمون، ولكنها ترجع إلى فترات لاحقة من نشأة المذاهب في قرون الإسلام الأولى.

وبذلك أصبح هذا الاكتشاف المثير حجر الأساس لكل بحث جاد في الفقه الإسلامي وفلسفة التشريع. وإذا كان هنالك من الكتاب المتأخرين يرتضي طريقة جولدتسيهر من حيث المبدأ، إلا أنهم، لرغبتهم الطبيعية في الوقوف على نتائج إيجابية، يميلون إلى التقليل من شأنها في المجال التطبيقي. وهكذا تتضح أهمية الدراسة النقدية للأحاديث الفقهية في دراستنا عن أصول التشريع الإسلامي.

وسوف يعزز هذا الكتاب نتائج جولدتسيهر، وسيتجاوزها في أمور وهي: أن عدداً ضخماً من الأحاديث في كتب السنة المعتمد بها وغيرها من الجوامع، لم تنتشر إلا بعد عصر الشافعي فقط، وأن المجموعة الأولى المعول عليها من الأحاديث النبوية التي تعرف بأحاديث الأحكام، قد نشأت في منتصف القرن الثاني الهجري تقريباً لمواجهة أقوال الصحابة وغيرهم، التي سبقت الأحاديث النبوية بكثير، ولمواجهة المعمول به في مدارس الفقه القديمة. وأن أقوال الصحابة وغيرهم قد تعرضت لعملية التطور والنمو حتى تكون ذات أهمية، شأنها في ذلك شأن الأحاديث النبوية. وأن الأسانيد يمكننا من معرفة تاريخ الحديث، وتوضح وجود نزعة للنمو والتزايد نحو الماضي، ونزعة إلى المطالبة بسلطان أكبر فأكبر حتى تبلغ النبي. وأن دلالة أحاديث الأحكام تبيدنا إلى العام المائة بعد الهجرة فقط، وفي ذلك الوقت بدأ التفكير الفقهي الإسلامي، مع التطبيق العملي العام، والتطبيق الإداري في أواخر الدولة الأموية الذي ظل منعكساً في عدد من الأحاديث.

مدارس الفقه القديمة وموقفه الشافعي منها

يُعرف الشافعي بأنه مؤسس أحد المذاهب الأربعة السنية الحية، ولم يكن في نيته أن يؤسس مذهباً، وهذا المزني مؤلف أقدم مرجع في الفقه الشافعي يصرح بذلك في مطلع كتابه بقوله: «اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي، ومن معنى قوله: لأقر به على من أراد مع إعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره»⁽¹⁾.

وقد خصص الشافعي جزءاً من كتاباته لمناظرة خصومه ومناقشتهم داعياً إلى تقدير سنة النبي واتباعها، ومستكراً تقليد أقوال الرجال⁽²⁾.

وتدين أقدم المدارس الفقهية التي عارضها الشافعي بالولاء الشخصي لمؤسسها ولمذهبه⁽³⁾.

فمن بين العراقيين نجد أبا يوسف يحيل على أبي حنيفة بوصفه «الفقيه الشهير»، ويحيل الشيباني إلى «أصحاب أبي حنيفة»، ويحيل الشافعي على أولئك «الذين يتبعون مذهب أبي حنيفة» أو على «أصحابه» ويسميه «شيخهم»،

(1) المزني: مختصر كتاب الأم 2/1 مطبوع على هامش كتاب الأم للإمام الشافعي.

(2) أنظر مثلاً: كتاب اختلاف مالك والشافعي (7/177)، وكتاب جماع العلم (7/250)، وكتاب أبطال الاستحسان (7/267)، وكتاب اختلاف الحديث 7/148 المطبوع بهامش الجزء السابع من كتاب الأم.

وكلمة (التقليد) لم تستخدم في عصر الشافعي بالمعنى الاصطلاحي الذي شاع فيما بعد على الرغم من أن هذه اللفظة قد استخدمت في بعض التناسبات بمعنى الالتزام بمذهب إمام من الأئمة. قارن بما سيأتي ص 18 هامش 5 وص 79، 122، 131، 136 هامش 4.

(3) الأشعري: مقالات الإسلاميين 2/497 وما بعدها. طبعه ريتز لايبزج 1929 والأشعري في هذا الموضوع يوازن بين أصحاب المدرسة القديمة (أهل الاجتهاد) الذين يميزون التقليد واتباع الشافعي (وهم بعض أهل القياس) الذين لا يميزونه.

وهذا ابن حزم يأسف لأصحاب الشافعي لقبولهم مبدأ التقليد الذي ظهر في أول الأمر عند أنصار المدارس القديمة. انظر كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) 2/120 طبعه بولاق 1345 هـ. وانظر كذلك: جولدسيهر: الظاهرية ص 212.

إلا أن لأبي يوسف أتباعاً كذلك. ومن أكثر الأقوال صراحة ذلك القول الذي يشي فيه أحد العراقيين - ولعله الشيباني - على مذهب الشافعي ويصفه بالحسن، فيجيبه الشافعي بأنه ما علمه رَجَعَ إليه ولا غيره ممن ترأس منهم ولعله يعني أبا حنيفة⁽⁴⁾.

ويعتمد بعض أهل المدينة على مالك في معرفتهم بالأحاديث، ويعتدون موطأ مالك مصدريهم الحجة، ويقدمونه على جميع الكتب الأخرى، وقد اعتادوا على اتباعه وهم بذلك أتباع مالك، وهو إمامهم. وهم ينظرون إلى رأي مالك كما لو أنه الإجماع. وأنه لا مكان للإجماع عندهم إلى جانب قول مالك. إلا أن هؤلاء لا يمثلون إلا بعض أهل المدينة، كما لا يمثل أتباع أبي حنيفة إلا جزءاً فقط من العراقيين.

فلا الولاء الشخصي للإمام، ولا الاختلاف الجوهرى في المذهب - كما سنرى فيما بعد - يمثلان السمة الحقيقية التي تميز بين المدارس الفقهية القديمة، وإنما الذي يميز بينها بكل بساطة هو التوزيع الجغرافى. ويوضح الشافعي ذلك بقوله: «ما من بلاد المسلمين بلد إلا وفيه علم قد صار أهله إلى اتباع قول رجل من أهله في أكثر أقاويله»⁽⁵⁾ ثم يستطرد الشافعي في ذكر الأئمة المتبوعين في مكة والبصرة والكوفة والشام، ويشير في موضع آخر إلى العراقيين والمدنيين، والبصريين والكوفيين، وفقهاء الأمصار التي لها معرفة بالأحاديث، وأهل البلاد الأخرى.

وقد قدّم الشافعي قوائم مفصلة بفقهاء الأمصار. وفي إحداها يبين تعدد المذاهب في داخل مناطق جغرافية واسعة، فيقول: «فعلما من أهل مكة من كان لا يكاد يخالف قول عطاء، ومنهم من كان يختار عليه، ثم أفتى بها الزنجي بن خالد، فكان منهم من يقدمه في الفقه، ومنهم من يميل إلى قول سعيد بن سالم، وأصحاب كل واحد من هذين يتجاوزون القصد. وعلمت أن أهل المدينة كانوا يقدمون سعيد بن المسيّب ثم يتركون بعض قوله، ثم حدث

(4) الشافعي: اختلاف الحديث 122/7 على هامش كتاب الأم.

(5) الأم: اختلاف مالك والشافعي 246/7.

في زماننا منهم مالك، كان كثير منهم من يقدمه، وغيره يسرف عليه ويضعف مذهبه، وقد رأيت ابن أبي الزناد يجاوز القصد في ذمّ مذهبه، ورأيت المغيرة وابن حازم والدراوردي يذهبون من مذهبه ورأيت من يذمهم، ورأيت بالكوفة قوماً يميلون إلى قول ابن أبي ليلى يذمون مذهب أبي يوسف وآخرين يميلون إلى قول أبي يوسف يذمون مذهب ابن أبي ليلى وما خالف أبا يوسف، وآخرين يميلون إلى قول الثوري وآخرين إلى قول الحسن بن صالح. وبلغني غير ما وصفت من البلدان شبيه بما رأيت مما وصفت من تفرق أهل البلدان. ورأيت المكيبين يذهبون إلى تقديم عطاء في العلم على التابعين، وبعض المبائنين يذهبون إلى تقديم إبراهيم النخعي، ثم لعل كل صنف من هؤلاء قدّم صاحبه أن يسرف في المبائنة بينه وبين من قدموا عليه من أهل البلدان»⁽⁶⁾.

ويصر الشافعي على أن سمعة جميع هؤلاء الفقهاء تتغير كثيراً، وأنه من الصعوبة أن يتفقوا على مسألة فقهية بعينها أو على مبدأ عام.

وينكر الشافعي هنا وجود انسجام منطقي حتى بين فقهاء البلاد الواحدة، ولم يلمح من جهة أخرى إلى وجود أي فروق جوهرية واضحة المعالم في النظرية الفقهية بين فقهاء الأمصار، والقاسم المشترك بينهم اتكالمهم على العرف السائد وتطبيقهم الحر للرأي الشخص، وبمعنى آخر، افتقارهم إلى ضوابط صارمة كتلك التي أحكم ضبطها الشافعي وحده فأدى بهم ذلك إلى الاختلاف الشديد في المذهب.

وليس هنالك أثر حتى الآن لمكانة المدينة الخاصة بوصفها المعهد الحقيقي للسنة⁽⁷⁾ وهي مكانة تتعارض مع قول الشافعي: «وبها نأخذ - أي

(6) الأم: جامع العلم 251/7.

(7) تظهر هذه المكانة بصورة ضمنية في الحديث الذي يمتدح «عالم المدينة» (أخرجه أولاً ابن حنبل عن ابن عيينة. انظر ص 174 من كتابنا هذا)، كما ترد أيضاً عند ابن قتيبة ص 332 في كتابه (تأويل مختلف الحديث) طبعة القاهرة 1326، ولم يأت لهذا الادّعاء ذكر في أحاديث مدح المدينة التي أخرجها مالك في الموطأ والشيباني في موطئه ص 376. وقد ورد في ص 242 من كتاب اختلاف مالك والشافعي ما يشير إلى أن عمل أهل المدينة كما لو أنه يخالف لأحاديث النبي.

أحاديث العمري - ويأخذ عامة أهل العلم في جميع الأمصار بغير المدينة، وأكابر أهل العلم⁽⁸⁾. كما تتنافى مع مناظراته القوية لأهل المدينة.

وقد ورد ذكر ثلاثة أقاليم جغرافية كبيرة في الكتب القديمة وهي: العراق، والحجاز، والشام. وينقسم أهل العراق إلى كوفيين وبصريين. وعلى الرّغم من تكرار ذكر البصريين⁽⁹⁾ من حين إلى آخر، إلا أنه لا يعرف بالتفصيل إلا القليل من مذهبهم⁽¹⁰⁾، وإن معرفتنا بالعراقيين مقتصرة على أهل البصرة. وكذلك ينقسم الحجاز إلى مكة والمدينة⁽¹¹⁾.

وما نعرفه بالتفصيل عن المدينة لا يمكن مقارنته بما نعرفه عن مكة ولا تكاد تذكر مدرسة الشام إلا نادراً⁽¹²⁾، ولدينا بعض الصحف الموثقة عن إمامها الأوزاعي.

(8) الأم: اختلاف مالك والشافعي ص 201، ص 196. وفي هذين الوضعين يمتنع الشافعي لرأي فقهي بـ (فتوى جميع الناس ما عدا أهل المدينة من أهل مكة والمشرق واليمن) في مواجهة مذهب أهل المدينة.

(9) انظر مثلاً: كتاب اختلاف مالك والشافعي (على هامش الأم) 7/ 238 - 243 (وفي صفحة 243 نقاش مع بصري). انظر أيضاً، كتاب الرد على محمد بن الحسن 7/ 287 (والشيباني لا ينتمي إلى البصريين)، وكتاب سير الأوزاعي 17/ 319 وكتاب اختلاف الحديث 7/ 36، 62، 181، 264، والرسالة ص 305 طبعة شاكر وص 34، 62 من طبعة بولاق سنة 1321. ابن سعد: الطبقات الكبير 7/ 158 طبعة سخاو - لايدن 1904.

(10) ومثال ذلك أن خصم الشافعي وهو من العراقيين لم يعرف رأيي المقتين في البصرة. انظر اختلاف أهل الحديث 337.

(11) انظر مثلاً: كتاب اختلاف مالك والشافعي ص 182 (قارن بالموطأ 3/ 183) بشرح الزرقاني - القاهرة (1310) وكذلك ص 195 من المصدر السابق نفسه (قارن بالزرقاني 1/ 263) وأيضاً: الصفحات 196، 206، 221. اختلاف الحديث 7/ 338 (وفيه ذكر لعطاء وأصحابه) الرسالة 62 (طبعة بولاق). الأم: 6/ 185 (قارن: كتاب اختلاف مالك والشافعي 208) انظر ما سيتبع ص 249.

(12) كتاب اختلاف مالك والشافعي 212 (قارن: الطبري: اختلاف الفقهاء 81 طبعة كيرن)، كتاب الرد على محمد بن الحسن 287، الرسالة: 62 بولاق 1323 الشيباني: الآثار 37 طبعة لاهور. يقول الشيباني (كتاب الرد على محمد بن الحسن كما لو أنّ أهل الشام ليسوا في الحسبان. وهذا أبو يوسف (كتاب سير الأوزاعي ص 303) يجعل الأوزاعي إمام أهل الشام في عداد الحجازيين (لكون الأوزاعي والحجازيين يرون في المسألة رأياً واحداً - المترجم).

ولم تهتم مصر بإنشاء مدرسة فقهية خاصة بها، وظلت واقعة تحت تأثير المدارس الأخرى، وهناك أتباع لمذهب العراقيين في مصر إلا أن الغالبية تنتمي إلى مدرسة المدينة وجعلوا لهم فرعاً فيها، ويصفهم الشافعي في كتاباته الأخيرة بمصر بـ (المصريين) أو بقوله: (بعض أهل ناحيتنا)⁽¹³⁾. ويعد الشافعي نفسه عضواً في مدرسة المدينة. والإشارة إلى المدنيين والحجازيين بقوله: (أصحابنا) وإلى مالك بقوله: (شيخنا) أو (شيخنا وشيخكم) تسود في أغلب كتاباته القديمة والجديدة. وكذلك ينظر إليه خصومه العراقيون على أنه من أهل المدينة، أو على أنه تلميذ لمالك أو أحد الحجازيين عموماً.

ولا يعد الشافعي نفسه مع أنصار مالك داخل مدرسة المدينة على الرغم من تلهفه للدفاع عن مالك ضد أي هجوم وإن لم يكن بذي بال، وهو يتعامل بفتور مع أهل المدينة وينكر عليهم آراءهم التي لم يسهم فيها.

ولم يكن التوفيق ممكناً بين الشافعي وأهل المدينة، ولا بينه وبين أي مدرسة فقهية قديمة أخرى في أصل الاختلاف الجوهرية في النظرية الفقهية وهو تغليب سلطان الأحاديث النبوية على ما هو معمول به من آثار في تلك المدرسة.

وعندما بلغ الشافعي هذا الموضوع هاجم بشدة أهل المدينة، وما كتابه اختلاف مالك والشافعي إلا هجوم قوي على أهل المدينة، لإعراضهم عن الأحاديث النبوية التي رووها هم أنفسهم (والإقبال على آثار الصحابة والتابعين)، ومحاولة لتحويلهم إلى رأيه الخاص. ويستعمل الشافعي أيضاً الحجج التي تحقق أقل الإنصاف لأهل المدينة⁽¹⁴⁾.

ويهاجم العراقيين بالقوة نفسها التي هاجم بها أهل المدينة، وحتى عندما يكون متفقاً مع العراقيين ومختلفاً مع المدنيين فهو يميل للابتعاد عن أهل

(13) كتاب اختلاف مالك والشافعي ص 245، واختلاف الحديث ص 32، 91، 122، 132، 217، 289، الأم: 6/185. في عديد من هذه المواضع يعرفون بأنهم من أهل المدينة. اختلاف الحديث ص 34 ويدهورهم الشافعي بقوله: «أصحابنا» ويريد بهم عادة أهل المدينة.

(14) انظر ما سيتبع ص 321.

العراق والاقتراب من أهل المدينة. وغالباً ما يجد نفسه مدفوعاً للاعتذار عن المدنيين والحمل على العراقيين بكل ما في وسعه، كما يظهر بعض التعاطف مع الأوزاعي لكونه مخالفاً للعراقيين. ويهاجم العراقيين مراراً بحجج غير مقبولة ويشوّه مذهبهم⁽¹⁵⁾.

ويمكن أن نتلمس تعامله الشديد على الشيعاني في مواضع عديدة من كتبه، لا سيما في كتابه الرد على محمد بن الحسن حيث يقدم مالكا عليه بقوله: مالك أعظم منه. وفي كتابه الاختلاف وهو كتاب ألفه متأخراً نجد إشارات عديدة مهذبة للعراقيين ويتمنى الشافعي لو أن الحجة التي سيقدمها تعين محدثه الكوفي على إفحام جميع أصحابه، الذين لهم علم بمذاهب الناس وبيان العقول. (الاختلاف ص 38).

وهو يعترف بأن محدثه يتصف بالموضوعية من حين إلى آخر، وعليه إن تبيين له موضع الحق أن يرجع إليه (اختلاف ص 53).

ويشير الشافعي إلى «مقدم من أهل العلم ممن يكثر خلافنا» وهم العراقيون. (اختلاف ص 328).

وبعيداً عن ارتباطه العاطفي بأهل المدينة، وعلى الرغم من مناظراته القوية، يرى الشافعي نفسه إجمالاً لا يمت إلى هذه المدرسة بصلة.

وقد بدأ متبعاً لمدرسة المدينة، مطوراً نظريته الفقهية، واضعاً الشريعة برمتها على أساس جديد، وتحول لمواجهة أصحابه القدماء، ساعياً لتحويلهم إلى مذهبه. وأخيراً حاول أيضاً أن يقنع العراقيين الذين تعامل معهم في مراحله الأولى بسخريّة.

وبعد عصر الشافعي أخذت الملامح الجغرافية للمدارس الفقهية القديمة تختفي أكثر فأكثر، وتغلب الارتباط الشخصي بالأمة. «التقليد».

(15) انظر ما سيجع ص 321 وما بعدها.

الشافعي والإجتهاد الفقهي

إن المبحث الرئيس في مناظرات الشافعي لخصومه هو وظيفة الأحاديث النبوية، إذ يصرّ من حين إلى آخر على أنه لا حجة تعلق بحجة النبي ما لم يشهد على صحتها حديث مستقل. وأن كل حديث نبوي صحيح مقدّم على آراء الصحابة والتابعين والأئمة الذين جاءوا بعدهم. وهذه من الأمور المسلّم بها في نظرية الفقه الإسلامي التقليدي. ولكن إصرار الشافعي المستمر على هذا الرأي يدلّ على أنه لم يكن موجوداً على هذا النحو في أيامه.

ويزعم الشافعي أن خصومه يوافقونه على هذا الأصل «حيث سئل: فهل تجد لرسول الله سنة ثابتة من جهة الاتصال خالفها الناس كلّهم؟ فأجاب: لا، ولكن قد أجد الناس مختلفين فيها: منهم من يقول بها، ومنهم من يقول بخلافها. فأما سنة يكونون مجتمعين على القول بخلافها فلم أجد لها قط»⁽¹⁾.

غير أن إدخال الشافعي عنصر الإجماع في النقاش، وإقحام المذاهب الفعلية للمدارس الفقهية القديمة التي تزوّده بالمادة الأساسية لمناظراته القوية، يشير إلى أن مطالبة الشافعي باتفاق عام ما هي إلا نقطة بحث ذكية اختلقها الشافعي.

ولم تستطع مدارس الفقه القديمة الجواب عن المسائل التي دقّقها الشافعي لمجابهتها. وقد تعمّدت الإعراض عنها على الرغم من نظريتها الفقهية الخاصة بها التي قد نمت إلى حدّ ما، فجعلها الشافعي أكبر همّه، وهو ما يفسّر تأثير مذهبه في النظرية الفقهية للمذاهب الأخرى. ويعتز الشافعي باتخاذ هذا الموقف من الأحاديث النبوية، ويصرّح بذلك في قوله: «لم يختلف بنعمة الله قلبي في أنه لا أذهب إذا ثبت عن النبي ﷺ شيء أن أدعه لأكثر أو أقل

(1) الرسالة ص 65 طبعة بولاق، وللمزيد من التفاصيل انظر: اختلاف الحديث ص 338 وما بعدها (مطبوع على هامش الجزء السابع من كتاب الأم).

مما خالفنا»⁽²⁾. وعلى الرغم من ذلك نجد آثاراً لموقف يتفق مع موقف المدارس القديمة في بعض كتابات الشافعي القديمة، ويمكن أن يستدل عليها من خلال أمثلة أخرى سنعرض لها فيما بعد. ولكن تظل تلك الآثار حالات مستثناة، ويبقى مذهب الشافعي إجمالاً متماسكاً وقوياً كما يدّعي.

ويعكس ما جاء في كتابه الرسالة من 38 تطوره العلمي من التسليم بمذهب أهل المدينة الذي نشأ فيه، إلى التسليم المنهجي بالأحاديث النبوية، فيقول إنه قد سمع ممن سبقه بالعلم من الفقهاء وهو صغير صيغة للشاهد تروى عن عمر بن الخطاب، ثم يقول إنه سمعه بإسناد وسمع ما خالفها عن أصحابه.

ويعدُّ كتابه (اختلاف مالك والشافعي) الموجّه ضد أهل المدينة الكتاب الرئيس الذي قدّم فيه الشافعي نظريته عن الأحاديث، ويتدنه بقوله: إذا حدث الثقة عن الثقة حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ فهو ثابت عن رسول الله ﷺ، ولا نترك لرسول الله حديثاً أبداً إلا إذا وجد عن رسول الله حديث يخالفه. وإذا اختلفت الأحاديث عنه، فالاختلاف فيه وجهان: أحدهما أن يكون بها ناسخ ومنسوخ، فنعمل بالناسخ ونترك المنسوخ. والآخر أن تختلف ولا دلالة على أيها الناسخ، فنذهب إلى أثبت الروايتين، فإن تكافأتا ذهبنا إلى أشبه الحديثين لكتاب الله وسنة نبيه فيما سوى ما اختلف فيه الحديثان من سنته، ولا يعدو حديثان اختلفا عن النبي ﷺ أن يوجد فيهما هذا أو غيره مما يدل على الأثبت من الرواية عن رسول الله ﷺ.

ويظل الشافعي يكرر كلامه هذا في رتبة مملّة، وإن كان نصفه الأخير ذا أهمية بالغة.

ولإصرار الشافعي على تكرار مبدأ شاع فيما بعد دلالة كبيرة، وقد اعتمد عليه الشافعي وأهل المدينة في الأخذ بالأحاديث النبوية عند مناقشة المسائل.

وقد نشب الخلاف بين الشافعي وأهل المدينة عندما أعرض هؤلاء عن

(2) الأم: اختلاف مالك والشافعي 247/7.

الحديث النبوي في حالات عديدة، وأخذوا بأقوال الرجال.

ويعترف الشافعي بأنه حاول جاهداً أن يلتزم لهم العذر في ذلك ليبرر صنعهم في عينه وفي أعين الفقهاء الآخرين، إلا أنه لم يجد لهم ذلك.

وينطبق هذا فقط - حسب قول الشافعي - على الأحاديث التي يروها رجال ثقات، وهذه يجب أن تؤخذ دون تردد.

ولا يقدم على الحديث النبوي أي شيء إلا حديث نبوي آخر إذ الناس جميعهم بحاجة إلى النبي وأن الله أمرهم باتباعه.

وقد أفتع الشافعي محدثه الربيع بالآ يدع لمخول الله حديثاً أبداً إلا أن يأتي عن رسول الله خلافة⁽³⁾.

وهكذا استعمل أهل المدينة ومدارس الفقه القديمة الأحاديث النبوية على وجه العموم على أنها أساس لكثير من الأحكام، ولكنهم مع ذلك قدموا عليها أعمال الصحابة وأقوالهم دون التعرض لأعمالهم هم الخاصة.

وقد أدرك الشافعي أن هذا لا يؤدي إلى قاعدة ثابتة ومقنعة للأحكام الشرعية، وأن المرجع الأكيد هو النبي وحده، ولذلك جعل الأحاديث النبوية أساساً لمذهبه ورد سواها.

وقد مكّنه هذا الحل البسيط من إيجاد طريقة عبر هذا التناقض الموجود بين الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والأئمة الآخرين⁽⁴⁾.

وإذ قيد الشافعي نفسه بالأحاديث النبوية - وقد طرأت في عصره - فقد حرم نفسه من الشأ الطيعية والمستمرة للمذهب داخل مدارس الفقه القديمة.

وتقبل الأحاديث النبوية على رأي الشافعي دون مسألة أو تفكير:

«ما ثبت عن النبي ﷺ فليس فيه إلا التسليم، فقولك وقول غيرك فيه: لِمَ؟ وكيف؟ خطأ... وكيف إنما تكون في قول الأدميين الذين يكون قولهم

(3) المصدر السابق 7/ 183، وثمة أقوال مماثلة في الرسالة ص 47. واختلاف الحديث 19.

(4) ويبدو هذا الرأي جلياً في: اختلاف مالك والشافعي 179 وفي اختلاف الحديث 133.

تبعاً لا متبوعاً، ولو جاز في القول اللازم كيف، حتى يحمل على قياس أو فطنة عقل لم يكن للقول غاية ينتهي إليها، وإذا لم يكن له غاية ينتهي إليها بطل القياس».

وعند اختلاف حديثين نبويين أو أكثر يحاول الشافعي أن يوفق بينهما، ولذلك خصّص لهذا الغرض كتابه (اختلاف الحديث). ومن وجد حديثين مختلفين في الظاهر وأمكنه أن يجمع بينهما مع التفريق بين حالتيهما، فليفعل. (الاختلاف ص 271). ولا يوجد عند الشافعي حديثان مختلفان أبداً، إذا كان هنالك سبيل للجمع بينهما ولا يقدم أحدهما على الآخر، لأنهما متكافئان من حيث الثبوت، ولا يكونان مختلفين عنده إلا إذا كان استعمال أحدهما يعني طرح الآخر. (الاختلاف ص 330). وقد ذكر في كتابه الرسالة (ص 30) عرضاً مفصلاً لمنهجه في تأويل الأحاديث.

وحيثما اختلف حديثان يتعذر الجمع بينهما قدّم الشافعيّ أشبههما بكتاب الله وسنة النبيّ الصحيحة، وقد عبّر عن ذلك في كثير من كتبه، فهو يقول مثلاً في كتابه (الرسالة ص 40):

«إن الأحاديث إذا اختلفت لم نذهب إلى واحد منها دون غيره، إلا بسبب يدلّ على أن الذي ذهبنا إليه أقوى من الذي تركنا، كأن يكون أحد الحديثين أشبه بكتاب الله. فإن لم يكن فيه نصّ من كتاب الله، كان أولاهما بنا الأثبت منهما، وذلك أن يكون من رواه أعرف إسناداً، وأشهر بالعلم، وأحفظ له، أو يكون روي الحديث الذي ذهبنا إليه من وجهين أو أكثر، والذي تركنا من وجه، فيكون الأكثر أولى بالحفظ من الأقل، أو يكون الذي ذهبنا إليه أشبه بمعنى كتاب الله، أو أشبه بما سواه من سنن رسول الله، أو أولى بما يعرف أهل العلم، أو أصحّ في القياس، والذي عليه الأكثر من أصحاب رسول الله»⁽⁵⁾. وفي الغالب اعتاد الشافعي اللجوء إلى الترجيح بكثرة العدد إذا أعوزته وسيلة الجمع بين الحديثين المتعارضين، فيقدم ما رواه الكثرة على

(5) حول تطبيق هذا المنهج انظر: اختلاف الحديث 208، 219، 222، 234، 267.

القلة، وهذه وسيلة استعملت قبله⁽⁶⁾. ويُقدّم النصّ المثبت على النصّ الثاني، لأنّ في الإثبات زيادة حفظ، ويُقدّم النص الذي يحتوي على زيادة على النص الذي لا يحتويها⁽⁷⁾.

إلا أنّ الشافعي عمل بخلاف هذه القاعدة الأخيرة في كتابه الاختلاف (ص 364) معللاً صنعه ذلك بأسباب نظرية⁽⁸⁾.

وهذه الاعتبارات جميعها لم تعطه دلالة أكيدة، فوجد نفسه مكرهاً كما هي الحال في مدارس الفقه القديمة، على إثبات أن تلك الأحاديث والروايات المختلفة التي لم يتقبلها، هي أحاديث غير ثابتة⁽⁹⁾.

«ولا يحكم بنسخ أحد الحديثين المتعارضين إلاّ بخبر عن رسول الله أو بقول أو بوقف يدلّ على أن أحدهما بعد الآخر، فيعلم أنّ الآخر هو الناسخ، أو بقول من سمع الحديث أو العامة، أو بوجه آخر يبين فيه الناسخ والمنسوخ» (الاختلاف ص 57).

ولم يتمكن الشافعي من تطبيق منهجه هذا دائماً، ففي كتاب (الاختلاف 88)، وفي معرض الكلام عن حكم شرعيّ، يرّد حديثاً ثابت الإسناد، بافتراض أنه منسوخ، معتمداً على أقوال رجال غير النبي. وهكذا يدّعي النسخ في كل ما جاء عن خصومه ولا يتفق معه⁽¹⁰⁾.

(6) لمعرفة استعمال الشافعي لهذا الأسلوب راجع: كتاب اختلاف مالك والشافعي 225 واختلاف الحديث ص 165، 206، 212، 230، 290، وعن استعماله قبل الشافعي انظر: اختلاف الحديث ص 243.

(7) والنصّ المثبت هو المفضّل. انظر: اختلاف الحديث 212، 215. والنص الثام هو المفضل انظر: اختلاف الحديث 228، 409.

(8) الأم: اختلاف العراقيين 99/7. واختلاف الحديث 379. وتفضل مدارس الفقه القديمة ومنهم العراقيون على وجه الخصوص الحديث الثاني على للثبت، والذي فيه نقص على الذي فيه زيادة كما محتج بالإنكار and to argue silentio...انظر: اختلاف مالك والشافعي ص 181، 183، واختلاف الحديث ص 48، 50.

(9) انظر كتاب اختلاف مالك والشافعي 50 ولمعرفة المزيد عن منهج الشافعي في التأويل انظر: سيأتي في هذا الكتاب ص 47، 56.

(10) اختلاف الحديث ص 245، 258.

أما فيما يتعلق بنسخ القرآن للسنة أو الحديث وبالعكس، فإن الشافعي يرى أن القرآن لا ينسخه إلا قرآن، وأن السنة وهي المكملّة للقرآن لا تنسخه.

ومن جهة أخرى لا تنسخ السنة إلا سنة مثلها.

وكلما تبدّل حكم الله في مسألة وردت فيها سنة، جاء النبي بسنة أخرى تنسخ السنة الأولى، وبمعنى آخر يمكن ردّ أي حديث نبوي يتعارض مع القرآن، كما يمكن الإعراض عن أي سنة تقف إلى جنب نص قرآني يفيد العموم وإن كانت موافقه له⁽¹¹⁾.

ويبدو أنّ هذه النظرية قد وازنت بين القرآن والسنة بالقسط، ولكنها جعلت السنة كما وردت في الأحاديث النبوية تقضي على القرآن وتهيمن عليه، لأن القرآن - كما سمرى - يفسّر في ضوء الأحاديث.

وتلغي نظرية الشافعي في النسخ الحدّ المترتب على الزنا والفجور⁽¹²⁾.

«فليس يخالف القرآن الحديث ولكنّ حديث رسول الله مبین لله» (الأم، كتاب سير الأوزاعي 309) وفي الرسالة ص 104: «لم تكن السنة لتخالف كتاب الله، ولا تكون السنة إلا تبعاً لكتاب الله بمثل تنزيهه، أو مبيّنة معنى ما أراد الله، فهي بكلّ حال متبعة كتاب الله».

«وأولى المعاني بكتاب الله ما دلّت عليه سنة رسول الله، وأولى المعاني بنا أن لا تكون الأحاديث مختلفة، لأنّ علينا في ذلك تصديق خير أهل الصدق ما أمكن تصديقه» (الاختلاف 296). ويكرر الشافعي هذه العبارات ويزيد في تفصيلها في مواضع أخرى⁽¹³⁾.

ثم يسخر من أولئك الذين تجاسروا ونقدوا الأحاديث لمخالفتها للقرآن، فيقول: «لو جاز أن تترك سنة إلى ما ذهب إليه منّ جهل مكان السنن من

(11) الرسالة ص 17 وما يليها (يصوّب هذا يفتّح صدور طبعة أحد شاكر المحققة) انظر أيضاً ص 30 وما يليها من المصدر نفسه. واختلاف الحديث ص 41 وما بعدها وص 48.

(12) الرسالة 20 وما يليها. اختلاف الحديث 44، 249 وما يليها.

(13) وهذا مذهب أهل الحديث. انظر، ابن قتيبة: غتلف الحديث ص 312: «أحاديث النبي تفسر القرآن وتوضحه».

الكتاب - لرذت كثير من الأحكام الأساسية التي سنّها النبي بحجة أن القرآن نسخها - ومن قال هذا كان معطلاً لعامة سنن رسول الله، وهذا القول جهلٌ ممن قاله» (الرسالة 109).

والشافعي يدعم موقفه المؤيد للسنة النبوية بالآيات القرآنية التي نحث على طاعة النبي⁽¹⁴⁾. ويفسر لفظة (الحكمة) في الآية (ويعلمكم الكتاب والحكمة) بأنها السنة النبوية المتمثلة في الأحاديث. (الام، كتاب جماع العلم ص 251).

وفي مسألة هل السنة وحي كالقرآن؟ أجاب بأنه لا يعلم⁽¹⁵⁾. وفي كل الأحوال نجد سنن النبي حجة لكونها وحيًا من الله شأنها شأن الأوامر القرآنية المحكمة، لأن الله فرض طاعة نبيه. «كتاب جماع العلم، باب إبطال الاستحسان ص 271).

فما أحله النبي أو حرّمه فهو تحليل وتحريم من الله لأنه أمر نبيه بذلك. (كتاب سير الأوزاعي ص 307).

وهذا كلّه ينطبق على الأحاديث النبوية فقط، وقد فزق الشافعي بينها وبين أقوال الصحابة والتابعين، وهذه الأخيرة تعرف في اصطلاح الشافعي بالآثار، وهي ليست حجة إذا تعارضت مع السنة النبوية، وليست لها المكانة نفسها، ولا قيمة لها بجانبها.

وأحسن ما جاء تفصيلاً لهذا الكلام ما ورد في كتاب الشافعي (الاختلاف

(14) الرسالة 17 (طبعة بولاق). الأم: بيان فرائض الله 262/7. انظر أيضاً: اختلاف الحديث ص 91.

(15) الأم: إبطال الاستحسان 271/7. الرسالة 16 (بولاق). ابن قتيبة: مختلف الحديث ص 246 (طبعة القاهرة 1326).

[النص كما في إبطال الاستحسان هو: «... فهل سنة رسول الله ﷺ بوحي؟ قيل: الله أعلم». يبدو أن هذا الكلام ليس للشافعي وإن احتمله السياق لأن الشافعي يصرّح بعد ذلك وفي المكان نفسه من إبطال الاستحسان، فيقول: «وما فرض رسول الله ﷺ شيئاً قط إلا بوحي. فمن الوحي ما يتلى ومنه ما يكون وحيًا إلى رسول الله ﷺ فيستن به...» (الترجم).

ص 138): «ويعلم أنَّ الحديث إذا رواه الثقات عن رسول الله فذلك ثبوته، والأ نعوّل على حديث ليثبت أن وافقه بعض أصحاب رسول الله، ولا يُردُّ لأن بعض أصحاب رسول الله عمل عملاً يخالفه. لأن بأصحاب رسول الله والمسلمين كلهم حاجة إلى أمر رسول الله وعليهم اتباعه، لا أنَّ شيئاً من أقاويلهم تبع ما رَوَى عنه ووافقه يزيد قوله شدة، ولا شيئاً خالفه من أقاويلهم يوهن ما رَوَى عنه الثقة. فإن قال قائل: أتتهم الحديث المروي عن النبي إذا خالفه بعض أصحابه جاز له أن يتهم الحديث عن بعض أصحابه لخلافه، لأن كلا رَوَى خاصة معاً وأن يتهما. فما رَوَى عن النبي أولى أن يُصار إليه. ومن قال منهم قولاً لم يروه عن النبي لم يجز لأحد أن يقول إنَّما قاله عن رسول الله لما وصفت من أنه يعزب عن بعضهم بعض قوله، ولم يجز أن نذكره عنه إلا رأياً ما لم يقله عن رسول الله. ولو قال قائل لا يجوز أن يكون إلا عن رسول الله لم يحلّ له، خلاف مَنْ وضعه هذا الموضع. وليس من الناس أحد بعد رسول الله إلا وقد أخذ من قوله وترك لقول غيره من أصحاب رسول الله. ولا يجوز في قول رسول الله أن يردّ لقول أحد غيره».

وكما فعل الشافعي مع الأحاديث النبوية في مذهبه، يزعم أن هذه الإضافة إليه هي موضوع مشترك بينه وبين خصومه، ولا سيما العراقيين⁽¹⁶⁾.

ولكن يتضح ثانياً من مناظرات الشافعي، ومن عبارات له من قبيل ما جاء في (كتاب الردّ على محمد بن الحسن الشيباني) أنه يغلب وجهة نظره فيها رافضاً نظريتهم الساذجة، وواضعا إياهم في موقف يجعلهم غير قادرين على تبرير موقفهم المختلف.

ويتجاهل الشافعي في نظريته تفسير السنة النبوية بقول الصباح، كما لو أنه يمكن تأكيدها بهذه الطريقة، وأن أقوال غير النبي يجب أن تفسر إلى حدّ ما في ضوء ما يروى عن النبي (الأم 7/ 101). وقد ذهب إلى أبعد من ذلك وهو أنَّ قول الرسول أدلّ على نفسه من قول غيره، وأنّه لا يستدلّ على قول

(16) الأم: اختلاف مالك والشافعي 244/7.

الرسول إلا بقوله هو، (الاختلاف 325). وأنه إذا روى صحابي حديثاً عن النبي وعمل بخلافه وجب تقديم حديثه على عمله (الأم 154/7).

ولم يبلغ استدلال الشافعي دائماً هذا المستوى. ولكن لم يكن هنالك ما يدعو للتضحية بالمبدأ عندما يحتج عاطفياً لا عقلياً بأقوال الصحابة على أئمة المدارس الفقهية القديمة⁽¹⁷⁾.

ومن جهة أخرى لم يتردد الشافعي في الاحتجاج بأقوال الصحابة بوصفها دليلاً آخر إلى جانب ما ورد عن النبي في سنته. ويقصد بهذا أحياناً مخاطبة العاطفة والهوى لا العقل، ولكن ليس ذلك في معظم الأوقات. وقد أدى ذلك دوراً مهماً في استدلال الشافعي في كتاب (اختلاف العراقيين) وكتاب (اختلاف علي وعبد الله بن مسعود) وكتاب (اختلاف مالك والشافعي)، وفي مواضع أخرى (من كتابه الأم).

وبأسلوب مدارس الفقه القديمة يحتج الشافعي بين الفينة والأخرى بأحاديث الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة، وأقوال من جاء بعدهم لبيان استمرار المذهب، مذ أخذ النبي يقدم حكمه أو مذ أنجز عمله النموذجي.

وبصرف النظر عن هذا فإن الشافعي يحتج غالباً بأقوال الصحابة في الحالات التي لا توجد فيها أحاديث نبوية⁽¹⁸⁾. وهو يقول بكل وضوح:

«ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر عن سماعهما مقطوع إلا باتباعهما، فإذا لم يكن ذلك، صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله أو واحد منهم، ثم كان قول الأئمة، أبي بكر أو عمر أو عثمان إذا صرنا فيه إلى التقليد

(17) الأم: اختلاف مالك والشافعي 214/7، 216.

(18) انظر مثلاً: الأم: اختلاف العراقيين 104/7، 110، 122، 125، 142، 146 اختلاف علي وعبد الله بن مسعود 158/7 سطر 31، 159 سطر 16، 163 سطر 6، 177 سطر 6. اختلاف مالك والشافعي 236/7 سطر 21، 237 سطر 2 الرد على محمد بن الحسن 277/7، سير الأوزاعي 7/310، 312، 324 انظر كذلك: الأم/ اختلاف مالك والشافعي 214/7. يقول الشافعي: «... فينبغي أن يكون ذلك العمل مردوداً عندنا ونختلف عمر مع السنة لأنه يضيّق خلاف عمر وحده فإذا كانت معه السنة كان خلافه أضيق...».

أحبّ إلينا⁽¹⁹⁾. فإذا لم يوجد عن الأئمة فأصحاب رسول الله من الدين في موضع أخذنا بقولهم، وكان أتباعهم أولى بنا من أتباع من بعدهم⁽²⁰⁾. ويعرف الرجوع إلى أقوال الصحابة بالتقليد⁽²¹⁾.

وقد شاع ذلك عند الشافعي ومدارس الفقه القديمة.

وعلى الرغم من أن الشافعي أخضع أقوال الصحابة لأحاديث النبي وسنة من حيث المبدأ - إلا أنه هاجم العراقيين وأهل المدينة معاً، بسبب عدم اتباعهم بما فيه الكفاية لأقوال الصحابة⁽²²⁾. وعلى الرغم من رجوعه إلى موطن الحجة في أقوال الصحابة لم يقدر الشافعي على تقديم حجة مقنعة لقبول آرائهم. وقد سئل: «أرأيت أقاويل أصحاب رسول الله إذا تفرقوا فيها؟ فقال: نصير منها إلى ما وافق الكتاب أو السنة أو الإجماع، أو كان أصح في القياس، قيل: أفرأيت إذا قال الواحد منهم القول لا يُحفظ عن غيره منهم فيه له موافقة ولا خلافاً. أنجد لك حجة باتباعه في كتاب أو سنة أو أمر أجمع الناس عليه؟ قال: ما وجدنا في هذا كتاباً ولا سنة ثابتة، ولقد وجدنا أهل العلم يأخذون بقول واجدهم مرةً، ويتركونه أخرى، ويتفرقون في بعض ما أخذوا به منهم».

وموقف الشافعي هو اتباعهم حيث لا كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس. وقُل ما يوجد من قول الواحد منهم لا يخالفه غيره من هذا. (الرسالة ص 261).

ولذلك فإن الشافعي مكره على ترديد حجة المدارس القديمة: «الصحابة

(19) وفي مواضع أخرى يُذكر معهم عليّ، فيقول الشافعي في كتاب اختلاف علي وعبد الله بن مسعود 135/7: «... ولو ثبت هذا الحديث عندنا عن علي رضي الله عنه لقلنا به...».

(20) الأم: اختلاف مالك والشافعي 246/7.

(21) الأم: اختلاف العراقيين 90/7، اختلاف مالك والشافعي 221/7، 233، 246 الرد على محمد بن الحسن 287/7 وعن المعنى المتأخر للتقليد راجع ما سبق ذكره من كتابنا هذا ص 6 (الفصل الثاني/ هامش رقم 2).

(22) الأم: اختلاف العراقيين 135/7، اختلاف مالك والشافعي 192/7، 215، 236.

أعلم بكتاب الله وقولهم غير مخالف إن شاء الله تعالى كتاب الله» (الأم 7/ 20).

لكنّ هذا غير منطقي لأن الشافعي يرفض - من حيث المبدأ - أن ينسب إلى الصحابة الدور نفسه الذي تقوم به سنة النبي.

وأما فيما يتعلق بعمل الصحابة بوصفهم رواة للأحاديث النبوية فيزعم الشافعي أنهم جميعهم ثقة والحمد لله (اختلاف الحديث 360). وهو لم يكن يعرف بعد الحديث النبوي الذي ظهر فيما بعد، مبرراً الاقتداء بالصحابة وهو «أصحابي كالنجوم».

ولم يقدم فقط الأحاديث النبوية الصريحة على أقوال الصحابة، ولكن أيضاً ما ترتب عليها من قياس واستنتاجات أخرى⁽²³⁾. وهي لا تترك لقول من جاء بعدهم أو لرأي خاص⁽²⁴⁾. وكان الشافعي في كتبه الأولى يأخذ بأقوال الصحابة ولو كانت مخالفة للقياس المنهجي، ولكنه فيما بعد غلب القياس عليها،⁽²⁵⁾ بالرغم من أن ذلك قد حدث في فترة مبكرة. وقد نُسِر أقوال الصحابة بالطريقة نفسها التي سلكها مع الأحاديث النبوية، إلا أنه أظهر موقفه المتحفظ منها بشكوكه المتكررة في صحتها.

وأما أقوال التابعين فلا تزال أقل حجّة عنده، مفضلاً تقديم أقوال الصحابة عليها أو مساواتها بها على الأقل (الاختلاف 51/7). فأراء التابعين ليست حجة قاطعة⁽²⁶⁾.

ولكن على الرغم من أن كل تبرير منهجي هو تبرير ناقص، فإن الشافعي

(23) الأم: اختلاف مالك والشافعي 183/7، 217 وما يليها. كتاب سير الأوزاعي 330/7 الرسالة 75 (بولاق).

(24) الأم: اختلاف مالك والشافعي 7/208، 248، 216، 218.

(25) حول هذا المذهب القديم للشافعي انظر الأم: الرد على محمد بن الحسن 7/297، اختلاف العراقيين 7/138 (وهذا توسط)، وعن ملعبه الجديد انظر إبطال الاستحسان 7/275 وهذه الشواهد الثلاثة جميعها في مسألة واحدة.

(26) الأم: اختلاف مالك والشافعي 7/246، الرد على محمد بن الحسن 7/287 الرسالة ص 74.

استعمل أقوال التابعين من حينٍ إلى آخر على أنها أدلة ثانوية، أو عند عدم وجود أدلة أقوى.

وكان على الشافعي أن يكافح لتأييد الأحاديث النبوية وتغليب حجيتها التي اذعابها لها على أقوال الصحابة بشكلٍ خاص. ومع أنه لا يزال يرى أقوال الصحابة تقع في المرتبة الثانية، غير أنه لم يجد مسوغاً نهائياً لاستعمالها. والشيء نفسه ينطبق بشكلٍ أكبر على أقوال التابعين.

وعلى أن نستنتج من ذلك أن خصومه (أنصار المدارس الفقهية القديمة) لم يعترفوا بعد بتقديم الأحاديث النبوية مطلقاً، فاحتجوا بشكلٍ رئيس بأقوال الصحابة والتابعين.

وتقديم الأحاديث النبوية على غيرها - من حيث المبدأ - هو أعظم ما أبدعه الشافعي من ناحية المنهج.

الفصل الرابع

الإحاديث في مدارس الفقه القديمة

إن موقف العراقيين وأهل المدينة من أحاديث الأحكام موقف متماثل، وهو يختلف جوهرياً عن موقف الشافعي.

وفي كتاب (اختلاف الحديث ص 30) نجد أن العراقيين وأهل المدينة جميعهم يهملون الأحاديث النبوية ويقدمون عليها ما يستنبطونه من القواعد العامة أو أقوال الصحابة.

ويحتج الشافعي أولاً على أهل المدينة بوجهة نظر العراقيين (ص 30 وما بعدها) ثم يعود إلى هؤلاء فيقول (ص 34 وما يليها):

«فإذا كانت لنا وَلَكَ بهذه الحجة على من سلك هذه السبيل، فهي عليك إذا سلكت في غير هذه الأحاديث طريقة». ثم يبيّن أن كلا الخصمين يحتجان بالأدلة نفسها، وأن الحجج التي يقدمها لأحد هذين هي نفسها التي يقدمها للآخر، موظفاً كل فريق من أجل دحض الآخر. وثمة نصوص أخرى عديدة توضح التأثير نفسه.

ويجد الشافعي موقفهم ركاماً من التناقضات، فيقول: «قد خالفتم ابن عمر في روايتكم، وما روى غيركم عن النبي لغير قول واحد علمتكم رويتموه عنه من أصحاب النبي ولا التابعين. فليست أدري لأي معنى تحملون ما حملتم من الحديث. إن كنتم حملتموه لتعلموا الناس أنكم قد عرفتموه فخالفتموه بعد المعرفة، فقد وقعتم بالذي أردتم، وأظهرتم للناس خلاف السلف. وإن كنتم حملتموه لتأخذوا به فقد أخطأتم ما تركتم منه. وما تركتم منه كثير في قليل ما رويتم. وإن كانت الحجة عندكم ليست في الحديث، فلم تكلفتم روايته واحتججتم بما وافقتم منه على مَنْ خالفه؟» (الأم 7/ 239 - 240 اختلاف الشافعي ومالك).

وحتى لو لم يكن هذا النص وغيره من النصوص الأخرى جزءاً من احتجاج الشافعي، فمن الواضح من مصادر أخرى غير كتاباته أنها لا تقدّم

صورة كاملة عن موقف المدارس الفقهية القديمة من الحديث النبوي⁽¹⁾.

وسوف ندرس الفكرة القائمة وراء هذا الاضطراب الظاهري في الفصل (السابع)، وحسبنا ها هنا أن نهتمّ بالمعالجة الفعلية للأحاديث النبوية وغيرها في المدارس القديمة.

والحقيقة المدهشة الأولى، هي أن الأحاديث النبوية قد فاقت في عددها أقوال الصحابة والتابعين. ففيما يتعلّق بأهل المدينة نجد أنّ موطأ مالك يحتوي، حسب إحدى القوائم التي عددها الزرقاني، على 822 حديثاً للنبي في مقابل 898 قولاً لغيره. منها 613 قولاً للصحابة و 285 قولاً للتابعين. بينما نجد الموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني يحتوي على 420 حديثاً نبوياً، في مقابل 750 قولاً لغيره؛ ومنها 628 قولاً للصحابة، و 112 قولاً للتابعين، وعشرة أقوال لمن جاء بعدهم.

وفي كتاب (اختلاف مالك والشافعي)، حيث يناقش الشافعي المسائل التي انحرف فيها المصريون - المدنيون عن الأحاديث النبوية التي رووها بأنفسهم، نجد أن الصفحات من 177 إلى 210 تتعامل مع الأحاديث النبوية، والصفحات من 212 إلى 240 تتعامل مع أقوال الآخرين، وأغلبها من أقوال الصحابة (باستثناء الصفحات 227 و 228 و 229 وهي تتعلق بأقوال التابعين ومن تبعهم).

أما فيما يتعلّق بالعراقيين، فإن عدد مرات رجوع ابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف إلى النبي في كتاب (اختلاف العراقيين) - الذي يناقش فيه الشافعي الاختلاف داخل مذهب العراقيين - هي أقلّ كثيراً من عدد مرّات رجوعهم إلى أقوال الصحابة والتابعين.

وفي كتاب (الآثار) للشيباني (وهو غير كامل) نجد 131 حديثاً نبوياً و 284 قولاً من أقوال الصحابة، و 550 قولاً من أقوال التابعين و 6 أقوال ممن جاء بعدهم. والأوزاعي - إمام أهل الشام - وحده أكثر رجوعاً إلى الأحاديث

(1) قارن الصورة الساخرة التي يعرضها الشافعي في الأم: اختلاف مالك والشافعي 212/7 مع عبارة مالك في مذهبه كما يروها الطبري في اختلاف الفقهاء ص 81 نشرة شاخت.

النبوية منها إلى أقوال الصحابة، كما جاء ذلك فيما بقي من آثاره في كتاب (سير الأوزاعي) للشافعي، وما حفظه له الطبري في كتابه (اختلاف الفقهاء)، وهو يسوق الأحاديث في الغالب دون ذكر أسانيدھا.

أ - أهل المدينة

يوصي الإمام مالك باتباع الأحاديث (الطبري 81)، ويرى التوفيق بين أقوال الصحابي أبي بكر التي نشأت قديماً، وأقوال النبي التاريخية (المدونة 3/7) كما توضحه تفاصيل مذهبه. وقد عاب المصريون من أنصار مدرسة المدينة غيرهم لتركهم الحديث وإعراضهم عنه وتحملهم في تأويله⁽²⁾، على الرغم من أنهم يشركونهم في بعض أمورهم كما قال الشافعي (الاختلاف 124)،

ويفتخر الشافعي بأن أحاديثه أثبت من أحاديث أهل المدينة (الأم 7/206)، وقد جمع ابن وهب طائفة منها في بعض المسائل (المدونة 28/4).

ومع ذلك فإن أهل المدينة ليسوا جاذبين في أخذهم بالأحاديث في نظر الشافعي، وهم عنده (يظهرون القول بالأحاديث)، ويقول عن أحدهم: «أظهر الأخذ بالحديث جملة»، ثم خالف معناه⁽³⁾ (الاختلاف 323). وقد سبق مالك وأهل المدينة الشافعي في التوفيق بين أحاديث النبي وأقوال الصحابة معاً، إلا أنهم مقارنةً، بالشافعي لم يستعملوا هذا الأسلوب إلا نادراً. ويبدو أنهم سلكوا في العموم مسلكاً متعسفاً في الترجيح بين الأحاديث المتعارضة، وأحياناً يعبر مالك عن ذلك بقوله: «أحب إلي»⁽³⁾.

(2) ليس ثمة دليل قاطع في المرجع المشار إليه على أن أصحاب هذا المسلك هم المصريون إذ إن الكلام يرجع إلى من وصفهم الشافعي بأنه قول جماعة من ناحيته كما في ص 122 من المرجع نفسه، وعبرة الشافعي: «ووافقنا بعض أهل ناحيتنا... ثم عاد» تنسحب على المصريين باعتبار إقامة الشافعي بينهم في أخريات عمره، كما تنسحب على غيرهم كالكيين من أهل الحجاز، حتى يقوم الدليل على أن كتاب (اختلاف الفقهاء) للشافعي قد صنف بمصر، ولم يصنف بغيرها وأُملِي فيها. (الترجم).

(3) وقول مالك: «أحسن ما سمعت» لا يراد به دوماً الأحاديث. انظر ما سيتبع ص 101 (1) من هذا الكتاب.

وبينما التزم الشافعيّ باتّباع الأحاديث النبوية والإعراض عمّا سواها في كلّ الأحوال، نجد أنّ أهل المدينة كانوا يتخيرون بحرية بين أحاديث النبي وأقوال غيره، وقد يردونهما معاً. ويقول الربيع بكلّ وضوح: «إنما ذهبنا إلى أن نثبت ما اجتمع عليه أهل المدينة دون البلدان كلها» (الأم 7/ 238)، ويقدم الرأي الصحيح والقياس على الأحاديث عند أهل المدينة. ويرى مالك ضرورة تبرير مذهبه لا بالتوفيق بين الأحاديث عن طريق التأويل فحسب، ولكن أيضاً بالاستدلال الفقهي والمعنوي⁽⁴⁾، ويصرّح بأنه جاهل بمقصود أحد الأحاديث النبوية من جهة صعوبة العمل به⁽⁵⁾.

والأحاديث النبوية مردودة في الغالب بأقوال الصحابة، وتطرح دون أيّ سبب ظاهر، ثمّ إنّها تفسّر على نحوٍ منتظم بأقوال الصحابة، بافتراض أن هؤلاء هم خير من يعرف سنة النبي⁽⁶⁾.

ولذلك يقول مالك: «ليس هنالك ما يدلّ على أن النبي أمر بذلك بعد غزوة حنين⁽⁷⁾، وأمّا أنه أمر به يوم حنين فتلك حقيقة واقعة لا جدال فيها، غير أنه لا دليل على أنه أمر به بعد ذلك أو عمله، وعلى الرغم من أن أبا بكر قد بعث سرايا كثيرة إلا أنه لم يرد دليل على أنه فعله هو أو عمر» (الطبري: الاختلاف ص 87 بتحقيق شاخت نفسه).

وقد فسّر أهل المدينة حديث (البينة على من ادعى) بما كان يعمل عمر، لأن عمر لا يجهل قول النبي ولا يخالفه⁽⁸⁾، ثم إن عمل الصحابي مقدّم على

(4) قارن ذلك بما ورد في الأم: اختلاف مالك والشافعي 7/ 181 والموطأ (بشرح الزرقاني - القاهرة 1310) 3/ 103، والمبدؤة (طبعة القاهرة 1323) 10/ 91.

(5) قارن ب: الأم: اختلاف مالك والشافعي 7/ 194، والموطأ 1/ 67، والمبدؤة 1/ 5.

(6) يرى الزرقاني في مواطن متفرقة من شرحه على الموطأ أن أقوال الصحابة ترجع إلى حديث النبي لأنها ميّنة له.

(7) وهذا يصححه نصّ مماثل ورد في الموطأ 2/ 305 بشرح الزرقاني، وفيه «باستثناء ما كان في يوم حنين» وقد لاحظ مالك أن يوم حنين كان آخر الغزوات التي شهدها النبي.

(8) الشافعي: اختلاف الحديث ص 325، وأيضاً الأم: اختلاف مالك والشافعي 7/ 190 (انظر الموطأ بشرح الزرقاني 1/ 263)، واختلاف مالك والشافعي 7/ 191. (انظر: الموطأ بشرح الزرقاني 1/ 246، والموطأ برواية الشيباني 133). واختلاف مالك والشافعي 7/ 220، 231.

روايته (عند التعارض)⁽⁹⁾.

ونجد أيضاً أحاديث نبوية يقلل (أهل المدينة) من شأنها، أو يفسرونها بشكل مقيد دون اعتماد على أقوال الصحابة⁽¹⁰⁾.

وإجمالاً، يمكننا القول بأن أهل المدينة يفضلون أقوال الصحابة على الأحاديث النبوية، وهذا الموقف لا يرضي الشافعي قطعاً، وهو موقف انعكس في حكاية الزهري مع صالح بن كيسان التي أوردها ابن سعد في طبقاته (2/ 135).

ويهاجم الشافعي مراراً على أهل المدينة فكرة أن الحديث النبوي لا يصح إلا إذا أتته عمل الخلفاء الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان، ويضاف إليهم ابن عمر والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، وهو من التابعين (الأم 187/7)، ويجب ألا نستنتج من ذلك أن مذهب أهل المدينة مبني بشكل مقصود أو بدرجة كبيرة على مجموعة من أقوال الخلفاء الراشدين.

وينفي ذلك أيضاً ما جاء في كتاب (اختلاف مالك والشافعي)، الذي يحتوي على أقوال لأبي بكر في موضع واحد منه (ص 212)، وأقوال لعثمان في موضع واحد أيضاً (ص 224)، وأقوال لعمر (في الصفحات 213 - 224)، وأقوال لعبد الله بن عمر (ص 229 - 240).

ويرى الشافعي نفسه - داخل الحدود التي حددها لأقوال الصحابة - أن أقوال الخلفاء الراشدين أكثر حجية من أقوال الصحابة الآخرين⁽¹¹⁾.

والزم الشافعي أهل المدينة بفكرة (تقديم) عمل أبي بكر وعمر وعثمان لأنها تنسجم مع موقفهم من أقوال الصحابة، وهي فكرة أكثر تشدداً، قياساً لما

(9) يمزى هذا المذهب إلى القاسم بن محمد. انظر اختلاف مالك والشافعي 247/7.

(10) يقول مالك كما يروي الزرقاني في شرحه عل الموطأ 1/ 184: «ليس كل ما يرد في الحديث يؤخذ به» قارن ذلك بما جاء في اختلاف الحديث ص 177 وما بعدها انظر أيضاً اختلاف مالك والشافعي 198/7 (ونظيره في الموطأ 2/ 348) وكذلك صفحة 204، 213 من اختلاف مالك والشافعي (ونظير ذلك في المدونة 15/ 195).

(11) انظر ما سبق ذكره في الصفحة رقم 669 من الفصل الثالث.

ينظرها عند أهل الشام⁽¹²⁾. ولم يكن ذلك من الشافعي إلا لدحضه هذه الفكرة⁽¹³⁾.

وفي القرون المتأخرة، أخذت هذه الفكرة تتأصل في المدرسة المالكية، حتى إن الخطابي (كما ذكر الزرقاني في شرحه على الموطأ 2/169) قد جعل من عمل الخلفاء الثلاثة الأوائل سبباً للترجيح بين الأحاديث المتعارضة. وأما القاضي عياض فقد احتج بالخلفاء الأربعة الأوائل لبيان أن أحد الأحاديث النبوية لا يتضمن حكماً عاماً، وإنما هو من خصوصيات النبي. (الزرقاني: الموطأ 1/248) ويعدّ عمر بن الخطاب وابنه عبد الله من أخص الصحابة الذين يعتمد عليهم أهل المدينة.

وأما دور ابن عمر بوصفه مصدراً أساسياً (لفقه أهل المدينة) فمذكور بجلاء في مواضع متعددة من كتاب (اختلاف مالك والشافعي)، ومن هذا القليل (الأم 7/223):

«قلتم: لا يُقَالُ لما رُوي عن عمر. لِمَ؟ ولا. كيف؟ ولا يُتَأَوَّلُ معه القرآن». وتقديم حكم عمر على حديث النبي في المذهب وَزَدَ في حديث مدني يعكس الججاج القائم في الجيل المتقدم على مالك:

«قال الشافعي: أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن محمد بن عبد الله بن حرث بن نوفل أن سعد بن أبي وقاص، والضحاك بن قيس اختلفا في التمتع (بالعمرة) في الحج. فأنكره الضحاك واحتج بنهي عمر عن ذلك، واحتج سعد بأن النبي صنعها. وقال مالك: قول الضحاك أحب إلي من قول سعد، وعمر أعلم برسول الله ﷺ من سعد» (الأم 7/199)⁽¹⁴⁾.

(12) انظر ما سيرد ذكره في الصفحة رقم 70 وما يليها من الفصل السابع.

(13) وهذا يبيّن في اختلاف مالك والشافعي 7/242. انظر كذلك ما سيرد ذكره في الصفحة التالية. والحديث الذي يروي عن النبي وفيه أمر بالتزام السنة (أخرجه: أبو داود: باب في لزوم السنة، الترمذي: أبواب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة، ابن ماجه: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين) يحمل سمة العصر العباسي الأول. انظر نموذج في ص 62 مما سيأتي (هامش رقم 2).

(14) لاحظ فنسنك في ACTA ORIENTALIA 2/178 - 197 مشيراً بشكل خاص إلى سنن الترمذي كيف أن صورة عمر المثالية وقد رسمت مماثلة لصورة القديس بطرس جعلت نصف الوحي وتغلّ أساساً جزء كبير من التشريع الديني.

وحاول الشافعي أن يقلل من أهمية هذا الخلاف، وتبرير نهي عمر . ولا يزال ابن عمر معروفاً عند المقرئيين بأنه المصدر الأساسي لأهل المدينة، وقد وردت أمثلة عديدة على دوره ذلك في كتاب (اختلاف مالك والشافعي) مثل: «أنتم تتركون الحديث عن النبي ﷺ (في الحج عن الرجل بقياس على قول ابن عمر، وتقولون: لا يجهل ابن عمر قول النبي ﷺ) (الأم 231/7)، ومثل: «نراكم تستوحشون من خلاف ابن عمر» (7/238 - 239) (15).

والإشارة إلى عمر وابنه عبد الله بوصفهما من المصادر الفقهية الرئيسة لأهل المدينة مصحوبة دوماً باتهام الشافعي لهم بمخالفتهم، وسوف نرجى الاستنتاجات المترتبة على ذلك إلى الفصل السابع، وحسبنا هنا أن نهتم فقط بإثبات حقيقة أن أهل المدينة في زمن الإمام مالك ظنوا أنهم أحرار في نبذ أقوال الصحابة (16).

ويزعم الشافعي أنهم يفعلون ذلك دون معرفة السبب: «قال الشافعي: أنتم تخالفون ابن عمر وعروة (وهذا تابعي) (في أن النبي كان يقنت في صلاة الفجر قبل أن يركع الركعة الأخيرة إذا قضى قراءته) فأجابه الربيع: وأنت أيضاً تفعل ذلك (أي تقنت بعد الركوع)، فقال: نعم. لأن النبي ﷺ قنت، ثم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان. فقال الربيع: فقد وافقناك. قال الشافعي: أجل من حيث لا تعلمون» (7/231) وهذا النص يؤكد عرضاً أن الرجوع إلى عمل الخلفاء الأوائل ليس حجة لأهل المدينة، وإنما هو خاص بالشافعي.

ولم يكن أهل المدينة في زمن الشافعي قد اكتسبوا بُعد سمعة الاهتمام بالحديث التي وصفوا بها فيما بعد. وفي موضع آخر من كتاب (اختلاف مالك والشافعي 7/240) يتهمهم الشافعي بترك الكثير من القليل الذي رواه. ويقول أيضاً في الكتاب نفسه (7/21):

«فإذا تركتم ما روي عن النبي ﷺ (من طيب المحرم) لقول عمر،

(15) لمعرفة المزيد عن عمر بن عبد العزيز بوصفه مرجعاً إضافياً لأهل المدينة راجع ما سيأتي ص 192.

(16) يقول أهل المدينة: «هذا لا يشبه أن يكون من قضاء عمر...» انظر اختلاف مالك والشافعي 7/221، والموطأ بشرح الزرقاني 66/3.

وتركتكم على عمر (تقريد البعير) لقول ابن عمر، وعلى ابن عمر فيما لا يحصى لرأي أنفسكم، فالعلم إليكم عند أنفسكم صار، فلا تتبعون منه إلا ما شئتم ولا تقبلون إلا ما هوئتم.

وأما أقوال التابعين فقد أذت دوراً مهماً في مذهب أهل المدينة (انظر الإحصائيات التي ذكرناها في أول هذا الفصل)، وقد رويت بعناية لأنها وثيقة الصلة بالفقه، وتبطل أقوال الصحابة. فمثلاً، يقول الشافعي (231/7):

«إذا جاز خلاف ابن عمر في هذا لقول رجل من التابعين، أيجوز لغيركم خلافه لقول رجل من التابعين؟ أو تضيقون على غيركم ما توسعون على أنفسكم فتكونون غير منصفين؟ ويكون هذا غير مقبول من أحد ويجوز أن تدع ابن عمر لرجل من التابعين ولرأي صاحبك (مالك)، وتجعل قول ابن عمر حجة على السنة في موضع آخر» (أي حجة على الأحاديث النبوية).

وأهل المدينة يسمون بأن سعيد بن المسيب التابعي: «إذا قال قولاً لم يقل به إلا عن علم» (218/7). إلا أن أقوال الصحابة لا تتبع بشكلٍ آلي. وسوف نناقش فيما بعد المصادر الفقهية الكبيرة لأهل المدينة من جيل التابعين⁽¹⁷⁾.

ب - العراقيون

لا يكثر العراقيون على حدّ زعم خصومهم للحديث، أو هم على الأقل دون أهل المدينة عنايةً به، وقد ظلّ هذا الزعم في أهون أشكاله جزءاً من الرأي الشائع في الوقت الحاضر. ولكن النصوص المستقاة من ذلك العصر تبين أن الأمر خلاف ذلك.

وقد رأينا أن الذين اتهمهم الشافعي بترك الكثير من القليل الذي رووه⁽¹⁸⁾ هم أهل المدينة وليسوا العراقيين. وفي أكثر من نصّ يظهر العراقيون أنفسهم أكثر اعتناءً بالحديث من أهل المدينة وأهل الشام. وأبو حنيفة وأبو يوسف

(17) انظر ما سبق ص 243 وما بعدها.

(18) انظر ما سبق ذكره صفحة 21، 23 من هذا الفصل.

يتقدمان كلاهما على مالك في التجميع المنهجي⁽¹⁹⁾. وفي مقابل هذا لا يشكّل أثراً قول الشافعي هازناً بالعراقيين أنهم يأخذون العلم من بُعد وليس لهم به مثل معرفة أصحابه المدنيين⁽²⁰⁾.

والاحتجاج على الخصوم بأن آراءهم غير مبنية على الأحاديث النبوية أمر شائع عند العراقيين والمدنيين في المناظرات العلمية القائمة بينهم⁽²¹⁾. وسوف نرى من خلال هذا التحليل أنّ موقف العراقيين من الحديث هو نفسه موقف أهل المدينة، وإن كانت نظريتهم أكثر تطوراً.

ويذهب الشيباني - حسب رواية الشافعي - إلى أنه «لا يجوز أن يقال بشيء من الفقه إلا بخبر لازم⁽²²⁾ أو قياس» (الأم - كتاب الرد على محمد بن الحسن 7/280)، وأنه «لا قياس مع خلاف الخبر اللازم» (الاختلاف 117)، والخبر في الموطن المذكور قول «لصحابي».

وبالمثل لا يعذر من خالف النص أو أخطأ التفريع. (الاختلاف 282)، والخصم العراقي يتفق مراراً مع الشافعي في أنه لا حجة لأحد مع النبي، وقد رأينا (آنفاً)⁽²³⁾ أن هذه العبارات يجب أن تؤخذ في شيء من التحفظ، ولكن نصّاً مثل ذلك الذي ورد في موطأ الشيباني ص 357، ويصرّ فيه على الدور الحاسم لحكم النبي، يوضح أن العراقيين قد شاركوا بالفعل وبشكل واضح في صياغة هذا الرأي الأساسي، وطبقوه أحياناً.

وهم مع ذلك ما يزالون بعيدين عن موقف الشافعي من الاعتماد الكلي على أحاديث النبي وحدها. ويقول أبو يوسف في (كتاب سير الأوزاعي / الأم 7/307): «فعليك من الحديث بما تعرف العامة، وإياك والشاذ منه» وروى أن

(19) انظر ص 243 مما سيأتي.

(20) انظر كتاب الرد على محمد بن الحسن في الأم: 7/290 ويصعوبة لعبت هذه الحجة دوراً في مكان آخر.

(21) اختلاف مالك والشافعي 7/189 - 190.

(22) لمعرفة المزيد عن (الخبر اللازم) انظر ما سيتبع ص 136 هامش رقم 2.

(23) انظر ما سبق ذكره صفحة 11 (الصفحة الأولى من الفصل الثالث - الترجمة).

النبي صعد المنبر وقال: «إنَّ الحديث سيفشُو عني، فما أتاكم عني يوافق القرآن فهو عني، وما أتاكم عني يخالف القرآن فليس عني»، وَرَوَى عن علي بن أبي طالب (بسنَدٍ عراقي) قوله: «إذا أتاكم الحديث عن رسول الله ﷺ فظنوا أنَّه الذي هو أهدى والذي هو أتقى والذي هو أحيا».

وَرَوَى حديثاً آخرَ (بسنَدٍ عراقي أيضاً) جاء فيه أن رهطاً من الصحابة كانوا ذاهبين إلى الكوفة فأمرهم عمر بن الخطاب أن يقلُّوا الرواية عن الرسول ﷺ، لأنهم سيأتون قوماً لهم دوي بالقرآن كدوي النحل. ولم يقبل عمر الحديث عن الرسول إلا بشاهدين، وإنَّ عليّاً لم يقبله إلا إذا حلَّف راويه.

يقول أبو يوسف: «والرواية تزدد كثرة ويخرج منها ما لا يعرف ولا يعرفه أهل الفقه ولا يوافق الكتاب والسنة. فإياك وشاذ الحديث، وعليك بما عليه الجماعة من الحديث، وما يعرفه الفقهاء وما يوافق الكتاب والسنة. فقس الأشياء على ذلك، فما خالف القرآن فليس عن رسول الله ﷺ، وإن جاءت به الرواية»، ويضيف أبو يوسف إلى ذلك ما قاله النبي في مرض موته: «إني أجل ما أحلَّ الله، وأحرَّم ما حرَّم الله. فوالله لا يمسكون عليَّ بشيء»⁽²⁴⁾، ثم يختتم ذلك بقوله: «فاجعل القرآن والسنة المعروفة لك إماماً قائداً، وأتبع ذلك، وقس عليه ما يرد عليك مما لم يوضح لك في القرآن والسنة».

وهذا مخالف لما ذهب إليه الشافعي في تفسير القرآن بالحديث النبوي.

وبصرف النظر عن تلك القيود الموضوعية للعمل به، فإن رأي العراقيين في حجية الحديث النبوي قد تدنّت، بلا ريب، إلى مرتبة أدنى بفعل الأهمية التي أعطاهها العراقيون لأقوال الصحابة نظرياً وعملياً.

ونحن نرى بوضوح التعبير عن هذا المبدأ في مواضع عديدة، ومن ذلك ما جاء في كتاب (اختلاف العراقيين. الأم 7/110): «وهم يزعمون أنهم لا يخالفون الواحد من أصحاب النبي ﷺ» ومن ذلك أيضاً (7/135): «وقد زعم

(24) معنى هذا الحديث ورد في القرآن (الزخرف 43). لا يريد قوله تعالى: فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم - المترجم.

الذي قال فيه قيمة - ويعني أبا حنيفة - أنه لا يخالف واحداً من أصحاب رسول الله ﷺ.

ويخاطب الشافعي محمد بن الحسن الشيباني قائلاً: (286/7): «وأصل ما تذهبون إليه ألا تخالفوا الواحد من أصحاب رسول الله ﷺ إذا لم يُعلم أن أحداً من الصحابة خالف في ذلك». ومن الواضح أنه بسبب صياغتهم الواضحة لهذا الأصل اعترف الشافعي بأن العراقيين أحسن اعتذاراً من أهل المدينة لتركهم أحاديث النبي (25).

وحجة العراقيين في إضفاء هذه الأهمية على آراء الصحابة هي نفسها حجة أهل المدينة، وهي أن الصحابة لم يجهلوا عمل النبي وأحكامه (26). وأن آراءهم قد تتفق مع أحكام النبي، ومن هذا القبيل ما وقع لابن مسعود عندما سئل عن الحكم في مسألة، فأجاب بأنه لا يعرف للنبي حكماً فيها، فسئل عن رأيه فيها، فذكره، فزعم أحد الحاضرين أن النبي حكم بمثله ففرح ابن مسعود لانفاق رأيه مع حكم النبي (27).

فليس من الغريب إذن أن تُقدّم أقوال الصحابة على أحاديث النبي، وأن يذكر كلاهما في مستوى واحد من الحجية، وأن تفسر أحاديث النبي بأقوال الصحابة (28).

ويجب أن نخلص من ذلك إلى أن الرجوع إلى أقوال الصحابة أمر

(25) اختلاف مالك والشافعي 211/7.

(26) سير الأوزاعي 330/7 وفي مواضع أخرى.

(27) أبو يوسف: الآثار 607 بشرح أبي الوفاء. القاهرة 1355، الشيباني: الآثار 22 طبعة لاهور 1329. الموطأ برواية الشيباني 244 وجميعها عن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم النخعي. وثمة رواية مماثلة وردت في كتاب الحجج للشيباني (ويبدو أن كتاب الحجج هو المستهدف بالرد في كتاب الرد على محمد بن الحسن الشيباني في كتاب الأم للشافعي) من طريق الشعبي. وهي ليست متقدمة على عصر الشعبي وحماد. وهناك رواية أخرى تشدد على احترام الحديث في مسند الإمام أحمد وبعض كتب الحديث الأخرى. انظر موطأ الشيباني 244. وللإطلاع على حديث مناقض أو متاوى لذلك انظر ما سيجع ص 50.

(28) إن مذهب الاحتجاج بأقوال الصحابة استمر في مدرسة أبي حنيفة.

معروف قديماً، وأن النظرية القائلة بتغليب حجّة الحديث النبويّ نظرية محدثة تبناها العراقيون قبل ذلك بشكلٍ غير كاملٍ، ولم يطبقها بشكلٍ قويٍّ ثابت إلا الشافعيّ.

ولما كانت طريقة الجمع بين الأحاديث المتعارضة غير معروفة للعراقيين - ويكون الترجيح بكثرة الصحابة عندما يستحيل الجمع بين متعارضين - فإنهم يختارون عادةً، وبشكلٍ اعتباطيٍّ على ما يبدو، أحد الأحاديث المتعارضة.

ويذكر الشافعيّ في (اختلاف مالك والشافعي 182/7): «أنهم يأخذون من الحديث ما هو أشبه بسنته» وسنرى فيما بعد ما الذي يعنيه العراقيون بذلك⁽²⁹⁾.

وقبول الأحاديث أو رفضها، سواء أكانت متفقة مع المذهب الرسمي القديم للمدرسة أو مختلفة معه، قد تطور بطريقة رائعة فيما بعد على يديّ الطحاويّ الذي طمست جهوده في التوفيق، بفعل ميله إلى اكتشاف التناقضات في الحديث لكي يستطيع أن يطرح تلك الأحاديث التي لا تتفق مع المذهب الحنفيّ بادّعاء أنّها منسوخة.

وتأويل الأحاديث المقبولة عند المتقدمين من أهل العراق يشبّه أنّ معيارهم الحاسم هو المذهب الرسمي القديم.

ويرفض العراقيون الأحاديث النبوية إما لأنها تخالف القرآن أحياناً (الاختلاف 345 وما بعدها)، أو لأن الأصل الذي جاءت به لم يأت ذكره في القرآن⁽³⁰⁾ أو في حديث نبويّ آخر، ولم يرو عن الخلفاء الأربعة الذين قام عليهم الأمر بعد النبي (الأم 181/7)، أو لأن الناس كلهم تركوه (الاختلاف 336)، أو لأن الرأي الشائع مختلف، فتفسّر الأحاديث النبوية للمخالف بطريقة بعيدة، أو تُعدّ منسوخة. (موطأ الشيباني 142)، أو لأسباب منهجية كأن يسبب الحديث (محل النزاع) اضطراباً في المنهج.

(29) انظر ما سيتبع ص 73 وما يليها.

(30) للإمام مالك ردّ على هذا القول تجده في الموطأ 183/3 بشرح الزرقاني.

والشافعي على حق في اتهام العراقيين بقبولهم يسر أقوال الصحابة أكثر من قبولهم أحاديث النبي (الاختلاف 345). وكان من البدهي أن يخالف العراقيون أيضاً أقوال الصحابة في مواضع عديدة، لا سيما تلك الأحاديث المختلفة التي تُروى عن عليّ وابن مسعود وهما ممن يحتجّ بهما أهل العراق ويقدمان على غيرهما.

وقد جمع الشافعي المسائل التي خالف فيها العراقيون عليّاً وابن مسعود في كتاب (اختلاف عليّ وابن مسعود)، كما ناقش دور هذين الإمامين لكونهما من حجج العراقيين في كتابه (الاختلاف ص 215 وما بعدها)، حيث ورد في الموطن المذكور كلامٌ يتضمن ملخصاً لموقف مدارس الفقه القديمة من أئمة مذاهبهم الذين تسّموا بأسمائهم، وإن كان هذا من وجهة نظر الشافعي، جاء فيه أن الخصم العراقيّ ذكر أنّ إبراهيم النخعيّ أنكر حديثاً عن النبي، وقال: أترى وائل بن حجر (وهو راوي الحديث) أعلم من عليّ وابن مسعود⁽³¹⁾؟ ثم يعترف بأنّ إبراهيم لم يرو عن عليّ وابن مسعود أنهما شاهدا النبيّ يفعل خلاف ما روى وائل. ولكنّ إبراهيم النخعيّ ذهب إلى أنّه لو كان ذلك كما رواه وائل لروياه أو فعلاه. وهو لم يجد بداً من الاعتراف بأنّ إبراهيم لم يرو نصّاً صريحاً عن عليّ وابن مسعود، والتسليم بأنّ إبراهيم لم يكن عالماً بكل ما رويه وعملاه. كما يعترف أيضاً بأنّ إبراهيم لم يأخذ جميع رواياته عن عليّ وابن مسعود.

لذلك يستنتج الشافعيّ أنّ الخصم لم يكن على صواب في الاحتجاج برواية إبراهيم عن عليّ وابن مسعود لأنّه قد يأخذ هو وغيره عن غيرهما ما لم يأت عن واحد منهما.

ثمّ إنّ إبراهيم لو روى عن عليّ وابن مسعود فإنه لا يقبل منه لأنّه لم يلق واحداً منهما. ويقول الشافعي إن الخصم أراد أن يبطل حديث وائل بأن

(31) قارن بآثار أبي يوسف 105، وموطأ الشيباني 87، والمدوّنة 68/1 وإنّه لذنو مغزى أن يرد النصّ الأصلي في هذه المصادر الثلاثة عن ابن مسعود وأصحابه (انظر ما ستبيح ص 231 وما بعدها) والشافعي لا يسلم هذا الأساس في مذهب العراقيين، ويستبدله بعليّ وابن مسعود.

إبراهيم لم يعلم فيه قول عليّ وعبد الله. ولو قال الخصم: لعله فعله. لم يكن فيه حجة لأنه لم يروه في الحقيقة. ولو أراد أن يوهم من سمعه أنه رواه دون أن يقول هو رويته جاز لنا أن نتوهم في كل ما لم يرو أنه عليم فيه ما لم يقل لنا عِلْمًا. ولو روى عنهما خلافه لم يكن للخصم (المحتج بالنخعي) فيه حجة. وفضلاً عن عليّ بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود، يوجد عمر بن الخطاب بوصفه من مصادر العراقيين. ولا يزال هذا الثالث معروفاً عند الخوارزمي حيث يقول في كتابه جامع مسند الإمام الأعظم (2/ 41): «أخذ أبو حنيفة الفقه عن حماد، وأخذ حماد عن إبراهيم النخعي، وأخذ إبراهيم عن أصحاب ابن مسعود، وأخذ هؤلاء بدورهم عن فقهاء الصحابة: ابن مسعود، وعلي، وعمر».

ويقابل عليناً بوصفه حجةً عند العراقيين عمر بن الخطاب بوصفه حجة عند أهل المدينة (اختلاف مالك والشافعي 7/ 221).

وهناك ابن مسعود حجة الكوفيين في مواجهة البصريين (الاختلاف 62)، وهو لا يزال معروفاً بذلك عند المقرئ (الخط 2/ 332)..

وهناك أحاديث تظهر الاختلاف بين رأي ورأي عمر، أو تظهر عمر كأنه يسأل عن رأي ابن مسعود فيوافقه عليه. وحكمه الشخصي مطلوب في مذهب المدرسة التي تسمت باسمه.

وقد رأينا أن رأي (فتوى) ابن مسعود تقتضي الاعتراف بحكم النبي، إلا أن هذا تبرير مجرد متأخر ex Post Facto.

ويتضمن كتاب الآثار لأبي يوسف، وكتاب الآثار للشيباني اللذان، يحتويان على أسس المذهب العراقي التقليدية، على عدد ضئيل من الأحاديث النبوية التي رويت من طريق ابن مسعود.

وفيما يتعلق بعمر بوصفه حجةً عند أهل العراق يذكر الشافعي أن أبا حنيفة يكثر من تقليده ويراه حجة الوحيدة (الأم/ كتاب اختلاف العراقيين 7/ 135).

والحالات القليلة التي يحتج فيها العراقيون بآبن عمر تبدو جميعها متبعة على طريقة أهل المدينة. وأما أقوال التابعين فتذكر غالباً عند العراقيين مساوية في الحجية لأقوال الصحابة، وفي مرات عديدة يحتج بها وحدها. وهي من جهة أخرى ليست حجة في عصر الشيباني والشافعي.

وهذا الموقف النظري يتناقض وبشكل غريب مع ما كانت عليه أقوال التابعين من استعمال واسع ولا يزال.

وفي كتاب (الرد على محمد بن الحسن الشيباني - الأم 7/ 292) يَنْقُصُ الخَضَمُ العراقي سَعِيدَ بن جَبْرِ بآنه: «رجل من التابعين لا يلزمني قوله»، وفي الكتاب نفسه (ص 283) يعترض الشيباني على الشافعي (الذي لا يزال في هذا الكتاب المتقدم يحتج بالأئمة الأوائل من غير النبي) بآن أقوال ابن المسيب والحسن البصري وإبراهيم النخعي ليست ملزمة. فيجيبه الشافعي بآنه هو نفسه قد وقع في الخطأ ذاته واحتج بأقوال التابعين. يقول الشافعي (الرد على محمد بن الحسن 7/ 298): «إن كانت حجته بآن إبراهيم النخعي قاله، فهو يزعم أن إبراهيم وغيره من التابعين ليسوا بحجة على أحد». والحجة الأولى في مذهب الكوفيين من أهل العراق هو إبراهيم النخعي.

ومن مجموع 549 قولاً من أقوال التابعين في كتاب الآثار لأبي يوسف نجد نحو 443 قولاً لإبراهيم النخعي وحده، من 550 قولاً، وهو مجموع أقوال التابعين في كتاب الآثار للشيباني ونجد أن إبراهيم قد انفرد وحده بنحو 472 قولاً منها. وأن نحو خمسة عشر قولاً من آثار أبي يوسف وأحد عشر قولاً من آثار الشيباني قد رويت عن تابعين آخرين من طريق إبراهيم نفسه. فضلاً عن ذلك فقد رَوَى النخعي عدداً غير قليل من الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة في هذين الكتابين، أي نحو 53 حديثاً نبوياً من مجموع 189 حديثاً و 147 قولاً من مجموع 372 من أقوال الصحابة في كتاب الآثار لأبي يوسف. ونحو 26 حديثاً نبوياً من مجموع 131 حديثاً و 104 قولاً من مجموع 284 قولاً من أقوال الصحابة في كتاب الآثار للشيباني.

والنص الذي لخصناه آنفاً من كتاب (الاختلاف 215)⁽³²⁾، يشرح الكيفية التي استعمل بها اسم إبراهيم النخعي في توريث أئمة كبار.

وكتابا الآثار (لأبي يوسف ومحمد بن الحسن) وكتاب (اختلاف علي وابن مسعود) (للشافعي) تشير (جميعها) إلى أن إبراهيم هو أهم الرواة عن ابن مسعود، ومع ذلك فهو يخالفه مراراً، وأن مذهب النخعي يسود غالباً وبشكل ثابت عند الكوفيين.

وهذه الصلة بين أقوال التابعي وأقوال الصحابي تشبه الصلة بين أقوال الصحابة وأحاديث النبي. وهناك استنتاج مماثل يفرض نفسه، يقضي بأن الاحتجاج بالتابعي سبق الاحتجاج بالصحابي، ولا اعتبارات نظرية فقط قُدِّم الاحتجاج بأقوال الصحابة على أقوال التابعين، وللسبب نفسه قُدِّم الاحتجاج بالنبي على الاحتجاج بالصحابة.

ولم يتركز مذهب أهل المدينة على تابعي واحد كما هي الحال عند الكوفيين، وإن كان موقف المدنيين من التابعين والصحابة لا يختلف عن موقف العراقيين، والاستنتاج نفسه - يجب أن يؤخذ به هنا أيضاً. وأما ما يتعلق بالأئمة العراقيين فإننا نجد أبا حنيفة - من ناحية فنية - مهتماً بالفعل بالحديث، فنراه يقوم بجمع الأحاديث المتشابهة بأسانيد مختلفة، ويجمع الأحاديث المدنية إضافة إلى الأحاديث العراقية.

ويواصل أبو يوسف الجمع المنهجي للأحاديث مظهراً اهتمامه واعترافه بها (سير الأوزاعي 305/7) وقد وجد نفسه فيما بعد خاضعاً لتأثير أقوى من تأثير أبي حنيفة، ألا وهو تأثير الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة.

والحالات التي احتج فيها أبو حنيفة بالحديث، وغير مذهبه بناءً على ذلك قليلة، إذا قيست بما يماثلها من حالات كثيرة عند أبي يوسف⁽³³⁾.

ويشهد على اهتمام الشيباني بصناعة الحديث روايته لموطأ مالك، وقوله

(32) راجع ص 31 من هذا الفصل.

(33) انظر ما سيأتي ص 301 وما يليها

المألف: «نحن نتبع هذا». يشير إلى مبلغ تأثره بالحديث، ولو من ناحية شكلية على الأقل. ونجده مرة أخرى يغير من مذهبه بسبب الحديث ولا سيما الحديث النبوي⁽³⁴⁾. وهذا لا يمنع من كونه مضطرباً يلتقط من هنا وهناك، وبذلك جعل نفسه عرضة لانتقاد الشافعي. (وهو عينه النقد الثابت) الموجّه إلى أئمة المدارس القديمة. وكما فعل أبو حنيفة قبله، أخذ بعين الاعتبار مذهب التابعين من أهل المدينة.

ج - أهل الشام

الأوزاعي هو الإمام الشامي الوحيد الذي وصلتنا عنه معلومات صحيحة في كتاب الشافعي (سير الأوزاعي) وكتاب الطبري (اختلاف الفقهاء). وموقفه من الحديث يتفق أساساً مع موقف أهل المدينة والعراق، وتتعلق جميع مرويات مذهبه من ناحية عملية بأحكام الجهاد، الذي بسببه تقدم الروايات المتعلقة بمغازي النبي، وهي ذات أهمية تاريخية، وإن افتقرت عادة للإسناد عن الحوادث السابقة المختلفة في صورتها عن الأحاديث الفقهية.

ولذلك (إذا كنا نرى) الأوزاعي يكثر من الرجوع إلى عمل النبي، فإن العراقيين يفعلون الشيء نفسه (كما تشهد على ذلك آثارهم).

(وقد عولجت أحكام الجهاد بطريقة مختصرة جداً في موطأ مالك برواية يحيى الليثي وموطأ الشيباني).

ويذكر الأوزاعي مستشهداً بالقرآن (الأحزاب: 21) أن «رسول الله ﷺ أسوة حسنة» (سير الأوزاعي 7/319) وأن النبي: «أحق من يقتدى به، ويتمسك بسنته» (سير الأوزاعي 7/335). ولكي يثبت العمل للنبي كان يشير إلى «ما حدث في عهده وما حدث بعده» (سير الأوزاعي 7/322، ومواضع أخرى)، كما يحيل على ابن عمر إلى جانب النبي (7/325) وإلى أبي بكر وعمر والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بعينهم⁽³⁵⁾.

(34) انظر ما سبّأ ص 306 وما يليها.

(35) كتاب سير الأوزاعي 7/319، 321، 323. الطبري: اختلاف الفقهاء ص 82، 87 نشرة شاخت.

وحجة المدارس الفقهية القديمة في إثبات حجة الصحابة ما ذكره الطبري في (اختلاف الفقهاء ص 103): «ليس بمقدور الأوزاعي أن يتخيل رجلاً يجرؤ على التشكيك في أن أبا بكر وصحبه أعلم بتفسير القرآن من أبي حنيفة». والأوزاعي يحيل على السلف فيقول: «وكان من سلف من علمائنا...» (سير الأوزاعي 7/314).

والأوزاعي يحترم رأي غيره من العلماء في احتجاجهم بحديث ما أو ردّه له⁽³⁶⁾.

ويحكي ابن قتيبة (مختلف الحديث 63) أن الأوزاعي أكثر من لوم أبي حنيفة لأنه يتبع الرأي، ويقول الأوزاعي: «إننا لا ننقم على أبي حنيفة أنه رأى. كلنا يرى. ولكننا ننقم عليه أنه يجيء الحديث عن النبي ﷺ فيخالفه إلى غيره» ولو صَحَّ هذا، فإنه لا يتجاوز المجادلات المعتادة بين المذاهب، وليس في ذلك برهان على أن للأوزاعي موقفاً من الحديث يختلف عن موقف غيره من مدارس الفقه القديمة.

ويظهر الأوزاعي في آثار الشيباني مرجعاً لأبي حنيفة، في أحاديث نبوية جديدة، وهو نفسه يروي حديثاً عن عمر من أحاديث البصريين⁽³⁷⁾.

(36) يرد أبو يوسف على الأوزاعي بالاستنتاج نفسه. انظر سير الأوزاعي 7/312.

(37) انظر كتاب سير الأوزاعي 7/319 (قارن بالخراج ص 126 لأبي يوسف طبعة بولاق 1302).

النقد المنهجي للأحاديث عند الشافعي وأسلافه

لم تراع مدارس الفقه القديمة عند استعمالها للأحاديث المعايير النقدية، التي نشأت في عصر الشافعي على أيدي المحدثين إلا قليلاً. (انظر كتاب اختلاف مالك والشافعي 211/7). وقد عرف الشافعي وخصومه، وكذلك أنصار المذاهب القديمة مصطلحاتهم الفنية مثل⁽¹⁾: الحديث الثابت، والمشهور، والموصول، والمتصل والمقطوع، والمنقطع، والمرسل، والضعيف، والمجهول، والمنكر. ولكن ترك للشافعي الإتيان بالقدر الأكبر من النقد المتخصص للأحاديث كما كان موجوداً في علوم الفقه في عصره.

وحاول الشافعي أن يتخذ مسلكاً وسطاً بين اتجاهين متنازعين: اتجاه لا يهتم كثيراً بالحديث، وآخر يصبو إلى بناء مذهبه برمته على أساس الحديث، ولذلك كثيراً ما قبلوا الأحاديث عن رواة كان الأولى ألا تقبل رواياتهم... شريطة أن تتفق أحاديثهم مع آرائهم. وردوا أحاديث الثقات إذا خالفت رأيهم.

والماتأمل بعناية ودقة في الأسس الحديثة للمذاهب الفقهية سيصاب بذهول لوجود الأحاديث المرسلة لغير مشاهير التابعين (الرسالة 64). والأصل عند الشافعي قبول الأحاديث الثابتة فقط (الاختلاف 58)، أي أنّ معيار صحتها أو ضعفها هو اتصال سندها أو انقطاعه. ويروى عن التابعي ابن سيرين أن الناس لم يكونوا يسألون عن الإسناد حتى كانت الفتنة⁽²⁾ وسوف نرى فيما بعد⁽³⁾ أن الفتنة التي اندلعت بمقتل الخليفة الأموي الوليد بن يزيد (ت 126 هـ)

(1) يمثل النقد الفني للحديث عند الشافعي وخصومه مرحلة متقدمة على تلك المرحلة التي اكتملت فيها نشأة علم الحديث، ولم يعرف فيها بعد التصنيف المنهجي للدرجات الصحة في الحديث من صحيح وحسن وغريب. انظر كتاب التقريب للترويض بتحقيق مارسية.

(2) مسلم: مقدمة الصحيح. باب بيان أن الإسناد من الدين. وقد ذكر ذلك الترمذي في آخر سننه. كما أخرجه الدارمي في مقدمة سننه. باب في الحديث عن الثقات دون ذكر للفترة التي بدأ فيها طلب الإسناد.

(3) راجع ما سيتبع ص 71 وما بعدها.

قبيل نهاية الحكم الأموي تتفق في الزمن مع نهاية خير القرون التي سادت في أثنائها السنة النبوية . وحيث إن ابن سيرين توفي سنة 110 هـ، فلنا أن نستنتج من ذلك أن هذه العبارة موضوعة عليه . وعلى أية حال ليس هنالك ما يدعو إلى افتراض أن استعمال الإسناد بشكل منتظم قد حدث قبل بداية القرن الثاني للهجرة⁽⁴⁾ .

والشافعي نفسه يسلم بافتراض عدالة الرواة على الرغم من أن هنالك أخطاء كثيرة جدر منها بقوله : «ليس علينا كبير مؤنة في الحديث الثابت، إذا اختلف أو ظنَّ مختلفاً لما وصفتُ، ولا مؤنة على أهل العلم بالحديث والنسبة في العلم بالحديث الذي يشبه أن يكون غلطاً، والحديث الذي لا يثبت مثله» (الاختلاف 365) . وهو يشمئز من مواجهة حقيقة التدليس الذي يمكن بوساطته حذف أسماء الرواة غير العدول من الأسانيد وتجاهلهم . (الرسالة 53)، وهو يعلم أن مالكا وابن عينة وهما من أكابر الرواة الذين روى عنهم قد مارسا التدليس⁽⁵⁾ .

والشافعي متساهل في مقاييسه، وترى ذلك في (كتاب اختلاف مالك والشافعي 208/7) حيث سألته الربيع قائلاً: «أسمع ابن الزبير من النبي ﷺ؟ فأجابته الشافعي بقوله: «نعم . وحفظه عنه وكان يوم توفي النبي ابن تسع سنين» .

ونقد الأحاديث على أسس حسية ليس حالة استثنائية تماماً في كتابات

(4) أشار هوروفيتس في مجلة Islam، 44/8 . وفي مجلة Islamic Culture، 1/550 إلى أن الأسناد قد ظهر في جيل الزهري (توفي سنة 123هـ أو بعد ذلك)، ولكن رُد ذلك إلى فترة متقدمة . إلى الثلث الأخير من القرن الأول الهجري قبيل أو بعيد سنة 75 للهجرة لا مبرر له . وقد لاحظ كابتاني (الحوليات: المقدمة رقم 11) أن الإسناد لم يكن مألوفاً في زمن عبد الملك (65 - 86هـ) . وقد روى الدارمي في سننه، باب في توفير العلماء أن سعيد بن جبير (ت 95هـ) قد عثف رجلاً سألته عن إسناده، غير أن ابن المبارك (ت 181هـ) يرى الإسناد جزءاً من الدين انظر مسلم، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء .

(5) عن تدليس مالك، انظر كتاب اختلاف مالك والشافعي 227/7 وعن تدليس ابن عينة انظر كتاب سير الأوزاعي 311/7، والأم 69/4 .

الشافعي، كما قد يتصور البعض، لما جاء في (كتاب اختلاف مالك والشافعي 241/7)، حيث يسأل الربيع الشافعي:

«أيجوز أن نتهم الرواية؟ قال: لا. إلا أن يُروى حديثان عن رجل واحد مختلفان، فنذهب إلى أحدهما»، ولكن الشافعي يقرّ النقد بحذر في كتابه (الرسالة ص 55) إذ يقول: «ولا يستدلّ على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق المخبر وكذبه. إلا في الخاص القليل من الحديث، وذلك أن يُستدلّ على الصدق والكذب فيه بأن يحدث المحدث ما لا يجوز أن يكون مثله أو ما يخالفه ما هو أثبت»⁽⁶⁾.

والشافعي لا يهتم إلى حدّ ما بأسانيد، وهو يشير في الغالب إلى راويه الذي سمع عنه بقوله: «رجل ثقة». ولكن لفظة «ثقة» لا تعني شيئاً، وهي توضع فقط لملاءمة السند كما يبدو ذلك في السند التالي من (كتاب اختلاف مالك والشافعي 249/7): قال الشافعي: «أخبرنا الثقة عن عبد الله بن الحرث (إن لم يكن الشافعي متأكداً من سماعه مباشرة من عبد الله) عن مالك بن أنس» ومثله ذلك السند المذكور في كتاب (سير الأوزاعي 328/7): قال الشافعي: «أخبرنا الثقة، أحسبه ابن عليّة». ويروي الشافعي في كتاب (اختلاف الحديث ص 88) حديثاً بقوله: «أخبرنا غير واحد من ثقات أهل العلم». ويعدّه «من أثبت الأسانيد»، ويقول في (كتاب سير الأوزاعي 311/8): «أحفظ عمّن لقيت ممن سمعتُ منه من أصحابنا».

وهذا يوضح أن الشافعي لم يتلق كلّ أحاديثه عن شيوخه مباشرة، وهو في كتاب (اختلاف الحديث ص 359) ينقل من كتاب.

ويتفق الشافعي مع العراقيين وأهل الحديث على عدم ثبوت الأحاديث المنقطعة إذا قامت بحالها. وهو لا يعترف مطلقاً بالأحاديث إذا كان في سندها مجاهيل. (الرسالة ص 32).

(6) لمعرفة بعض الحالات الفردية انظر كتاب اختلاف العراقيين 138/7 وكتاب اختلاف مالك والشافعي 193/7 (وقارن ذلك بما ورد في الموطأ بشرح الزرقاني 11/3) وانظر كذلك كتاب الرد على محمد بن الحسن 293/7، واختلاف الحديث 195/7، 301، 318.

ولم يتحقق هذا الموقف النظري إلا متأخراً، وإن كان لم يطبق بعد بشكل ثابت في التفكير العملي. وليس هنالك أفضل مما جاء في كتاب (الرد على محمد بن الحسن) لإيضاح الهوة بين النظر والتطبيق، حيث يعترض الشافعي على محمد بن الحسن لاعتماده على أسانيد مقطوعة، وبالمثل يعترض الشيباني على الشافعي لاحتجازه بالمقطوع. (والمقطوع والمنقطع بيّان).

والمرسل شكل من أشكال المنقطع، حيث لا يذكر أول رآه في سنده، ثم اقتصر استعمال المصطلح على الحديث النبوي، الذي سقط من إسناده ذكر الصحابي الذي رواه، وإن كان هذا الاصطلاح لا يزال يستعمل بشكل أوسع في عصر الشافعي، فينسحب على أقوال الصحابة لسقوط التابعي الذي سمع قول الصحابي مباشرة.

ومن هذا القبيل تلك الأحاديث المتعددة التي رواها إبراهيم النخعي عن عبد الله بن مسعود، فهي في حكم المراسيل، لأن إبراهيم لم يتصل مباشرة بابن مسعود.

ويسوي الشافعي وأئمة المدارس القديمة بين الحديث المرسل والحديث المنقطع. وهؤلاء (أئمة المدارس القديمة) على وجه الخصوص يستعملون الأحاديث النبوية المرسلة، وأقوال الصحابة المرسلة لتأييد مذهبهم دون قيد، وإن كانوا يميلون إلى رفضها إذا احتج بها خصومهم على أنها غير قاطعة.

ومن الواضح أن الاستدلال الفعلي يمثل المذهب الأقدم، والمذهب النظري الذي نشأ في مرحلة متأخرة، وأن الأحاديث المرسلة على وجه العموم هي أقدم زمناً من الأحاديث المتصلة الإسناد. والحديث المرسل وهو أهم أنواع الحديث المنقطع، يعكس الفترة الزمنية الواقعة بين النشأة الحقيقية للفقهاء الإسلامي، والحقبة الزمنية المتقدمة عليها كثيراً، التي لا يزال البحث عن مصادرها المزعومة قائماً.

ولذا كان الشافعي يعرض عن الحديث المرسل من الناحية النظرية

والعملية⁽⁷⁾ إلا أنه لا يتردد من جهة أخرى في استعمال المرسل من حديث النبي وحديث الصحابي بوصفه حجة إضافية، أو عندما يكون قد نسب الأحاديث المتعلقة بالموضوع والموصولة الإسناد.

وهو يذكر بصراحة في كتابه (الرسالة ص 63) أن المنقطع وهو مرسل كبار التابعين مقبول بشروط، على الرغم من أنه ليست له حجة الحديث الموصول، وهذا القبول متبوع بتحذير من مراسيل غيرهم.

وأما احتجاج مالك بالأحاديث النبوية المرسلة وأقوال الصحابة المرسلة. فذلك أمر معروف، وإن تأن الإمام مالك يرفض من جهة أخرى الأحاديث المرسلة التي تختلف مع مذهبه، حتى لو رواها هو بنفسه (اختلاف مالك والشافعي 196/7). وأهل المدينة يرتابون في تلك الأحاديث، التي لا تتفق مع مذهبهم (كتاب الرد على محمد بن الحسن 295/7).

والعراقيون لهم الاضطراب نفسه فيما يتصل بالخبر المرسل، فهم يستعملونه على أنه حجة، وهو عندهم ينسخ الحديث المتصل (موطأ الشيباني 113)، ولكنه في الوقت نفسه لا يعد حديثاً ثابتاً⁽⁸⁾ وهم يعترفون على وجه الخصوص بمراسيل إبراهيم النخعي عن ابن مسعود، ويبررون ذلك نظرياً بقول إبراهيم:

«إذا قلت: قال عبد الله فقد حدثني غير واحد من أصحابه»⁽⁹⁾ وأما أخبار الآحاد فسيأتي الكلام عنها في الفصل المقبل.

(7) الرد على محمد بن الحسن 277/7، 290، واختلاف الحديث 195/7، 360.

(8) اختلاف الحديث 360/7، 375، 390.

(9) الأم: اختلاف علي وعبد الله بن مسعود 161/7.

توضيق الأحاديث النبوية^(*) نقد قاعدة شاخت

السكوت عن الاستدلال بالحديث
في موطن الاحتجاج دليل على عدم وجوده

بقلم: ظفر إسحاق الأنصاري
ترجمة: جمال محمد جابر

مراجعة: الصليقي بشير نصر

من أبرز الفرضيات التي نالت قبولاً واستحساناً بين علماء الغرب المهتمين بالإسلام في أيامه الأولى، أن أحاديث النبي (عليه السلام) أو أقوال صحابته تنتمي في مجملها إلى فترة زمنية متأخرة بكثير عن تلك الفترة الزمنية، التي تُنسبُ إليها تلك الأحاديث. ويُدعى أن هذه الأحاديث جاءت تحصيلاً تراكمياً لعزو الأحكام الفقهية إلى النبي وصحابته عبر سلسلة من الثقات، وهذا في واقع الأمر استنباط فردي فحسب. وكان الدافع لفعل هذا من قبل مختلف الأشخاص والمذاهب هو إكساب أحكامهم الفقهية سمعة حسنة جديرة

(*) عنوان الدراسة في الأصل: THE AUTHENTICITY OF TRADITIONS:
"A CRITIQUE OF JOSEPH SCHACHT'S ARGUMENT E Silentio" By ZAFAR
ISHAQ ANSARI.
Hamdarad Islamicus, vol II, No. 2.

بالاعتماد والقبول. وببساطة، فإن هذا الافتراض يزعم أن مجموع أحاديث النبي هي عموماً نتاج تزيف ديني واسع النطاق.

- 1 -

لقد كانت نزعة الشك في الأحاديث وإنكار صحتها في أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر جلية في أعمال علماء غربيين بارزين مثل: وليام ميور William Muir وألويس سبرنجر Aloys Sprenger وألفريد ثون كريمر Alfred von Kremer وتيودور نولديكه Theodore Noeldeke⁽¹⁾. ولكن هذه النزعة وجدت صياغتها القوية في كتابات أجتس جولدتسيهر Ignaz Goldziher الذي خصّص الجزء الثاني من كتابه - دراسات محمدية - لدراسة الأحاديث دراسة نقدية.

كانت حجة جولدتسيهر الرئيسة أن الأحاديث تعكس المواقف ووجهات النظر السائدة في القرنين الثاني والثالث الإسلاميين ولا تعكس إلا قليلاً مما يتعلق بالشطر الأول من القرن الإسلامي الأول الذي يُدعى أنها تنتمي إليه.

لقد اكتسبت هذه الحجة قبولاً فورياً واسعاً بين علماء الغرب المهتمين بالإسلام، ومنذ ذلك الحين ظلت هذه الحجة عندهم فرضية مُثبتة⁽²⁾. وكان

(1) انظر: «التطور المبكر للفقہ الإسلامي في الكوفة مع إشارة خاصة إلى مصنفات أبي يوسف والشيباني، أطروحة دكتوراه للمؤلف، غطوطة، معهد الدراسات الإسلامية، جامعة Mc Gill، مونتريال، 1966، ص: 193، مع ملاحظات.

لدراسة نشوء موقف الشك تجاه الأحاديث بين المسلمين، انظر: G.H.A. Juynbool, the Authenticity of the Traduction Literature بحوث في مصر الحديثة، لندن، 1969.

(2) هناك بعض الاستثناءات الجديرة بالملاحظة، من أبرزها ما ذهبت إليه: Nabia Abbott. في دراستها المعنونة ب: دراسات في مدونات ورق البردي العربية، 2، تفسير قرآني وأحاديث، شيكاغو، 1967، حيث أوردت المؤلفة براهين ساحقة ليان شهرة الافتراض المذكور أعلاه المبالغ فيها جداً، بل زيفه.

في دراسات أخرى نُوقشت مصداقية هذه الفرضية بجديّة، وبخاصة: فؤاد سزكين في «تاريخ التراث العربي». مجلد (1)، لندن.

وللتقييم الموجز لأهمية أعمال هذين العالمين انظر: =

عددٌ من علماء الغرب بعد جولدتسيهر قد استفاد من الأحاديث استفادة موسّعة، يجعلها مادة مرجعية في دراساتهم حول قرون الإسلام الأولى. ويرز من بين هؤلاء العلماء أي. جي. فنسنك A.J. Wansinck وجوزيف شاخت Joseph Schacht.

استغلّ فنسنك الأحاديث النبوية من وجهة نظر عقائدية لدراسة تطوّر علم الكلام الإسلامي، متبعاً في ذلك منهج جولدتسيهر نفسه⁽³⁾.

أما شاخت فقد شغل نفسه بأصول الفقه الإسلامي Origins of Muslim Jurisprudence ومن ثم درس وظيفة الأحاديث في تطوّر الشريعة الإسلامية من جانبيين، جانب الأحكام الفقهية السائدة، وجانب النظرية التشريعية، ولم يؤكّد شاخت على فرضية جولدتسيهر الأساسية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، حيث ادعى أن رد الأحاديث إلى النبي ﷺ ظهر متأخراً جداً في الإسلام؛ أي إنّ عدداً كبيراً من أحاديث الأحكام عن النبي قد «بدأ العمل بها» بعد حوالي 150 هجرية، وهو التاريخ الذي يحدّد، حسب رأيه، بداية فترة تدوين رواية الأحاديث.

كانت نزعة الشك عند شاخت أكثر شدة منها عند جولدتسيهر. ويتضح هذا من «القاعدة المنهجية» التي تترتب، حسب رأيه، عن استنتاجات جولدتسيهر. ويعبّر شاخت عن ذلك بالكلام التالي:

C.J. Adamas: Islamic Religious Tradition, in L. Binder, ed, the Study of the Middle East, نيويورك، لندن، سلني، تورونتو، 1976، ص 66 - 69.

وظهر مؤخراً مصنف مهم جداً يحذو نزعة جولدتسيهر، انظر: «الأحاديث الإسلامية: دراسات في تعيين تواريخ الأحاديث المبكرة حسب ترتيبها الزمني وتحديد أصولها ومؤلفيها، لمؤلفها: G.H.A. Juynboll، كيمبرج، لندن، نيويورك، 1983.

(3) لمزيد من الدراسات الحديثة عن تاريخ علم الكلام الإسلامي واستخدام مادة الحديث، انظر: Josef Van Ess, especially Zwischen Hadit und Theogioe: Studien Zum Entstehen pradistination ischer uberlieferung, برلين ونيويورك، 1975.

انظر أيضاً العمل الأخير ل Michael Cook تحت عنوان: «العقيدة الإسلامية المبكرة: دراسة نقدية مرجعية، كيمبرج، ونيويورك، 1981.

يجب ألا يؤخذ كل حديث من أحاديث الأحكام عن النبي على أنه رواية صحيحة تصح عن زمنه أو زمن صحابته، حتى يثبت العكس، ولو كان الحديث غير مشتهر، بل يؤخذ على أنه صياغة لحكم شرعي مختلفة صيغت في وقت لاحق⁽⁴⁾.

هذا هو موقف شاخت في كتابه «أصول الفقه المحمدي» الذي ظهر سنة 1950. وبعد أربع عشرة سنة، عندما ظهر كتابه «المدخل»، يتضح أنه انتقل إلى موقف يبدو وبشكل صريح أكثر تطرفاً. [يقول شاخت]:

«أنه لمن العسير أن يُعدَّ أي من هذه الأحاديث صحيحاً فيما يتعلق بمسائل التشريع الديني...»⁽⁵⁾.

استخدم شاخت قاعدة: «السكوت عن الحديث في موطن الاحتجاج دليل على عدم وجوده» كثيراً ليثبت عدم وجود كثير من الأحاديث إبان فترة الإسلام الأولى.

ويتألف احتجاج شاخت من كلماته التالية:

إن أفضل سبيل لإثبات عدم وجود حديث ما في وقت من الأوقات، يكون بإثبات أن ذلك الحديث لم يستخدم دليلاً شرعياً في حجاج ما [في الوقت الذي] يكون الاستدلال به فيه أمراً لازماً، هذا إذا كان الحديث نفسه موجوداً... ويظهر هذا النوع من الاستنتاج بحذر في كتاب الرد على محمد بن الحسن 287/7 المطبوع بالجزء السابع من كتاب الأم للشافعي حيث يقول الشيباني: «قولوا بقولي ما قلت من شيء إلا أن يأتي أهل المدينة فيما قالوا من هذا بأثر فننقاد له، وليس عندهم في هذا أثر يفرقون به بين هذه الأشياء، فلو كان عندهم جاؤونا به فيما سمعنا من آثارهم».

(4) جوزيف شاخت: أصول الفقه المحمدي، الطبعة الثالثة، (أوكسفورد، 1959، ص: 149).

(5) جوزيف شاخت: مدخل إلى الشريعة الإسلامية، لندن، 1964، ص: 34.

ويمكننا أن نفترض بكل ثقة أن أحاديث الأحكام التي نحن بصدها قد استشهد بها على أنها حجج من قبل أولئك الذين عقدوا العزم على تأييد أحكامهم، ما إن وضعت تلك الأحاديث قيد التداول⁽⁶⁾.

لم يكن شاخنت واعياً بشكل مستمر بشرطه المقيّد عند لجوئه الفعلي إلى هذه الحجة. أي إن «حديثاً ما سَيَعْدُ غير موجود في وقت من الأوقات إذا لم يحتج بذلك الحديث في مواطن الخلاف حيث يكون الاستدلال به أمراً لازماً»⁽⁷⁾.

إن التجاء شاخنت إلى هذه الحجة بلداً كأنه يوحى بأن علماء المسلمين في القرنين الثاني والثالث كانوا في حالة «نقاش وجدل» مستمر، وهو من الواضح افتراض غير مقبول للحسن السليم.

(6) أصول الفقه الحميدي، ص: 140.

للحصول على مثال مما أورده شاخنت نفسه ويظهر مناقضاً للافتراضات التي بنى عليها حجته، انظر: أصول الفقه الحميدي، ص: 142، تحت عنوان: «الأحاديث الناشئة بين الأزواج ومالك».

هنا يشير شاخنت إلى ضرورة «الحل في استخدام قاعدة السكوت عن الحديث في موطن الاحتجاج دليل على عدم وجوده»، مع أنه يتجاهل ذلك باستمرار. ومن الجدير بالملاحظة أن شاخنت نفسه غالباً ما يستخدم مصنفات فترة متأخر بوصفها مصادر أحكام فقهية سائدة في أثناء القرنين الأول والثاني. ويبدو هذا انتهاكاً صارخاً للمعايير أو المبادئ التي يعلنها، (المراجع السابق، ص: 140).

ومثالاً على ذلك يورد شاخنت حجة من موطن الشيباني مؤيدة لحكم فقهي من أحكام مذهبه مستنداً في ذلك على مصنف من مصنفات أواخر القرن الخامس، وهو: المبسوط للسرخسي (المتوفى عام 483 هجرية).

ويذكر شاخنت أن الشيباني «يظهر بالتفصيل الحجة ويفصلها ببراعة كما يقدم تقريراً حكيماً، وهذه هي الحجة التي يبدو أن الشيباني استخدمها فعلاً» (أصول الفقه الحميدي، ص: 271). ومرة أخرى أشير إلى حكم فقهي يُنحى انتماؤه إلى أوائل القرن الثاني استناداً إلى القاضي عياض (توفي سنة 544 هجرية) ومستشهد به في شرح الموطأ للزرقاني، (للمراجع السابق، ص: 107). ولزيد من الأمثلة انظر: للمراجع السابق، ص: 273 و 303 وما بعدها.

(7) أصول الفقه الحميدي، ص: 271.

لا تهتم هذه المقالة بمسألة صحة الأحاديث أو موثوقيتها ولا بوجهة نظر شاخ حول تلك المسألة، ولكنها موجهة على وجه الحصر إلى قاعدة (السكوت عن الحديث في موطن الاحتجاج دليل على عدم وجوده) وهي القاعدة التي يبنى عليها شاخ دعواه في عدم صحة الأحاديث النبوية.

- 2 -

إن قراءة عابرة لكتاب أصول الفقه المحمدي تبين أن «قاعدة شاخ المنهجية» وسلسلة مناقشاته كانت سطحية جداً.

وسوف يبدو من غير المعقول البتة ادعاء صحة حجة شاخ إلا إذا نحن كوّنا الافتراضات التالية :

1 - كلما ذكرت الأحكام الشرعية في القرنين الأول والثاني الإسلاميين(*) ذكرت معها أدلتها المؤيدة، ولا سيما الأحاديث.

2 - إن الأحاديث المعروفة لفقيه ما (أو مُحَدِّث) ينبغي أن تُعرف بالضرورة عند كل فقهاء عصره ومحدثيه.

3 - إن كل الأحاديث المتداولة في أثناء فترة زمنية معينة كانت مسجلة كما ينبغي ومعروفة على نطاق واسع، ومن ثم حُفِظَتْ بحيث إذا لم نوفق في إيجاد حديث ما ضمن أعمال عالم معروف فإن ذلك يعني عدم وجوده في عصره - أو عدم وجوده في بلده أو في أي مكان آخر من العالم الإسلامي. لا يمكن دعم أي من هذه الافتراضات بالحجج التاريخية، ويمكن حقاً وبشكل قاطع توضيح أنها لا تتفق والحقائق المعروفة في الفترة الزمنية التي نحن بصدددها.

إن المصنفات الأولى التي تتضمن الأحاديث النبوية والتي وصلت إلينا،

(*) في الأصل الإنجليزي: The two Centuries of Islam ، وهو لا يقصد قطعاً القرن الأول والثاني الهجريين - المترجم -

أُلفت في حوالي منتصف القرن الثاني وما بعده⁽⁸⁾.

وكان تأليف هذه المصنفات قد جاء نتيجة لمجموعة متشابكة من العوامل. أحد هذه العوامل الرغبة في تدوين الأحكام الفقهية، التي كان سلف ذلك العالم يتبعونها، خاصة أحكام مذهبه المقبولة عموماً. لهذا السبب كان غالباً ما يُكتَفَى بتدوين الأحكام الفقهية للمذهب الذي ينتمي إليه العالم، دون الحاجة إلى تدوين الأحاديث النبوية أو أقوال الصحابة لتأييد تلك الأحكام⁽⁹⁾.

من المعروف جداً أن كثيراً من الأحكام الفقهية المستنبطة من القرآن كانت قد دَوِّنَتْ ضمن تلك المصنفات، دون أي إشارة إلى الآيات القرآنية ذات الصلة⁽¹⁰⁾. وثمة عديد من البراهين تدل على صحة ذلك فيما يخص الأحاديث النبوية. فهناك عدد كبير من الأمثلة تدل على أن الفقيه يقوم بتدوين أحكام مذهب الفقهية في مسألة تشريعية دون أن يستشهد بالحديث النبوي المتعلق بمذهبه أو المؤيد له، مع أنه يمكن التذليل، بما لا يقبل الجدل، على أنه كان على علم بذلك الحديث⁽¹¹⁾. إنه من الممتع حقاً تحري الأحاديث النبوية

(8) تبدأ فترة تدوين التاريخ التشريعي الإسلامي حسب رأي شاخت حوالي سنة 150 هجرية (انظر جوزيف شاخت: جذور الفقه في فترة ما قبل الإسلام وتطوره المبكر، والقانون في الشرق الأوسط Law in the Middle East، تحقيق: J. Liebesney و M. Khadduri، واشنطن دي. سي، 1959، مجلد 1)، ص: 50. وتبدو وجهة نظر Margoliouth مطابقة إلى حد بعيد (انظر: D.S. Margoliouth: تطور المحمدية المبكر Early Development of Mohammedanism، لندن، 1914، ص: 39) ومن وجهة نظرنا الخاصة فإنه إذا بدأ تصنيف الكتب مبكراً، فمن الصعب أن تكون تلك الكتب ما زالت باقية. وفضلاً عن ذلك، فإن المجموعات الأولى كانت صغيرة ومجزأة عموماً. ويظهر مجموعات أكثر شمولاً، فإن المصنفات المبكرة أصبحت زائدة وبدأت تُهَجَر، ثم اختفت بمرور الزمن. وفيما يخص فترة الأحاديث الأولى انظر: فؤاد سزكين: Geschichte des Arabischen، Abbot, OP. cit و Schriftums, OP, cit، وانظر أيضاً: محمد مصطفى الأعظمي: دراسات في بواكير الحديث، M.M. Azami: Studies in Early Hadith، بيروت، 1968.

(9) انظر: الأنصاري: التطور المبكر "Early Development"، ص: 62، 218، 225.

(10) المرجع السابق، ص، 192، وكذلك فصل رقم 4 ورقم 51.

الموجودة ضمن المصنفات الأولى ولم توجد ضمن المصنفات المتأخرة، وهذا يعني نقض افتراض شاخت أو عكسه، بل يمكننا افتراض استنتاج نتائج مذهلة. لقد قمنا بتطبيق ذلك على نطاق محدود ووجد أنه ذو أهمية كبيرة. ذلك لأنه إذا تمكنا - وهو من الممكن حسب رأينا - من بيان أن عدداً كبيراً من الأحاديث الموجودة ضمن المصنفات الأولى لم تكن موجودة ضمن مصنفات الفترة الزمنية اللاحقة - بغض النظر عن المصنفات المعاصرة - وأن فقهاء الفترة الزمنية التي نحن بصدها غالباً ما شعروا بأنهم في حلٍّ من أي التزام بالاستشهاد بالأحاديث الكثيرة التي يعلمونها، بما في ذلك تلك الأحاديث التي تدعم أحكامهم الفقهية، فإن أساس حجة شاخت سيقع بلا ريب في دائرة الشك.

ولقد قمنا في الصفحات التالية باختبار دراسة مقارنة لمجموعة متنوعة بسيطة من الأحكام الفقهية لبعض فقهاء القرن الثاني، لبيان قصور افتراضات شاخت. سنبدأ دراستنا بمقارنة الموطأين، أي موطأ مالك (برواية يحيى الليثي) والموطأ برواية الشيباني. إن موطأ مالك، كما نعلم، هو ذخيرة الأحكام الفقهية التشريعية لمذهب أهل المدينة، وهو أيضاً حصيلة الجمع المبكر للحديث. ومالك المولود عام 95 هجرية ومؤسس المذهب المالكي، كان أكبر سنّاً بكثير من الشيباني المولود عام 132 هجرية.

(11) للتمثيل انظر: أبو يوسف: كتاب الآثار (القاهرة 1355) 1048 وقارنها بكتاب آثار الشيباني (كراتشي 1965)، 878، حيث يتضح أن حكماً فقهياً ما مدوناً من قبل أبي يوسف بوصفه حديثاً عن النبي ومروياً عن إبراهيم النخعي، قد دُون من قبل الشيباني في آثاره على أنه حكم فقهي لإبراهيم النخعي، دون الإشارة إلى أي حديث عن النبي «ويشار إليها فيما بعد بآثار أبي يوسف وآثار الشيباني، والأرقام تشير إلى الأحاديث وليس إلى الصفحات».

والطريقة نفسها في: «اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليل، لأبي يوسف، القاهرة، 1358، 116. ويذكر أبو يوسف وهو من تلاميذ أبي حنيفة حديثاً يعينه عن النبي، بينما يذكر في آثار أبي يوسف (738) أنه حكم فقهي لأبي حنيفة فحسب. ويروي أبو يوسف في كتاب المنهاج (القاهرة 1352) ص: 91، حديثاً عن النبي بإسناده في مسألة الزلزعة كان قد روي عن ابن أبي ليل، ولكن كتاب اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليل (Tr.I. 51) الذي يسجل أحكام ابن أبي ليل الفقهية (وهو الرأي الذي يتفق معه أبو يوسف) يذكر الحديث نفسه دون إسناده.

أعدّ الشيباني، الذي ينتمي إلى مذهب أبي حنيفة المتوفى عام 150 هجرية، نسخة عن موطأ مالك بروايته. وبالإضافة إلى إدراج الآراء التي عبر عنها مالك والأحاديث التي دونها تظهر نسخة الشيباني الأحكام الفقهية المتنوعة للمؤلف ومذهبه مُلَحَقَةً، أحياناً، بأحاديث مؤيدة لتلك الأحكام الفقهية. وثمة عدد كبير من الأحاديث الموجودة بموطأ مالك، ولا توجد بموطأ رواية الشيباني، على الرغم من أن الشيباني كان الأصغر سناً⁽¹²⁾.

والأكثر لفتاً للنظر أن أحاديث موطأ مالك المؤيدة لأحكام مذهب الشيباني الفقهية لا توجد في نسخة الموطأ برواية الشيباني وفيما يلي بيان ذلك:

* يحتوي كتاب مواقيت الصلاة في موطأ مالك (ص: 3) ما مجموعه ثلاثون حديثاً، ولم يُذكر منها في الموطأ برواية الشيباني إلا ثلاثة فقط (ص: 42).

* الخلاف بين الكوفيين وأهل المدينة حول الوقت المفضل لصلاة الصبح معروف جداً. فأهل المدينة يفضلون الإغلاس بينما يرى الكوفيون الإسفار. ويذكر الموطأ برواية الشيباني (ص: 42) هذا الحكم الفقهي للكوفيين. والغريب حقاً أن الشيباني لم يورد أي ذكر لحديث موجود بموطأ مالك (ص: 4) يؤيد أحكام مذهب الفقهية⁽¹³⁾.

(12) قد يثار جدل بأن المقارنة بين الموطأين ونوع الاستنتاج الذي تصل إليه لا مبرر لهما. والسبب الأساسي لهذه المقارنة هو أن موطأ مالك إنما هو من رواية يحيى بن يحيى الليثي (المتوفى سنة 234). هكذا، ويعكس ما قلنا به، فإن موطأ مالك (وهو من رواية يحيى الليثي) يجب أن يعامل على أنه مصنف متأخرة عن الموطأ برواية الشيباني. وفي الرد على هذا نورد النقطتين التاليتين:

أولاً: إن شاخت نفسه يعامل الموطأ برواية الشيباني على أنه المصنف المتأخر ويضع استنتاجات معينة على هذا الأساس انظر: أصول الفقه للمحمدي، ص 143.

ثانياً: إذا ما قبلنا أن موطأ مالك (برواية يحيى الليثي) هو المتأخر وقارنا أحاديثه بأحاديث الموطأ برواية الشيباني، فإن النتيجة التي نصل إليها من خلال هذه المقارنة ستقوّض أسس منهجية شاخت تقويضاً جدياً.

* وردت ستة أحاديث في موطأ مالك (ص: 42) حول مسألة ما إذا كان لمس الذكر يوجب وضوءاً جديداً، بينما تضمن الموطأ برواية الشيباني حديثين فقط (ص: 50). والأحاديث الباقية تشمل حديثاً عن النبي وآخر عن ابن عمر.

* ورد في موطأ مالك (ص: 44) أربعة أحاديث حول مسألة الغُسل من الجنابة، وورد منها حديث واحد فقط في الموطأ برواية الشيباني (ص: 70)، والأحاديث الباقية تشمل حديثين عن النبي.

* ورد في باب «غسل المرأة إذا رأت في المنام» حديثان في موطأ مالك (ص: 51)، بينما يتضمن الموطأ برواية الشيباني حديثاً واحداً فقط، والمصنف الأخير لا يتضمن الحديث الذي دُون في الموطأ (ص: 51) على أنه حديث عن النبي بإسناد: مالك - أم سَلَمَة - أم سُلَيم - النبي.

* باب «الوضوء من القُبْلَة» الموجود في موطأ مالك (ص: 43) لا يوجد في الموطأ برواية الشيباني.

* البابان الموجودان في موطأ مالك (ص: 64) وهما: (البول واقفاً) و(السواك)، لم يردا في الموطأ برواية الشيباني.

* إذا ما قورن باب «النداء في الصلاة» الوارد في موطأ مالك (ص: 67) بنظيره في الموطأ برواية الشيباني (ص: 82)، يتضح أن عدة أحاديث في موطأ مالك (ذات الأرقام 1، 3، 5، 6، 7، 9) لا توجد في الموطأ برواية الشيباني.

* يتضمن باب «كفن الميت» الوارد في موطأ مالك (ص: 223) ثلاثة أحاديث لم يرد منها إلا حديث واحد في الموطأ برواية الشيباني (ص 162) وهو الحديث رقم (7) ورد في موطأ مالك بإسناد عبد الله بن عمرو بن العاص، وأحد الحديثين اللذين لم يردا ضمن الموطأ برواية الشيباني يُخبر عن

(13) من المشوّق ملاحظة أن كتاب «الحجج» للشيباني (Luck now 1888) ص: (1) الذي يورد فيه الشيباني عدة أحاديث تدعم أحكام ملعبة الفقهية، يرد فيه أيضاً الحديث المذكور أعلاه الوارد في موطأ مالك.

الكيفية التي تم بها تكفين النبي .

* لم يتضمن باب «زكاة الفطر» الوارد في موطأ الشيباني (ص: 176) الحديث عن ابن عمر الموجود في موطأ مالك (ص: 283).

* الأحاديث الموجودة في باب «من لا تجب عليه زكاة الفطر» (ص: 285) وباب «مكيلة زكاة الفطر» (ص: 283) من موطأ مالك لا توجد في الموطأ برواية الشيباني على الإطلاق.

* يحتوي باب «استئذان البكر والأيم» على ثلاثة أحاديث في موطأ مالك (ص: 524)، بينما واحد فقط منها يرد في الموطأ برواية الشيباني (ص: 239)، وأحد الحديثين المفقودين وارد عن النبي⁽¹⁴⁾.

* باب «اللّمان» الوارد في الموطأ برواية الشيباني (ص: 262) لا يحتوي على عدة أحاديث توجد في الباب المناظر من موطأ مالك (ص: 566).

* باب (النهي عن بيع الشمار حتى يبدو صلاحها) في الموطأ برواية الشيباني (ص: 335) لا يحتوي إلا على حديث واحد فقط من بين الأحاديث الثلاثة المذكورة في موطأ مالك (ص: 623)، على الرغم من أن كل الأحاديث الثلاثة ترجع إلى النبي.

ويمكن توضيح الأمر نفسه من خلال مقارنة مصنفات أبي يوسف ومصنفات الشيباني، خاصة آثار أبي يوسف وآثار الشيباني، لأن عدداً كبيراً من الأحاديث المدونة في آثار أبي يوسف لا توجد في آثار الشيباني، على الرغم من أن مؤلف المصنف الأول كان أكبر سناً من مؤلف الثاني⁽¹⁵⁾.

* حديث ابن مسعود عن «المضاربة» الوارد في آثار أبي يوسف (ص:

(14) عدم إيراد هذا الحديث لا يثبت أن الشيباني لم يكن على دراية بذلك الحديث لأنه يشير إليه في كتاب الحجج، ص: 289، بالإستناد نفسه الموجود في موطأ مالك ويؤسس حكمه الفقهي على هذا الحديث بالذات.

هذه هي غايتنا، أي إنه لا مبرر لافتراض أن يورد عالم من العلماء كل ما عرفه من أحاديث دائماً، أو أن نفترض أن عدم إيراد الحديث من قبل العالم يشير بالضرورة إلى عدم وجوده.

845) لا يوجد في آثار الشيباني.

* حديث النبي عن اختلاف المشتري والبائع حول الثمن لا يوجد ضمن آثار الشيباني.

* حديث عمر في باب الطلاق والعدة الوارد في آثار أبي يوسف (ص: 666)، لا يوجد في آثار الشيباني.

* ترد في آثار أبي يوسف عدة أحاديث عن النفقة والسكنى: (592 و608 و726 و728) ولا ترد في آثار الشيباني.

* الأحاديث رقم 704 و707 و709 المتعلقة باللّعان في آثار أبي يوسف لا توجد في آثار الشيباني.

* الأحاديث رقم 492 و692 و696 التي تتناول الظّهار في آثار أبي يوسف لا توجد في آثار الشيباني.

* حديث سالم عن «المزارة الوارد في آثار أبي يوسف (857) لا يوجد في آثار الشيباني.

* الحديثان 779 و780 اللذان يشيران إلى الفرائض في آثار أبي يوسف لا يوجدان في آثار الشيباني.

* الأحاديث 399 و401 و597 و607.. إلخ، حول الموضوعات المتفرقة في آثار أبي يوسف لا توجد ضمن آثار الشيباني⁽¹⁶⁾.

إن هذا يبين أنه على الرغم من عدم وجود سبب للاعتقاد بأن الشيباني

(15) جاء هذا على الرغم من حقيقة أن الشيباني كان أصغر سناً من أبي يوسف الذي كان في الواقع شيخه أيضاً.

وفضلاً عن ذلك، فقد دَوّن الشيباني أعمال أبي يوسف، وألّف هو نفسه أعمالاً، وهي إما أنها كانت مبنية على أعمال أبي يوسف أو مناظرة لها. ومن ثم، فإذا كان عدد كبير من الأحاديث التي يذكرها أبو يوسف لا توجد في أعمال الشيباني المناظرة، فإن ذلك يقوّض صلاحية تلك الافتراضات (المذكورة آنفاً) وهي وحدها التي تثبت صحة قاعدة «السكوت عن الحديث في موطن الاحتجاج دليل على عدم وجوده» عند شاخت.

لم يكن عارفاً بهذه الأحاديث، فإنَّ مصنفه لم يسجلها، وهي حقيقة تُبطل الافتراض الذي يقوم عليه منهج شاخْت في محاولته لإقرار «نشوء الأحاديث». وبهذا الصدد فإن الاحتمالات التالية التي يبدو كل واحد منها مقنعاً قد تم تجاهلها كلية:

- 1 - أن الشخص المعني ربما يكون قد سمع الحديث ثم نسيه⁽¹⁷⁾.
 - 2 - أنه ربما يكون سمع الحديث ولم يَرَهُ صحيحاً.
 - 3 - أنه ربما يكون قد علم بحديث ما، ولكن، واستناداً على حقيقة أنه لم يصلنا كل الأحاديث المعروفة عند الفقهاء، خاصة فيما يتعلق بفقهاء فترة الإسلام الأولى، فإنه لا يوجد ذكر لهذه الأحاديث في المصنفات المتوافرة لدينا حالياً، على الرغم من أن تلك الأحاديث يمكن أن تكون قد وُجدت في وقت ما.
- إن تجاهل كل هذه الاعتبارات، وكثيراً من البراهين المضادة والإصرار على شكٍّ مفرط لا يمكن أن يُعدَّ من شيم المؤرخين الحصريي الرأي.

(16) انظر: الأنصاري: التطوُّر المبكر Early Development، الفصل رقم 4، رقم 115 و116 و120.

(17) حول الذكر الصريح للتناقض من الأحاديث أو أسانيدها، أو ذكر ضياع الكتب الحاوية لهذه الأحاديث، وذكر عدم إيراد كل ما يُعرف من الأحاديث، انظر: الخراج، ص: 57 ورسالة الشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، 1940، ص 431. وشاهد الشافعي أكثر تثقيفاً وتنويراً، فهو يذكر الآتي:

1 - هناك عدة أحاديث أوردها في كتابه على أنها مقطوعة مع أنه كان قد سمع على أنها متصلة ومشهورة.

ولكنه فضل أن يذكرها على أنها أحاديث منقطعة بسبب فقدانه التذکر الكامل.

2 - فقد الشافعي عدة كتب من كتبه ولذا كان لازماً عليه الإتيان بالأحاديث التي لا يزال يذكر أنها متيقن من صحتها عند بعض العلماء.

3 - أهمل عدة أحاديث خروفاً من زيادة حجم كتابه. يقول الشافعي أنه أفرغ ما كان كافياً دون محاولة تدوين كل ما كان يعرفه. انظر: الشافعي: كتاب الأم، 7 مجلدات، بولاق، 1321 - 5، مجلد 4، ص 177، مجلد 6، ص 3 و172، مجلد 7، ص 41.

المعجم الإسلامي

سلسلة منتخبة من المعلومات والمعارف
حول العالم الإسلامي وتراثه
يحررها أساتذة متخصصون

استعانة

د. فاتح محمد زقلام

الاستعانة - في الأصل -: طلب العون، وهو المساعدة على الأمر، لأن السين والتاء فيها للطلب.

وفي اصطلاح النحاة هي: أحد المعاني التي يؤديها حرف الجر (الباء)، والمقصود بها: استعانة الفاعل على صدور الفعل عنه بمجرور الباء، كقولك: كتبت بالقلم، وقطعت بالسكين، وسافرت بالطائرة، فإن الفاعل، وهو هنا المتكلم، استعان على صدور الفعل عنه، وهو الكتابة من المثال الأول والقطع من المثال الثاني، والسفر من المثال الثالث - بالقلم، والسكين، والطائرة، ويعنون بالفعل: الحدث الذي تعلقت به الباء، سواء كان فعلاً اصطلاحياً، أو ما في معناه، وهو المصدر وما اشتق منه فما بعد الباء آلة وأداة لحصول ذلك الحدث، والفرق بين باء الاستعانة وباء السببية: أن الأولى داخلية على أداة الفعل وآلته التي هي الواسطة، بين الفاعل وما يصدر عنه من حدث.

وأما الثانية فهي داخلية على السبب الذي أدى إلى حصول الحدث (المعنى) الذي قبلها، وتحققه إيجاباً أو سلباً كقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ﴾⁽¹⁾ وقولك: لم أعاقبه بتقصيره.

ولم يذكر صاحب التسهيل باء الاستعانة وأدرجها في باء السببية وقال في شرحه: [باء السببية هي الداخلة على صالح للاستغناء به عن فاعلي معذاتها مجازاً، نحو: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾⁽²⁾ فلو قصد إسناد الإخراج إلى الهاء

(1) سورة العنكبوت، الآية: 40.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 34.

لَحْسُنْ، ولكنه مجاز، قال: ومنه: كتبت بالقلم، وقطعت بالسكين، فإنه يقال: كتب القلم، وَقَطَعَتِ السكين، والنحويون يعبرون عن هذه الباء بالاستعانة، وآثرت على ذلك التعبير بالسببية، من أجل الأفعال المنسوبة إلى الله تعالى، فإن استعمال السببية فيها يجوز، واستعمال الاستعانة لا يجوز⁽³⁾. وفي دستور العلماء: أن الاستعانة في البديع: أن يأتي القائل ببيت غيره ليستعين به على تمام مراده⁽⁴⁾.

انظر في هذه المادة كتب النحو ومنها كتب معاني الحروف مثل:

1 - رصف المباني في شروح حروف المعاني للمالقي: أحمد عبد النور.

2 - الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي.

3 - معاني الحروف للرماني: ابن الحسن علي بن عيسى.

مغني اللبيب لجمال الدين ابن هشام الأنصاري.

(3) شرح التسهيل.

(4) دستور العلماء لعبد النبي بن عبد الرسول ج 1 ص 95 ط مؤسسة الأعلمي بيروت.

استعجال

أ. المختار أحمد ديرة

استعجل الرجل: إذا حثه وأمره أن يعجل في الأمر والاستعجال والإعجال والتعجل واحد: بمعنى الاستحثاث وطلب الأمر قبل مجيء وقته. والعاجل والمأجلة: نقيض الآجل والآجلة عام في كل شيء، وقوله تعالى: ﴿من كان يريد المأجلة عجلنا له فيها ما نشاء﴾⁽¹⁾، العأجلة الدنيا والآجلة الآخرة.

والمعجلان: شعبان لسرعة نفاذ أيامه، وهذا كلام ليس على إطلاقه، لأن شعبان إذا كان في زمن طول الأيام فأيامه طوال، وإن كان في زمن قصر الأيام فأيامه قصار، ولكن ثبت في الأذهان أن شعبان شهر قصير سريع الانقضاء، لأن الصوم يفجأ في آخره⁽²⁾، وفي الأثر «خذ معاجيل الطرق» وهي الطرق المختصرة.

واستعجل: طلب العجلة من نفسه وتكلفها، واستعجله: استحثه ليعجل، واستعجله بسيفه، سبقه به.

والمجل والمأجلة: طلب الشيء وتحريه قبل أوانه، وهو مرادف للسرعة وقد فرقوا بين السرعة والمأجلة، فقالوا: العجلة تقديم الشيء قبل وقته وهو مذموم، والسرعة تقديمه في أقرب أوقاته وهو محمود⁽³⁾.

ولما كانت العجلة طلب الشيء وتحريه قبل أوانه، وهو من مقتضى

(1) سورة الإسراء، الآية: 18.

(2) لسان العرب مادة (عجل).

(3) معجم متن اللغة: أحمد رضا مادة (عجل).

الشهوة فلذلك صارت مذمومة في عامة القرآن الكريم حتى قيل: «العجلة من الشيطان»، قال تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾⁽⁴⁾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾⁽⁵⁾، وقال: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ﴾⁽⁶⁾، وقال: ﴿وَعَجَلْتَ إِلَيْكَ﴾⁽⁷⁾ فذكر أن عجلته وإن كانت مذمومة فالذي دعا إليها أمر محمود وهو طلب رضا الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾⁽⁸⁾.

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾⁽⁹⁾.

وقال تعالى: ﴿لَمْ تَسْتَعْجِلْهُنَّ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾⁽¹⁰⁾.

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾⁽¹¹⁾.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾⁽¹²⁾.

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾⁽¹³⁾.

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾⁽¹⁴⁾.

قال الفراء: خلق الإنسان من عجل وعلى عجل كأنك قلت: بنيته العجلة وخلقه العجلة وعلى العجلة ونحو ذلك.

وقيل خلق الإنسان من عجل وخلق الإنسان عجولاً، خوطب العرب بما تعقل والعرب تقول للذي يكثر الشيء: خلقت منه، كما يقال خلقت من لعب

(4) سورة الأنبياء، الآية: 37.

(5) سورة طه، الآية: 114.

(6) سورة طه، الآية: 83.

(7) سورة طه، الآية: 84.

(8) سورة النحل، الآية: 1.

(9) سورة الرعد، الآية: 6.

(10) سورة النمل، الآية: 46.

(11) سورة الحج، الآية: 47.

(12) سورة يونس، الآية: 11.

(13) سورة الأنبياء، الآية: 37.

(14) سورة الإسراء، الآية: 11.

إذا بولغ في وصفه باللعب⁽¹⁵⁾.

قال صاحب معجم مقاييس اللغة: «العين والجيم واللام أصلان صحيحان يدل أحدهما على الإسراع والآخر على بعض الحيوان»⁽¹⁶⁾.

والعجالة ما تعجل من شيء ويقال: «عجالة الراكب تمر وسويق» وقالوا: المُعْجَلُ والمُعْجَلُ من الإبل: التي تنتج قبل أن تستكمل الوقت فيعين ولدها، ونسمع اليوم الصداق المعجل والصداق المؤجل في الزواج ويقصد بهما صداق واحد لا صداقين، والمعجل هو جزء قبض عند عقد الزواج أي سريعاً. أما الجزء الباقي فيكون لأجل معلوم يتفق بشأنه بين المتعاقدين. وأما العِجَلُ: يسكون الجيم فهو ابن البقرة والأنثى عِجْلة.

(15) تهذيب اللغة: الأزهرى مادة (عجل).

(16) أحمد بن فارس ج 4 مادة (عجل).

استعداد

إذا تجاوزنا مسألة العرض المعجمي لهذا اللفظ من حيث التجريد والزيادة نجد أنفسنا أمام هذا اللفظ مباشرة. فعن علماء اللغة أعد للامر عدته وأعده لأمر كذا هيأه له والاستعداد للأمر التهيؤ له⁽¹⁾. واصطلاحاً هو كيفية تحصل للشيء بتحقيق بعض الأسباب والشرائط وارتفاع بعض الموانع وتسمى تلك الكيفية استعداداً والقبول اللازم لها إمكاناً استعدادياً وقوة⁽²⁾. وحده الجرجاني «بكون الشيء بالقوة القريبة أو البعيدة إلى الفعل»⁽³⁾.

وقسم ابن سينا الاستعداد إلى درجات متفاوتة فأطلق على القوي منه حدساً. «وعده أعلى درجات الاستعداد»⁽⁴⁾ ومثل له بصورة الماء إذا أفرط تسخينه إذ تجتمع السخونة الغربية والصورة المائية وهي بعيدة المناسبة للصورة المائية وشديدة المناسبة للصورة النارية فإذا أفرط ذلك واشتدت المناسبة اشتد الاستعداد وصار من حق الصورة النارية أن تفيض ومن حق هذه أن تبطل⁽⁵⁾، وحصر الدكتور أحمد زكي صالح الاستعداد العام في حالة تأهب الفرد لمواجهة موقف إدراكي خاص⁽⁶⁾.

والاستعداد في كل الأحوال صفة جسمانية أو نفسانية تجعل المرء أهلاً

(1) ابن منظور، لسان العرب مادة عد.

(2) د. جميل صليبا. للمعجم الفلسفي ط/ 1982 دار الكتاب اللبناني بيروت ص 70.

(3) الجرجاني، الترميمات ط/ 1971 م الدار التونسية للنشر ص 14.

(4) ابن سينا، كتاب النجاة ط/ 1985 دار الآفاق الجديدة بيروت ص 205.

(5) المصدر السابق.

(6) د. أحمد زكي صالح، علم النفس التربوي ط 9/ 1966 مكتبة النهضة المصرية ص 616.

لممارسة عمل معين أو وظيفة معينة، أو هي تلك القدرة الطبيعية أو الفطرية لدى المرء تمكنه من اكتساب أنواع خاصة أو عادية نسبياً من المعارف أو المهارات فيقال:

على سبيل المثال أهلية فنية أو أدبية أو علمية⁽⁷⁾ كما تتمثل أيضاً في توجيه شعور الملاحظ نحو الموقف الإدراكي أو نحو بعض أجزاء خاصة للجمال الإدراكي إذ أن قوة الانتباه الموجودة في المجال تنتج تركيزاً في الشعور أطول مدة ممكنة حتى تتغلب عليه إحدى العوامل التي تضعفه. . كعامل التعب الذي ينشأ على أثر بذل مجهود عقلي عنيف أو نشوء أشياء أخرى في المجال الإدراكي جذبت إليه الانتباه⁽⁸⁾.

وفرق الدكتور كمال دسوقي بين الاستعداد والقدرة فخص القدرة بالمهارة التي يمكن إثباتها أو إظهارها بالفعل أما الاستعداد فهو في نظره لا يعدو أن يكون إمكانية أو قوة، أو طاقة اكتساب المعرفة أو المهارة وسعة التقبل للمهارات الرياضية والموسيقية أو الميكانيكية والفرق الجوهرى في نظره بين الاستعداد والقدرة يكمن في أن الاستعداد إمكانية بالقوة بينما القدرة تحقق بالفعل⁽⁹⁾. ولم يشر د. عبد الرحمن محمد عيسوي إلى هذا الفرق بل فسر الاستعداد نفسه بقدرة الفرد الكامنة على تعلم عمل ما ونص على أنه كثيراً ما تستخدم كلمة إمكانية بدلاً من كلمة استعداد وتعني القدرة الكامنة التي تتطلب النمو والتدريب⁽¹⁰⁾.

وأياً كان الأمر فإن القدرة والاستعداد كلاهما يشير إلى ما يستطيع أن ينتجه الفرد بالفعل إذا صحب ذلك إرادة صادقة.

(7) د. أسعد رزوق. موسوعة علم النفس ط 1/ 1977 م مطابع الشروق بيروت.

(8) د. أحمد زكي صالح: علم النفس التربوي ط 9/ 1966 ص 619 - 620.

(9) د. كمال دسوقي. علم النفس ودراسة التوافق. ط/ دار النهضة ص 171.

(10) عبد الرحمن محمد عيسوي. علم النفس الفسيولوجي. دراسة في تفسير السلوك الإنساني ط 1/ 1991 م دار النهضة العربية. بيروت ص 326.

استعمار COLONIALISM

معرفة الله الزبيري

مصطلح في دلالة اللغوية مأخوذ من عَمِرَ أو من عَمَّرَ ومعناه على الأول جعل المكان عامراً بما يوضع فيه وعلى الثاني طَالَ بقاؤه، والألف والسين والتاء فيه إما للمبالغة كالتي في استبقى واستفاق وإما للطلب أي طلب الإعمار أي جعل الأرض عامرة بالبناء والزرع، ومنه قوله تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾⁽¹⁾ وقد قيل في تفسيره أي وجعلكم عماراً فيها من العمران فقد كانوا زراعاً وصناعاً وبنائين، أو من العمر أي أطال أعماركم فيها، والصحيح الأول⁽²⁾.

أما في دلالة الاصطلاحية فقد عرف وفق دلالة واقعية قد لا تربطها بالمعنى اللغوي إلا المعنى الظاهري فهو في بعض الآراء. «سيطرة فرد على فرد أو جماعة على جماعة أو دولة على دولة بغية الاستغلال»⁽³⁾ وهو في رأي: «استيلاء دولة على قطر من الأقطار وإدارة شؤونه والعمل على استثمار مرافقه المختلفة إما بيد مهاجرين يرحلون إليه أو بيد سكانه الأصليين أو باشتراك كلا الفريقين والدولة المستعمرة تضمن في هذا العمل لنفسها ولقومها أعظم فائدة تستطيع الحصول عليها»⁽⁴⁾.

وقد قسموا الاستعمار وفق التعاريف السابقة إلى أقسام كثيرة نذكر منها:

- (1) سورة هود، الآية: 61/11.
- (2) تفسير المنار / مج 12 / دار المعرفة / بيروت / ص 121.
- (3) د. شوقي أبو خليل / تحرير لا استعمار / منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ط 1 - 1991.
- (4) د. أحمد بن نعمان / فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر / منشورات دحلبي / الجزائر / 1991.

1 - الاستعمار الاستيطاني Settler Colonialism :

ويقصدون به ذلك النوع من الاستعمار الذي يقوم على الاحتلال الدائم للأرض دون أمل في التخلي عنها ويمثلون له باحتلال الصهاينة لفلسطين واستقرار البيض في جنوب أفريقيا.

2 - الاستعمار الثقافي Imperialism Cultural :

ويقصدون به ذلك النوع من الاستعمار الذي يغزو العقول والأفكار بمصطلحاته وبمفاهيمه ومناهجه التربوية التي يحاول من خلالها تفرغ الشخصية الوطنية من انتماءاتها الثقافية الوطنية وإحلال ثقافة بديلة متقبلة للاستعمار والاحتلال ويمثلون له بالفرنسة في الشمال الإفريقي مثلاً.

3 - الاستعمار الجديد Neo - Colonialism :

ويقصدون به ذلك النوع من الاستعمار السياسي الذي يقوم على خلق الانتماءات والولاءات السياسية والسيطرة على مقدرات الشعوب بجعلها تابعة للدول الاستعمارية التي لا تراعي إلا مصالحها، وقد خلقت وفق هذا النوع روابط متعددة انضمت فيها دول مختلفة لا تربطها ببعضها سوى وحدة المستعمر القديم لأراضيها.

والاستعمار وفق هذه التعريفات السابقة وانطلاقاً من دلالة اللغوية والقرآنية يكون قد دخل في مغالطة كبيرة، ذلك أن واقع تعامل الدول الغربية مع العالم الثالث وإن اتجه إلى استثمار الأرض بزراعتها أحياناً وإخراج ما فيها من كنوز أحياناً أخرى وما تبع ذلك من إنشاءات قام بها لخدمة هذه المشاريع، فإن ذلك وإن عد إعماراً للأرض إلا أنه إعمار لغير أهلها وسكانها بل وفي كثير من الأحيان هو حرمان لأصحابها الحقيقيين من ثرواتهم وحقوقهم التي وهبها الله لهم وتقديماً لغيرهم من الغرباء المغيرين عليها بالقوة، ومن هنا فإني أرى أن ذلك العمل الذي قامت به هذه الدول ولا زالت يجب أن يسمى استثماراً لأنه يؤدي إلى إفراغ الأرض من كنوزها الطبيعية وبقاء أهلها فقراء بعد أن كانوا بالإمكان أن يصبحوا أغنياء⁽⁵⁾.

(5) وانظر في ذلك أيضاً: موسوعة السياسة د. عبد الوهاب الكيالي

الاستغراق

د. مسعود عبدالله الرازي

لقد اخترنا أن نتعامل مع دلالة هذا اللفظ بعيداً عن الطريقة المعجمية التي تنحو بنا إلى استعراض الكلمة في مبانيها المختلفة وإن كنا لم نهمل ما اختلف مبناه واتحد معناه كما هو الحال في دلالة لفظ الاغتراق على معنى الاستيعاب الذي يتفق في دلالاته مع لفظ الاستغراق وينحو نحوه ومن ذلك قول قيس بن الخطيم:

تغترق الطرف وهي لاهية كأنما شف وجهها نُزِفُ⁽¹⁾

أي تستغرق عيوب الناظرين إليها لحسنها وهي غير مختفلة ولا عامدة لذلك ومنه أيضاً قولهم في البعير «اغترق التصدير واستغرقه»⁽²⁾ إذا أجفر جنباه وضخم بطنه فاستوعب الحزام حتى ضاق عنه.

والذي يبدو لنا أن لفظ الاغتراق لم يتم التوسع فيه بالقدر الذي نرى عليه لفظ الاستغراق وهذا في نظري لا يعني انحسار الأول أو تلاشيهِ من ميدان الاستعمال والتواصل وإنما سيبقى للاغتراق بعده الدلالي فيما وضع له إلى جانب الاستعانة به في شرح مدلول الاستغراق إن اقتضى الأمر ذلك أو العكس.

(1) كأنما شف وجهها نُزِفُ: يصف الشاعر المرأة بركة المحاسن حتى كأن دماها ودم وجهها نزف. وفي نظره أن المرأة أحسن ما تكون غب نفاسها لأنه قد ذهب تهيج دم وجهها فصارت رقيقة المحاسن، انظر في هذا لسان العرب مادة اغترق.

(2) انظر مادة اغترق واستغرق في كل من لسان العرب والقاموس المحيط.

وتأكيداً لما سبق فإن لفظ الاستغراق قد تم التوسع فيه حقاً فدخل التعبير به لغة واصطلاحاً مجالات واسعة ومعارف متعددة، وأصبح حيشماً ورد في الاصطلاح يعني استيفاء الشيء بتمام أجزائه وأفراده وإن كان هذا المعنى لا يبعد عن الدلالة اللغوية التي تعني الاستيعاب والإحاطة والشمول التي وضع لها اللفظ منذ البداية وهذا الرأي له ما يبرره إذا علمنا «أن اللفظ إذا احتمل أكثر من معنى من غير تضاد يحمل على الجميع»⁽³⁾ ويعزز هذا الرأي أيضاً تعبير الفقهاء عن النوم الثقيل الذي ينقض الوضوء بالاستغراق وكذلك في استغراق الذمة في الأموال وبه جاء تعبير محمد عزة دروزة عند حديثه عن المسلمين الذي ثبتهم الله في غزوة بدر وشملتهم روحانيته، واستغرقوا حتى رأوا الملائكة تقاتل معهم وأخذوا يتحدثون بذلك وصبروا واستماتوا حتى تم لهم النصر⁽⁴⁾.

فإذا انتقلنا إلى بيئة التصوف نجد الصوفية هم أكثر استعمالاً لهذا اللفظ وتعبيراً به عن حالات الوجد التي تعتري الصوفي حتى أنهم يجعلون لفظ الاستغراق هو مفتاح باب الوصول إلى الفناء في الله بعد قطع علائق النفس التي تفضي إلى تخلية القلب عن غير الله وتحليته بذكره تعالى حتى يصير القلب مستغرقاً بالكلية بذكر الله⁽⁵⁾ من غير أن يلتفت قلب الذاكر إلى الذكر في أثناء الذكر ولا إلى القلب⁽⁶⁾.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد وإنما نجد مصطلح الاستغراق قد جرى التعبير به عند النحاة والبلاغيين والمناطق والأصوليين وعلماء النفس وإن أول تلك الاستعمالات ما نراه في إطلاق الاستغراق على آل الجنسية التي تفيد

(3) انظر في هذا الجصاص الرازي. أحكام القرآن 92/1 وهو يرى أن الاسم الموضوع له معتبر وإن ألحقت به في الشرع معان أخر لا يثبت حكم الاسم في الشرع إلا بوجودها.

(4) محمد دروزة. سيرة الرسول ﷺ 328/2 ط/ د. ت المكتبة العربية، بيروت.

(5) انظر الغزالي. المنقذ من الضلال ط 8/1974 دار الكتب الحديثة، القاهرة ص 137 وكذلك إحياء علوم الدين 2/2 ط/ 1982 دار المعرفة. بيروت.

والدكتور عبد المنعم الحنفي. معجم مصطلحات الصوفية ط 1/1980 م. دار المسيرة. بيروت.

(6) الدكتور جميل صليبا. المعجم الفلسفي ط/ 1982 دار الكتاب اللبناني بيروت. مادة استغراق.

التناول على سبيل الشمول والإحاطة⁽⁷⁾، ومن أقسامها بحسب ما ورد في الكلّيات «جنسي وفردى وعرفى»⁽⁸⁾ واستغراق الجمع في هذا المجال كاستغراق المفرد⁽⁹⁾ من حيث الشمول. وحملوا الاستغراق على الحقيقة إذا كانت الإشارة فيه إلى كل الأفراد الذين يتناولهم اللفظ بحسب اللغة بمعونة قريبة نحو عالم الغيب والشهادة أي كل غائب وشاهد أو بمعونة لفظية نحو «إن الإنسان لفي خسر» أي كل إنسان بدليل الاستثناء بعده. وتستعمل (أل الجنسية) للاستغراق العرفي إذا كانت مقيدة نحو جمع الأمير التجار والمقصود تجار بلده لا تجار العالم. وألحقوا بآل ألفاظاً رأوها تدل على الاستغراق منها لفظ كل الذي يفيد استغراق أفراد المضاف إليه المنكر مثل «كل نفس ذائقة الموت» وكذلك الجمع المحلى بالآلف واللام نحو «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» والمعرف هنا بلام الاستغراق ونحوه عام ومعرفة وقد جعل منهما قسماً للآخر وذلك لما بينهما من تداخل وأما التباين فهو بالاعتبار فقط.

وما دمنا قد أشرنا إلى الاستغراق أنه عام فإن هذه المسلمة تقودنا إلى آراء الأصوليين في مسألة العموم هذه التي يرى فيها الشافعية وبعض الأحناف أن العام لفظ يستغرق جميع ما يصلح له بوضع واحد وأما عامتهم فيرى أنه يكفي في العموم انتظام جمع من المسميات كما صرح به فخر الإسلام وغيره، لأن الاستغراق أشمل من العموم⁽⁹⁾.

(7) عباس حسن. النحو الوافي 426/1، ط 5/د. ت. دار المعارف بمصر.

(8) الكفوي. الكلّيات. القسم الأول ص 155، ط 2/1981. إحياء التراث العربي. دمشق.

(9) ومن أمثلة هذا النوع من الاستغراق «فما لنا من شافعين» الشعراء 100 أي ما لنا من شافع.

(9) انظر في هذا اليدخشي والإسنوي في شرحهما. مناهج العقول ونهاية السؤل، لنهاج الوصول في علم الأصول تأليف القاضي البيضاوي ط 1/1984 دار الكتب العلمية بيروت. 78/2 و 76، والآمدني. الإحكام في أصول الأحكام 217/2 وما بعدهما. ط 2/1986 دار الكتاب العربي. بيروت.

د. ميشال عاصي والدكتور إميل بديع يعقوب. المعجم المفصل في اللغة المجلد الأول ص 94 ط 1/1987 م دار العلم للملايين.

الموسوعة الفقهية. ط 1/1984 م مطبعة الموسوعة الفقهية. الكويت. د. جميل صليبا. المعجم الفلسفي ط 1/1982 م دار الكتاب اللبناني، بيروت.

أما الاستغراق في القضايا المنطقية فهو يتجه أساساً إلى التعلق بكل الأفراد الذين يدل عليهم اللفظ أو الحد المعبر عنه بالموضوع والمحمول وانتهى المناطق في ذلك إلى صورة إجمالية تنص على استغراق القضية الكلية الموجبة لموضوعها فقط في حين تستغرق القضية الكلية السالبة كلاً من الموضوع والمحمول. ولا تستغرق الجزئية الموجبة لأي منهما لعدم التحديد في ذلك، وتستغرق الجزئية السالبة المحمول دون الموضوع.

فإذا تركنا المنطق الصوري واتجهنا إلى المنطق الرياضي نجد أن القضية الموجبة (الكل كلية يكون فيها الموضوع والمحمول مستغرقين) مثل «كل مثلث هو كل ذي ثلاثة أضلاع» أي كل ع هي كل ح. وبالنظر إلى الحساب الرياضي نجد أن حساب الأصناف يقوم على خمسة عشر مبدأ منها مبدأ الاستغراق ورمزوا له بالآتي:

$$(أ + ب) ح = أ ح + ب ح.$$

$$م + ح = (أ + ب) (ح + ح).$$

والقسم الأول من هذا المبدأ الأخير يعبر عما يماثل خواص الأعداد العادية. والقسم الثاني يوجد تفرقة لها معناها بين هذا الجبر «الجبر المنطقي» وبين الجبر العادي (الكمي)⁽¹⁰⁾.

ولا يخلو أيضاً علم النفس من مصطلح الاستغراق الذي نراه يستخدم في ثلاثة معان تقنية مميزة وتتمثل في مجال البصر للدلالة على توجيه العينين أو العين الواحدة وتركيز البؤرة صوب شيء أو نقطة بحيث تقع الصورة على الجوية المركزية. وفي مجال التعلم لوصف العملية التي يتم بواسطتها ترسيخ شيء في الذاكرة أو تكوين عادة حركية عبر التكرار. وفي مدارس التحليل النفسي لوصف التعلق بمرحلة مبكرة من مراحل النمو... أو هو تعلق بشيء يجعل من الصعب تكوين اهتمامات جديدة أو تكيفات⁽¹¹⁾.

(10) انظر في هذا عبد الرحمن بدوي. المنطق الصوري والرياضي ط 4/ 1977 م دار القلم بيروت
وركالة المطبوعات. الكويت. ص 267 و293.

(11) انظر أسعد زووق موسوعة علم النفس ط 1/ 1977 م مطابع الشروق بيروت ص 38 و39.

وبذلك يكون حقاً أن مصطلح الاستغراق كما هو شامل في ذاته مستوعب في دلالاته فهو أيضاً مستوعب لمعارف مختلفة كما رأينا في استعراضنا لأنواع المعارف التي صار هذا اللفظ يعبر به عن إبراز تلك الحقائق المتناولة لحدها.

(12) د. جميل صليبا - المعجم الفلسفي ط 1982 دار الكتاب اللبناني بيروت ص 71.

الاستغفار

السائح علي حسن

الاستغفار طلب المغفرة فهو استفعال من غفر بمعنى ستر ومنه الغفور
والغفار من أبتية المبالغة - الله عز وجل وأصل الكلمة للدلالة على التغطية
والستر.

قال الشاعر:

في ظل من عنت الوجوه له... ملك الملوك ومالك الغفر
ومن هذا المعنى قول عمر في تحصيب المسجد هو أغفر للنخامة أي
أستر. ويقال غفر الشيب بالخضاب غطاء. والمغفرة خرقه توقى بها المرأة
خمارها من الدهن.

ويسمون ما يكون على الرأس تحت بيضة الحديد مغفراً قال الشاعر:
حتى اكتسيت من المشيب عمامة... غفراء أغفر ثوبها بخضاب
وأشد سيويه:

استغفر الله ذنباً لست محصيه... رب العباد إليه القول والعمل
والمغفر، والمغفرة، والغفارة: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس
يلبس تحت القلنسوة، وقيل هو رفرف البيضة، وقيل هو حلق يتقنع به
المتسلح⁽¹⁾.

(1) انظر لسان العرب لابن منظور 5/25 ط/ دار صادر بيروت ترتيب القاموس الطاهر الزاوي 3/405 ط/ الدار العربية للكتاب المغرب/ المطرزي ص 341 ط/ دار الكتاب العربي معجم مقاييس اللغة/ لابن فارس ت ع هارون 4/385 ط/ دار الفكر.
أساس البلاغة/ الزغشري ص 453 ط/ دار صادر.

وبعض الدراسات الحديثة تتابع بعض كتب اللغة في الاختصار على الستر
كمعنى لغوي للكلمة⁽²⁾.

ويرفض ابن القيم هذا الفهم يروى أن الاستغفار: «هو طلب محو الذنب
وإزالة أثره ووقاية شره، لا كما ظن بعض الناس أنها الستر فإن الله يستر من
يغفر له ومن لا يغفر له، لكن الستر لازم مسماها، أو جزؤه، فدالتها عليه إما
بالتضمين، وإما باللزم، وحقيقتها وقاية شر الذنب، ومنه المغفر لما يقي
الرؤوس من الأذى والستر لازم لها وإلا فالعمامة لا تسمى مغفراً⁽³⁾.

والراغب يوفق بين المعنى اللغوي والمقصد الشرعي الذي توخاه ابن
القيم بقوله «الغفر لباس ما يصونه عن الدنس، ومنه قيل اغفر ثوبك في
الوعاء، واصبغ ثوبك فإنه أغفر للوسخ».

والغفران من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب⁽⁴⁾.

والاستغفار الصادق والتوبة يشتركان في طلب إزالة ما لا ينبغي إلا أن
الاستغفار طلب من الله إزالة آثار الذنب وصون المستغفر من عذاب الله،
والتوبة سعي من الإنسان في إزالته⁽⁵⁾.

والاستغفار الذي حث عليه الأنبياء والمرسلون هو ذلك الذي يصدق فيه
الفعل ما ينطق به اللسان، أما مجرد النطق فهو توبة الكذابين كما قيل.

ولهذا قالت رابعة العدوية «استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير» فهي لا
تذم حركة اللسان من حيث أنه ذكر الله، بل تذم غفلة القلب... فإن سكنت
عن الاستغفار باللسان احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد⁽⁶⁾.

الحكم التكليفي للاستغفار:

لا خلاف بين الفقهاء في أن الاستغفار مطلوب على سبيل الندب في

(2) موسوعة جمال عبد الناصر للفقهاء الإسلاميين 142/7.

(3) مدارج السالكين/ ابن قيم الجوزية 1/307 ت محمد حامد الفقي ط/ دار الكتاب العربي.

(4) المفردات في غريب القرآن/ الراغب الأصفهاني ص 462 ط/ دار المعرفة.

(5) انظر الموسوعة الفقهية الكويتية 4/35.

(6) إحياء علوم الدين/ أبو حامد الغزالي 4/2157 ط دار الكتاب العربي.

أوقات كثيرة، وقد يكون واجباً كالاستغفار من المعصية، وقد يحرم كالاستغفار للكفار لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾.

وقد أثنى الله على المستغفرين بقوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: 17] وقوله: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾⁽⁷⁾ [سورة الذريات: 18].

وقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة الفتح: 1].

إلا يقول: «سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي».

وعنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثّر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن⁽⁸⁾ وأخرج الطبراني في الأوسط من حديث الزبير: «من أحب أن تسره صحيفته فليكثر من الاستغفار».

دعاء وتوبة وعبادة:

استغفر الله، هي دعاء بأن يتجاوز الله عن التقصير، ويمحو آثاره ويستتر عواره، وعزم من العبد على عدم الإصرار على المعاصي والاستسلام للهوى وإخلاص العبادة لله وحده.

لذلك قال هود عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ﴾ [سورة هود: 52].

وقال نوح معجلاً لمعالجته لعصيان قومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَكُمْ إِنَّهُ كَانَ خَفِيراً يَرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيْ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ [سورة نوح: 10 - 12].

(7) موسوعة جمال عيد الناصر والموسوعة الكويتية وتفسير القرطبي 2/ 1281 ط / كتاب الشعب.

(8) المصدر السابق 8/ 7321.

وقال محمد: ﴿وإن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ [سورة هود: 3].

ويلاحظ أن طلب الاستغفار في هذه الآيات ربط به جزاؤه ارتباط السبب بمسببه وجزم الجزاء في جواب الطلب، فالاستغفار سبب في نزول الغيث وزيادة القوة، والمال، والبنين، وإيتاء كل ذي فضل فضله.

قال الشعبي خرج عمر يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع فأمطروا فقالوا: ما رأيك استسقيت.. فقرأ الآية (من سورة نوح).

الدعاء هل يغير القضاء السابق؟

يرى البعض أن ما قدره الله كائن لا محالة، وقد رفعت الأقلام وجفت الصحف ويجد من الآيات والأحاديث ما يؤكد به رأيه، وإن الدعاء لا يغير من المقدر شيئاً، ولذلك يقال: ما فائدة الدعاء والاستغفار وغيره من الأسباب.

وقد ناقش العلماء هذه النقطة بما لا مزيد عليه ومنه هذه الفقرة من كلام الإمام الشوكاني حيث قال: «أحمل أحاديث الفراغ من القضاء على عدم تسبب العبد بأسباب الخير أو الشر، وأحمل الأحاديث الأخرى على وقوع التسبب من العبد.. وليس في ذلك خلف لما وقع في الأزل ولا مخالفة لما تقدم به العلم بل هو تقييد المسببات بأسبابها، ولا يشك من له اطلاع على ما اشتمل عليه القرآن من ترتيب حصول المسببات على حصول أسبابها ومن ذلك قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾، «فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً» ثم يقال لهم أيما فائدة لأمره عز وجل لعباده بالدعاء بقوله:

﴿ادعوني استجب لكم﴾ ثم عقب ذلك بقوله: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ (أي دعائي) ووعده لمن تركه وجعله مستكبراً... فإذا كان ذلك لا فائدة فيه ولا ينال العبد إلا ما قد سبق به القضاء فعل الدعاء أو لم يفعل فقد نسبوا إلى الله ما لا يجوز ولا تحل نسبته إليه بإجماع المسلمين فإنه عز وجل

لا يأمر إلا بما فيه فائدة للعبد إما جلب نفع أو دفع ضرر، ولمزيد من المعرفة
انظر المصادر التالية⁽⁹⁾.

(9) انظر:

أ - قطر الولي/ محمد بن علي الشوكاني ص 508 وما بعدها ت د - إبراهيم هلال ط دار إحياء التراث العربي.

ب - تحفة الذاكرين/ لنفس المؤلف ص 20، 21، 22، 253.

ج - إيشار الحق على الخلق/ محمد بن المرتضى المشهور بابن الوزير ص 258 ط/ دار الكتب العلمية.

د - مدارج السالكين 118/2 وما بعدها.

استغلال

أ. المختار أحمد ديرة

استغل الضيعة: أخذ غلتها، واستغل فلاناً، طلب منه الغلة. واستغل فلاناً: انتفع منه بغير حق لجأه أو نفوذه (محدثة)⁽¹⁾.

إذن فالاستغلال هو انتفاع بغير حق كأن يستغل التاجر عدم توفر بضاعة ما في السوق فيزيد في سعرها.

وغُلّ: خان وضغن، والإغلال: الخيانة في كل شيء والسرقه أيضاً.

وأهل الرجل: خان في المغنم أو في مال الدولة، وفي القرآن الكريم: ﴿ومن يغفل يأت بما هل يوم القيامة﴾⁽²⁾.

الغال: هو الخائن في الغنيمة في عرف الشرع.

وأما الغُلّ: فهو طوق من حديد يوضع في عنق الأسير أو المجرم.

وأما الغِلّ: فهو العداوة والحقد الكامن، وفي القرآن الكريم: ﴿ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا﴾⁽³⁾.

والاستغلال في عرف الاقتصاد هو أن القيمة الاقتصادية للسلع إنما تعود إلى مقدار العمل المبذول في إنتاجها، فإذا كانت قيمة السلعة أكثر من قيمة العمل المبذول فيها فذلك استغلال.

وهناك نوع آخر من الاستغلال، وهو استغلال المستهلك، فالمؤسسات

(1) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية مادة (غُلّ).

(2) سورة آل عمران، الآية: 161.

(3) سورة الحشر، الآية: 10.

الاحتكارية تستطيع أن تفرض على المستهلك ما تشاء من ثمن منتجاتها. بل هي تستغل الدولة أيضاً بحملها على إصدار التشريعات واتخاذ التدابير الكفيلة بتحقيق أهداف الاحتكاريين.

ولا شك أن أعلى مراحل الاستغلال هي الاستعمار، إذ تستولي الدولة القوية على أراضي الدولة الضعيفة وتستغل ثرواتها لمصالحها ومصالح الطبقة الحاكمة في البلد القوي المستعمر⁽⁴⁾.

وهذا هو المفهوم الاقتصادي والاجتماعي للاستغلال حيث يصف العلاقة بين المنتج وصاحب رأس المال.

الاستغلال في القانون: عدم التعادل الفادح بين المقابلين في العقود نتيجة استغلال أحد الطرفين حالة نفسية قامت لدى الطرف الآخر كطيش بين أو هوى جامح وهو يجيز طلب إبطال العقد أو إنقاص التزامات الطرف المغبون⁽⁵⁾.

(4) ينظر الموسوعة السياسية: د. عبد الوهاب الكيالي.

(5) الموسوعة العربية للميسرة: محمد شفيق غريبال ص 143.

مِنْ مَحْتَوَيَاتِ مَكْتَبَةِ الْكَلْبَةِ

«كُتُب نَادِرَةٌ بِاللُّغَةِ الْإِيطَالِيَّةِ»

تحتوي مكتبة كلية الدعوة الإسلامية على مجموعة نادرة من الكتب والأبحاث والدراسات باللغة الإيطالية التي آلت إليها أخيراً من مخلفات الكاتدرائية الإيطالية بليسيا.

ونظراً لأهمية هذه الكتب فقد حرصت أسرة تحرير هذه المجلة أن تتيح الفرص للملمين باللغة الإيطالية من الباحثين الإطلاع على هذه الكتب وتقويمها بقصد اختيار ما يصلح منها للنشر أو إجراء الدراسات على ما ورد فيها من معارف، وتقديمها للقراء أولاً بأول.

وإن هذا العمل الذي تنشره هذه المجلة لأول مرة يعد خطوة على هذا الدرب.

نحن اليهود

(رداً على باولو أورانو)

تأليف: ابرامو ليفي.

إصدار: دار النشر بينشانا - روما - ١٩٣٧ م.

يتكون الكتاب من 241 صفحة من القطع المتوسط وجاء مقسماً - تحت العنوان الرئيسي مناقشة - إلى الفصول الآتي بيانها والتي هي عبارة عن آراء

لبعض المهتمين نشرتها بعض الصحف:

- اليهود في إيطاليا (آراء الصحيفة «ببولود إيطاليا» بقلم أ. غريغوريو 1937/5/28 م.

- رأي اليهود: لا صهيونية - «ببولود إيطاليا» - 1937/6/1 م.

- اليهود تحت الامتحان: مواقف بعض اليهود والجاليات اليهودية - «ببولود إيطاليا» 1937/6/5 م.

- تصريحات أخرى لبعض اليهود واستنتاجات صحيفة «ببولود إيطاليا» - 1937/6/10 م.

- الرؤنة واليهودية - صحيفة «كوريري ديلأ سيرا» - 1937/6/3 م.

- حقوق الكاثوليكين في فلسطين - «كوريري ديلأ سيرا».

- القضية اليهودية - بقلم لورنزو ادجيلي - «غاذيتا ديل ببولو» - 1937/4/4 م.

- رسالة من الفاشي اليهودي ايتوري أوفاتزا إلى سعادة ايرمانو اميكونشي «غاذيتا ديل ببولو» 1937/4/8 م.

- الصهيونية الدولية - بقلم أدوني نوزاري - «الجورنالي ديطاليا» - 1937/4/20 م.

- اليهودية والفاشية - صحيفة «الميسادجيرو» - 1937/2/5 م.

- اليهود والصهيونية - ساعة الوضوح - صحيفة «لافوتشي دي مانطوفا» - 1937/6/4 م.

- اليهود والصهيونية - إجماع وتصريحات - صحيفة «لافوتشي دي مانطوفا» - 1937/6/5 م.

- إيطاليون يهود ويهود إيطاليون - صحيفة «الكوريري بادانو» - فرارا - 1937/6 م.

- مناهضة السامية - بقلم البيروتو بايراتي - صحيفة «البولولويالسي» - بيالآ 1937/6/14 م.

- الفاشية واليهودية - بقلم جوسيبى لونغو - «الريجيمي فاشيستا» - 2/5/1936 م.
- الصهيونية في إيطاليا: مشكلة غير قائمة - بقلم ف. جازيتزو «لابيلو» - باليرمو 12/7/1937 م.
- مناهضة الصهيونية لا السامية «الثورة الفاشيستي» - سينا -
- يهود إيطاليون وإيطاليون يهود - «الكتاب والبندقية» - ميلانو - 3/6/1937 م.
- في فلسطين - «صدى العالم» - روما - 6/5/1937 م.
- اليهودية والصهيونية وفلسطين - «برقة» - بنغازي.
- المعضلة اليهودية «بقلم أوغوكويستا أوغوستا» - روما - 15/6/1937 م.
- ٠٢
- تذكرة لليهود - بقلم فيرولا - «تيرميني» - فيومي - يونيو 1937 م.
- انكلترا والوصاية على فلسطين - بقلم ايتوري أوفاتزا - «علمنا» - تورينو - 15/3/1936 م.
- توضيح مناسب - بقلم اي. أو «علمنا» - 1/6/1937 م.
- الصهيونية والطينة - بقلم لثوني كاريي «الفكرة الصهيونية» - ميلانو - يونيو 1937 م.
- إسرائيل في إيطاليا - «إسرائيل» - فلورنسا - 14/6/1937 م.
- المبشر بالإنجيل - «المبشر» - 14/4/1937 م.
- اليهودية والمسيحية - بقلم اربيرتو ليفي - «العمومية الفاشيستي» - روما - يونيو 1937 م.
- إيطاليا الفاشية تكتشف وجود اليهود - بقلم كامبل مالارميه - «أنا في كل مكان» - باريس 22/5/1937 م.
- القضية اليهودية والصهيونية - «إسرائيل» - فلورنسا - 4/6/1937 م.
- هذا وجاء في الصفحة رقم 163 مقتطفات من الخطاب الذي ألقاه
- مجلة كلية الدعوة الإسلامية (العدد الحادي عشر) 732

الأستاذ الثو ماكالوزو في مدينة بنغازي ونشرته الصحيفة «لأتشير بنائك» (برقة) الصادرة في بنغازي. لقد أورد الخطيب عرضاً تاريخياً مسهباً لقضية اليهود وخضوعهم لحكم كل من الآشوريين والفرس والمقدونيين والرومان ثم تشردهم - سنة 70 م - في شتى أصقاع العالم لا سيما في شمال أفريقيا وإسبانيا والبرتغال حيث بلغوا - إبان العهد العربي - مستوى عالياً من التمدن والثقافة والرفاهية. وتعرض الأستاذ ماكالوزو لطرد السيفرديين أي اليهود الإسبان من شبه جزيرة إيبيريا تبعاً لطرد العرب منها في القرن الخامس عشر، كما يشير إلى أن هؤلاء اليهود كانوا أكثر تمدناً وثقافة وثراء من إخوانهم الإشكينايزين الذين استقر بهم المقام في ألمانيا وبلاد شرق أوروبا. ولم يسد الوفاق بين السيفرديين والإشكينايزين رغم أنهم كانوا يدينون جميعاً باليهودية وحتى التزاوج بين أفراد الفئتين كان ممنوعاً.

ثم يتطرق الخطيب المذكور إلى الحكم الإسلامي في فلسطين وإلى الحروب الصليبية وإلى العهد العثماني ويعتبر الثورة الفرنسية نقطة انطلاق حركة تحرر اليهود وذوبانهم في الأقطار التي استوطنوها وتقلدهم أسوة بسائر المواطنين أهم مناصب الحكم وأسماها علماً بأن العملية نفسها كانت بطيئة في أوروبا الشرقية وخصوصاً في روسيا وبولندا ورومانيا حيث كانت غير ذات بال حتى اندلاع الثورة البلشفية. ولذا فعن حركة معاداة اليهود التي لم تسكن في كل مكان تولدت الصهيونية «التي هي - في رأي الأستاذ ماكالوزو - حركة سياسية محضة لا دخل لها (أو لا يكاد لها دخل) في ديانة اليهود.

ويتحدث الخطيب عن تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية وعن الحلول المختلفة التي حاول إيجادها لقضية اليهود ولم يقض له أن يشهد تحقق تصورات المثالية ومن جعلتها إيجاد موطن يلجأ إليه بنو جلدته ويحتمون به من ألوان الاضطهاد التي كانوا محلها إذاك في بعض دول أوروبا. ويشير صاحب الخطاب إلى أن هرتزل لم يكن رجل دين ولا شخصاً متديناً مع أنه كان يمتاز بفضته وذكائه واتساع أفق نظره وكان يحلم حلم اليقظة بتأسيس دولة يهودية وبفضل حرصه وحرص خلفائه قد تحقق حلمه بإنشاء موطن قومي

يهودي وعدت به بريطانيا العظمى وأيدته على لسان رئيس حكومتها اللورد بالفور غاضبة الطرف عن الوعود التي قطعتها مع العرب الذين كانت لهم اليد الطولى في مساعدتها على النيل من الأتراك وإخراجهم من فلسطين والأقطار العربية المجاورة الأخرى.

ثم يقول الأستاذ الخطيب إن اليهود بدأوا بعد ذلك يفرون إلى فلسطين بعشرات الآلاف سنوياً تحت راية الصهيونية؛ الأمر الذي تسبب في حدوث اضطرابات ومجابهات دامية بين المسلمين والمسيحيين من جهة واليهود من جهة أخرى وتمخضت عنه شتى الاحتجاجات الشفوية والتحريرية فضلاً عن المصادمات الخطيرة التي شهدتها يافا التي كان ينزل بمينائها المهاجرون الصهاينة.

وختاماً يضاف بكل مرارة أن اليهود بفضل تضامنهم قد حققوا أحلامهم وأن العرب بانقساماتهم قد فقدوا أرضهم وما فتوا مصرين على ذلك رغم ما يحلّق بهم من مخاطر.

أزمة المجتمع المعاصر

هذا الكتاب ذو أربعمائة وعشر صفحات من القطع فوق المتوسط ألفه المونسنيور كارلو سالوتّي المبشر والمحاضر المعروف الذي سبق له أن درّس بكفاءة مادتي الفلسفة وتاريخ الفلسفة بالمعهد اللاهوتي للدراسات العليا في روما، وتولت نشر هذا المؤلف شركة أمانشيوتشي وبيراتي للطباعة بجزيرة ليري.

ينقسم الكتاب إلى الأبواب التالية:

- (1) أزمة النفس ويتفرع إلى ستة فصول.
- (2) أزمة الأسرة ويتفرع إلى ستة فصول.
- (3) أزمة المدرسة ويتفرع إلى سبعة فصول.
- (4) أزمة العلوم ويتفرع إلى ستة فصول.

- (5) أزمة الأخوة ويتفرع إلى سبعة فصول.
- (6) أزمة الحرية ويتفرع إلى سبعة فصول.
- (7) أزمة الديمقراطية ويتفرع إلى ستة فصول.
- (8) أزمة الحضارة ويتفرع إلى ستة فصول.

يصف المونسنيور صالوتي في كتابه شتى أوجه الغم والكدر التي تهب العالم اليوم كما يتعرض للأزمة الأخلاقية التي آل إليها المجتمع الإنساني المعاصر قبل اندلاع الحرب الكونية الأولى واشتدت وطأتها عليه حتى أنسته الأزمة الاقتصادية التي كان إذاك متردياً فيها

ويتحليله لأزمة كل من النفس والأسرة والمدرسة والعلوم والأخوة والحرية والديمقراطية والحضارة يوجه اتهاماً رهيباً إلى جميع الملل وضروب النفاق واللؤم والخجل والجريمة التي يتكون منها نسيج التاريخ الذي تجري أحداثه أمام أنظارنا أو تلمحه عين العارف بالأنفس والخبير بالقرائن التاريخية.

فكر وعمل بيوس الحادي عشر

عكف على تأليف هذا الكتاب راهب استعار لنفسه - على ما يبدو - اسم رومثوس تواضعاً وحباً في نكران الذات ونشرته له شركة القديس بولس الخيرية بروما سنة 1929 م.

ينطوي الكتاب على (250) صفحة من القطع المتوسط جاءت مقسمة إلى الأبواب والفصول التالية:

الباب الأول: فكر بيوس الحادي عشر

- 1 - انتخاب بيوس 11 وأول كلمة يوجهها قداسته إلى العالم.
- 2 - سلام المسيح في ملكوت المسيح.
- 3 - المنهج الحبري لبيوس الحادي عشر.
- 4 - ملكوت يسوع المسيح.

- 5 - المنشور البابوي حول ملوكية المسيح .
- 6 - الملوكية الاجتماعية للمسيح .
- 7 - ملوكية المسيح وجمعية «العمل الكاثوليكي» .
- 8 - جبر بعثات التبشير والسياسة التبشيرية .
- 9 - أزمات الأديان والقوى التبشيرية لكنيسة روما .
- 10 - الكنيسة والأزمة الفلسفية - خيانة المفكرين - من أجل جمعية للمفكرين .
- 11 - الفلسفة المطلقة في المستقبل ستكون كاثوليكية .
- 12 - من أجل الوحدة الدينية في العالم .
- 13 - منشور «المستجدات» حول القضية العمالية، وثيقة وعي صادق للحقيقة الكاثوليكية .
- 14 - منشور «الوحدانية الربانية» .
- 15 - السلطة .
- 16 - السيادة .
- 17 - الكنيسة والدولة .
- 18 - تربية الأجيال الصاعدة حق إلهي للكنيسة - خطاب عظيم للأب الأقدس .
- 19 - القومية .
- 20 - الامبريالية .
- 21 - الدولة وجمعية «العمل الكاثوليكي» .
- 22 - قضية العمل في خطاب ألقاه الجبر الأعظم في العمال الفرنسيين .
- 23 - الكنيسة والمشكلة الاقتصادية .
- 24 - الكنيسة والثروة .
- 25 - الكنيسة والشغل .

- 26 - الإنجيل والشغل والإشترابية.
- 27 - يسوع في الصحراء.
- 28 - الوسواس العام.
- 29 - صيحة عالمية: الخبز!
- 30 - يسوع وعلم الخبز - الإنجيل، اقتصاد - معركة القمح.
- 31 - يسوع والقضية الاقتصادية.
- 32 - يسوع والفقراء - نبل الفقراء.

الباب الثاني: الملامح الشخصية لبيوس الحادي عشر

- 1 - البابا.
- 2 - بيوس الحادي عشر.
- 3 - البابوية.
- 4 - البابا ممثل سيادة الروح.
- 5 - بيوس الحادي عشر: شاعر وفيلسوف.
- 6 - بيوس الحادي عشر: علامة ولاهوتي.
- 7 - سياسية بيوس الحادي عشر.
- 8 - المعلم الإلهي والبابا.

الباب الثالث: أعمال بيوس الحادي عشر

- 1 - عظمة أحداث قصر لاتيранو.
- 2 - انتكاس تاريخي.
- 3 - كاثوليكية إيطاليا والتحرر الماسوني.
- 4 - المظهر المزدوج لأحداث قصر لاتيранو.
- 5 - المعاهدة والمصالحة نور الفداء العالمي.
- 6 - المعاهدة والمصالحة نور المسالمة العالمية.

- 7 - أحداث قصر لاتيرانو وجمعية «العمل الكاثوليكي».
 - 8 - سيادة الروح والتوافق - مدينة الفاتيكان مدينة للأرواح أكثر منها مدينة للبشر.
 - 9 - شروط المعاهدة اللاتيرانية اعتراف وتقديس لحقوق الرب في حكم الشعوب.
 - 10 - مدينة الفاتيكان مدينة الروح.
 - 11 - يوبيل الأب الأقدس بيوس 11 التوافق أول نعم العام اليوبيلي وأعظمها المنشور البابوي - الرحمن - الكفارة.
 - 12 - البابا قطب الجاذبية الكونية.
 - 13 - مزيد من التوافق - السياسة العليا للملك - المعاهدة والمصالحة.
 - 14 - وأكثر وأفضل ما بقي عمله - الفكرة البرلمانية لأصحاب المعالي بيلوتزو وأورانو وكارابيلي وكانتا لوبو الواجبات الجديدة التي تنتظر جمعية «العمل الكاثوليكي».
 - 15 - كاثوليكية روما ومصيرها.
 - 16 - أول مرة يغادر فيها الحبر الأعظم قصور الفاتيكان.
- ويرتكز هذا الكتب أساساً على فكر الحبر الأعظم بالنسبة لتلك القضايا العصرية التي أشار إليها قداسته في أحد مناشيره . ولذا فإن الكتاب يتناول بعض الدراسات المتعلقة بمناشيره ويخططه العظمى وبحركة «العمل الكاثوليكي» يلي ذلك تصوير لملامح شخصيته المقدسة .
- وجاء في ختام الكتاب تعقيب موجز على الأحداث التاريخية العجيبة التي شهدتها قصر لاتيرانو والتي كانت بمثابة أزهار الشجرة المدهشة لفكر الحبر الأعظم ، فكر الانبعاث الروحي في العالم الذي نشره قداسته في مناشيره إبان ولايته والذي نما وتطور كبذرة خردل الشجرة الإنجيلية .
- إن هذه الشجرة في إيطاليا قد غمرتها الزهور فيما سلف مما يدل بوضوح على حلول ربيع جديد لحياة كاثوليكية تمر كتفخة انبعاث ليس فقط
- مجلة كلية الدعوة الإسلامية (العدد الحادي عشر) 738

على ضمير الأمة الإيطالية ولكن على ضمير أوروبا المسيحية جمعاء وينهي المؤلف مقدمته قائلاً:

«تلك هي الأغراض التي كنا نرمي إليها من وراء كتابة هذا العمل المتواضع الذي نضعه عند أعتاب الحبر الأعظم بيوس الحادي عشر كهدية ورمز تبجيل ومحبة بمناسبة الذكرى الخمسين (البوويل) لسومه راهباً.

محاسن المسيحية

تأليف الدكتور باولو شانتز.

ترجمة الدكتور ارمينيد جيلدو بيليفرينيتي.

الجزء الثالث والآخر: المسيح والكنيسة.

الدار الفلورنسية للكتب والنشر - فلورنسا - ١٩١٠.

يتكون هذا الكتاب من 673 صفحة من القطع المتوسط وينطوي على خمسة عشر باباً ومقدمة للمترجم وأخرى للدكتور كوخ مع خاتمة بقلم المترجم ومعجم للأعلام.

كانت مقدمة الطبعة الثالثة من الجزء الثاني هي آخر ما كتبه الدكتور شانتز وفي اليوم التالي أي غرة يونيو 1905 خطفته المنية من الأمة التي تصارع معها بعزم أكيد وقوة روحية نادرة في سبيل أن يوسع محتوى الجزء الثالث وإعداده للطبعة الثالثة.

كان هذا أحب أعماله إليه، بل كان عمل العمر كله وقد بذل كل عناية لرفعه إلى مستوى العصر لا سيما فيما يخص عقيدة الكنيسة التي قتلت بحثاً ونقاشاً. تعرض المؤلف لذكر الإسلام في الصفحات رقم 204، 571، 636 مشهراً به إذ يقول إنه عنيد في وجه التبشير وإنه أعطى دفعاً جديداً لاسترقاق الأسرى وغيرهم من العباد وأنه رغم القوة المتمثلة في رسوله محمد ﷺ وفي قرآنه المجيد وتاريخه وانتشاره وحيويته الخصبية إلى وقتنا الراهن لا يستطع منافسة الديانة المسيحية - أعدى أعدائه - من حيث نقاوة العقائد وطهارة الأخلاق وسمو الفضائل وورقي الحضارة. وإن حياة محمد ﷺ لم تخل من

العيوب وإن التعصب والإيمان بالقضاء والقدر وتعدد الزوجات والرق تطبع آخر الأديان التاريخية الكبرى بطابع الذناء.

القضية الغربية للفراس دئون

هذا هو الكتاب رقم (25) من سلسلة «الكتب الخضراء» التي تتعلق بمآسي التاريخ وأسراره ألفه اتشيزاري جارديني ونشره أ. موندادوري في ميلانو سنة 1935م.

إنه يشتمل على ثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط جاءت مقسمة إلى سبعة فصول تحمل العناوين الآتية:

- (1) سر الملك.
- (2) المغامرة الروسية.
- (3) المغامرة الإنكليزية.
- (4) المغامرة الإنكليزية.
- (5) التحول.
- (6) بقية المغامرة الانكليزية.
- (7) المغامرة الفرنسية وختام المغامرات.
- (8) دبلوماسية رفيعة.
- (9) دوغيرشي ودي فيرجي ورفاقه.
- (10) بومارشي وروايته «المقاتلة العجوز».

ومما جاء في المقدمة أن السياسة الخارجية التي انتهجتها فرنسا إبان القرن الميلادي الثامن عشر تبدو لمن يبحث في أوجهها المتعددة أو يتتبع مجرياتها الملتوية على أساس الوثائق الوفيرة والبحوث الكثيرة المتاحة تبدو كسلسلة من الأخطاء المتتالية أحدها أفظع من الآخر.

ففي واقع الأمر قد شهد ذلك القرن تناقصاً بطيئاً لا ينكر في النفوذ السياسي الفرنسي ذلك النفوذ الذي بلغ أوجه بعد صلح ويستفاليا وفي عهد

الملك لويس الرابع عشر الذي ظلت فرنسا بعد وفاته أيضاً في مهيب المؤامرات والحروب، فقد منيت بالهزائم التي حقق فريدريك الثاني من وراثتها شتى المكاسب على أثر عقد صلح آكويغرانا سنة 1748 الذي قال فولتير بشأنه قوله المشهورة: «يجب الاعتراف بأن أوروبا، يمكنها أن تسجل تاريخ سعادتها من يوم عقد هذا الصلح» وكان ذلك ثمرة نصائح سيدة شابة (مركيزة بومبادرو) ألا وهي محظية الملك لويس الخامس عشر.

انتصارات الكنيسة

خلال العشر السنوات الأولى من جلوس بيوس التاسع على العرش البابوي عكف على تأليف هذا الكتاب الراهب جاكومو مارغوتي ونشرته المطبعة التي كان يديرها الأب دي أغوسطيني في مدينة تورينو سنة 1857.

إن هذا العمل الذي مضى على صدوره (135) عاماً يتكون من (518) صفحة من القطع المتوسط مقسمة إلى أربعة أبواب أسماها المؤلف حقبة كما يلي:

الحقبة الأولى: بيوس التاسع	المتنصر على نفاق الخلاعة
الحقبة الثانية: بيوس التاسع	المتنصر على التعصب
الحقبة الثالثة: بيوس التاسع	المتنصر على الهرطقة
الحقبة الرابعة: بيوس التاسع	المتنصر على الدبلوماسية

وجدير بالملاحظة أن هذا الحبر الأعظم جلس على عرش الكنيسة اثنين وثلاثين سنة من 1846 إلى 1878 وكان أعظم شخصيات القرن التاسع عشر واشتهر بإنجازاته المختلفة التي أكسبته شعبية واسعة في أوروبا بأسرها علماً بأنه جابه محتناً عديدة وعمر ستة وثمانين حولاً.

بِسْذَرَة مِن دَم

ينطوي هذا الكتاب على ثلاثمائة وثلاث صفحات من القطع المتوسط وظهر إلى الوجود مترجماً في عام 1935 على يد دار الطباعة والنشر «مورتشيليانا» في مدينة أبرشيا ويعود الفضل في نقله إلى الإيطالية والتقديم له والتعليق عليه إلى الأستاذ إيدجينو جورداني.

أما مؤلفه فهو كوينتوس سييموس فلورنس تارتوليانوس الذي عاش في القرن الثالث للميلاد بمدينة قرطاجنة وكان أحد المدافعين عن المسيحية والمؤكدين الأشداء لهيمنة الدين على الفلسفة.

ويتقسم الكتاب إلى قسمين:

أولاً: المقدمة وتشتمل على باين.

(1) أعضاء الديانة الجديدة ويتفرع هذا الباب إلى سبعة فصول منها:

الوثنيون - اليهودية - الهرتيون - الخصوصية.

(2) تارتوليانوس ويتفرع إلى تسعة فصول من جملتها:

اعتناقه للمسيحية - كفاحه ضد الدولة الوثنية - المسيح ضد قيصر.

ثانياً: الجدل ضد الوثنية ويشتمل على باين.

(1) الدفاع عن المسيحية ويتفرع هذا الباب إلى تسعة وعشرين فصلاً.

(2) الجدل ضد الهرتقات - حكم أصحاب هذه البدع ويتفرع إلى ثلاثة

وعشرين فصلاً.

أَضَوَاءُ حَوْلِ أَحْقَالِ الْمَجَلَّةِ بَانْتِهَاءِ عَقْدِهَا الْأَوَّلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بمناسبة مرور عشر سنوات على صدور مجلة كلية الدعوة الإسلامية أقامت الكلية ملتقى ضم أساتذة الجامعات والإخوة الذين ساهموا في موضوعات المجلة وقد كان الهدف من ذلك هو معرفة مدى ما وصلت إليه هذه المجلة من تقدم علمي وما استطاعت أن ترسخه من تقاليد جامعية في غضون عشر سنوات من عمرها، وقد شارك في هذا الحفل عدد من الأساتذة من جامعات عربية مختلفة وعدد من الأساتذة من جامعات الجماهيرية، وتحدث عدد منهم في حفل الافتتاح حيث عبروا عن امتنانهم للمستوى الأكاديمي الراقي الذي وصلت إليه المجلة وألحوا على ضرورة الإهتمام بها والعمل على أن يرتقي مستواها كماً وكيفاً، ونظراً لطول هذه الكلمات فإننا سنقتطف بعضاً منها لتنفيذ القراء الكرام بآراء هؤلاء الأساتذة في المستوى العلمي الذي وُضعت فيه هذه المجلة ونظرتهم إليها ومن هؤلاء: الأستاذ

الدكتور علال الغازي من المغرب الشقيقة الذي قال إن المجلة تشكل وجهاً متقدماً ومتوهجاً في فضاء الحداثة المعرفية والمذهبية المعاصرة، يضاف إلى ذلك التزامها بالخط الإسلامي الأصيل والمفتوح معاً في الفكر والأصالة.

وقال إن مجلة كلية الدعوة الإسلامية إلى حد الآن قدمت (272) مقالة في مختلف العلوم الدينية والتاريخية والعلمية البحتة والفلسفة واللغة وأنهى كلمته بقوله: (إن ما تفخر به كلية الآداب بالمغرب احتواؤها أعداداً من مجلة كلية الدعوة الإسلامية).

ثم تحدث الأستاذ الدكتور/ محمد عثمان صالح نائب رئيس جامعة القرآن الكريم بالسودان الشقيقة حيث قال: إن استمرار هذه المجلة التي نحتفل بعقد كامل مرّ على صدورها مناسبة يسعد بها الإنسان، ذلك أننا في العالم العربي قل ما نصبر على أمر حتى يوفي إلى آخره ونحن نريد بهذا النموذج الحي أن نبرهن للعالم أننا على صبر وصمود في مثل هذه الأمور الهامة وهي أمور استمرارية العلم والكتابة وديمومة إخراج ما نكتب وننتج للناس، نريد بالقلم أن نكون أكثر قوة نرمز به لوحدتنا وفكرنا وعقيدتنا حتى إذا ما جاء مثل هذا الحصار المفروض على الجماهيرية والسودان والعراق وغيرهما من البلاد طارت الكلمات المكتوبة بخفة ميسرة تناقلها الناس ووصلت إلى أسماعهم فتعاطفوا معنا وأصبحوا في قضيتنا سواء.

وكان من بين المتحدثين الدكتور محمد خليفة الدناع من جامعة قاريونس الذي قال:

هذه المجلة لؤلؤة في بحر من المعرفة، وقد قطعت شوطاً بعد عشرة أعوام، وهي تمثل عطاء جيل وأعتقد أن وراء هذا العمل سنداً ممثلاً في أساتذة وباحثين وعلماء قد أثروا هذه الأعداد العشرة بمواد علمية موثقة.

وكم كان سروري عميقاً عندما تصفحت مقالات وبحوثاً علمية فيها إحالات إلى هذه المجلة والحقيقة أن هذه المجلة مثلت فكراً إسلامياً يدعو إلى اعتزاز المسلم بعقيدته وتراثه وأصالته وحضارته، ولم يكن الخطاب مباشراً في جميع البحوث والمقالات ولكنه كان خطاباً علمياً موثقاً وهذا واضح من خلال

رد الدكتور محمود التائب على محاضرة لمستشرق حول الإشارات العلمية في القرآن في العدد العاشر، كان الرد حقيقة علمياً إلى أبعد حد، فالحقيقة أن هذه المجلة من خلال المواد التي تحويها تقول لنا سيروا أنتم على خلفية متينة وتسيرون بخطى ثابتة.

ثم تحدث الدكتور إبراهيم عبد الله وفيدة ممثلاً عن الهيئة الاستشارية للمجلة حيث قال إن الاحتفال بهذه المناسبة هو شعورنا بالأصالة والثقة في النفس وشعورنا بأن المجلة هي مجلة الجميع وتستحق أن يحتفل بها الجميع وأن يلتقي بها علماء العرب والمسلمين من أنحاء العالم وما هذه الكلمات التي سمعناها إلا شهادة تقدير واعتزاز بهذه المجلة.

وقال إن هذا المستوى الذي بلغته المجلة في الماضي والذي يجب أن تستمر فيه وأن تكون في المستقبل أثقل منها. وما لهذه المجلة من سعة الصدر، ورحابة الفكر والاتساع للنظرة الموضوعية وعدم التشنج من الأفكار المخالفة والمختلفة هو الذي جعل هذه المجلة مجلة علمية تنحاز للموضوعية وتمثل الفكر النير للإسلام الحقيقي. ولا بد للمجلة التي تريد أن تقدم خدمة للمسلمين أن تكون مجلة الجميع ومتسعة لأفكارهم تتحدث بتؤدة وتناقش بموضوعية وصبر وسعة صدر وهذا ما مثلته هذه المجلة لأنها تصدر عن كلية الدعوة الإسلامية التي تحمل الفكر الإسلامي النير وتتفرع عن جمعية الدعوة الإسلامية التي رسم لها أن تكون جمعية عالمية تتعامل مع المسلمين جميعاً وتتصل بهم.

ثم تحدث الأستاذ محمد فتح الله الزيايدي عن هيئة التحرير حيث ألقى كلمة لخص من خلالها مسيرة هذه المجلة خلال عشر سنوات مضت من عمرها، وحرصاً منا على التأكيد على السياسة التي تتبعها هذه المجلة رأينا أن ننشر الكلمة كاملة لنذكر القاريء مرة أخرى بمسئدافتنا وتوجهاتنا الماضية والمستقبلية.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

الأخ الأمين العام لجمعية الدعوة الإسلامية

الأخ أمين كلية الدعوة الإسلامية

الإخوة ممثلي الجامعات والكليات في الجماهيرية وخارجها

الإخوة الضيوف

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

يسعدنا ويشرفنا أن نلتقي بكم في هذه الأمسية السعيدة، لقاء الأعبة على صعيد العلم والمعرفة لنحتفل بانتهاء العقد الأول من عمر مجلة كلية الدعوة الإسلامية، تلك المجلة التي شرفني الله صحبة نخبة من زملائي أعضاء هيئة التدريس بهذه الكلية بحمل مسئوليتها منذ أن كانت فكرة وإلى الآن. إننا في هذا اليوم المبارك نعتز كثيراً بمقدمكم وتشريفكم لنا لإحياء هذه المناسبة، ونعتبر ذلك دعماً علمياً يدفعنا إلى السير خطوات متقدمة نحو الرفع من قيمة هذه المطبوعة الإسلامية ذات المستوى الجامعي، التي نفتخر بأنها الوحيدة في بلادنا في مستواها وموضوعها. لقد كانت هذه المطبوعة العلمية قبل عشر سنوات فكرة وحلماً تطلع إليه كل عضو هيئة تدريس في هذه الكلية، وذلك لما توفره من فتح آفاق الإبداع العلمي للأساتذة في مختلف تخصصاتهم ولما لها من أثر في ربط أواصر التعارف والتعاون العلمي بين مؤسسات البحث العلمي داخل البلاد وخارجها، ومن أجل ذلك كله بذل الجميع في هيئة التدريس كل ما في وسعهم للدفع بهذه الفكرة إلى حيز التنفيذ، وقد لاقت هذه الأمانني والتطلعات صدى كبيراً لدى لجنة جمعية الدعوة الإسلامية وخاصة أمينها الأستاذ الدكتور محمد أحمد الشريف، الذي نعرف جميعاً أنه أستاذ جامعي وباحث مختص قبل أن يكون مسئولاً إدارياً. وبذلك تحولت هذه الفكرة وبالتحديد سنة 1984 إلى واقع فعلي بظهور العدد الأول حافلاً ببعض الأبحاث والمواضيع التي تمكنا من جمعها وللملحة شتاتها على الرغم من انعدام خبرتنا الفنية في هذا المجال وعدم تقدرنا لما ينطوي عليه مثل هذا العمل من متاعب ومسئوليات جسيمة، أقلها أنه عمل يحمل سمعة الكلية

واسمها ومستواها العلمي . ولكننا لم نأل جهداً في تذليل تلك المصاعب ، واستطعنا أن نضع عدداً الأول في أيدي الباحث والعلماء من الزملاء العاملين في الكليات المناظرة في الجماهيرية وخارجها ، الذين تقبلوا هذا العمل بكل التقدير والمحبّة ، وانعكس ذلك في مهماتهم العلمية التي حفل بها العدد الثاني وما تبعه من أعداد إلى يومنا هذا . ويشهد الله أننا لم نكن نستطيع السير بهذه المجلة كل هذه الفترة لولا ذلك التعاون المثمر البناء الذي لقيناه من زملائنا في الجامعات الليبية المختلفة فلهم منا جميعاً في هذا اليوم السعيد كل الاحترام والتحية والتقدير .

الأخوة الحضور : لقد كان للمساهمة الإيجابية السالفة الذكر أثر كبير في إدخال تطور كمي ونوعي على المجلة ، أدى بها أن تلقى إقبالاً وتقديراً كبيرين من كثير من جامعات الوطن العربي ومؤسساته البحثية ، وكانت هذه نافذة جديدة فتحت أمامنا لتطوير كافة أوجه التعاون العلمي مع كثير من هذه المؤسسات ، مما أدى إلى توفير فرص التواصل الثقافي بين الباحثين والمفكرين العرب والمسلمين ، ومحاربة الكثير من أوجه التضييل والفرقة التي تمارسها أدوات الإعلام الغربي وخاصة بين مثقفي هذه الأمة . وانعكس هذا بصورة جلية في مساهمة الكثير من الباحثين من دول عربية وإسلامية مختلفة ، وبذلك دخلت المجلة في طور جديد ، إذ لم تعد خاصة بالباحثين الليبيين وإنما أصبحت مطبوعة تحمل تطلعات الباحثين المسلمين في كل مكان . وسمعوا لي في هذه المناسبة السعيدة أن أحبي باسمكم جميعاً كل من ساهم في هذه المجلة من الكتاب والباحثين العرب والمسلمين ، من جمهورية مصر العربية والسودان والأردن وسوريا وفلسطين وتونس والمغرب والجزائر والعراق والسعودية واليابان وسيراليون وغيرهم من الباحثين الذين تجدون أسماءهم في هذه المجلة ، فلهم منا جميعاً كل التقدير والاحترام .

الأخوة الحضور : لقد كان للتعاون السالف الذكر محلياً وعربياً وإسلامياً أثره في تطوير هذه المجلة والدخول بها في مرحلة متقدمة تضمنت زيادة عدد أبحاثها وتنوعها من جانب ، واحتوائها لمشروعات بحثية ، وإن بدت صغيرة في

هذه المجلة إلا أنها في مراميها وأهدافها كبيرة جداً وذلك لما تومىء إليه من وجود فراغ كبير في مستهدفات البحث العلمي في الدراسات الإسلامية على مستوى العالم الإسلامي يجب سده، وأقصد من ذلك المشروع الذي فتحت المجلة بابها لاحتضانه وهو ما سمي بالمعارف الإسلامية والذي هو في الأساس من المشاريع البحثية الكبيرة الذي لا يمكن أن تقوم به مؤسسة واحدة أو أن يتكفل به أفراد مهما علت قدراتهم. وإنما هو مشروع بحثي جدير بأن تقوم به دول العالم الإسلامي مجتمعة، ليسد ذلك النقص الذي ملأته دائرة المعارف الإسلامية والتي أنتم على دراية بكتابيها وبأسلوبها. إن هدف المجلة من اهتمامها بهذا الجانب يمثل إشارة قوية إلى ذوي الاختصاص في مؤسساتنا البحثية للتنبيه إلى ضرورة مثل هذا العمل على الأقل لتقديم صورة أقرب إلى الحقيقة عن العالم الإسلامي وقضاياها خاصة في هذا العصر الذي أصبح فيه الإسلام مستهدفاً من كل جانب. ثم جاء المشروع الثاني الذي اهتمت به المجلة وخطت فيه خطوات على الطريق وهو ما عرف بتراجم من الفكر الغربي الذي اهتم بانتقاء صور من الفكر الغربي المقيم للإسلام وترجمتها والتعليق عليها من زاوية علمية محضة، وقد لقي هذا المشروع إقبالاً من كثير من الشباب المتفتح على ثقافة الغرب والتمكن من لغاتها. فصارت ترجمات كثير من النصوص متوفرة لدى المجلة، وتوافق ذلك مع حماس بعض الزملاء المختصين في هذه الكلية وخارجها للتعليق على هذه النصوص، وكون الجميع عملاً علمياً مثل حاجة لكثير من المثقفين والباحثين في هذا المجال، وكان من كثرة هذه النصوص أن ضاقت بها صفحات المجلة في بعض الأعداد، فقررت هيئة التحرير طبعها في كتاب مستقل يحمل عنوان «من قضايا الفكر الإسلامي كما يراها المستشرقون»، وهذا العمل قد يسد فراغاً في المكتبة العربية نأمل أن يعقبه جهد بنفس الروح والمستوى حتى نتمكن من تقديم موسوعة متكاملة لها تساعد في تصحيح الكثير من المناهج التي سادت الفكر الغربي وسببت حتى هذه اللحظة في التقيؤ الخاطئ للإسلام والمسلمين.

الإخوة الحضور: بهذه الروح تتابعت مسيرة مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مستهدفة دوماً تقديم الأفضل إلى طلاب العلم والمعرفة، وباحثة عن الجديد والمفيد في كل الميادين، ولم تكن المجلة أبداً بمنأى عن الأحداث المعاصرة والمتغيرات في عالمنا وخاصة ما تعلق منها بتغير المحورية في ميزان القوى الدولية ليصبح العالم بعدها تحت تأثير محور واحد، ولتتجه الأنظار الغربية إلى الإسلام على أنه العدو البديل للشيوعية. ولذلك وشعوراً منا بهذا الخطر، واستشعاراً لدور المثقفين والمفكرين المسلمين في التصدي لمثل هذه المتغيرات، حاولنا منذ العدد التاسع أن ننبه الباحث إلى أنه قد حان الوقت الذي يوجب علينا الاتجاه إلى طرح مواضيع أكثر حداثة وأكثر استيعالاً ولذلك فإن الكتابة بجميع مستوياتها، بحثاً أو مقالة، شعراً أو نثراً، تعتبر ترفاً ما لم تنتج إلى رفع درجة الوعي بالقضايا المعاصرة عند المسلمين، وعلى أساس ذلك فإننا ندعو بالاحاح جميع الباحثين إلى نقلة نوعية تستثمر قدراتهم العقلية والعلمية في علاج قضايا تخدم ميدان البحث العلمي وتخدم الإسلام وتنقذ الوعي الإسلامي من الزيف والتضليل الذي تمارسه أجهزة الإعلام الغربي.

ونبهنا بوضوح إلى أن هذه الدعوة لا يجب أن تفهم على أنها دعوة للتخلي عن ميادين بحثية تخدم الفكر الإسلامي من قريب أو بعيد، ولكنها يجب أن تفهم على أنها دعوة لتقديم الأهم على المهم وللاشغال بالحاضر خدمة للمستقبل، ومن هذا المنطلق تتابعت الدعوة في المجلة لطرق مواضيع أوسع وفتح آفاق بحثية أرحب، وأذكر هنا بما انتهت إليه افتتاحية العدد العاشر حين قالت: وقد استطاعت المجلة بحمد الله وهي تختم عقدها الأول، وهي أكثر استعداداً للدخول في عقد جديد أن توجد شبكة من العلاقات الاجتماعية بين القراء والباحثين وتوحد بينهم في مختلف الأنحاء، وسوف تواصل بإذن الله الحفاظ على روح البحث الجاد ودعمه وتتطلع في الوقت نفسه إلى آفاق أرحب وميادين أوسع بما ستقدم للقراء من نظرات إسلامية تسهم في بناء عقل المسلم وتزيد في وعيه واضعة في اعتبارها التخلص من رواسب الماضي وتخطي تلك العقبات التي أدت إلى تخلف المسلمين وكانت سبباً في انحسار

حضارتهم مقدرة للمساحة الزمنية حق قدرها ومحقة لأمتنا حصانتها الفكرية المنشودة .

الأخوة الحضور :

هذه هي مجلة كلية الدعوة الإسلامية كما بدت لنا في هيئة التحرير خلال معاصرتنا لعقدنا الأول الذي خلا بحمد الله وتوفيقه من كثير من المشكلات التي تعمق تحقيق مثل هذا العمل فلم تشك المجلة يوماً من أزمة مالية ولم يسجل عليها عيب فني ولم تنزل بمستواها الجامعي عن الشروط والقواعد التي تعارف عليها الباحث والمختصون ، ولذلك فإذا كان هناك من انتقادات توجه إليها فهي كبر حجمها واقتصارها على عدد واحد في السنة بحيث أن الكثير من المختصين في الجامعات والمراكز البحثية المختلفة قد حرموا منها ، وغير ذلك من المسائل التي قررت هيئة التحرير أن تعرضها على اجتماعكم المبارك هذا لتستنير بأرائكم ومقترحاتكم التي نأمل أن تكون دافعاً لنا للدخول في عقد جديد يحقق الآمال والطموحات التي عبرنا عنها سالفاً ، ولا يفوتني في نهاية حديثي هذا أن أسجل أسمى آيات الشكر والتقدير والعرفان للجنة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ممثلة في شخص أمينها الأستاذ الدكتور محمد أحمد الشريف وذلك لما قدم إلى المجلة من دعم مادي ومعنوي لم يكن لها أن تستمر بدونه ، كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى الهيئة الاستشارية للمجلة الحاضرين منهم والغائبين الذين كان لآرائهم وتوجيهاتهم العلمية والفنية الأثر الكبير في تطور المجلة وارتفاع مستواها ، كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى جميع زملائي أعضاء هيئة التدريس بهذه الكلية الذين تابعوا مسيرة هذه المجلة بكل رعاية واهتمام . . .

والله أسأل أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم .

والسلام عليكم ورحمته وبركاته

ثم كانت خاتمة الكلمات ، كلمة الدكتور محمد أحمد الشريف - أمين جمعية الدعوة الإسلامية العالمية :

الأخوة العلماء أبنائي طلبة الدراسات العليا السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يسرني وقد استمعت إلى هذه الكلمات الطيبة من الإخوة الضيوف ومن الإخوة العاملين في هذه المجلة ، أن أحيي بدوري هذا الجهد الكبير الذي قام به إخواني في المجلة وأشكر الذين حضروا هذه الأمسية ، من علماء ممثلين لجامعات في داخل الجماهيرية وخارجها . وأتمنى أن يجتمعنا لقاء في الجلسات العامة والخاصة لتواصل البحث عن الوسائل الأفضل التي تجعل هذه المجلة تسير في طريق خدمة الإسلام والمسلمين .

هذا وقد تواصلت المناقشات العلمية لمدة يومين كاملين تناولت بالتحديد :

1 - الصدور السنوي للمجلة وهل يمكن تخطيه إلى الصدور نصف السنوي أو الفصلي .

2 - الجانب الموضوعي في المجلة .

3 - الجانب الفني .

4 - جانب التواصل مع الجامعات والمؤسسات البحثية المختلفة .

5 - فكرة الأعداد الخاصة .

وقد شارك في هذه المناقشات بالخصوص الأستاذ الصديق يعقوب عضو هيئة التحرير بالمجلة الذي قدم مجموعة من الملاحظات تتعلق بالموضوع وإمكانات التجديد فيه ، وكذلك إمكانية احتواء المجلة لأبواب معرفية جديدة ، ولاحظ الدكتور عبد الإله طاهر من العراق الشقيقة أن الأدب لم يحتل مساحته اللازمة في هذه المجلة ، وقدم الدكتور الصيد أبو ديب من كلية اللغات بجامعة الفاتح مناقشة مطولة حول الجانب الفني للمجلة أوجزها بقوله إن مجلة كلية الدعوة الإسلامية استطاعت أن تحافظ على شخصيتها الفنية الخاصة بها طوال

السنوات السبع الأخرى وأن تحقق نجاحاً ملحوظاً في إبراز هذه الشخصية الفنية بين بقية المجالات، وتلا هذه المداخلة الدكتور عبد الله الشريف أستاذ التوثيق والمعلومات بجامعة الفاتح الذي قال: إن هذه المبادرة تعتبر الأولى من نوعها حيث تقرر هيئة تحرير مجلة علمية عقد هذا المؤتمر لأخذ آراء الباحثين في مستواها العلمي، ولاحظ أنه يجب العمل على إصدار كشاف بالمؤلف والعنوان والموضوع للأعداد السابقة، وأشار إلى ضرورة أن يكون للمجلة رقم دولي لأنها تحمل صبغة العالمية، وضرورة أن تخصص باباً للتعريف بالرسائل العلمية وبالكتاب الإسلامي والمخطوطات المتوفرة بالجامهيرية، ثم تحدث الدكتور حيدر خوجلي من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان الشقيقة حيث أكد على المستوى الرفيع للمجلة الأمر الذي دفع جامعة أم درمان لاعتمادها في مجال التحكيم للتدقيق لدرجة الماجستير والدكتوراه، واقترح إضافة بعض الأبواب التي تهتم بواقع المسلمين في العالم المعاصر.

هذا وقد وعدت هيئة التحرير الأخوة الباحثين والعلماء المشاركين في هذه الندوة العلمية بالعمل على أن تكون ملاحظاتهم وتوصياتهم محل احترام وتقدير واهتمام ابتداء من العدد القادم إن شاء الله تعالى. وفي الختام تحدث بعض الأساتذة عن المجلة ومسيرتها بلغة الشعر حيث ألقى في الندوة مجموعة من القصائد نختار منها التالي:

قصيدة الأستاذ سعيد فاندي من جامعة السامع من أبريل بالجامهيرية الذي قال: «وفاء للمجلة التي نشرت بعض أعمالي أتقدم إليها بهذه القصيدة»:

هنيئاً للمجلة بالتجلي	وللإعلام بالعلم الرصين
مضت عشر كعقد من نضار	تألق فوق جيد مستبين
به غرر من القرآن تسمو	وسنة أحمد طه الأمين
وأبحاث يلوح الصديق فيها	كل إشراق البراءة في العيون
فلا غمط هناك ولا غلو	ولا إعجاب ذي رأي مهين
بل الإخلاص يغمر كل عقل	رشيد كاشف غيم الظنون
فهذا يوم عيدك فاستنيري	خذي العهد الموثق باليقين

بأن تتبوثي متن المعالي
وشمسك لن يكون لها مغيب
ودعوتك الرشيدة سوف تذكي
فبثي جوهرأ في كل عام
فإنني عاشق صفحات نور
فأنت جهينة في كل خير
مجلتنا أراك كتاب صدق
قلادة حكمة ووشاح هدي
حرورك في قراطيس المعاني
وينبوع البلاغة سلسبيل
فلا جفت ربوع أنت منها
وأردى كل من يبدو عليها
وزاد الله تكريماً وفضلاً

على أقلام أصحاب اليمين
وعمرك سوف يزكو بالسنين
قلوب المسلمين فلا تبيني
مع أنني يعذبني حنيني
يعذبه انتظار كل حين
ونبراس إلى الخبر اليقين
وروضاً للعقول وللعيون
على صدر الحضارة والفنون
نجوم في ذرى الأفق المبين
وغيث الفكر كالمزن الهتون
وقاها الله في حصن حصين
ولقاه المهانة بالمنون
لأهل العلم في بلد أمين

ثم تلاه الأستاذ حسن مسعود الطوير الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية الذي قال بعد حمد الله أن قصيدته محاولة باسم أعضاء هيئة التدريس أحاول أن أضع بها العقد على صدور الذين أوفوا بالعقد في نهاية عقد هذه المجلة.

لك في تمام العقد خير وسام
جئناك والأشواق تسبق خطونا
ما أنت أوراق تلوح لقارىء
ما أنت في عين الرشاء مجلة
ما أنت إلا نفحة روحية
صفحاتك الغراء يغمر نورها
هدي يضيء فتستبين سبيلنا
وجمعت شمل الباحثين فأغدقت
هم بين كاشف سر أعجزت
أو مظهر غرر البيان ومسعف

فتزييني يا روضة الأقلام
والعطر يعبقنا مع الأنسام
بل أنت إشراق من الإسلام
بل جذوة في ظلمة الأيام
وهدية في منبر الأعلام
أرواحنا بالبشر والإلهام
بالذكر والفكر الرشيد السامي
ملكات من جبلوا على الإكرام
قراءها بالنظم والإحكام
بالنحو من لحن ومن إعجام

أو ناشر تاريخ أعظم أمة
ساروا على نهج الحقيقة وارتوا
قد صار يجمع بينهم فكر سما
وإذا تعددت الطرائق بينهم
ليست مجلتهم دعاية فرقة
ليست مجلتهم لنصرة مذهب
ليست مجلتهم سحابة صائف
صفحاتها ومذاها ويراعها
آثارها مشهورة وعلومها
كلماتها أنشودة وحروفها
إن المقالة صدقها أرصادها
كم كاتب خدع العقول فأصبحت
كلمات حق في الجهاد كتبتها
هذا الذي أضفى عليك مهابة
خفضت لك العلياء طرف جناحها
واستأنسي بالمخلصين ولجنة
وترعري في الأرض شعب ناهض

راياتها في المجد كالأعلام
من نبعها والحق ورد الظامي
عن ظلمة الشبهات والأوهام
يتجاذبون النقد دون خصام
بل دعوة للحق والإسلام
بل منبر للعلم والإعلاء
بل إنها غيث من الإنعام
للباحث المستلهم المقدم
مبثوثة كالزهر في الأكام
تنساب في الأرواح كالأنغام
لامزجها باللبس والإيهام
كلماته صماء كالأصنام
ومقالة الصديق كالصمصام
فغلت كقرن عشرة الأعوام
فثبي إليها واصعدي بسلام
دأبت على الإنصاف والإحكام
أبناءؤه رد لكل همام

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...



تفتح المجلة صفحاتها بين الفينة والأخرى لبعض الأعمال الطلابية التي ترى أسرة التحرير أنها جديرة بالتشجيع والرعاية سواء كانت شعراً أو نثراً وذلك من أجل بث روح التنافس الشريف بين الطلاب في الكلية أو في فروعها المختلفة واستفادة من كل الأعمال التي نرى أنها تحقق نفعاً في أي جانب من جوانب المعرفة. وفي هذا العدد نعرض قصيدتين لطالبتين من طالبات فرع الكلية في دمشق إحداها في مدح الرسول ﷺ والأخرى في مدح حقل الدعوة ومن اختارها طريقاً للعمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

وكتاب ربي بيننا قواما	حاتم نلهم عن الهدى حتاماً
لم نجني إلا النطق والأنعاما	حاتم والآيات تُتلى أسطراً
والحق يشكو ضيعة وظلاما	حاتم ننعم في ملذات الدنيا
يكفي الورى أمية وخصاماً	يا أمة الإسلام هل من صحوة

يا أمة القرآن هل من عودة
سيرى على درب الرسول محمد
هيا أعيدي الحق في أثوابه
وتجدلي همماً تشع حضارة
لتنكبر الجزواء في أجوائنا
لما أتى هذا الوجود محمد
مُدَّت على الجنيات عزة كوزنا
وترتل الذكر الحكيم مواقفاً
حفظوا كتاب الله في أخلاقهم
فتخرَّج الأبطال من ساحاتهم
وغَدُوا جميعاً في القلوب أجبَّة
ذِيَّكَ حمزة بالدماء مُضْرَجاً
أم ذا أبو بكر سما لما أتى
سأل الرسول فكم تركت لِعَلَّةِ
حسبي الإله كذا الرسول وحسبهم
وهناك حارثة الفتى رجلاً غداً
أصبح أنظر للإله بعرشه
وكثيرة تلك المواقف جَمَّة
لله دُرٌّ يا معلِّم أمة
تلك النساء بهمة الشبان قد
مالي أرى وجه الحبيب مهللاً
فأجابها إنني رأيت مواكباً
قالت فهل تدعُ الإله لأن أكن

حسب الخطأ أمنية وكلاماً
ثم اشمخي في العز أي مقاما
كم ضاع مجدك يا هدى أياما
الآفة حازت ندى بساما
البطل يوم والرشاد دواما
كرمت به الأكوان أي مراما
وتجدل المجد الأصيل غماما
أحييت كتاب الله والإسلاما
لم يعرفوا كلاً ولا إحجاما
فقهاً وعلماً إن شدوا ووثاماً
لا فرقة لا حقد لا آثاماً
وهناك سعد بالهداية قاما
بجميع ماله خاشعاً قواماً
النصف يكفي صل به الأرحاماً
بسبيلك اللهم لست مُلاماً
لما أجاب المصطفى تهماً
فأجابه وصل الفتى وتسامى
وأصيلة في الصديق لا أوهاماً
أحمد أنت الحبيب إماماً
خاضت غمار الحرب والآلاما
نادت رسول الله أم جراما
من امتي تلج البحار كراما
معهم أجيد السعي والإقداما

فأجابه ومن الأوائل أنتَ في
وتحقّق الوعد الذي وُعدتَ به
وهناك في وسط اللهيب نسبة
أم أم سلمة مستشارته التي
ورأى الصحابة شعره متناثراً
فكفاك فخراً يا خديج لك العُلا
وكفى النساء سعادة في شرعة
عذراً أيا دين المكارم والعُلا
ليس الهدى أن ندعي الإسلام من
حسبك يا دين الحضارة مُدعى
ونسوا نداءك للحياة وللُعلا
باركتهُ عرق الحياة مُصبباً
بمساجد التقوى ينير قلوبنا
في الليل رهبان نهيب لربنا
علّم ولو في الصين نرشف كأسه
ما أجمل الإسلام إن نحظن به

وفد الدعوة أميرة تتسامى
وبقبرص قبر الأميرة قاما
تحمي الرسول إزاءه وأماما
قالت لتحلقن يا حبيب إماما
فتبادروا وتحللوا الإحراما
وكفاك فخراً فاطمٌ ووساما
سعد الجميع بظلمها وتسامى
فلقد عنا جهل الرورى وتعامى
طرف اللسان ونهجر الأفهاما
لقباً خملاً ذلّةً ومناماً
ديناً ودنيا خاشعاً وهماماً
وأثيب فيك العاملون مقاماً
ومصانع العليا نشيد كراماً
ومن الغداة نواكب الإقداما
والقلب شعّ هداية وسلاماً
حياً نقياً طاهراً بساماً
شعر: تغريد خطاب

كلية الدعوة الإسلامية

فرع دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

1 - لذ بالكريم تر السبيل ممهدا
واصمح بصوتك داعياً وموحدا
أخلص، وأقبل عاشقاً وملبياً
حتى ينير العشق قلبك واليداً
غرد وطهر بالمديح قلوبنا
فبمدح طه كل شيء غردا

جدد بدعوتك الحياة وقصدها
الله عظم في جليل بيانه
أوتاد ميراث الحبيب محمد
ركب الدعاة سبيل كل موفق
هي دعوة عز الأنام طريقها
هي دعوة أنى حللت عبيرها
وابن الأمين أمينها ودليلها
زكى النفوس برافة ومحبة
فالقلب دون شرابهم في غفلة
والركب لولا المخلصون بمحنة

جرد، تجرد، رق أمسك والغدا
من بالدعاة العاملين قد اقتدى
ما خاب من تبع الحبيب محمدا
طوبى لمن في ركبهم قد أسعدا
قبطانها . . نحو المعالي سدا
يهب العقول تألقاً، وتوقدا
نهج السبيل معلماً، ومجددا
وسقى الجموع بكفة كي تسعدا
والعقل لولا هديهم لتبلدا
كالكون، لولا أنشمر فيه تجمدا

المهندسة/ سميرة الحمادي
خريجة كلية الدعوة الإسلامية

رسائل جامعية

الدراسات العليا بكلية الدعوة الإسلامية

إعداد: محمد أولاد الزميتة

لقد تم منذ تأسيس قسم الدراسات العليا بكلية الدعوة الإسلامية سنة 1988 بشعبه الثلاث: شعبة الدعوة والإرشاد، شعبة اللغة العربية وآدابها، شعبة القرآن الكريم وعلومه. مناقشة سبع رسائل علمية في التخصص العالي (الماجستير، وهي كالآتي:

1 - الرسالة الأولى

للطالب محمد بسام رشدي الزين سوري الجنسية وعنوانها:

منهج القرآن الكريم في عرض قضايا العقيدة.

إشراف الدكتور: سالم مرشان.

وقد نوقشت بتاريخ 1992/7/20.

وقد تناولت هذه الرسالة منهج القرآن الكريم في عرض العقيدة الإسلامية من خلال محور «الألوهية» أو مبحث التوحيد: الوجود، والوحدانية

والصفات. غير أنه وإن جرتِ الباحث الاستدلال بآراء بعض المتكلمين والفلاسفة، فإن هذه الآراء تعد عنده ثانوية، وليست مصدراً أصلياً لإدراك وحدانية الله. فالقرآن هو الأصل والمنبع ويعمل المؤلف رأيه في المسألة في النقاط التالية:

1 - إن الاهتداء بالمنهج القرآني في معرفة الله يعصم الأمة من الوقوع في الفرقة ويجنبهم الخلاف.

2 - إن اتباع المنهج القرآني هو إعادة القرآن إلى مركز الصدارة في معالجة العديد من القضايا التي تتعلق بالتوحيد والشرك.

3 - إن العودة إلى أصول المنهج القرآني، كفيلة بالتصدي إلى الإنكار الاستشراقية والمذاهب الهدامة التي تنشذ المذهبية والفرقة.

2 - الرسالة الثانية

للطالب عبد السلام أحمد راجح، سوري الجنسية، وعنوانها:

دليل الخطاب وأثر الاختلاف فيه في الأحكام الشرعية.

إشراف الدكتور: فاتح زقلام.

وقد نوقشت بتاريخ: 1993/1/25.

تطرق الباحث في أطروحته لدليل الخطاب وأثر الاختلاف فيه في الأحكام الشرعية، عارضاً لما يشتمل عليه هذا الخطاب مبيناً ومفصلاً لحججه. وشروط العمل به مختتماً بأثر الخلاف في حجية دليل الخطاب على الفروع الفقهية.

وانتهى فيه إلى التأكيد على حجية مفهوم المخالفة في الأخذ به دليلاً شرعياً ودليلاً أصولياً في استنباط الأحكام الفقهية.

3 - الرسالة الثالثة

وهي للطالب عبد الحميد محمد صبحي بي، سوري الجنسية وعنوانها:

منهج ابن كثير في التفسير بين الرواية والدراية.

إشراف الدكتور أحمد عمر أبو حجر.

وقد نوقشت بتاريخ 31/3/1993.

استعرض الباحث في هذه الأطروحة منهج ابن كثير في تفسيره للقرآن بين علم الرواية وعلم الدراية. وحصر ذلك في مباحث محدودة تناولت ما يلي:

- 1 - اعتماد ابن كثير في تفسيره للقرآن على القرآن.
- 2 - لجوء ابن كثير إلى السنة النبوية الشريفة في تفسيره للقرآن الكريم.
- 3 - وقوع ابن كثير في الإسرائيليات في أثناء تفسيره لبعض الآيات القرآنية.
- 4 - نقد الطالب للإسرائيليات.
- 5 - مكانة الرأي في تفسير ابن كثير.

4 - الرسالة الرابعة

لبسام داوود عجبك سوري الجنسية وعنوانها:

الحوار الإسلامي المسيحي

إشراف الدكتور الصادق عبد الرحمن الغرياني

وقد نوقشت بتاريخ 21/4/1993م

تناول الباحث في هذه الرسالة الأسس الجوهرية للحوار الإسلامي المسيحي طبيعته وأهدافه وأغراضه، مع ذكر سلبيات هذا الحوار وإيجابياته، وفيما يلي أهم الجوانب التي تطرق لها البحث:

- 1 - موقف الشريعة تجاه المسيحية والمسيحيين
- 2 - تاريخ بدء الحوار الإسلامي المسيحي.
- 3 - ضعف أدلة المسيحيين في الدفاع عن عقيدتهم.
- 4 - وحدة الأديان دعوة ذات أبعاد خطيرة. ومن السلبيات والإيجابيات التي عرض لها البحث:
- أ - السلبيات.
- أن يكون الحوار لغرض الدعوة للعقيدة المسيحية.

- أن تتدخل السياسة في مسألة الحوار .
- وقد فند الباحث مثل هذا النوع من الحوار .
- ب - ومن الإيجابيات :
 - أن يتخذ الحوار الإسلامي منهجاً جاداً في نشر الدعوة الإسلامية .
 - أن يكرّس الحوار وحدة الشعور بين المسلمين والمسيحيين .
 - أن يكون الحوار للقضاء على الإلحاد والخروج عن الدين .
 - أن يبرز الحوار الصورة المشرقة للإسلام ويقضي على المغالطات التي غرسها المغرضون من المستشرقين وغيرهم من الحاقدين في نفوس الغرب .

5 - الرسالة الخامسة

- للطالب محمد ربحان ناسوتيون أندونيسي الجنسية : عنوانها
 إندونيسيا بين الحملات التنصيرية والدعوة الإسلامية من منتصف القرن
 العشرين حتى أواخره
 إشراف الأستاذ : محمد فتح الله الزيايدي .
 وقد نوقشت بتاريخ : 1993 / 7 / 20 .
- سلطت هذه الرسالة الضوء على الحركة التنصيرية في أندونيسيا ابتداءً
 من الخمسينيات إلى وقتنا الحاضر ، والسبل الكفيلة بالتصدي لها ، كما عرض
 لجهود الدعوة الإسلامية ، وموقف الحكومة الأندونيسية من المنظمات
 التنصيرية . وكان من أهم النتائج التي توصل إليها الباحث :
- 1 - أن المسيحية دخلت إلى أندونيسيا تحت مظلة الاستعمار البرتغالي
 والهولندي .
 - 2 - أن المسيحية انتشرت بشكل واسع بين الأندونيسيين وذلك لتغاضي
 الحكومة الأندونيسية عن أعمال تلك الحركات التنصيرية .
 - 3 - يرجع نجاح المنظمات التنصيرية في أندونيسيا إلى اعتمادها على
 مصادر مالية ضخمة .
 - 4 - لمقاومة الحركات التنصيرية أنشأ المسلمون في أندونيسيا مؤسسات

تعليمية إسلامية في محاولة للوقوف ندأ في وجه المؤسسات التنصيرية .
5 - قام الطالب بدحض الفرضية التي شاعت وهي أن أندونيسيا مستحول
إلى المسيحية عام 2000

6 - الرسالة السادسة

للطالب علاء الدين محمود زعتري: سوري الجنسية وعنوانها:
النقود وظائفها الأساسية وأحكامها الشرعية.
إشراف الدكتور: يوسف أحمد الثلب.
وقد نوقشت بتاريخ: 1993/10/6.
عرض الباحث في رسالته لتطور النقود عبر التاريخ الإسلامي. وقد قسم
بحثه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تحدث فيه عن تاريخ النقود.
القسم الثاني: تكلم فيه عن الوظائف الأساسية للنقود.
القسم الثالث: اختص بالأحكام الشرعية للنقود الورقية.
وكان من أهم النتائج التي توصل إليها الباحث ما يلي:
1 - أن نظرة الإسلام إلى المال هي نظرة تتجاوب مع الفطرة السليمة
للفرد.

2 - أن أول من أضفى على النقود الصبغة الإسلامية، هو عمر بن
الخطاب رضي الله عنه.

3 - أن الإسلام أرسى القواعد الاقتصادية لاستقرار قيمة النقود.

4 - يرى العلماء المسلمون أن النقود الورقية ليست بسندات دين. ولا
عرضاً من عروض التجارة.

7 - الرسالة السابعة

للطالب محمد عمر أولاد الزميتة بعنوان:
نظرة المستشرقين الفرنسيين إلى مسلمي المغرب.

من القرن 16 إلى 1930م.

إشراف الدكتور عبد الحكيم الأريبد.

وقد نوقشت بتاريخ 5/6/1994.

حاول الباحث في هذه الدراسة استكناه موضوع الاستشراق الفرنسي في الشمال الإفريقي ببلاد المغرب الأقصى، في العهد الاستعماري وما قبله بداية من القرن السادس عشر إلى الثلاثينيات من القرن العشرين. وضمن ذلك في أربعة محاور رئيسة:

- 1 - محور: الرحالة الفرنسيون بالمغرب.
 - 2 - محور: المؤسسة الاستشرافية بالمغرب.
 - 3 - محور: الأمازيغ والنظرة الاستشرافية.
 - 4 - محور: موقف المثقفين في المغرب العربي (ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب) من الاستشراق الفرنسي والاستشراق عامة.
- ومن خلال هذه المحاور توصل الباحث إلى النتائج التالية:
- 1 - أن الاستشراق مؤسسة أيديولوجية سياسية.
 - 2 - أن اختراق المغرب واستعماراه ساعد المستشرقين على أن يقوموا بدور بارز في بث سمومهم.
 - 3 - اتضح أن الأطروحات الاستشرافية كانت أطروحات واهية لا سند علمياً لها.
 - 4 - أن الأمازيغ عرب مسلمون لم تنطل عليهم فكرة الانتماء إلى العرق الآري أو غيره.
 - 5 - استمرار الأطروحات الاستشرافية الفرنسية في ترديد المقولات الأيديولوجية في وقتنا الحاضر عند الأمازيغ وعند شعوب منطقة الشمال الأفريقي.



نعي الدكتور أحمد الفنيش

رزئت أسرة العلم في بلادنا في الأسابيع القليلة الماضية أحد أبنائها البررة وأحد رجالها الفاضلين هو الفقيه الدكتور/ أحمد علي الفنيش الذي اخترمه الموت ولم يكد يجاوز الخمسين من عمره.

فلقد ولد، رحمه الله، سنة 1940 م بطرابلس التي نشأ فيها وتلقى فيها تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي ثم إنه التحق بكلية الآداب ببغداد وتخرج سنة 1964 من قسم الفلسفة والاجتماع.

وبعد سنة من التدريس بمعهد المعلمين عين معيداً بكلية المعلمين العليا فالتحق بإحدى الجامعات الأمريكية حيث نال شهادتي الماجستير والدكتوراه، ثم عاد إلى أرض الوطن فاشتغل بالتدريس والتأليف فصدرت له كتب عديدة.

نذكر منها:

أصول التربية.

استراتيجية التربية.

التربية الامتصاصية.

المجتمع الليبي ومشكلاته .
التربية بين المجتمع والجامعة .
استراتيجية التربية الاستقصائية .
الأسس النفسية للتربية .
استراتيجيات التدريس .

ولقد تقلد المرحوم كذلك عدة وظائف بجامعة الفاتح فتولى أمانة قسم التربية وعلم النفس بكلية التربية ثم أمانة اللجنة الشعبية بهذه الكلية ثم أصبح سنة 1976 م أميناً مساعداً للجامعة .

لقد كان ، رحمه الله أثناء ذلك كله مثالاً للجد والإخلاص في عمله والحنو على طلابه في الدراسات الجامعية والعليا ، الذين ظل يتابع أعمالهم ويشرف على بحوثهم ، مغالباً المرض إلى أن أتاه اليقين .

رحل الدكتور أحمد علي الفنيش فبكاه طلابه وزملاؤه ولقد رأت أسرة مجلة كلية الدعوة الإسلامية وهي تنعي الفقيد إلى قرائها الكرام أن تنشر قصيدة الدكتور عبد المولى البغدادي الذي بلغه نبأ المصاب وهو بمالطا فبعث من وراء البحار بما جاشت به نفسه من لواجع الحرقه والحسرة ، فكانت القصيدة التالية .

الفقيد الراحل: الدكتور أحمد فنيش

أحقاً أخي سعدون مات رفيقنا
وأعدتكم الأكفان واللحد وحدكم
فقل لي : أخي كيف السبيل إليكم
وهل لي بأن أرتادَ عبرك مشهداً
لأشهد عن بُعد جنازة (أحمد)
وأسكب آلامي بساحل غريتي
لمن أطلب السلوان بعدك يا أخي

وبعد سُوِّعَات تُوارونه قبراً
ولم يبق لي غيرُ التحسُّر والذكرى
ومن بيننا الأمواج تفترس البحرا
مهيباً حزيناً يعجز النثر والشعرا
تحف بها الأعناق ذاهلة حيرى
لتخترق الأجواء ، لا تعرف الحظرا
الأسرة الصغرى أم الأسرة الكبرى

لقد روع الموت الرهيب كليهما
فما من يد إلا وجن جنونها
ذووه وأهلوه: المرثون كلهم
صفاء على اسم الله وحد بينهم
وابناؤه: أكبادنا كم تعلقت
ومنزله: ما قام للعلم منزل
ونبراسه الوضاء: حرف مقدس
ومن أين؟ من كل البقاع، لأنه
وماذا يقول الشعر والموت شاخص
كأننا جميعاً ما خُلِقنا لغاية
أيا راحلاً ما كنت يوماً مجافياً
شقيت ولم تشق الزمان وأهله
سُئمت حياة أرهقتك بحملها
وأطلقت للروح العنان مخلفاً
وغادرت في يوم حزين ربوعنا
وآثرت صمتاً في الحياة وربما
وعلمتنا أن الحياة قصيرة
وبالعلم تُبنى للشعوب حضارة
وتكبر أحجام الرجال بعقلها
وما المرء لولا نعمة العلم والحجى
ألا ليت عُشاق الحروب تعلموا
ولم يقتلوا طفلاً رضيعاً ولا أباً
إذا العلم والأخلاق لم يتصالحا
فكم كنت ترجو السلم لا عن تخاذل
ولست بناس ما حييت مشاهداً

فمن هي أولى بالعزاء من الأخرى
وقد شدت اليمنى على أختها اليسرى
فمن منهم من لم يفارق أخاً برا
وحب لذات الله شدوا به أزرا
بخير أب أهدى لأبنائه العمرا
بكل ربوع تعشق العلم والفكر
ينير به طوراً ويبني به طورا
يعم الرى والبید والسهل والوعرا
يخلق في الأحياء يرمقهم شزرا
سوى الموت يالله ما أضيع العمرا
ولم تعرف الإعراض أو تُضمّر الهجرا
وغبت ولم تكشف لعوراته ستر
فرافقتها قسراً وفارقتها قسرا
وراءك أكباداً مسخرة حزى
كنورس بحر لم يجد بيننا وكرا
ذكرنا مآسينا فلم نحسن الذكر
ولكنها بالحب تستغرق الدهر
وتُهدم أخرى إن أدارت له ظهرا
وتصغر إن لم تكبر العقل والفكر
سوى زهرة صماء لا تمنح العطر
فلم يهتكوا عرضاً ولم يُحدثوا دُعرا
ولم يزرعوا لغماً ولم يفرضوا حظراً
فلن يجلبا خيراً، ولن يدفعا شرا
ولكنه السلم الذي يحمل النصرا
وجدناك فيها بيننا الشائر الحزرا

تجادل بالحسنى لجمع شتاتنا
وكم كانت الآمال تبدو وتختفي
وحملتها كُرْها فضقت بحملها
وقفت بها لا تستطيع تحركاً
وكيف أناجيه وأروي حديثه
وإن مجال الشعر ضاق بأهله
وفي النفس ما لا أشتهي أن أقوله
يموت المربي حسرة كل لحظة
هو الفارس المجهول في كل ساحة
نقيم له نصباً ونملاً صدره
يروي سواه واللقى في عروقه
وتنفق آلاف الملايين باسمه
(لقد كان يرجو القوت لا مؤمناً به
يموت ويحيا شامخاً فوق أرضه
ولا زال جندياً بأشرف ساحة
وإني وإن أرثي عزيزاً فقدته
فلست - وإن أجهدت نفسي - بمُدّع
ولا زاعم أنني أدانيه رتبة
ولكنها أنفاس حزن تصاعدت

وتسكب في الأسماع ما يثلج الصدرا
وكم كنت في الميدان تستطلع الأمرا
وعانيت من ويلاتها الذل والقهرا
كأنك بين الصخر تسترشد الصخرا
وأقطف من شتى بساتينه الزهرا
فمن لا يجيد المدح لا يحسن الشعرا
وإن لم يكن أمراً غريباً ولا سرا
ولم يظهر العصيان أو يبطن الغدرا
نكيد له سرّاً ونكبره جهرا
وروداً وأزهاراً وتُسكنه قبرا
ويعطونه تريباً فيمنحهم تبراً
وتحسده الأيام إن جاوز الصفرا
فظنوه يرجو المستحيل أو الكفرا
وإن أكل الأقدام أو شرب الحبرا
وإن عانق الحرمان والذل والفقرا
وأسكب من نبع الأسى أدمعاً حرّى
رثاء يضاهيه المكانة والقدر
ولا قائل أنني أحيط به خُبرا
شموعاً من الأعماق في هذه الذكرى

عبد المولى البغدادي

مالطا - 1994 / 2 / 8

أُسُسُ التَّقْوِيمِ لِأَبْحَاثِ الْمَجَلَّةِ

تمر الأبحاث والمقالات الواردة على المجلة بمرحلة التقويم والنقد، وفيها تحال الأعمال المقدمة لها إلى مقوم متخصص في الموضوع المراد نقده؛ على أن يكتب رأيه صريحاً في إحدى الصور التالية:

- 1- موافقة للنشر بدون ملاحظات.
- 2- موافقة مع ملاحظات يرى تعديل البحث على أساسها.
- 3- رفض للبحث مع ملاحظات تفسيرية.

يعود البحث إلى صاحبه في الحالتين الأخيرتين لتعديل بحثه وفقاً لما يراه سديداً من ملاحظات المقوم، وله رفض الملاحظات برد علمي آخر يدحض فيه ردود ذلك المقوم ويوضح مواطن الزلل في نقده.

يحال البحث في حالة اختلاف الباحث والمقوم وإصرار كل منهما على رأيه إلى حكم من درجة علمية أعلى تكون له مهمة ترشيح البحث للنشر أو عدمه، على أن يكون لهيئة التحرير رأياً في تقويم البحث بحسب المعايير التي وضعتها لقبول المواد المنشورة⁽¹⁾.

مع ملاحظة أن المقوم لا يعرف اسم الكاتب ولا العكس حتى يكون النقد موضوعياً في جميع الأحوال، وإننا لنأمل - مع ذلك - أن يلتزم المقومون النزاهة ولين القول في نقد الأعمال المقدمة لهم، كما نرجو من الكتاب أن يعتبروا ما يجدونه من ملاحظات على أبحاثهم سبيلاً من سبل إثراء البحث ودليلاً على أهميته.

(1) انظر الصفحة الأولى من الغلاف الأخير في كل أعداد المجلة.



**BULLETIN OF
THE FACULTY OF**

The Islamic Call

ELEVENTH YEAR

Correspondence To:

Socialist People's Libyan Arab Jamahiriya - Tripoli
FACULTY OF THE ISLAMIC CALL
P.O. Box: 71771 - Tel: 800045
1 Libyan Dinar or equivalent



Bibliotheca Alexandrina



0799717